

غوستاف فلوپير

ترجمة الدكتور محمد مندور

مدام بوفاري



دار الآداب

غوستاف فلوبير

مدام بوفاري

ترجمة:

د. محمد مندور

دار الآداب - بيروت



مدام بوفاري
غوستاف فلويبر/روائي فرنسي
طبعة عام 2009
ترجمة د. محمد مندور
ISBN: 978-9953-89-116-3

All rights in Arabic language reserved to Dar al Adab. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق باللغة العربية محفوظة لدار الآداب. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
ص.ب. 11 - 4123
بيروت - لبنان
هاتف: (03) 861632 - (01) 861633
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
website: www.adabmag.com
facebook: dar al adab

اهداء المؤلف

الى

ماري انتوان جول سينار

عضو نقابة المحامين بباريس ، والرئيس السابق
للجمعية الوطنية ، والوزير السابق للداخلية

ايها الصديق العزيز النابه :

اسمح لي بأن أسجل اسمك في صدر هذا الكتاب ، وأن أتوج به
الاهداء ، إذ أنني مدين لك – قبل أي انسان آخر – بنشره . فبفضل
دفاعك المجيد ، اكتسب كتابي هذا في نظري الخالص من الأهمية فوق
ما كنت أرجو وأتوقع ..
فتقبل هنا تحية اعترافي بالجميل .. تحية لن تبلغ قط – مهما تكن –
مستوى بلاغتك واخلاصك .

جوستاف فلوبيير

باريس في ١٢ ابريل سنة ١٨٥٧

القسم الأول

الفصل الأول

كنا في حجرة الدراسة ، عندما دخل الناظر يتبعه تلميذ جديد لا يرتدي الزي المدرسي ، وفراش يحمل قطراً كبيراً ، فاستيقظ من كان نائماً ، وانتصب كل منا واقفاً ، وكأنه فوجيء على حين غرة برقيب على عمله !

وأشار إلينا الناظر بالعودة الى الجلوس ، ثم التفت الى المدرس قائلاً في صوت خفيض : « مسيو روجيه .. هذا تلميذ أوصيك به . لقد التحق بالسنة الخامسة ، ولكن اذا بدا عمله وسلوكه مرضيين فسوف ينقل الى الفرق العليا التي تناسبه » .

وفي الزاوية الواقعة خلف الباب ، حيث لا يكاد يرى ، لاح التلميذ الجديد . كان عملاقاً ريفياً في نحو الخامسة عشرة من عمره ، أطول قامه منا جميعاً . وكان شعره منسقاً ومستوياً فوق جبهته ، كمغني القرية ، وقد ظهر عليه التحفظ والارتباك . وبالرغم من انه لم يكن عريض المنكبين ، فان سترته الخضراء ذات الأزرار السوداء كانت تضايق جركاته ، وقد انحسر كماها عن معصميه اللذين ألفا العري .. كما كانت قدماه - اللتان يكسوهما جوربان أزرقان - تبرزان من بنطلون أصفر ، تشده الحالة شداً قوياً .. وفي طرفيها حذاءان سيئا التلميع ،

تنتشر فيها المسامير بكثرة ملحوظة .

وبدأ اختبار التلاميذ فيما لديهم من دروس ، فأخذ التلميذ الجديد ينصت اليهم بكل جوارحه ، وكأنه يصغي إلى موعظة في الكنيسة ، دون ان يجسر حتى على ان يضع ساقاً على ساق ، او ان يتكئ بمرفقيه على القمطر !.. وعندما دق الجرس في الساعة الثانية ، اضطر المدرس الى ان ينبهه كي يتخذ مكانه في الصف !

وكان من عادتنا ، إذا ما دخلنا حجرة الدرس ، ان نلقي بقلنسواتنا أرضاً ، كي تتحرر ايدينا لأداء الصلاة .. فكنا نقذف بها تحت المقاعد بمجرد بلوغنا عتبة الباب ، وبقوة تجعلها تصطدم بالحائط فتثير كثيراً من الغبار .. وكانت هذه الحركة من «الاصول المرعية» التي نتباهى بها ! غير ان التلميذ الجديد لم يلاحظ هذه الحركة ، او لعله لاحظها ولكنه لم يجرؤ على اتباعها .. فانتهت الصلاة وقلنسوته ما تزال على ركبتيه . وكانت قلنسوة من طراز معقد ، تجمع بين «الطاقية» ذات الوبر ، و «اللبدة» ، والقبعة المستديرة ، وقلنسوة الفراء ، والطاقية القطنية !.. وبالجملة ، كانت من تلك الأشياء المزرية التي يحمل قبحتها الصامت من التعبيرات العميقة ما يحمله وجه الأبله !.. كانت بيضاوية ، يرفع جوانبها هيكل مضلع في داخلها يكسبها الشكل المنتفخ ، وتبدأ بثلاث كريات صغيرة ، تتلوها قطع من المخمل ومن فراء الأرنب على شكل « المعين » الهندسي ، يفصل بينها شريط أحمر .. ويعقب ذلك شيء يشبه الكيس ، ينتهي بقطعة من الورق المقوى متعددة الأضلاع ، تكسوها رقعة مطرزة بأشرطة معقدة الأشكال ، ويتدلى منها حبل طويل جد رفيع ، في نهايته صليب صغير من خيوط مذهبة يشبه «الشرابة» ! .. كانت قلنسوة جديدة ذات حافة براقه !

وقال الأستاذ للفتى : « قف ! » فوقف . وسقطت القلنسوة ، فانفجر التلاميذ جميعاً ضاحكين ، بينما انحنى هو فالتقطها ، ولكن جاره

أسقطها مرة أخرى بضربة من مرفقه ، فعاد الفتى الى التقاطها من جديد . وكان المدرس حاضر النكته ، فقال له : « تخلص يا أخي من خوذتك ! » .

وانطلق التلاميذ في ثورة من الضحك المجلجل ، أربكت الفتى المسكين ، حتى لم يعد يدري أحتفظ بقلنسوته في يده ، أم يلقياها على الأرض ، أم يضعها على رأسه .. وأخيراً ، جلس ووضعها على ركبتيه . وعاد الأستاذ يقول له : « قف .. ما اسمك ؟ » .. وتتم التلميذ الجديد باسم غير مفهوم ، فهتف الأستاذ : « أعد ! » .. وكرر التلميذ المقاطع ذاتها ، في نمتة طغت عليها قهقهة زملائه جميعاً .. فصاح الاستاذ : « ارفع صوتك ! .. ارفع صوتك ! » .

واستجمع التلميذ الجديد كل عزيمته ، وففر فاهماً مترامياً الأبعاد ، وعباً رثيتم قذف باسم « شار بوفاري » وكأنه ينادي شخصاً ! وانفجر التلاميذ في ضحيج صاحب ، حاد ، مضطرب .. فأخذوا يصيحون ، وبنبحون ، ويدقون الأرض بأقدامهم مرددين : « شار بوفاري .. شار بوفاري ! » ، في نغمت مسترسلة ، لم تكن تهدأ - بعد مشقة بالغة - الا لتعود في ناحية من حجرة الدراسة ، او في صف بأكمله من صفوف التلاميذ ، تتخللها - هنا وهناك - ضحكة مكتومة ، كصاروخ لم يتخذ بعد تماماً ..

وأخيراً ، عاد الهدوء الى حجرة الدراسة رويداً ، بعد وابل من العقاب ، وتمكن الاستاذ من التقاط اسم « شارل بوفاري » ، بعد ان طلب الى صاحبه ان يوضحه كتابة ، وهجاء ، وتلاوة ! .. ثم أمر المسكين بأن يذهب فيجلس على « مقعد الكسالى » تحت حافة المنصة مباشرة ، فشرع صاحبتا يتحرك . بيد أنه تردد قبل ان يبرح مكانه ، فسأله الأستاذ : « عم تبحث ؟ » . وأجاب التلميذ الجديد وهو يتلفت حوله بنظرات قلقة :

« قلنسو .. » .. ولم يتم كلمته ، اذ انفجرت العاصفة من جديد ، فصاح الأستاذ في غضب هادر : « على كل منكم ان ينسخ خمائة بيت من الشعر » . وكانت صرخته أشبه بصيحة « نبتون » - اله البحار - التي أطلقها متوعداً الرياح إذ ثارت دون أمر منه ، على ما جاء في الأساطير !.. وما لبث ان أضاف وهو يجفف جبينه بمنديل أخرجه من بين ثيابه رداً المهلهل : « كفى !.. الزموا السكون ! » .. ثم التفت الى التلميذ الجديد قائلاً : « اما انت ، فعليك ان تنسخ لي عبارة « انا مضحك » عشرين مرة .. ثم أردف في صوت اكثر رقة : « لسوف تجد قلنسوتك ، فان أحداً لم يسرقها ! »

وعاد كل شيء الى هدوئه ، وانحنت رؤوس التلاميذ فوق الأدراج ، بينما ظل التلميذ الجديد ساعتين في جلسة مثالية ، وان أخذت تنطلق - بين وقت وآخر - كرة من الورق الملوث بالمداد لتلطخ وجهه . وكان يمسح المداد بيده ، ويستأنف جلسته بغير حراك ، وهو منكس البصر !

وفي حجرة الاستذكار - في المساء - أخرج من درجه الكمين الأسودين اللذين يلبسان لصيانة كمي السرة وقت العمل ، ورتب أدواته البسيطة ، وأنجز في عناية كتابة العبارة التي فرضها عليه الأستاذ كعقاب ، ثم عكف على عمله في اخلاص ، باحثاً في القاموس عن جميع الكلمات ، غير مدخر جهداً . ولا شك ان هذه الارادة الطيبة هي التي حالت دون نقله الى فرقة دراسية أدنى من التي ألحق بها !.. ومع انه كان ملماً بقواعد اللغة الى حد ما ، الا انه لم يؤت رشاقة التعبير ، فقد كان قس قريبته هو الذي بدأ تلقينه اللاتينية ، اذ أرجأ أهله ارساله الى المدرسة أطول فترة ممكنة ، اقتصاداً للنفقات !

• • •

كان أبوه « شارل دني بارتلومي بوفاري » مساعد جراح سابق في الجيش ، تورط في بعض المسائل المتصلة بالتجنيد في سنة ١٨١٢ ، واضطر الى ترك الخدمة . بيد انه كان قد وفق في استغلال مواهبه الشخصية، فظفر بصداق - «دوطة» - قدره ستون ألفاً من الفرنكات، حملته اليه ابنة صاحب مصنع للقبعات عشقت هيئته !.. فقد كان فارح القوام ، يحسن التهريج والشنشة بمهازيه ، وقد أرسل لحية متصلة بشاربيه ، واعتاد ان يزين أصابعه دائماً بالخوانم ، وان يتخير للملابسه الألوان الصارخة !.. وكان له مظهر الرجل الشجاع ، مع خفة المندوب الكثير الأسفار . وقد ظل يعيش - بعد الزواج - عامين او ثلاثة على ثروة زوجته ، ينعم بالغذاء الطيب ، ويستيقظ متأخراً ، ويدخن في غلايين كبيرة من الخرف ، ويتردد على المقاهي ، ولا يعود الى منزله في كل مساء الا بعد ان تغلق المقاهي أبوابها . حتى اذا مات والد زوجته ، أحقته ان الرجل لم يخلف ثروة تذكر ، فحاول ان يدبر المصنع من بعده ، لكنه خسر بعض المال ، فأثر الانسحاب الى الريف حيث حاول ان يعمل في الانتاج الزراعي .. غير أنه لم يكن اكثر دراية بالزراعة منه بالصناعة .. وكان يمتطي الخيل بدلاً من ان يرسلها للحرث، ويشرب النبيذ بالزجاجة بدلاً من ان يبيعه بالبرميل ، ويأكل خير ما في حظيرته من دواجن ، ويؤثر حذائي الصيد بشحم خنازيره ، فلم يلبث ان تبين ان من الخير له ان يتخلى عن استثمار ما بقي له من مال .

واستطاع ان يجد في احدى القرى المتاخمة لمقاطعتي (كو) و (بيكاردي)، مسكناً - يشبه دور الفلاحين بقدر ما يشبه دور السادة - مقابل مائتي فرنك في العام ، فاحتبس فيه نفسه منذ كان في الخامسة والاربعين من عمره ، وقد استبد به الغم ، وأخذ الندم ينهشه ، وراح يسب القدر ، ويحسد الناس ، ويعلن انه قد ستم البشر أجمعين .. وقرر ان يعيش في هدوء !

وكانت زوجته في البداية مدلحة في هواه ، فأبدت له من مظاهر الاستكائة والخضوع ما زاده منها نفوراً !.. وكانت في فجر شبابها مرحة ، منطلقة ، تفيض نفسها حباً ، فأمت بمضي الأعوام عصبية المزاج ، كثيرة الصياح ، نائرة .. وكأنها النيذ الذي تخلخل غطاء دونه فاستحال الى خل !

كانت قد تحملت أشد الآلام في بادئ الأمر ، دون ان تشكو من جريه وراء عاهرات القرية ، ليعود اليها في المساء - بعد ان تلفظه عشرات المواخير - وريح الخمر تهب منه !.. فلما ثارت كبرياؤها ، لم تملك سوى ان تكتم الغضب في صدرها ، ولاذت بنوع من الصمت الفلسفي لازمها حتى الموت !.. وكانت دائمة الحركة ، تذهب الى موثقي العقود ، وتسعى الى العمدة ، وترقب مواعيد استحقاق الصكوك فتسعى لارجاء دفعها واستمهال الدائنين .. أما في البيت ، فكانت تنهمك في الكي والحياكة والغسيل ، وتراقب العمال ، وتقدمهم أجورهم .. في حين لم يكن السيد يعبا بشيء ، بل كان يستغرق في اغفاء عابس واجم ، لا يفتيق منه الا ليوجه اليها عبارات جارحة ، ثم ينصرف الى التدخين بجوار المدفأة ، باصفاً بين الفينة والفينة على رمادها !

وعندما أنجبت طفلاً ، اضطرت الى ان تعهد به الى مرضعة .. حتى اذا عاد « المحروس » الى ابويه ، أسرفا في تدليله كما لو كان أميراً ، فكانت الأم تغذيه بالحلوى والمربي .. وكان الأب يتركه يرتع حافي القدمين ، ويتعلل - متفلسفاً ! - بأن طفله قادر على ان يظل عارياً كصغار الحيوانات !.. وكان الأب - على العكس من اتجاهات الأم - يتخيل في ذهنه صورة لما ينبغي ان تكون عليه رجولة الطفل ، فحاول - لتحقيقها - ان ينشئ ابنه نشأة خشنة على غرار الطريقة «الاسبرطية» .. فكان يرسل الطفل الى الفراش دون مآنار تدفئ حجرتة ، ليقوي بنيتة ! وكان يعود على تناول جرعات كبيرة من « الروم » ، وينقنه السخرية

من الطقوس الدينية !.. بيد ان الطفل كان هادئاً بفطرته ، فلم يستجب لهذه التوجيهات .

وكانت امه تجره خلفها دائماً ، وتصنع له من الورق المقوى لعباً ، وتروي له القصص ، وتؤثره بأحاديث لا نهاية لها ، يمتزج فيها المرح بالكتابة والمناجاة والتدليل . وفي تلك العزلة التي كانت تعيش فيها ، صببت في مخيلة الطفل كل ما كان يخالج نفسها من طموح مشتت ، كانت تطمع في ان ترضي به كبرياءها المحطمة .. كانت تحلم له بأرفع المناصب ، وتصوره وقد كبر ، وغداً جميلاً ، حاضر البديهة ، متربهاً في احدى مناصب مصلحة الطرق والجسور ، او في احد مراكز القضاء . ومن ثم تولت تعليمه القراءة ، ولقنته اغنيتين او ثلاثاً، كانت تعزف له الحانها على معزف قديم تملكه .

على ان مسيو « بوفاري » . لم يكن يحفل كثيراً بالثقافة ، فلم ير في كل هذه الجهود شيئاً ذا قيمة .. كان كل ما يعنيه هو التفكير فيما اذا كان سيقدر لها يوماً ان يجدا ما يكفل لها تعليم الطفل في مدارس الحكومة ، او ما يمكنها من ان يتاعا له مكتباً او متجرأ . وكان - فوق ذلك - يعتقد ان الانسان يستطيع ان ينجح في الحياة .. بالصفقة !.. أما مدام « بوفاري » فكانت تعض شفيتها حنقاً ، وهي ترى ابنها يتسكع في القرية .. اذ كان يحلو للطفل ان يتبع المزارعين في حرثهم وان يطارد الغربان بالطوب ، وان يقتطف الثوت من فوق الاشجار ، ويرعى الديكة الرومية بقصبة طويلة ، ويتولى في اوقات الحصاد ، تقليب الحزم لتجف ، ويرتع في الغابة ، ويلعب « الحجلة » في فناء الكنيسة في الايام المطيرة !.. وكان يتوسل الى خادم الكنيسة ليتركه يندق الاجراس في الاعياد الكبيرة ، فيتعلق كل جسمه بالحبل الضخم ، وينعم بالاحساس بنفسه محمولاً على الهواء والحبل يتأرجح به ! وهكذا نشأ الصبي نشأة طبيعية ، كشجرة البلوط .. فأوتي يدين

قويتين ، ولوناً بديعاً !

واذ بلغ الثانية عشرة من عمره ، ألحت امه في ان يبدأ دراسته ، فتمهده قس القرية ، غير ان الدروس كانت من القصر وعدم الانتظام بحيث لم يكن يرجى منها نفع كبير .. فقد كان القس يلقنه هذه الدروس في مخزن الكنيسة ، كلما سنحت له فرصة عابرة بين صلاة تعמיד وصلاة جناز ! .. وكان الطفل يتلقاها وهو واقف على قدميه .. بل ان القس كان يرسل في استدعاء تلميذه - في بعض الأيام - عقب فراغه من صلاة الغروب ، اذا لم يكن لديه ما يدعو للخروج .. فكانا يصعدان الى حجرة القس ، ويجلسان للدرس على ضوء مصباح يحوم حوله الذباب وفراشات الليل .. وكان الجو الحار يغري الصبي بالنوم ، كما يغفو القس ويده فوق بطنه ، فلا يلبث ان ينبعث الغطيط من فمه المفتوح ! .. كذلك كان القس أثناء عودته من تقديم البركة لأحد المرضى في قرية مجاورة يلتقي أحياناً بشارل وهو يتسكع في الحقل ، فيدعوه اليه ، ويقضي ربع الساعة في وعظة تحت شجرة ، ثم ينتهز الفرصة ليحمله على تصريف الفعل الذي كلفه باستذكاره .. وكثيراً ما كان يقطع عليها الدرس سقوط المطر ، أو مرور أحد المعارف . وكان القس - بعد ذلك - يبدي رضاه عن الصبي .. بل انه كان يقول ان له ذاكرة قوية !

ولم يكن لشارل ان يكتفي بهذا القدر من الدراسة ، اذ كانت امه قوية في اصرارها على تعليمه .. ولم يشأ الوالد ان يقاوم ، اذ غلبه الخزي ، او - بالأحرى - التعب . ولكنها تربثاً عاماً آخر ، ربثاً يتاح للصبي ان يتناول « القربان المقدس » الأول في حياته . وما ان انقضت ستة أشهر على ذلك ، حتى تقرر نهائياً ارساله الى مدرسة (روان) ، وصحبه ابوه بنفسه في اواخر شهر اكتوبر ، ابان موسم « القديس رومان » .

• • •

يستحيل على أحد منا ان يتذكر الآن شيئاً عن « شارل بوفاري » .. على انه كان عادي المزاج والطباع ، يلعب في فترات الفراغ ، ويستذكر في الحجرة المخصصة لذلك ، ويصغي بانتباه في حجرة الدرس ، وبأكل في المطعم ، وبنام في « العنبر » .. شأن أي تلميذ آخر ! .. وكان ولي أمره في (روان) تاجراً يبيع الحديد والحردة بالجملة ، في شارع (جانتييري) . وقد اعتاد ان يسمح له بالخروج من المدرسة في يوم واحد من أيام الآحاد في كل شهر . فكان يفد - بعد ان يغلق متجره - ليصحبه الى النزهة ومشاهدة السفن في الميناء ، ثم يعود به الى المدرسة في الساعة السابعة ، قبيل موعد العشاء . وفي مساء كل يوم خميس ، كان الصبي يكتب لأمه خطاباً طويلاً بالمداد الأحمر ، يغلفه جيداً ، ثم يستذكر دروس التاريخ ، أو يقرأ في كتاب قديم - عن رحلة « أنا كارسيس » - يعثر به مهملاً في غرفة الدرس . كما كان يحلو له - أثناء « الفسحة » ان يتحدث الى الخادم الذي كان من ابناء الريف مثله !

واستطاع بفضل اجتهاده ان يحتفظ دائماً بترتيب متوسط بين تلاميذ الفرقة . بل انه وفق مرة الى الحصول على جائزة في التاريخ الطبيعي . بيد ان والديه ما لبثا ان سحباه من المدرسة ، وهو لم يزل بعد في الفرقة الثالثة ، ليحملاه على دراسة الطب فقط ، اذ كانا يؤمنان بقدرته على ان يستكمل دراسته دون ما معونة !

واختارت له امه حجرة في الطابق الرابع من منزل يطل على ترعة (روبيك) ، عند رجل من معارفها يشتغل بالصباغة . وبعد ان دبرت أمر اقامته ، حصلت له على بعض أثاث تمثل في منضدة ومقعدين ، كما أحضرت من دارها سريراً قديماً من خشب الكريز . وابتاعت قرص مدفأة من الحديد الزهر ، وكمية من الأخشاب لتدفئة صغبرها المسكين ! .. ثم رحلت في نهاية الاسبوع ، بعد ان أزجت اليه مئات الوصايا بأن يحسن

السلوك ، بعد ان غدا طليقاً بغير رقيب .

على ان « شارل » كاد يصعق ، حين رأى برنامج الدراسة في لوحة الاعلان .. كانت هناك دروس في التشريح ، ودروس في علم الأمراض (الباثولوجيا) ، ودروس في علم وظائف الاعضاء (الفسيوأوجيا) ، ودروس في الصيدلة (الفارماكوبيا) ، ودروس في الكيمياء .. وفي النبات .. وفي التشخيص، والعلاج .. عدا علم الصحة، وعلم الطب ... أسماء كان يجمل اشتقاقاتها ومعانيها جميعاً ، فبدت له كأبواب هياكل تكتنفها الظلمات !

ولم يفهم من هذه الدروس شيئاً !.. بل انه لم يستطع - رغم اصغائه في انتباه تام - ان يدرك لها مغزى ! . وكانت لديه كراسات مجلدة واطب على تدوين دروسه فيها باجتهاد ، ولم يتخلف يوماً عن الطواف بأسرة المرضى في المستشفى .. كما كان يؤدي واجباته اليومية على نحو ما يفعل حصان الطاحونة ، ان يدور في مكانه وهو معصوب العينين ، لا يعرف عن نوع الحبوب التي يسخر لطحنها شيئاً !

وكانت امه ترسل اليه في كل اسبوع قطعة من اللحم المشوي ، فكان يتناول منها غداءه - اذا ما عاد من المستشفى - وهو جالس ينقر الحائط بحذائه .. ثم لا يلبث ان يعود الى الدروس في قاعة الجراحات أو « عنابر » المستشفى . حتى اذا أفل النهار ، عاد الى داره سالكاً الطريق الطويل عبر البلدة ، فيتناول ما يقدمه له صاحب المنزل من عشاء هزيل ، ثم يصعد الى حجرته ليعكف على الاستذكار أمام المدفأة ، والبخار يتصاعد من ملابسه المبللة ..

وفي أمسيات الصيف الجميلة ، حين تقفر الطرقات الحارة من المارة، وتلهو الخاديات بكرات من الفلين أمام الدور ، كان « شارل » يفتح نافذته ، ويتكئ بمرفقيه على حافتها ، ليطل على الترع ، التي تجعل من هذا الحي من أحياء (روان) ما يشبه مدينة (بندقية) صغيرة ،

متواضعة . وكانت الرعة تناسب تحت بصره بين القناطر والأسوار ،
تتعرض على صفحاتها الألوان الصفراء ، والبنفسجية ، والزرقاء .. وقد
جثا العمال على حافتها يغسلون أذرعهم بمائها ..

وعلى أسطح المنازل المقابلة ، كان يرى صفائر غزل القطن وقد
علقت الى عصي طويلة لتجف . وخلف تلك الأسطح ، كانت السماء
الصفافية تمتد ، والشمس تجرر أذيالها نحو الغروب .. لكم كان الجو يبدو
له جميلاً ، والهواء منعشاً ، في ظلال الأشجار ... فكان يفتح طاقتي
انفه بشدة ، ليجتذب على البعد روائح الريف التي لم تكن ترمى اليه !
وأخذ جسمه ينحف ، وقده يستطيل .. واكتسى وجهه وجوماً ساجياً
اضفى عليه شيئاً من الجاذبية .. وبدأ حماسه للدرس يفتر ، فكان من
الطبيعي ان يتحلل من العهود التي قطعها على نفسه .. وكان ان تقاعس
يوماً عن المرور لتفقد المرضى بالمستشفى .. وفي اليوم التالي تخلف عن
احدى المحاضرات .. وشيئاً فشيئاً ، استساغ الكسل حتى انتهى به الأمر
الى الانقطاع عن الدروس تماماً ! .. وادمن ارتياد المقاهي ، وشغف بلعب
« الدومينو » .. وخيل له ان في احتباس نفسه هكذا ، كل مساء ،
في حانة قدرة ، حيث يقرع رخام المناضد بقطع « الدومينو » المصنوعة
من عظام الخراف وقد حفرت فيها نقط سوداء .. خيل اليه ان في هذا
العمل مظهراً للحرية يرفع من تقديره لنفسه ! .. كان هذا - في نظره -
مقدمة للحياة الدنيا ، وسبيلاً الى اللذات المحظورة .. فكان يشعر عندما
يضع يده على مقبض الباب - بعد عودته الى غرفته في المساء - بنشوة
تكاد تشبه اللذة الحسية .

وتفتحت نفسه عن اشياء كثيرة كانت مكبوتة ، فحفظ عن ظهر
قلب بعض الأغنيات التي كان يستقبل بها الزائرات ، وتحمس لبرامجيه ،
مؤلف الاشعار الغنائية .. وتعلم كيف يمزج انواع الكحول .. واخيراً ،
عرف الحب !

وبفضل هذه الأعمال التحضيرية ، كان رسوبه في الامتحان شنيعاً ،
بينما كان والداه يرتقبانه في دارهما ليحتفلا بنجاحه !

• • •

وعاد « شارل » سائراً على قدميه ، حتى اذا بلغ مدخل القرية ،
توقف وارسل في طلب امه ، وقص عليها ما اصابه . فالتمنت له
الاعذار ، وعزت رسوبه الى ظلم המתحنيين ، وأولته بعض التشجيع ،
أخذة على عاتقها تدبير الامور !.. ولم يعلم مسيو « بوفاري » بالحقيقة
الا بعد خمس سنوات .. وكانت قد فقدت جدتها ، فتقبلها في تسليم ،
وان لم يتصور ان من الممكن ان يكون في سلالة ابن خائب !
على ان « شارل » تحول الى الجد مرة اخرى ، فاقبل يراجع دروسه
بغير توان ، واستظهر جميع المواد ، ففاز في الامتحان النهائي بدرجة
لا بأس بها .. وما كان أسعد امه يوم نجاحه !.. فلقد أولت يومذاك
وليمة كبيرة !

والآن .. ترى اين يياشر مهنته ؟.. أفي (توست) ؟.. لقد كان
هناك طبيب طاعن في السن تتوقع مدام « بوفاري » موته منذ امس
طويل ، فلم يترث « شارل » حتى يودع الشيخ الحياة ، بل استقر
في مواجهته كخليفة له !

ولكن الأمر لم ينته بتربية الابن ، وتعليمه الطب ، واتخاذ (توست)
مقراً يزاول فيه مهنته .. اذ كان لا بد له من امرأة !.. ووجدت له
امه الزوجة المنشودة .. ارملة احد محضري (ديب) .. لها من العمر
خمس واربعون سنة ، ومن الدخل الف ومئتا فرنك !

ومع ان مدام « دوبيك » هذه كانت دميمة ، عجفاء كالوتد ،
تملاً البثور وجهها كما تنتشر البراعم في الاشجار في فصل الربيع ، الا

ان فرص اختيار الزوج كانت واسعة امامها ، مما حدا بالأم « بوفاري » الى ان تجاهد كي تتغلب على الساعين للفوز بيدها !.. وبالفعل ، استطاعت ان نجبط الأعيب قصّاب كان رجال الدين يؤازرونه !

وكان « شارل » يخال ان الزواج سيمكته من تحسين حاله ، فيغدو اكثر حرية وقدرة على التصرف في شؤونه الشخصية والمالية . بيد ان زوجته لم تلبث ان غدت صاحبة الأمر والسلطان ، حتى لقد كانت تملي عليه ما ينبغي ان يقول امام الناس وما يجب ان يمتنع عن قوله !.. وفرضت عليه ان يصوم ايام الجمعة ، وان يرتدي من الثياب ما تحب هي .. وان يلح في مطالبة العملاء الذين لا يدفعون اتعاباً !.. بل انها كانت تفتح خطاباتنه ، وتراقب حركاته ، وتسرق السمع خلال ثقوب الباب ، اذا ما حضرت الى العيادة بعض السيدات لاستشارته !

وفضلاً عن هذا ، كانت في حاجة الى كوب من « الكاكاو » كل صباح ، والى انواع من الرعاية لا حصر لها .. وكانت دائمة الكوى من اعصابها ، وصدرها ، ومفاصلها !.. يؤذيها وقع الأقدام .. وتثقل عليها الوحدة اذا غادرها .. فاذا سمى احد الى جوارها ، ظنت انه لم يأت الا ليشهد احتضارها !.. وكانت اذا ما عاد « شارل » في المساء ، تخرج من تحت اغطية الفراش ذراعيها العجفاوين لتطوق رقبتة.. وما ان يجلس على حافة الفراش ، حتى تنطلق تبت همومها : فهو ينساها ، ويجب غيرها !.. ولقد تنبأوا لها بأنها ستشفى !.. ثم تنتهي من فيض الهموم والهواجس الى ان تسأله زجاجة من دواء يقوي صحتها.. وقدراً اكبر من الحب !!

الفصل الثاني

حوالي الساعة الحادية عشرة من احدى الليالي ، استيقظ « شارل » وزوجته وخادمهما على وقع حوافر جواد مسرع : لم يلبث ان وقف امام باب دارهم . وفتحت الخادم نافذة المخزن ، وتبادلت حديثاً قصيراً مع رجل كان تحت النافذة .. واذا انبأها بأنه حضر لاستدعاء الطبيب ، وانه يحمل رسالة اليه ، هبطت درجات السلم وهي ترتجف من البرد ، وفتحت الأقفال ثم رفعت المزاليج تبعاً .

وترك الرجل جواده ، وسار خلف الخادم مقتحماً المخدع دون انتظار . ثم اخرج من قلنسوته الصوفية ذات « الشرايات » الرمادية ، رسالة ملفوفة في اطواء قطعة خلقة من القماش ، وقدمها بأدب الى « شارل » الذي انكأ بمرفقيه على الوسادة ليقراها ، بينما وقفت «نستازي»-الخادم- الى جوار السرير تحمل الضوء .. ودفع الحياء زوجة الطبيب الى ان تظل مولية وجهها نحو الحائط ، وظهرها اليهم ..

وتضمن الخطاب - الذي كان مغلقاً بخاتم صغير من الشمع الأزرق- رجاء ضارعاً الى السيد « بوفاري » كي يبادر فوراً الى مزرعة (برتو) ليجبر ساقاً مكسورة .. وكانت المسافة بين (توست) و (برتو) تزيد على ستة فراسخ ، في طريق زراعي تمر بكل من (لونجفيل)

و (سانتا فيكتور) . وكان الليل حالكاً ، والسيدة الزوجة تخشى ان يحل بزوجها اي مكروه . لذلك استقر الرأي على ان يرحل الرسول . ثم يتبعه « شارل » بعد ثلاث ساعات - حين يشرق القمر - على ان يوفد الرجل غلاماً للقائه فبرشده الى المزرعة ، ويرفع ما قد يكون في طريقه من حواجز .

وفي نحو الساعة الرابعة صباحاً ، بدأ « شارل » رحلته الى (برنو) ، متدثراً بمعطفه . ولم يكن قد تخلص تماماً من سلطان الكرى ودفء السرير ، فترك دابته تحمله في خطوات هادئة تؤرجحه .. حتى اذا وقفت من تلقاء نفسها عند الحفر المحاطة بالاشواك - التي كان الفلاحون يحفرونها على حدود المزارع - استيقظ من اغفائه منتفضاً ، وتذكر صاحب الساق المكسورة ، فأخذ في استعراض كافة انواع الكسور الي عرفها .

وما لبث المطر ان كفّ عن السقوط ، واخذ النهار يدنو .. وعلى غصون اشجار التفاح العارية ، وقفت العصافير جامدة ، وقد نفشت ريشها لرياح الصباح الباردة . وكان الربف يمتد على مرمى البصر ، ومجموعات الاشجار المحيطة بالمزارع تبدو كبقع بنفسجية داكنة على الفضاء الرمادي الشاسع الذي كان يختلط عند الافق بظلمة السماء ..

وكان « شارل » يفتح عينيه بين الفينة والفينة ، فلا يلبث النعاس ان يغلبه ، ويستسلم لسنة حاملة يختلط فيها حاضره بذكرياته .. حتى لقد خال لنفسه شخصتين في وقت واحد : فهو طالب ، وزوج معاً .. وهو نائم على فراشه كما كان منذ هنيهة ، ثم هو يجوس في قاعة الجراحات كما كان يفعل ايام الدراسة .. واختلطت في رأسه رائحة العقاقير بأريج الحضرة الندية ، وبخفيف حلقات الستائر وهي تنزلق على قضبان السرير . وزوجته تغط في نومها !

واذ بلغ (فاسونفيل) لمح فتي صغيراً يجلس على العشب ، عند حافة حفرة ..

وهتف الغلام اذ رآه : « أنت الطبيب ؟ »

واذ أجابه « شارل » ، خلع الغلام نعليه وامسك بهما بين يديه . وانطلق يعدو امامه ليرشده الى الطريق .

وادرك الطبيب من دايله اثناء سيرهما ، ان ساق مسيو « روو » - الذي كان ولا بد من اثرياء المزارعين - قد كسرت مساء اليوم السابق ، وهو عائد من حفل لدى احد جيرانه ، وان زوجة هذا السيد قد توفيت منذ عامين ، وليس له الا ابنة تساعده في شئون المنزل .

وتخللت الطريق آثار عجلات اخذت تزداد عمقاً اذ اقتربا من (برتو). وما لبث الغلام ان اختفى خلال فرجة في سياج المزرعة ، ليعود بعد هنيهة الى الظهور عند نهاية السياج ، فيفتح الباب .. وسار الحصان وحوافزه تنزلق على العشب المبتل .. واحنى « شارل » رأسه ليتجنب الأغصان .. واذا دخل الضيعة ، اخذت كلاب الحراسة تنبح وتشد السلاسل التي تربطها الى مأويها ، فأجفل الجواد في فزع شديد ..

كانت ضيعة بديعة .. ومن خلال الابواب المفتوحة ، كانت ثمة خيول ضخمة للحرث تأكل مطمئنة في مزاود جديدة .. بينما تكدست على طول الجدران اكوام السماد التي تتصاعد منها الأبخرة .. وبين الدجاج والديكة الرومية ، بدت خمسة طواويس او ستة تلتقط الحبوب ، وينم مظهرها على انها حقيفة مفخرة حظائر مقاطعة (كو) .

اما حظيرة الاغنام فكانت طويلة ، والمخزن عالياً مصقول الجدران .. وتحت المظلة ، كانت ثمة عربتان كبيرتان ، واربعة محارث كاملة بأسواطها ، واطواقها ، وسروجها التي اتسخ كساؤها الصوفي الازرق ، لفرط ما كان يتساقط عليها من غبار المخازن .. وكان الفناء يرتفع تدريجياً ، وقد تخللته اشجار غرست على ابعاد منتظمة .. ومن ناحية

البحيرة ، انبعثت اصوات الاوز .

ولاحث لدى عتبة باب المنزل سيدة شابة في ثوب من الصوف محلى بثلاثة افواف (كرانيش) ، فاستقبلت السيد « بوفاري » وقادته الى المطبخ ، حيث كانت ثمة نار كبيرة يغلي فوقها طعام الفطور ، في قدور من جميع الاحجام .. والى احد جانبي المدفأة ، كانت ثمة ملابس مبتلة نشرت لتجف على الوهج .. وبدت المجرفة وقابضة الجمر والمنفاخ ضخمة الحجم ، تلمع كالصلب المصقول ، بينما رصت على طول الجدار ادوات للطهو كثيرة العدد ، انعكس عليها لهب الموقد ، تحالطه طلائع اشعة الشمس التي اخذت تنساب خلال زجاج النوافذ .

وما لبث « شارل » ان صعد الى الطابق الاول من الدار ، ليرى المريض ، فألفاه في فراشه ينضح بالعرق تحت الغطاء ، وقد ألقى طاقيته القطنية جانبا ..

كان رجلاً بديناً ، قصيراً ، في الخمسين من عمره ، ابيض البشرة ، ازرق العينين ، اصلع مقدم الرأس ، ويزين أذنيه بقرطين !.. وعلى مقعد قريب منه كانت ثمة قبينة خمر اخذ برفعها الى فمه بين الفينة والفينة ، ايشد من عزمه ، ويرفع من روحه المعنوية !

ولم يكد الرجل يرى الطبيب حتى خفف من هياجه .. وبدلاً من ان يمضي في سيل الشتائم التي كان يطلقها بسخاء منذ اثنتي عشرة ساعة ، تحول يثن ازيناً خافتاً ..

وكان الكسر بسيطاً ، لم تصحبه اية مضاعفات .. بل ان « شارل » لم يكن يطمع في كسر اسهل منه !.. وتذكر لفوره مسلك اساتذته بجوار اسرة الجرحى ، فأخذ يشجع المريض بكل ما يعرفه من الكلمات الطيبة .. وبما تعلمه عن الجراحين من موااساة لطيفة تشبه الزيت الذي يدهنون به مباحضهم (مشارطهم) !

واخذ اهل المريض يبحثون في المخزن حتى جمعوا حزمة من السدادات

الخشبية ليتخذوا منها جبائر ، فتناول شارل واحدة منها شقها الى قطع عكف على صقلها بلوح مكسور من زجاج النوافذ ، بينما كانت الخادم تمزق بعض الملاعات ليتخذوا منها اربطة .. والآنة « اما » - ابنة الرجل - تحيك وسادات صغيرة .. وكانت قد اضاعت وقتاً طويلاً في البحث عن صندوق ادوات الحياكة، فلما استحثها والدها لم تجبه بينت شفة، وانما اقبلت على الحياكة .. وكانت كلما شكت الابرة اصابعها ، ترفع هذه الاصابع الى فها وتمصها !.. واعجب « شارل » ببياض اظافرها اللامعة ، الدقيقة الاطراف .. كانت اكثر نضوعاً من عاج (ديبب) ، وقد قصت على شكل اللوز !.. على ان يدها لم تكن - رغم ذلك - جميلة ، ولعل بشرتها كانت اقل صفاء ممسا ينبغي ، كما كانت بادية الجفاف عند مفاصل الاصابع .. كانت يداً مسرفة في الطول ، يعوزها شيء من ليونة الثني !.. ولكن جمال الفتاة كان يتركز في عينيها العسليتين اللتين كانت اهدابهما تضيء عليهما صبغة السواد .. واللتين كانت تنبعث منها نظرات توحى للمرء بالصراحة المشوبة بالسذاجة الجريئة !

واذ انتهت عملية التجبير ، دعا سسيو « روو » الطيب الى بعض الطعام قبل رحيله ، فهبط « شارل » الى بهو الطابق الارضي ، حيث أنفى المسائدة معدة لشخصين ، الى جوار سرير كبير ذي غطاء من قماش محلى برسوم تمثل اشخاصاً من الاتراك . وكان المكان يتضوع بشذى زهر السوسن . وقد بدت بعض الملاعات النظيفة في صوان من خشب البلوط في مواجهة النافذة .. وفي الاركان ، رصت جوالات الخنطة التي ضاقت بها جنبات المخزن المجاور المتصل بالبهو بثلاث درجات حجرية ..

وكان يزين البهو رأس لميرفا^١ رسم بالقلم الاسود . واحيط باطار

١ الهة الحكمة عند القدماء .

مذهب كتب تحته بالحروف القوطية : « الى أبي العزيز » .. وقد
علقت الصورة الى مسبار في وسط الحائط الذي تساقط طلاؤه الاخضر
بفعل الرطوبة .

* * *

وجلست الفتاة الى المائدة مع « شارل » .. وجرى الحديث : عن
المريض - اولاً - ثم عن الجو وموجات البرد القارس ، والذئاب التي
تعدو خلال الحقول في الليل . وكانت الأنسة « روو » لا تستطيع
الاقامة في الريف ، لا سيما بعد ان غدت تضطلع وحدها - تقريباً -
برعاية شئون المزرعة .. وكانت ترتجف اثناء تناول الطعام ، لفرط
رطوبة الصالة ، مما كشف قليلاً عن شفتيها المكتنزتين اللتين اعتادت
ان تعضهما في اوقات الصمت ..

كانت رقبتها تظهر خلال يساقة مزدوجة ، وضميرتها السوداءوان
الناعمتان تبدوان - لفرط نعومتها - قطعة واحدة ، تنشق الى شعبتين -
عند منتصف الرأس - بخط مستقيم يتبع استدارة الرأس ، ثم تعود
الشعبتان الى الالتقاء خلف الرأس في كعكة سميقة تنحدر منها خصلتان
نحو الصدغ ، لا تكاد اذا الفتاة تبينان خلالها .. وكانت هذه اول مرة
يرى الطيب الشاب فيها شعراً منسقاً بهذا الشكل ! .. اما وجنتا الفتاة
فكانت متوردتين .. وكانت ثمة عوينة في اطار من الصدف تتدلى من
زرين في صدرها ، على نحو ما يفعل الرجال !

وصعد « شارل » ليودع الأب - « روو » - ثم هبط الى البهو
ثانية ، فاذا الفتاة واقفة الى النافذة ، وقد اسندت اليها جبهتها ، واخذت
تأمل الحديقة ، حيث اطاحت الريح بالعصي الخشبية الصغيرة التي كانت
تسند شجيرات الفاصوليا ..

وحين شعرت به ، التفتت اليه متسائلة : « أتبحث عن شيء ؟ » ..
فأجاب : « سوطي ، من فضلك ! » .

وراح يبحث فوق السرير ، وخلف الأبواب ، وتحت المقاعد ..
غير ان السوط كان قد سقط على الارض بين الجدار والجوالات . وما
لبثت « اما » ان لمحتة ، فانحنت فوق جوالات القمح لتلتقطه .. ودفعت
الشهامة « شارل » الى ان يسرع فيمد ذراعه ليلتقطه قبلها ، فاذا به
يخس بصدرة يحس ظهر الفتاة المنحنية أمامه .. وبادرت هي الى الاعتدال
وقد تفرج وجهها ، ثم التفتت اليه من فوق كتفها وهي تناوله سوطه
المصنوع من عصب الثور ..

وبدلاً من ان يعود « شارل » الى (برتو) بعد ثلاثة ايام كما
وعد ، جاء في اليوم التالي مباشرة ، ثم اخذ يتردد على الضيعة مرتين
في الاسبوع بانتظام ، عدا الزيارات غير المتوقعة التي كان يقوم بها من
آن الى آخر ، وكأنها محض مصادفات !

وسارت الامور على ما يرام ، وتم شفاء المريض .. وعندما روي
الأب « روو » - بعد ستة واربعين يوماً - يحاول السير وحده في بيته
العتيق ، اعتبر الناس مسيو « بوفاري » نطاسياً بارعاً ، لا سيما حين
اخذ الأب « روو » يردد انه ما كان من الممكن ان يحظى بعلاج من
اكبر أطباء (ايفتو) - او (روان) - يفوق العلاج الذي حظي به
على يد مسيو « بوفاري » !

ولم يفكر « شارل » في ان يسائل نفسه عن سر المتعة التي يستشعرها
في التردد على (برتو) .. ولو انه حاول التساؤل لما كان ثمة شك في
ان يعزو هذا الاسراف الى خطورة حال المريض ، او الى الكسب الذي
كان يرتقبه . ولكن ، احقاً كان هذا هو السبب في ان زيارته لتلك
الضيعة كانت تبدو - خلال شواغل حياته - كأحداث غير عادية ذات
جاذبية وفتنة ؟

• • •

كان في أيام تلك الزيارات يستيقظ مبكراً ، ويرحل في عجلة ، مستحفاً دابته .. حتى اذا ترجل أمام الدار ، مسح نعليه بالخشاش ، ولبس قفازيه الأسودين قبل ان يلج .. وكان يحس بالنشوة ، اذا ما بلغ الفناء ، وشعر بيباب السياج يدور بجوار كتفه ليمسح له بأن يدخل ، وحين يسمع صياح الديكة فوق الجدار ، ويرى الأولاد مقبلين لاستقباله ! .. واحب الأب « روو » الذي كان يربت يده ويدعوه بمنقذه ! .. كما احب وقع حذاءي « ايما » على ارض المطبخ النظيفة .. كان كعباها العاليان يضيفان طولاً الى طولها .. وكان النعل الخشبي يرتفع - اذا ما سارت امامه - ليصطك بجلد الحذاءين في صوت مكتوم ..

وكانت الفتاة ترافقه دائماً عند انصرافه حتى بداية السلم الخارجي ، ثم تظل واقفة ريثما يحضر جواده .. وكانا يظلان صامتين - اذ يكونان عادة قد تبادلوا تحية الوداع من قبل - والهواء الطلق يهب حولهما فيبعث ببعض خصلات الشعر الحائرة على عنق الفتاة ، ويهز طرفي حزام مرولتها على ردفها فيرفرفان كما ترفرف الاعلام ..

وحدث في احدى المرات ان ذاب الجليد - وهي تقف عند مدخل الدار - فبلل الماء المنساب جذوع الاشجار ، وأخذ يتساقط من اسطح مباني الضيعة ، فتحولت « ايما » الى الداخل واحضرت مظلتها ففتحتها .. وكانت المظلة من الحرير المموج المتعدد الألوان ، المعروف باسم « رقبة الحمامة » ، فلما نفذت خلاله اشعة الشمس ، عكست على بشرة الفتاة الناصعة اطيافاً متأرجحة من الضوء .. وانبسطت أسارير وجهها وهي تستمرىء الدفء الذي بعثته الشمس في جسمها ، بينما كانت قطرات الماء تتساقط على حرير المظلة المشدود ، محدثة طرقات متتابعة ..

وكانت زوجة « شارل » لا تغفل - في الفترات الاولى لترده على (برتو) - السؤال عن المريض .. بل انها افردت لمسيو « روو » صفحة بيضاء ، بديعة ، في مفكرة الحسابات التي كانت تحتفظ بها .

بيد أنها لم تكذب تعرف ان له ابنة حتى اخذت تتحري ، فعلمت ان الآتسة « ايما » ، التي نشأت في رعاية راهبات « الأورسليين » ، قد حظيت بما يسمونه « تربية راقية » ، ومن ثم فهي على دراية بالرقص والجغرافيا والرسم ، كما تحذق التطريز والعزف على « البيانو » .. وتلك كانت الطامة !

واخذت الزوجة تردد لنفسها : « هذا اذن مبعث كل هذا الاشرار الذي يتجلى على وجهه كلما ذهب لزيارتها !.. وهو السبب في حرصه على ارتداء صداره الجديد ، مجازفاً بتعريضه للمطر الذي قد يتلفه !.. آه .. هذه المرأة !.. هذه المرأة !.. » .. وكرهتها بالغريزة !

وقد كانت في بداية الأمر تسري عن نفسها بتلميحات لم يفهما « شارل » ، ثم بإشارات عارضة كان يتجاهلها خشية العاصفة ، ثم - أخيراً - باستجابات مباغثة لم يكن يدري كيف يجب عليها .. « لماذا يتردد على (برتو) ما دام مسيو « روو » قد شفي ، ومسا دام القوم لم ينقدوه بعد اتعاباً ؟.. آه !.. لا بد ان ذلك يرجع الى وجود شخص هناك .. شخص يحسن الحديث ويحذق تنمية .. شخص لبق حاضر البديهة .. وهذا هو ما يجتذبه .. انه يتوق الى فتيات المدن ! » وتمضي في مساجلتها قائلة : « وهل ابنة الاب « روو » من فتيات المدن ؟.. هذا غير معقول ! لقد كان جدهم راعي غنم .. ولهم ابن عم اوشك ان يقدم الى المحاكمة لاشتراكه في نزاع مشين .. فقيم اذن التعالي ، وفيم اذن ارتداء الحرير للذهاب الى الكنيسة في ايام الآحاد ، وكأنها كوزنة ؟.. لولا محصول اللفت لعجز ابوها المسكين عن سداده ديونه في العام الماضي ! » .

وسثم « شارل » هذه النعمة البغيضة ، فكف عن التردد على (برتو) ، لا سيما بعد ان حملته « هلويز » - زوجته - على ان يقسم بالكتاب المقدس على ان لا يعود الى تلك الزيارات ، وبعد ان غمرته

بفيض من النحيب والقبلات في ثورة عاتية من الحب !.. بيد ان الرغبة القوية لم تلبث ان تمردت على استكانته وخنوعه . وفي نوع من الرياء الساذج ، اخذ يؤول قسمه .. فحظر رؤيته الفتاة لا يجرده من الحق في ان يحبها .. لاسيما وان زوجته عمقاء ، كبيرة الاسنان ، لا تتخلى قط – وفي جميع فصول السنة – عن الشال الاسود الصغير ، الذي كانت اطرافه تتدلى بين لوحى كنفيتها .. وكان قدها محشوراً دائماً في ثوبها وكأنه مغيب في غمد !.. ثم ان اثوابها كانت قصيرة ، تكشف عن ساقيين معروفتين ، غاب قدماهما في جوربين رماديين عقدت فوقهما سيور حذاءيهما ..

وكانت ام « شارل » تفد لزيارتها بين آن وآخر ، ولكنها لم تلبث ان احست – بعد زمن – ان زوجة ابنها اخذت تستثيرها ضدها ، اذ اصبحت المرأتان كسكينين تتحراهن بملاحظتهما وأنبياتهما .. فهو مخفي اذ يلتهم كل هذا الطعام !.. ثم لماذا يقدم الشراب لكل وافد !.. ولماذا يركب راسه ويرفض باصرار ارتداء الفانلات « ؟!

* * *

وحدث في مستهل الربيع ، ان هرب احد وكلاء الاعمال من (انجوفيل) ، حاملاً معه كل ما كان مودعاً في مكتبه من اموال ، ومن بينها جل ثروة الارملة « دوبيك » . على ان « هلويز » وان ظلت تمتلك دارها الخاصة في شارع (سان فرانسوا) ، فضلاً عن حصة في احدى السفن تقدر بستة آلاف فرنك ، الا ان هذه الثروة المزعومة – التي كان لها دوي عال – لم يبد من آثارها في بيت الزوجية سوى بعض الأثاث والملابس الخاصة ..

ولم يكن بد من مناقشة هذا الامر واستجلائه ، بعد هرب وكيل الاعمال .. فاذا بالمنزل قد استغرقه الرهن ، واذا مصير ما كان مودعاً

لدى وكيل الاعمال قد بات لا يعلمه الا الله وحده ، واذا نصيبتها في السفينة لا يعدو - في الحقيقة - الف فرنك ! . اذن فقد كذبت السيدة الفاضلة !.. وفي سورة الغضب ، هشم مسيو « بوفاري » الأب مقعداً على البلاط ، وآتهم زوجته بانها كانت السبب في شقاء ابنها ، اذ ربطته الى تلك الفرس العجفاء التي لا يفضل سرجها جلدها !.. وكان الأبوان قد وفدا على (توست) لبحث هذا الموضوع ، فدارت معارك ارتمت « هلويز » خلالها على صدر زوجها وهي منهمة الدمع ، تناشده ان يحميها من أبويه .. فلما اراد « شارل » ان يدافع عنها ، غضب والداه ورحلوا .. غير ان الصدمة كانت قد احدثت اثرها .. فبينما كانت « هلويز » تنشر الغسيل في صحن الدار - بعد ثمانية ايام - اصابتها نوبة جعلتها تبصق دماً .. وفيما كان « شارل » منهمكاً في اسدال الستار على النافذة - في اليوم التالي - وظهره نحوها ، هتفت : « آه يا الهي ! » ، وأرسلت زفرة غابت بعدها عن الوعي .. وماتت !.. ويا للعجب !

واذ انتهت كل مراسم الدفن ، عاد « شارل » الى المنزل .. ولم يجد أحداً بالطابق الارضي ، فصعد الى الطابق الاول ، وولج غرفة النوم ، حيث رأى ثوب زوجته الراحلة معلقاً بجانب الفراش . واسند رأسه الى مكتبه مستغرقاً في حلم حزين حتى المساء .. فلقد كانت تحبه على اية حال !!

الفصل الثالث

اقبل الأب «روو» ذات صباح يحمل الى «شارل» أجر علاج ساقه : خمسة وسبعين فرنكاً من القطع فئة الأربعين سنتاً ، وديكاً رومياً !.. وكان قد علم بمصابه فراح يواسيه ما وسعه ، قائلاً وهو يربت كتفه : « انني أدرك مسدى مصابك ، فقد مرت بني نفس التجربة .. لقد كنت أنطلق في الحقول - بعد ان فقدت زوجتي المسكينة - لأخلو الى نفسي ، فأجثو عند ساق احدى الأشجار أبكي وأنادي الله ، وأهرف له بأقوال سخيفة !.. وكم وددت لو انني اصبحت مثل آكل الحشرات المعروف باسم «الخلد» ، الذي أراه على الأغصان والديدان تتلوى في بطنه !.. بل لقد ذهبت الى حد ان تمنيت لو انني نفقت كالذابة !.. وكنت اذا ما ذكرت ان سواي من الأزواج يضمون بين أذرعهم - في تلك اللحظة - زوجات لطيفات صالحات ، أدق الأرض بعصاي في عنف !.. كنت شبه مجنون ، حتى لقد أمسكت عن الطعام . وكان مجرد التفكير في الذهاب الى المقهى يثير اشمزازي !.. لعلك لا تصدق !.. على ان الايام تتابع ، يطرد كل منها الآخر في رفق .. واقبل ربيع في اعقاب شتاء ، وخريف في ذيل صيف .. وما لبث كل شيء ان تسرب رويداً وزايلني قطرة اثر قطرة .. او بالأحرى ، رسب

في أعماقي ، اذ لا بد من ان يبقى شيء في أغوار النفس ، او لا بد
- كما يقولون - من ان يبقى فوق الصدر ثقل جائم!.. على اننا يجب
ان لا نسلم انفسنا لليأس ، او نطلب الموت ، اذا مات احد من
أحبابنا ، ما دام هذا مصيرنا جميعاً!.. فانفض الحزن عن نفسك
يا مسيو « بوفاري » تجسده يفارقك!.. وتعالى لزيارتنا!.. أتعلم ان
ان ابنتي تفكر فيك بين وقت وآخر ، وتتساءل : «أهكذا نسيني؟»..
هاهو ذا الربيع مقبل عما قريب ، وسنشررك معنا في اصطباد الأرناب
لتسرى عن نفسك قليلاً! »

وأخذ « شارل » بالنصيحة ، فذهب لزيارة (برنو) ، حيث ألقى
كل شيء على ما كان عليه قبل خمسة أشهر.. وكانت أشجار الكمثرى
قد أزهرت ، واستطاع الأب « روو » ان يسير على قدميه ، فكان
يغدو ويروح باعثاً الحياة في المزرعة.. ورأى الرجل ان من واجبه ان
يبالغ في اكرام الطبيب الى اقصى حد ، نظراً لنكته المحزنة ، فطلب
اليه الا يرفع قبعته ، وأخذ يتكلم اليه بصوت خفيض - وكأنه يتحدث
الى مريض - بل انه أظهر غضبه لأنهم لم يعدوا للزائر شيئاً أخف من
المعتاد ، كقدور القشدة والكمثرى المطبوخة . واخذ يروي له النوادر ،
فاذا بشارل ينسى نفسه ويضحك .. ثم لا يلبث ان يذكر زوجته فيعود
الى وجومه . وعندما قدمت لهما القهوة ، لم يعد يفكر فيها !

واخذ تفكيره فيها يتضاءل كلما ازداد اغتياده على الحياة بمفرده .
بل ان لذة الحرية التي عادت اليه حديثاً ، جعلته اكثر احتمالاً لحياة
الوحدة ، فقد اصبح في وسعه ان يغير مواعيد طعامه ، وان يخرج
ويدخل دون ان يضطر الى تقديم حساب عن حركاته ، وان يمد
اطرافه على طول السرير وعرضه اذا ما شعر بالتعب . وهكذا اخذ
يعني بنفسه ويدلها ، ويستمرى ما كان يوجه اليه من عبارات التعزية!
ولقد عاد عليه موت زوجته - فوق كل هذا - بنفع في مهنته

ليس بالقليل ، اذ ظل الناس شهراً بعد وفاتها يرددون : « يا للشباب المسكين !.. ويا لتكبته ! » .. وذاع اسمه ، فازداد عملاؤه .. كما اصبح يذهب الى (برتو) كلما شاء .. كان لديه امل بغير ما هدف واضح .. وفي نفسه سعادة غامضة !.. وأخذ يلاحظ ، كلما سوى لحيته بالفرجون امام المرأة ، ان وجهه يزداد سماحة !

• • •

وفي ذات يوم وصل الى (برتو) حوالي الساعة الثالثة ، والقوم في الحقول ، فدلف الى المطبخ .. ولم يفتن في البداية الى ان « اينا » كانت هناك ، اذ كانت النوافذ مغلقة . ومن خلال المصاريع ، كانت الشمس تلقي على الارض خيطاً من اشعتها طويلاً ، دقيقاً ، يتكسر على زوايا قطع الاثاث ، ويتذبذب على السقف .. وكان الذباب يتسلق جدران الاكواب الزجاجية التي كانت موضوعة على المائدة ، ويرسل طينياً وهو يغرق في بقايا التفاح المتخلفة فيها .. وكان الضوء المنساب من المدخنة يضمني على بقايا الفحم - المتخلفة على قرص المدفأة المعدني - لمعة مغملة ، ويخلع على الرماد البارد غلالة زرقاء .

وكانت « اينا » تجلس بين النافذة والمدفأة ، وهي منهكة في الحياكة .. ولم تكن ترتدي وشاحها ، فلاحظ « شارل » ان قطرات دقيقة من العرق تنتشر على كتفيها العاريتين .

وعرضت عليه - كعادة اهل الريف - ان تأتية بشيء من الشراب ، فتمنع .. وألحت ، ثم دعته اخيراً - ضاحكة - الى ان يتناول معها كأساً من الخمر . وأحضرت من الصوان زجاجة بها شراب خفيف ، وكأسين صغيرتين ، ملأت احدهما حتى الحافة ، بينما لم تكد تسكب في الأخرى شيئاً ، وقدمت اليه الأولى ، وبعد ان قرعتها بالثانية ، رفعت

هذه الى شفتيها .

واذ كانت الكأس شبه فارغة ، فقد اضطرت الى ان تطوح رأسها الى الورا ، لترشف ما بها من قطرات .. واخذت تضحك - وهي على هذا الوضع ، وشفاتها ممدودتان الى الامام ، ورقبتها مشدودة - اذ لم تكد تشعر بشيء من الشراب في فها ، بينما امتد لسانها من بين اسنانها الدقيقة ليلعق ما في القاع !

وعادت الى الجلوس ، مستأنفة عملها في رفو جورب ابيض من القطن ، وقد نكست رأسها ، وكفّت عن الكلام . وظل « شارل » صامتاً هو الآخر .. وكان الهواء ينساب من اسفل الباب ، حاملاً بعض الغبار ، فأخذ يرقب تموجاته ، وهو لا يسمع سوى وجيب النبض في رأسه يختلط بنقنقة دجاجة تضع بيضة في مكان ما بأقصى الفناء . وكانت « اما » ترطب وجنتيها - بين آن وآخر - بكفيها اللتين كانت تبردهما على حديد المدفأة الحامدة .

وكانت منذ اوائل الموسم تعاني دواراً ، فسألت « شارل » عما اذا كان الاستحمام في البحر يفيدها .. ثم تطرقت الى الحديث عن الدير الذي تعلمت فيه ، فتحدث « شارل » بدوره عن مدرسته .. وهكذا اتصل الحديث بينهما . وما لبثا ان صعدا الى غرفتها ، حيث اطلعت على كراسياتها الموسيقية ، والكتيبات التي نالها كجوائز . والتيجان المجدولة من اوراق البلوط التي كانت تحتفظ بها في قاع صوان .. كما حدثته عن امها ، وعن المقبرة .. بل لقد ارشده - في الحديقة - الى الحوض الذي كانت تجمع منه الزهور في يوم الجمعة الاول من كل شهر ، لتضعها على قبر امها .. بيد ان البستاني الذي يعنى بالحديقة ، لم يكن ليفهم عن الازهار شيئاً .. كذلك كان الخدم جميعاً .. اغبياء ، لا تجني من ورائهم الا المتاعب !

وكانت تمنى ان تعيش في المدينة ، ولو خلال الشتاء - على الأقل -

وان كان نهار الصيف الطويل قد يجعل الريف اكثر ملاءً في هذا الفصل منه في الشتاء .. وكان صوتها يتغير تبعاً لما تقول ؛ فهو تارة صاف ، واخرى حاد .. وقد يسري فيه فجأة خمول ينتهي به الى ما يشبه الخمس حين تخاطب نفسها .. ثم اذا به بعد لحظة قد انقلب مرحاً .. وعيناها ! .. كانتا تحدّثان في براءة ، ثم اذا بهما في نصف اغماضة ، اذ يشرّد فكر صاحبتها او تغرق في السّامة !

وأخذ « شارل » - اثناء عودته في المساء - يستعيد عباراتها واحدة اثر واحدة ، يحاول ان يتذكرها ، وان يربط بعضها ببعض ، ليستكمل صورة واضحة للحياة التي كانت تحياها قبل ان يعرفها . غير انه لم يستطع قط ان يتمثلها في صورة تغاير تلك التي رآها عليها في اللقاء الأول .. او تلك التي تركها عليها في الوداع القريب .. وساءل نفسه عما قد تصير اليه اذا ما تزوجت .. ثم ، بمن تزوج ؟ .. وأسفاه ! .. ان الأب « روو » واسع الثراء . وهي ! .. كم هي جميلة !

وكان وجه « ايمّا » لا يلبث ان يعود في اصرار ليستقر امام عينيه .. واخذ يتردد في اذنيه صوت رتيب ، في طنين مستمر لحوح : « هب انك تزوجت ! .. نعم ، ماذا لو تزوجت ! »

* * *

ولم يجد الى النوم سبيلاً في تلك الليلة .. كان يحس بضيق وظماً .. وما لبث ان نهض ليشرب من الابريق ، وفتح النافذة ، وراح يتطلع الى السماء المليئة بالنجوم .. كان النسيم دافئاً .. وتناهى اليه من بعد نباح الكلاب .. ثم ادار رأسه في اتجاه (برتو) .

وخطر له انه لن يخسر شيئاً على اية حال . فنى نفسه بالتقدم لطلب يدها عندما تسنح الفرصة .. غير ان تهيبه وحيرته في اختيار العبارة

المناسبة ، كانا يعقدان لسانه كلما واثته الفرصة .

ولم يكن ليضرب الأب « روو » ان يتخلص من ابنته التي لم تكن ذات نفع كبير في بيته .. وكان يلتمس لها - في قرارة نفسه - العذر ، اذ يدرك انها اذكى من ان تشتغل بالزراعة .. تلك الخرفة التي لعنتها السماء ، حتى ان احداً لم يصبح - باشتغاله بها - من اصحاب الملايين ! لقد كان يخسر كل سنة ، بدلاً من ان يجني من ورائها ثراء .. فبالرغم من تفوقه في المساومة ، والمامة بأساليب التجارة الماكرة ، كانت الزراعة بمعناها الكامل - وبما تنطوي عليه من فنون ادارة المزارع - اقل ملاءمة له منها لبقية الناس . فما كان ليخرج يديه من جيوبه ويشمر عن ساعديه طواعية واختياراً .. وكان في انفاقه بعيداً عن الاقتصاد ، حريصاً على الغذاء الطيب ، والمسكن الدافئ ، والفراش الوثير .. كان يحب نبيذ التفاح ، والافخاذ المحمرة ، والشاي المزوج بالخمير مزجاً جيداً . وكان يتناول وجباته في المطبخ وحيداً ، امام المدفأة ، على منضدة صغيرة تعد مقدماً ثم تحمل اليه ، كما يحدث على المسرح !

واذ لاحظ ان وجنتي « شارل » كانتا تتوردان كلما اقترب من ابنته ، توقع ان يطلب منه يدها يوماً ما ، فأخذ يتدبر الأمر بأكمله مقدماً .. كان يراه وضيعاً بعض الشيء ، لا يتمثل فيه الصهر الذي كان يتمناه .. غير انه كان يعرف عنه حسن السلوك ، والاقتصاد .. وكان متعلماً .. ويلوح انه لن يساوم كثيراً فيما يتعلق بالصدقات الذي سيقدمه الأب لابنته ! .. واذا كان مضطراً الى ان يبيع اثنين وعشرين فداناً من ارضه ، ليتخفف من دين كبير عليه للبناء والنجار ، ولاصلاح دولاب المعصرة ، فقد اسر لنفسه قائلاً : « لسوف اعطيه « ايماء » اذا طلبها » !

* * *

وذهب « شارل » الى (برتو) ليقضي ثلاثة ايام ، في عيد القديس

ميخائيل . وانقضى اليوم الاخير كسابقه : في تردد وارجاء .. فلما تأهب للرحيل ، رافقه الأب بعض المسافة .. وسلكا طريقاً كثير الحفر ، حتى اذا اوشكا على الافتراق ، دار بجلد « شارل » ان الساعة قد حانت ، اذ كان قد حدد لنفسه مهلة تنتهي عند السياج الخارجي للضيعة .. ولم يكذب بجواره ، حتى تتم قائلاً : « مسيو روو .. اريد ان افاتحك في امر » .. ووقف السيد ، ولكن « شارل » اخلد الى الصمت ! وقال الأب ضاحكاً في رفق : « حدثني بأمرك . او تظن انني لم ادرك كل شيء ؟ »

فتمم « شارل » قائلاً : « ايها الأب روو .. ايها الأب روو ! .. » وواصل المزارع حديثه قائلاً : « انني شخصياً لا آتمنى افضل منك .. ولكن للبنية رأيا ، ولا بد من سؤالها .. فابطء في مشيتك ريثما اعود الى البيت .. وليس من الضروري ان ترجع - اذا ما اجابت بالقبول - حتى لا يفتن الناس الى شيء ، وحتى لا يشتد بالفتاة الانفعال .. ولكن ، لا تقس على اعصابك .. سأدفع مصراعي النافذة الى الجدار ، وافتحها على وسعها ، اشارة بذلك .. وتستطيع ان تبين هذه الاشارة من الخلف اذا ما انحنيت على السياج »
وابتعد الأب .

وربط « شارل » جواده الى شجرة ، وهرع الى الطريق الخلفي الضيق ، وأخذ ينتظر .. وانقضى نصف ساعة .. واحصى بعده تسع عشرة دقيقة .. وفجأة ، سمع صوت ارتطام بالجدار .. فقد فتح مصراعا النافذة .. وظلا يهتزان اثر اصطدامها بالحائط !

ولم تحن الساعة التاسعة من الصباح التالي ، حتى كان في المزرعة ! وتضرج وجه « ايما » حين دخل الدار ، وان حاولت ان تضحك قليلاً لتبدو مألوفة لنفسها . وقبل « شارل » صهر المستقبل .. ثم اخذوا يتحدثون في المسائل المالية ، وان كانت امامهم فسحة من الزمن ، اذ لم يروا

ان يتم الزواج قبل ان ينتهي حداد « شارل » ، اي حوالي ربيع العام التالي .

* * *

وانقضى الشتاء في ترقب .. وشغلت الأنسة « روو » بجهازها الذي أرسل في طلب بعضه من (روان) . وحاكت لنفسها اقصة وقلنسوات للزوم على نماذج استعارتها ، وكانوا - خلال زيارات « شارل » لخمزعة - يتحدثون عن تدابير العرس ، ويتساءلون عن القاعة التي ستقام فيها وليمة الزفاف ، ويحلمون بأصناف الطعام التي ستقدم . ويتناقشون في الصنف الذي ستفتح به المائدة !

وكانت « ايما » تفضل ان يتم الزفاف في منتصف الليل ، على ضوء المشاعل . بيد ان الأب « روو » لم يستغ هذه الفكرة . وهكذا اقيمت وليمة العرس اخيراً ، فحضرها ثلاثة وأربعون شخصاً ، ظلوا حول المائدة ست عشرة ساعة ، ثم استأنفوا الوليمة في اليوم التالي ، والأيام التي اعقبته .. الى حد ما !

الفصل الرابع

أخذ المدعوون يتوافدون منذ ساعة مبكرة ، في عربات متباينة ، منها ذات المقعد الواحد والجواد الواحد ، ومنها ذات العجلات الأربع والمقاعد المتقابلة ، ومنها عربات عتيقة الطراز بغير مظلات ، وعربات مقلدة بستائر من الجلد . ومن القرى المجاورة إقبل شبان في عربات نقل مكشوفة ، اصطفوا عليها مستندين بأيديهم الي حوافها الخارجية كي لا يسقطوا منها وهي تحب بهم مهتزة في عنف . وجاء مدعوون من قرى تبعد عشرة فراسخ عن المزرعة ، مثل (جودرفيل) و (نورمانفيل) و (دوكاني) .. اذ كان اهل العروسين قد دعوا جميع اقارب الاسرتين ، ووصلوا ما انقطع بينهم وبين بعض الاصدقاء ، وكتبوا الى معارف لم يكونوا قد رأوهم منذ زمن طويل !

وكانت فرقة السياط تسمع من وقت الى آخر خلف السياج ، فيفتح الباب ، لتنفذ منه عربة تسير حتى الدرجة الاولى من سلم المدخل ، حيث تقف فجأة ، ويخرج ركبها من كل جانب يدلكون ركبهم ، ويمطون أذرعهم ، وقد توجهت السيدات رؤوسهن بالقبعات الصغيرة ، وارتدين ازياء المدن ، وتحلين بسلاسل تنتهي بساعات ذهبية ، واتسحن بحرامل تتقاطع اطرافها عند الحصور ، او بشيلان صغيرة ملونة تثبت

اطرافها الى الظهور بدبايس . وكان الاطفال في ثياب شبيهة بثياب الرجال ، وقد لاح عليهم انهم كانوا يضيّقون بملابسهم الجديدة .. بل كان الكثيرون منهم يخطرون في اول زوج من الاحذية الجلدية حصلوا عليه في حياتهم !.. وسارت الى جوارهم فتيات تراوح اعمارهن بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة ، لا شك في انهن اخواتهم او بنات اعمامهم واخواتهم ، وقد ارتدين ملابس حفلة « التناول » الأول ، بعد ان اطلت اطرافها لتصلح للمناسبة الراهنة !.. وكن يسرن صامتات ، متوردات الحدود ، مبهورات .. ولاحت شعورهن لزجة لما عولجت به من دهان معطر بالورد .. كما بدا عليهن الحرص على ان لا يعرضن قفازاتهن للاتساخ ..

ولما لم يكن عدد السياس كافيًا ، فقد شمر الرجال عن سواعدهم ، وباشروا بأنفسهم حل الخيل من العربات ، رغم ثيابهم التي تباينت تبعاً لمراكزهم الاجتماعية - بين « ردنجات » ، وملابس سهرة ، وبزات فاخرة او عادية .. وكلها من الملابس التي تعني بها الأسرات فلا تخرجها من الخزانات الا في المناسبات !.. وكانت بينها « الردنجات » ذات الذبول الضافية تداعبها الريح ، او ذات الياقة الاسطوانية والجيوب الواسعة كأنها الحقائق .. وبينها بزات من الصوف السميك ، يرتدي اصحابها قلنسوات احيطت حوافها باطارات من نحاس .. ومعاطف قصيرة ثبتت في خاصرتها من خلف زران متقاربان كأنها عينان .. وقد بدت ذيولها وكأنما سوتها بلطة نجار !.. وكان الرجال الذين سيجلسون في ذيل المائدة يرتدون « اقصة المناسبات » ذات الياقة المسدلة على الكتفين ، والثنيات الرفيعة في الظهر ، وقد شدت تحت الحصر بحزام مثبت في ثناياها .. كما شدت فوق الصدور - بفعل النشاء والكي - فبدت كأنها دروع !

وظهر واضحاً ان الجميع قصوا شعورهم حديثاً ، اذ كانت الآذان

بارزة على جوانب الرؤوس .. كما كانت الذقون حليقة ناعمة . وكان بعضهم قد اضطر الى ان يبدأ رحلته في مطلع الفجر ، فلم تكن ثمة اضاءة كافية وهم يحلقون ذقونهم ، مما ترك خدوشاً ممتدة تحت الانف ، او جراحاً متسعة بحجم العملة فئة الفرنكات الثلاثة ، وقد ألهبها نسيم الصباح البارد اثناء الطريق ، فاذا الوجوه البيضاء المشرقة ، تتناثر فيها بقع وردية !

* * *

وكانت دار العمدة تقع على مسافة نصف فرسخ من المزرعة ، فذهبوا اليها على الاقدام .. وعادوا بالطريقة عينها بعد ان تم الاحتفال في الكنيسة . وكان الموكب متمسكاً في بادئ الامر ، فبدأ كأنه شال موشى بالألوان ، يتموج على طول الطريق الضيق المتعرج بين الحقول الخضراء .. ثم لم يلبث ان استطال ، وتجزأ الى مجموعات ألهاها الحديث عن اللحاق بغيرها ..

اما العازف فكان يسبق الموكب بقيثارته التي حليت بالاشرطة ، يتبعه العروسان ، ثم الاهل ، فالاصدقاء ، دون ما ترتيب .. وفي المؤخرة ، سار الاطفال يلهون بقطف زهور الشوفان ، او يلعبون فيما بينهم دون ان يفتن اليهم أحد .

وكان ثوب « ايمان » مسرف الطول ، فكان ذيله يتجرر خلفها ، فتقف بين وقت وآخر لترفعه ، ولتنزع عنه - باصابعها الدقيقة المكسوة بالقفاز - ما علق به من اعشاب خشنة واشواك ، بينما يقف « شارل » ساكناً في انتظارها ! .. وكان الأب « روي » يرتدي قبعته الحريرية الجديدة ، ومعطفه الاسود الذي بلغ كماه اظافر يديه ، وقد تأبط ذراع السيدة « بوفاري » الأم .. اما السيد « بوفاري » الأب - الذي

كان يحترق في قرارة نفسه كل هؤلاء الناس ، والذي لم يرتد سوى « ردمجوت » ذات صف واحد من الازرار ، على نمط الملابس العسكرية – فقد اخذ يغازل ريفية شقراء آثرها بمداعبات ماجنة كانت وجنتاها تضرجان لها ، دون ان تدري بماذا تجيب !.. في حين انصرف بقية الحضور الى الحديث في شؤونهم ، او الى التغامز خفية – بعضهم على بعض – او الى استثارة المرح في انفسهم تأهباً للحفل المرتقب .. وكانت انغام العازف – الذي واصل العزف خلال الحقول – تعلو اذا ما جنحوا الى الصمت .. فاذا ما أحس بأنه سبق الموكب بمسافة طويلة ، وقف ليسترد انفاسه ، وليعالج قوس قيثارته بـ « القلفونية » ليشد اوتارها .. ثم يستأنف سيره رافعاً مقبض القيثارة تارة ، وخافضه اخرى .. والضجة المنبعثة تحمل الطيور الصغيرة على مبارحة مكانها .. ومدت المائدة تحت مظلة العربات ، وعليها اربع قطع من « بيت الكلاوي » ، وستة اطباق من « صلصة » الدجاج ، و « كباب الحلة » المصنوع من لحم العجول ، وثلاث فخذات مشوية !.. وترجع في وسط المائدة خنزير صغير السن ، بديع المنظر ، جيد الشواء ، تحيط به اربعة حبال من « سجق » الخنزير المطبوخ !.. وفي اركان المائدة ، استقرت قوارير الخمر ، بينما كانت زجاجات نبيذ التفاح الفائر تبعث زبداً كثيفاً حول سداداتها . وارتعت الاقداح مقدماً بالنبيذ الى حوافها ، وكانت القشدة الصفراء تترجرج في اطباقها الكبيرة لأقل حركة تصيب المائدة ، وقد نقشت عليها الحروف الأولى من أسمي العروسين في زخرفة عربية جميلة .

وكانوا قد عهدوا باعداد الحلوى والفطائر انى صانع من (ايفتو) استقر بالبلدة حديثاً ، فبذل عناية فائقة ، حتى لقد احضر بنفسه كتلة مزينة بالزخارف ، انتزعت صيحات الاعجاب من الحاضرين .. اذ كانت لها قاعدة من الورق المقوى تمثل معبداً ذا أروقة واعمدة تحف بها

التهائل .. وتناثرت في الفجوات نجوم صنعت من الورق المذهب ..
وفي الطابق الثاني منها ، صنع الرجل برجاً من فطير «سافوا» ، تحيط
به تحصينات صغيرة من الحلوى واللوز والزبيب وفصوص البرتقال .. وفوق
سطح هذا الطابق ، صنع من الحلوى ما يمثل حقلاً اخضر به صخور
غارقة في بحيرات من المربى ، تعلو سطحها زوارق من قشر البندق ..
وفي الحقل ارجوحة من الشكولاتة تعلق بها تمثال صغير للحب ، وقد
توج عامودا الارجوحة ببرعين من الورد الطبيعي !!

وظل القوم يأكلون حتى المساء .. وكلما امضهم طول الجلوس ،
نهضوا يتمشون في الافنية ، او يمارسون بعض الالعاب في المخزن ..
ثم لا يلبثون ان يعودوا الى المائدة !.. وغلب النوم بعضهم قبيل الختام،
فتصاعد غطيظهم ، بيد ان النشاط لم يلبث ان سرى فيهم من جديد
حين تناولوا القهوة ، فراحوا يرددون الاغاني ، ويتبارون في ألعاب
القوى وحمل الاثقال والحيل التي تعتمد على المهارة اليدوية .. وتبارى
بعضهم في رفع العربات فوق اكتافهم .. وفي تبادل النكات ، وتقيل
السيدات !!

وفي المساء ، تاهبوا للرحيل . ولكن شد الخيول الى العربات – بعد
ان اتخمت بالشوفان – كان من اصعب العمليات ، اذ راحت تركل ،
وتتمرد ، وتكسر الأعنة ، واصحابها يسبون او يضحكون .. وكنت
ترى طوال الليل – وفي ضوء القمر – عربات انطلقت على طول الطريق،
تعدو خيولها الجائعة ، فتهبط بها في الحفر حيناً ، وتقفز بها فوق اكوام
الاحجار حيناً آخر .. ثم اذا بها تسلق المنحدرات ، وقد اطلت من
جنباتها النساء يتشيثن بالأعنة !

اما من بقي في (برتو) من ضيوف العرس ، فقد قضوا الليل
يشربون في المطبخ ، بينما نام الاطفال تحت المقاعد .

* * *

وكانت العروس قد سألت أباهما ان يجنبها المداعبات التي يتعرض لها العرسان في ليلة الزفاف .. بيد ان سماكاً من ابناء عمومتها راح ينفث الماء من ثقب باب مخدع العروسين ، رغم انه لم يحمل اليها هدية ما .. سوى زوج من سمك « موسى » !!.. على ان الاب « روو » اقبل في لحظة مناسبة ليصده عن المضي في نفث الماء ، مبيئاً له ان دقة الموقف لا تسمح بمثل هذه الدعابة المستهجنة .. ومع ان ابن العم انصرف عن دعابته ، الا انه لم يقتنع تماماً بمنطق الاب « روو » ، واتهمه في قرارة نفسه بالصلف والكبرياء . وما لبث ان انضم - في احد الاركان - الى اربعة او خمسة من المدعوين كانت المصادفات قد ساقته اليهم أردأ قطعة من اللحم حملتها المائدة ، فخيل اليهم ان ثمة تعمداً لاساءة اكرامهم ، وراحوا يتهامسون مغتابين مضيفهم ، متمنين له - في ألفاظ غير صريحة - كل شر !

اما السيدة « بوفاري » - الأم - فقد ظلت طيلة اليوم صامتة ، اذ لم يحفل احد باستشارتها بصدد ثوب العروس ، او اعداد الوليمة . وما لبثت ان أوت الى فراشها في وقت مبكر .. وبدلاً من ان يتبعها زوجها ، ارسل في طلب عدد من السيجار من (سان فيكتور) ، وبقي حتى الصباح يدخن ، ويحتسي مزيجاً من الخمور - « كوكتيل » - لم يكن مألوفاً لدى اهل الريف ، مما رفع من شأنه في اعينهم !

وما كان « شارل » يوماً حاضر النكتة والفكاهة ، ومن ثم لم يتألق في حفل عرسه ، بل انه كان يرد في غياب ، على ما وجهه المدعوون اليه من غمزات وفكاهات ومجاملات ومداعبات منذ جمعتهم الوليمة .. على انه لاح في اليوم التالي رجلاً آخر يناقض ذلك الذي كانه في الليلة السالفة ، وكأنما كان ليلتذاك عذراء يلجمها الحفر !

اما العروس ، فلم يظهر عليها ما يتم عما كان يجول في نفسها ، حتى ان اكثر الحاضرين فراسة لم يستطع ان يتكهن بشيء عن حالتها

النفسية ، واكتفوا بأن راحوا يمعنون في التحديق في وجهها كلما مرت على مقربة منهم !.. على ان « شارل » لم يعمد الى شيء من التكلف ، بل اخذ يدعوها بزوجته ، ويخاطبها في غير كلفة ، ويسأل عنها كل انسان ، ويبحث عنها في كل مكان - دون ما حرج - كلما افتقدها !.. وكثيراً ما كان يقتادها الى الافنية ودروب الحديقة .. وكان يشاهد عن كثب وقد طوق خصرها بذراعه ، او وهو يسير الى جوارها ، وقد مال نحوها ورأسه يفسد استواء صدارها المكوي !

* * *

ورحل العروسان بعد الزفاف بيومين ، اذ لم يكن « شارل » ليملك ان يغيب عن مرضاه أمدأ أطول مما غاب .. وصحبها الاب « روو » في عربة حتى (فاسونفيل) ، حيث قبل ابنته مودعاً ، ثم عاد ادراجه .. ولم يكذب بخطو مائة خطوة تقريباً حتى توقف ، ثم التفت الى العربة ، فلما رآها تبعد وقد اخذت عجلايتها تثير الغبار ، ارسل زفرة طويلة ، وذكر عرسه ، والأيام الخوالي .. وارتدت الى ذهنه ذكرى اول حمل لزوجته .. وتصور ما كان عليه من سعادة وغبطة يوم جاء بزوجته من منزل ابيها الى منزله ، اذ اردفها خلفه على جواده وانطلق على الجليد .. فقد تم عقد القران في رأس السنة ، والحقول مكسوة جميعها بالجليد الناصع .. وكانت تشبث به باحدى ذراعيها ، بينما امسكت باليد الاخرى سلتها .. والريح تداعب اشرطة شعرها - المنسق على طريقة اهل (كو) - فتدفع اطرافها لتلمس فمه .. ومن آن لآخر ، كان يلقت اليها ، فيلمح فوق كتفه وجهها الوردي الصغير ، الذي اشرق بابتسامة صامتة ، تحت قرص ذهبي ازدانت به قبعتها .. وكانت تدس اصابعها في صدره بين الفينة والفينة ، التماساً للدفع !

آه !.. لقد تلاشى كل ذلك في ادراج الزمان !.. لو ان طفلها
الاول عاش ، لكان اليوم في الثلاثين من عمره !
والتفت خلفه فلم ير شيئاً في الطريق .. وغشيتة كآبة موحشة ، وقد
خيل اليه ان نفسه غدت كالبيت الحاوي المهجور !.. وامتزجت الذكريات
العذبة بالذكريات الاليمة ، في رأسه الذي اثقله الشراب .. واحس
برغبة في ان يعرج على الكنيسة. بيد انه خشي ان تزداد شجونه ، فيمم
صوب داره رأساً ..

ووصل السيد « شارل » وزوجته الى (توست) في نحو الساعة السادسة،
فاذا الجيران في النوافذ يرتقبون الزوجة الجديدة لطبيهم ..
وتقدمت الخادم العجوز فحيتهما ، واعتذرت لان العشاء لم يعد بعد،
ثم سألت السيدة ان تنفق منزلها ، ريثما تعد المائدة .

الفصل الخامس

كان المنزل مشيداً من الطوب ، وواجهته نحو الطريق .. وخلف الباب ، كان ثمة معطف ذو ياقة صغيرة ، معلقاً مع عنان جواد ، وقلنسوة من الجلد الاسود .. وعلى الأرض ، قبع في احد الاركان زوج من أحذية الركوب ذات الرقاب الطويلة ، يعلوه بعض الطين الجاف .. والى اليمين ، امتدت الردهة الوحيدة التي كانوا يأكلون فيها ويجلسون .. وقد علفت الى احد الجدران الرديئة الطلاء ، ورقة صفراء اللون ، وفي طرفها الاعلى باقة من الزهر الباهت اللون . وكانت الستائر القطنية البيضاء - المحلاة بشرائط حمراء - تتقاطع على النوافذ ، بينما كان يلعب على حافة المدفأة الضيقة ، بندول ساعة يعلوه رأس « ابقرات » ، وقد قام الى جانبه شمعدانان من الفضة ، تحت مظلتين بيضاويتين الشكل .. وفي الناحية الاخرى من المدخل ، كان مكتب « شارل » .. حجرة صغيرة عرضها ست خطوات تقريباً ، تضم منضدة وثلاثة مقاعد ، فضلاً عن مقعد خاص للمكتب .. واحتل الأرفف الستة في مكتبة من خشب القرو ، قاموس العلوم الطبيعية بأجزائه التي لم تفض صفحاتها

١ - ابقرات هو ابو الطب عند الاغريق .

بعد ، رغم ما لحق بغلاقتها من تلف ، بسبب عمليات بيعها المتتالية !
وكان عبر الطعام ينساب من المطبخ متسرباً خلال جدران غرفة
المكتب اثناء فحص المرضى .. كما كان سعال المرضى المنبعث داخل غرفة
المكتب يسمع في المطبخ ، فضلاً عن قصصهم بخدافيرها !

وكانت تلي غرفة المكتب مباشرة ، حجرة كبيرة ، مهدمة ، تطل
على الفناء الذي يضم الحظيرة . وكانت تحوي فرنًا ، غير انها كانت
تستخدم كمخزن للحطب ، والأغذية ، والمهملات ، وقد امتلأت بقطع
الحديد القديمة ، والبراميل الفارغة ، وآلات الزراعة المهمله ، واكداس
من اشياء اخرى مغبرة ، كان من المستحيل التكهن بما تستخدم فيه .
اما الحديقة فكانت مستطيلة ، يحدها جدران من الطين - حفت بها
اشجار المشمش - وتنتهي بسياج من الاشواك يفصل بينها وبين الحقول .
وكانت تتوسطها « مزولة » - ساعة شمسية - من الاردواز ، اقيمت
على قاعدة حجرية .. واربعة احواض من نبات « النسرين » تحيط - في
انتظام - بحوض خامس زرعت فيه نباتات اكثر نفعاً .. وتحت شجيرات
السرو ، في الطرف الاقصى للحديقة ، قام تمثال من الجص يمثل قساً
يقرأ في كتاب الصلوات !

وصعدت « ايما » الى الطابق العلوي ، فاذا بأولى حجراته تكاد
تكون خالية من الأثاث تقريباً ! .. اما الحجرة الثانية - وهي مخدع
العروسين - فكانت تضم سريراً من خشب « الأكاجو » داخل فجوة
في الجدار احاطت بها ستائر حمراء ! وكان يزين خزانه الثياب صندوق
من الصدف .. والى جوار النافذة مكتب عليه آنية بها باقة من زهور
البرتقال الجافة ضمنتها اشربة من « الستان » الابيض .. وكانت باقة
عروس .. العروس الاولى !!

ولاحظ « شارل » اتجاه نظرات « ايما » الى الزهور ، فتناولها
وذهب بها الى المخزن .. وجلست « ايما » في مقعد مريح اثناء ترتيب

حاجياتها ، وقد سرح خاطرهما الى باقة عرسها التي وضعت في صندوق من الورق المقوى .. وساءلت نفسها - وهي مسترسلة مع احلامها - عما يمكن ان يحل بتلك الباقة .. لو انها ماتت بدورها !

• • •

انفقت « ايما » الايام الاولى في تدبير التعديلات التي شاءت ان تجربها في البيت ، فترعت المظلات - « الabajورات » - عن المشاعل والصفت بها كساء جديداً من الورق ، وأعدت طلاء السلم ، ووضعت حول المزولة - في الحديقة - بعض المقاعد .. بل انها راحت تفكر في الحصول على نافورة وحوض تسبح فيه الاسماك !

واذ كان زوجها يعلم انها تحب التزهة في العريبات ، فقد وفق الى عربة مستعملة ، زودها بمصاييح جديدة ، و « رفارف » من الجلد . وأصبح « شارل » هانئ البال ، لا يحمل همأ .. حياته وجبات يتناولها مع « ايما » .. ونزهات مسائية برفقتها في الطريق العام . وكان يستشعر متعة في العبث بصفائرها ، وفي رؤية قبعتها الخصوصية معلقة الى مزلاج النافذة .. وفي كثير من الامور الشبيهة ، التي لم يخطر له يوماً ببال انها يمكن ان تكون مبعث سرور !

وكان ، اذا ما استيقظ في الصباح وظل مستلقياً الى جوارها على السرير ، يتأمل ضوء الشمس وهو يتخلل زغب وجنتيها البضتين اللتين كان جناحا قلنسوة النوم ينسدلان الى منتصفيهما .. وكان اذا حدق في عينيهما عن قرب ، خالهما اكثر اتساعاً .. لا سببا وهي تفتح جفنيها وتطبقها مرات متتابعة ، ريثما تألفان الضوء عند اليقظة ! .. وكانتا تبدوان سوداوين في الظلال ، وزرقاوين قائمتين في ضوء النهار .. بل لقد يخالهما تتألفان من طبقات متباينة من ألوان تبدو كثيفة في اغوار الحديقة ، ثم تشف شيئاً فشيئاً كلما اقتربت من السطح !

وكانت نظراته تفضل في اعماق هاتين العينين .. عينيها !.. وكان يرى صورته - حتى الكتفين - تنعكس مصفرة على حدقتيها ، وقد اف مندبلاً حريزاً حول رأسه ، وترك صدر فيسه مفتوحاً .

...

فاذا ما نهض وتبها للخروج ، وقفت « اياما » عند النافذة تودعه ، ثم تظل مستندة الى حافتها بين آيتين من زهور « الجيرانيوم » ، وهي في ثوب فضفاض .. وبينما ينهمك « شارل » - وهو في الفناء - في تثبيت مهازبه ، رافعاً قدميه تباعاً الى حافة السور ، كانت تأخذ في الحديث اليه من أعلى ، وهي تلتقط بفمها نطقاً من الزهر او من العشب الاخضر ، ثم تنفثها نحوه ، فتطير في الهواء مرفرفة في حركة نصف دائرية كالصفيحة ، حتى تعلق بالشعر الاشعث المنتثر فوق عتق الفرس العجوز البيضاء التي تقف لدى الباب بلا حراك .. وما ان يعتلي « شارل » صهوة الجواد ، حتى يرسل اليها قبلة في الهواء ، فرد بايماءة ، ثم تغلق النافذة ، بينما يشرع هو في رحلته ، فينطلق في محاذاة الجسر الذي ينسبط امامه كشریط من غبار لانهاية له ، ويمضي في دروب بين الاشجار الوارفة ، وأزقة ضيقة يرتفع القمح على جوانبها الى الركبة .. والشمس تستلقي على منكبيه ، وهواء الصباح يملأ خياشيمه .. وقد اقم فواده بما ناله في ليله من لذات .. وسرت الطمأنينة الى نفسه ، والراحة الى جسده !

وكان يواصل السير وهو يجتر سعادته في تذوق من يتلمظ بعد الغداء بما خلفه « عش الغراب » في فمه من طعم !.. متى كانت الحياة رقيقة به كما هي الآن ؟.. افي ايام الدراسة ، حين كان محبوساً بين جدران المدرسة ، وحيداً وسط زملاء يفوقونه ثروة واستيعاباً للدرس ، ويسخرون من لهجته الريفية ومن ملابسه ، ويعبرونه بأن احداً لا يزوره كما كانت

امهاتهم يفتن لرؤيتهم - في حجرة الاستقبال بالمدرسة - وقد حملن لهم الفطائر؟! . ام في فترة دراسة الطب ، عندما لم تكن حافظته تضم من التقود ما يمكنه من صحبة تلك العاملة الصغيرة التي كان من الممكن ان تغدو عشيقته؟! .. ام في الشهور الاربعة عشر التي عاشها زوجاً لتلك الارملة التي كانت قدماها تستحيلان - في السرير - الى قطعتين من الثلج؟! ما ابعد كل هذا عن حاضره : وقد اصبح يمتلك - ما عاش - هذه المرأة الجميلة التي يعدها! .. لقد اصبح العالم في نظره لا يتجاوز محيط « جونلتها » الحبرية !

وكان يلوم نفسه اذ يخيل اليه انه لا يحبها كما يجب! .. وما كان ليطبق عنها بعداً ، فيتعجل العودة ، ويصعد سلم الدار بقلب خافق ، ثم يتسلل الى حجرتها في هدوء ليفاجئها وهي تتزين ، فيقطع على ظهرها قبلة قبل ان تحس بوجوده .. فتصرخ جزعة !

ولم يكن يقوى على كبح يديه عن ان تتحسسا دوما مشطها وخواتمها وشالها .. وكان يطبع على وجنتيها احياناً قبلات كبيرة ، بملء فم ، او يغطي ذراعيها بقبلات خفيفة من اطراف اصابعها حتى كتفيها ، وهي تدفعه في مزيج من الضيق والابتسام ، كما تفعل بالطفل اذ يتشبث بنا ! والواقع ان « اما » كانت تعتقد قبل الزواج انها قد وقعت في الحب . فلما لم تحصل على ما كانت تخاله مترتباً على هذا الحب من سعادة ، توهمت انها كانت على خطأ ، وأخذت تسائل نفسها عما تعنيه عبارات النشوة والعاطفة والهيام التي كانت تقرأها في الكتب فتبهرها !

الفصل السادس

كانت قد قرأت قصة « بول وفرجيني » ، فحلمت بالبيت الصغير المقام على اعواد الغاب ، وبالبعد « دومينجو » والكلب « امين » .. كما احست - بوجه خاص - بتلك الصداقة الرقيقة التي نلمسها في أخ صغير يسعى ليجتلب لنا فاكهة وردية من اشجار ضخمة يفوق ارتفاعها ابراج الكنائس .. او يعدو على الرمال حافياً وقد حمل الينا عش عصفور !

ولما بلغت الثالثة عشرة من عمرها . اصطحبها ابوها الى المدينة ليلحقها بالدير ، فتزلا في فندق بحمي (سان جرفيه) ، حيث قدم لها العشاء في صحاف موشاة برسوم تمثل حياة « مدموازيل دي لافالير » .. وكانت التفصيلات الخرافية - التي تناهت الى اذنيها خلال صليل السكاكين عن حياة تلك الآنسة - تنطوي على تمجيد البلاط الملكي ، واطهاره في اطار من التدوين ، ورقة المشاعر ، واهية المنظر !

ولم تستشعر سأمأ من حياتها بالدير - في الايام الاولى - بل انها استطابت صحبة الراهبات الطيبات ، اللاتي كن يعملن على التسرية عنها باصطحابها الى الكنيسة المتصلة بغرفة الطعام باروقة طويلة ... ولم تكن تلعب في اوقات الفراغ الا نادراً ، اذ كانت تحرص على استذكاك اصول الدين عن ظهر قلب ، حتى غدت تنفرد دائماً بالاجابة على الاسئلة الصعبة

الدقيقة التي كان القس يوجهها الى الفتيات !

وهكذا عاشت في جو حجرات الدراسة الدافئة لا تجاوزه ، وبين اولئك السيدات الناصعات البياض ، ذوات المسابح التي تتدلى منها الصلبان النحاسية .. وفي رفق ولين ، اخذت تستلم لذلك الاسترخاء التصوفي الذي ينبعث من عطور المذبح ، واحواض مياه التبرك ، واضواء الشموع !.. وكانت تشغل عن تتبع القداس بتأمل الصور الدينية المحوطة باطار سماوي اللون ، في كتاب الدين .. فأجبت (الحمل المريض) ، و (القلب المقدس) الذي نخرقه السهام ، والمسيح المسكين الذي يسقط ، وهو سائر ، تحت الصليب . وكانت تحاول ان تصوم عن الطعام يوماً بأكمله لتروض روحها .. وتجهد رأسها في ابتداع ألوان من النذر لتعمل على تحقيقها !

وكانت حين تذهب الى « كرسي الاعتراف » تبتكر خطايا صغيرة تزعمها لكي تطيل في فترة ركوعها في الظلال ، فتصني الى همس القس ، ويدها مضمومتان ، ووجهها امام السياج المحيط بالكرسي !! وكانت الاوصاف المجازية التي تتناول « الخطيب » ، و « الزوج » ، و « العاشق الالهي » ، و « الزواج الابدی » ، والتي كانت تتردد في المواعظ ، تثير في اعماقها نشوة غريبة !

وفي المساء ، كانت الفتيات يقرأن في قاعة الاستدكار - قبل الصلاة - نصوصاً دينية ، كن يحترنها في ايام الاسبوع من بعض ماخصات التاريخ المقدس ، او من محاضرات الراعي « فراياسينوس » .. اما في ايام الآحاد ، فكن يقرأن فقرات من « عبقرية المسيحية » على سبيل الترويح .. وكما كانت تنصت في البداية للمراثي الربانية المفعمة بالكآبة والشجن العاطفي ، والتي كانت اصداؤها تتردد بين الارض والابدية !!

ولو انها عاشت طفولتها في جوف حانوت بحري تجاري ، لتفتحت نفسها لنفحات الطبيعة الخلابه ، التي لا تسري اليها عادة الا اذا ترجمها لنا الكتاب .. ولكنها عاشت تلك الطفولة في الريف ، فعرفت ثغاء القطعان ،

والالبان ، والمحارث !! .. ولما كانت قد ألفت المناظر الهادئة ، فقد اخذت تتجه الى نقيضها .. الى المناظر المثيرة ا . ومن ثم لم تعد تحب في البحر الا انواءه ، ولا تعجب بالخضرة الا منتثرة وسط الخرائب .. كان لا بد لها من الحصول على منفعة شخصية من الاشياء ، فلم تكن ترى نفعاً لما لا تجد فيه غذاء مباشراً لقلبها ، اذ كان مزاجها حسيّاً عاطفياً ، أكثر منه فنياً .. وبعبارة واحدة : كانت تبحث عن العاطفة أكثر مما تبحث عن المنظر !!

* * *

وكانت تفد على الدير عانس تقضي اسبوعاً من كل شهر ، تعنى خلاله بكل ما يتعلق بالملابس والاعطية . ولما كان المطران يرعاها لانتمائها الى اسرة عريقة من اسرات النبلاء التي حطمتها الثورة ، لذلك كانت تتناول الطعام في القاعة المختصة لذلك مع الراهبات .. ثم تجاذبن الحديث قبل أن تصعد إلى عملها . وكثيراً ما كانت التلميذات يتسلن من قاعة الاستذكار الى حيث تعمل ، اذ كانت تردد في همس - وهي تحرك ابرتها في القماش - بعض اغنيات غرامية من القرن الماضي ، تحفظها عن ظهر قلب !! .. وكانت تقص النوادر ، وتروي الانباء ، وتقضي الحاجات من المدينة ، وتعتبر التلميذات الكبيرات - سراً - روايات كانت تحتفظ بها دائماً في جيب مرولتها .. ولا تكف عن « التهام » فصول طويلة منها ، بين فترات عملها !! .. وما كان امثال الروايات ليدور الا عن الحب والمحبين ، ونساء معذبات يُغنى عليهن في خلوات منعزلة ، وسياس يقتلون في كل رحلة ، وخيل تنفق في كل صفحة ، وغابات مظلمة ، وشجون تفعم القلوب ، وعهود ، وزفرات ، ودموع ، وقبلات ، وزوارق في ضوء القمر ، وبلابل في الخجائل ، وسادة في شجاعة الاسود ووداعة الحملان ، اوتوا

من الشهامة قدراً لا مثيل له .. محفظين بانافتهم دائماً .. ويكون ،
فتسيل دموعهم كالسيل المتون !

وهكذا ظلت « ايمما » خلال اشهر ستة من عامها السادس عشر ،
تنفض باصابعها الغبار عن تلك الروايات العتيقة . ثم ارشدها « والتر سكوت »
— بعد ذلك — الى التاريخ ، فراحت تحلم بالاثاث والرياش ، وقاعات
الحرس ، والشعراء الذين يغنون اشعارهم على القيثارة . وكانت تمنى
لو انها عاشت في احد تلك القصور القديمة التي كانت تقرأ عنها ، كأولئك
النبيلات ذوات الصدور الطويل ، اللاتي كن يقضين ايامهن تحت الاقواس
ذات الطراز القوطي ، وقد اعتمدن بمراقفهن على الاحجار ، واسندن
ذقونهن الى راحات ايديهن ، وسرحن البصر يرقبن مقدم فارس ذي ريشة
بيضاء يركض بين الحقول على صهوة جواد اسود ! . وانزلت « ايمما »
الملكة الانجليزية « ماري ستوارت » من نفسها منزلة القداسة ، واكبرت
— في حماس — النساء الشهيرات ، المنكوبات : فكانت « جان دارك » ،
و « هلوبز » ، و « آبيس سوريل » ، و « فيرونير » الفاتنة ،
و « كليمانس هيزور » . كل اولئك كن — في نظرها — كواكب في
ظلمات التاريخ اللانهائية ! .. وكانت تبرز لها من جوف الظلمات صور
اخرى غامضة ، مبهمة ، لا رابط بينها ، تمثل « سان لويس » وبلوطته
التي كان يجلس تحتها ، واحتضار « بايار » ، وفظائع لويس الحادي عشر
ولمحات من « سان بارتلمي » ، وغطرسة « كونت بيارين » .. ثم
— ودائماً — ذكرى الصحاف التي نقشت عليها صور تمجد لويس الرابع عشر !
ولم يكن في الاغنيات — التي كانت تغنيها اثناء دروس الموسيقى —
سوى ملائكة صغار ، بأجنحة ذهبية ، وعذارى مقدسات ، وقنوات
يسبح فيها الجنود .. اغان ساذجة كانت تلمح — خلال اسلوبها الركيك
وموسيقاها الضعيفة — صوراً متلاحقة للحقائق الحسية . وكانت بعض
الزميلات يحملن الى الدبر ما يهدى اليهن في عيد رأس السنة من كتب

انيقة ، كان اخفاؤها مشكلة عويصة !

وكن يقرأنها في «عبر» النوم ، فكانت «إيما» تقلب بين يديها - في رفق - تلك الكتب المغلفة بالحرير ، ثم تقف يبصرها عند اسماء المؤلفين المجهولين الذين كان يسبق توقيعاتهم - في نهايات القصص - لقلب «كوت» او «فيكونت» .. وكانت تعثرها رجفة حين تنفخ في رفق لترفع الورق الشفاف عن الصور ، فلا يلبث ان يتثنى ثم يتزلق مستويًا على الصفحات !

كان بين الصور منظر يمثل سور شرفة وقف خلفه شاب في معطف قصير ، يضم بين ذراعيه فتاة في ثوب ابيض ، ثبتت الى حزامها كيس الصدقات .. كما كانت هناك صور بعض الانجليزيات المجهولات ، ذوات الشعور الشقراء ، اللاتي يرمقنك من تحت قبعات الحوص المستديرة ، بأعين واسعة صافية .. وقد اضطجع بعضهن في عربات تنساب وسط الحدائق ، يقود خيولها سياس في سراويل بيضاء ، وتجري امامها كلاب الصيد الرشيقه .. بينما استلقت أخريات على الارائك مستغرقات في الاحلام ، والى جوارهن رسائل غرام مفتوحة ، وقد سرحت ابصارهن نحو القمر الذي يطل خلال نافذة اخفت نصفها ستارة سوداء !.. كما كانت بعض الصور تمثل فتيات ساذجات يطعمن اليام خلال قضبان اقفاص من الطراز القوطي ، وقد سال الدمع على وجناتهن .. واخريات يتسمن وقد ملن برؤوسهن على اكتافهن ، واخذن ينثرن اوراق زهر المرجريت بأصابعهن المديبة التي تشبه مناقير الصقور !!

هذا ، فضلاً عن صور تبين سلاطين يدخنون الغلايين الطويلة ، وقد استلقوا تحت الخمائل مخدورين بين احضان الراقصات .. ثم السيوف والرماح التركية ، والقلنسوات اليونانية .. واخيراً تلك المناظر الباهتة التي تمثل بلاداً يسودها جو شاعري .. فتريك في وقت واحد النخيل واشجار الصنوبر ، ونمراً الى اليمين ، واسداً الى اليسار ، وماذن التتر عند

حافة الافق ، وخرائب الرومان في المقدمة ، وايل « انيحت » بين هذه وتلك ، وقد احاطت بالجميع غابة عذراء ، اجهد الرسام نفسه في ابدائها نظيفة !.. وقد سقط شعاع عمودي من الشمس ، واخذ يترجرج على صفحة الماء التي صبغت بلون رمادي كلون الفولاذ ، وقد غشيتها خدوش بيضاء على مسافات متباعدة ، تمثل البجع العائم !

وكان المصباح المعلق الى الحائط فوق رأس « ايما » يضيء كل هذه اللوحات التي تمثل مناظر الدنيا ، فتتابع امام بصرها ، و « عنبر » النوم غارق في صمت ، يعكره في بعض الاحيان ضجيج يتناهي من بعيد ، منبعثاً من عربة تذرع الطريق ، بعد ان تقدم الليل !

وقد بكت « ايما » كثيراً في الايام الاولى اوفاة امها ، واوصت بصنع لوحة حزينة مطرزة بمخصلة من شعر « الفقيدة » . وارسلت خطاباً الى (برتو) مليئاً بأفكار قائمة عن الحياة ، طلبت فيه ان تدفن - اذا ما حان اجلها - في المقبرة التي ضمت امها . وجزع ابوها اذ ظنها مريضة فبادر بزيارتها .. واحست « ايما » في اعماقها بالرضى ، اذ رأت نفسها تنفض فجأة الى ذلك اللون الباهت من الحياة المثالية النادرة ، التي لا تتطلع اليها النفوس التافهة !

وهكذا ، ألفت نفسها تنزلق الى ألوان الخيال « اللامارتينية » - اي التي كانت تسود مؤلفات « لامارتين » - فتنصت الى القيثارات على البحيرات ، وانشيد البجع المحتضر ، والى صوت سقوط الاوراق الذابلة ، ورفرفة العذارى الطاهرات الصاعدات الى السماء والى صوت الله يتردد في الوديان !! وما لبثت ان ملت كل هذا ، ولكنها لم تشأ في البداية ان تعترف بالملل ، بل استمرت في هذه الخيالات - بحكم العادة ، في اول الأمر ، ثم بدافع من الزهو بعد ذلك ! - ولكنها وجدت السكينة تغمرها في النهاية ، فلا حزن في الفؤاد ، ولا تجاعيد في الجبين !

وكانت دهشة الزاهبات - اللاتي احسن الظن باستعدادها - بالغة ، اذ

لاحظن ان الآنسة « روو » قد اخذت ثفلت من رعائهن .. والواقع انهن كن قد سخون عليها بالطقوس والحلوات والمواظ ، واسرفن في تلقينها التبجيل الواجب نحو القديسين والشهداء ، وفي ازجاء النصائح التي تستهدف اخضاع الجسد وخلص الروح ، حتى اصبحت الفتاة كالفرس التي تسحب بالعنان .. ثم قدر لها ان تقف وان يخرج العنان من بين اسنانها !

ذلك لأن تلك الروح الايجابية التي نمت في جوانحها وسط هذا النشاط الديني .. تلك الروح التي احبت الكنيسة من اجل زهورها ، والاغاني بسبب كلماتها العاطفية ، والادب من اجل مشيراته الحسية .. هذه الروح لم تلبث ان تمردت على اسرار الايمان ، كما تمردت على ذلك النظام الذي كان يتعارض مع مزاجها .. حتى ان احداً لم يأسف لرحيلها حين سحبها ابوها من الدير .. بل ان الرئيسة شككت من انها غدت في الايام الاخيرة قليلة الاحترام لراهبات الدير !

ووجدت « ايما » - في الفترة الاولى التي تلت عودتها الى البيت - لذة في ان تصدر الاوامر الى الخدم . بيد انها لم تلبث ان ابغضت الريف ، وحنّت الى الدير مرة اخرى !

وعندما وفد « شارل » الى (برتو) لأول مرة ، احست بحجية امل ، اذ لم يسفر ظهوره عن جديد تتعلمه او تحس به ! .. بيد ان شوقها للمهلوف الى شيء جديد ، والقلق الذي ساورها لتغير ظروفها - اولهه الاضطراب الذي بعثه ظهور هذا الرجل - كانا كافيين لكي يحملاها على ان توقن بأنها قد اصابت اخيراً تلك العاطفة الحارقة ، التي كانت تراءى لها - حتى ذلك الحين - كعصفور كبير ذي ريش وردي ، يخلق ببهاء في سموات الشعر .. عاطفة الحب ! .. وما استطاعت حينذاك ان تتصور ان تلك السكينة الناعمة التي كانت تعيش فيها ، هي .. السعادة التي كانت تحلم بها !

الفصل السابع

على أنها كانت نخال أحياناً ، ان الايام المقبلة هي اجمل ايام حياتها .. ايام شهر العسل ، كما يسمونه !.. بيد أنها كانت ترى لزاماً - لكي تتذوق حلاوة ذلك « العسل » كاملة - ان ترحل الى البلاد ذات الأسماء الرنانة ، التي تتسم فيها فترة ما بعد الزواج بلذة الدعة والاسترخاء.. والتي يصعد المرء فيها - على مهل - طرفاً وعرة ، في عربات ذات ستائر زرقاء ، وهو ينصت الى انشودة السائس ترددها قم الجبال ، ويختلط بها رنين الأجراس الملتفة حول اعناق الماعز ، وخرير الماء المتساقط .. ومع غروب الشمس ، يتنسم المرء - عند حواف الخلجان - عبر اشجار الليمون ، حتى اذا ارخى الليل سدوله ، خلا العروسان الى نفسيهما في الشرفة يحدقان في النجوم وقد اشتبكت اصابعهما ، واخذا يرسمان الخطط للمستقبل !!

بل لقد خيل اليها ان في الدنيا بقاءً تنبت السعادة ، كما لو كانت السعادة شجرة لا تنبت الا في تربة معينة لا نمو لها في غيرها ! ولطالما ساءلت نفسها : لماذا لم يقدر لها ان تتكىء على حافة شرفة

منزل خشبي على جبال سويسرا ، او ان تحبس شجونها في كوخ
باسكتلندا ، مع زوج يرتدي حلة من المخم الأسود ذت ذيل سايف ،
وحذاءين طريين ، وقبعة مدببة ، واكماماً مشاة ؟! .. لكم تمت لو
تفسي لأحد هذه الخواطر جميعاً .. ولكن ، كيف السبيل الى الافصح
عن ذلك الضيق الذي يتعذر التعبير عنه ، والذي يتبدل صورته كالسحاب ،
ويعصف بنفسها كالرياح ؟ .. وهكذا ، كانت تعوزها الالفاظ ، كما
اعوزتها الفرصة والجرأة !

ومع ذلك .. آه ، لو اراد « شارل » .. لو خطر بباله .. لو
التقت نظراته مرة بخواطرها .. اذن ، لتفتح قلبها - فيما تحسب - عن
فيض مفاجيء ، كما تتساقط النوار الناضجة عن الاشجار بمجرد ان تمسها
الأيدي ! .. بيد ان الأمر كان يجري على النقيض من ذلك .. فكما
ازدادت اللفة بينها ، ازداد شعورها بانطواء روحي ، واتسعت الهوة
التي تفصلها عنه !

كان حديث « شارل » سطحياً .. كسطح افريز الطريق ، تمر عليه
آراء الناس في لباسها العادي ، فلا تثير فيه انفعالات ، او ضحكاً ، او
خيالاً ! .. فهو لم يحس بحجب الاستطلاع - كما كان يقول - يدفعه
لأن يذهب الى المسرح لمشاهدة الممثلين الباريسيين ، ايام كان يقيم في
(روان) .. ولا كان يعرف السباحة ، ولا استخدام السلاح ، ولا
اطلاق الرصاص .. وعجز مرة عن ان يفسر لها عبارة من مصطلحات
الفروسية ، صادفتها في احدى الروايات !

ألم يكن من الواجب ان يسير الأمر على العكس من ذلك ، فيعرف
الرجل كل شيء .. ان يكون مبرزاً في كثير من نواحي النشاط ليدرب
زوجته عليها .. ان يبصر المرأة بخبايا العواطف ومتع الحياة .. وبكل
الأسرار ؟! .. لقد كان « شارل » على العكس من هذا كله ، فلا

هو بصرها بشيء ، ولا كان يعرف شيئاً .. بل انه لم يكن يطمح الى شيء !!

كان يظنها سعيدة ، وهي في الواقع تنقم عليه هذا السكوت الخامل ، وذلك الركود المطمئن .. بل تنقم عليه أن حظى بتلك السعادة التي أناحتها له !

وكان يحلو لها أحياناً ان ترسم ، فكان « شارل » يجد تسلية ممتعة في ان يقف جامداً يتأملها وهي عاكفة على لوحتها ، او وهي تنعم النظر الى الرسم وقد ضاقت حدقتها امعاناً في الدقة ، او هي تعبت بقطعة من لباب الخبز تكورها بين اصابعها .. اما اذا عزفت على « البيانو » فكان اعجابه يزداد كلما ازدادت حركات أناملها سرعة ا .. كانت توقع النغمات في ثقة ، وتجري اصابعها على المفاتيح من اعلى الى اسفل دون توقف ، فتعز أوتار الآلة القديمة ، حتى ليصل صوتها الى أقصى القرية اذا كانت النافذة مفتوحة .. وكثيراً ما يحدث ان يكون محضر القرية ماراً في الطريق ، فيتوقف عن السير ، ويأخذ في الاصغاء وهو عاري الرأس ، وأوراقه في يده !

* * *

وكانت « ايما » - من ناحية اخرى - تحسن تدبير المنزل ، وتكتب للمرضى رسائل لبقة تذكرهم فيها بأنواع الاستشارات الطبية ، دون ان يشتموا منها رائحة المطالبة !.. وعندما يصادف وجود ضيف من الجيران على مائدة الغداء - في أيام الآحاد - كانت تنتهز الفرصة لتعرض بعض آيات الأناقة في تقديم اصناف الطعام .. كأن ترص اهرامات من البرقوق على ورق العنب ، او تصوغ الحلوى في قوالب تصبها على الأطباق ..

بل انها اخذت تعرب عن رغبتها في شراء « سلاطين » تملأ بالماء ،
لتغمس فيها الأصابع بعد تناول الحلوى .. وكان كل هذا مدعاة الى
رفع شأن اسرة « بوفاري » في انظار الناس !

وانتهى الأمر بشارل الى ان ازداد تقديره لنفسه اذ وفق الى مثل
هذه الزوجة !.. وكان يطلع زائريه مزهواً على لوحتين صغيرتين رسمتها
« ايما » بالفحم ، وصنع لها اطارين عريضين . وعلقها الى الحائط
بشريطين اخضرين .. وكثيراً ما اصبح يرى واقفاً امام باب منزله -
بعد مبارحة الكنيسة - وفي قدميه خفان بديعا التطريز يختال بهما
فخوراً !

وكان في بعض الأحيان يعود الى المنزل متأخراً - في الساعة العاشرة ،
وربما في منتصف الليل - فيطلب الطعام ، بينما تكون الخادم قد أوت
الى فراشها ، وعند ذلك كانت « ايما » تتولى اعداد المائدة له ، فيخلع
سترته لكي يتناول عشاءه في ارتياح ، وينطلق في سرد اسماء جميع من
قابل من الناس ، وما زار من قرى ، وما وصف لمرضاه من ادوية..
ثم يأتي - وهو راض عن نفسه - على ما تبقى امامه من « نخبى » ،
ويعقب بقطعة من الجبن ، ثم يأخذ في قضم تفاحة ، وفي افراغ ابريق
النبيذ في جوفه .. ولا يلبث ان يذهب الى السرير فينطرح عليه، ويمضي
في الغطيط !

وكان قد عدل عن « الطاقية » القطنية التي اعتاد لبسها في السرير ،
وألف ان يلف حول رأسه وشاحاً لا يكاد يستقر على اذنيه ، فيصحو
في الصباح وشعره متهدل ، مبعثر على وجهه ، وقد علق به بعض حشو
الوسادة التي تكون اشربتها قد انحلت اثناء الليل ..

كذلك كان يرتدي في النهار حذاءين كبيرين ، لكل منهما رقبة عالية ،
تعلو سطحها ثنيتان سميكتان تنحرفان نحو كعب القدم .. اما وجه الحذاء
فكان دائماً مستويّاً في خط مستقيم ، وكأنه مشدود على خشب . وكان

يردد دائماً : « هذا هو النوع المناسب للريف » !
 وكانت امه تؤيده في هذا الاقتصاد ، اذا ما جاءت لزيارته - كلما
 اشتبكت في خلاف مع زوجها - كما كانت تفعل ايام الزوجة الأولى !..
 وكانت تبدو برمة بالزوجة الجديدة ايضاً ، اذ كانت ترى اساليبها
 مدعاة لاسراف يفوق مستوى ثرائهم .. فالخشب والسكر والشموع تستهلك
 بكميات تعادل ما يستهلك في البيوت الكبيرة .. وكميسة الجمر التي
 كانت تحرق في المطبخ تكفي لطهو عشرين صنفاً من الطعام !.. وكانت
 تعتمد الى ترتيب « بياضات » زوجة ابنها في الصوان ، وتعلمها كيف
 تحاسب الجزار اذا ما أحضر اللحم ، فكانت « ايما » تتقبل بصبر ما تجود
 به الأم من دروس !.. وكانت كلمتا « ابني » و « امي » تتبادلان
 طوال النهار ، مصحوبتين برعشة في الشفاه ، اذ كانت السيدتان تلفظان
 اعذب كلمتين ، بلهجة تهتز بالغضب !!

كانت الأم العجوز تشعر في عهد مدام « دوبيك » بأنها ما زالت
 الأثيرة المفضلة لدى ابنها .. أما الآن ، فقد بدا لها حب « شارل »
 لا يما بمثابة فرار من حنانها ، او عدوان على ما كان لها .. فأخذت
 ترقب سعادة ابنها في صمت كئيب ، كانسان أفلس فراح ينظر خلال
 زجاج النوافذ الى أغراب احتلوا داره القديمة .. وكانت تروي له
 مشقاتها وتضحياتها - على سبيل الذكرى - وتقارنها باهمال « ايما »
 عسى ان يستنتج ان ليس من الحكمة ان « يعبد » السيدة الشابة ، على
 هذا النحو الذي يملك عليه كل عواطفه !

ولم يكن « شارل » يدرى كيف يتصرف .. فهو يحترم امه ، كما
 يحب زوجته حباً لا حد له .. وكان يعتبر امه معصومة من الخطأ ،
 ولكنه - مع ذلك - لم يكن يرى في مسلك زوجته مدعاة للوم !..
 وكان يستجمع جرأته - بعد ان ترحل مدام بوفاري - فيردد في
 استحياء - وبنفس ألفاظ أمه - بعضاً من أهون المآخذ التي يكون قد

سممها منها .. ولكن « ايما » كانت - بكلمة واحدة - تقنعه بأنه على خطأ ، وترسله الى مرضاه .. ومع ذلك فقد ظلت تحاول ان تقنع نفسها بأنها تحبه وفقاً للنظريات التي كانت تؤمن بها !.. كانت تردد على مسمعه - في الحديقة ، وفي ضوء القمر - ما كانت تحفظه عن ظهر قلب من الشعر الملتهب ، وتغني له - وهي تتنهد - بعض الألحان المشجية .. بيد انها كانت تجد نفسها بعد ذلك ساكنة العواطف ، كما ان « شارل » لم يكن يبدو اكثر حياً ولا انفعالاً مما كان قبل الشعر والغناء !

وهكذا لم تلبث - بعد ان قدحت زناد قلبها فلم تنبث منه شرارة - أن انسقت الى اقناع نفسها بأن حب « شارل » خال من الحرارة !.. فقد اصبحت اوقات انطلاقه وتحمله منتظمة .. وهو يقبلها في « مواعيد » معينة ، وكأنه يمارس « عادة » من العادات !.. او كأنه يتناول حلوى مرتقبة بعد عشاء ممل !!

* * *

وحدث ان عالج الطبيب احد الحراس من التهاب رئوي ، فأهدى الحارس زوجته كلبة ايطالية صغيرة اخذت تصحبها في نزهاتها ، اذ كانت تخرج احياناً كي تخلو الى نفسها ، وحتى تريح بصرها بعض الشيء من النظر الى تلك الحديقة العتيقة ، والطريق المتربة !.. كانت تمضي حتى غابة الزان عند (بنفيل) ، على مقربة البناء المهجور الذي تؤلف جدرانه زاوية عند منعطف الطريق المفضية الى الحقول .. وهناك ، وسط الأعشاب النامية في الخندق ، واعواد البوص ذات الأوراق الحادة ، كانت تتأمل ما حولها لتبين ما اذا كان قد ألم بالمكان اي تغير عما كان

عليه في آخر مرة. جاءتة .. فكانت ترى زهور « الريجتيلالا » والقرنفل في نفس منابتها ، والنباتات الشوكية تحيط بالاحجار الكبيرة ، والطحالب على طول النوافذ الثلاث – في المبنى المهجور – التي كانت مصاريعها مقفلة باستمرار ، يتسرب خلالها التراب ليترام على قضبانها الحديدية التي علاها الصدا .

وكانت افكارها لا تلبث ان تهيم بلا غاية ، مثل كلبتها التي كانت تجري في حلقات خلال الحقول ، وترسل نباحها خلف الفراشات الصفراء ، وتطارد الجرذان او تعضعض الحشخاش النامي على حافة حقل القمح . ثم تأخذ افكارها في التركيز شيئاً فشيئاً ، فتردد لنفسها وهي تفتش الحشائش التي كانت تعبت بها بطرف مظلتها : « يا إلهي ! .. لماذا تزوجت ؟ ! »

وكانت تسائل نفسها : « أولم تجد المصادفات طريقاً آخر تدفعها خلاله لثقتي برجل آخر ؟ .. » ثم تمضي في تخيل الأحداث التي كانت تترتب على ذلك .. الأحداث التي لم تقع ، والحياة التي تغاير حياتها الحالية ، والزوج الذي لم تعرفه .. فلا مرء في ان الأزواج ليسوا جميعاً مثل زوجها ! .. كان من الممكن ان يكون زوجها جميلاً ، مرحاً ، انيقاً ، جذاباً ، مثل اولئك الأزواج الذين ولا بد قد حظيت بهم زميلاتها في الدير ! .. ترى ماذا تفعل اولئك الزميلات الآن في المدينة ، وسط ضجيج الشوارع ، واضواء المسارح ، وصخب المراقص ؟ .. انهن ولا ريب يحظين بحياة يفتتح بها القلب ، وتنتعش الحواس .. اما هي ، فان حياتها باردة كالمخزن الذي أوتي نافذة شمالية !

والمثل !؟ .. ذلك العنكبوت الصامت الذي كان يغزل نسيجه في الظلال ، في كل ركن من اركان قلبها !

وتذكرت ايام توزيع الجوائز – اثناء الدراسة – حين كانت تصعد الى المنصة لتسلم نصيبها من التيجان الصغيرة ، وقد بدت بنديعة بشعرها

المجدول ، وثوبها الأسود ، وحذاءها الصوفيين الخفيفين .. وكان
السادة ينحنون ليسمعوها عبارات التهنية ، اذا ما عادت الى مكانها ..
ويطلون من نوافذ العربات التي تملأ صحن الدير ليودعوها عند انصرافها!..
كما كان مدرس الموسيقى يجيئها اذ يمر بها حاملاً قيثارته .. أواه!..
لكم اصبح كل هذا بعيداً .. آه ، شد ما بعد !

وكانت تنادي كلبتها « جالي » فتضعها على ركبتيها ، وتمر بأصابعها
فوق رأسها الصغير ، وتهمس لها : « هيا .. قبلي سيدتك ! .. قبلها
يا من لا تثقل الموم قلبها ! »

وتأخذ في تأمل وجه هذا الحيوان الرشيق ، الواجم ، الذي يتشاءب
في بطاء ، فيلين قلبها ، وتروح تقارن بين نفسها وهذا الحيوان ،
وتحدثه بصوت مسموع ، وكأنها تعزي شخصاً منكوداً !

وكانت الريح تهب احياناً قوية ، تأتي من ناحية البحر فتكتسح
هضبة (كو) بأسرها ، وتحمل الى الحقول المترامية رطوبة ملحة ..
فيصدر من البوص صفيح خافت ، وهو يميل على سطح الارض ..
وبين اغصان الزان تسري رعشة سريعة ، بينما ينبعث على قمها همس
عميق ، فتشد « ايما » شالها حول كتفيها وتنهض منصرفه ..

وكان ضوء النهار ينبعث خلال اوراق الشجر ، مستعبراً لونها الأخضر،
فينعكس على العشب القصير الذي يثن في رفق تحت قدميها .. ولا تلبث
الشمس ان تجنح للمغرب ، فتحمر السماء اذ تلوح بين الغصون ، وتبدو
جدوع الاشجار النامية بانتظام في خط مستقيم ، كأنها أعمدة قائمة
على صفحة من الذهب .. وتسري الرهبة الى نفس « ايما » فتنادي
كلبتها « جالي » ، وتسرع الى (توست) .. ثم تستلقي على مقعد

مريح ، ونظل صامتة بقية الليل !

* * *

واعترض حياتها - في اواخر سبتمبر - حادث غير عادي . فقد دعيت الى (فويسار) لزيارة مركز « اندرفيليه » !.. ولما كان المركز قد تولى الوزارة من قبل - عند عودة الملكية - فانه اخذ يتطلع للعودة الى الحياة السياسية ، وبكر بالتمهيد لترشيح نفسه لمجلس النواب .. فكان في الشتاء يوزع الخطب ، وكان في مجلس المقاطعة يطالب متحمساً باصلاح الطرق في دائرته .. فلما جاء الصيف بحره اللافح ، اصيب بدمل في فمه ، استطاع « شارل » ان يريحه منه - بما يشبه المعجزة - بحركة من مبضعه على وجهه في الوقت المناسب ! وعندما عاد المندوب الذي ارسله المركز الى (توست) ليدفع أتعاب الطبيب ، ذكر لسيده ان في حديقة الطبيب نوعاً ممتازاً من « الكريز » الذي كان نمو بذوره متعذراً في حدائق (فويسار) .. فطلب المركز بعض « العقل » .. وعني بأن يذهب بنفسه الى الطبيب ليشكره .. وهناك وقع بصره على « ايما » ، فلاحظ قوامها الأهيف واسترعى انتباهه انها لا تنحني بالتحية كالفلحات .. ولم ير اي مغالاة في التواضع او أي خرق للتماليد ، في دعوة الزوجين الشابين الى قصره !

وفي الساعة الثالثة من احد ايام الاربعاء ، رحل السيد والسيدة «بوفاري» الى (فويسار) في عربة شدت الى سطحها حتمية كبيرة .. ووضع امام مقعدها صندوق للقبعات ، فضلاً عن ان « شارل » حمل على فخذه صندوقاً من الورق المقوى .

ووصلا عند هبوط الليل ، عندما كانت مصابيح الحدائق تضياء ، لتبر الطريق للعربات .

الفصلُ الثامن

كان القصر مبنياً على الطراز الايطالي الحديث ، يمتد منه جناحان ، وله ثلاثة مداخل تفضي الى شرفات ذات درجات .. وكان يقوم في نهاية مرج واسع ترعى فيه بعض الأبقار ، بين مجموعات متباعدة من الاشجار الضخمة ، التي بسطت اوراقها المتفاوتة الخضرة على احواض الورد ، واحواض الزهر المسمى بكرات الجليد ، والتي انتشرت على طول الطريق الرمي المتعرج .. وكان هناك جدول يجري تحت قنطرة .. ومن خلال الضباب كانت تلوح مبان مفروشة بالقش ، تنتشر في المروج التي حفت بها هضبتان تنحدران انحداراً هيناً ، وتكسوهما الغابات .. وعلى البعد ، بدا وسط الاحراش صفان متوازيان من المخازن والحظائر ، هما كل ما تبقى من القصر القديم المتهدم ..

ووقفت غربة «شارل» امام السلم الاوسط ، فظهر الخدم .. وتقدم المركز فاعار زوجة الطيب ذراعه وقادها الى البهو ، الذي رصفت ارضه ببلاط من الرخام ، وارتفع سقفه الى علو شاهق ، فكان يتردد لوقع الأقدام والاصوات فيه صدى كالذي يتردد في الكنائس . وفي اقصى البهو كان يوجد سلم مستقيم .. والى اليسار كانت ثمة شرفة تطل

على الحديقة ، وتؤدي الى قاعة « البلياردو » التي كانت اصوات ارتطام الكرات العاجية تنبعث خلال بابها .

وبينما كانت « ايما » في طريقها الى قاعة الاستقبال ، وقع بصرها على رجال تبدو عليهم سياء الوقار والعظمة ، وقد استقرت ذقونهم فوق اربطة رقابهم العالية .. وكانوا جميعاً يحملون الاوسمة ، ويبتسمون في صمت وهم مكبّون على مائدة « البلياردو » .. وفوق الخشب السداكن الذي يكسو الجدران ، كانت ثمة اطارات مذهبة ، نقشت على حوافها السفلى اسماء بحروف سوداء ، فرأت « ايما » منها « جان انتوان دواند فيلييه دي ايفرونفيل ، كونت دي فويسار ، وبارون دي فريناي ، الذي قتل في موقعة (كوترا) في ٢٠ اكتوبر سنة ١٥٨٧ » . وقرأت تحت اطار آخر : جان انتوان هنري جي دي اندفيليه دي فويسار ، اميرال فرنسا ، وحامل وسام فروسيه القديس ميشيل ، الذي جرح في موقعة (هوج سا ست) في ٢٩ مايو سنة ١٦٩٢ ، ومات في (فويسار) في ٢٣ يناير سنة ١٦٩٣ » .. اما بقية الاسماء ، فلم يسهل على « ايما » تبينها ، اذ كانت اضواء المصابيح المنعكسة من مائدة « البلياردو » الخضراء تلقي ظلالاً قائمة حول القاعة ، وعلى اللوحات الافقية ، فتظهر التشققات التي كانت تتخلل سطحها كخطوط دقيقة .. ومن خلال هذه المربعات الكبيرة السوداء ، المحاطة باطارات من ذهب ، كانت تبدو هنا وهناك اجزاء اكثر وضوحاً في اللوحة : جبهة شاحبة ، او عينان حادتان ، او شعر مستعار يتهدل على الاكتاف فوق ملابس حمراء ، او عقدة ربطة الساق فوق الريلة ..

وفتح المركيز باب الصالون ، فنهضت احدى السيدات - وهي المركيزة نفسها - واستقبلت « ايما » وأجلستها في مقعد الى جوارها ، ثم أخذت تؤثرها بحديث ودي ، كما لو كانت تعرفها منذ زمن بعيد ! .. كانت سيدة في نحو الاربعين ، أوتبت كتفين بديعتين ، وانفاً حاداً ،

وصوتاً لينا .. وكانت تطرح فوق شعرها الكستنائي - في ذلك المساء -
شالاً من « الدانتيل » ، ينسدل على ظهرها في شكل مثلث .. والى
جوارها ، كانت تجلس شابة ، في مقعد عالي الظهر ، ورجال حليت
عري سترانهم بورود صغيرة ، وقد اشتبكوا في الحديث مع السيدات
حول المدفأة .

• •

وأعد الطعام في الساعة السابعة ، فجلس الرجال - وكانوا اكثر
عدداً من السيدات - حول المائدة الاولى في قاعة الطعام ، بينما جلست
السيدات حول المائدة الثانية التي كان يرأسها المركز والمركيزة .
وأحست « ايمان » عند دخولها القاعة بجو دافئ : مزيج من أريج
الزهور ، والملابس الجميلة ، وأنجرة اللحم ، ورائحة « عش الغراب »
وشموع المشاعل التي انعكست ألسنة لهيها الطويلة على الأواني الفضية
والأكواب البلورية المضلعة التي احاطتها الأنجرة بغلالة خفيفة ينبعث
خلالها بريق باهت . وتناثرت الزهور على طول المائدة ، واستقرت
المناشف - التي طويت على شكل قطنسوات رجال الدين - على الأطباق
ذات الحواف العريضة ، وبرزت خلال ثناياها ارغفة بيضاوية صغيرة ..
ورصت الفاكهة الكبيرة الحجم بعضها فوق بعض طبقات ، على فراش
من العشب الأخضر داخل سلال مفتوحة الجوانب .. والانجرة تتصاعد ،
ورئيس خدم المائدة (السفرجية) - في جوربيه الحريريين ، وسرواله
القصير ، ورباط رقبته الأبيض ، وقمصه الذي وشي صدره بالدانتيل -
يمر بالطبق بين اكتاف المدعويين في وقار القضاة ، وبغزمة واحدة من
ملقعة بين اجزاء الصنف الذي يحمله - وقد قسمت من قبل - تقفز
اليك القطعة التي تختارها !.. وفوق المدفأة الخزفية ذات القضبان النحاسية ،
كان ثمة تمثال لامرأة مدثرة حتى الذقن ، تنظر في صمت من القاعة

التي حفلت بالناس !
.. ولاحظت « ايما » ان كثيراً من السيدات لم يضعن قفازاتهن
في اكوابهن !

* * *

وجلس في اقصى المائدة - وحيداً بين السيدات - شيخ انحنى على
طبقه المليء وقد ربط منشفته الى صدره كالطفل ، واخذت قطرات
« الصلصة » تتساقط من فمه وهو يأكل .. وكانت عيناه محتمتين بلون
الدم .. ذلك كان والد زوجة المركيز : « دوق فرديير » المسن ،
الذي كان ذا حظوة لدى « كونت دارتوا » فيما مضى ، ايام نزهاة
الصيد في (فودري) عند المركيز « دي كونفيان » .. والذي قيل انه
كان عشيقاً للملكة « ماري انتوانيت » الى جانب عشيقها الآخريين
« دي كويني » و « دي لوزون » !
وكان الدوق قد عاش حياة عربدية صاحبة ، حفلت بالمبارزات
والمراهنات ، وبالنساء اللواتي كان يغويهن .. وقد بدد ثروته ، وازعج
اسرته كلها !

وكان يقف خلف مقعده خادم يهتف في اذنه بأسماء الأطباق التي
يشير اليها باصبعه مغمماً في تهتهة .. واخذت عينا « ايما » ترتدان
بأستمرار - وبحركة تلقائية - الى هذا الشيخ ذي الشفة المتدلية ، لتحققا
فيه ، وكأنه شخص فذّ جليل !.. كيف لا وقد عاش في البلاط الملكي ،
ونام في فراش الملكات !!

وكانت الكؤوس ترتع بالشمبانيا الثلجة ، التي كانت ترسل في جسد

١ - كانت هذه هي عادة سيدات المجتمع في فرنسا في القرن الماضي .

« ايما » كله رعدة ، كلما مست شفتيها !! لم تكن قد رأأت الرمان في حياتها من قبل ، ولا أكلت الأناناس .. بل ان مسحوق السكر الناعم بدا لها انصع بياضاً واكثر نعومة منه في أي مكان آخر !
وما لبثت السيدات ان صعدن الى حجراتهن ليتخذن اهبتهن للحفلة الراقصة .. فعنيت « ايما » بزينتها في دقة الممثلة التي تستعد لليلة ظهورها الأول ونسقت شعرها وفقاً لنصائح الخلاق ، وأخذت ترتدي ثوبها الصوفي الخفيف الذي كان مبسوطاً على السرير ، بينما كان « شارل » يشد بنطلونه الى وسطه ..

وقطع « شارل » الصمت قائلاً : « لسوف يضايقني السير الجلدي - الذي يشد الخدابين الى البنطلون - اثناء الرقص » .

فهتفت في استنكار : « الرقص ؟ ! »

واذ أجاب : « نعم » ، قالت : « هل طاش عقلك ؟ .. لسوف يسخرون منك ! .. إلزم مقعدك ! » .. ثم أردفت : « ان هذا أليق بمكانتك كطبيب » !!

ولزم « شارل » الصمت ، وراح يذرع الغرفة ريثما تفرغ « ايما » من ارتداء ثيابها .. كان يراها من الخلف - على صفحة المرأة - بين مشعلين ، وقد لاحت عيناها اشد سواداً مما عهدهما .. وخصلات شعرها المتسدلة في تموج على اذنيها تلمع بهريق أزرق ، وقد ثبتت في لفافة شعرها المكور في مؤخرة رأسها وردة صناعية على ساق متأرجحة ، وقد تناثرت على اوراقها قطرات من الماء ! . اما ثوبها ، فكان ذا لون اصفر شاحب ، تحليه ثلاث باقات من ورد صناعي احيط بالخضرة .. وتقدم « شارل » فطبع على كتفها قبلة . واذا ذاك هتفت : « ابتعد عني لثلاث تلف اتساق ملابسي ! »

وسمعت « ايما » انغاماً من قيثارة ، ودوي بوق ، فهبطت السلم وهي تمسك نفسها بعناء عن الجري .. وكانت حلقات الرقص الرباعي قد بدأت ، وأخذ المدعون يتدافعون ، فجلست في مقعد مستطيل الى جوار الباب .. حتى اذا انتهت الرقصة ، خلت الحليبة الأ من رجال أخذوا يتحدثون وهم وقوف ، والخدم يروحون ويغدون في زيهم الزرسي وقد حملوا الصحف الكبيرة .. وعلى طول الصف الذي ضم النماء ، كانت المراوح تهتز ، وياقات الورد تحجب جانباً من الوجوه الباسمة ، وقنينات العطر ذات الأغطية الذهبية تدار في الأيدي التي شفت قفازاتها البيضاء عن أناملها ، وضغطت على معاصمها . وكان وشي « الدانتيلاه » والمشابك الماسية ، والاساور ذات الزوائد المدلاة ، يتأرجح فوق الأثواب ، ويلمع فوق الصدور وحول الأذرع العارية !.. وكان الشعر المصفف بعناية فوق الجباه ، والمعقود في مؤخرات الرؤوس ، يحمل زهور الفل او الياسمين او الرمان او البازلاء ، او السنابل التي عقدت على شكل تيجان او عناقيد او اغصان .. وكانت الامهات يجلسن ساكنات بوجوه عابسة ، تتوج رؤوسهن عمام حمراء !

وخفق قلب « ايما » قليلاً عندما تقدمت تتخير لنفسها مكاناً في الصف ، انتظاراً لحركة قوس عازف القيثارة ، ايذاناً ببدء الرقص ، وقد امسك زميلها بأطراف اناملها .. وما ان انسابت الانغام حتى زايلها الانفعال ، فتحركت الى الامام على ايقاع الموسيقى وهي تهز رقبتها هزاً خفيفاً .. واخذت ترسم على شفيتها ابتسامة ، تزداد اتساعاً كلما ابدع عازف القيثارة ، حين ينفرد بالعزف احياناً وتكف الآلات الاخرى عن مشاركته !.. كانت نغماته رقيقة ، هادئة ، حتى ليتمكن معها سماع رنين الجنيهات الذهبية على الجوخ الاخضر ، فوق موائد الميسر في الغرفة المجاورة .. ثم لا تلبث الفرقة الموسيقية ان تعود الى العزف المشترك فجأة ، ويرسل البوق انغامه الرنانة ، فتدق الاقدام في ايقاع ،

وترفرف اطراف « الجونلات » وتلامس ، بينما تتشابك الأيدي ثم تفرق .. والعيون التي تغض عنك لا تلبث ان تعود الى التحديق في عينيك !

وكان ثمة نحو خمسة عشر رجلاً ، تراوح اعمارهم بين الخامسة والعشرين والاربعين ، ينتشرون بين الراقصين ، او يتبادلون الأحاديث عند الابواب ، وقد امتازوا عن الباقين - على تباين اعمارهم وزيناتهم واشكال وجوههم - بسياء عراقية الأصل !.. وكانت ثيابهم البديعة الصنع تبدو أرق نسيجاً من سواها ، وشعورهم تنسدل على الاصداغ في تموجات ، وهي تلمع بأطيب الدهون !.. وكانت لهم بشرة المترفين .. بشرة بيضاء ، يزيداها رواء ما ينعكس عليها من جو الحجره وما فيها من خزف شاحب ، وحرير يتموج ، وأثاث جميل لامع !.. بشرة يضفي عليها رونق الصحة نظام دقيق في التغذية ! .. وكانت رقابهم تتحرك في يسر فوق اربطة منخفضة . وكانوا يمسحون شفاههم بمناديل طرزت عليها حروف اسمائهم ، وتتضوع بشذى مختلف العطور !.. وبينما كانت امارات الشباب تبدو على من ناهز منهم الشيخوخة ، كانت وجوه الشبان منهم تتسم بمسحة من نضوج .. اما نظراتهم غير المكترثة، فكانت تنطق بهدوء حدة الشهوات التي تجرد كل يوم رياً واشباعاً !.. ومن خلال حركاتهم الرشيقه ، كان ينبثق ذلك الاعتداد الذي يولده اعتياد السيطرة على ما في اليد من اشياء ، كما هو الحال في رياضة الخيل الأصلية .. ومصاحبة الغواني !

وعلى بعد ثلاث خطوات من « ايما » ، أخذ أحد فرسان حلبه الرقص - وكان في ثياب زرقاء - يتحدث عن ايطاليا ، الى شابة شاحبة اللون تتحلى بالآليء .. وراحا يعبران عن اعجابها بضخامة اعمدة كنيسة القديس بطرس ، والتريفولي ، وبركان فيزوف ، والكاستلاماري ، والكاسين ، وورود جنوا ، والكوليزيوم في ضوء القمر !

وبالاذن الثانية ، اخذت « اما » تنصت الى حديث زاخر بألفاظ لم تكن تفقهها .. اذ أحاطت جماعة بشاب غض كان جواده قد فاز في سباق الاسبوع الماضي ، وكسب ألفي جنيه في مباراة للقفز فوق حفرة في إنجلترا . وكان بعض افراد الشلة يشكون من ازدياد اوزان بعض خيولهم ، بينما كان فريق آخر يشكو من اخطاء مطبعية حرفت اسماء جياهم في الصحف !

* * *

ونقل جو المرقص ، واخذت اضواء المصابيح تخفت ، والجمع ينصرف الى قاعة « البلياردو » .. وصعد خادم فوق مقعد فكسر لوحين من الزجاج .. واذا أدارت مدام « بوفاري » رأسها على الصوت ، لمحت خلال النافذة وجوه الفلاحين في الحديقة تتطلع الى ما يجري بداخل القصر ، فتذكرت (برتو) ، وعادت الى مخيلتها صور المزرعة ، والبحيرة ، وأبيها تحت اشجار التفاح مرتدياً قميصه !.. بل انها رأت نفسها - كما كانت في الماضي - تنتزع القشدة بأصابعها من قدور اللبن !.. غير ان حياتها الماضية - التي كانت واضحة المعالم حتى تلك اللحظة - سرعان ما تلاشت عن آخرها في بريق ساعتها الراهنة ، حتى كادت ترتاب في انها عاشتها يوماً !.. ولم تعد تعيش الا في حلبة الرقص ، بينما كانت الظلال تلف ما عداها .. وأخذت تتناول المثلجات في كأس مطعمة بالذهب امسكتها بيسراها ، وراحت تسبل جفنيها وهي ترفع الملعقة الى فمها !

وكانت الى جوارها سيدة تركت مروحتها تسقط ، ثم قالت لأحد الراقصين وهو يمر بها : « هل لك يا سيدي ان تتفضل بالتقاط مروحتي التي سقطت وراء هذه الأريكة » .. وانحنى السيد .. وفيما

كان يلتقط المروحة ، لمحت « ايما » السيدة تلقي في قبعتها بشيء ابيض مطوي على شكل مثلث . وما لبث السيد ان قدم المروحة باحترام الى السيدة ، فشكرته بهزة من رأسها ، وتحولت تنشق عبر باقة من الزهور كانت تحملها !

وبعد وجبة العشاء - التي حوت الكثير من نبيذ اسبانيا ، ونبيذ الراين ، وحساء السمك ، وحساء اللوز ، وعصيدة جبل طارق ، وشتى انواع اللحم البارد المحوط بالجيلاتين - اخذت العربات ترحل تباعاً ، واضواء مصابيحها تبدو - من خلف الستائر الحريرية - مترنحة في جوف الظلام . وبدأت المقاعد تخلو .. غير ان بعض المقامرين تخلفوا .. وراح الموسيقيون يعلقون اطراف اصابعهم ليربطوها .. واستسلم « شارل » الى شبه اغفاءة وقد أسند ظهره الى أحد الأبواب ..

وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، بدأ رقص « الكوتيون » . ولم تكن « ايما » على دراية برقصة « الفالس » ، بينما راحت بقية الحاضرات - حتى مدموازيل دي اندفيليه والمركيزة نفسها - يرقصنها .. ولم يكن قد بقي غير اثني عشر شخصاً تقريباً هم نزلاء القصر . على ان احد راقصي « الفالس » - وكان شاباً يرتدي صداراً واسع الفتحة يلتصق بصدره كالقالب ، ويدعوه القوم بلقب « الفيكونت » - تقدم من مدام « بوفاري » يدعوها لمراقصته ، مؤكداً لها انه سيرشدها فلا تلبث ان تتقن الرقصة !

وشرعا يرقصان في بطاء ، ثم ازدادت السرعة . واخذوا يدوران فيدور معها كل ما حولها من مصابيح ، واثاث ، وجدران ، وارض ! .. وعندما مرا على مقربة من الباب ، التف ذيل ثوبها حول بنطلونه ،

فتداخلت أرجلها . وحفض بصره نحوها . ورفعت هي بصرها نحوه .
وعلى الفور أحست بدبيب مخدر يسري في اعصابها !.. وتوقفا عن
الرقص لحظة ، ثم استأنفاه .. واذا « الفيكونت » يقود « ابما » بحركة
رشيقة الى نهاية البهو ، حيث اختفى معها . وكانت قد اوشكت ان
تسقط لاهثة الانفاس ، فاسندت رأسها هنيهة الى صدره .. ثم عاودا
الدوران في حركة أهدأ من ذي قبل ، حتى عاد « الفيكونت » بها الى
مكانها الأول، فتهاكت على مقعد بجوار الحائط، وغطت عينيها براحتيها !
وعندما فتحت عينيها من جديد ، رأت سيدة تجلس على مقعد في
منتصف الصالون ، وقد انحنى امامها ثلاثة من الراقصين يتنافسون على
الفوز بها زميلة في الرقص . ولم تلبث السيدة ان اختارت « الفيكونت »
وعادت القيثارة الى العزف .. واتجهت الانظار الى الراقصين اللذين أخذوا
يروحان ويحيثان ، وجسم السيدة ثابت في استقامته ، وذقنها منكسة الى
اسفل . كذلك كان الفيكونت مشدود القامة ، مقوس الذراع ، وقد
رفع رأسه .. ولم يكن ثمة شك في ان السيدة تجيد « الفالس » ..
وقد استمر في الرقص وقتاً طويلاً حتى انهكا بقية الراقصين !

وانتهى الرقص .. ودار الحديث لبضع دقائق ، ثم تبادل القوم تحيات
الوداع ، او بالاحرى - تحيات الصباح ، ثم انصرف نزلاء القصر الى
مخادعهم ..

وصعد « شارل » السلم وهو يجر نفسه جراً ، وقد كادت ساقاه
تعجزان عن حمله ، بعد ان ظل واقفاً خمس ساعات متوالية يشاهد
لعب الورق دون ان يفقه منه شيئاً !.. وتنفس الصعداء حين حرر
قدميه من حذاءيها !

اما « ايما » ، فقد لفت كتفيها بالشال ، وفتحت النافذة على حافتها ..

كان الليل دامساً ، والمطر يتساقط رذاذاً .. واخذت «ايما» تستنشق – في نهم – الهواء الرطب الذي ارسل في كيانها انتعاشاً .. وكانت موسيقى الرقص ما تزال تطن في اذنيها .. وجهدت لتظل ساهرة ، كي تتمكن خيالها من ان ينعم، اطول وقت ممكن ، بالحياة المترفة التي لم يكن بد من تركها عما قليل !

وبزغ الفجر ، فرمقت نوافذ القصر بنظرات طويلة ، محاولة ان تتصور ما كان يجري في مخادع اولئك الذين لفتوا نظرها في الليلة السالفة ، وكأنها تود لو عرفت حياتهم ، وتسلت اليها !.. ثم فطنت الى انها كانت ترتعش من البرد ، فخلعت ثيابها ، واندست تحت الاغطية الى جوار « شارل » .. الذي كان قد استغرق في النوم !

وفي اليوم التالي ، حضر الغداء عدد كبير ، ولكن جلوسهم الى المائدة لم يتجاوز عشر دقائق .. وادهش الطبيب ان لم تقدم خلال الوجبة أية خور .. وما لبثت مدموازيل « دي اندفيليه » ان جمعت قطعاً من الخبز في سلة لتحملها الى البجع في بركة الماء .. بينما انصرف القوم للترهه في البيوت الزجاجية التي اعدت لانماء نباتات المناطق الحارة!.. وكانت ثمة نباتات غريبة ملبدة بالزغب ، صفت على شكل اهرامات ، تحت اصص معلقة تشبه اوكار الأفاعي ، تدلت من حوافها اشربة طويلة من الورق الأخضر المتشابك .. وكان بستان البرتقال القائم في طرف الحظائر يمتد في طريق مسقوف حتى مرافق القصر ..

وقاد المركيز زوجة الطبيب الشابة الى حظائر الخيل ، على سبيل التسلية وقتل الوقت .. وكانت ثمة لافتات من الخزف ، فوق المداود الشبيهة بالسلال ، تحمل اسماء الخيول بحروف سوداء .. وكانت كل دابة تتحرك في مأواها ، وتقعقع بلسانها ، عندما يمر احد على مقربة

منها .. وبدأت اخشاب ارض الحظائر لامعة كأنها ارضية صالون .. وكانت اطقم العربات مصفوفة في الوسط فوق عامودين ملتفين ، بينما رتبت الأعتة والسياط والسلاسل في خط مستقيم على طول الحائط ... وفي تلك الاثناء ، ذهب « شارل » برجو خادماً ان يعد عربته التي كانت قد اقتيدت الى المدخل .. حتى اذا حملت اليها الحقايب ، قدم الزوجان « بوفاري » تحياتها الى المريكيز والمركيزة ، ثم استقلا العربة عائدين الى (توست) .

* * *

راحت « ايما » ترقب في صمت العجلات وهي تدور ، بينما كان « شارل » يقود العربة وقد جلس على حافة المقعد منفرج الذراعين ، والجواد الصغير يحب بين ذراعي العربة الخشبيتين ، والعنان المرتخي يضرب عجز الحصان فيبتل بالزبد ، بينما كان الصندوق الذي ربط خلف العربة يرتطم بجدارها في ضربات منتظمة ..

وعندما وصلا الى مرتفعات (تيبورفيل) ، مر امامها فجأة عدد من الفرسان يتضاحكون ولفافات السيجار في افواههم .. وخيل لايما انها تعرفت بينهم على « الفيكونت » فالتفت ، غير انها لم تر في الافق سوى رؤوس تتحرك في ارتفاع وانخفاض ، مع حركات الخيل في عدوها وخيبتها ..

وما ان قطعنا نصف الفرسخ حتى اضطرنا الى الوقوف ، كي يصلنا بالحبال ما انقطع من « السير » الذي يربط الجواد الى العربة .. وفيما كان « شارل » يلقي نظرة اخيرة على الطاقم بعد ان اصلحه ، لمح بين اقدام الجواد - على الارض - حافظة سيجار من الحرير الأخضر المطرز ، يتوسطها شعار ينم عن انها لشخص من ذوي الألقاب .. فقال : « ان بها سيجارين ، سأدخلها بعد العشاء الليلة » .

فسألت « ايما » : « اذن فأنت تدخن ؟ » .
قال : « احياناً .. عندما تسنح فرصة لذلك » .
ورضع « غنيمته » في جيبه ، ثم هوى بسوطه على ظهر الجواد الذي
اندفع بالعربة ..

ولم يجدا العشاء معداً حين بلغا دارهما ، فاحتدت « ايما » ولما
اجابتها الخادم « نستازي » في قحة .. صاحت بها :

— اخرجني من هنا !.. هذه وقاحة مشينة !.. انت مطرودة من هنا !
وتحولت تعد العشاء بنفسها .. وكان يتكون من حساء بالبصل ،
وقطعة من لحم العجول .. وجلس شارل امام « ايما » يفرك يديه
ويقول في غبطة : « ما امتع المرء ان يعود الى داره ! »
وتناهى اليها صوت « نستازي » وهي تبكي .. وكان « شارل »
يتزل القنطرة المسكينة من نفسه منزلة طيبة ، اذ شاطرته الأمسيات الطويلة
التي مرت به ايام حزنه ، كما كانت اول من عرفه من اهل المنطقة ،
حين بدأ يمارس مهنته فيها .. فلم يلبث ان سأل زوجته : « أحقاً
طردها ؟ » .

وردت « ايما » ، في حلق : « اجل .. من يمنعي من ذلك !؟ »
وبعد العشاء ، التمس الدفء في المطبخ ، حيث اخذ شارل يدخن
وهو يبط شفتيه ويصق في كل لحظة ، ويضطجع في استمراء عند كل
نفثة دخان !.. فا لبث « ايما » ان قالت له في استهجان : « لسوف
تؤذي نفسك » !.. ومن ثم وضع السيجار جانباً ، ثم جرى الى
المضخة ت « الطلبة » — ينشد كوباً من الماء البارد .. واذ ذاك تناولت
« ايما » حافظة السيجار فقذفت بها في قاع الصوان ..

* * *

ولاح لها اليوم التالي طويلاً ، فأخذت تمشى في حديقته الصغيرة

جيثه وذهاباً ، متوقفة من آن الى آخر امام الأحواض او عرائش الكروم
او تمثال القش المصنوع من الجص ، تتأمل في دهشة هذه الاشياء
القديمة التي ألفتها وعرفتها من قبل .. لكم لاحت لها ليلة الرقص
بعيدة .. ترى منذ الذي أقام هذا الحاجز الكبير بين صباح اسمها
ومساء يومها ؟! .. لقد تركت رحلتها الى (فويسار) ثغرة في
حياتها كتلك الثغرات الواسعة التي تخلفها العاصفة في الجبال احياناً ،
في ليلة واحدة !

على انها تقبلت الواقع في اسسلام ، وطوت في وجوم ثيابها الجميلة
داخل الصوان ، وبينها حذاءها الحريريان ، وقد اصفر نعلها من اثر
الشمع الذي كانت تنزلق عليه فوق ارض حلبة الرقص ! . تماماً كما
انطبع في قلبها - بعد احتكاكه بالثراء - أثر لا يزول !

وهكذا غدت ذكرى تلك الليلة الراقصة شغلها الشاغل ، فكانت -
حين تستيقظ في صباح الاربعاء من كل اسبوع - تهمن لنفسها :
« آه ! .. لقد انقضى عليها اسبوع .. مضى اسبوعان .. مرت ثلاثة
اسبوع .. مذ كنت هناك ! » .. وشيئاً فشيئاً ، اخذت معالم الحفلة
تختلط وتنداخل في ذاكرتها ، فنسيت الحان الرقص ، ولم تعد تذكر
الملابس والحجرات في وضوح .. فقد ذهبت بعض التفاصيل .. وبقيت
لها الحسرة !

الفصل التاسع

كثيراً ما كانت « ايما » تسعى الى الصوان - اذا ما غادر « شارل » المنزل - فتخرج حافظة السيجار الحريرية الخضراء من ثنايا الثياب التي دستها بينها ، وتروح تتأملها ، وتفتحها .. بل انها كانت تنسم رائحة بطانتها التي جمعت بين العطر والتبغ !.. ترى لمن كانت تلك الحافظة ؟.. أتراها كانت للفيكونت ؟!.. لعلها هدية من عشيقته نسجتها وطرزتها على اطار من خشب الورد ، لتكون تحفة صغيرة يحتفظ بها بعيداً عن اعين الفضوليين جميعاً !.. ولعل الحائكة الحاملة شغلت بصنعها ساعات طوالاً ، كانت خصل من شعرها تتهدل خلالها على النسيج .. ولا بد ان نسمة من الحب سرت بين خيوط الرقعة ، والفتاة تثبت مع كل غرزة من ابرتها املاً او ذكراً ! . كأن الخيوط الحريرية في امتدادها وتقاطعها ، انعكاس لما كان في فؤادها من هيام صامت !.. حتى اذا فرغت منها في النهاية ، حملها « الفيكونت » !.. ترى فيم كان يدور الحديث حين كان يضع هذه الحافظة فوق المدفأة ذات الاطار العريض ، بين أصص الزهور وساعات « بمبادور » البندولية !

وكانت « ايما » ترتد من هذا الحلم الى التفكير في نفسها .. ها هي ذي في (توست) و « الفيكونت » في باريس .. بعيداً .. ترى كيف تكون باريس ؟.. يا للاسم الضخم !.. وراحت تردده لنفسها هامسة ،

وهي تستشعر متعة في تكراره !.. كان يرن في اذنيها رنين ناقوس الكنيسة .. بل بدا كما لو كان يبعث شعاعاً يتراعى حتى يصل الى البطاقات الصغيرة الملتصقة على علب الدهان والمساحيق !

وكان صيادو السمك يمرون في الليل تحت نوافذ الدار ، وهم يرددون اناشيدهم ، فكانت تستيقظ من نومها ، وتصفي الى قرعة العجلات الحديدية حتى يتلاشى ضجيجها في النهاية ، بعد ان تبارح العربات البلدة .. وعندئذ تحدث نفسها قائلة : « لسوف يصلون اليها غداً ! » .. وكانت تتابعهم بنجياها ، وهم يصعدون الرسي ، ويهبطون الوهاد ، ويجتازون القرى ، وينسابون في الطريق العريض الممتد تحت اضواء النجوم .. ولا تلبث ، بعد مسافة لا تدري مداها ، ان تجد نفسها في مكان غامض ينتهي عنده حلمها !

وابتاعت خريطة لباريس ، فكانت تتابع معالمها بأصبعها وتقوم بجولات وهمية في احيائها : تسير في الشوارع الكبيرة ، وتقف عند الاماكن التي تتقاطع عندها خطوط الشوارع امام المربعات البيضاء التي تمثل المنازل .. حتى اذا كانت عيناها ، اطبقت جفنيها .. واذا ذاك ، كانت ترى على صفحة الظلام صور المشاعل والرياح تعبث بألستها ، وابواب العربات تفتح في صخب امام ابهاء المسارح !

واشركت في صحيفة « لاكوربي » - النسوية - ومجلة « سيلف » (اي « حوريات الصالونات ») - الاجتماعية - وأخذت تلتهم ما كان ينشر فيها ، دون ان تغفل كلمة من انباء حفلات العرض الأول للمسرحيات ، وحفلات السباق والسهرات .. وكانت تهتم بظهور مغنية جديدة ، او بافتتاح متجر !.. واخذت تتعرف على الأزياء الحديثة ، وتحفظ عناوين امهر الجائكين والجائكات ، والأيام التي اعتاد المجتمع الباريسي ان يخرج فيها للنزهة في الغابة ، او للسهر في الاوبرا .. وراحت تدرس في « اوجين سويه » اوصاف الأثاث .. وقرأت لبزك وجورج صاند وهي تنشد اشباعاً

وهيأ لمطامعها الشخصية !.. وبلغ من شغفها هذا ، ان كانت تحمل كتابها معها الى المائدة وتقلب صفحاته ، بينما يكون « شارل » منهمكاً في الأكل والحديث .. وكانت ذكرى « الفيكونت » لا تفتأ تعاودها اثناء قراءتها ، فتقارن بينها وبين الشخصيات التي تصادفها في الروايات . على ان الدائرة التي كانت تحيط بشخصيته راحت تتسع شيئاً فشيئاً .. وأخذت هالة الرواء ، التي احاطته بها ، تفارقه رويداً لتمتد الى مسافات ابعد ، حيث تضيء احلاماً اخرى !

وهكذا باتت « ايماء » ترى باريس اكثر اتساعاً من المحيط ، وقد راحت تتألق امام اعينها في جو قرمزي !

• • •

على ان ألوان الحياة المصطخبة في هذا الخضم ، كانت - عند « ايماء » - مقسمة الى اجزاء ، ومرتببة في لوحات متباينة ... ولم تكن « ايماء » تتبين من العوالم التي تضمها باريس سوى اثنين او ثلاثة تظني على ما عداها ، كما لو كانت الانسانية برمتها تتمثل فيها وحدها : دنيا السفراء ، مخاطرون فيها فوق ارض لامعة ، في صالونات كسيت جدرانها بالمرايا ، ويجلسون حول موائد بيضاوية مغطاة بمفارش من المخمل المزركش بالقصب !.. وفي هذا العالم اثواب ذات ذبول جرارة ، واسرار خطيرة ، ومآس تختفي وراء الابتسامات !.. وبلي ذلك ، عالم الدوقات .. حيث تكتمسي الوجوه شحوباً ، ويستيقظ الرجال في الساعة الرابعة !.. وترتدي النساء - اولئك الملائكة المساكين - « جونلات » وشيت ذبولها بالنقوش المطرزة .. بينما يمتطي الرجال - اولئك الذين اتوا كفايات مجحودة تتوارى خلف مظاهر تافهة - جيادهم ، ويندفعون بها ، حتى الموت ، في سبيل التسلية ، ويذهبون الى مصيف (باد) لقضاء فصل الصيف .. ثم يتزوجون في النهاية - اذا ما بلغوا الأربعين - من النساء الوارثات !

وفي قاعات المطاعم التي تقدم العشاء بعد منتصف الليل ، يضحك
- في ضوء الشموع - جمهور مختلط الألوان من رجال الأدب والمثلات ..
قوم مسرفون كالمملوك ، تمتليء نفوسهم بأنواع الطموح المثالي ، والهديان
الخارق .. وتختلف حياتهم عن حياة الآخرين ، فهي معلقة بين الأرض
والسما ، في غمرة العواصف .. حياة فيها شيء من السمو !
اما ما عدا هذه من عوالم ، فقد كان في نظر « ايماء » مضيقاً ،
تائهاً ، لا مكان له ولا وجود !

وكانت « ايماء » من اولئك اللاتي يزهدن في اقرب الاشياء اليهن ..
فكلما قربت الاشياء منها ، ازدادت نفسها عنها ازواراً .. فكل ما يحيط
بها مباشرة : من ريف ممل ، وبورجوازية ضئيلة حمقاء ، وحياة زرية ...
كل هذه كانت تلوح لها اشياء شاذة ، ومصادفات خاصة « تورطت »
فيها .. بينما كان يمتد خلفها جميعاً - والى ما لانهاية - عالم اللذات
والانفعالات !

واختلطت في احساسها لذات البذخ المادية بمسرات القلب ، ورقى
العادات برقة المشاعر .. افلا يحتاج الحب - كما تحتاج نباتات الهند - الى
تربة معينة ودرجة حرارة خاصة ؟ .. فالزفرات في ضوء القمر ، والعناق
الطويل ، والدموع التي تنهمر على الأيدي المستسلمة ، وحمى الجسد ،
ورقة الحنان ... كل هذه امور لا انفصال لها عن شرفات القصور الكبيرة
المليئة بأوقات الفراغ ، ولا عن المخادع ذات الستائر الحريرية ، والطنافس
السميكة ، واحواض الزهور ، والاسرة المقامة على منصات مرتفعة عن
سطح الأرض ، وبريق الاحجار الكريمة ، وأشرطة ازياء الخدم !!

• • •

وكان السائس يفد كل صباح ليغنى بالفرس ، فيعبر المدخل في حذاءيه
الحشبيين الكبيرين - اللذين يضمنان قدميه العاريتين - وسرته التي تتخللها

الثقوب ، وسرواله القصير الذي لم تكن ثمة حياة سوى الاكتفاء به !..
فاذا انتهى من عمله ، انصرف الى حيث لا رجعة له بقية النهار ، اذ
ان « شارل » كان يتولى بنفسه - عند عودته - ايواء الفرس في الحظيرة ،
ورفع سرجها عنها ، بينما تحمل اليها الخادم حزمة من القش ترميها في
المذود كيفما اتفق !

وكانت « نستازي » قد غادرت (توست) اخيراً ، وهي تذرف
الدمع مدراراً ، فاستعاضت « ايمما » عنها بفتاة في الرابعة عشرة ، يتيمة ،
مليحة القسمات . وحظرت عليها لبس « الطاقية » القطنية ، وعلمتها كيف
تخاطبها في احترام ، ودربتها على ان تحمل كوب الماء في طبق ، وان
تطرق الباب قبل الدخول ، وان تكوي الثياب وتكسبها بالنشاء استواء ،
وان تساعد على ارتداء ثيابها .. كل ذلك لانها ارادت ان تجعل منها
وصيفة لها !

واعتادت الخادم الجديدة ان تطيع في غير تدمر حتى لا تطرد !..
واذ كانت السيدة قد ألفت ان تترك المفتاح في « البوفيه » ، فان
« فيليسيته » - الخادم - كانت في كل مساء تأخذ قطعة صغيرة من
السكر لتأكلها ، حين تخلو الى نفسها في فراشها ، بعد ان تؤدي الصلاة !..
اما في الفترات التي كانت السيدة تلتزم فيها بمخدعها في الطابق العلوي
- بعد ظهر كل يوم - فكانت الفتاة تسعى احياناً الى السياس الموجودين
في المبنى المواجه للمنزل فتجاذبهم الحديث !

وكانت « ايمما » في تلك الفترات ترتدي « روب دي شامبر » مفتوحاً ،
تكشف قلابات صدره العريضة عن صدر ذي ثنيات وثلاثة ازرار ذهبية ،
يضم اطرافه حول الخصر حزام كالحبل المجدول ، ينتهي بكرات كبيرة
ذات « شرابات » .. اما قدمها ، فكانت تغييها في خفين - « بانتوفلي » -
في لون الرمان ، تنتشر على سطحها اشرطة عريضة .
وابتاعت اوراقاً للكتابة ، وأوراق نشاف ، وريشة ، ومظاريف وورقاً

للرسائل ، وان لم يكن ثمة من تكتب اليه !.. وكانت تنفض الغبار عن الرف ، وتتطلع في المرأة ، ثم تتناول كتاباً فلا تلبث ان تراودها الأحلام بين سطوره فتشغل عنه ويسقط بين ركبتيها !.. وأخذت تنوق الى القيام برحلات ، او الى العودة للدبر كي تعيش فيه !.. كانت تمنى المتناقضات في آن واحد .. ان تموت .. وان تعيش في باريس !

اما « شارل » ، فكان ينطلق على جواده خلال الطرق الفرعية - المفضية الى المزارع والقرى - تحت المطر والجليد ، يأكل « العجة » على موائد الريف ، ويدس يديه في الاسرة الرطبة التي يرقد فيها المرضى ، ويتلقى على وجهه رشاش الدم الدافئ المنبثق من الفصاد ، ويسمع الحشرات ، ويفحص البطون ، ويرفع الثياب القذرة عن اجساد الملولين !.. لكنه كان يجد في كل مساء ناراً مستعرة ، ومائدة معدة ، واثناً مريحاً ، وزوجة في ابداع زينة ، تنضوع بأريج عطر كان يحار في التكهن بمكانه : اهو قبضها ، ام بشرتها ؟!

وكانت تفتنه بمبتكراتها ، التي كانت تتمثل حيناً في مظلات جديدة من الورق تصنعها لتضعها فوق الشمعدانات ، وتتمثل حيناً آخر في ثنية تغير موضعها في ثوبها ، او في اسم مبتكر للون بسيط من الطعام اخفقت الخادم في صنعه ، فلا يصد اخفاقها « شارل » عن التهام الصنف حتى يأتي عليه !

ورأت « ايما » في (روان) سيدات يحطن ساعاتهن بعقود من الحلى الزائفة ، فابتاعت حلياً زائفة !.. ورأت ان تزين رف مدقاتها بآتيي زهور كبيرتين من الزجاج الأزرق ، لم تلبث ان ضمت اليها صندوقاً من العاج لأدوات الحياكة ، و « كستياناً » من العقيق !.. وكان « شارل » كلما ازداد عجزاً عن فهم كنه اسباب تلك الأناقة ، ازداد انصياعاً لسحرها ، اذ كانت تصفي على حواسه لذة ، وعلى داره رواء .. وكأنها غبار ذهبي ينتثر على طول طريق حياته الضيق !

وغدت صحته طيبة ، ووجهه مشرقاً ، وشهرته مستقرة منيعة ..
كان الريفيون يحبونه لأنه لم يكن متغطراً ، بل كان يداعب اطفالهم !..
ولم يكن يغشى الحانات .. وكان في خلقه - فوق ذلك - ما يوحي
بالثقة والطمانية .. وقد نجح - بوجه خاص - في علاج نزلات البرد
والأمراض الصدرية !.. والواقع ان «شارل» كان يخشى دائماً ان يقتل
مرضاه ، ولذلك لم يكن يوصي لهم الا بالأدوية المهدئة للألم !.. وكان
يوصي - بين آن وآخر - بشراب مقيء ، وبحمام القدم ، وباستخدام
العلق (الدود) الذي يمتص الدم الفاسد ، وكان يسرف في فصدهم
بالعلق في سخاء ، وكانهم جياد !.. اما في اقتلاع الاضراس ، فقد
كانت له قبضة حديدية !

* * *

وحتى يظل على دراية بما يستحدث في الطب ، اشترك في مجلة « الخلية
الطبية » بعد ان تسلم اعلاناً عنها . وكان يقرأ فيها بعض الوقت عقب
العشاء ، ولكن دفع الغرقة ، والاسترخاء الذي يدب في الجسم اثناء
عملية الهضم ، كانا لا يلبثان ان يسلماه الى النوم بعد خمس دقائق .. فيظل
مسترخياً ، وذقنه معتمدة على يديه ، وشعره متهدل - كالعرف -
حتى اسفل المصباح ، و « ايما » ترقبه ، ثم تهز كتفيها !.. لماذا لم تحظ
بزوج ولو من اولئك الذين يقضون الليل بين الكتب ، ويحملون في النهاية
- اذا ما بلغوا الستين ، سن « الروماتيزم » - وساماً على شكل الصليب ،
فوق بزاتهم السوداء ؟ .. لكم كانت تشتهي ان يغدو اسم « بوفاري »
ذائعاً ، وان تراه معروضاً عند باعة الكتب ، تردده الصحافة ، وتعرفه
فرنسا بأسرها !

بيد ان « شارل » لم يكن يعرف الطموح ابداً !
ولقد حدث ان اهانه يوماً طبيب من (ايف تو) - اجتمع معه

للتشاور - امام فراش مريض ، وعلى مسمع من اقاربه المحيطين بها ، فلما روى الحادث لايمًا في المساء ، ثارت في حنق على ذلك الزميل الى درجة جعلت «شارل» يتأثر بالفعل ، ويقبلها في جبينها وهو داعم العينين .. ولكنها كانت تغلي لفرط احساسها بالخزي لما ناله ، حتى لقد ودت لو تضربه !.. ولكنها لم تملك الا ان تسير الى الردهة ففتتح النافذة لتعب الهواء العليل حتى تهدأ سورتها .. وأخذت تعض شفتها وتردد في صوت خفيض : «يا له من رجل مسكين !.. يا له من رجل مسكين !» والواقع ان ثورتها كانت ضد زوجها بالذات .. فقد اخذت حركاته وتصرفاته تغلظ بتقدم السن .. كان يلهو - عند تناول الحلوى - بتقطيع سدادات الزجاجات الفارغة .. وكان بعد الاكل يلحق أسنانه بلسانه .. كما كان يرشف الحساء بصوت منكر .. ولما كانت البدانة قد اصابته ، فان وجنتيه المتفتختين دفعتا بعينيه الصغيرتين الى أعلى نحو الصدغين ! وكانت «ايماء» تسوي له أطراف صدره الحمراء في بعض الاحيان ، وتصلح من وضع رباط عنقه ، او تطوح جانباً بقفازين قذرين بهم باستعمالها .. والواقع انها لم تكن تفعل ذلك من اجله - كما كان يخال - وانما كانت تفعله من اجل نفسها ، وبدافع من اثرتها وتوتر من اعصابها !.. وكانت تحدّثه احياناً عن شيء مما تقرأ ، كفقرة من رواية او مشهد من مسرحية جديدة او حادث من انباء الطبقة الزاكية المنشورة في الصحف .. فقد كانت ترى انه - على اية حال - انسان ، له اذن تسمع باستمرار .. وله استعداد للموافقة دائماً على ما يسمع !.. بل انها كانت تبوح بأسرارها لكلبها .. ولحطب المدفأة ، وبندول الساعة !

وكانت في هذه الاثناء كلها لا تني تنتظر في اعماق نفسها حدثاً ما !.. كانت ، كالملاح المكروب ، تشرح بصرها القانط في وحشة حياتها ، بحثاً عن شراع ابيض في ضباب الأفق البعيد !.. وما كانت تدري كنه ذلك الحدث ، ولا اي ريب ستموقه اليها ، ولا الى اي شاطئ سيدفعها ..

وهل هو زورق ، او سفينة ذات ثلاثة طوابق .. وهل يكون مفعماً
بالأسى ، او طافحاً بالهناة !.. ولكنها كانت اذا استيقظت في كل صباح
تمنت لو يواتيها في يومها . كانت تنصت لكل صوت ، وتفقر ناهضة
تستجليه ، ثم تشعر بصدمة لأن شيئاً لم يحدث !.. فاذا جنحت شمس
اليوم للمغيب ، اشتد بها الأسى ، وراحت تمنى لو تعجل الغد وأقبل !
ووفد الربيع مرة اخرى ، فغشيتها انقباضات من موجات الحر الأولى
التي تهب حين تزهو اشجار الكثرى .. حتى اذا بدا شهر يوليو ، اخذت
تعد الاسابيع على اصابعها في ارتقاب شهر اكتوبر ، راجيا ان يقيم
« المركز دي اندفيليه » حفلاً راقصاً آخر في (فويسار) !.. بيد ان
شهر سبتمبر انصرم عن آخره دون ما خطابات او زيارات !

واحت مرة اخرى - بعد انقضاء المرارة التي خلقتها خيبة الرجاء -
بفراغ في فؤادها .. وبدأت من جديد سلسلة الأيام المتشابهة الرهيبة ،
التي لا تتغير ، ولا تأتي بجديد !.. لقد كان يصادف حياة سواها - مهما
تكن هذه الحياة خاوية مملّة - حدث من الأحداث يتيح لها فرصة الخروج
عن المألوف .. ولقد تؤدي مغامرة واحدة - احياناً - الى سلسلة لا تنتهي
من الأحداث التي تغير اطار الحياة .. اما هي ، فلم يكن يصادفها شيء ..
كما لو كانت تلك هي ارادة الله !.. كان المستقبل يمتد امامها كسرداب
مظلم ينتهي بباب محكم الاغلاق !

واهمت الموسيقى .. فلماذا تعزف ، ومنذا الذي يسمعا ؟!.. لم يكن
ثمة ما يدعو الى بذل الجهد في المران ، ما دامت لن تستشعر همس النشوة
يتصاعد حولها كالنسيم وهي تمس بأناملها الرقيقة مفاتيح « البيانو » العاجية
في حفل عام ، وقد ارتدت ثوباً من المخمل قصير الكمين !.. كذلك
ابقت لوحات الرسم وقطع التطريز في الصوان .. اذ ما جدواها ؟!.. وأي

نفع منها ؟ .. اما الحياكة ، فقد اصبحت تثير اعصابها !.. حتى القراءة ؛
انصرفت عنها قائلة لنفسها : « لقد قرأت كل شيء ! »
واخذت تضع الملاقط في النار لتحركها فتسهو عنها حتى تحمر ..
وترقب المطر وهو يتساقط بنظرات جوفاء !.. ولشد ما كان يجتاحها
الأسى اذا ما دق الناقوس لصلاة المساء في يوم الأحد !.. كانت تصغي
بذهن شارد الى دقات الجرس المشروخ وهي تتتابع . بينما يحظر على سطح
المبنى القائم في مواجهتها قط احنى ظهره لأشعة الشمس الشاحبة .. والرياح
تثير غيوماً فوق الطريق الرئيسية .. وقد ينبعث من بعد نباح احد الكلاب
والناقوس مسترسل في دقاته المملة ، يرسلها في ايقاع رتيب ، فلا تلبث
ان تتلاشى فوق الحقول .

ثم يخرج الناس من الكنيسة : النساء في احذية لامعة ، والرجال في
اقصة جديدة ، يتقدمهم الاطفال يقفزون ورؤوسهم عارية .. ويأوى
الجميع الى منازلهم فيما عدا خمسة رجال او ستة ، كانوا دائماً يظنون
- حتى يهبط الليل - امام الحانة يمارسون فيها لعبة الفلين ا

* * *

ثم اقبل الشتاء قارساً ، وأخذ الجليد يكسو زجاج النوافذ في كل
صباح ، فيبدو - اذ يحترقه الضوء - كالزجاج « المصنفر » . وفي ذلك
الجو المتجهم ، كان لا بد من اضاءة المصباح منذ الساعة الرابعة بعد الظهر .
وكانت « ايما » تهبط الى الحديقة في الايام الرائقة ، فاذا الندى قد
خلف فوق الكرنب وشياً من الفضة ، تتخلله خيوط طويلة شفافة تمتد
من كرنبة الى اخرى .. ولم تكن شقشقة العصافير تتردد ، بل كان كل
شيء يبدو مخلداً الى النوم ، والعزائش مكسوة بالقش ، والكروم تمتد
- كثعبان كبير مريض - تحت اقبية الجدران ، حيث يري الانسان - اذا
ما اقترب - الخنافس وهي تزحف !.. والى جوار السياج من ناحية

غاية الصنوبر كان تمثال القس ذي القلنسوة ماضياً في قراءة كتاب الصلوات ، وقد فقد قدمه اليمنى ، بينما عبث الصقيع بطلائه فخلخف على وجهه قرحاً بيضاء !

ولا تلبث « انما » ان تصعد الى مخدعها فتخلق الباب ، وتبسط الوقود ، حتى ترسل المدفأة حرارة تخدرها ، وتبعث في نفسها مللاً تخاله ثقلاً فادحاً يجثم على صدرها ، فتود لو هبطت لتأتنس بالحديث مع الخادم ، لولا ان يمنعها الحياء !

وفي ساعة معينة من كل يوم ، كان ناظر المدرسة ذو الطاقة الحريرية السوداء يفتح نوافذ منزله .. ويمر حارس الحقول حاملاً سيفه فوق قميصه .. وكانت خيل البريد تعبر الشارع - في الصباح والمساء - ثلاثة ، ثلاثة ، تسعى الى البركة لترتوي .. ومن وقت الى آخر ، يصلصل باب احدى الحانات .. فاذا هبت الريح ، انبعث صرير من اللافئات النحاسية المعلقة على جانبي حانوت الحلاق ، الذي كانت كل زينته تتمثل في صورة الصقت على لوح من زجاج النافذة ، وتمثال نصفي من الشمع لامرأة ذات شعر زاه . وكان صاحب هذا الحانوت يندب - هو الآخر - موهبته التي تعطلت ، ومستقبله الذي ضاع .. ويحلم بحانوت في بلد كبير مثل (روان) ، يقوم الى جوار المسرح ، مطلاً على الميناء .. وكان يقضي نهاره يتمشى جيئة وذهاباً بين دار البلدية والكنيسة ، يرتقب العملاء في اكنئاب .. فكلما اطلت مدام « بوفاري » ألفته في سيرة هذا كديديبان في نوبته ، وقد ارتدى سترة العمل التي لا يغيرها ، وقلنسوة يونانية !

وكان يبرز - في اويقات العصر احياناً - رأس رجل وراء زجاج البهو .. رأس لفحته الشمس ويزينه شاربان اسودان ، وقد اخذت اساريه تنفرج في تؤدة عن ابتسامة عريضة عذبة تكشف عن اسنان بيضاء .. ثم تبدأ رقصة - على نغمت « الفالس » المنبعثة من يديره

الرجل - في صالون دقيق صغير ، لا يتجاوز كل راقص فيه حجم الاصبع !.. راقصون بينهم نساء بعائم وردية ، ورجال من ابناء « التيرول » في معافهم التقليدية ، وقردة في ملابس سوداء ، ورجال في سراويل قصيرة .. يدورون ويدورون بين المقاعد الوثيرة والارائك والموائد ، وتنعكس حركاتهم مراراً في مرايا التصق بعضها الى بعض بشرط من ورق مذهب . وكان عازف الأوغرن يدير يد الآلة وهو يجيل بصره بمنة ويسرة ، ثم يتطلع الى النواخذ . وكان يرفع آله - من وقت الى آخر - بركته ، بعد ان تعي كتفه حملتها الغليظة ، وهو يرسل قذائف طويلة من بصاق بني اللون على احجار الطريق .. والموسيقى الحزينة المتباطئة - تارة - والمرحة السريعة - تارة اخرى - تنبعث من صندوقه خلال ستارة من « التافاه » وردية اللون ، علفت بمشجب نحاسي ذي زخرف عربي .. وكانت هذه الموسيقى بالذات تعزف فوق المسارح ، او في الصالونات حيث يدور الرقص على وقعها في السهرات ، وتحت الثريات المتألثة .. فكانت بمثابة اصداء تصل الى « اياما » من المجتمعات الراقية التي تهفو اليها !.. وفي مخيلتها ، كانت تتتابع مواكب راقصة لا تكاد تنتهي !.. وكان تفكيرها يقفز مع الذبذبات - كالراقص فوق بساط من زهور - منتقلاً من حلم الى حلم .. ومن شجن الى شجن !

وكان الرجل - بعد ان يتلقى في قلنسوته ما يجود به اهل الشارع من صدقات - يطرح فوق الارغن غطاء قديماً من الصوف الازرق ، ثم يحمله على ظهره وينصرف في خطى ثقيلة .. و « اياما » ترقبه وهو يتعد !

وكان جلدها يغدو اقرب ما يكون الى النفاد والانهيار في اوقات الوجبات ، في تلك القاعة الصغيرة بالطابق الأرضي ، حيث الموقد الذي لا ينفك عن ارسال الدخان ، والباب الذي يبعث صريراً ، والجلدران المنادة ، والارضية الرطبة .. كان يجيل لها اذ ذاك ان مرارة الحياة بأمرها

تخالط طعامها !.. ومع بخار الحساء ، كانت تتصاعد من اعماق روحها
نفثات من الاعياء والضيق !.. ولما كان « شارل » بطيئاً في الأكل ،
فقد كانت تنفق الوقت في قرض بندقة ، او تعتمد بمرفقيها على المائدة
وتتسلى برسم خطوط بسن سكينها على المقرش !

واصبحت تهمل كل شيء في دارها .. فلما اقبلت مدام « بوفاري »
الأم الى (توست) لتقضي بضعة ايام اثناء الصوم ، راعها هذا التغير ،
فان « ايماء » ، التي كانت فيما مضى شديدة العناية بنفسها ، حريصة على
اناقتها ، اصبحت تمكث اياماً بطولها دون ان ترتدي ملابس زينتها ،
وهي تروح وتغدو في جوربين رماديين من القطن .. كما اصبحت تقتصر
على استخدام الشموع في اضاءة البيت ، مرددة ان لا بد من الاقتصاد لانهم
ليسوا من اهل الثراء !.. وكانت تضيف الى هذا انها سعيدة كل السعادة ،
راضية كل الرضى ، وان (توست) تروق لها .. وامثال هذه العبارات
الجديدة التي كانت تغلق فم حاتمها عن اللوم !

على ان « ايماء » اوضحت - الى جانب ذلك - تبدي عدم استعداد
لتقبل ارشادات حاتمها !.. وقد حدث مرة ان بدا لمدام « بوفاري »
الأم ان تشير الى ان من واجب المخدمين ان يعنوا بمراقبة احترام الخدم
لشعائر الدين ، فاجابتها « ايماء » بنظرة تنقد غضباً ، وابتسامة تفيض
بروداً ، مما حدا بالسيدة الى ان تكف بعد ذلك عن كل احتكاك بها !
واصبحت « ايماء » حادة المزاج ، كثيرة النزوات ، غريبة الاطوار ..
فهي تطلب ألواناً معينة من الطعام ثم لا تقربها .. وقد تصر يوماً على
ان لا تتناول سوى اللبن الصافي ، ثم تقبل في اليوم التالي على
شرب عشرات من اقداح الشاي !.. وكانت تقرر احياناً عدم الخروج
فضيق انفاسها وتفتح النوافذ ثم ترتدي ثوباً خفيفاً !.. وكانت تعنف مع
الخدم ، ثم لا تلبث ان تسترضيها بالهدايا ، او ترسلها للزهره لدي
الجيران !.. كذلك كانت احياناً تقذف للفقراء بجميع ما في كيسها من

نقود فضية ، رغم انها لم تكن يوماً رقيقة القلب ولا سهلة التأثر بانفعالات الآخرين !

• • •

وحوالي نهاية شهر فبراير ، حمل الأب « روو » - بنفسه - الى صهره ديكاً رومياً بديعاً ، رمزاً لذكرى شفائه ، واقام في (توست) ثلاثة ايام ، واذ كان « شارل » في تلك الاثناء مشغولاً بمرضاه ، فقد بات على « ايماء » وحدها عبء مصاحبته ، فأمضها منه انه كان يدخن في الغرفة ، ويبصق في المدفأة ، ويتحدث عن الزراعة والعجول والابقار والدجاج والمجلس البلدي .. حتى لقد عجبت من نفسها اذ احست بشعور من الارتياح يداخلها حين اغلقت الباب خلفه عقب رحيله !.. والواقع انها لم تعد تتحرج من ان تبدي احتقارها لشيء او ازدرائها لأحد .. وكانت تصدر عنها احياناً آراء غريبة ، فتنقذ ما يرضاه الناس ، وتحبذ اموراً لا تستقيم مع الاخلاق ، الأمر الذي كان يترك زوجها مذهولاً ! وكانت لا تفنتاً تسائل نفسها : ايلازمها هذا البؤس ابد السنين !؟ .. او ليس هناك من مخرج !؟ .. انها لا تقل عن اولئك اللاتي يعشن في سعادة .. بل لقد رأت في (فويسار) دوقات اسوأ منها قواماً ، وأقل رقة وتهذيباً !.. وأخذت تسخط على ظلم الاقدار .. وتسد رأسها الى الجدران لتبكي !.. كانت تحسد اولئك الذين يحظون بحياة صاحبة ، ويقضون الليالي في حفلات تنكرية ، وينعمون بتلك اللذات العنيفة التي يشر سماعها في نفسها مشاعر لا تدرك كنهها !

ومال لونها الى الشحوب ، واضطربت دقات قلبها ، فاعطاها « شارل » دواء يهدئ اعصابها ، ووصف لها حمامات الكافور .. ولكن محاولاته لم تزدها الا هياجاً !.. وكانت في بعض الايام تثرثر في فيض محموم ، ثم لا يلبث ان يعقب هذا الانطلاق ركود مفاجيء ، لا تنطق خلاله بلفظ ،

ولا تأتي بحركة .. ولم يكن ينعشها اذ ذاك سوى زجاجة من ماء « الكولونيا »
تسكبها على ذراعها !

واذ اخذت تشكو من (توست) بلا انقطاع ، فقد حدس « شارل »
أن مرضها ناشئ عن سبب محلي ، ورسخ في نفسه هذا الرأي ، حتى
انه اخذ بفكر جدياً في ان يبحث عن بلد آخر يقمان فيه .

ثم عمدت الى شرب الحسل لتزداد نحافة ، فأصببت بسعال بسيط
جاف ، وفقدت شهيتها الى الطعام تماماً ! .. وكان يعز علي « شارل »
ان يرحل عن (توست) بعد ان اقام بها اربع سنوات توطد خلالها
مركزه .. ولكنه مع ذلك لم يلبث ان خضع لاحكام الضرورة ، عندما
صحبها الى استاذة القديم في (روان) ، فتبين - بعد ان فحصها -
انها تعاني من مرض عصبي ، لا بد لعلاجه من ان تبدل الجو الذي
تعيش فيه !

واخذ « شارل » يتحرى هنا وهناك ، حتى علم ان في مقاطعة
(نيوشاتل) قرية كبيرة تسمى (ابونفيل - الدبر) غادرها طبيها -
وكان من البولنديين اللاجئين - منذ اسبوع ، فكتب الى صيدلي القرية
يسأله عن عدد سكانها ، وعن المسافة التي تفصلها عن اقرب قرية بها
طبيب ، وعن الدخل الذي كان يصيبه سلفه في العام .. الخ . ووجد
في الرد - حين جاءه - ما ارضاه ، فقرر ان ينتقل الى تلك القرية في
الربيع التالي ، اذا ظلت صحة « ايماء » دون ما تحسن !

وفيما كانت « ايماء » تستعد للسفر ، اصيب احد اصابعها بوخزة من
سلك باقة زواجها ، وهي ترتب احد الادراج ذات يوم . كانت براعم
البرتقال - في الباقة - قد اصفرت لفرط تراكم الغبار عليها ، واخذت
الاشرطة الحريرية ذات الحواف الفضية تنسل .. ولم تحجم « ايماء » عن
القاء الباقة في نار المدفأة ، فاذا بها تشتعل بأسرع مما يشتعل القش
الجاف .. وما لبثت النيران ان التهمتها ، فراحت تتقلص ببطء وقد

تفجرت حبيبات الورق المقوى ، والتوت الاسلاك ، وانصهرت الاشرطة
المعدنية ، وتبيست اوراق الزهر الصناعي .. ثم اخذت اشلاؤها تراقص
فوق اللهب كالفراش الاسود .. وما لبثت ان تطايرت خلال المدفأة !
وعندما غادر الزوجان (توست) في شهر مارس ، كانت مدام
« بوفاري » حاملاً !

القسم الثاني

الفصل الأول

اخذت قرية (ايونفيل - الدير) هذا الاسم عن دير قديم للرهبان الكابوشيين ، لم يتبق منه حتى الاطلال .. وتبعد تلك القرية ثمانية فراسخ عن (روان) ، وتقع بين طريق (آبفيل) وطريق (بوفيه) ، عند نهاية واد يرويه نهر (الريبول) .. وهو فرع صغير يصب في نهر (الانديل) بعد ان يدير ثلاث طواحين قامت بالقرب من مصبه . وبه بعض السمك من نوع « البلطي » يصيده الغلمان بالشص في أيام الآحاد ..

فاذا ترك المرء الطريق الرئيسية عند (بواسير) ، مضى في طريق مستوية حتى يصل الى اعلى هضبة (نو) ، حيث يشرف على الوادي .. ويشق هذا الوادي نهر يشطره الى قسمين مختلفي المعالم .. فالشطر الممتد على الضفة اليسرى كله مراع ، في حين ان الشطر المترامي على الضفة اليمنى كله حقول .. وتمتد المراعي تحت سياج من التلال المنخفضة حتى تتصل في أقصاها بمراعي مقاطعة (بريد) ، بينما يصعد السهل في رفق

من الناحية الشرقية ، ثم يأخذ في الاتساع . وتمتد على مرامي البصر حقول القمح الشقراء ، والماء يجري في خط ابيض يفصل بين المروج من ناحية ، والأرض المزروعة من ناحية اخرى .. وكان المنظر - في مجموعه - عباءة كبيرة بسطت امامك ياقتها التي صنعت من غمسل أخضر حف بشريط من فضة .

وعند نهاية الأفق ، تبدو للرائي اشجار البلوط في غابة (ارجي) ، ومرتفعات هضبة (سان جان) ، تتخللها - في خطوط تمتد من اعلى الى اسفل - مسارب طويلة حمراء غير متساوية من آثار المطر .. اما اللون الأحمر الذي يميز هذه الخطوط الدقيقة خلال لون الجبل الرمادي، فناشيء عن توفر مادة الحديد ، التي تفيض بها العيون العديدة المتناثرة في المنطقة المحيطة ..

هناك تقع الحدود الفاصلة بين (نورمانديا) و (بيكارديا) و (ليل دي فرانس) .. مقاطعة تضم سكاناً من عناصر شتى ، ولا تمتاز لغتها بلهجة خاصة ، كما لا تمتاز مناظرها بطابع خاص ! .. وهناك ايضاً تصنع اربداً انواع الجبن الذي يصنع في مقاطعة (نيوشاتل) بأسرها .. فضلاً عن ان الزراعة في هذه المنطقة تتطلب نفقات باهظة ، لأنها تحتاج الى كثير من الأسمدة لتخصب تلك التربة الهشة المليئة بالرمل والحصى ..

ولم يكن في هذه المنطقة - حتى سنة ١٨٣٥ - طريق ممهد يفيض الى (ايونفيل) . بيد ان طريقاً ريفياً فرعياً انشئ في ذلك العام ، فوصل بين طريقتي (أبفيل) و (أميان) ، واصبحت تجري عليه احياناً عربات النقل الذاهبة من (روان) الى (الفلاندر) ..

* * *

على ان (ايونفيل - الدير) ظلت على حالها ، بالرغم من الاصلاحات

الجديدة . فبدلاً من ان ينشط اهلها لتحسين الزراعة بها ، ظلوا منتشبين بالمراعي على انخفاض دخلها وقيمتها . وأخذت القرية الكسول تنفصل بالطبيعة عن السهل ، وتتيح في اتساعها مجرى النهر ، حتى ان الرائي يلمحها عن بعد راقدة على طول النهر ، كقطيع من البقر يقبل على حافة الماء !

وفي نهاية جسر مقام على النهر - في اسفل الهضبة - يمتد طريق تحف بجانيه اشجار الحور الصغيرة ، يفضي بك مباشرة الى طليعة منازل القرية .. وهي بيوت تحيط بها اسوار ، وقد أقيمت وسط ساحات تناثرت فيها المعاصر ومخازن العربات ومعامل التقطير ، تحت الاشجار المتشابكة التي تستند اليها سلالم متقلبة ، او تعلق بأغصانها (الخطاطيف) والمنازل ..

وكانت الاسقف المصنوعة من القش تشبه طاقيات الفراء المتزلقة على عيون لابسها ، اذ كانت تكاد تحفي ثلث النوافذ المنخفضة ، التي كان زجاجها السميك المحدودب يتجمع عند وسطه في عقدة كقناع الزجاج .. وعلى الجدران المشيدة من الجص ، والتي تمتد بين زواياها المتقابلة اعمدة خشبية سوداء ، كنت ترى احياناً شجرة من شجرات الكمثرى الهزيلة .. وعند الباب الخارجي لكل دار ، كان ثمة حاجز به باب منخفض ليصد الدجاج الذي يتسلل الى عتبة البيت لالتقاط فتات الخبز المنقوع في نبيذ التفاح .. وكلما تقدمت في السير نحو القرية ، صغرت أفنية الدور ، وتقاربت المباني واختفت الحواجز بينها .. وقد ترى هنا حزمة من نبات « السرخس » تهتز في نهاية عصا مكنسة تحت احدى النوافذ .. وهناك حانوت بيطار ، او محل نجار سدت الطريق أمامه عربتان او ثلاث عربات جديدة .. وعبر مسافة من الفضاء يلوح بيت ابيض تمتد امامه رقعة معشوشبة يزيناها نثمائل « كيوييد » واحدى اصابعه على شفثيه .. والى جانبي قمة الدرجات الأمامية آيتان من النحاس ..

وعلى الباب تلمع لافتتان تمان عن ان هذا بيت موثق العقود .. اجمل بيوت البلدة !

وعلى الجانب الآخر من الشارع ، وعلى بعد عشرين خطوة ، تقوم الكنيسة عند مدخل الميدان ، تحيط بها مقبرة صغيرة ، بمحتضنها سياج في ارتفاع صدر الانسان ، وقد اكتظ بالقبور حتى اصبحت الاحجار القديمة في مستوى الأرض ، تؤلف فيما بينها رصيفاً طويلاً ، امتدت الحشائش خلاله تقسمه الى مربعات .. وكان مبنى الكنيسة قد جدد في عهد شارل العاشر ، فأخذ سقفها الخشبي يبلى عند قدمته .. وفي المكان المخصص للأرغن – فوق الباب – اقيمت شرفة للرجال ، تؤدي اليها سلم حلزونية تهتر تحت وقع الأقدام في نعالها الخشبية !

وكان الضوء الذي ينفذ خلال الزجاج غير الملون يسقط في انكسارات على المقاعد المصفوفة بطول الجدران التي زينت – هنا وهناك – بمحاث من القش كتب عليها بحروف ضخمة « مقعد السيد فلان » . وعلى مسافة قليلة، يضيق دهليز الكنيسة، ثم يقوم كرسي الاعتراف الى أحد الجانبين، والى الجانب الآخر تمثال للعدراء في ثوب من الحرير ، وعلى رأسها نقاب من التل مرصع بنجوم فضية ، وقد طليت وجنتاها باللون الاحمر كما لو كانت وثناً من اوثان جزر « سندويتش » !! .. واخيراً ، تطل على المذبح المرتفع صورة « الاسرة المقدسة – مهداة من وزير الداخلية » ، بين اربعة شمعدانات . اما مقاعد المرتلين المصنوعة من خشب الصنوبر ، فقد ظلت بلا طلاء .

* * *

وكانت السوق – او بالاحرى السقف المصنوع من الآجر والمقام على عشرين عاموداً تقريباً – تشغل حوالي نصف الميدان العام في

« ايونفيل » .. اما دار البلدية – التي شيدت وفقاً لرسم اعده مهندس من باريس – فكانت تشبه معبداً اغريقياً ، وترسم مع حانوت الصيدلي شكل زاوية . وكانت في الطابق الارضي ثلاثة اعمدة يونانية .. وفي الطابق الأول بهو نصف دائري تعلوه قبة يشغلها تمثال « دبك الغال » ، وقد اعتمد على ساق استقرت على وثيقة الدستور ، بينما أمسك بقدمه الأخرى ميزان العدالة !

على ان اكثر ما كان يسترعي الانتباه ، هو صيدلية السيد « هوميه » التي تقع في مواجهة فندق « الاسد الذهبي » .. لاسيما في المساء حين يضاء المصباح فيرسل اشعته خلال القوارير الكبيرة الحمراء والخضراء ، ثم يبعث عبر الشارع جدولين من الضوء الملون .. وخلال هذا الضوء كان طيف الصيدلي وهو متكئ الى مكتبه يبدو كما لو كان غارقاً في اضاءة الصواريخ ! .. وكانت داره مكسوة باعلانات كتبت بخط اليد او بالحروف الكبيرة بحروف الطباعة : « مياه فيشي وسلترز ، وباريج .. ومثقيات الدم .. وعقار راسيل .. والمزيج العربي .. و « باستيليا » دارسيه .. وبلسم رينيو .. وأربطة .. وكادات .. وشيكولاته » .. الخ . وفي مؤخرة الحانوت ، وخلف النضد الذي حمل الميزان الكبير كانت كلمة « المعمل » تبدو على باب زجاجي تكرر على وسطه اسم « هوميه » بحروف ذهبية ، فوق رقعة سوداء .

ولم يكن ثمه ما يشاهد في « ايونفيل » عدا ذلك ، فان الشارع الاوحد – الذي لم يكن طوله يتجاوز مرمى المقذوف الناري والذي تقوم الحوانيت على جانبيه – كان لا يلبث ان ينتهي عند منعطف الطريق الزراعي .. فاذا خلفه المرء وانحرف الى اليمين في محاذة منحدر هضبة (سان جان) ، وصل الى المقابر .. وكان القوم ، عندما تفشت « الكوليرا » ، قد هدموا جانباً من جدارها ، وضموا اليها بضعة افدنة لتوسيعها ، بيد ان القطعة الجديدة بقيت شبه خالية ، وظلت

القبور تتكسد على مقربة من الباب ، كما كانت الحال من قبل . وقد استغل الحارس - الذي كان في الوقت ذاته شماساً ، مما مكّنه من مضاعفة الافادة من موتى الابروشية - بقاء هذه الارض على حالها ، فراح يستنبت البطاطس فيها . بيد ان حقله الصغير اخذ يضيق سنة بعد اخرى ، الى ان تفشي الوباء ، فلم يعد يدري : أَيْتهج لكثرة المرضى ، ام يحزن لامتداد المقابر ١٩ .. ولقد قال له القس يوماً : « انك تعيش على الموتى يا لستيبودوا » ، فحملته هذه الملاحظة الكئيبة على التفكير ، وصدته زمناً عن حقله .. ولكنه ما زال حتى اليوم - (اي حتى كتابة هذه القصة) - يواصل زراعة بطاطسه ، بل ويزعم في صفاقة انها تنمو من تلقاء ذاتها !

ولم يتغير شيء في « ابونفيل » منذ الأحداث التي سنرويها .. فما زال العلم ذو الألوان الثلاثة ، والمصنوع من الصفيح ، يدور فوق الكنيسة .. وما زالت ترفرف على متجر الاقشة رايتان من البفتة .. والأجنة التي يحتفظ بها الكيماي محنطة كحزم الصوفان الابيض آخذة في التحلل يوماً بعد يوم في كحولها المعكر ! .. وما زال تمثال الاسد الذهبي الحائل اللون يجثم على الباب الامامي للفندق ، يطالع المارة بلبده الشبه بفرودة الكاب !

وفي المساء الذي كان مقدراً ان يصل فيه « بوفاري » وزوجته الى « ابونفيل » ، كانت الارملة « لوفرانسوا » - صاحبة الفندق - كثيرة المشاغل الى حد ان العرق اخذ ينضح منها في قطرات كبيرة وهي تروح وتغدو بأية المطبخ ! .. كان اليوم التالي هو يوم السوق ، ولا بد من ان تقطع اللحم مقدماً ، وتنظف الدجاج ، وتعد الحساء والقهوة .

كما كان عليها - فوق ذلك - ان تجهز للنزلاء غداءهم ، وان تعد للطبيب وزوجته وخدامهما العشاء .. وكانت تردد في قاعة « البلياردو » ضحكات صاخبة . وفي غرفة الجلوس ، كان ثمة ثلاثة من الطحانين يصيحون في طلب الخمر ! .. وكانت النار تتأجج في خشب الموقد ، والآنية النحاسية تثر فوقها بعد ان بدأت محتوياتها في الغليان . وعلى مائدة المطبخ الطويلة ، وبين قطع اللحم الكبيرة النيئة ، تكدست اكوام من الأطباق كانت تهتز باهتزاز اللوحة التي كانت « السبانخ » تقطع فوقها .. ومن فناء المبنى كانت تنبعث صيحات الدجاج الذي كانت الخادم تطارده لتمسك به وتدق أعنقه !

ووقف بجوار المدفأة - يدفيء ظهره - رجل على وجهه بقايا طفيفة من آثار الجدري ، وقد ارتدى خفين اخضرين وقلنسوة من المخمل ذات « شرابات » ذهبية .. ولم يكن وجهه ينم عن شيء اللهم الا الرضى عن نفسه ، وقد بدا انه يطمئن الى الحياة طمأنينة طائر الشرشر الصداح حين يدس رأسه بين قضبان قفصه .. كان ذلك الرجل هو : الصيدلي !

وعلى حين غرة ، صاحت السيدة صاحبة الفندق : « ارتميز .. شقي بعض الخشب ، واملائي الدوارق ، واحضري بعض الخمر ، وايقظي حواسك .. آه ، لشد ما انا حائرة في اختيار حلوى أقدمها بعد العشاء للضيوف الذين ترتقبهم يا مسيو هوميه ! .. يا للساء الرحيمة ! .. ها هم الحالمون يستأنفون ضوضاءهم في غرفة « البلياردو » بعد ان تركوا عربتهم امام الباب ! .. ان « العصفورة » - (اسم عربة) - قد تصطدم بها اذا ما جاءت ، فادعوا بوليت لتقودها الى الحظيرة .. تصور يا مسيو هوميه انهم لعبوا نحو خمسة عشر دوراً منذ الصباح ، وشربوا ثمانتي قنينات من نبيذ التفاح ! .. انهم يوشكون ان يمزقوا كساء منضدة البلياردو !

واخذت تتأملهم عن كثب ، بينما اجاب السيد هوميه : « لن يكون الضرر كبيراً ، فانك مسوقة حتماً الى شراء غيرها !
فهتفت الارملة مأخوذة : « منضدة اخرى للبياردو ؟ »

– اجل ، اذ ان هذه اوشكت ان تتداعى يا مدام « لوفرانسوا .. اني اكرر ما قلت من قبل ، فانك تؤذين نفسك ابغ ايداء ! .. ثم ان اللاعبين يطلبون الآن جيوباً ضيقة وعصياً ثقيلة للبياردو ، لأن الهواة لم يعودوا يقبلون على البياردو الفرنسي الآن . لقد تغير كل شيء ! يجب ان يجاري المرء الزمن !.. الا انظري الى تلبيه ا ! »

واجهر وجه صاحبة النزول استياء ، بينما استطرد الصيدلي : لك ان تقولي فيه ما شئت ، ولكن « بليارده » خير من « بلياردك » ، ولو ان احداً فكر في ان ينظم مباراة من اجل اغائة بولندا ، او ضحايا الفيضان في ليون ! . »

فقطعت عليه صاحبة النزول حديثه قائلة ، وهي تهز كتفيها السمينتين :
« ان الصعاليك امثاله لا يزعجونني .. على رسلك يا مسيو هوميه !.. لسوف يفد الناس على فندق « الاسد الذهبي » طالما ظل على قيد الوجود .. ليس لدينا ما يدعو الى القلق ، في حين انك لن تلبث ان ترى فندق « المقهى الفرنسي يوماً مغلقاً ، وقد سمرت ابوابه !.. واستأنفت وكأنها تحدث نفسها : « أغير « بلياردي » .. المائدة التي اعتمد عليها في طي الغسيل ، والتي هيأت فوقها فراشاً لسته نزلاء في موسم الصيد !.. ولكن ذلك المتسكع « هيفير » لم يصل بعد .. »

– او ترجئين العشاء لتزلائك حتى وصوله ؟

– وهل املك هذا ؟.. ماذا يفعل السيد بينيه ؟.. ما ان تشرع الساعة في اعلان السادسة حتى تراه مقبلاً ، فليس له مثيل تحت الشمس في دقة المواعيد !.. ولا بد من ان يكون مقعده معداً في قاعة الجلوس الصغيرة ، فانه يؤثر الموت على ان يتناول العشاء في اي مكان آخر ..

وهو حريص على الدقة ، شديد العناية باختيار شرايه ا فهو ليس مثل السيد ليون الذي يفد احياناً في السابعة ، بل وفي السابعة والنصف ، ولا يكاد يأبه لما يقدم اليه من طعام .. ما أظرفه ! .. انه ما تلفظ مطلقاً بكلمة نايبة !

— لا اشك في انك تدركين ان ثمة فارقاً شاسعاً بين الرجل المثقف وبين جندي متقاعد اصبح يعمل محصلاً !

* * *

ودقت الساعة مؤذنة بالسادسة ، فدخل « بينيه » .. كان يرتدي « رديجوت » ازرق يستوي على جسده الناحل في استقامة ، وقلنسوة جلدية ثبتت الى رأسه برباط ، وقد بدا تحت حافتها المرفوعة جبين عريض ، خلفت كثرة ارتداء الخوذات اثرأ عليه .. وكان يرتدي كذلك صداراً اسود وياقة من الفرو وسروالاً رمادياً .. ثم حذاءين بالغي النظافة ، ينتقل بهما طوال العام ، وقد برز في جانبيهما نتوءان يشيان بموقعي اصبعي قدميه الكبيرتين .. ولم تكن ثمة شعرة واحدة في سوائفه تشذ عن النظام ! .. وقد كانت هذه السوائف تستطيل الى فكيه على نمط العشب الذي يحيط بالحديقة ، محتضنة وجهه الجامد الطويل ، ذي العينين الصغيرتين والأنف المعقوف .. وكان بارعا في جميع الألعاب، ماهراً في الصيد ، ذا خط جميل ، كما كان يملك مخرطة يصنع عليها حلقات مشاجب المناشف التي كان يحتفظ بها في غيرة الفنان وانايسة الثري ، الحديث الثراء ، حتى ملأ بها بيته !

ويمم شطر قاعة الجلوس الصغيرة ، ولكن .. كان لا بد من اخراج الطحانين الثلاثة منها اولاً .. وظل بينيه صامتاً في مقعده القريب من المدفأة طيلة الوقت الذي استغرقه اعداد المائدة ، حتى اذا تم ذلك ،

اغلق الباب واخلع قلنسوته جرياً على عادته !
وما ان خلا الصيدلي الى صاحبة النزول ثانية ، حتى بادر قائلاً :
« ما كان القاء التحية لينقص شيئاً من لسانه ! »
فأجابته : « انه لا يتكلم قط اكثر مما تدعو اليه الضرورة . لقد
كان لدينا في الاسبوع الماضي نزيلان من تجار الاقمشة .. وكانا مرحين ،
ظلا يرويان لنا في المساء من الفكاهات ما جعلني ابكي من كثرة الضحك ..
بينما كان هو قابلاً كالسمكة ، فلم ينبس قط ببنت شفة ! »
قال الصيدلي : « اجل .. لا خيال ، ولا فكاهة ، ولا شيء مما
يكون رجل المجتمع . »

فقلت محتجة : « ومع ذلك ، فانهم يقولون ان له اصدقاء ومجالس !
- مجالس ! .. مجالس ! . من المحتمل ان تكون على شاكلته !
وما لبث ان استطرد قائلاً : « انني ادرك ان التاجر ذا الصلات
الواسعة ، والقنصل ، والطبيب والصيدلي ، يجدون من اعمالهم ما يشغلهم
ويلهبهم ، حتى ليبدو الواحد منهم غريب الاطوار ، او جافاً .. ان
التاريخ حافل بقصص هؤلاء . ولكن المهم ان عذرهم في هذا راجع
الى ان لديهم ما يشغل تفكيرهم .. فأنا مثلاً كثيراً ما ابحث عن قلمي
على المكتب لأدون تذكرة ، فلا ألبث ان اتبين في النهاية انني وضعته
خلف أذني ! .. »

وفي تلك اللحظة ، سارت مدام « لوفرانسوا » الى الباب لترى اذا
كانت العربة المرتقبة - « العصفورة » مقبلة .. ولكنها اجفلت اذ
ولج المطبخ فجأة رجل في ثياب سوداء .. وكان في وسع المرء ان يتبين
على ضوء آخر فلول الغسق ، ان له وجهاً متورداً ، وجسماً رياضياً ..
وسألته ربة النزول وهي تتناول من فوق المدفأة احد الشمعدانات
النحاسية التي كانت مصفوفة وقد ثبتت فيها الشموع : « أية خدمة أملك
ان اؤديها لك يا سيدي القس .. هل لك في تناول شراب ما ؟ .. جرة

من نبيذ « كاسي » الأسود ؟.. او زجاجة من النبيذ الأحمر ؟! «
وهز رجل الدين رأسه في أدب بالغ ، وقال انه جاء من اجل
مظلته التي نسيها منذ ايام في دير « ايزنمو » . وبعد ان سأل مدام
« لوفرانسوا » ان تعمل على ارسالها اليه في دار « الخوري » في المساء ،
انصرف الى الكنيسة التي كان ناقوسها يبق مؤذناً بصلاة المساء ..

وما ان اطمان الصيدلي الى انه لم يعد يسمع وقع قدمي القس في
الميدان ، حتى ابدى رأيه في مسلكه فوصفه بأنه ناب !.. فقد بدا
رفضه - في رأي الصيدلي - أبغض ألوان الرياء ، اذ ان كل القساوسة
يحتسون الخمر في الخفاء ، ويحاولون ان يستعيدوا الأيام التي كانت
الكنيسة تتقاضى فيها الضرائب من رعاياها !

وانبرت صاحبة النزل تدافع عن القس قائلة : « انه رغم قولك
يستطيع ان يطوي اربعة من امثالك على ركبته !.. لقد ساعد رجالنا
على تخزين العشب الجاف في العام الماضي ، فبلغ من قوته انه كان
يحمل ستاً من الخزم في آن واحد » .. فهتف الصيدلي : « مرحى !..
أرسلوا بناتكم اذن ليعترفن امام رجال من هذا الصنف !.. لو انني كنت
في مركز الحكم لأمرت بأن يفصد دم القساوسة مرة في كل شهر ..
أجل يا مدام لوفرانسوا .. في كل شهر .. وفصداً جيداً ، في سبيل
مصلحة البوليس والأخلاق » !!

- كفت عن هذا يا مسيو هوميه ، فأنت كافر ، لا دين لك !
فأجاب الصيدلي : « بل لي دين .. ديني الخاص .. وان لدي من
التقوى ما يفوق ما لدى هؤلاء الآخريين جميعاً ، رغم نفاقهم ودجلهم ..
انني على العكس اعبد الله .. أومن بالكائن الأعلى .. أومن بوجود
خالق ، كيفما يكن كنهه .. ومهما يكن هذا الخالق الذي اوجدنا هنا
لتؤدي واجباتنا كمواطنين وأرباب اسرات .. ولكنني في غير حاجة
لأن اذهب الى الكنيسة لأقبل اطباقاً فضية ، ولأؤمن من مالي رجالاً

لا يصلحون لشيء ولا نفع منهم ، ويحظون بمعيشة انعم مما نحظى ! ..
ان المرء ليستطيع ان يهتدي الى الله في غابة ، او في حقل ، او حتى
بمجرد تأمل قبة الأثير ، كما كان القدماء يفعلون ! .. ان الهى هو إله
سقراط وفرنكلين وفولتير وبيرانجيه ! .. اني من انصار الايمان الذي
دعا اليه « قس سافوا »^١ .. ومن المؤمنين بمبادئ ثورة سنة ١٧٨٩
الخالدة ! .. ولا يستطيع ان أعبد إلهاً مزعوماً ، يسير في حديقته وعصاه
في يده ، ويودع اصدقاء اجواف الحيطان ، ويموت صارخاً ، ثم
يبعث بعد ثلاثة ايام ! .. هذه جميعاً - في حد ذاتها - سخافات ،
تناقض تماماً كل قوانين الطبيعة .. وفي هذا ما يوضح لنا - صمناً -
كيف ان القس ظلوا دائماً متشبثين بجهل صلد لا يلين ، يحاولون
ان يدفنوا البشر معهم في جوفه !!

وأمسك عن الكلام ، وأجال بصره فيما حوله وكأنه يتأمل جمهوراً
يحيط به .. فقد ظن الصيدلي في انفعاله انه في قاعة المجلس البلدي ! ..
على ان ربة النزول لم تكن تنصت اليه ، بل أصاحت بسمعتها تحاول ان
تستبين صوتاً انبعث عن بعد ، اختلطت فيه ضوضاء العجلات بسنابك
حديدية تضرب الأرض .. وما لبثت (العصفورة) ان وقفت امام الباب
اخيراً !

* * *

كانت (العصفورة) تتكون من صندوق اصفر يقوم على عجلتين
كبيرتين يصل محيطاهما الى مستوى سقفه ، فيحولان بين المسافرين ورؤية

١ - يشير الى فصل في كتاب « اميل » لجان جاك روسو ، وفيه يقود القس تلميذه الياغ الى
اعلى جبال « سفوا » ليحدثه عن الله والايمان ، في غمرة من جلال الطبيعة .

الطريق ، ويلطخان اكتافهم بالقاذورات !.. وكان زجاج نوافذها الضيقة يهتز في اطاراته اذا ما اغلقت ابوابها .. فضلاً عن انها كانت ملطخة - هنا وهناك - يقع من الوحل استقرت على طبقة من غبار قديم لم تستطع امطار العواصف ان تزيلها تماماً .. وكان يجرها ثلاثة جياذ ، ربط أولها امام زميليه .. وعند انحدارها من المرتفعات ، كان قاعها يمس الأرض فيرتج ارتجاجاً شديداً !

وأقبل على الميدان عدد من اهالي (ايونفيل) ، اخذوا يتكلمون معاً في آن واحد : يتساءلون عن الأخبار ، ويستفسرون عن سلال الهدايا . ولم يكن (هيفير) - السائق - يدري أيهم يجيب اولاً ، فقد كان هو المنوط بقضاء حوائج القرية من (روان) ، وكان يطوف بالحوانيت يجلب لفات الجلد لصانع الاحذية ، والحديد للبيطار، وبرميل (الرنجة) لمخدومته - ربة النزل - والقبعات من صانعها ، والشعور المستعارة من الحلاق .. وكان يوزع الخزم على طول الطريق وهو عائد ، فيقف على مقعده ويقذف بها من فوق الاسوار صائحاً بملء فيه ، والحيل ماضية !

وكان تأخره في العودة راجعاً الى حادث بسيط ، فقد هربت كلبة مدام (بوفاري) في الحقول ، فقفصوا ربيع الساعة يصفرون لها .. بل ان (هيفير) رجع مسافة نصف الفرسخ أملاً في العثور عليها ، متوهماً في كل لحظة انه قد لمحها !.. وبكت (ايمان) ، وسخطت ، واتهمت (شارل) بأنه كان السبب . وقد حاول السيد (ليريه) - تاجر الاقشة الذي كان يرافقهما في العربة - ان يواسيها ، فضرب لها امثلة بكلاب ضاعت ثم (اهدت) الى اصحابها بعد سنوات طويلة ! .. بل لقد روى لها ما سمعه عن كلب عباد الى باريس من القسطنطينية ! .. وعن كلب آخر قطع خمسين ميلاً في

خط مستقيم ، وعبر اربعة اناار سباحة ! .. وتمادى فذكر لها
ان اباها كان يملك كلباً فقداه اثني عشر عاماً ، ثم فوجيء به
يقفز على ظهره ذات مساء ، وهو في طريقه لتناول العشاء في
المدينة !

الفصلُ الثاني

كانت « ايمان » اول من هبط من العربة ، وتبعتها « فيليسيته » ، فالسيد « ليريه » ، فرضعة .. واضطروا الى ان يوقظوا « شارل » الذي كان قد استسلم في ركنه لنوم عميق ، مذ ارخى الليل سدوله !
وقدم « هوميه » نفسه ، مزجياً احتراماته للسيدة ، وتحياته للسيد ، معرباً عن شدة اغتباطه اذ اتيح له ان يؤدي لها بعض الخدمات .. واطاف في لهجة الصديق انه قد نجراً فدعا نفسه لتناول العشاء معها ، اذ ان زوجته غائبة عن البلدة !

وعندما دلفت مدام « بوفاري » الى المطبخ ، اقتربت من الموقد ، وامسكت بثوبها عند الركبتين بأطراف اناملها فرفعته حتى حاذى ذيله عرقوبيها ، ثم مدت قدميها بجذائيهما الأسودين نحو اللهب ، فوق « الفخذة » التي كانت تنثر ، فاذا اللهب يضئ كل كيانها ، ويتغلغل نوره في نسيج ثوبها ، ومسام جلدها البض الامنس ، بل وفي جفون عينيهما اللتين اخذت تغمضهما من وقت لآخر ! .. ودفعت الريح المتسللة من الباب المنفرج وهجاً دافئاً هب عليها .. وكان ثمة شاب اشقر يرقبها في صمت من الجانب الآخر للمدفاة ..

كان السيد « ليون ديوي » - الشاب الاشقر - ثاني التراء الدائمين

في « الأسد الذهبي » ، وقد اعتاد ان يؤخر تناول عشاءه في كل مساء على امل ان ينزل بالفندق مسافر يستطيع ان يجاذبه الحديث ، اذ اشتد به السأم في « ابونفيل » حيث كان يعمل كاتباً لدى الاستاذ « جويومان » موثق العقود .. غير انه لم يكن يملك - اذا ما فرغ من عمله - سوى ان يعود الى الفندق ، ومن ثم يضطر الى مصاحبة « بينيه » طوال العشاء ، لهذا رحب مغتبطاً في تلك الليلة باقتراح ربة الفندق ان يتناول عشاءه في صحبة القادمين في القاعة الكبرى ، حيث افنتت مدام « لوفرنسوا » في اعداد المائدة لاربعة اشخاص !

وابدى « هوميه » رجاءه في ان يسمحوا له بان يظل مرتدياً طاقيته الافريقية خشية « الانفلونزا » ، ثم التفت الى جارته قائلاً : « لا ريب في ان السيدة متعبة فان « عصفورتنا » ترج المرء رجاً »

واجابت « ايماء » : « هذا حق ، بيد ان السفر يلذ لي ، فانا احب التنقل من مكان لآخر !

وتنهذ كاتب الموثق قائلاً : « من ابشع ما يسقم النفس ان يظل المرء مرتبطاً بمكان واحد ! .. فسأله « شارل » : « وماذا كنت تفعل لو انك كنت مثلي مضطراً الى امتطاء جوادك دائماً ؟ » .. فأجاب ليون وهو يتجه بحديثه الى مدام « بوفاري » : « ولكني لا ارى شيئاً امتع من هذا ، لو كان في امكان المرء .. »

وهنا قال الصيدلي : « على ان ممارسة الطب ليست بالغة المشقة في هذا الجزء من العالم ، اذ ان طرقنا تسمح باستخدام العربات .. ولما كان المزارعون في حالة من اليسر ، فانهم يدفعون بسخاء عادة ! .. ومن الناحية الطبية لدينا - فضلاً عن الحالات العادية كالتهاب الاعصاب والتزلات الشعبية والامراض الناشئة عن الصفراء ... الخ - بعض الحميات المتقطعة التي تظهر من وقت الى آخر في موسم الحصاد . وبالاجمال ليس لدينا من الحالات الخطرة سوى القليل ، وليس ثمة احوال خاصة تستدعي

الانتباه الى كثرة الامراض الناشئة عن غدد الرقبة . وهي كثرة مرجعها بلا شك الى سوء الحالة الصحية في منازل الفلاحين .. آه ، لسوف تضطر ياسيد «بوفاري» الى مكافحة كثير من المعتقدات الفاسدة والعادات المتأصلة التي تصطدم بها مجهوداتك العلمية في كل يوم .. فهم ما زالوا يلجأون الى الرقي والتائم ، والى القس ، بدلاً من ان يسلكوا الطريق الصحيحة فيأتوا الى الطبيب او الصيدلي !.. على ان الطقس ليس رديئاً عندنا في الحق ، حتى انك لتجد في المقاطعة افراداً في الحلقة التاسعة من اعمارهم !.. وقد خرجت من ملاحظاتي بأن درجة الحرارة تهبط في الشتاء الى الرابعة المثوية . اما في موسم الحر فترفع الى خمس وعشرين او ثلاثين درجة مثوية على الاكثر .. اي ما لا يتجاوز اربعاً وعشرين درجة بميزان «ريومير» ، او - بعبارة اخرى - ٥٤ درجة بميزان «فهرنهايت» الانجليزي !.. والواقع اننا في مأمن من رياح الشمال - من ناحية - بفضل غابة (ارجى) ، ومن الرياح الغربية - من الناحية الاخرى - بفضل هضبة (سان جان) .. وفضلاً عن هذا ، هناك الحرارة الناشئة من انجرة الماء المتصاعدة من النهر ، ومن الماشية الكثيرة التي تنطلق في المراعي وترسل - كما تعلم - الكثير من النواذر - (الأمونيا) - او بالاحرى النيتروجين والهيدروجين والاكسيجين .. لا ، بل النيتروجين والهيدروجين فقط ، ومن ثم تمتص رطوبة الارض ، وتخلط جميع هذه العناصر الغازية معاً ، وتوحدها في حزمة - اذا صح هذا القول - ثم تتحد مع الكهرباء المنتشرة في الفضاء اذا ما وجدت ، فلا تلبث بعض الزمن ان تولد انجرة عفنة ، كما يحدث في البلاد الحارة !.. هذه الحرارة المتولدة كما ذكرت تجد تلطيفاً تاماً من حيث تنبعث ، او بالاحرى من حيث ينبغي ان تنبعث - في اي مكان من الناحية الجنوبية - بفضل الرياح الجنوبية الشرقية التي تصل الينا باردة - بعد ان ترطب نفسها بالمرور فوق (السين) - وكأنها نسيمات من روسيا !

وفي ذلك الوقت كانت « انا » تواصل حديثها مع الشاب قائلة :
« .. على انك ولا بد تجد مجالاً للتنزهة .. في البقاع المجاورة على الاقل ،
وأجاب الشاب : « انها جد قليلة .. فهناك مكان يسمونه (لاباتير)
- اي المراعي - على قمة التل عند حافة الغابة .. واليه اسعى احياناً ،
في ايام الآحاد ، فأمكنك في صحبة كتاب حتى اشهد مغيب الشمس »
قالت معقبة : « ما احسب ان هناك ما هو ابداع من غروب الشمس ،
وخاصة عند شاطئ البحر »

فهتف مسيو ليون : « آه .. انني اعبد البحر ! »
- ثم ، الا ترى ان الذهن يكون اكثر تحسراً في الفضاء الذي
لا حد له ، والذي يسمو تأمله بالنفس ، ويوحى بأفكار عن اللانهاية ..
والخيال المثالي ؟

- كذلك حال المناظر الجبلية .. فان لي ابن عم سافر الى سويسرا
في العام الماضي ، وحين عاد قال لي ان المرء لا يستطيع ان يتصور ما
في البحيرات من شاعرية ، وما في مساقط المياه من سحر ، ولا للانهار
من اثر هائل في النفس .. فالمرء يرى هناك اشجار الصنوبر التي لا يتصور
العقل حجمها ، عبر الممرات التي حفرتها السيول .. والاكواخ معلقة
على حواف الوهاد .. وتحت قدمي المرء بألف قدم ، تبدو - اذا ما
انقضت السحب - وديان فسيحة .. مثل هذه المناظر ولا ريب تحرك
المشاعر ، وتبعث الشوق في النفس الى العبادة والتأملات السامية .. ومن
ثم لم اعد اعجب من ذلك الموسيقي المبرز الذي اعتاد ان يوقظ الهامه
بأن يجلس لوضع موسيقاه امام منظر رائع يسيطر على المشاعر !
فسألته : « هل تعزف شيئاً من الموسيقى ؟ »

- لا ، ولكنني جد مشغوف بها .
وقطع « موميه » الحديث اذ قال وهو ينحني على طبقه : « آه ! ..
لا تلقي اليه سمعاً يا مدام « بوفاري » .. هذا مجرد تواضع .. كيف

يا عزيزي وقد كنت منذ ايام تغني « الملك الحارس » في ابداع يملك
الحواس ؟.. لقد سمعتك من المعمل ، فاذا بك تؤديها كما لو كنت
مغنياً محترفاً ! »

وبالفعل كان ليون يسكن حجرة صغيرة في الطابق الثاني من منزل
الصيدلي تظل على الميدان .. وتضرج وجهه لثناء صاحب البيت ، الذي
كان قد تحول الى الطيب وأخذ يحصي له اهم سكان « ابونفيل » ،
واحداً واحداً ، ويروي له تفصيلات ، ونوادير .. فثلاً لم يكن ثمة من
يعرف على وجه التحديد ثروة موثق العقود ، كما كان « آل توفاش »
يظهرون في افخم مظهر !

وعادت « اما » تقول : « وأي موسيقى تؤثر ؟ »

— آه ، الموسيقى الألمانية .. تلك التي تسلمك الى الأحلام !!

— وهل ذهبت الى الاوبرا ؟

— لم اذهب بعد ، ولكنني سأفعل في العام التالي ، حين اسافر الى

باريس لأتم دراسة القانون ...

وقطع الصيدلي الحديث مرة اخرى قائلاً : « انكما ستجدان — بفضل
فرار ذلك المسكين « يانودا » وبفضل حماقاته — ان بوسعكما ، كما تشرفت
بشرح الأمر للسيد زوجك ، ان تستمتعا ببيت من افضل بيوت « ابونفيل » ..
وابدع ميزاته بالنسبة لطبيب هي ان له باباً يفضي الى الحارة ، يستطيع
المرء ان يبلج وان يخرج عن طريقه دون ان يراه احد ، كما انه مستوف
لكافة الاحتياجات المنزلية : من حجرة للغسيل ، ومطبخ ألحقت به غرفة
للتحضير ، وقاعة للجلوس ، وبستان للفواكه .. الخ ، فلقد كان صاحبه
فتى مسرفاً ، لا يقيم وزناً للمال ، وقد اقام في نهاية الحديقة ، بجوار الماء ،
خيلة ليحتسي فيها « البيرة » في ليالي الصيف .. واذا كانت السيدة تهوى
فلاحة البساتين ، ففي وسعها .. »

واذ ذاك قال « شارل » : « ان زوجتي لا تحفل بهذه الاعمال ..

ومع انه اشير عليها بالرياضة والحركة ، الا انها تؤثر ان تقضي الوقت في غرفتها تقرأ ! »

فقال « ليون » : « انها مثلي .. فأني شيء اجمل في الواقع من ان يقضي المرء المساء مع كتاب الى جوار المدفأة ، والريح تلفح زجاج النافذة ، والمصباح يشتعل ؟ »

قالت « ايما » وهي تحديق فيه بعينها السوداوين الواسعتين . « أليس كذلك ؟ »

ومضى يقول : « ان المرء لا يفكر في شيء اذ ذاك .. والساعات تمر متلاحقة ونحن ننتقل - دون ان نتحرك من مكاننا - بين بلدان نخال اننا نراها .. وافكارك تختلط بالخيال لترسم الدقائق ، وتوضح لك معالم المغامرات .. انها تندمج في الشخصيات حتى لتخال ان قلبك هو الذي ينبض تحت ثيابها ! »

قالت : « هذا حق ! .. هذا حق ! »

واستأنف « ليون » الحديث قائلاً : « أو لم يحدث لك قط ان عثرت في كتاب على فكرة مبهمة كانت قد راودتك .. او على صورة معتمة تعود اليك من آفاق بعيدة وكأنها تعبر عن ادق احساسيك ؟ » .. فأجابت : « لقد شعرت بهذا فعلاً »

قال : « هذا هو السر في اني احب الشعراء ، فاني اجد الشعر اكثر رقة من النثر .. انه يشجي المرء بسهولة حتى يبكيه ! »

قالت « ايما » : « على ان الشعر لا يلبث مع طول الوقت ان يثير السأم .. اني الآن اهم - على العكس - بالقصص التي تبهر الأنفاس ، وتثير الخوف .. وأكره الابطال العاديين ، والمشاعر المعتدلة ، على نحو ما نرى في الطبيعة ! ! »

قال الكاتب : « الواقع اني ارى ان هذه الكتب - التي لا تمس القلب - تنحرف عن الغاية الحقيقية للفن . ما اعذب ان ينتقل المرء

بفكره من مضايقات الحياة ليجول بفكره مع شخصيات نبيلة ، وعواطف خالصة ، وصور للسعادة ، انني - اذ اقيم هنا بمنأى عن الدنيا - اجد في هذا ملهاتي الوحيدة .. بيد ان (ايونفيل) لا تتيح للمرء سوى موارد قليلة من هذا القبيل !

فردت « ايما » قائلة : « انها ولا بد مثل (توست) ، ومن ثم اشركت في مكتبة تعبر الكتب »

وسمع الصيدلي كلماتها الأخيرة فقال : « هل للسيدة ان تشرّفني بالافادة من مكتبتي الخاصة .. ان لدي - تحت تصرفها - مكتبة تضم خيرة المؤلفين ، مثل : فولتير ، وروسو ، ودوليل ، وولتر سكوت ، وصحيفة « صدى الأدب » ... الخ . كما انني اتلقى صحفاً كثيرة ، بينها « منار روان » اليومية ، اذ انني مراسلها في مناطق بوشي ، وفورج ، ونيوشاتل ، وايونفيل وما حولها .

* * *

وانقضت عليهم حول المائدة ساعتان ونصف الساعة ، اذ كانت الخادم « ارنيميز » تحضر طبقاً بعد آخر في ببطء ، وهي تجر خفيها في كسل فوق البلاط . وقد غفلت عن كل شيء ، واخذت في كل مرة تنسى اغلاق باب حجرة البلياردو ، فيرتطم بالجدار .

وكان « ليون » قد وضع قدمه على احد قضبان مقعد مدام « بوفاري » - اثناء الحديث - دون ان يشعر !.. وكانت « ايما » تلف حول عنقها وشاحاً حريرياً ازرق صغيراً ، يشد ياقة « مكشكشة » مجمدة من « الباتيسة » . وكان الجزء الأسفل من وجهها يقوص برفق في ذلك الشاح او يرتفع عنه ، تبعاً لحركات رأسها !.. وبينما كان « شارل » والصيدلي يثرثران ، اندمج الشابان - اللذان تجاور مقعدهما - في احد تلك الاحاديث المهمة التي تفودك العبارات خلالها دائماً الى مركز ثابت تلتقي عنده الميول والمشاعر ..

فتحدثنا عن مسارح باريس ، وعناوين القصص ، وانواع الرقص الحديثة ، والمجتمع الذي لم يكونا نعرفانه ، و (توست) التي كانت «ايما» تقيم فيها ، و (ايونفيل) حيث كانا اذ ذاك .. وتناقشا حتى نهاية العشاء في كل موضوع خطر لهما !

وبعد ان قدمت القهوة ، ذهبت «فيليسيتيه» لتعد المخدع في المنزل الجديد ، وما لبث الضيوف ان نهضوا بعد قليل ، فاذا مدام «لوفرنسوا» قد اغفت على مقربة من النار المحتضرة ، بينما كان السائس في انتظار السيد «بوفاري» وزوجته ، وهو يحمل مصباحاً ليرشدهما الى منزلها ، وقد علقت بشعره بعض اعواد القش وأخذ يعرج بقدمه اليسرى !.. وشرعوا في الانصراف عندما حمل بيده الاخرى مظلة القس .

كانت البلدة قد نامت ، وأعمدة السوق تلقي ظلالاً كبيرة على الأرض الرمادية ، كما كانت تبدو في ليالي الصيف .. واذا كان بيت الطبيب لا يبعد عن الفندق بأكثر من خمسين خطوة ، فان القوم سرعان ما تبادلوا تحية الوداع ، ثم انفضوا .

وما ان ولجت «ايما» الردهة حتى احست برطوبة الجص نهبط على كتفها كقطعة مبتلة من قماش .. وكانت الجدران جديدة ، وللدرجات الخشبية صرير .. وفي المخدع - بالطابق الأول - كان ثمة ضوء عميل الى البياض ، ينفذ خلال النوافذ التي لم تحجبها ستائر .. ولاحظ لها رؤوس الأشجار ومن خلفها الحقول تكاد تتوارى في احضان الضباب الذي انتشر في ضوء القمر على طول مجرى النهر .. وفي وسط الحجره ، تناثرت في غير نظام ادراج الدواليب ، والزجاجات ، وقضبان الستائر ، وعصي من المعدن المطلي .. وعلى المقاعد كانت ثمة حشايا ، وعلى الارض اوان وأوعية .. فقد ترك الرجلان حملات الأثاث كل شيء في غير ترتيب .

تلك كانت المرة الرابعة التي تنام «ايما» فيها في مكان لم تألفه .. كانت المرة الأولى يوم التحقت بالدبر ، والثانية يوم انتقلت الى (توست) ،

والثالثة في (فويسار) .. وها هي ذي الرابعة !.. وكانت كل مرة
بداية لمرحلة جديدة .. ولم تكن تعتقد ان الامور تجري على وتيرة واحدة
في كل مكان .. واذ كان الشطر الذي عاشته من حياتها سيئاً ، فقد وقر
في نفسها ان الشطر الباقي سيفضله !

الفصل الثالث

عندما استيقظت (ايما) في اليوم التالي ، لمحت كاتب الموثق يسير في الميدان .. وكانت في ثوب المنزل (الروب دي شامبر) . ورفع الشاب رأسه اليها محيياً ، فردت بايماء سريعة ، واغلقت النافذة ! .. وقضى (ليون) نهاره كله في ارتقاب الساعة السادسة .. ولكنه حين ولج الفندق لم يجد سوى السيد (بينيه) يجلس الى المائدة ! كان عشاء الليلة السالفة مناسبة هامة في نظره ، اذ لم يقدر له قبل ذلك ابداً ان يقضي ساعتين متتاليتين في الحديث مع (سيدة) ، فكيف اذن وسعه ان يكلمها بمثل تلك اللغة ، وعن كل تلك الأمور التي لم يكن - من قبل - يجيد التعبير عنها على هذا النحو ، وهو الذي كان في العادة خجولاً ، يلتزم ذلك التحفظ الذي يجمع بين الحياء والتكتم في آن واحد !؟ لقد كان اهل (ايوفيل) يعتبرونه (حسن التربية) ، اذ كان ينصت للكبار حين يتكلمون ، ولم يكن يبدو مصاباً بالهوس السياسي ، وهذه خلة هامة بالنسبة لأي شاب .. فضلاً عن انه كان موهوباً ، يرسم بالألوان المائية ، وعلى إلمام بمبادئ الموسيقى ، ويستطيب الحديث في الأدب بعد العشاء ، اذا لم يلعب الورق . وكان السيد (هوميه) يحترمه لثقافته ، ومدام (هوميه) تحبه

لطيبته ، اذ كثيراً ما كان يصحب ابناهما الى الحديقة ا .. وكانوا اطفالاً ملطخين دائماً بالقذارة ، مدلين الى درجة افسدتهم كثيراً ، ميالين للكسل والراخي مثل امهم !.. وكان يعنى بهم - الى جانب الخادم - (جويستان) الشاب ، مساعد الصيدلي ، الذي كان من ابناء عمومة مسيو (هوميه) فأواه هذا في البيت على سبيل الاحسان ، وكان يستغله - في الوقت ذاته - كخادم !

واثبت الصيدلي انه خير جار ، اذ كان يرشد مدام (بوفاري) الى الباعة ، ويستقدم لها تاجر شراب التفاح ، ويذوق بنفسه الشراب ثم يستوثق من ان القنينات وضعت كما ينبغي في قبو البيت !.. كما كان يرشدها الى طرق الحصول على كميات من الزبد بثمان زهيد ، ويتفق مع (ليستيبودوا) الذي كان - الى جانب مهامه الكنسية والجنائزية - يتعهد حدائق الدور الكبرى في (ايونفيل) مقابل أجر يحسب بالساعة او بالعام ، وفقاً لرغبة العميل !

ولم تكن الرغبة في مساعدة الغير هي الحافز الوحيد الذي دفع الصيدلي الى كل هذا التودد والمروءة ، بل انه كان يخفي قصداً آخر .. اذ كان قد خرق المادة الاولى من قانون ١٩ (فنتوز) من العام الحادي عشر للثورة - وهي المادة التي تحظر على كل من لا يحمل شهادة ان يزاول مهنة الطب - حتى انه استدعي الى (روان) بناء على بلاغات قدمت ضده من مجهولين ، فثقل امام وكيل النيابة في مكتبه الخاص .. وقد استقبله النائب بوشاحه واقفاً ، وعلى كتفه شريط القضاء ، وعلى رأسه قلنسوته . وكان ذلك في الصباح ، قبل ان تفتح المحكمة ابوابها .. وكان يسمع وقع احذية الشرطة الثقيلة في الردهة ، وصوتاً ينبعث عن بعد لأقفال ضخمة تفتح وتغلق .. وأحس الصيدلي بطنين في أذنيه كذلك الذي يسبق نزلة الشلل .. ورأى بعين الخيال اعماق الزنزانات ، وأسرته في دموعها ، والصيدلية وقد بيعت وتناثرت زجاجاتها .. حتى لقد اضطرت

الى ان يلجأ الى مقهى تناول فيه كأساً من (الروم) المزوج بماء
(سلزر) ليتمالك جأشه !

بيد ان ذكرى هذا الانذار ما لبثت ان اخذت في الاضمحلال ،
وعاد الى ما كان يمارسه من قبل من تقديم المشورات الطيبة لمن يطلبها
في الغرفة الخلفية بالصيدلية . غير ان العمدة كان يحقد عليه ، وزملاؤه
يفارون منه ، فكان لا بد له من ان يحسب حساباً لكل شيء ، ومن
ثم رأى ان السيد (بوفاري) سيقدر ولا ريب ما يغمره به من مجاملات ،
وسيحمله الاعتراف بالجميل على ان يمكس لسانه اذا ما لمح شيئاً ! ..
ومن ثم اعتاد ان يحمل اليه الصحيفة في كل صباح ، وان يبرح الصيدلية
بعد الظهر ليقضي فترة في الحديث مع الطبيب !

وكان (شارل) مكتئباً لأن العملاء لم يقبلوا عليه .. وكان يجلس
ساعات طويلة دون ان ينبس بينت شفة ، او يلجأ الى مكتبه لينام ،
او يتأمل زوجته وهي مستغرقة في الحياكة . ثم اخذ يعمل في البيت
كالأجير ليتلهى عن افكاره .. بل انه حاول ان يطلي جدران مخزن
الصحح ببقية من دهان تركه النقاشون .. بيد ان الشؤون المالية كانت
تشغل باله ، فقد انفق الكثير في الاصلاحات التي ادخلها على داره في
(توست) ، وفي توفير ادوات الزينة لزوجته ، وفي نقل الأثاث ،
حتى ان البائنة - التي نالها عند زواجه - تسربت كلها خلال عامين ،
وكانت تتجاوز ثلاثة آلاف دينار .. وكم من اشياء تلفت او ضاعت
اثناء نقلها من (توست) الى (ايونفيل) .. ناهيك بتمثال القوس الذي
هوى من العربة اثر عثرة عنيفة ، فتحطم على طريق (كونيكامبوا) الى
ألف قطعة !

* * *

ثم اقبلت مهمة سارة تشغله عن افكاره .. تلك هي : حمل زوجته ! ..

وكان كلما اقترب موعد الوضع ازداد حذباً عليها .. فهذه رابطة اخرى - من لحم - تعزز صلتها وتوجد فيها احساساً مستمراً بالرباط المشترك . وكان اذا رآها عن بعد تمشي متواقلة ، وقوامها يلتف في طراوة فوق رذفيها ، بعد ان تجرر من الحزام الذي كان يشده ، أطال النظر اليها.. فاذا جلسا متقابلين ، راح يتأملها في تمنع وهي تتلملم متقلبة بين الاوضاع في مقعدها ، فتفيض به السعادة ، فينهض فيقبلها ، ويمسح وجهها بيده ، ويناديه بالأم الصغيرة ، ويسعى لحملها على الرقص ، ويروي لها - بين الضحك والبكاء - كافة النكات اللطيفة التي تتبادر الى ذهنه !.. كانت تطربه فكرة انجاب طفل .. ومن ثم لم يعد يعوزه شيء آخر ، فقد اصبح يعرف الحياة البشرية من بدايتها الى نهايتها ، فكان يتدبرها في خاطره مطمئناً ساكن النفس !

وكانت (ايما) في دهشة بالغة - في البداية - ثم اصبحت تتوق الى ان تضع حملها لتعرف كيف تكون الأمومة !.. ولما لم تكن تملك ان تنفق عن سعة لتعد للطفل مهدياً متأرجحاً - على شكل زورق - ذا ستائر من الحرير الوردى ، وطاقيات مطرزة ، فقد عدلت - والمرارة تمضها - عن كل هذا ، وعهدت الى امرأة تشتغل بالتطريز في احدى القرى باعداد ما يلزم ، دون ان تختار بنفسها شيئاً ! وهكذا لم تستمتع بهذه الاستعدادات التي تذكي الحنان في الامهات ، حتى لقد بدا ان حبها للصغير قد فتر - بعض الشيء - عنه في البداية !.. على انها لم تلبث ان اخذت تفكر فيه باسئرسال متواصل ، اذ كان (شارل) لا يفتأ يتحدث عنه اثناء كل وجبة !

وتمنت ان ترزق بولد ، قوي ، اسمر ، تسميه (جورج) ! .. وكانت ترمق الفكرة كما لو كان انجاب الذكر انتقاماً مأمولاً من كل ما اصابها في الماضي من قصور واستضعاف . فالرجل حر .. يستطيع على الأقل ان يجتاز كافة الانفعالات ، وان يجوب الاقطار ، وان يتخطى

العقبات ، وان يتذوق ابعـد المـلذات مثـالاً !.. في حين ان المرأة تتعثر دائماً في المثبطات .. فاذا نشطت وتذرعت بالمرونة ، لا تلبث ان تجد ضعف جسدها والحياة التي فرضتها عليها الشرائع لتكون عالة على سواها، عوامل تقعد بها .. وما اشبه عزيمتها بنقاب قبعتها المعلق بخيط ، وهو يرفرف في الهواء !

* * *

وواتها المخاض في نحو الساعة السادسة من صباح يوم من ايام الآحاد ، والشمس تشرق .. وما لبث (شارل) ان قال : (انها بنت !)
.. فأشاحت برأسها ، وراحت في اغماء !

واقبلت مدام (هوميه) ومدام (لوفرانسوا) – صاحبة نزل الأسد الذهبي – مسرعتين لتقبلاها ، فور سماعها النبأ .. اما الصيدلي ، فقد اكتفى – كرجل مهذب ، حيي ! – بأن ازجى اليها بعض التهاني خلال الباب المنفرج ، ثم رغب في رؤية الوليدة ، واعرب عن ارتياحه الى حسن تكوينها !

وشغلت (ايما) كثيراً – خلال فترة النقاهة – باختيار اسم لابنتها.. فانجهدت في اول الأمر الى الأسماء التي تنتهي بمقاطع معينة ، علي الطريقة الايطالية ، مثل كلارا ، ولويزا ، واماندا ، واتالا .. ومالت كثيراً الى اسم (جالسويند) .. وكانت اكثر ميلاً الى (ايزولته) او (ليوكادي) . ورغب (شارل) في ان تحمل الطفلة اسم امه ، ولكن (ايما) عارضته .. ثم راحا يستعرضان كل ما ضمه التقويم من اسماء القديسات ، وأخذوا يستشيران الأعراب . فقال الصيدلي : كنت أتحدث منذ أيام مع السيد ليون ، فأبدى عجبه لأنكم لا تختارون اسم (مادلين) الذي يقبل الجميع عليه في هذه الأيام !)

ولكن مدام (بوفاري) الكبيرة ، عارضت بصوت مرتفع هذا الاسم الذي كانت تحمله احدى الحاطثات !.. اما السيد (هوميه) ، فكان يفضل الاسماء التي تبعث الى الذهن ذكرى عظيم ، او واقعة بهيجة ، او فكرة كريمة .. وعلى هذا النحو سمي أبناءه الأربعة ، فكان (نابوليون) يمثل المجد ، و (فرانكلين) رمزاً للحرية ، وربما كان اسم (إرما) مظهراً لتأثره بالخيال القصصي العاطفي .. اما اسم (اتالي) فكان تحية لأعظم تحفة شهدتها المسارح الفرنسية !.. اذ ان عقائده الفلسفية لم تكن تتعارض مع ميوله الفنية .. ولم تكن شخصية رجل الفكر تخنقها في نفسه شخصية رجل العاطفة ، بل كان يعرف لكل حدودها ، وكان يفرق بين الخيال والتطرف المتعصب .. ففي مأساة (انايا) المسرحية - مثلاً - كان ينتقد الآراء ، ولكنه يعجب بالاسلوب .. يكره الموضوع ، ولكنه يصفق للتفاصيل جميعاً .. يزدري الشخصيات ، ولكنه يزداد تحمساً لحوارها !.. وكان يسرح مع الخيال اذا ما قرأ فقرات بديعة ، ولكنه كان يغم إذا ما تذكر ان اهل المجون والمهرجين قد يستغلونها في ألعيبهم على الغير !.. وفي خضم هذه المشاعر المتضاربة التي كانت تجتاحه ، كان يود ان يتوج لفوره (راسين) - مؤلف المسرحية - بكلتا يديه ، وان يقضي ربع ساعة في نقاش معه !

وتذكرت (ايما) اخيراً انها سمعت المركيزة في قصر (فويسار) تنادي شابة باسم (بيرت) .. ومنذ تلك اللحظة وقع الاختيار على هذا الاسم !.. ولما لم يستطع السيد (روو) الحضور ، فقد سُئل السيد (هوميه) ان يكون اشبيناً للطفلة .. وكانت كل هداياه من المنتجات التي تحويها صيدليته : ست علب من ثمار العناب المحفوظة ، وقتينة مملوءة باكسير مقو ، وثلاث انايب من معجون الشيخ ، فضلاً عن ست اصابع من سكر النبات عثر عليها في احد الصوانات . وفي امسية

الاحتفال ، أقيمت مأدبة عشاء كبيرة حضرها القس ، وتخللها هرج ومرج .. وعندما جان موعد الشراب ، أخذ السيد (هوميه) ينشد : (الله رب العالمين) ، وغنى السيد (ليون) احدى اغاني الجندول ، وألقت مدام (بوفاري) الكبيرة - وكانت اشبيئة الطفلة - احدى اغاني العصر الامبراطوري العاطفية ! .. واخيراً ، أصر مسيو (بوفاري) - الكبير - على احضار الوليدة ، وشرع يعمدها بأن سكب على رأسها كوباً من الشمبانيا .. وأثارت هذه السخرية من أقدم الشعائر الدينية غضب الأب (بورنيزيان) ، فرد عليه (بوفاري) الشيخ بفقرة من كتاب : (حرب الآلهة) !.. وهمّ القس بالخروج ، فتنصرت اليه النسوة ، وتدخل السيد (هوميه) ، حتى افلحوا في حمل القس على الجلسوس ، ومن ثم عاد يستأنف احتساء ما بقي في قدح القهوة ، في هدوء !

ومنكث مسيو (بوفاري) الكبير شهراً في (ايونفيل) بهر خلاله اهلها بخوذة فخمة من خوذات الشرطة ، يتدلى منها زر فضي ، كان يرتديها في الصباح وهو يدخن غليونه في الميدان !.. واذا كان من عادته الافراط في الشراب ، فكثيراً ما كان يوفد الخادم الى (الاسد الذهبي) لتوافيه بزجاجة على حساب ابنه . واستنفد - ليعطر مناديله - كل ما كان لدى زوجة من ابنته ماء (الكولونيا) . بيد ان هذه لم تكن تضيق بصحبته اطلاقاً ، اذ كان قد جاب الأقطار ، فكان يتحدثها عن برلين وفيينا وستراسبورج ، وعن ايام الجندية ، وعن العشيقات اللاتي احببته ، والولائم الحافلة التي أقامها !.. ثم انه كان لطيفاً .. بل لقد كان في بعض الأحيان يطوق خصرها بذراعه - على السلم او في الحديقة - ويصيح : (شارل .. احترس لنفسك !)

اذ ذاك خشيت السيدة (بوفاري) - الأم - على سعادة ابنها ، وخافت ان ينتهي زوجها مع مرور الوقت الى ان يترك اثرأ غير خلقي

في ما للمرأة من آراء وافكار ، فعملت على التعجيل بالرحيل .. ولعلها كانت تكتم اسباباً اخطر من ذلك لقلقها ، اذ ان السيد (بوفاري) لم يكن بالرجل الذي يحترم شيئاً !!

وأحست (ايما) يوماً برغبة مفاجئة في ان ترى ابنتها - التي كانت قد اسلمت لزوجة النجار لتعنى بها وترضعها - وبدون ان ترجع للتقويم لتبين ما اذا كانت اسابيع العذراء الستة قد انقضت ، انطلقت الى بيت (روليه) - النجار - في الطرف الاقصى من القرية ، بين الطريق الرئيسية والحقول .. وكان الوقت ظهراً ، وقد اوصدت ابواب الدور ونوافذها ، وتألفت السقوف الاردوازية تحت ضوء السماء الباهر حتى كادت تقدح شرراً من ابراجها ! .. وكانت الريح تهب بشدة ، وما لبثت (ايما) ان شعرت خلال سيرها بوهن ، وأخذت احجار الارصفة تؤلم قدميها .. وترددت بين ان تعود الى البيت ثانية ، او تلوذ بأي مكان .. وفي هذه اللحظة ، برز السيد (ليون) من منزل مجاور ، وقد تأبط حزمة من الورق ، فخف لتحتها ، ووقف تحت المظلة الرمادية الممتدة امام حانوت (روليه) .

وقالت مدام « بوفاري » انها في طريقها لرؤية ابنتها ، بيد ان التعب أخذ يشتد بها ، فقال ليون : « هل لك ... » ثم أمسك لا يجرؤ على ان يتم عبارته ، فسألته : « هل لديك اي عمل يشغلك الآن ؟ » .. واذا اجابها بالنفي ، رجته ان يصحبها .. فلم يحن المساء حتى كانت « ايونفيل » بأسرها قد عرفت النبا .. وصرحت مدام « توفاش » - زوجة العمدة - امام خادمتها بأن « مدام بوفاري قد ورطت نفسها ! »

* * *

كان لا بد « لايمّا » ، كي تصل الى بيت المرضعة ، من ان تعرج

الى اليسار بعد نهاية الشارع وكأنها تسعى الى المقابر ، ثم تسلك - بين الدور والافنية - طريقاً ضيقة محفوفة بأشجار اللبخ والفيرونكا والنسرين وبنات النار المزدهرة ، وبالعوسج المنبث من الاحراش . وخلال ثغرات في الأسبجة ، كانت الأبقار تلوح في الخرائب وهي تحك قرونها في جذوع الاشجار .. وسارا في هواده ، جنباً الى جنب ، وقد استندت السيدة الى زميلها الذي كان يضيق من خطاه كي تلائم خطاها !.. وكان يحوم امامها سرب من الذباب يطن في الهواء الدافئ ..

وتعرفا على المنزل بفضل شجرة بندق قديمة كانت تظله . وكان بيتاً منخفضاً ، مغطى بقرميد بني اللون ، تتدلى من كوة مخزن الغلال فيه حزمة من البصل .. وخلف الحاجز الشوكي ، قامت عدة اغصان جافة تحيط بحوض زرع خساً ، وبعض عقل من « اللاوندة » ، وفروع من البازلان المزدهرة استندت الى عصي صغيرة ، والماء القدر ينساب على العشب حيث تناثرت عدة اشياء بالية غير واضحة المعالم : جوارب من نسج اليد ، وصدار من الحرير الهندي الاحمر ، وملاءة من القماش السميك منشورة على طول السياج ..

وعلى صوت صرير باب السياج خرجت المرصعة تحمل على ذراعها طفلاً يرضع ، وتسحب باليد الاخرى طفلاً هزيلاً مسكيناً كست وجهه البثور ، وكان ابن صانع قبعات في (روان) ، تركه أبواه في الريف لفرط انصرافهما الى تجارتهما . وقالت المرصعة : « تفضلي .. ان طفلتك نائمة هناك !.. »

وكانت الغرفة التي بالطابق الأرضي ، هي الغرفة الوحيدة بالمسكن ، وقد أقيم لصق الجدار - في اقصاها - سرير واسع بدون ستائر ، بينما شغل حوض العجين الجدار الذي تخللته النافذة ، وقد ألصق في مكان الزجاج المكسور في هذه ، ورق ازرق .. وفي الركن القائم خلف الباب رصت احذية ذات مسامير لامعة ، تحت حافة المغسل ، بجوار

زجاجة دست في فوهتها ريشة . وعلى رف المدفأة المغرب كانت ثمة نسخة من تقويم « ماتيو لانزبرج » وسط قطع من الصوان واعقاب الشموع والصفوفان . واخيراً ، كانت آخر مظاهر الترف في المسكن ، لوحة تمثل « الشهرة » تنفخ في بوق ، يدل مظهرها على انها قصت من اعلان للعطور ، وثبتت الى الجدار بستة من مسامير الاحذية الخشبية (الباقيب) !

وكانت طفلة « ايمما » ترقد في سرير من الغاب ، فحملتها في الغطاء الذي كان يلفها واخذت تغني لها برفق وهي تهزها .. ومضى « ليون » يذرع الغرفة ، وقد بدا له من الغريب ان يرى سيدة جميلة في ثوب انيق وسط كل هذا البؤس والفاقة .. وتضرجت وجنتا مدام « بوفاري » ، فأشاح بصره اذ خطر له ان نظرة فضولية بدت في عينيه .. وما لبثت الأم ان ردت الطفلة الى مهدها بعد ان تقيأت على صدر مرولتها ، فاقبلت المرصعة لمسح القيء فوراً ، مؤكدة انه لن يخلف اثرأ .. وقالت : « كم من افعال لها تشغلني ، فاني احرص على تنظيفها باستمرار ، ولو انك تفضلت فأمرت « كاميس » البديل بأن يعطيني بعض الصابون ، لكان هذا أدعى لراحتك ، لأنني لن اضطر لازعاجك » !

فقالت « ايمما » : « حسناً .. ليكن ! .. طاب يومك يا سيدة روليه » وخرجت وهي تسمح نعلها عند العتبة .. وتبعها المرصعة حتى نهاية الحديقة ، وهي تحدثها طيلة الوقت عن العناء الذي تلاقيه طيلة الليل ، قائلة : « ان الضنى يبلغ بي احياناً ان استغرق في النعاس وانا جالسة في مقعدي ، واعتقد انه يخلق بك ان تمنحني رطلاً على الأقل من البن المجروش ، يكفيني شهراً ، لأتناول منه قدهاً مع اللبن في كل صباح » .

وانصرف مدام « بوفاري » بعد ان استمعت مكرهه لعبارات الشكر.

على انها لم تكذب بتعمد بضع خطوات حتى انتبهت الى وقسح حذاءين خشبيين .. واذا بالمرضة ، فسألتها : « ماذا هناك ؟ » .. واذا ذلك انتحت بها الفلاحة جانباً خلف احدى اشجار الدردار ، وراحت تحدثها عن زوجها الذي اوتي حرفة ، لا تدر عليه غير النذر الضئيل .. وقاطعتها « ايما » قائلة : « اسرعي ! » ، فاستأنفت وهي تتنهد بين كل كلمة واخرى : « آه .. أخشى ان يغم اذا رأني اتناول القهوة وحدي .. فانت تعرفين الرجال ... »

قالت « ايما » : لسوف تحصلين على البن .. سأعطيك اياه ... انك تضايقيني ! » .

— اواه يا سيدتي العزيزة المسكينة ! .. انه يعاني — بسبب جراحة — من انقباضات مزعجة في الصدر .. ويقول ان شراب التفاح يضعفه ! — عجلي ايتها الام روليه !

فاستطردت المرضة وهي تنحني احتراماً : « اذن ، فاذا لم اكن قد تباديت .. » ، وانحنت مرة اخرى .. « فلو تكرمت » .. وبدأت في عينيها ضراعة ، ثم افضت بغايتها اخيراً : « .. بقنينة براندي ! ولسوف أدلك منها قدمي طفلتك ، فهما رقيقتان كاللسان ! »

* * *

ما ان تخلصت « ايما » من المرضة ، حتى امسكت بذراع « ليون » ، وسارت مسرعة بعض الوقت ، ثم تباطأت .. وفيها كانت تتطلع الى الامام ، وقع بصرها على كتف الشاب الذي كانت لسرته ياقة من المخمل الاسود ، يتدلى فوقها شعره الكستنائي الذي نسق في عناية ، ولاحظت ان اظافره كانت أطول مما اعتاد الناس في « ابونفيل » ان يتركوا عليه اظافره ! .. وكانت العناية بها من المهام الرئيسية التي تشغله .. ومن ثم كان يحتفظ في درج مكتبه بمطواة خاصة لذلك !

وعادا الى « ابونفيل » سائرين بمحاذاة مجرى الماء .. كانت الضفة تتسع في الموسم الحار عنها في الاوقات الاخرى ، فتكشف عن اساس جدران الحدائق ، حيث تنحدر الى مجرى النهر بضع درجات .. وكان الماء يجري سريعاً ، هادئاً ، تكاد العين تلمس برودته ! .. والاعشاب الطويلة النحيلة تتشابك وتتجمع ، والتيار يدفعها ، ثم تبسط نفسها على سطح الماء النмир كالشعر المسترسل .. وكانت تبدو على قمم البوص او على احدى اوراق زنابق الماء - في بعض الاحيان - حشرة دقيقة الاطراف تزحف او تقبع مستريحة .. وكانت الشمس تحترق باشعتها الفقايع الزرقاء الصغيرة التي تخلفها الامواج ، والتي كانت تتابع متكسرة .. واشجار الصنصاف العتيقة العارية الأغصان ، تعكس على الماء صور جذوعها المغبرة .. وفي المؤخرة ، بدت المراعي محيطة بالمنظر ، ممتدة على مدى البصر ، خالية من كل شيء .. كانت ساعة العشاء قد حانت في المزارع ، فلم تسمع الشابة وزميلها اي صوت وهما يسيران ، اللهم الا وقع خطواتهما على ارض الطريق ، والكلمات التي كانا ينطقان بها ، وحفيف ثوب « ايمان » ..

وكانت اسوار الحدائق - التي بدت من فوقها قطع الزجاج - ساخنة كزجاج نوافذ بيوت تربية النباتات الحارة ، وقد نبتت الزهور البرية بين احجارها ، فكانت مدام « بوفاري » تمس بعض هذه الزهور الجافة بحافة مظلتها المفتوحة ، وهي تمر بها ، فتساقط تراباً أصفر .. كما كان يشتبك بحافة المظلة احياناً غصن من اللبلاب المتدلي ، ويتأرجح فوق حريرها لحظة ..

وكانا يتحدثان عن فرقة من الراقصين الاسبانيين مرتقبة الوصول الى مسرح (روان) ، فسألته : « هل ستذهب لرؤيتها ؟ » .. فأجاب : « اذا استطعت » ! ..

أو لم يكن لديهما ما يقال غير هذا ؟! .. كانت عيونهما مفعمة

بحديث اكثر جدية .. وكانا ، اذ يجهدان نفسيهما في البحث عن عبارات تافهة ، يحسان بنوع واحد من الخدر يسري فيهما .. ذلك كان همس الروح .. همس عميق ، مستمر ، يطغى على صوتيهما ! .. وأخذهما العجب لهذه العذوبة الطارئة ، فلم يخطر ببالهما ان يتكلما عن هذا الاحساس او ان يبحثا عن سببه .. فان المسرات في اقبالها تلقي - كالشواطىء الاستوائية - على الفضاء الشاسع رخاوتها الفطرية ، وتبعث في الجو نسماً متضوعاً .. فاذا هذه النشوة تسلمنا الى اغفاء عذب يصرفنا عن التفكير في الأفق الذي نجعله !

وكانت الارض قد ماتت في احدى البقاع تحت اقدام الماشية ، فكان لا بد لهما من ان يقفزا على احجار كبيرة خضراء تناثرت في الوحل .. وكثيراً ما كانت « ايما » تترث لتستبين موقع قدمها ، وهي تتأرجح على حجر مهتز ، وقد بسطت ذراعيها في الهواء ، وانحنت قامتها في حيرة ، وراحت تضحك وهي تخشى ان تهوى في برك الماء !

وعندما بلغا حديقة دارها ، دفعت مدام « بوفاري » الباب ، وطوت السلام عدواً ، واختفت .. فعاد « ليون » الى مكتبه - وكان رئيسه غائباً - فألقى على الملفات نظرة ، وشحد لنفسه قلماً ، ثم تناول قبعته اخيراً وانصرف متجهاً الى المرج بأعلى هضبة (ارجي) - عند مدخل الغابة - حيث استلقى على الارض تحت اشجار الصنوبر ، واخذ يتطلع الى السماء من خلال اصابعه ، محدثاً نفسه : « ما اشد ضجري ! » كان يحس انه خليق بالثناء لاقامته في هذه القرية ، حيث لا صديق سوى « هوميه » .. ومع السيد « جويومان » رئيسه ! .. وكان الأخير ، بمنظاره ذي الاطار الذهبي ولحيته الحمراء وربطة عنقه البيضاء ، يكتب على عمله ، ولا يفقه شيئاً من المتع الفكرية ، وان اتخذ لنفسه مظهراً انجليزياً صارماً بهر الكاتب في الايام الاولى !

اما زوجة الصيدلي ، فكانت خير زوجة في (نورمانديا) .. ودبعة

كالحمل ، تحب اولادها واباها وامها وبني عمومته ، وتبكي لأحزان الآخرين ، مهملة في الوقت نفسه كل شؤون دارها !.. وكانت تكره المشدات (الكورسيهات) ، غير انها كانت بطيئة الحركة ، مملحة الحديث ، مبتذلة المظهر ، ضيقة الأفق ، حتى ما كان احد ليتصور انها تصلح زوجة لغير الصيدلي ، او انها اوتيت شيئاً من خصائص جنسها فيما عدا الثوب !.. وكانت هي في الثلاثين بينما كان هو - «اي ليون» - في العشرين ، وكان مخدعه ملاصقاً لمخدعها ، ومن ثم كان يخاطبها يوماً ! ثم .. ماذا كان هناك غير ذلك !.. «بينيه» ، وبعض اصحاب الحوانيت ، واثنان او ثلاثة من اصحاب الحانات ، والقس ، واخيراً مسيو «توفاش» ، العمدة ، واولاده : وكلهم ثراة ، متغطسون ، اغبياء ، يزرعون الارض بأنفسهم ، ويستأثرون بالولائم فيما بينهم ، متزمتون ، لا تطاق صحبتهم !

ولكن .. ماذا عن «ايما» ؟ .. لقد كانت تقف بمعزل عن كل الاطار العام الذي يضم هذه الوجوه البشرية .. وبعيداً عنه هو الآخر ، اذ كان يرى بينه وبينها هوة غامضة !.. كان قد زارها مع الصيدلي عدة مرات في البداية ، فلم يبد «شارل» ميلاً واضحاً الى ان يراه مرة اخرى ، فلم يدر «ليون» ماذا يفعل ، اذ حار بين الخوف من ان يبدو متطفلاً ، والرغبة في لفقة جميلة تكاد تلوح مستحيلة !

الفصل الرابع

نقلت « ايما » - عندما بدأت أيام الشتاء - مخدعها الى حجرة الجلوس .. وكانت قاعة طويلة ، منخفضة السقف ، استقرت على رف مدفاتها - امام المرأة - حزمة كثيفة من المرجان . وكانت تجلس في مقعدها الوثير بجوار النافذة ، حيث تشهد اهل القرية وهم يعمرون على الافريز .

وكان « ليون » يسمى بين مكتبه وفندق « الاسد الذهبي » مرتين في اليوم ، فكانت « ايما » اذا سمعته عن بعد انحنى لتصيح السمع ، بينما يمر الشاب دون ان يلتفت ، فتراه من خلف الستائر في نفس المظهر والملبس دائماً .. ولكنها عندما كانت تترك قطعة القماش التي تطرزها على ركبتيها ، وتستند بذقنها الى يدها اليسرى - عند الغروب - كانت تسري في جسدها رجفة لظهور هذا الشبح ومروره بالبيت ! .. وكانت لا تلبث ان تنهض ، وتأمّر باعداد المائدة .

وكان السيد « هوميه » يصل اثناء العشاء ، وطاقيته الافريقية في يده ، فيدخل بخطى مكتومة الوقع كي لا يزعج احداً ، وهو يردد نفس العبارة دائماً : « مساء الخير ايها الزملاء ! » .. فاذا اتخذ مجلسه الى مائدة الزوجين ، سأل الطبيب عن ابناء المرضى ، فيستشيرهم هذا فيما يقدر من

انتعاب ، ثم يخوضان في الحديث عما جاء بالصحيفة التي يكون « هوميه »
قد استظهر كل ما فيها تقريباً !.. فكان يرويه ، مع التعاليقات ، كما
كان يروي جميع الزكبات الفردية التي وقعت في فرنسا او في الخارج .
ولم يكن يتوانى - اذا ما نضب موضوع الحديث - عن ان يلقي بعض
الملاحظات عن اصناف الطعام التي يراها !.. بل انه كان ينهض احياناً
عن مقعده ليرشد السيدة الى اطرى قطع اللحم ، او يتحول الى الخادم
يوجه اليها ارشادات في معالجة اللحوم ، والقواعد الصحية لاستخدام
التوابل .. ويتكلم عن البهار ، والمغاث ، وانواع العصير والمام (الجيلاتين) ..
على نحو مدهش !.. ولما كان رأس « هوميه » يحفل بتركيبات تفوق في
الكثرة ما تزخر به صيدليته من قنينات ، فإنه كان يحذق صنع جميع
انواع المربى ، والخل ، والمشروبات الروحية الخفيفة ، كما كان ملماً
بكافة المخترعات الحديثة المتعلقة بأدوات الطهو الاقتصادية ، فضلاً عن
اصول صيانة الجبن ، وعلاج النبيذ الفاسد !

وكان « جوستان » يأتي في الساعة الثامنة يستدعيه لاغلاق الصيدلية ،
فيرمقه السيد « هوميه » بنظرة خبيثة ، لا سيما اذا كانت « فيليسيته »
واقفة ، اذ كان قد فطن الى ان مساعده يميل الى التردد على بيت
الطبيب !.. وكان يقول : « ان هذا « الفحل » بدأ يفكر .. وليأخذني
الشیطان اذا كنت مخطئاً في ظني انه يجب خادمتكما ! »

بيد ان اخطر عيب كان يؤاخذ « جوستان » عليه ، هو انه كان
ينصت دوماً الى الحديث ، فلم يكن من السهل ابعاده عن « الصالون »
في يوم الأحد مثلاً ، عندما تناديه مدام « هوميه » لينقل الاطفال الذين
ناموا في مقاعدهم ، وأخذوا يسحبون بظهورهم مفارشها عنها !.. ولم
يكن يحضر سهرات الصيدلي اناش كثيرون ، اذ نجح ميله للخوض في
الفضائح والآراء السياسية في تنفير مختلف الاشخاص المحترمين منه . على
ان الكاتب لم يتخلف قط عن سهراته ، وكان اذا سمع جرس الباب

بادر مسرعاً الى استقبال مدام « بوفاري » فيأخذ عنها شالها ، ويضع تحت نضد الصيدلي الحفين السميكين المزدانين بالشرائط ، اللذين كانت ترتديهما فوق حذاءها اذا كان الجليد يملأ الشوارع .

وكانوا يلعبون ادواراً من لعبة الورق المعروفة برقم ٣١ ، ثم ينفرد السيد (هوميه) باللعب مع (ايمما) ، و (ليون) من خلفها يقدم لها النصائح ، وقد وقف معتمداً بيديه على ظهر مقعدها ، محدقاً في اسنان المشط التي تعض عقصة شعرها . وكان الجانب الايمن من ثوبها يرتفع مع كل حركة تقوم بها لالقاء الورق ، وينبعث من شعرها لون اسود ينساب على ظهرها ، ويأخذ في الشحوب تدريجياً ، حتى يتلاشى في الظلال .. ثم يتهدل ثوبها على جانبي المقعد ، منتفخاً ، مليئاً بالثنايا ، وينساب حتى يبلغ الارض .. فاذا احس (ليون) بأن نعله وقع على طرف منه ، ارتد مجفلاً وكأنما داس شخصاً !

وعندما كان ينتهي لعب الورق ، كان الصيدلي والطبيب يلعبان (الدومينو) ، فتنقل (ايمما) الى مقعد آخر لتتكئ على المائدة وتقلب صفحات مجلة (الالستراسيون) .. كما كانت تحضر معها مجلتها النسوية ، فيجلس (ليون) يتأمل الصور الى جانبها ، ويريث احدهما عند نهاية كل صفحة ريثما يفرغ منها الآخر . وكثيراً ما كانت ترجوه ان ينشدها شعراً ، فكان (ليون) يفعل بصوت مترخ كان يعني بخفضه عند العبارات الغرامية ، لتظفي عليه جلبة (الدومينو) !.. وكان السيد (هوميه) بارعاً في هذه اللعبة ، الى حد انه كان يفوز على (شارل) بدورين ، حتى اذا فرغا من الدور الثالث ، اضطجعا معاً امام المدفأة ، فلا يلبثان ان يغفوا !.. وتموت النار .. ويخلو ابريق الشاي .. و (ليون) ماض في القراءة ، و « ايمما » تنصت اليه ، وهي تعبت بمظلة المصباح في حركة آلية ، وتحديق في الرسوم المنقوشة عليها : من عصافير في عربات ، الى راقصين على الحبال ممسكين بالعصي التي يحفظون بها توازنهم .. وكان

«ليون» لا يلبث ان يمسك عن القراءة ليشير بإيماءة الى النائمين .. واذ
ذاك يشرعان في الحديث بخفوت ، فكان هذا الحديث يبدو لها اعذب
من اي حديث ، لأن احداً لم يكن يسمعه !
وهكذا توثقت بينها رابطة من نوع خاص ، وأخذتا يتبادلان الكتب
والروايات. ولم يكن السيد (بوفاري) ليشغل باله بهذا .. فقد كان قليل
الانسياق للغيرة !

وتلقى (شارل) في عيد ميلاده صورة لرأس رسم باللون الازرق ،
ليبان الجهاز العصبي ، وقد انتشرت عليه الازرقام والبيانات حتى القفص
الصدرى !.. تلك كانت هدية من الكاتب الذي اخذ يقدم الكثير غيرها
من الهدايا والخدمات ، حتى لقد كان يقضي للطبيب حوائجه في (روان) .
وكان احد الروائيين قد اورد في كتاب له فصلاً عن نبات (الصبار)
جعله بدعة لقيت رواجاً ، فابتاع (ليون) بعض نباتات منه لمدام بوفاري ،
وقد ادمى بعض اشواكها اصابعه ، اذ حملها في (الصفورة) على
ركبته !.. وأقامت السيدة خارج نافذتها قاعدة من الخشب وضعت عليها
الأصص . ولما كانت للكاتب حديقة صغيرة معلقة ، فقد اخذ كل منها
يشاهد الآخر وهو يعنى بأزهاره عند النافذة !

ومن بين نوافذ القرية ، كانت ثمة نافذة ينبعث منها اكبر قدر من
النشاط .. فطيلة ايام الآحاد - نهارها ومساؤها - وبعد ظهر كل يوم ،
حين يصحو الجو ، كان المرء يرى خلال كوة مخزن الغلال منظرًا جانبيًا
لوجه (بينيه) وقد انحنى على مخرطته فانبعث طينها الرتيب حتى ضار
يسمع في فندق (الاسد الذهبي) .

وولج (ليون) غرفته ذات يوم ، فألقى فيها سجادة من المخمل
والصوف ، نقشت عليها افنان على قاعدة شاحبة ، فاستدعى مدام (هوميه)
والسيد (هوميه) و(جوستان) والاطفال والطباخة ليشهدوها !.. وتحدث
الى رئيسه عنها .. ورغب الجميع في ان يروا هذه السجادة ، وهم يسائلون

انفسهم : ترى لماذا تقدم زوجة الطيب للكاتب هدايا ؟.. انه لأمر جد عجيب !.. ووقر في نفوسهم أنها لا بد حبيبته ، لا سيما وقد كان في مسلكه ما يبرر هذا الظن ، اذ كان دائم الحديث عن سحرها وذكائها ، حتى لقد رد عليه (بينه) مرة في عنف قاس : « وماذا يعني من امرها وانا لست من اصدقائها ؟! »

وأخذ « ليون » يعتمر ذهنه بحثاً عن وسيلة يعلن حبه لها .. فقد كان يتردد بين الخوف من ان يثير استياءها وبين الحجل من جبهته !.. كان يبكي من الرغبة وعدم الجرأة ، ثم لا يلبث ان يستجمع عزيمته ويعمد الى كتابة خطابات يمزقها بعد ان ينتهي منها ، ويرجى الأمر الى اوقات اخرى ، ثم يعود فيرجئه من جديد !.. وكثيراً ما كان يهم بمواجهة الأمر في عزم ، فلا تكاد تحضر « ايمما » حتى يتبدد هذا العزم !.. وكان اذا دعاه « شارل » الى مرافقته في عربته لقيادة مريض في قرية مجاورة لبي الدعوة لفوره ، فيحبي السيدة وينصرف .. ولم لا ، أليس زوجها جزءاً منها ؟

اما « ايمما » ، فلم تسائل نفسها قط عما اذا كانت تحبه ، فهي تعتقد ان الحب يفد فجأة مصحوباً برعد وبرق ، كما لو كان عاصفة تنقض من السماء على الأرض ، فتقلب كيائها ، وتنتزع الارادات انتزاعها لأوراق الشجر ، وتجرّف القلب !.. ولم تفتن الى ان المطر يحيل الشرفات بحيرات اذا كانت الميازيب مغلقة .. وهكذا ظلت مطمئنة ، حتى اكتشفت فجأة صدعاً في الجدار .. جدار قلبها !!

الفصل الخامس

كان ذلك في اصيل يوم احد من شهر فبراير ، والجليد يتساقط .. وهم جميعاً - السيد بوفاري وزوجته ، وهوميه ، والسيد ليون - على بعد نصف فرسخ من (ايونفيل) ، وقد خرجوا في رحلة لمشاهدة مصنع لغزل الكتان كان العمل جارياً في اقامته في الوادي .. وكان الصيدي قد اصطحب معه « نابوليون » و « امالي » للرياضة ، كما رافقهم « جويستان » حاملاً المظلات على كتفه .

بيد انهم لم يجدوا فيما ذهبوا لرؤيته شيئاً يثير الفضول .. مساحة ارض واسعة ، خالية ، تناثرت في ارجائها بين اكداس الرمل والحصى الملقاة في غير انتظام ، بضع عجلات ذات تروس يعلوها الصدأ . ووسط هذه الارض قام مبنى مستطيل ، يتخلل جدرانه عدد من النوافذ الصغيرة .. ولم يكن البناء قد اكتمل ، فكانت السماء ترى خلال هيكل السقف الذي علقت بأحدى كتله الخشبية حزمة من سنابل القمح والقش راحت ترفرف في الهواء بألوانها الثلاثة .. وانطلق « هوميه » يشرح للجماعة ما سوف يكون لهذه المؤسسة من اهمية ، وما ستكون عليه ارضها الخشبية من متانة ، وجدرانها من سمك .. وأبدى اسفه اذ لم يملك عصا للقياس كذلك التي كان السيد « بينيه » يقتنيها لأغراضه الخاصة !

وكان يتأبط ذراع « إيما » التي راحت تميل معتمدة على كتفه بعض الشيء ، لتتطلع الى الشمس التي كان قرصها يرسل من بعد - خلال الضباب - ضوءاً اخذ يسطع في شحوب .. وحانت منها التفاتة ، فرأت « شارل » قد كبس قلنسوته حتى حاجبيه ، وراحت شفتاه الغليظتان ترتجفان ، مما اضفى على وجهه مزيداً من الغباء !.. حتى ظهره .. ظهره الساكن .. كان يثير الاشمئزاز ، وكأنما انتشرت على « رديجوتة » مظاهر تفاهة شخصيته !!

وفما كانت تتأمله ، مستشعرة في اشمئزازها لونهاً من المتعة الشاذة ، اقترب « ليون » خطوة ، وقد لاح ان البرد الذي اصابه بالشحوب قد اسبغ على وجهه استرخاء زاده بهاء .. وكانت ياقة القميص واسعة بعض الشيء ، تكشف - بين الرقبة ورباطها - عن بشرته .. وبرز طرف اذنه من خلال خصلة من الشعر .. وخيل لا إيما ان عينيه الواسعتين الزرقاوين - اللتين تتطلعان الى السحب - اكثر صفاء وجالاً من البحيرات الجبلية التي ينعكس لون السماء على مياهها !

وهتف الصيدلي فجأة : « يا للشقي ! » .. ثم عدا نحو ابنه الذي قفز الى كومة من الجير ليطلعي حذائه بلون أبيض .. وراح « نابوليون » يصرخ اذ انهال عليه توبيخ ابيه ، بينما اسرع « جويستان » ينظف له حذائه بحزمة من القش . بيد انه احتاج الى سكين ، فقدم اليه « شارل » واحدة .. واذا ذلك حدث « إيما » نفسها قائلة : « آه !.. انه يحمل سكيناً في جيبه كالفلاحين ! »

وتساقط الصقيع ، فعادوا الى « ايونفيل » .. ولم تذهب مدام « بوفاري » لزيارة جيرانها في ذلك المساء .. واذا غادرها « شارل » وخلت الى نفسها ، عادت لليها المفارقة بوضوح الاحساس المباشر الذي يكاد يكون واقعاً ، وبالعمق الذي تحلعه الذاكرة على الاشياء !.. وتمثل لعينيها - وهي تتأمل من سريرها النار وهي تستعر صافية في المدفأة - المنظر الذي رآته هناك ،

وكانه لا يزال امامها : « ليون » وقد وقف يثني عصاه باحدى يديه ، ويمسك « اتالي » باليد الاخرى ، وهي تستحلب في هدوء قطعة من الثلج .. وبدا لها فائتاً !.. ولما لم تستطع ان تنتزع نفسها عنه ، اخذت تستعيد مواقف اخرى له في ايام غير ذلك اليوم ، وكلمات صدرت عنه ، وجرس صوته ، وكل كيانه .. ومضت تردد وهي تمط شفيتها كأنها تقبل احداً : « اجل .. فائن .. فائن !.. الا تراه قد أحب ؟ .. ومن عساه احب ؟ .. انا ؟ ! »

وأخذت الادلة تتبع امامها ، فقفز قلبها .. وألقى وهج النار على السقف ضوءاً راح يتراقص في مرح ، وانقلبت على ظهرها باسطة ذراعها .. واذا ذلك بدا الرثاء الأبدي : « اواه .. ليت السماء دفعته الى حبي .. ولم لا ؟ .. ما الذي يحول دون ذلك ؟ ! »

ولاحت - حين عاد « شلوك » في منتصف الليل - وكأنها استيقظت لتوها .. وشكت من صداع اذ اخذ يخلع ثيابه في جلبة ، ثم سألته عرضاً عما حدث في السهرة فقال : « لقد غادرنا السيد ليون مبكراً وآوى الى غرفته ! »

ولم تمالك ان ابتسمت ، ونامت ونفسها مفعمة بلون من الغبطة جديد عليها !

وعند غروب شمس اليوم التالي ، زارها السيد « لوريه » تاجر الاقشة . وكان بائعاً ماهراً ، ولد في (جسكونيا) ولكنه نشأ في (نورمانديا) كأحد ابنائها ، فجمع بين لباقة اهل الجنوب وبين دهاء اهل (كو) . وكان وجهه السمين ، المتهدل ، الخليق ، يبدو وكأنه طلي بنقيع باهت من « العرقسوس » ، وقد زاد شعره الأبيض نظرات عينيه السوداوين الصغيرتين حدة ودهاء !.. ولم يكن ثمة من يدري ماضيه ، فهناك من

يقول انه كان بائعاً متجولاً ، بينما يقول آخرون انه كان صرافاً في (روتو) .. على ان المحقق انه كان قديراً على ان يجري في ذهنه عمليات حسابية معقدة يدهش لها « بينيه » نفسه . وكان يغالي في التأدب نفاقاً ، فيقف محدودب الظهر كمن ينحني للتحية او الدعوة !

وبعد ان ترك لدى الباب قبعته المحلاة بالديباج ، ووضع على المائدة صندوقاً اخضر من الورق المقوى ، شرع يشكو للسيدة - في ادب جم - من انه لم يحظ بعد بثقتها ، قائلاً ان من الصحيح ان حانوته الفقير لم يكن اهلاً لأن يجتذب « سيدة انيقة » - وضغط على هاتين الكلمتين - مثلها ، ومع ذلك فليس لها سوى ان تأمر وهو قين بأن يوافقها بأي شيء تبغيه من الخردوات او الثياب الداخلية او القبعات او الكماليات ، لأنه يتردد على المدينة بانتظام اربع مرات في الشهر ، ويتعامل مع خير متاجرها .. وتستطيع ان تسأل عنه في « التروا فيرير » - (الاخوة الثلاثة) - و « البارب دور » - (اللحية الذهبية) - و « الجران سوفاج » - (المتوحش الكبير) - فان اصحاب هذه المتاجر جميعاً يعرفونه معرفتهم لما في جيوبهم ! ومن ثم فهو قد جاء اليوم يعرض على السيدة - اذ مر بدارها - بضع سلع قدر له ان يحصل عليها بمحض المصادفة النادرة . ثم اخرج من الصندوق ست ياقات مطرزة ، فحصتها مدام بوفاري ثم قالت : « لست في حاجة الى شيء ! » .. واذا ذاك عرض في رفق ثلاثة من شيلان الجزائر ، وعدة مجموعات من الابر الانجليزية ، وزوجاً من النعال القش ، واخيراً ، اربع كؤوس للبيض صنعت من لحاء جوز الهند وقد زانها نزلاء السجون بنقوش محفورة ، مفرغة . ثم اعتمد على المائدة بيديه واشرب بعنقه ، وراح يرقب « ايما » - التي كانت تجول بين سلعه مترددة - وقد انحنى الى الامام وفغرفاه .. ومن وقت لآخر ، كان يمس باظفره الشيلان الحريرية المبسوطة على سمعتها - وكأنه ينفذ عنها غباراً - فكانت تهتز في حفيف ضئيل ، وتبرق الخيوط المذهبة التي

تخلخل نسيجها كنجوم صغيرة تومض في ضوء الغسق الضارب الى الخضرة ..
وسألته اخيراً : « ما ثمنها ؟ » .. فأجاب : « لا شيء في الواقع ..
ثمن ضئيل لا يذكر .. ولا داعي للعجلة ، بل ادفعي حين يحلو لك ..
فلسنا يهوداً ! »

وفكرت لبضع لحظات ، ثم انتهت الى رفض ما عرض المسيو « لوربه »
من جديد ، فاجاب غير آبه لرفضها : « حسناً .. سيفهم كل منا الآخر
شيئاً فشيئاً .. لقد اعتدت دائماً ان اوفق الى ارضاء السيدات ، وان لم
افلح في ارضاء زوجتي ! »

وابتسمت « ايما » ، بينما استطرد قائلاً في طيبة قلب ، بعد النكتة :
« انما احببت ان انبئك بان النقود ليست بالشيء الذي يقلقني ، بل اني
على استعداد لأن اقدم لك منها ما قد تكونين بحاجة اليه ! »
وبدرت منها حركة تم عن دهشة ، فبادر قائلاً بصوت خفيض :
« آه ، لن اضطر الى ان اذهب بعيداً للحصول على ما تريدن ،
فاركني اليّ ! »

وتحول يسأل عن الأب « تيليه » — صاحب « المقهى الفرنسي » —
الذي كان السيد « بوفاري » يعالجه : « ما بال الأب تيليه ؟ .. انه
ليسعل حتى يهز بيته باسره ، واخشى ان لا يمضي طويل وقت حتى
يكون اكثر حاجة الى كفن منه الى صدار من « الفانيليا » ! .. لقد كان
في شبابه مسرفاً في العريضة ! .. هؤلاء الناس يا سيدتي لا يعرفون الاعتدال ،
لقد احرق نفسه بكحول الخمر .. على انه من المحزن — مهما يكن الأمر —
ان يرى المرء احد معارفه يفنى ! »

ومضى يتحدث عن مرضى الطبيب ، وهو يربط صندوقه ، ثم اردف
وهو يتأمل الارض عابساً : « ان الجو ولا ريب هو سبب هذه الامراض .
فانا الآخر اشعر بتوعك ، وما اراني الا مضطراً لأن استشير الطبيب
يوماً ما بشأن ألم بظهري . حسناً يا مدام « بوفاري » .. استودعك الله ..

اني خادمك الخاضع في خدمتك ! .. وأغلق الباب في رفق .
وطلبت « ايما » ان يحمل اليها العشاء على صفحة لتتناوله الى جوار
المدفأة في مخدمها .. وقضت وقتاً طويلاً في الأكل ، اذ كانت راضية
عن كل شيء .. وقالت لنفسها وهي تفكر في الشيلان : « ما كان
احكم تصرفي ! »

وسمعت خطى على السلم ، فادركت ان القادم « ليون » ، ونهضت
فتناولت من الصوان اول صف من المنافض التي لم تثن اطرافها بعد ..
فلما وصل ، بدت جد منهمكة في العمل . ودار الحديث بينها متراحياً ،
اذ كانت مدام « بوفاري » تنصرف عنه ، بينما بدا الشاب نفسه مرتبكاً ..
وأخذ يقلب علبة « الكستبان » العاجية بين اصابعه ، وهو جالس على
مقعد منخفض الى جوار المدفأة ، وهي ماضية في التطريز ، تطوي - من
آن لآخر - طرف القماش بظفرها ، دون ان تتكلم . ومن ثم لزم هو
الآخر الصمت ، وقد اسره سكوتها ، كما كان من الممكن ان يأسره
حديثها ! .. وقالت تحدث نفسها : « يا للشباب المسكين ! »

على ان « ليون » لم يلبث ان قال انه مضطر لأن يذهب الى (روان)
يوماً في بعض مهام عمله ، وأردف : « لقد انتهى اشتراكك في الموسيقى ،
فهل اجده لك ؟ » .. فاجابت : « لا » .. وسألها « لماذا ؟ » ..
فقالت : « لأن .. »

ثم زمت شفيتها وأخذت تشد الخيط الرمادي في غرزة طويلة .. وكان
عملها هذا يضابق « ليون » ، اذ بدا انه يؤدي الى تخشين اناملها ! ..
وخطرت له عبارة رقيقة ، ولكنه لم يجرؤ على النطق بها .. بل قال :
« اذن فسوف تستغنين عنها ؟ » .. فقالت : « ماذا ؟ » .. ثم اردفت
بسرعة : « الموسيقى ؟ .. آه ! .. اجل ! .. ليس لدي بيتي ارعاه ،
وزوجي أعنى به ، وألف شيء .. وكثير من الواجبات التي يجب ان
أؤديها اولاً ؟ »

ونظرت الى الساعة ، فاذا « شارل » قد تأخر ، واذا ذلك تظاهرت بالقلق .. بل لقد رددت مرتين او ثلاثا : « لكم هو طيب ! » .. وكان الكاتب يحب السيد « بوفاري » ، ولكن حنان زوجته نحوه ادهشه وساءه . ومع ذلك فقد اخذ يمدحه ويقول ان كل امرئ - لا سيما الصيدلي - يثني عليه .. فعادت « ايمما » تردد : « آه .. انه طيب ! » .. وأجاب الكاتب : « حقاً ! » .. وشرع يتحدث عن مدام « هومييه » التي كان اسرافها في اهمال مظهرها يثير ضحكها ، فقاطعته « ايمما » قائلة : « وما قيمة ذلك ؟ .. ان ربة البيت الصالحة لا تحفل بمظهرها » .. ثم اخذت الى الصمت !

وتكررت الحال في الايام التالية .. حديثها ، ومسلكتها ، وكل شيء فيها قد تغير . وأخذت تبدي اهتماماً بشئون منزلها ، وتذهب الى الكنيسة بانتظام ، وتحاسب خادمتها في مزيد من الشدة . واستردت طفلتها « برت » من المرضعة . وكانت « فيليستيه » تحملها - اذا وفد الضيوف - فتخلع مدام « بوفاري » عنها ثيابها لتعرض اطرافها ، وتردد انها تعبد الاطفال وتجد فيهم عزاءها وفرحها وهيامها .. وتقرن مداعباتها للطفلة بانطلاقات شعرية كانت كفيلة بأن تذكر اي فرد - عدا سكان (ايونفيل) - بسايشيت في رواية « نوتردام دي باري »^١

واصبح « شارل » يجذ خفيه - حين يعود الى الدار - وقد وضعها الى جوار المدفأة ليكتسباً دفئاً ! .. ولم يعد صدره يفتقد البطانة ، ولا اقصدته تعوزها الازرار .. وكان يسره ان يرى الطاقيات في الصوان وقد انتظمت في صفوف متساوية الارتفاع . ولم تعد « ايمما » تنذر من المساهمة في الحديقة كما كانت تفعل من قبل . وغدت تنفذ ما يقترح ، وان لم تفهم الرغبات التي كانت تنصاع لها دون تامل . وكان « ليون » حين يرى الزوج الى جوار النار بعد العشاء ، ويداه على بطنه ، وقدماه على

١ كانت سايشيت رابهة تحدث عنها « فيكتور هيجو » في روايته الخالدة : « احذب نوتردام » .

حافة المدفأة ، وخداه متضرجان من التغذية ، وعيناه نديتان لفرط
هناءته ، والطفلة تزحف على البساط ، وهذه المرأة ذات الخصر النحيل
تسعى من خلف مقعده الوثير لتطبع على جبينه قبلة .. كان « ليون »
حين يرى هذا ، يقول لنفسه : « يا له من جنون !.. وكيف
السبيل إليها !؟ »

كانت بأعمالها هذه تلوح له جد فاضلة وموفورة الحصانة ، حتى لقد
فقد كل امل ، ولكنه - بهذا التحول - انزلها مكاناً غير عادي ، اذ
اصبحت في نظره مجردة من مفاتها البدنية التي لم ينل منها شيئاً ، ومن
ثم اخذت تسمو في قلبه ، وتبعد عن تناولها كروح آلهة تخلق عالياً !..
وداخله شعور من تلك المشاعر الطاهرة التي لا تمت الى الحياة الدنيوية ،
والتي يتعدها المرء في نفسه لأنها نادرة ، ويخلف فقدانها من الحزن اكثر
مما يضيفه من اللذات !

وأخذت « ايما » تزداد نحولاً ، وخداهما يزدادان شحوباً ، ووجهها
يستطيل . ألم تصبح بشعرها الاسود ، وعينيها الواسعتين ، وأنفها الاقنى ،
ومشيتها التي تشبه حجل الطير ، والسكون الذي اصبحت تخلد اليه .. او
لم تكن تبدو - بهذا كله - وكأنها تجتاز الحياة ولا تكاد تسمها ، وتحمل
على جبينها ميسم مصير قدسي !؟ .. كانت جد حزينه وهادئة ، وقد
غدت فجأة جد رقيقة ومتحفظة ، حتى ليشعر المرء الى جوارها بأن
فتنة جليدية استولت عليه .. كما يحدث لنا في الكنائس حين يبعث اريج
الزهور في امتزاجه ببرودة الرخام قشعريرة في ابداننا !.. بل ان الآخرين
لم يفلتوا من هذه الفتنة ، حتى لقد قال الصيدلي : « ايما » امرأة عظيمة
المواهب .. ما كان ينبغي ان تعيش في بلدة صغيرة ! »

وكانت ربات البيوت يعجبن باقتصادها ، والمرضى يعجبون بأدبها ،
والفقراء ببرها .. ولكنها كانت تحترق بالشهوات ، والغيظ ، والبغضاء !..
كان هذا الثوب المستقيم الثنايا ، يخفي قلباً حائراً ، لا تنفرج تلكما الشفتان

العفيفتان عن شيء من عذابه .. كانت تهوى « ليون » وتنشد العزلة لتسعد بطيفه في طمأنينة !.. وكانت رؤية شخصه تعكر عليها متعة نجواها !.. كانت تهتز طرباً لوقع خطواته ، ثم يخذم الانفعال في حضوره ، ولا يتبقى لها بعد ذلك سوى دهشة عارمة تنتهي الى اسى طاغ !

* * *

ولم يكن « ليون » يعلم انها كانت - اذا غادرها قانطاً - تنهض بعد انصرافه لترقبه في الطريق .. وانها كانت تشغل بتتبع روحاته وغدواته ، بل انها لفقت قصة محبوكة لتجد عذراً يبرر لها زيارة غرفته .. وبدت لها زوجة الصيدلي سعيدة لأنها تنام تحت السقف الذي يأويه !.. وأخذت افكارها تحوم دائماً حول ذلك البيت ، كحائثم فندق « الأسد الذهبي » التي كانت تأتي لتغمس ارجلها الوردية وأجنحتها البيضاء في مياه ميازيه . على ان « امما » كانت تزداد كبتاً لحبها كلما ازدادت ادراكاً له ، حتى لا يتجلى واضحاً ، وحتى تستطيع ان تضعفه !.. كانت تود ان يحدسه « ليون » من تلقاء نفسه ، وتنصهر ما يمكن ان ييسر ذلك من مصادفات وكوارث . وما كان مانعها من الاتيان بالخطوة الاولى سوى الكسل ، والخوف .. وشعور بالحياء ايضاً !.. وخيل اليها انها قد تمادت في صده حتى فوتت الفرصة وضيعت كل شيء .. واذا ذلك ، كانت تجد في الكبرياء ، وفي البهجة التي تراودها اذ تملك ان تقول لنفسها : « انا امرأة فاضلة » ، وان تتأمل نفسها في المرأة متخذة اوضاع الاذعان والاستكانة .. كانت تجد في كل هذا عزاء بعض العزاء عن التضحية التي اعتقدت انها كانت تقوم بها !

ثم اخذت شهوات الجسد ، وجشع المال ، وأشجان العاطفة ، تختلط جميعاً في نوع واحد من العذاب ، كانت تزداد استكانة اليه - بدلاً من ان تنتزع نفسها منه - مستحثة نفسها على الشعور بالألم ، باحثه في

كل مكان عن فرصة لذلك . فكانت تفعل اذا اميء تقديم صنف من الطعام ، او اذا رأت باباً منفرجاً ، وتندب ما لا تملكه من مجمل ، وما ينقصها من سعادة ، وما يبعد عن تناولها من احلام ، وما كان عليه بينها من ضيق !!

واغظها ان « شارل » لم يبد اي انتباه الى عذابها .. وبدا لها اعتقاده بأنه حقق لها كل سعادة اهانة وقحة ، واطمئثانه الى هذا الاعتقاد جحدواً .. فن اجل من اذن كانت عفتها وفضيلتها؟! .. او لم تكن من اجله هو؟! . هو الذي كان حجر العثرة في سبيل كل سعادة ، والسبب في كل تعاسة .. والذي كان كالمحبس المدبب يحكم اغلاق ذلك الطوق المعقد اللعين الذي يطبق عليها من كافة النواحي! .. لذلك صبت عليه وحده كل تلك الاحقاد العديدة التي تجمعت من ضيقها ، وكان كل مجهود للتخفيف من هذه الاحقاد انما يضاعفها ، اذ كان المجهود الضائع يضيف سبباً جديداً لحبيبة الأمل ، ويزيد الهوة بينها عمقاً! .. وكان تلتفها مع نفسها يزيدها تمرداً على زوجها ، وضعة حياتها المنزلية تدفعها الى احلام ملؤها البذخ ، كما كانت الملاحظات الزوجية تسلمها الى شهوات داعرة! .. ولكم ودت لو ان « شارل » ضربها حتى تجد مبرراً لأن تكرهه وتعمل على الانتقام لنفسها منه! .. وكانت تذهل احياناً للخيلات الفظيعة التي كانت تراود خاطرها . ومع ذلك لم يكن هناك بد من ان تستمر في الابتسام ، وان تسمع الادعاء بأنها سعيدة يردد على مسمعها في كل الاوقات ، وان تتظاهر بالسعادة ، وتدع سواها يعتقدانها سعيدة! على انها كانت تشعر باشمزاز من هذا النفاق . وتملكها اغراء راح يزين لها الفرار الى مكان ما ، مع « ليون » ، لتبدأ حياة جديدة .. ولكن هوة غامضة مفعمة بالظلام ، كانت لا تلبث ان تنشق في اعماقها ، فتذهب تردد لنفسها : « ثم انه - الى جانب هذا - لم يعد يجنبي ، فاذا يصيبني؟ .. اي عون يرجى .. اي عزاء .. اية تسرية ؟ » ..

وتخرج من هذا كله محطة ، لاهثة ، عاجزة ، فتنحب في صوت خفيض ، ثم تنساب دموعها مدرارة !
وكانت الخادم تسألها اذا اقبلت عليها خلال هذه الازمات : « لم لا تخبرين السيد بهذا ؟ » .. فتجيبها « اياها » : « انها الاعصاب !.. لا تخبريه ، حتى لا تتولاه الموموم »
وتقول « فيليسيته » : « آه ، حسن !.. انك مثل « لاجيرين » ابنه الأب « جيران » صياد السمك في (بوليه) - التي كنت اعرفها في (ديب) قبل ان آتي اليكما .. كانت جد حزينة ، مفرطة الحزن ، حتى ليخالها المرء - حين يراها على عتبة دارها - كفنأ مبسوطاً امام الباب !.. وكان مرضها على ما يبدو نوعاً من الضباب ينتشر في رأسها . ولم يستطع الاطباء ، ولا القس ، ان يفعلوا شيئاً .. وكازت اذا اشتدت بها نوبات المرض تذهب وحيدة الى شاطئ البحر ، فكان ضابط الجمرک يراها كثيراً - اثناء طوافه - منكفئة على الحصى تبكي . ثم قيل انها شفيت بعد الزواج !
وتعقب « اياها » قائلة : « اما انا ، فقد بدأ مرضي بعد الزواج ! !

الفصل السادس

بينما كانت « ايما » جالسة الى جوار النافذة المفتوحة ، في احدى
الأمسيات ، رأت « ليستيبودوا » - الشماس - يشذب اغصان حديقة
القس . ولم تلبث ان سمعت الناقوس يدق معلناً صلاة المساء ..

وكان ذلك في اوائل ابريل ، حين تفتتح البراعم ، وتهب ربح
دافئة على احواض الزهور التي تم حرثها منذ عهد قريب .. والحدائق
تبدو كالنساء تزين لأعياد الصيف . ومن بين اعمدة العرائش ، وحولها
من كل النواحي ، كان النهر يرى في الحقول ، هائماً بين العشب في
انحناءات مرتجلة .. وانجرة المساء تتصاعد بين اشجار الحور المجردة من
اوراقها ، فتضفي على اطارها لوناً بنفسجياً ، أشد شحوباً وشفافية من
شاش رفيع يعلق بين اغصانها .. وكانت الماشية تبدو عن بعد وهي
تتحرك دون ان يسمع لها خطو ولا خوار .. والناقوس ماض في رنينه،
ناشراً في الهواء شجاء وحزنه الوديع !

وعلى رنين دقانه المتواترة ، هام فكر السيدة الشابة في ذكرياتها
القديمة ، ايام الشباب والدراسة في الدير . فتذكرت الشمعدانات الضخمة
التي كانت تبدو من وراء الأواني المليئة بالازهار فوق المذبح ، والهيكل
المقدس ذا الأعمدة الصغيرة .. وتمنت لو انها ظلت كما كانت اذ ذاك ،

تائهة وسط صف الأوشحة البيضاء الذي كانت تتخلله - هنا وهناك - بقع سوداء متناثرة تمثل محارم الراهبات المنحنيات فوق المراكم .. ثم قداسات ايام الأحد ، حين كانت ترفع رأسها اثناء الصلاة فتلح وجوه العذراء العذب ، وسط غللات الدخان المائلة الى الزرقة ، التي كانت تتصاعد من المياخر !.. اذ ذاك جاشت عواطفها ، فأحست بأنها ضعيفة ، مهجورة ، كريحة في مهب العاصفة .. وسعت - دون وعي منها - الى الكنيسة ، تواقفة الى أية فرائض تتاح لها ، كي تذيب روحها فيها .. فيتلاشى الوجود !

والتقت في الميدان المؤدي الى الكنيسة بليستبيودوا عائداً .. فقد كان يؤثر ان يوقف عمله ثم يستأنفه ، بدلاً من ان يتحيف ساعات العمل اليومية .. حتى لقد كان يبدق الناقوس لصلاة المساء كما يلائمه .. فضلاً عن ان دقه مبكراً عن مواعده كان ينبه الصبية الى موعد درس الدين !

وكان بعض الصبية قد وصلوا فعلاً ، وراحوا يلعبون « البلي » على بلاط المقابر ، ويهزون أرجلهم فيحصدون بأحذيتهم زهور « بنات النار » التي نمت بين السور والمقابر المتاخمة له .. هذا هو المكان الوحيد الذي تشيع فيه الخصرة . اما ما عداه ، فلم يكن سوى احجار يكسوها دوماً غبار ناعم ، رغم مكنسة الشماس ! .. وكان الصبية يعدون في أرجاء المكان بأحذيتهم ذات الأعناق الطويلة ، وكأنه ساحة أعدت لهم ، واصواتهم تملو خلال رنين الناقوس الذي اخذ يخفت رويداً تبعاً لاهتزازات الحبل الطويل الذي كان يتدلى من البرج ، فيتجرر طرفه على الارض .. وأخذت بعض الطيور تحوم ، مرسله صرخات رفيعة ، وتشق الهواء بحواف اجنحتها ، ثم ترتد في رشاقة الى اعشاشها الصفراء ، تحت قرميد حافة البناء البارزة .. وفي اقصى الكنيسة كان ثمة مصباح يتقد ، او بالأحرى فتيلة في زجاجة معلقة بلوح ضوءها من يعيد كهالة بيضاء تهتز فوق الزيت .. بينما امتد شعاع طويل من الشمس عبر صحن الكنيسة

كله ، فزاد من ظهور ظلام جانبيها واركانها ..
وسألت مدام « بوفاري » صيماً كان يلهو بهز مزلاج الباب في
عروته الواسعة : « اين القس ؟ » .. فأجاب الصبي : « ها هو ذا
قادم » .

وبالفعل ، انبعث صرير من باب مسكن القس .. وما لبث الأب
« بورنيزيان » أن ظهر ، فهرع الأطفال الى الكنيسة في هرج .. وتتم
القس : « يا لهؤلاء الأوغاد ! .. انهم دائماً على هذه الحال ! » ..
ثم التقط نسخة مهلهلة من كتاب الصلوات تعثرت فيها قدمه ، وقال :
« انهم لا يحترمون شيئاً ! »

على انه لم يكذ يلمح مدام « بوفاري » حتى هتف : « معذرة ! ..
لم أتيناك ! » .. ودس كتاب الصلوات في جيبه ، ووقف وهو يعث
بمفتاح الهيكل الثقيل يحاول ان يوازنه بين اصبعيه .. وفي ضياء غروب
الشمس المنصب على وجهه ، بدا مسوحه الصوفي حائل اللون ، لامعاً
عند المرفقين ، بالياً عند الذيل .. وكانت بقع اللدسم والتبغ تتناثر على
صدره العريض موازية لصف الأزرار الصغيرة ، ثم تتكاثر عند فتحة
العنق التي ارتكزت عليها ثنايا من جلد ذقنه الأحمر ، المتهدل ، الذي
تناثرت فيه بقع صفراء توارت تحت شعر لحية خشنة وخطها المشيب ..
وكان قد فرغ لتوه من تناول العشاء ، فراح يتنفس بصوت مسموع ..
وعاد يقول : « كيف حالك ؟ » .

فأجابت « ايما » : « ليست طيبة .. انني مريضة ! » .. ورد
القس قائلاً : « وانا كذلك .. ان ايام الحر الأولى هذه تضعف المرء
بدرجة عجيبة .. أليست كذلك ! .. لكننا على كل حال خلقنا لتعذب ،
كما يقول بولس الرسول . ولكن ، ما رأي السيد بوفاري في مرضاك ؟ »
فبدرت منها حركة ازدراء ، وقالت : « هو ؟ ! » .. فقال الرجل
الطيب وقد اخذته الدهشة : « ماذا ؟ .. أو لم يصف لك دواء ؟ »

فقلت « ايما » : « آه .. ليس الذي احتاج اليه بعلاج دينوي !
ولكن القس كان ينظر من آن الى آخر نحو الكنيسة ، حيث رجع
الأطفال واخذوا يتدافعون بالناكب ، ويتهاوون كرقع من الورق ..
ومضت « ايما » تقول : « اريد ان اعترف ... »

وهنا صاح القس في صوت غاضب : « حذار يا ريبوديه .. لسوف
أهب أذنك ايها الشيطان ! » .. ثم قال اذ تحول نحو « ايما » :
« انه ابن بوديه النجار .. والداه في يسر ، ولذلك يتركه يفعل ما
يبداه .. على ان بوسعه ان يتعلم بسرعة لو انه اراد ، فهو شديد
الذكاء .. وكيف حال السيد بوفاري ؟ »

ولاح انها لم تكن تسمعه ، فاستطرد قائلاً : « لا ريب انه جم
المشاغل دائماً .. فهو وانا اكثر الناس عملاً في الأبرشية .. هو طيب
الأجسام .. ثم أردف وهو يطلق ضحكة أجشة : « وانا طيب
الأرواح ! »
وحدثته « ايما » بعينين ضارعتين وهي تقول : « اجل انك تخفف
الأحزان ! »

— آه يا مدام بوفاري.. لا تحديثني عن ذلك ، فقد اضطرت في هذا
الصباح الى الذهاب الى (باديوفيل) من اجل بقرة كانت مريضة ، فظنوا
انها كانت تحت تأثير الشيطان .. كل ابقارهم هكذا ، وان لم أدر لهذا
مبرراً ! ولكن ، معذرة .. ثم التفت نحو الصبية وصاح : « لونجار
وبوديه .. هلا كففتما عن هذا ؟ » .. وقفز مسرعاً الى داخل الكنيسة.

وكان الصبية قد تجمعوا حول القمطر الكبير ، وتسلقوا مقعد المنشد،
وفتحوا كتاب القداس ، بينما اخذ بعضهم يتسلل خلسة حتى كاد يبلغ
جوف « مقصورة الاعتراف » .. ولكن القس انهال عليهم فجأة
بوابل من الصفعات ، ممسكاً بتلابيب ستراتهم ، وأخذ يرفعهم عن الارض

ثم يهبط بهم على ركبهم فوق بلاط ساحة المذبح بشدة ، كما لو كان يريد ان يفرسهم فيها !

وقال حين عاد الى « ايمما » وهو ينشر مندبله القطني ، ويمسك بأحد اطرافه بين اسنانه : « اجل .. ما أجدر المزارعين بالثناء ! » ..
قالت : وغيرهم ايضاً !

— بالتأكيد .. هناك عمال المدن مثلاً .

— لست أقصدهم ...

— عفواً ! .. لقد عرفت بينهم امهات بائسات يعلنن أسرات ..
ونساء فاضلات — بل اؤكد لك انهن قديسات فعلاً — لا يجدن الخبز !
فقالت « ايمما » وقد اخذ جانباً فمها يختلجان وهي تتكلم : « ولكن اولئك .. اولئك اللاتي يجدن الخبز يا سيدي القس ، لا يجدن ... »

قال : « النار في الشتاء ؟ ! »

— أواه .. ما قيمة هذا ؟

— ماذا ؟ .. ما قيمته ؟ .. يخيل الي انه اذا ما وجد المرء الدفء والغذاء .. اذ .. على كل حال ..

فتنهدت قائلة : « يا إلهي ! يا إلهي ! »

— انك تعانين من عسر هضم ولا ريب .. يجب ان تعودى الى دارك يا مدام « بوفاري » فتشربي قليلاً من الشاي ، فانه يقويك ..
او تناولي كوباً من الماء البارد المزوج بمحلول السكر المركز (السكر المعقود) .

وتساءلت « ايمما » وقد بدت كمن يفيق من حلم : « لماذا ؟ ..
فقال : « ذلك لأنك كنت تضعين يدك على جبينك فخيّل إلي انك تشعرين بدوار » .. ثم استدرك قائلاً : « ولكنك كنت تسأليني عن شيء .. فما هو ؟ .. اني لا أذكره »

فرددت « ايمما » : « انا ؟ .. لا شيء ! لا شيء ! » . ووقع

بصرها - اذ أجاته ببطء فيما حولها - على مسوح القس .. ثم عاد كل منها يحدق في الآخر صامتين . وما لبث ان قال في النهاية ، « والآن ، معذرة يا مدام بوفاري ، فان الواجب قبل كل شيء ، كما تعلمين ، ولا بد من ان اتولى علاج تلاميذي هؤلاء الذين لا يصلحون لشيء ، فان حفلة « التناول » الاولى قادمة عما قريب ، وأخشى ان تدهمنا ولما نستكمل استعدادنا .. ولذلك استبقيتهم ساعة بالاضافة الى الفترة المحددة للدرس في يوم الاربعاء من كل اسبوع ، منذ عيد الصعود ، في مواظبة قاسية .. يا للمساكين ! .. ان المرء لا يملك ان يرشدهم بسرعة كبيرة الى طريق الرب ، كما أوصانا هو بذاته على لسان ابنه القدوس .. لك تمنياتي يا سيدتي بالصحة الجيدة ، ولزوجك احتراماتي ! »

ودلف الى الكنيسة وهو يثني ركبته احتراماً عند الباب .. ورأته « ايما » يغيب بين صفي المقاعد ، وهو يسير بخطى ثقيلة ، ورأسه مائل على كتفه قليلاً ، ويدها مبسوطتان ، وقد اخرجها من المسوح .. وما لبثت ان دارت على كعبها بكل جسمها - قطعة واحدة - كتمثال على قاعدة تدور ، ويمت شطر بيتها . غير ان صوت القس المرتفع ، واصوات الاطفال الصافية ، ظلت تصل الى اذنيها وتلاحقها .. « هل انت مسيحي ؟ » .. « نعم ، انا مسيحي » .. « ومن هو المسيحي ؟ » .. « هو ذلك الذي عمد .. عمد .. عمد ! »

وصعدت درجات السلم متشبهة بالحاجز (الدرايزين) ، حتى اذا بلغت حجرتها القت بنفسها في مقعد مريح .. وكان الضوء الشاحب المناسب خلال زجاج النافذة يهبط في تموجات خفيفة .. ولاحت قطع الأثاث في اماكنها اكثر جموداً مما هي عادة ، واشد توارياً في الظلال وكأنها تفوص في بحر من الظلمات .. والمدفأة مطفأة ، والساعة سادرة في دقائقها . وساور « ايما » عجب غامض لهذا الهدوء الذي يسود كل الأشياء ، بينما يفعم جوفها باضطراب صاخب ! .. وفطنت الى ان « برت » الصغيرة

كانت هناك - بين النافذة ومنضدة الحياكة - تتأرجح على حذاءيها المنسوجين باليد (تريكو) ، وتحاول ان تسعى الى امها لتمسك بأطراف أشرطة مرولتها .. فقالت وهي تنحيتها بيدها : « دعيني وشأني ! »

على ان الصغيرة لم تلبث ان اقتربت من ركبتي امها ، فاستندت اليها بذراعيها ، وتطلعت بعينيها الزرقاوين الواسعتين ، وقد انساب من بين شفثيها خيط صغير من اللعاب اخذ يتساقط على مرولتها الحريرية .. فكررت الشابة في ضيق : « دعيني وحدي ! » .. وأفرغ وجهها الطفلة ، فأخذت تصرخ .. ولكزتها الأم بمرفقها قائلة : « هلا تركني وحيدة ؟ » .. وسقطت « برت » عند قاعدة الصوان ، فشق مقبض الدرج النحاسي خدها ، الذي شرع ينزف دماً . ووثبت مدام « بوفاري » لترفعها ، وقطعت جبل الجرس ، فنادت الخادم بأعلى صوتها .. وعندما همت بأن تلعن نفسها ، ظهر « شارل » ، اذ كانت ساعة العشاء قد حانت ، فعاد الى البيت ..

وقالت « ايمما » في صوت هادئ : « انظر يا عزيزي ! لقد وقعت الصغيرة وهي تلعب ، فجرحت نفسها » .. فطمأنها « شارل » الى ان الامر ليس خطيراً ، وذهب ليحضر بعض الضمادات اللاصقة . (البلاستر) .

ولم تهبط مدام « بوفاري » الى قاعة الطعام ، اذ رغبت في ان تخلو للعناية بالطفلة . واذا اخذت ترقبها وقد نامت ، زايلها رويداً ما أحست به من قلق ، وبدا لها انها كانت غبية وساذجة اذ داخلها كل ذلك الانزعاج لأمر بسيط كهذا . فالواقع ان « برت » لم تعد تشوق بنهضة البكاء ، بل ان انفاسها اخذت ترفع في رفق الغطاء القطني الذي اسبغته عليها امها .. وعلقت قطرات كبيرة من الدموع بأركان اجفانها نصف المغمضة التي كان المرء يلمح بين اهدابها حدقتين شاحبتين ، غائرتين .. والضمادة اللاصقة يخذها تشد جلودها في خط منحرف . وعبر خاطر بيال

« ايما » ، فقالت لنفسها : « يا عجبا ! .. ما أقيح هذه الطفلة ! »
وعندما عاد « شارل » في الساعة الحادية عشرة من الصيدلية -
حيث كان قد ذهب بعد العشاء ليرد ما تبقى من الضمادة اللاصقة - وجد
زوجته وهي تقف الى جوار المهد ، فقال وهو يقبل جبينها : « قلت
لك انها اصابة تافهة ، فلا تنزعجي يا حبيبتى المسكينة ، والا اسلمت
نفسك للمرض » .. وكان قد مكث طويلاً في بيت الصبدلي ، اذ
جهد « هوميه » في التسمية عنه وتقوية روحه المعنوية ، رغم انه لم
يبد كثيراً من القلق والتأثر .. ثم أخذوا يتحدثون عن الأخطار العديدة
التي يتعرض لها الأطفال ، وعن اهمال الخدم . وكانت مدام « هوميه »
على دراية بشيء من هذا ، اذ كان صدرها لا يزال يحتفظ بآثار وعاء
مليء بالحساء الساخن ، اسقطته طاهية على صدر مرولتها فيما مضى ،
فتجشم ابواها من اجلها متاعب لما تكذب تنهي ! ومن ثم أصبحت
السكاكين - في منزل الصبدلي - لا تشذ قط ، والارض لا تدهن
بالشمع ، وأقيمت قضبان على النوافذ ، وقضبان اخرى مثينة من الحديد
امام المدفأة .. وكذلك اصبح ابناء « هوميه » لا يكادون - رغم
حريرتهم - يتحركون دون رقيب يرعاهم . وكان ابوهم « محشوم »
بأدوية الصدر عند أنفه اصابة بالبرد .. كما كانوا - حتى سن الرابعة -
يقسرون في غير اشفاق على ارتداء طاقيات من الوبر .. وكان هذا
تطرفاً من مدام « هوميه » في الواقع ، مما كان يبعث في نفس زوجها
قلقاً ، اذ كان يخشى آثار مثل هذا الضغط على اجهزة الرأس ، حتى
لقد كان يقول لها احياناً : (اتريدين ان تجعلي منهم فرقة من الهنود
الحمر او من قبائل حوض البحر الكاريبي ؟)
وحاول « شارل » ان يقطع الحديث اكثر من مرة ، فهمس في
اذن الكاتب : « اود ان أتحدث اليك في امر » .. فتقدمه الكاتب
صاعداً السلم وهو يسائل نفسه : (أتراه قد حدس شيئاً ؟) .. واخذ

قلبه يخفق ، وراح يرهق ذهنه بالافتراضات .. واخيراً ، رجاه «شارل» - بعد ان اغلق الباب - ان يسأل بنفسه في (روان) عن ثمن صورة فوتوغرافية بديعة ، اذ كان يود ان يعد لزوجته مفاجأة عاطفية .. لفئة رقيقة تتمثل في صورة له وهو يرتدي الحلة السوداء . ولكنه اراد اولاً ان يعرف كم تتكلف .. وما كان السؤال ليضايق السيد « ليون » في شيء ، اذ كان يذهب الى المدينة في كل اسبوع تقريباً .

ولكن .. لماذا « ليون » بالذات ؟! .. حدس السيد « هوميه » ان وراء المسافة مغامرة من مغامرات الشباب .. او مؤامرة ! .. ولكنه كان مخطئاً ، اذ ان السيد « ليون » لم يكن يسعى الى غرام .. بل انه كان اكثر اكتئاباً منه في أي وقت مضى ، كما لمست ذلك مدام «لوفرانسوا» من كمية الطعام التي اصبح يتركها في طبقه . وقد سألت محصل الضرائب عنه يزيداها علماً وايضاحاً ، ولكن « بينيه » اجابها في جفاء بأنه «لا يعمل في البوليس » !

ومع ذلك ، فقد لاح له زميله في حال جد غريبة ، اذ كثيراً ما كان « ليون » ينطرح في مقعده ، ويمد ذراعيه ، ويشكو من الحياة في اسلوب غامض ! .. وقد قال له المحصل : « انما يرجع ذلك الى انك لا تحصل على نصيب كاف من الراحة والتسلية » ..
- أية تسلية ؟

- لو كنت في مكانك هويت العمل بالمخرطة ..
قال الكاتب : « ولكني لا اعرف كيف أديرها » .. فرد الآخر وهو يحك ذقنه في مزيج من الترفع والرضى : « آه .. هذا صحيح ! »

* * *

كان « ليون » قد برم بالحلب الذي لا غاية له ، ثم بدأ يشعر بذلك الضيق الذي يسببه مضي الحياة على وتيرة واحدة متكررة ، دون

ما هدف يوجهها ، او امل يعززها . واشتد به الملل من « ايونفيل » وأهلها ، حتى اصبحت رؤيته بعض الأشخاص والبيوت ، تثيره الى درجة لم يعد يحتملها ! .. وقد كان الصيدلي رجلاً طيباً ، الا انه اصبح لا يطيقه البتة .. ومع ذلك فان التفكير في نوع جديد من الحياة كان يفزعه بقدر ما كان يستهويه ! .. وتحولت هذه الهواجس بعد قليل الى تفاد صبر ، واذ ذاك اخذت باريس تناديه - على البعد - بضجيج حفلاتها الراقصة الصاخبة ، وضحكات عاملاتها اللعوبات ! .. واذ كان لا بد من ان يتم دراسته القانونية هناك ، فلماذا لا يرحل اليها لتوه ؟ .. وما الذي يمنعه ؟ .. وشرع يعد متاعه ، ودبر اعماله مقدماً ، واث في خياله مسكناً يعيش فيه حياة فنان .. فيتلقى دروسه في العزف على « الجيتار » ، ويقتني « روب دي شامبر » ، وقلنسوة على غرار قلنسوات اهل (الباسك) ، وخفين من المخمل الأزرق ! .. بل انه بدأ يتصور في اعجاب سيفين متقاطعين فوق مدفأة مسكنه وفوقها «جيتار» تعلقها جمجمة !

وكانت العقبة تنحصر في الفوز بموافقة امه .. على انه لم ير ما هو احكم من هذا التدبير .. بل ان رئيسه نفسه نصحه بأن يلتحق بمكتب آخر يستطيع فيه ان يحرز تقدماً سريعاً في مرانه ودراسته . واذ ذاك ، انتهج « ليون » طريقاً وسطاً ، فأخذ يبحث عن مكتب في (روان) يقبله ككاتب ثان ، فلما لم يجد ، كتب الى امه في النهاية خطاباً طويلاً مسهباً شرح فيه اسباب مبادرته للرحيل الى باريس والاقامة فيها .. فوافقت ! .. على انه لم يتعجل .. وظل « هيفير » شهراً بأكمله يحمل معه كل يوم من (ايونفيل) الى (روان) ، ومن (روان) الى (ايونفيل) صناديق ، وحقائب ، وحزماً .. حتى اذا أعد « ليون » ثيابه ، وجد حشو مقاعده المريحة الثلاثة ، واشترى عدداً من ربطات العنق ، وقام - بالاختصار ! - باستعدادات تفوق ما يلزم لرحلة حول

العالم ، أخذ يرجىء سفره من اسبوع الى آخر ، حتى تلقى من امه خطاباً ثانياً تستحته فيه على الرحيل ما دام قد اعتزم ان يتقدم للامتحان قبل موسم العطلات .

وعندما حانت ساعة الوداع ، بكى مدام « هوميه » ، وانتحب « جويستان » ، واخفى « هوميه » تأثره - كرجل قوي الأعصاب ! - ورغب في ان يحمل بنفسه معطف صديقه حتى باب مكتب الموثق الذي كان سيقل « ليون » في عربته الى (روان) . ولم يتبق لليون سوى لحظات يودع فيها السيد « بوفاري » . فلما بلغ قمة السلم ، توقف وقد تنابعت انفاسه لاهثة .. واذ دلف الى المكان ، نهضت مدام « بوفاري » في عجلة ، فقال ليون : « ها انذا مرة اخرى » .. فقالت : « كنت متأكدة من هذا » .. وعضت شفتيها ، واندفع فيض من الدماء خلال بشرتها فاصطبغت - من منابت شعرها حتى طوق ثوبها - بالحمرة . وظلت واقفة ، مستندة بكتفها الى الحشب الذي كان يكسو الجدار .. بينما مضى متسائلاً : « هل الطيب هنا ؟ » .. فأجابت : « انه في الخارج .. في الخارج ! » .. ثم سادها صمت .. واخذ كل منها يرمق الآخر ، وقد رزحت افكارهما تحت ألم واحد ، متعانقة كصدرين ينبضان .. ثم قال « ليون » : « اود ان اقبل برت » .. فهبطت « ايما » بضع درجات ونادت « فيليسيه » .. وألقى نظرة طويالة علي ما حوله من جدران ، وزخارف ، ومدفأة ، وكأنه ينفذ خلال كسل شيء ! .. وعادت الخادم تحمل « برت » وهي تهز طاحونة هواء صغيرة مقلوبة رأساً على عقب ومعلقة في خيط . وطبع « ليون » عدة قبلات على عنقها وغمغم : « في رعاية الله ايتها الطفلة المسكينة ! .. استودعك الله ايتها الصغيرة الحبيبة ! .. وداعاً ! » .. ثم ردها الى امها ، فقالت للخادم : « اخرجي بها » .. وبقي وحيد ، وقد أولتسه مدام « بوفاري » ظهرها ، وألصقت وجهها بزجاج النافذة .. بينما أمسك « ليون » بقلنسوته

يضرب بها فخذة برفق ..

وقالت « ايما » : « السماء ستمطر ! » .. فأجاب : « لدي معطف » .. قالت : « آه » .. ثم استدارت ، وقد خفضت ذقنها ، فبرز جبينها ، وسقط عليه الضوء - كما يسقط على قطعة من مرمر - فانحدر حتى حاجبها ، دون ان يملك المرء ان يتحدث ما كانت « ايما » تراه عند الأفق ، ولا ما كان يجول في سريرتها .. وما لبث « ليون » ان تنهد قائلاً : « والآن .. وداعاً ! » .. فرفعت « ايما » رأسها بحركة سريعة وقالت : « اجل ، وداعاً .. اذهب ! » .. وتقدم كل منهما نحو الآخر ، ومد يده ، ولكنها ترددت .. ثم قالت وهي تسلمه يدها ، وتغضب ضحكة : « فليكن على الطريقة الانجليزية اذن ! » .. وتحسس « ليون » راحتها بين اصابعه ، ولاح له ان روح كيانه كله قد انسابت الى يدها الرطبة .. ثم فتح يده ، وتلاقت أعينهما مرة أخرى .. ثم اختفى ! .. حتى اذا بلغ السوق ، انحرف متوارياً خلف عامود ، وتزود بنظرة اخيرة من البيت الأبيض ذي النوافذ الخضراء .. وخيل اليه انه رأى طيفاً خلف نافذة حجرة « ايما » ، ولكن الستارة انسابت على مشجبها ، وكأن شخصاً أخذ يزحزحها ، فراحت تنسدل رويداً ناشرة ثيابها الطويلة المائلة ، ثم انبسطت كلها امام النافذة، وظلت مسدلة في استقامة ودون ما حراك ، كجدار من الجص !

وانطلق « ليون » يعدو .. ورأى عن بعد عربة رئيسه على الطريق، والى جوارها رجل في مرولة سميكة ، يمسك بالجواد .. وكان « هوميه » والسيد « جويومان » يتحدثان .. ريثما يصل ! .. وقال له الصيدلي والدموع تترقق في عينيه : « قبلي ! .. هاك معطفك يا صديقي العزيز .. خذ حذرک من البرد، واحترس لنفسك .. اعتن بنفسك ! » . وقال موثق العقود : « هيا يا ليون .. اصعد ! » .. وانحنى « هوميه » على « رفر » العربية ، ونطق بهاتين الكلمتين الحزبنتين بصوت يقطعه

النشيخ : « رحلة سارة ! » .. فأجابه السيد « جويومان » : « عم مساء ! » .

وتحركت العربة .. وقفل « هوميه » عائداً .

كانت مدام « بوفاري » قد فتحت النافذة المطلة على الحديقة واخذت ترقب السحب ، فاذا هي تتجمع حول الشمس الغاربة في اتجاه (روان) ، ثم تطوي بسرعة ذيوها السوداء ، فتندفع من ورائها خيوط الشمس الطويلة كأنها سهام من ذهب في درع معلقة ، بينما كانت بقية السماء خالية ، بيضاء كالحزف .. على ان الريح لم تلبث ان هبت فأحنت هامات شجر الحور ، ثم سقط المطر فجأة ، وأخذت قطراته ترتطم بالورق الأخضر في صوت مسموع .. ثم عادت الشمس الى البزوغ ، فانبعث صوت الدجاج ، وأخذت الطيور تنفض اجنحتها وسط الاعشاب الكثيفة المخضلة ، وحملت المياه معها وهي تنحدر على الحصباء زهور اللبخ الوردية ..

وحدثت « ايمما » نفسها قائلة : « آه ! .. ما أبعد المسافة التي يكون ولا بد قد قطعها الآن ! »

وجاء السيد « هوميه » في منتصف الساعة ، أثناء تناول العشاء - كعادته - وقال : « لقد ودعنا صديقنا الشاب ! » .. فقال الطبيب : « علمت بذلك » .. ثم دار في مقعده وقال : « هل من انباء عن الاسرة ؟ » .

- لا شيء يستحق الذكر ، اللهم الا ان زوجتي كانت متأثرة بعد ظهر اليوم .. انت تعرف النساء .. يتأثرن لأنفهن الأمور ، ولا سيما زوجتي .. ونخطيء لو اننا عارضنا ذلك ، اذ ان جهازهن العصبي أرق من جهازنا !

وقال شارل : « مسكين ليون ! .. ترى كيف سيعيش في باريس ؟ .. وهل يألفها ؟ » .. فتنهدت مدام « بوفاري » .. وطقق الصيدلي بلسانه قائلاً : « يألفها ! .. حفلات العشاء في المطاعم ، والمراقص التنكرية والشمبانيا .. أوكد لك ان كل هذا سيحلوا له ! » .. فاعترض « بوفاري » قائلاً : « ما اظنه سينزلت الى الفساد » .. فأسرع السيد « هوميه » قائلاً : « ولا انا .. وان كان سيضطر الى ان يجاري الآخرين خشية ان يظنوه من « الجيزويت » ! .. وما اراك تعرف أية حياة يمارسها اولئك « الكلاب » من شباب الحي اللاتيني مع الممثلات .. ثم ان الطلبة يحطون بنظرة طيبة في باريس ، ويكفي ان يظهروا بعض المواهب حتى يقبلهم القوم في خير المجتمعات .. بل ان من سيدات الحي « سان جيرمان » من يتدخن في هواهم ، فيتحن لهم الفرص لزيجات طيبة جداً !

قال الطبيب : « ولكني أخشى عليه .. هناك .. » ، فقاطعه الصيدلي قائلاً : « اصبت .. هذا هو الجانب الآخر للموضوع . فالمرء هناك مضطر الى ان يبقي يده فوق جيبه .. انك قد تكون في حديقة عامرة مثلاً – فيتقدم اليك شخص حسن الهندام – وربما كان يحلي صدره بوسام حتى ليحسبه المرء من رجال السلك الدبلوماسي – ويستدرجك ، ويتلطف معك ، ويقدم اليك قبضة من سعوط ، او يلتقط قبعتك اذا وقعت ، ثم يزداد وداً فيصحبك الى مقهى ، ويدعوك الى منزله الريفى .. وبين كأسين من النبيذ يقدمك الى كافة انواع الناس . وفي ثلاث ارباع الحالات لا يكون ذلك الا لينشل ساعتك ، او ليورطك في مأزق خبيث ! » .. فقال « شارل » : هذا صحيح ! .. على اني كنت افكر بوجه خاص في الامراض .. حمى التيفوئيد مثلاً ، التي تصيب الطلبة الوافدين من الريف !

وارتعدت « ايما » .. بينما قال الصيدلي : « هذا راجع الى تغيير

نظام الأكل ، وما يترتب عليه من اضطراب في الجهاز كله .. ثم ، هناك ماء باريس ، ألم تسمع عنه ؟ .. وكل تلك الاطعمة التي تقدم في المطاعم .. كل تلك الأغذية الكثيرة التوابل ، التي تنتهي الى اشاعة الحرارة في الدم ، وهي لا تعادل - مهما قال الناس عنها - حساء طيباً ! .. لقد اعتدت - شخصياً - ان افضل الطعام البسيط دائماً ، فهو اكثر فائدة من سواه . لذلك اقت - حين كنت أدرس الصيدلة في (روان) - في نزل خاص « بنسيون » ، وكنت اتناول طعامي مع الاساتذة »

وهكذا استمر بعرض آراءه ، وميولة الشخصية ، حتى اقبل « جوستان » يدعوه .. فصاح : « اما من لحظة راحة ؟ .. دائماً أراني مشدوداً الى الصيدلية والعمل ! .. أو استطيع ان اخرج دقيقة ؟ .. هل اظل أكذب وأكدهج كالحصان المشدود الى المحراث ؟ .. يا لها من عبودية ! .. حتى اذا بلغ الباب ، التفت قائلاً : « بهذه المناسبة ، هل عرفتم النبا ؟ »
- أي نبا ؟

أجاب « هومييه » رافعاً حاجبيه ، متخذاً اكثر مظاهره جدية : من المحتمل جداً ان الاجتماع الزراعي - الذي كان يعقد عادة في مقاطعة السين السفلى - سيعقد هذا العام في (ابونفيل) .. هذه هي الشائعة المنتشرة . وقد اشارت اليها الصحيفة في هذا الصباح . وسيكون هذا امرأ بالغ الأهمية لمنطقتنا . على اننا سنتحدث عن هذا فيما بعد .. شكراً ، اني ارى طريقتي ، فان « جوستان » يحمل المصباح .

الفصل السابع

كان اليوم التالي حزينا بالنسبة لايما ، اذ لاح لها كل شيء ملتفاً في جو اسود يطفو في اضطراب حائر على اسطح الاشياء ومظاهرها .. واخذ الأسي. يغوص في اعماق نفسها في عواء واهن كالذي تبعته رياح الشتاء في القلاع الحربية !.. كان ذلك صدى لمثل ذلك التفكير الحالم الحزين الذي نخلعه على الاشياء التي لا رجعة لها ، او الكلل الذي يعتريك بعد الجهد المبذول ، او الألم الذي يسببه جمود حركة معتادة سادرة ، او التوقف الفجائي لأي اهتزاز طال به الأمد !

وكما حدث عند العودة من (فويسار) - حين كانت الرقصات تدور في رأسها - اعترتها كآبة قائمة ، وقنوط خدر نفسها .. وعاودها طيف « ليون » اطول قائمة ، وأكثر ملاحه ، وفتنة ، وغموضاً .. فهو لم يفارقها ، وان كان قد انفصل عنها .. كان هناك ، وكأن جدران البيت ما زالت تحتفظ بشبحه !.. ولم تكن تملك ان تحول بصرها عن البساط الذي سار عليه ، ولا عن تلك المقاعد الخاوية التي كان يجلس عليها .. ولقد ظل النهر ينساب ، ويدفع في بطن موجاته الصغيرة على طول الضفاف الزلقة .. كم مرة سارا هناك على الحصباء المكسوة بالطحالب ، يرافقه خريبر الأمواج ؟!.. ما كان اشد تألق الشمس اذ ذاك !.. اية اصائل

هائنة شهداها وحدهما في الظل عند نهاية الحديقة !.. كان يقرأ لها بصوت مرتفع ، وهو عاري الرأس ، وقد جلس فوق مقعد من الأغصان الجافة ، وريح المروج الرقيقة تهز صفحات الكتاب وأزهار الحميلة .. اواه !.. لقد ذهب !.. فتنة حياتها ، والأمل الوحيد في السعادة المحتملة !.. لم لم تقتنص تلك السعادة حين وانتهى ؟.. لم لم تنسب بها بكلتا يديها ، وكلتا ركبتيها ، حين همت بأن تفر منها ؟!.. وأخذت تلعن نفسها لأنها لم تحب « ليون » .. لشد ما كانت ظائمة الى شفثيه !.. واستولت عليها الرغبة في ان تفر وراءه وتلحق به ، فتلقي بنفسها بين ذراعيه وتقول له : « ها انذى !.. اني لك ! » .. ولكنها ما لبثت ان تقاعست إزاء صعوبات المغامرة ، ولم تزدد شهواتها - التي ضاعفها الندم - إلا ضراوة !

ومنذ ذلك الحين غدت ذكرى « ليون » محوراً لسأماها .. كانت تشتعل هناك ، في أزيز يفوق أزيز نار خلفها المسافرين فوق الجليد ، في سهول المراعي الروسية !.. وكانت تقفز نحوه ، وتلتصق به ، وتحرك في عناء النار المحتضرة وتبحث في كل ما حولها عن شيء يذكىها !.. وجمعت ابعث الذكريات ، وأقرب المناسبات ، وما خبرته ، وما تخيلته ، وشهواتها العريضة التي لم تحظ بالأشباع ، ومشروعات السعادة التي تكسرت في الرياح كما تنكسر الأغصان الداوية ، وفضيلتها العقيم ، وآمالها المبددة ، والألفة المتزلية .. كل هذا جمعه - دون ان تفعل شيئاً - ثم اتخذته وقوداً لشجونها !

على ان اللهب لم يلبث ان خمد ، اما لأن الوقود قد نفذ ، او لأنه تراكم أكثر مما ينبغي ، وشيئاً فشيئاً ، اخذ الحب يخبث بسبب الفراق ، والندم يخبث بحكم الاعتياد ، ووهج الحريق الذي اشاع في سمائها الشاحبة

لونا قرمزياً يخبو رويداً !.. وفي غفلة ضميرها ، ظنت ان اشمتزازها من زوجها ان هو الا تلهف لحبيها !.. بيد ان العاصفة ظلت هوجاء .. حتى اذا احترقت الشهوة فصارَت رماداً ، دون ان تلتقي عوناً ، ودون ان تشرق شمس ، اطبق الليل على المسكينة من كل جانب ، وضلت في البرد الفظيخ الذي كان يحترقها .. ثم عاودتها ذكرى ايام (توست) البغيضة .. وأصبحت ترى نفسها اكثر تعاسة ، اذ كانت قد خبرت الحزن ، فأيقنت انه لن ينتهي !

وان امرأة تفرض على نفسها مثل هذه التضحيات ، لخليفة بأن تسمح لنفسها ببعض النزوات !.. وبالفعل ، ابتاعت « اما » مقعداً قوطياً للصلاة ، وانفقت خلال شهر واحد اربعة عشر فرنكاً في شراء ليمون لتنظيف اظافرها ، وكتبت الى (روان) في طلب ثوب من الكشمير الازرق ، واختارت شالاً من ابداع شيلان « لوريه » ، واعتادت ان تعقده حول خصرها على الثوب الكشمير ، ثم تغلق النوافذ ، وتستلقي في هذا الزي على اريكة ، وفي يدها كتاب !.. وكثيراً ما اخذت تبدل طريقة تصفيف شعرها ، فأحياناً تصففه على الطريقة الصينية ، او ترسله في خصلات رخوة تجدها في ضفائر ، او تفرقه على جانب الرأس مقصوصاً من اسفل كما يفعل الرجال !

وارادت ان تتعلم الايطالية فابتاعت معاجم وكتاباً في النحو ، وكمية من الورق الأبيض .. وجربت القراءة الجدية في التاريخ والفلسفة .. وكان « شارل » يستيقظ مجفلاً اثناء الليل احياناً ، ظاناً ان احداً يناديه لاسعاف مريض ، فيغمغم : « ها انذا قادم ! » ، ثم يفطن الى ان ما سمع لم يكن سوى صوت عود من ثقاب اشعلته « اما » لتوقد المصباح !.. ولكن قراءاتها لم تكن اسعد حظاً من تطريزها .. كلها لم تحظ بأكثر من الخيوط الأولى ، ثم كانت تلقي بها في الصوان ، وتشرع في تطريز غيرها ، لتلقي بها بدورها .. وهكذا لم تكن تشرع في قراءة كتاب حتى تطرحه

جانباً وتناول سواه !

وكانت تتولاها نوبات من السهل ان تساق خلالها الى ارتكاب اية حياقة .. فقد تحدث زوجها يوماً بأنها تستطيع ان تشرب كأساً كبيرة من « البراندي » . واذ كان « شارل » من الحمق بحيث قبل هذا التحدي ، فقد ازدرت ما كان في الكأس حتى آخر قطرة ! .. وبالرغم من تصرفاتها النزقة - كما كانت ربات البيوت في (ايونفيل) يصفنها - فان « ايمما » لم تكن قط مرحة ، بل كان يحف بجانبها فيها عادة ذلك النقل الجامد الذي ينتاب وجوه العوانس ، والرجال ذوي الطموح الخائب ! .. واشتد بها الشحوب حتى غدت كالثوب الابيض ، وأصبح جلد انفها مشدوداً عند الفتحيتين ، وغدت عينها ترنوان اليك بنظرات مبهمة ، وراحت تكثر من الحديث عن شيخوختها ، بعد ان اكتشفت ثلاث شعرات بيضاء في مفرقها !

وكثيراً ما كانت تصاب بالاغماء ، حتى بصقت دماً ذات يوم . وعندما اخذ « شارل » يروح ويجيء حولها في اهتمام ينم عن قلق ، قالت له : « آه ! .. وما اهمية هذا ؟ » .. فاسرع « شارل » الى مكتبه وانخرط في البكاء ، وقد اتكأ بمرفقيه على مكتبه وهو جالس في مقعده تحت صورة الجهاز العصبي .. ثم كتب لأمه يسألها ان تحضر ، وراحا يعقدان ممأ الأحاديث الطويلة ، ويتبادلان الرأي بشأن « ايمما » .. ما الذي ينبغي ان يتخذه ؟ .. ما الذي ينبغي فعله ما دامت ترفض كل علاج طبي ؟ .. وقالت مدام « بوفاري » الأم : « افتعرف ما الذي يلزم لزوجتك ؟ .. انها تحتاج الى ان تنهك في عمل يدوي يشغلها .. ولو انها كانت مضطرة - ككثيرات غيرها - الى كسب عيشها ، لما راودتها هذه الأوهام التي تواتبها من كثير من الأفكار التي تحشد بها رأسها ، ومن البطالة التي تعيش فيها » .. فقال « شارل » : « ولكنها دائماً مشغولة » .. - آه ، حقاً .. مشغولة بماذا ؟ .. قراءة الروايات ، والكتب الرديئة ،

والمؤلفات الموضوعية ضد الدين ، والتي يسخر مؤلفوها من القسس بأقوال مقتبسة عن « فولتير » ؟.. كل هذا يشتت العقل يا بني المسكين !.. اي انسان بلا دين لا بد ان ينتهي اسوأ نهاية !

ومن ثم استقر الرأي على منع « اياما » من قراءة الروايات .. ولم يكن الأمر هيناً ، ولكن السيدة تعهدت بالأمر ، فرؤي ان تذهب بنفسها الى متعهد الكتب - سند مرورها بروان - فتخبره بأن « اياما » اوقفت اشتراكها .. ترى ، أليس لها الحق في ان يلجأ الى البوليس اذا اصر صاحب المكتبة - رغم ذلك - على المضي في تجارته التي تسمم العقول !؟

وكان الوداع بين الحماة وزوجة ابنها فاتراً .. لم تكونا خلال الأسابيع الثلاثة التي قضتها معاً قد تبادلنا ست كلمات ، فوق الأسئلة والعبارات التي كانتا نتبادلانها على المائدة ، وقبل اللجوء الى الفراش بالليل .. ثم رحلت مدام « بوفاري » الكبيرة في احد ايام الاربعاء ، التي تعقد فيها سوق (ايونفيل) .. وكان الميدان منذ الصباح قد اكتظ يصف من العربات التي امتدت بمحاذاة المنازل من الكنيسة الى الفندق ، وقد ارتكزت على مؤخراتها ، وارتفعت اذرعها في الهواء .. وعلى الجانب الآخر ، كانت ثمة خيام تباع فيها الاقمشة القطنية والأغطية ، وجوارب الصوف مع سروج الخيل ، ولفائف الأشرطة الزرقاء التي تتطاير اطرافها مع الريح .. وكانت قطع الحديد الخردة منتشرة بين البيض المنسق على شكل اهرامات ، وأقراص الجبن التي يبرز منها قش لزوج .. والى جوار آلات درس القمح ، كان الدجاج ينفتق في افصصة منخفضة وهو يمد رقابه خلال القضبان .. والجمهور متجمع في مكان واحد ، لا يبغى عنه انتقالاً ، حتى لقد كان يوشك احياناً ان يهشم واجهة الصيدلية التي كانت لا تخلو ابداً في ايام الاربعاء من الذين كانوا يقبلون طلباً للمشورة الطبية اكثر منهم لشراء ادوية ، نظراً لما كان للسيد « هوميه » من صيت ذائع في القرى المجاورة ، حيث فتن الريفيون بقوة اعتداده بنفسه ، فكانوا

يعتبرونه اعظم الأطباء طرا !

وكانت « اما » تنكئ على حافة النافذة ، على نحو ما كانت تفعل في كثير من الأحيان .. فالنافذة تحل في الريف محل المسرح والترهة .. وفيما هي تتسلى بمشاهدة حشد من الاجلاف ، رأت سيداً في « ردنجات » من المخمل الأخضر ، وفي يديه قفازان اصفران ، وقد غطى حذاءيه بزوج من « جيتز » سميك .. وكان يسعى نحو منزل الطبيب ، يتبعه فلاح يسير مطاطيء الرأس ، بادي الاستغراق في التفكير .. وقال الرجل يسأل « جوستان » - الذي كان يتحدث الى « فيليسيته » عند درجات المدخل - وقد ظنه خادماً في المنزل : « هل استطيع ان اقابل الطبيب ؟ .. قل له ان السيد « رودولف بولانجيه » من (لاهوشيت) هنا .. وما قرن اسمه بـ « لاهوشيت » من قبيل النعرة الاقليمية ، وانما زيادة التعريف بنفسه .. والواقع ان (لاهوشيت) كانت ضيعة على مقربة من (ايونفيل) ، ابتاع السيد « رودولف » قصرها ، ومزرعتين منها يستطيع ان يزرعها بنفسه ، ولكن دون ان يجشم نفسه كثير عناء . وكان يعيش اعزب .. وقيل ان دخله بلغ « خمسة عشر الفاً من الفرنكات في العام ، على الأقل » ! واقبل « شارل » على الغرفة ، فقدم اليه السيد « بولانجيه » رفيقه الذي كان يريد ان يفصد لأنه كان يحس « بتتمسيل يسري في كل جسمه » ! .. وقال الرجل يعارض كل حجة : « لسوف يطهرني هذا .. ومن ثم امر « بوفاري » بضادة ووعاء سأل « جوستان » ان يمسه له ، ثم قال للفلاح الذي شحب لونه : « لا تخف يا بني ! » .. فقال الآخر : « لا .. لا ، يا سيدي .. هيا .. وفي تظاهر بالجرأة ، مد ذراعه الضخمة .. وبوخزة من المبضع ، انبثق الدم ماطخاً المرأة ، فهتف شارل : « قرب الوعاء » .. بينما قال الفلاح : « يا الهي ! .. ان المرء ليحسبها نافورة صغيرة .. ما اشد حمرة دمي ! .. انها دلالة طيبة .. أليست كذلك !؟ »

فقال الطيب : « ان المرء لا يشعر بشيء في البداية - احياناً - ثم يواتيه الاغماء فيما بعد ، لا سيما ذوي البنية القوية كهذا الرجل ! » .. وعند هذه الكلمات ، افلت الفلاح الكيس الذي كان يعبث به بين اصابعه .. وطقطق ظهر المقعد اذ سرت في كتفيه رعدة .. وسقطت قبعته ، فقال « بوفاري » وهو يضغط الوريد باصبعه : « لقد توقعت هذا » .. وأخذ الوعاء يهتز بين يدي « جويستان » ، وارتجفت ركبتاه ، وشحب لونه ، فنادى شارل : « ايما ! .. ايما ! » ، وهبطت السلم في وثبة واحدة ، فصاح : « بعض الخل .. يا الهي ! .. اثنان في وقت واحد » .. وتعذر عليه - لفرط انفعاله - ان يضع الكمادة !

وقال السيد « بولانجيه » في هدوء وهو يمكك بذراع « جويستان » ويجلسه على المائدة وظهره الى الحائط : « ما هذا بشيء ! » .. وراحت مدام « بوفاري » تخلع عنه رباط رقبته .. وانعقد الشريط الذي يضم فتحة قبصه ، فظلت ذقاتك تحرك اصابعها الرقيقة حول عنق الفتى ، ثم سكبت بعض الخل على منديلها « الباتيسة » ، ورطبت صدغيه بلمسات خفيفة وراحت تنفخ فيها برفق .. وما لبث الفلاح ان أفاق ، ولكن اغماء « جويستان » طال ، واختفت حدقاته في بياض عينيه كما تغيب الزهور الزرقاء في اللبن .. فقال شارل : « يجب ان نخفي هذا عنه » ، فتناوات مدام « بوفاري » الوعاء لتضعه تحت المائدة .. واذا تحركت منحنية ، انتشر حولها - على بلاط الغرفة - ثوبها . وكان ثوباً صيفياً اصفر ، ذا اربعة « كرانيش » وخصر طويل وذيل واسع .. وترنحت « ايما » قليلاً وهي منحنية فبسطت ذراعيها ، فالتفت القماش حول صدرها ، مبيئاً قسماته .. ثم ذهبت لتحضر ابريق ماء ، وفيما كانت تذيب بعض قطع السكر فيه ، وصل الصيدلي ، وكانت الخادم قد ذهبت في غمرة الارتباك لإستدعائه ، وما ان رأى عيني تلميذه نחملقان ، حتى تنفس الصعداء ، ثم ذهب اليه فحذق فيه من رأسه الى قدمه وقال : « مغفل ! .. مغفل كبير ! ..

مغفل بالثلث !.. كأني بالحجامة عملية خطيرة ، أليس كذلك ؟!.. افهكذا يتحول الصيديد الذي لا يخشى شيئاً الى سنجاب من النوع الذي يتسلق الى ارتفاعات شاهقة ليسقط بعض البندق !.. اي نعم ، تكلم واطنب مزهواً في مدح نفسك !.. يا لها من استعدادات طيبة لممارسة الصيدلة فيما بعد !.. انك قد تستدعي في ظروف خطيره الى المحاكم لتتير اذهان القضاة ، واذ ذاك يتحتم عليك ان تحتفظ برباطة جأشك وقوة حجتك ، وان تظهر بمظهر الرجل .. والا كنت ابله ! »

ولم يجب «جوستان» ، فاستطرد الصيدلي : «من سألك ان تحضر؟ انك لتثقل دائماً على السيد والسيدة ، فضلاً عن اني لا استغني عنك في ايام الاربعاء ، ففي الحانوت الآن عشرون شخصاً ، وقد تركت كل شيء وحضرت نظراً لاهتامي بأمرك ، فهيا ، انفض .. اسرع !.. عجل !.. انتظرنني هناك ، وانتبه للقوارير .. وما ان انصرف «جوستان» - بعد ان سوى ثيابه - حتى اخذوا يتحدثون بعض الوقت عن نوبات الاغماء ، فزعمت مدام «بوفاري» انها لم تفقد قط وعيها .. فقال السيد «بولانجيه» : «هذا عجيب بالنسبة لسيدة !.. على ان بعض الناس شديد الحساسية ، فقد رأيت - في احدى المبارزات - شاهداً يفقد وعيه بمجرد سماعه صوت حشو المسدسات ! »

وقال الصيدلي : «ان مرأى دماء الغير لا تؤثر في - شخصياً - على الاطلاق ، ولكن مجرد التفكير في ان دمي يسيل كاف لأن يفقدني الوعي .. لو تماديت في التفكير ! » .. وعندئذ سرح السيد «بولانجيه» خادمه «موصياً اياه بأن يهدىء من جأشه بعد ان تخلص من وهمه . ثم اضاف : «انه قد اتاح لي فرصة التعرف بكم» .. ونظر نحو «ايما» اذ قال ذلك ، ثم وضع ثلاثة فرنكات على ركن من المائدة ، وانحنى في غير اكرات ، وانصرف . وسرعان ما كان منطلقاً على الضفة الأخرى للنهر ، في طريقه الى (لاهاسيت) .. ورأته «ايما» يسير في المرعى

تحت اشجار الحور ، وهو يتمهل بين آن وآخر كما لو كان يفكر ..
كان يحدث نفسه بهذه الخواطر : « انها لطيفة جداً .. لطيفة جداً ..
زوجة الطيب هذه ! .. اسنان بديعة ، وعينان سوداوان ، وقدم صغيرة ،
وقوام كقوام الباريسيات .. من اين جاءت بحق الشيطان .. من اين
التقطها هذا الرجل البدين ؟ »

وكان « رودولف بولانجيه » في الرابعة والثلاثين من عمره ، ذا مزاج
عنيف ، وذكاء نافذ ، وقد خالط كثيراً من النساء حتى غدا خبيراً
بهن ، ومن ثم لاحت له هذه المرأة جميلة ، فراح يفكر فيها وفي
زوجها .. ويقول لنفسه : « اعتقد انه مغفل ، وانها قد ستمته ولا
ريب ، فان اظافره قدرة ، ولحيته لم تحلق منذ ثلاثة ايام . وبينما ينطلق
لعيادة مرضاه ، تعكف هي على رفق الجوارب ، فلا تلبث ان تسأم ! ..
ولا بد انها تتوق لسكنى المدينة ، ورقص « البولكا » كل مساء ..
يا للمرأة المسكينة ! .. كأني بها تتعطش للحب كما تتعطش السمكة للماء
فوق مائدة المطبخ ! .. وان ثلاثة من كلمات الغزل لكافية لأن تجعلها
تعبد المرء ، اني واثق من ذلك ! .. ولسوف تكون رقيقة ، فاتنة ..
اجل ، ولكن كيف السبيل الى التخلص منه بعد ذلك ؟ »

غير ان متاعب اللذة التي تراءت له جعلته ينقلب الى التفكير في
عشيقته على سبيل المقارنة .. كانت ممثلة في (روان) ، وقد استخلصها
لنفسه وأخذ يعولها . وما ان اخذ يتأمل صورتها - على صفحة ذاكرته -
حتى احس بجذوة رغبته تخمد .. فقال لنفسه : « آه ! .. ان مدام
بوفاري اجمل ، واكثر نضرة بوجه خاص .. فلقد بدأت فرجينيا تميل
للبدانة بالتأكيد .. وهي امرأة من العسير ارضاء رغباتها .. ثم انها ذات
ولع جنوني ببراغيث البحر (الجمبري) !! »

ولما كانت الحقول خالية من الناس ، لم يكن رودولف يسمع حوله
سوى خشخشة الاعشاب اذ تحتك بجذاهيه مع خطواته المنتظمة .. وصرخة

جرادة تخنفي بين الشوفان بعيداً .. وعاد يتمثل صورة « اِما » في الحجره ،
وفي الثوب الذي رآها فيه .. ثم شرع يخلع عنها ثيابها في خياله ! وصاح
وهو يفتت قطعة مئاسكة من الطين بضربة من عصاه : « آه .. لسوف
انالها ! » .. وشرع لفقوره يدرس الاسلوب « السياسي » للمغامرة ،
فساءل نفسه : « اين نلتقي ؟ .. وبأي الوسائل ؟ .. لسوف تضايقنا دائماً
الطفلة ، والخدام ، والجيران ، والزوج ، وكل هذه الهموم . أف ! ..
ان المرء معرض لأن يضيع كثيراً من الوقت في كل ذلك » .. ثم عاد
يقول : « ان لها في الحق عينين تحترقان قلب المرء كالبريمة .. ويا لشحوب
بشرتها ! .. انني اعبد الشاحبات ! »

وعندما بلغ قمة تلال (ارجى) ، كان ذهنه قد استقر على امر ،
فقال : « لم يبق الا تصيد الفرص . حسناً ، وسأطلب « حجمة » لنفسي
لو استدعى الأمر .. ولن نلبث ان نغدو اصدقاء ، فأدعوهم الى منزلي » ..
ثم اضاف : « مرحى ! .. ان المعرض الزراعي عما قريب ، ولسوف
تروره فأراها هناك .. ولنبدأ في جراءة ، فهذه اضمن الطرق ! »

الفصل الثامن

حان أخيراً موعد المعرض الزراعي الذي ذاع ذكره .. وفي صباح يوم الافتتاح ، وقف جميع اهل (ايونفيل) على ابوابهم يتحدثون عن الاستعدادات .. كانت واجهة مبنى البلدية قد زينت بفروع اللبلاب ، وأقيم سرادق في أحد المروج للمأدبة .. وأمام الكنيسة - في وسط الميدان - نصب مدفع من النوع الذي يحدث فرقة ، لاعلال وصول مدير المقاطعة ، وتحية اسماء المزارعين الفائزين بجوائز . ووفد الحرس الوطني من (بوشي) - اذ لم يكن في (ايونفيل) حرس - لينضم الى فريق رجال الاطفاء الذين كان « بينيه » يرأسهم .. وقد ارتدى في ذلك اليوم ياقة أعلى من ياقته العادية ، وشدت الأزرار سترته حول جسمه الى درجة أحالت جذعه الى كتلة متببسة لا تتحرك ، فبدا كما لو كان بالجزء الحي من جسمه كله قد هبط الى ساقيه اللتين كانتا ترتفعان في خطوات رتيبة على ايقاع واحد .. ولما كانت ثمة منافسة بين محصل الضرائب وضباط الحرس الوطني . فقد اخذ كل منهما يقوم تمانورات مع رجاله - على حدة - ليظهر مواهبه .. فكان المرء يرى الاشرطة الحمراء والشارات السوداء تروح وتغدو بالتناوب ، دون ان يكون لهذا العرض من نهاية ! .. أبداً لم يُر في قرية (ايونفيل) عرض للأبهة والعظمة مثل هذا !

وكان عدد كبير من المواطنين قد غسلوا واجهات دورهم في المساء السابق ، وتدلّت الاعلام الثلاثية الألوان من النوافذ المنفرجة المصاريع .. وازدحمت الحانات جميعاً .. وفي الجو - الذي كان صحواً - بدت الياقات المشاة ، والصلبان المذهبة ، والاشوحة الملونة ، انصع بياضاً من الثلج في ضياء الشمس ، فكانت تخفف بتباينها وتناثرها من اطراد حلقة «الردنجوت» والملابس الشعبية الزرقاء .. وكانت زوجات المزارعين القادمات من المزارع المجاورة ينتزعن - اذا ما ترجلن عن جيادهن - الدبايس الكبيرة التي كانت تثبت ذبول ثيابهن حول اجسامهن ، اذ كن قد رفعنها خشية الوحل .. في حين كان الازواج ، من ناسحتهم ، ينشرون حول قبعاتهم - حياية لها - مناديل امسكوا اطرافها بين اسنانهم .

وأخذت الجماهير تتوافد من مختلف انحاء القرية على الشارع الكبير ، متدفقة من الأزقة والدروب والبيوت . ومن وقت لآخر ، كان المرء يسمع ارتطام الابواب وهي تغلق وراء النسوة اللاتي يخرجن من دورهن- وقد ارتدين قفازاتهن - يسعين الى مشاهدة الاحتفال .. وكان اشد ما حاز الاعجاب ، حاملان طويلان زخرا بالمصاييح ، وقد حُفّا بمنصة أعدت لجلوس ذوي النفوذ . والى جانب ذلك ، اقيمت حول اعمدة دار البلدية اربع قوائم تحمل كل منها علماً صغيراً من قماش يميل لونه الى الخضرة ، نقشت عليه كلمات بحروف ذهبية .. وقد كتب على العلم الأول : « الى التجارة » ، وعلى الثاني : « الى الزراعة » ، وعلى الثالث : « الى الصناعة » ، وعلى الرابع : « الى الفنون الجميلة » .

وكان الحبور الذي اشرفت به الوجوه جميعاً قد انقلب تجمهاً على وجه مدام « لوفرانسوا » ، صاحبة الفندق . اذ راحت تتمم لنفسها ، وهي واقفة على درجات مطبخها : « يا للحماقة ! .. يا للسخف ! .. هذا السرادق من القماش السميك الخشن (المشمع) ! .. او يظنون ان مدير الاقليم سيغتبط بتناول العشاء تحت هذه الخيمة كمهرج السيرك ؟! ..

او يسمون هذا العمل المستهجن خدمة لصالح البلدة ؟ .. اذن ، فقيم
كان استدعائي « المرطون » من (نيوشاتل) ! .. ولن ؟ .. لرعاة
البقر ! .. للحفاة ! .. ومر بها الصيدلي اذ ذاك ، وكان يرتدي
سترة سوداء ، وبنطلوناً من المخمل القطني ، وحذاءين من نسيج الفراء ..
ومن العجيب انه كان يلبس فوق هذا قبعة ذات قبة منخفضة !

وقال « هوميه » لصاحبة الفندق : « ايذني لي ! .. معذرة : فاني
على عجل ! » .. واذا سألته الارملة البدينة الى اين هو ذاهب ، اجاب :
« ان الامر يبدو لك غريباً .. أليس كذلك ؟ .. انا الذي اظن حبيساً
في معلمي اكثر من فأر الرجل في جيبه ! » .. فسألته : « اي جيب ؟ » ..
فتابع حديثه قائلاً : « آه ، لا شيء ! لا شيء ! .. انما اردت ان
انبثك يا مدام لوفرانسوا بأني اعيش في بيتي عادة كالناسك . اما اليوم ،
فن الضروري ، بحكم الظروف .. » ، فقاطعته في ازدراء : « آه ..
انت ذاهب الى هناك ! » ، فأجاب الصيدلي في دهشة : « اجل ، انا
ذاهب .. أو لست عضواً في اللجنة الاستشارية ؟ » ..

وحدقت فيه الأم « لوفرانسوا » بضع لحظات ، ثم قالت في النهاية
وهي تبسم : هذا وضع آخر ! ولكن ، فيم تهلك الزراعة ؟ انفهم
فيها شيئاً ؟ »

— بالتأكيد .. انني افهمها ما دمت صيدلياً .. اي كيميائياً . فان غاية
الكيمياء يا مدام لوفرانسوا هي معرفة التفاعل الجزئي والتأثير المتبادل بين
كافة الاجسام الطبيعية ، ومن ثم فان الزراعة تدخل في نطاقها . والواقع
ان تركيب السماد ، وتخمر السوائل ، وتحليل الغازات ، وتأثير التعفن ..
انني لأسألك ما هذا كله ؟ .. أليس هو الكيمياء في انقى وأبسط
مظاهرها ؟ !

ولم تجب صاحبة الفندق ، فاستطرد « هوميه » قائلاً : « هل
تظنين انه لا بد للمرء من ان يحرث الارض او يربي الدواجن ويسمنها

بنفسه لكي يكون من رجال الزراعة ؟ .. ان الأكثر ضرورة هو ان يعرف تركيب المواد التي تتعلق بالزراعة .. الخواص الجيولوجية ، والعوامل الجوية ، ونوع التربة ، والمعادن ، والمياه ، وكثافة الاجسام المختلفة ، وخاصة الجاذبية الشعرية – التي يتوقف عليها سريان العصارات المغذية للنبات – وما الى هذا .. كذلك يجب ان يكون المرء على إلمام تام بمبادئ الصحة كمي يتولى التوجيه ونقد العيوب في انشاء المباني ، وتغذية الحيوان ، وتغذية الخدم . وفوق ذلك يا مدام « لوفرانسوا » ، يجب ان يكون المرء على دراية بعلم النبات ، وان يستطيع ان يميز بين النباتات كما تعلمين .. فيعرف ايها الصحي المفيد ، وايها الضار ! .. ايها لا ينتج ، وايها ذا القيمة الغذائية .. وهل من المفيد ان تقتلها من هنا ونعيد زرعها هناك ، وان نستكثر بعض الانواع ، ونقضي على البعض الآخر .. وبالإيجاز ، يجب ان يظل المرء متتبعا للعلم عن طريق النشرات والصحف العامة ، وان يكون بقطراً ليتعرف التحسينات .. »

ولم تحول صاحبة الفندق عينها عن « المقهى الفرنسي » ، بينما مضى الصيدلي قائلاً : اني لأدعو الله ان يكون كل المشتغلين بالزراعة عندنا كيميائيين ، او ان يولوا مجالس العلم اهتماماً ، على الأقل .. فأنا مثلاً قد ألفت اخيراً كتاباً لا بأس به .. مذكرة في اكثر من ائتين وسبعين صفحة ، بعنوان : « شراب التفاح (السيدر) ، صنعه وتأثيره .. مع بعض الافكار الجديدة في الموضوع » .. وأرسلتها الى الجمعية الزراعية في (روان) ، فكانت سبباً في « ان حظيت بشرف الانضمام الى عضويتها .. في قسم الزراعة ، وفي الفرع الخاص بزراعة الفواكه . ولو ان مؤلفي هذا أتبع للجمهور ... »

على ان الصيدلي امسك هنا عن الكلام ، اذ بدا ان مدام « لوفرانسوا » كانت في شغل عنه .. ثم قالت اخيراً : « الا انظر اليهم ! .. شيء غير مفهوم ! .. هذه الحانة الحقيرة ! .. وهزت كتفيها في حركة

أزاحت عن جسمها الصدر الصوفي (التريكو) ، وأشارت بكلتا يديها الى حانة منافسها ، التي كانت تنبعث منها اصوات تغني .. ثم اضافت قائلة : « لن يدوم هذا امدأ طويلاً ، على أية حال ، وسينتهي كل شيء قبل اسبوع » .. فتراجع « هوميه » مذهولاً ، بينما هبطت ثلاث درجات لتهمس في أذنه : « ماذا ! .. او لا تعلم هذا ؟ .. هناك حجز سيوقع في الاسبوع المقبل ، و « لوريه » هو الذي سيتسبب في بيع الحانة ، اذ قضي عليه بدفع قيمة الصكوك (الكمبيالات) .. » ، فصاح الصيدلي الذي كان يجد دائماً من التعبيرات ما يتمشى مع كل مناسبة يمكن تصورها : « يا لها من نكبة مفزعة ! »

اذ ذاك شرعت ربة الفندق تروي له القصة التي كانت قد سمعتها من « تيودور » - خادم السيد « جويومان » - ومع انها كانت تبغض « تيليه » ، الا انها راحت تنحي باللوم على « لوريه » واصفة اياه بأنه غشاش دنيء !.. وقالت : « ها هو ذا ! .. انظر اليه ، انه في السوق ، ينحني لمدام « بوفاري » التي ترتدي قبعة خضراء . عجباً ، انها تأخذ بلذراع السيد بولانجيه » .. فهتف هوميه : « مدام بوفاري !.. يجب ان اذهب فوراً فأقدم لها احتراماتي .. لعلها ستسر جداً بأن تحصل على مقعد في الحلبة ، تحت الرواق » .. ولم يلق الصيدلي بالاً الى الام « لوفرانسوا » التي اخذت تناديه لكي تسهب له في القصص ، بل ابتعد في خطوة سريعة ، وعلى شفثيه ابتسامة ، وقد شد عرقوبه ، وراح يسخو في الانحناء يمنة ويسرة موزعاً التحيات ، وذيل سترته السوداء يطير مع الريح من خلفه ، شاعلاً فراغاً كبيراً .. لكن « رودولف » لمح من بعيد ، فراح يغذ السير وهو يجذب مرافقته معه ، ولكن انقاس مدام « بوفاري » تقطعت ، فاضطر الى ان يتباطأ ، وقال في لهجة جافة وهو يتسهم : « ما هذا الا لكي نفر من هذا الرجل البدين .. الصيدلي ، كما تعلمين ! » .. فضغطت مرفقه .. فسألها وهو يرمقها

من طرف عينه : « ما معنى هذا ؟ » .. وكانت صفحة وجهها هادئة ، لا تتم عن شيء ، وقد برزت من اطراف قلعوسها البيضاء الشكل ، التي كانت مزداة بأشرطة باهتة تشبه اوراق البوص . وكانت عيناها - بأهدابها الطويلة المقوسة - تنظران الى الامام في خط مستقيم . ومع انها كانتا مفتوحتين على وسعها ، الا انها لاحتما متواريتين بعض الشيء ، كما لو كانت وجنتاها تدفعاها ، وقد زاح الدم يسري برفق تحت بشرتها الرقيقة .. وعلى طول الحاجز الذي كان يتوسط فتحتي انفها ، امتد خط وردي . وكان رأسها يميل على احدى كتفيها ، كما كانت الاطراف اللؤلؤية لاسنانها البيضاء ترى من بين شفثتها !

وسأل « رودولف » نفسه : « أنراها تسخر مني ؟ » .. غير ان الحركة التي بدرت من « ايما » لم تكن ترمي الا الى تنبيهه . فقد كان السيد « لوربه » يرافقهما ، وكان يتكلم بين آن وآخر ، وكأنه يود ان يندمج معهما في الحديث .. وما لبث ان قال : « يا له من يوم رائع !.. لقد غادر الجميع دورهم !.. ان الرياح تهب من الشرق !.. » ولم ترد عليه مدام بوفاري ولا رودولف بشيء ، بينما كان هو يقرب منهما عند أية حركة تبدر منهما ويقول : « معذرة ! » ، ويرفع قبعته ! .. حتى اذا بلغوا منزل البيطار ، لم يمضوا في الطريق العامة حتى الحاجز ، بل انحرف رودولف فجأة الى طريق ضيقة : ساحباً معه مدام بوفاري ، وهو يهتف : « عم مساء يا مسيو لوربه !.. الى اللقاء ! » .

وقالت « ايما » ضاحكة : « ما ابرع ما تخلصت منه ! » .. فعقب قائلاً : « ولماذا يترك المرء نفسه عرضة لأن يثقل عليه الآخرون !.. ولما كنت اليوم سعيداً بأن اكون معك ... »
وتضرج وجه « ايما » .. ولم يتم رودولف عبارته ، بل تحول يتحدث عن جمال الجو ، ولذة السير على العشب .. وكانت بعض

زهرات « المرجريت » قد استوت على سيقانها فقال : « ما هي ذي بعض زهور المرجريت البديعة تبشر بعيد الفصح .. وما هوذا عدد منها يكفي لتقديم النبوءات لكافة العذارى العاشقات في المنطقه ! » .. ثم أضاف : « هل اقتطف بعضها ؟ .. ما رأيك ؟ » .. فسعلت قائلة : « وهل انت عاشق ؟ » .. فأجاب رودولف : « ا .. ا .. من يدري : ! » وكان المرج يمتليء ، وربات البيوت يزاحمنك بمظلاتهن الكبيرة ، وسلاهن ، واطفالهن .. وكثيراً ما كان المرء يضطر الى افساح الطريق لصف طويل من الريفيات او الخادمات ممن يلبسن جوارب زرقاء ، واحذية مسطحة النعال ، وخواتم من الفضة .. وتفوح منهن - اذا ما مر المرء بالقرب منهن - رائحة اللبن ! .. وقد سرن متشابكات الأيدي ، شاغلات عرض الميدان .. من اشجار الحور الى سرادق الاحتفال ! .. وكان موعد فحص المعروضات قد حان ، فأخذ الفلاحون يدخلون - واحد بعد آخر - الى ما يشبه حلبة للسباق ، يحدها جبل طويل شد الى عصي .. وكانت المشية تربض هناك وأنوفها موجهة نحو الجبل ، وقد اصطفت في مجموعات غير متساوية ولا منتظمة . وخياطم الخنازير المتشاقة مدسوسة في الارض ، والعجول تخور ، والنعاج تنغو والأبقار تمد بطونها على النجيل وقد ثنت سيقانها تحتها ، وهي تجتر في بطء ، وجفونها الثقيلة تحتلج من الذباب الذي كان يخوم حولها في طنين . والحوزية قد شمروا عن سواعدهم يشدون أعنة الجياد الجائعة التي راحت تصهل - متنفخة الحياشيم - وهي تنظر نحو أناسها التي وقفت هادئة ، تمد اعناقها ، واعرافها متدلية ، بينما كانت صغارها مستكينة في ظلها ، تقبل على الرضاع منها بين آن وآخر ! .. وفوق هذا الخضم الزاخر من الاجسام المقدسة ، كانت ترتفع في الهواء اوراق بيضاء كأنها الموجات . او تبرز هرون حادة ، او رؤوس رجال يجرون حولها .. وخارج الحلبة وقف - على بعد نحو مائة خطوة - ثور اسود ضخم ، مكمم في انفه بخلقه من

حديد .. وهو لا يتحرك ، كأنه صيغ من البرونز ، بينما امسكه بجبل اطفال في اسمال مهلهلة ..

وسار بين الصفيين اعضاء اللجنة بخطى ثقيلة ، يفحصون كل حيوان ، ثم يستشير كل منهم الآخر في صوت خفيض ، وقد اخذ واحد منهم - كان يبدو أهم من الآخرين مكانة - في تدوين بعض الملاحظات من وقت الى آخر .. ذلك كان السيد « دبروزيراي دي لابانفيل » ، رئيس المحكمين .. وما ان رأى رودولف حتى اسرع متقدماً منه ، وابتسم في ود قائلاً « ما هذا يا سيد بولانجي .. أنتخلى عنا ؟ » .. فاعتذر رودولف بأنه قد وصل لتوه ، ولكن ، ما ان انصرف الرئيس حتى قال لايمًا : « لعمرى ! .. لن اذهب ، فان صحبتك خير من صحبتي ! » .. وكان يبرز بطاقته الزرقاء لرجال الشرطة - ليمر في يسر - وهو يسخر من المعرض .. وكان يقف احياناً امام حيوان بديع ، لا يروق للمدام بوفاري على الاطلاق . واذا فطن الى ذلك ، تحول يرسل النكات الساخرة عن سيدات (ايونفيل) وازياتهن ، ثم انقلب يعتذر عما في زيه من اهمال ، اذ كان خليطاً من المبتذل والأنيق معاً ، يرى فيه عامة الناس دليلاً على غرابة في الطباع ، واضطراب في الاحساس ، ومغالة في الفن ، و - دائماً - نوعاً من الاستخفاف بالعادات الاجتماعية المألوفة . مما يفتنهم او يغیظهم ! .. من ذلك ان قيصه كان من « الباتيسه » ، تكثر الثنيات عند معصمي كمييه .. وقد كان ينتفخ بفعل الهواء الذي كان يتسلل من فتحة صدر من التيل الرمادي .. وكان ساقا سرواله ذي الخطوط العريضة يكشفان عند الكعيبين عن حذاءين من « الشمواه » الذي تتخلله اجزاء من الجلد كانت تلمع حتى لتنعكس عليها صور العشب .. وكان يظاً بهذين الحذاءين روث الخيل وقد دس احدى يديه في جيب من سترته ، وأمال قبعته المصنوعة من القش جانباً .. وعاد يتابع الكلام قائلاً : « ثم ان المرء حين يكون مقيماً في الريف .. »

فقال ايما : « انها مضيعة للوقت » ، فأجاب : « هذا حق .. تصوري ان احداً من هؤلاء الناس لا يستطيع ان يفهم ، حتى طراز سترته ! » .. ثم دار الحديث عن الريف الكئيب ، وما يضيع فيه من أعمار ، ووينهار من آمال .. فقال رودولف « لهذا السبب تخمروني الكآبة » .. فعقبت مذهولة : « انت ! ؟ .. ظننتك شديد المرح ! »

– آه .. أجل . هكذا أبدو ، لأنني أعرف كيف أخفي وجهي وراء قناع ساخر ، وسط المجتمع .. ومع ذلك ، فكم ساءلت نفسي حين كنت أرى مقبرة في ضوء القمر : أليس من الخير ان اشارك اهلها في سباتهم !

فهتفت : « أواه ! .. واصدقاؤك ؟ .. ألسنت تفكر فيهم ؟ » .. فقال : « اصدقائي ! .. اي أصدقاء ؟ .. هل لي أصدقاء ؟ .. من يحفل بي ؟ » .. وأردف بصفير خافت من بين شفتيه .. وما لبثا ان اضطرا الى الانفصال ، كل عن الآخر ، بسبب حمل كبير من المقاعد كان احد الرجال يرفعه خلفهما .. وكان من الكثرة بحيث لم يكن في وسع الرجل ان يرى مقدم حذاءيه الخشبيين ، او نهاية ذراعيه المبسوطتين . وكان هذا الرجل هو « ليستيبودوا » ، حفار القبور ، وقد حمل مقاعد الكنيسة ، واخذ يجوس بين الناس ، اذ كان نشيط الذهن في كل ما يعود عليه بالنفع ، وقد فطن الى هذه الطريقة للافادة من المعرض ، وصادفت فكرته نجاحاً ، اذ تكاثرت عليه الطلبات حتى لم يعد يدري أيها يجيب ، والواقع ان القرويين الذين برح بهم التعب ، أخذوا يتشاجرون من اجل هذه المقاعد التي كان عبير البخور يفوح من قشها ، ويضطجعون على مساندها السميكة – المتسخة بدهن الشموع – في زهو وخيلاء !

وعادت مدام بوفاري فأمسكت بذراع رودولف الذي كان ماضياً في الحديث ، وكأنه يكلم نفسه : « اجل ، كم أضعت من اشياء .. فأنا

وحيد على الدوام ! .. آه ، لو كان لي هدف في الحياة ! .. لو انني
لقيت شيئاً من الحب .. لو انني التقيت بشخص يعطف علي ! .. ما كان
احراني اذ ذاك أن ابدل كل ما اوتيت من طاقة ، وان اذلل كل شيء ! ..
وان انقلب على كل شيء ! .. فقالت : « ومع ذلك ، انك لا تبدو
في حال تدعو للثناء ! .. قال : « آه .. او هذا ظنك بي ؟ ..
فاستطردت قائلة : « لأنك قبل كل شيء ، حر ... » ، وترددت ،
ثم أردفت : وغني ! .. فأجاب : « لا تسخري مني .. وبينما
كانت تؤكد انها لا تسخر ، دوت طلقة مدفع ، فاذا الجميع ينطلقون
متدافعين في هرج نحو القرية .. ولكن التنبيه كان كاذباً ، فان مدير
الاقليم لم يكن قد حضر ، وشعر اعضاء لجنة التحكيم بالحيرة ، اذ كانوا
لا يدرون أيبدأون الحفل ، أم ينتظرون أمداً آخر ..

واخيراً ، ظهرت في اقصى الميدان عربة كبيرة مستأجرة - من
الطراز المغلق الجوانب - يجرها جوادان هزيلان ، يسوطهما بكل قوته
حوزي بقبعة بيضاء .. واسرع « بينيه » صائحاً : قرقول سلاح ! ،
فحذا الضابط حذوه ، وهروا الجنود نحو السرادق ، لقد نسي بعضهم
ان يرتدوا ياقاتهم .. ولكن ركب المدير كان قد توقع الزحام مقدماً ،
فخفف الجوادان من سرعتهما ، ووصلا على رنين أعتتهما الى منصة
البلدية ، في اللحظة التي تم فيها تجمع الحرس الوطني وفريق الاطفاء ،
ومن ثم اخذوا يدقون الطبول ، وينظمون خطواتهم .. وصاح « بينيه » :
« خطوة تنظيم ! .. فصاح الضابط : « قف ! .. الى اليسار در ! ..
وبعد ان ارتفعت البنادق للتحية ، وانطلقت الموسيقى كرنين وعاء نحاسي
ينحدر على سلم ، خفضت البنادق من جديد . واذا ذاك ، غادر العربة
سيد في حلة ذات سترة قصيرة موشاة بخيوط فضية .. وكان أصلع في
مقدمة رأسه ، ويضع شعراً مستعاراً في مؤخرتها ، وقد بدا كالحالون ،
تلوح عليه امارات الطيبة . وكان يعلو عينيه الجاحظتين جفنان سميكان ،

نصف مطبقين عليهما ، اذ راح ينعم النظر في الجماهير ، رافعاً - في الوقت ذاته - انفه الحاد ، راسماً على فمه الفاجر ابتسامة . وعرف الرجل العمدة من وشاحه ، فاوضح له ان مدير الاقليم لم يتمكن من الحضور ، وانه هو مستشار الاقليم . ثم اردف مردداً بعض الاعذار ، فرد السيد « توفاش » - العمدة - ببعض المجاملات .. وبدا على الآخر الارتباك! .. وظلا واقفين وجهاً لوجه ، تكاد جبهتهما ان تتلامسا ، وحولهما اعضاء لجنة التحكيم والمجلس البلدي ، والاعيان ، والحرس الوطني ، والجمهور . وكرر المستشار انحناءاته بالتحية ، وهو يضم الى صدره قبعته الصغيرة السوداء الثلاثية الجوانب ، بينما انحنى « توفاش » كالقوس ، وابتسم هو الآخر ، وتلثم اذ حاول ان يقول شيئاً ، ثم أكد ولاءه للملكية ، وأعرب عن الشرف الذي أتيح لايونفيل باقامة هذا المعرض !

وأخذ « هيووليت » - سائس الفندق - عناني الجوادين من الخودي ، وقادهما وهو يعرج بقدمه الشوهاء الى باب « الأسد الذهبي » ، حيث تجمع عدد من الفلاحين يتأملون العربة .. ودقت الطبول ، ودوى المدفع ، وتقاطر السادة صاعدين المنصة ليتبوءوا المقاعد الحمراء التي اعارتها مدام « توفاش » للمحتفلين .. وكان هؤلاء السادة جميعاً متشابهين .. فوجوههم السمينة الشقراء التي لوتحتها الشمس قليلاً تبدو في لون شراب التفاح ، وشعور لحاهم تتفش على جانبي وجوههم منهذلة على ياقات كبيرة متيبسة ، تحيط بها اربطة عنق بيضاء ، لها عقدة عريضة .. وصداراتهم جميعاً من القطيفة ، وكافة الساعات تحمل - في نهاية اشرطة طويلة - ما يشبه خاتماً بيضاوياً من العقيق .. والأيدي مرتكزة على الأفخاذ - تسوي في عناية ثنيات السراويل التي كان قاشها الحديد يفوق الأحذية لمعاناً .

ووقفت زوجات السادة خلفهم ، بين الأعمدة ، بينما احتشد الجمهور في الناحية المقابلة ، بين وقوف وجلس على المقاعد ، اذ كان « ليستيودوا »

قد نقل جميع المقاعد من المرج الى هناك ، وراح يجري طيلة الوقت ليحضر من الكنيسة غيرها .. وسبب بنشاطه التجاري هذا ارتباكاً جعل بلوغ سلم المنصة أمراً عسيراً ! .. وقال « اوريه » للصيدلي اذ مر به ذاهباً الى المكان المخصص له : « من رأيي انه كان من الواجب عليهم ان يقيموا صاربين على طراز البندقية ، يحملان بعض الزينة القيمة ، حتى يصبح المنظر متعة للعين » .. فأجاب هوميه : « هذا حق .. ولكن ، ماذا كنت تتوقع وقد استأثر العمدة بالاشراف على كل شيء .. لكم هو محدود الذوق هذا التوفاش المسكين ! .. بل انه محروم مما يسمى عبقرية الفن ! » .

• • •

وفي تلك الاثناء ، كان رودولف قد صعد مع مدام بوفاري الى قاعة الاجتماعات بالطابق الأول من مبنى البلدية .. واذا كانت القاعة خالية ، فقد قال ان في وسعها ان يستمتعا بالفرجة منها وهما مستريحان . وحمل ثلاثة مقاعد من حول المائدة البيضاوية ومن اسفل التمثال النصفي للملك ، ووضعها على مقربة من احدى النوافذ ، ثم جلسا متجاورين .. وكانت ثمة جلبة فوق المنصة ، وهمسات طويلة ، ومفاوضات .. واخيراً وقف السيد المستشار ، فعرف الجمهور اذ ذاك انه يدعى « ليقان » ، وسرى الاسم بين الجمع ، من شخص الى آخر .. وبعد ان أخرج بضعة اوراق ، وانحنى عليها ليراها بوضوح ، شرع يقول : « سادتي : اسمحوا لي اولاً وقبل ان احدثكم عن الغرض من اجتماع اليوم ان اقر بالفضل - وانا واثق من انكم تشاطرونني هذا الشعور - للحكومة .. للملك . لملكنا ايها السادة .. هذا الملك المحبوب الذي لا تغيب عن اهتمامه ناحية من نواحي الرخاء العام او الخاص ، والذي يقود بيد تجمع بين الخزم والحكمة سفينة الدولة ، بين الأخطار المتلاحقة في بحر عاصف ، وهو يعرف -

فوق هذا - كيف يجعل للسلام من الاحترام مثل ما للحرب والصناعة والتجارة والزراعة والفنون الجميلة !

وهنا قال رودولف : « يجب ان ارتد قليلاً الى الوراء » .. فقالت ايما : « لماذا ؟ » .. وفي تلك اللحظة ، ارتفع صوت المستشار فوق المؤلف وهو يقول : « لقد مضى ايها السادة ذلك الزمن الذي كان الشقاق بين المواطنين فيه يلطخ الميادين العامة بالدماء ، والذي كان فيه المالك ، وصاحب الاعمال ، والعامل نفسه ، يأوون الى مضاجعهم لينعموا بالنوم ، وهم يرتجفون خشية ان يستبقظوا فجأة على ضجيج عربات الحريق .. والذي كانت فيه اعنف المبادئ الهدامة تدك في جراءة كافة الأسس » ..

وعاد رودولف يتابع الكلام : « قد يلمخني أحد ، فاضطر عندئذ الى ان أظل اسبوعين انتحل الاعذار .. فضلاً عن ان سمعتي سيئة ! » .. فقالت ايما : « انك تظلم نفسك ! » .. قال : « لا .. انها سيئة .. أوكد لك ! » .. ومضى المستشار يقول : « على اني حين انحي عن الذاكرة هذه الصور الحالكة - ايها السادة - انتقل ببصري الى الاحوال الراهنة في وطننا العزيز .. فماذا أرى ؟ .. في كل مكان تزدهر التجارة والفنون ، وفي كل مكان طرق جديدة للمواصلات ، كأنها شرايين حديثة في جسد الدولة ، تقيم في ارجائها علاقات جديدة .. وقد استأنفت مراكزنا الصناعية الكبرى نشاطها .. والدين - الذي ازداد وحدة وتوطدأ - يتسم في كل قلب .. وموانئنا مليئة ، والثقة قد نبتت من جديد .. وفرنسا قد عادت تنفس ! »

واستأنف رودولف الحديث : « الواقع انهم ربما كانوا - من وجهة نظر المجتمع - على حق ! » .. فقالت ايما : كيف ذلك ؟ » .. قال : « الأمر بسيط .. او لا تعلمين ان هناك نفوساً مضناة تعيش في عذاب دائم ، وان لا بد لها من ان تتقلب بالتناوب بين الحلم والعمل ..

بين العواطف السامية النبيل ، وبين الشهوات المتطرفة العنف ! .. ومن ثم تلقي بأنفسها في كافة ألوان الاهواء والحماقات !؟ » .. فنظرت اليه كما ينظر المرء الى رحالة ارتاد بلاداً غريبة ، وقالت : « نحن النساء البائسات لا نملك حتى هذه التسلية ! » .. فقال ؟ « وانها لتسلية محزنة ، اذ ان المرء لا يجد فيها السعادة ! » .. فتساءلت : « وهل من سبيل الى العثور على السعادة يوماً ؟ » .. فأجاب : « اجل .. انها لا تلبث ان تجيء يوماً ! » .. هذا بينما كان المستشار ماض في خطابه : « .. وهذا هو ما فهمتموه انتم ، معشر الزراع وعمال الريف .. ايها الرواد المسالمون ، في ميدان الحضارة الفسيح ! .. انتم يا رجال التقدم والاخلاق قد فهمتم ان العواصف السياسية اشد خطراً - في الحقيقة - من اضطرابات الطبيعة .. »

وتابع رودولف حديثه : « ان المرء لا يلبث ان يلقي السعادة فجأة .. يوماً ما ، بعد ان يكون قد يشس منها .. فاذا ذلك ، ينفرج الأفق .. » وكان صوتاً يصيح ؟ « ها هي ذي ! » .. وتحسين بالحاجة الى ان تفضي بكل اسرار حياتك ، وبأن تهبي كل شيء ، وتضحى بكل شيء ، من اجل ذلك الكائن ! .. ولا داعي عندئذ للكلام ، فان كلامها يفهم الآخر ، اذ يكون كل " قد رأى الآخر في احلامه ! » .. ورمقها بنظرة وهو يستطرد : « وبالاجمال ، ترين امامك اخيراً الكنتز الذي طالما بحثت عنه .. انه يتلأأ ، ويبرق .. ومع ذلك فان المرء يظل في ريب ، فلا يصدق .. يظل مبهوراً ، وكأنه خرج من الظلمة الى النور ! » .. وما ان انتهى الشاب من هذا القول ، حتى قرنه بالاشارة ، فمسح وجهه بيده كرجل أحس بدوار ، ثم تركها تسقط على يد ايما .. فسحبت هذه يدها !

هذا والمستشار ماض في خطابه : « .. اي وجه للعجب في ذلك ! .. لا ينكر روح اهل الزراعة الا من اصيب بالعمى ، وغرق - ولا اخشى

من ان اقولها بهذه الصراحة - في اوهام عصر مضى وانقضى ! .. وفي الحق ، اين نجد وطنية تفوق ما نجد في الريف ، واخلاصاً للصالح العام فوق اخلاصهم ؟ .. وفي كلمة واحدة ، اين نجد ذكاء اعظم مما نجد في الريف .. ولست أعني ، ايها السادة ، هذا الذكاء السطحي الذي تتحلى به النفوس المتسكعة ، وانما اعني ذلك الذكاء المتزن ، الذي ينصب على السعي الى الأهداف النافعة قبل كل شيء ، وبذلك يساهم في رخاء كل فرد ، والارتفاع بالمستوى العام ، وتدعيم الدول ، نتيجة لاحترام القوانين والنهوض بالواجبات !

وعقب رودولف قائلًا : « آه .. هل عدنا ثانية .. الواجبات ، دائماً ! .. لقد سئمت هذه الكلمة .. ان هؤلاء الذين يطنون في آذاننا باستمرار قائلين : « الواجب ! الواجب ! » ليسوا سوى ثلة من ذوى الفكر الجامد الملتفين في صداري من «الفانيليا» ، ومن العجائز المتعبدات ! .. آه ، لعمرى ! .. ما الواجب الا ان نحس بما هو عظيم ، وان نحب ما هو جميل ، لا ان نقبل كل معتقدات المجتمع بما تفرضه علينا من ربة واذلال ! » .. فاعترضت مدام بوفاري قائلة : « ومع ذلك .. مع ذلك .. »

- لا ، لا ! .. لماذا يصرخون ضد الرغبات العاطفية ؟ .. أليست هي الشيء الجميل الوحيد على الأرض ؟ .. أليست منبع البطولة والحماسة والشعر والموسيقى والفنون .. او بايجاز : كل شيء ؟

فقالت ايما : « ولكن على المرء ان ينحني الى حد ما لرأي المجتمع ، وان يتقبل قانون الاخلاق » .. فأجاب : « أجل ، ولكن هناك قانونين : قانون صغير ، ويمثل ما تعارف عليه الناس ووضعه ، وهو يتغير باستمرار ، ويصرخ في صخب ، ويشير مثل هذه الجليلة التي نراها تحتنا .. انه أرضي من تراب : كهذا الحشد من الأغبياء الذين تروينهم هناك ، تحتنا ! .. اما القانون الآخر ، فهو الخالد ، وهو يشملنا ويعاوننا ،

كالتبيعة التي تحيط بنا ، والسماء الزرقاء التي تمنحنا النور ! »
 وكان السيد « ليفان » قد مسح فمه بمنديل ، واستطرد في خطابه :
 « وماذا عليّ ان افعل ايها السادة ، لأظهركم على فائدة الزراعة ؟ .. من
 الذي يمدنا بحاجاتنا ؟ .. من الذي يقدم لنا اقواتنا ؟ .. أليس هو الزارع ؟ ..
 ايها السادة هو الذي يزرر بيده النشيطة في خطوط الحقل الحصيبة ، فينبت
 القمح الذي يجرش ويطحن بأجهزة معقدة يخرج منها تحت اسم الدقيق ..
 ثم ينقل الى المدن ، فينتهي الى الخباز الذي يصنع منه غذاء للفقير والغني
 على السواء ! .. أليس هو الفلاح الذي يربي هذه القطعان الوفيرة ليوفر
 لنا الكساء ؟ .. أنى لنا الكساء والغذاء بدون الفلاح ؟ .. هل انا بحاجة
 ايها السادة الى ان اذهب بعيداً لأبحث عن امثلة ؟ .. منذ ان لم يفكر
 كثيراً في تلك الأشياء العظيمة التي نحصل عليها من هذا الحيوان الضئيل ،
 زينة حظائر الدواجن عندنا ، والذي يوفر لنا وسائل لينة لمضاجعتنا ،
 ولحمًا طرياً لموائدنا ، وبيضاً ؟ .. على اني لن انتهي اذا مضيت في تعداد
 المنتجات المختلفة التي تجود بها الأرض - اذا نحن احسنا زراعتها -
 كالأم السخية على ابنائها ! .. فها هنا شجر الكروم للبيد ، وفي مكان
 آخر شجر التفاح لشراب « السيدر » .. وهناك اللفت ، وبعد انواع
 الجبن ، والتيل الذي تقدم انتاجه بخطى واسعة جداً في السنوات الأخيرة ،
 والذي اود ان ألفت اليه انتباهكم بوجه خاص »

ولم تكن ثمة حاجة به الى ان يلفت انتباههم ، اذ كانت افواه الحشد
 كله فاغرة ، وكأنهم يعبون من كلامه .. وكان « توفاش » الى جواره ،
 ينصت وهو يحملق فيه .. والسيد « ديروزيراي » يغمض عينيه في رفق
 بين آن وآخر .. وعلى مسافة منه ، وضع الصيدلي يده خلف اذنه حتى
 لا يفوته مقطع من كلمة ، وابنه « نابوليون » على ركبتيه .. وكانت
 ذقون اعضاء لجنة التحكيم الآخرين تهتز في بطء على صداراتهم ، دليل
 الاستحسان .. اما رجال الاطفاء ، فاستندوا - اسفل المنصة - على

حراهم ، ووقف « بينه » جامداً في مكانه ، وقد ثنى ذراعيه ، وذؤابة سيفه في الهواء .. ولعله كان يسمع ، ولكنه بلا شك لم يكن يرى شيئاً ، بسبب حافة قلنسوته التي كانت تهبط فوق انفه !.. وكان مساعده – الابن الأصغر للسيد « توفاش » – يلبس قلنسوة اكبر من تلك ، اذ كانت واسعة ، فترجرج فوق رأسه ، وقد برز منها طرف منديله القطني .. وكان يتسم تحتها في وداعة الطفل ، وقطرات العرق تنساقط من وجهه الصغير الشاحب ، وقد لاحت عليه امارات الإنشراح والنوم !

* * *

وكان الميدان مزدحماً بالناس حتى مواقع المنازل ، فكان المرء يرى قوماً متكئين بمراقفهم على جميع النوافذ ، وآخرين يقفون امام الأبواب ، وبدا « جويستان » امام الصيدليسة وقد سير في مكانه لفرط ما استهواه المنظر .. وكان صوت السيد « ليفان » يضيع في الهواء رغم الصمت الشامل ، فلا تصل الى سمعك سوى نثف من العبارات ، يقطعها صرير المقاعد المنبثح هنا وهناك .. ثم لا تلبث ان تسمع خوار ثور ، او ثغاء الحملان ، بجواب بعضه بعضاً عند اركان الشارع .. اذ كان رعاة البقر والغنم قد ساقوا ماشيتهم حتى هناك ، فكانت تخور من آن الى آخر وهي تنتزع بألستها نثفاً من اوراق الشجر المتدلية امام افواها .

وكان رودولف قد ازداد من امّا اقتراباً ، وقال لها بصوت خفيض ولهجة سريعة : « اولاً يثيرك تأمر المجتمع على هذا النحو ؟.. وهل هناك احساس واحد لا يستنكره ؟.. ان انبل الغرائز وأسمى الميول تضطهد ويشهر بها .. واذا حدث ان التقت روحان بائستان ، فان كل العوامل تنتظم لتحول دون امتزاجهما .. ومع ذلك فأنهما ستحاولان ، وترفرغان بأجنتهما ، وتسعى كل منهما الى الأخرى .. أواه !.. لا بأس ، فأنهما لن تلبثا ان تجتمعا وتحابا ، طال الزمن او قصر .. في ستة اشهر او

في عشر سنوات .. فان القدر قد كتب هذا لها ، اذ خلقت كل منها
للأخرى »

وكان جالساً وقد تقاطعت ذراعه فوق ركبتيه .. وتطلع الى اما
وهو جد قريب منها ، وثبت بصره عليها ، فلمحت في عينيه خطوطاً
ذهبية صغيرة تومض من اعماق حدقتيه السوداوين .. بل انها راحت تشم
عطر الدخان الذي صمخ به شعره .. وما لبثت ان غشيتها نوبة من
شروذ ، فذكرت الفيكونت الذي رقصت « الفالس » معه في (فويسار) ،
اذ كانت تنبعث من لحيته رائحة الليمون والفانيليا التي تفوح من هذا
الشعر .. وأسبلت جفניה - بحركة آلية - في نصف اغماضة ، وهي
تنشق في شعره هذا العطر ، ولكنها حين اضطجعت في المقعد لمحت على
البعد - عند حافة الأفق - عربة الركاب القديمة .. « العصفورة » تنحدر
في بطء هابطة تل (ليون) ، وهي تجر ذبلاً طويلاً من الغبار .. هذه
العربة الصفراء التي كثيراً ما عاد اليها فيها « ليون » ، وفي ذلك الطريق
رحل عنها الى غير رجعة .. وخيل اليها انها تراه واقفاً عند نافذته ..
ثم اختلطت الرؤى ، وأكفهرت السحب ، وخيل اليها انها عادت تدور
في رقصة « الفالس » - تحت اضواء الثريات - بين ذراعي « الفيكونت » ،
وان « ليون » ليس بعيداً عنها ، وانه قادم .. ومع ذلك ، كانت طيلة
الوقت تشم عبر رأس رودولف الى جانبها ، وتغلغل هذا الاحساس
العذب في رغباتها القديمة ، التي اخذت تتحرك جيئة وذهاباً ، في نفحات
هذا العطر الذي ران على روحها ، كما تتحرك ذرات الرمل في مهب
الريح .. ففتحت طاقتي انفها عدة مرات لتعب من عبق اللباب الملتف
حول رؤوس الأعمدة . ونزعت قفازها ، فمسحت يديها ، ثم حركت
متدليها امام وجهها كالمروحة ، بينما كان صوت المستشار يصل اليها
- خلال نبض صدغيها - مرددة عباراته ، وكأنه يترنم بها : « واصلوا ،
وثابروا ، ولا تنصتوا الى ما يوصي به الروتين ، او ما تدعو اليه النصائح

المرتبجة المبنية على تجارب طائشة !.. واتجهوا بجهودكم - بنوع خاص - الى تحسين التربة ، والسماذ الجيد .. والاكتثار من سلالات الحيل والبقر والخنائير والاعننام الجيدة .. ولتكن هذه المعارض - بالنسبة لكم - اشبه بالساحات السلمية ، بمد المنتصر فيها يده - اذ يغادرها - الى المنهزم ، ويؤاخيها ، املاً في فوز افضل .. وانتم ايها العمال الشيوخ ، والخدم المتواضعون ، الذين لم ترمقهم حكومة حتى اليوم بعين الاعتبار .. تعالوا لتتسلموا جزء فضائلكم الصامته ، وثقوا من ان الدولة ترمقكم ، وتشجعكم ، وتحميكم .. وستستجيب لمطالبكم العادلة ، وتخفف بقدر ما تستطيع من عبء تضحياتكم ! »

وجلس السيد « ليفان » اذ ذاك ، فنهض السيد « ديروزيراي » ، وشرع يلقي خطاباً آخر .. ولعله لم يكن خطاباً منمقاً كخطاب المستشار ، ولكنه امتاز عنه بأسلوب اكثر ايجابية ، او بالأحرى ، بمعلومات ادق ، واعتبارات اسمى .. فلم يشغل مدح الحكومة - مثلاً - سوى حيز صغير منه . اما الدين والزراعة ، ففاذا بقسط اوفر ، اذ القى الضوء على العلاقة بينهما ، وعلى دورهما المشترك في خدمة الحضارة ، والجاذبية المغناطيسية . كان الخطيب يتكلم عن نشأة المجتمع ، متدرجاً من العصور الأولى التي كان الانسان يتغذى فيها بثمار البلوط في اعماق الغاب ، الى تلك العهود التي تحول فيها الناس عن جلود الماشية الى الاقشة المنسوجة ، وراحوا يحرقون الارض ويزرعون الكروم .. أفكان هذا التحول خيراً ؟ .. او لم يكن في هذه الاكتشافات من الضرر فوق ما فيها من نفع ؟ .. وتولى السيد « ديروزيراي » علاج السؤال .. بينما كان رودولف قد تطرق متقللاً من المغناطيسية الى الميول والعلاقات .. وأخذ رئيس اللجنة يذكر « سنسناوتوس » ومخراثة ، و « ديوكلسيان » اذ زرع الكرنب ، وابطارة الصين حتى كانوا يفتتحون العام ببذر البذور .. في حين كان الشاب - رودولف - ماضياً يشرح للشابة ان الميول والانجذابات ترجع في سبيلها الى نوع سابق

من الوجود .. او حياة سابقة !

ومضى يقول : « ومن ثم ، لماذا قدر لكل منا ان يعرف الآخر؟ ..
اية ارادة شاءت هذا؟ .. لقد تم ذلك بسبب انجذاب كل منا الى الآخر
- كجدولين يجريان لكي يلتقيا ويتحددا - وهكذا دفعت اتجاهاتنا الفكرية
الخاصة بكل منا الى صاحبه ! »

وامسك بيدها ، فلم تسحبها منه .. وفي تلك اللحظة ، كان الخطيب
يصيح : « جائزة الزراعة الجيدة .. » . ورودولف ماض في حديث :
« فشلاً عندما أتيت الى بيتكم .. »

وهكذا اخذت عبارات ورودولف والخطيب تتابع في تناوب واختلاط :
كان الخطيب يقول : « الى السيد بيريه من كونكانبوا »
ورودولف يقول : هل كنت اعلم ان قد قدر لي ان اصحبك ؟
الخطيب : سبعون فرنكاً .

ورودولف : بل لقد حاولت مائة مرة ان ارحل .. ولكنني تبعتك ..
وبقيت !

الخطيب : جائزة الائمة .
ورودولف : وسوف ابقى الليلة ، وغداً ، وكل الايام المقبلة ،
وحياتي كلها !

الخطيب : الى السيد « كارون » من (ارجي) .. ميدالية ذهبية
ورودولف : فاني لم ألتق بمثل هذه الفتنة الشاملة في صحبة اي
شخص آخر .

الخطيب : الى السيد « بان » من جيفري سان مارتان .
ورودولف : وسوف احمل معي ذكراك ...

الخطيب ، جائزة عن كيش اسباني من نوع « مارينو »
ورودولف : ولكنك سوف تنسيني .. سأتلاشى كالطيف !
الخطيب : الى السيد « بيلو » من نوتردام ...

رودولف : آه ، لا !.. بل سأبقى في فكرك ، وحياتك .. أليس كذلك ؟

الخطيب : سلالة الخنازير .. الجائزة مناصفة بين السيدين « لهيريسيه ، و « كيلمبور » .. وقدرها ستون فرنكاً .

وضغط رودولف يدها ، فاحس بها دافئة ، تنتفض ، كالإمامة الحبيسة التي تبغي انطلاقاً .. وسواء كانت تحاول ان تنتزع يدها ، او كانت تستجيب لضغطه ، فإنها حركت اصابعها ، فهتفت : « آه ، شكراً لك .. فانت لا تصدينني !.. ما اطيبك !.. انك تدركين انني ملك يديك !.. الا دعيني انظر اليك !.. دعيني اناملك ! »

وهبت من النافذة ريح ثنت اطراف غطاء المائدة ، واطاحت بقبعات الفلاحات الكبيرة - في الميدان - فطارت كاجنحة فراشات بيضاء ترفرف !.. وكان رئيس لجنة التحكيم ماضياً في قوله : « جائزة استخدام كسب البذور الزيتية .. السهاد الفلمنكي .. زراعة التيل .. الصرف .. الاجارات الطويلة .. الخدمات الاهلية » ... اما رودولف فلم يعد يتكلم ، اذ راح يرمق « ايما » .. وهي ترمقه ، وشفاهما ترتجف بتأثير رغبة جامحة !.. وفي استرخاء ، ودون ما جهد ، تعانقت اصابعهما .. ورئيس لجنة التحكيم ماض في سرد الجوائز !

- كاترين نيكييز اليزايث ليرو من (ساستولاجيرير) .. من اجل بقائها خمساً وخمسين سنة تخدم مزرعة واحدة .. ميدالية فضية ومكافأة قدرها خمسة وعشرون فرنكاً !

وردد المستشار النداء قائلاً : « اين هي كاترين ليرو ؟ » .. لكنها لم تتقدم .. وسمعت اصوات تنهامس : « استمر ! » .. « لا » .. « الى اليسار » .. « لا تخافي ! » .. « آه ، يا لها من غيبة ! » .. وصاح « توفاش » : « وبعد ، اموجودة هي ؟ » .. « نعم .. ها هي ذي ! » .. « فلتتقدم اذن ! » .. ورؤيت اذ ذلك امرأة عجوز ، ضئيلة الجسم ،

تتقدم واجفة نحو المنصة ، وهي تكاد تتوارى في ثيابها التعمسة ، وفي قدميها حذاءان ضخمان من الخشب ، بينما انسدت على رديها مرولة كبيرة زرقاء .. وكان وجهها الضامر ، المحاط بطاقيّة لا حافة لها ، أكثر تجعيداً من تفاحة صغيرة ذابطة .. ومن كمي سترتها الحمراء ، برزت يدان بدت مفاصلها كالعقد ، وقد غطتها البقع والبثور والبشرة الخشنة من اثر غبار الأجران ، و « البوتاس » الذي تستخدمه في ازالة بقع الشحم عن الملابس الصوفية ، حتى انها كانتا تبدوان قدرتين رغم غسلها بالماء الصافي .. وقد مكثتا متفرجتين لطول ما خدمتا ، وكأنهما تقدمان دليلاً متواضعاً على ما تكبدتا من مشاق مضنية !.. واكسب وجهها جلالاً شيئاً من جمود الرهينة ، ولم يكن يخفف من حدة نظراتها شيء من الحزن او من الحتان .. وكانت لكثرة معاشرتها للحيوانات قد اخذت عنها الصمت والسكوت .. وكانت هذه اول مرة ترى فيها نفسها وسط مثل هذا الجمع الغفير ، فداخلها دعر من الأعلام والابواق ، واولئك السادة الذين كانوا في ثياب سوداء ، وذلك الوسام الذي كان يزين صدر المستشار .. فظلت مسمرة في مكانها ، لا تدري أتقدم ، ام تلوذ بالفرار .. ولا تفهم لماذا راحوا يدفعونها الى الأمام ، ولا لماذا كان الحكام يتسمون لها ؟!.. وهكذا وقفت امام المواطنين السعداء ، تمثالاً حياً لنصف قرن من العبودية .. وكان المستشار قد اخذ قائمة الفائزين بالجوائز من يد رئيس الحكام ، فقال لها : « اقتربي ايها المبعجلة كاترين نيكييز اليزايث ليرو .. واخذ يتقل بصره بين قائمة الفائزين والسيدة العجوز ، مكرراً في لهجة ابوية : « اقتربي ! اقتربي ! »

وقال « توفاش » وهو يتلملم في مقعده : « اصماء انت ؟ » .. ثم راح يصيح في اذنها : « اربع وخمسون سنة في الخدمة !.. ميدالية فضية .. وخمسة وعشرون فرنكاً .. لك ! » .. وتأمّلت « الميدالية » اذ تناولتها ، وما لبث وجهها ان اشرق بابتسامة راضية ، ثم تمتعت وهي تنصرف :

« سأعطيها لقس قريتنا كي يقيم لي قداساً ! » .. قال الصيدلي نحو
موثق العقود قائلاً : « يا للتعصب ! »

* * *

وانتهى الحفل ، فأخذ الجمهور يتفرق .. وعاد كل امرئ الى مكانه ،
وكل شيء الى مجراه .. وأخذ السادة ينهرون الخدم ، وهؤلاء يضربون
الماشية .. تلك الماشية الفائزة ، التي علق بقرونها تاج اخضر ، وهي تعود
الى حظائرها ! .. هذا بينما صعد جنود الحرس الوطني الى الطابق الأول
من مبنى البلدية ، وقد رشقوا الفطائر الجافة في حراهم ، وحمل قارع
الطبل سلة مليئة بالزجاجات .. وأخذت مدام بوفاري بذراع رودولف
الذي رافقها حتى دارها ، ثم افترقا لدى الباب ، وسار هو يتززه وحيداً
في المرج ، في انتظار موعد الوليمة .

وكانت المأدبة طويلة ، صاخبة ، سيئة النظام ، ازدحمت الى درجة
لم يكن معها في وسع المرء ان يحرك مرفقه ، وحتى اوشكت الألواح
الضيقة - التي استخدمت كمقاعد - ان تنحطم تحت ثقل الجالسين ..
وأكل القوم في اسراف ، اذ غني كل واحد بان يملأ بطنه ، حتى تفصد
العرق على كل جبهة ، وانبعث بخار يميل الى البياض - كذلك الذي
يتصاعد من جدول في صباح يوم من ايام الحريف - واخذ يخيم فوق
المائدة بين المصابيح المدلاة .. واستند رودولف الى قماش السرادق ، وقد
استغرقه التفكير في ايما ، حتى انه لم يسمع شيئاً مما كان يدور حوله .
وكان الخدم من ورائه يجمعون الأواني المتسخة ، وجيرانه يوجهون اليه
الحديث فلا يظفرون منه بجواب .. ومن ثم ملأوا له كأسه ! .. وران
على فكره سكون رغم الضجيج المحيط به .. كان يحلم بما قالت ، وبشكل
شفتيها .. وكان وجهها يتمثل له منعكساً على خوذات الجنود ، وكأنه
يراه في مرآة سحرية .. وثنايا ثوبها تنتشر بين الجدران .. وأخذت ايام

الهوى تتتابع امام عينيه في افق المستقبل ، وهي لا تكاد تنتهي !
ورآها ثانية في المساء ، اثناء الاحتفال باطلاق الصواريخ . بيد
انها كانت مع زوجها ومدام « هوميه » ، والصيدلي الذي كان شديد القلق
بسبب خوفه من الصواريخ الشاردة ، حتى انه كان يترك الجماعة في كل
لحظة ، ليذهب الى « بينيه » ويقدم له النصائح .. وكانت الصواريخ
- التي وردت باسم السيد « توفاش » - قد اختزنت في قبو منزله ،
زيادة في الحيلة ، ومن ثم لحقت الرطوبة بالبارود فلم يشتعل .. وفسدت
تماماً القطعة الرئيسية ، وكانت صاروخاً يمثل تينياً بهض ذيله !.. ومن
وقت لآخر ، كانت تنفجر شعلة رومانية هزيلة ، فتنبعث من الجمهور
الفاغر الأفواه ضجة تختلط بها صيحات النساء اللواتي كان الرجال يدغدغون
خصورهن في الظلام ، وقد التصقت ايما - في رفق - بكتف شارل ،
وراحت تتببع انبثاق الضوء من الصواريخ في السماء المعتمة ، وهي رافعة
الذقن ، ورودولف يتأملها في ضوء المصابيح المشتعلة !

وخدت الصواريخ شيئاً فشيئاً ، واضاءت النجوم ، وسقطت بعض
قطرات من المطر ، فعقدت ايما حرملتها فوق رأسها العارية .. وفي هذه
اللحظة ، اقبلت عربة المستشار من الفندق ، وقد أخذت الحوزي المخمور
غفوة طارئة ، فكان جسمه الفصخم يرى على مقعده بين مصباحي العربة
وهو يهتز يمينه ويسرة مع ارتجاجات العربة .. فقال الصيدلي : « الحق ان
من الواجب تشديد العقوبة على من يفرط في تناول الخمر .. ويودي لو
سجلت اسبوعياً على لوحة خاصة - على باب البلدية - اسماء الذين
يشملون خلال الأسبوع من المشروبات الكحولية !.. فضلاً عن اننا سنحصل
بذلك - من الناحية الاحصائية - على قوائم سنوية رسمية ، نطلع عليها
عند الحاجة ، ولكن .. اسمحوالي ! .. وعدا ثانية نحو القائد !..
وكان هذا الاخير عائداً الى منزله ليتفقد مخرطته .. فقال له هوميه :
« انك لن ترتكب خطأ لو انك اوفدت احد رجالك .. او تذهب

بنفسك .. » ، فأجاب محصل الضرائب : « دعني وشأني ! .. اطمئن ! »
وبعد ان عاد الصيدلي الى اصدقائه قال : « اطمئنوا ! .. لقد أكد لي السيد بينيه ان التدابير اتخذت ، ولم تسقط اية شرارة ، كما ان المضخات مليئة .. فهيا بنا نسترح ! » .. فقالت مدام « هوميه » وهي تتشاءم بقوة :
« الواقع انني بحاجة الى النوم ، ولكن .. لا بأس ، فقد قضينا يوماً جميلاً كأنه العيد ! » .. فردد رودولف بصوت خفيض ، ونظرة ناعمة :
« آه ، اجل ! .. كان جميلاً جداً » .. وانحنى كل منهم لسواه ، ثم انصرفوا .

وبعد ذلك بيومين ، نشرت صحيفة « فنال دي زوان » مقالةً طويلةً عن المعرض ، كان هوميه قد كتبه بأسلوبه المتحمس في اليوم التالي للاحتفال ، وقال فيه : « لم هذه الولايم ، وهذه الأزهار ، وهذه الباقات ؟ .. والى اين يعدو هذا الجمهور وكأنه امواج بحر نائر ، تحت سيل من اشعة الشمس الحامية التي تنشر حرارتها فوق حقولنا ؟ ! » .. وتكلم عن حال الفلاحين ، فقال ان الحكومة قد فعلت الكثير ولا شك من اجلهم ، ولكن هذا لم يكن كافياً ، ومن ثم اهاب بها : « الى الامام ، فهناك ألف مشروع لازمة ، وعلينا ان ننجزها » . ثم تحدث عن وصول المستشار ، فلم ينس « المظهر العسكري الرائع لجنودنا » ، ولا « فلاحاتنا الموفورات النشاط » ، ولا « الشيوخ ذوي الرؤوس الصلعاء كأنهم البطارقة .. وقد احس من بقي منهم من رجال كتائبنا القدامى ، بقلوبهم لا تزال تخفق على دق الطبول القوي » .. وذكر نفسه بين اوائل الاعضاء المكونين لهيئة التحكيم ، مشيراً - بطريقة تستلفت الانتباه - الى ان السيد هوميه ، الصيدلي ، قد ارسل مذكرة عن شجر التفاح الى الجمعية الزراعية ! .. واذا تطرق الى الحديث عن توزيع الجوائز ، صور فرح الفائزين بأسلوب خيالي مبالغ فيه : « فالأب يقبل ابنه ، والأخ

اخاه ، والزوج زوجته ، وم من واحد منهم كان يز هو باظهار « ميدالته » المتواضعة ، التي لن يلبث ، اذا ما عاد الى زوجته الصالحة - ان يعلقها بجوار فراشه والدمع ينهمر من عينيه .. وحوالي الساعة السادسة ، اقيمت مأدبة في بستان السيد « ليجار » ضمت الشخصيات الرئيسية التي حضرت الاحتفال ، وسادتها روح المودة الخالصة .. وشربت عدة انخاب ، فشرب السيد « ليفان » نخب الملك ، والسيد « توفاش » نخب المدير ، والسيد « ديروزيراي » نخب الزراعة ، والسيد « هوميه » نخب الصناعة والفنون الجميلة - التوأين - والسيد « ليليشيه » نخب الاصلاحات . وفي المساء انطلقت في السماء صواريخ لامعة اضاءتها فجأة ، حتى لقد كان خيل للمرء انها منظر سحري ، او منظر مسرحي حقيقي .. وكأني بالقرية الصغيرة قد انتقلت - للحظة من الزمن - الى حلم من احلام ألف ليلة وليلة ! »

ثم اضاف قائلاً : « ولنسجل انه لم يكدر صفو هذا الاجتماع العائلي اي حادث يدعو للأسف .. وكانت الملاحظة الوحيدة هي تخلف رجال الدين ، ولعل الكهنوت يفهم التقدم على نحو آخر !.. كما تشاؤون يا رسل ليولا ! »

الفصل التاسع

ومضت ستة اسابيع لم يعد خلالها رودولف ثم ظهر اخيراً ذات مساء .
لقد حدث نفسه في اليوم التالي للمهرجان قائلاً : « لا يجوز أن
أسرع بالعودة والا كان هذا خطأ » .

وفي نهاية أسبوع كان قد سافر للصيد ، وبعد الصيد ظن أنه قد
تأخر أكثر مما يجب ، ولكنه فكر على النحو الآتي : « ولكنها اذا
كانت قد أحببتي من اليوم الاول فإن تلهفها على رؤيتي مرة اخرى
لا بد أن يزيداها حباً ! فلنواصل اذن ! » .

ولقد فهم ان تقديره كان على حق ، وذلك عندما رأى (ايما)
يصيها الشحوب بمجرد أن دخل الى الصالة .

كانت وحدها ، والنهار آخذ في الغروب ، وستائر الموسلين الصغيرة
الموضوعة على ألواح الزجاج تزيد الشفق كثافة ، واطار البارومتر المذهب
ينعكس عليه شعاع من الشمس ، فينشر الوهج في المرأة بين فراغات
المرجان .

وظل رودولف واقفاً ! وفي مشقة استطاعت ايما أن ترد على عبارات
التحية الاولى .

وقال : « لقد كانت لدي مشاغل ! لقد كنت مريضاً ! » .

فصاحت هي : « مرضاً خطيراً ؟ » .
وقال رودولف وهو يجلس على مقعد الى جوارها :
« في الواقع لا ! ... وانما لم أشأ أن أعود » .
— لماذا ؟

— او ما تستطيعين ان تحدسي ؟
ونظر اليها مرة أخرى ، ولكن على نحو بلغ من العنف ان خفضت
بصرها واحمرّ وجهها . واستأنف قائلاً :
— اما ...

فقالت وهي تتنحي قليلاً : « سيدي ا ! »
واجاب في صوت حزين : « آه ! أوما ترين أني كنت على حق
عندما لم أشأ أن أعود ، ذلك لان هذا الاسم — الاسم الذي يملأ
روحي والذي انطلق مني — هذا الاسم تحظرينه علي ! مدام بوفاري !...
آه : ان جميع الناس ينادونك هكذا ! ... وهذا ليس في الواقع
اسمك وانما هو اسم شخص آخر !
وكرر : شخص آخر !

وأخفت وجهها بين يديها !
نعم اني افكر فيك باستمرار ! ... وذكراك تصيبي باليأس !
آه ! معذرة ! ... اني اتركك ... وداعاً ! ... ساذهب بعيداً ...
بعيداً جداً ... حتى لا تعودني تسمعين عني ! ... ومع ذلك ... اليوم...
لا أدري أية قوة تلك التي دفعتني نحوك ! وذلك لان الانسان لا يجاهد
ضد القدر ولا يقاوم ابتسامة الملائكة ! وانما يترك الانسان نفسه لينساق
نحو ما هو جميل ساحر . جدير بالعبادة !

وكانت هذه أول مرة تسمع فيها اما أشياء كهذه توجه اليها وأخذت
كبرياؤها تسترخي استرخاء كاملاً بحرارة هذه اللغة ، على نحو ما
يسترخي الانسان في حمام دافئ !

واستمر يقول : لكنني اذا كنت لم أحضر واذا كنت لم أستطع أن أراك ، فاني على الاقل كنت أتملئ كل ما يحيط بك - فقي جنب الظلام كنت أستيقظ كل ليلة وأصل الى هنا ، لاشاهد منزلك ، والسقف الذي يلمع تحت القمر ، وأشجار الحديقة اني تتأرجح أمام نافذتك ، ومصباحاً صغيراً - وميضه يلمع من خلال الزجاج في الظلام . آه ! انك لم تكوني تعلمين أن هناك ، قريباً جداً وبعيداً جداً يائس مسكين ... ! »

فالتفت نحوه وهي تنسج قائلة « آه ! كم أنت طيب ! » - « - اني أحبك ، وهذا كل ما في الامر ! انك لا تشكين في ذلك ؟! قولي لي ... كلمة !.. كلمة واحدة ! » وبطريقة غير محسوسة أخذ رودولف ينزلق من المقعد حتى الارض، ولكنه سمع وقع حذاء في المطبخ ، كما ادرك ان باب الصالة لم يكن مغلقاً .

وواصل قائلاً وهو ينهض : « هل لك ان تجودي باشباع امل يراودني ؟ » وكان هذا الأمل هو ان تزور بيته ، فقد كان يود ان يعرفها عن قرب . ولم ترَ مدام بوفاري بأساً في ذلك ، ونهض الاثنان عندما دخل شارل .

فقال له رودولف : « عم صباحاً يا دكتور ! » وطرب الطبيب لهذا اللقب غير المنتظر ، فاندفع في التحيات ، بينما انتهز الآخر الفرصة لكي يسترد جأشه بعض الشيء ! وقال عندئذ : « لقد كانت السيدة تحدثني عن صحتها ... »

وقاطعه شارل؛ فقد كان لديه في الواقع عدة اسباب للقلق، وكانت أزمات ضيق التنفس قد أخذت تعاود زوجته . وعندئذ سأل رودولف عما اذا كانت رياضة الخيل تنفعها .

فقال شارل : « بلا شك ! بالضبط تماماً - فكرة طيبة يجب ان تنفذها ! »

وعندما اعترضت بأنها ليس عندها حصان ، عرض رودولف واحداً، ورفضت عرضه . فلم يلح . ولكي يبرر زيارته روى كيف ان سائق عربته - وهو الرجل الذي سبق ان حضر لعملية فصد الدم - لا يزال يشعر بدوار .

فقال بوفاري : « سأمر بكم » .

- لا - لا . سأرسله اليك - سنحضر ، فهذا اكثر راحة بالنسبة اليك ..

- آه . حسن جداً - اني اشكرك .

وبمجرد ان أصبحا وحيدين قال لها زوجها « لماذا لم تقبلي عروض السيد بولانجية البالغة الرقة ؟ » .

فقطبت جبينها ، واخذت تبحث عن مئات الاعذار . وفي النهاية قالت : ان هذا قد يبدو غريباً » .

فدار شارل على عقبه ثم قال : انني أسخر من كل هذا ! فالصحة قبل كل شيء ! انك محطئة ! »

وكيف تريد ان اركب حصاناً وليس لدي سروال للركوب .

فأجاب : يجب ان توصي بصنع واحد .

وبفضل السروال عقدت عزمها !

وعندما أعدّ اللباس كتب شارل الى السيد بولانجية يخبره ان زوجته تحت تصرفه ، وانه يعلق الأمل على لطفه !

وفي اليوم التالي وصل رودولف عند الظهر امام باب شارل ومعه حصانان أصيلان، تحلي اذني أحدهما حلية من القماش ، ويحمل فوق ظهره سرجاً نسائياً من جلد الغزال .

وكان رودولف قد ارتدى حذاء طويلاً رخواً معتقداً انها لم تر-

مثله قط ، وبالفعل اخذت بهيئته عندما ظهر على الدرج في سترته الطويلة المصنوعة من المخمل ، وسرواله التريكو الابيض . وكانت مستعدة في انتظاره .

وانقلت جويستان من الصيدلية لكي يراها كما تحرك الصيدلي ايضاً ، وأخذ يقدم الى السيد بولانجية النصائح . « ان الحوادث سريعاً ما تقع ! خذ حذرک ! فقد تكون خيلک جموحة . »

وسمعت ضوضاء فوق رأسها « كانت فيليستيه تدق على الزجاج لكي تسلي الطفلة برت . وأرسلت الطفلة قبلة غن بعد ، فردت عليها امها باشارة من مقبض سوطها .

وصاح السيد هوميه : « نزهة طيبة ! ولكن الحذر ! الحذر ! » وهز جريدته - وهو ينظر اليها يتعدان .

وبمجرد أن أحس حصان ايمما بالأرض أخذ يعدو ، ورودولف يعدو الى جوارها . وكانا يتبادلان الحديث احياناً ، وقد خفضت وجهها قليلاً ، ورفعت يدها الى اعلى ، ومدت ذراعها الايمن ، وتركت نفسها تهتز على ايقاع الحركة التي أخذت ترنحها فوق السرج ..

وعند اسفل الهضبة أرخى رودولف العنان فانطلقا معاً في خطوة موحدة ، ثم وقفت الخيل فجأة عندما وصلا الى القمة فانسدل وشاحها الازرق الكبير .

كنا في الايام الاولى من اكتوبر ، وكان ضباب فوق الحقول ، وقد امتدت الابخرة في الافق بين سفوح التلال وتمزقت بأخرة اخرى وصعدت وتلاشت ، وحياناً كانت السحب تنفرج تحت شعاع من الشمس فتلوح عن بعد سقوف ابونفيل ، والحدائق على حافة المياه ، والاجران والجدران وبرج الكنيسة ، وكانت ايمما تضم جفنيها لكي تتعرف على منزلها . ولم تلح لها هذه القرية المسكنة التي تسكنها في مثل هذا الصغر قبل اليوم او من الارتفاع الذي كانا فيه لاح الوادي كبحيرة كبيرة شاحبة تتبخر

في الهواء ، وكتل الاشجار تبرز هنا وهناك كأنها صخور سوداء ،
وصفوف اشجار الجوز العالية التي ترتفع فوق الضباب قد لاحت كالرجال
التي تحركها الرياح ..

وفوق المرج الى جوارها كان ضوء داكن يسري في الجو الدافئ
بين اشجار الصنوبر . والارض الضاربة الى الحمرة كمسحوق التبغ ،
تخمير ضوء الخبثات والحصانان يدفعان امامها بحدواتها الحديدية وهما
يسيران ثمار الصنوبر المتساقطة على الارض .

وهكذا واصل رودولف واما السير على حافة الغابة وكانت تلتفت
من وقت الى آخر لكي تتجنب نظره . وعندئذ لم تكن ترى غير جذوع
الصنوبر المترصة ، وقد سبب لها تتابعها شيئاً من الدوار ، والحصانان
يلهثان ، وجلد السروج يقرقع .

وفي اللحظة التي دخلا فيها الغابة ظهرت الشمس ..

فقال رودولف : ان عناية الله ترعانا .

فقال : الى الامام ! الى الامام !

وقرقع بلسانه فعد الحصانان .

وكانت اغصان السيسان الطويلة النامية على حافة الطريق تعلق بركاب
ايما وكان رودولف ينحني وهو يواصل السير لكي ينتزعها اولاً بأول .
وفي بعض الاحيان كان يمر الى جوارها لكي ينحني الاغصان ، وكانت
ايما تحس بركبته تمس ساقها . وكانت السماء قد اصبحت زرقاء ولم تعد
الاوراق تتحرك ، ومساحات شاسعة قد امتلأت بالاعشاب المزهرة ،
ويقع من زهر البنفسج تتتابع مع ورق الشجر الذي كان رمادياً او
مصفرأ او مذهباً ، تبعاً لاختلاف الورق . وكثيراً ما كان يسمع تحت
الاعشاب انسياب خفقة جناح او صيحة مبحوحة عذبة تطلقها الغربان التي
تتطاير بين اشجار البلوط .

وترجلا وربط رودولف الحصانين ، وسارت ايما امامه فوق الحشائش

بين دروب الطريق .

لكن الثوب الطويل أخذ يضايقها بالرغم من أنها حملته مرفوعاً من الذيل وأخذ رودولف يتأمل وهو يسير خلفها يتأمل ، ورقة جوربها بين سواد الرداء وسواد الحذاء - وقد لاح له كأنه جزء من جسمها العاري .

وتوقفت قائلة : لقد تعبت .

فقال : هيا فلنحاول مرة اخرى . تشجعي !

وبعد ذلك بمائة خطوة وقفت ثانية . ومن خلال وشاحها الذي تدلى الى ردفها ، من القبعة الرجالي التي كانت تلبسها ، لاح وجهها في شفافية ضاربة الى الزرقة ، وكأنها قد سبحت تحت امواج لazorدية .. الى أين نذهب ؟

فلم يجب بشيء . وكانت تتنفس تنفساً متقطعاً . ودار رودولف ببصره من حوله وعض شاربته .

ووصلا الى مكان فسيح كانت قد قطعت اشجاره . وجلسا فوق جذع شجرة مطروح على الارض ، واخذ رودولف يتحدث اليها عن حبه .. وفي اول الأمر لم يخفها قط بعبارات غزله ، فقد كان هادئاً جاداً مبتسماً ..

وكانت ايما تنصت اليه خافضة الرأس ، وهي تحرك بطرف قدمها قطعاً من الاغصان المتساقطة على الارض .

أجابت على قوله :

— أليس مصيرانا الآن قد اتحدنا ؟ «

بقولها : آه . لا ! وهذا انت تعرف جيداً ، هذا مستحيل ! «

ونهمت لكي ترحل ، فأمسك بمعصمها . فتوقفت ثم أخذت تتأمله بضع دقائق بعين ولها نديبة ثم قالت في حيوية : آه . فلنمسك عن الحديث ... أين الخيل ؟ فلنعد . «

وبدرت منه حركة غضب وضجر فكررت قولها : « اين الخيل ؟
اين الخيل ؟ »

وعندئذ ابتسم ابتسامة غريبة وقد جمدت حدقة عينه وضغط على
اسنانه ، وتقدم نحوها فانحأ ذراعيه فارتدت الى الخلف واجفة وهي تتمم :
آه . انك تخيفني - انك تؤلني ! فلرحل ! .
فقال وقد تغير وجهه : اذا لم يكن بد !

واصبح بعد ذلك مباشرة حفيأ مداعبأ حياً . واعطته ذراعها وقفلا
راجعين ثم قال : ما بك إذن ؟ لماذا ؟ اني لم افهم : انك بلا ريب
مخطئة . فأنت في قلبي كتمثال العذراء فوق قاعدته ، في مكان مرتفع
متين نقي ! وانا في حاجة اليك لكي احتمل الحياة ! اني في حاجة الى
عينيك - الى صوتك - الى تفكيرك . فلتكوني صديقتي - اختي -
ملاكي !!

ومد ذراعه وطوق خصرها ، وحاولت في رخاوة ان تتخلص . وظل
يسندها هكذا وهما سائران .

لكنهما سمعا الحصانين يرعيان العشب .

فقال رودولف : « ليس بعد » فلننتظر . فلتبق !

وقادها بعيدأ حول مستنقع كان العشب المائي يكسو أمواجه خضرة ،
والنيلوفر الذابل قائمأ في سكون بين البوح ، وعندما أحست الضفادع
بوقع اقدمها فوق العشب أخذت تقفز لكي تختبئ ..

وقالت : «اني مخطئة - نعم مخطئة ، بل ومجنونة اذ استمعت اليك » .
- لماذا ؟ ... اما : اما !

وفي بطاء قالت السيدة الشابة وهي تميل على كتفه « آه ! رودولف ! .. »
وتعلق قماش ثوبها بمحمل سترته وطرحت الى الخلف رقبتها البيضاء
التي انتفخت تنهيدة ثم انهارت باكية واعترتها رعشة طويلة واخفت وجهها
واستسلمت !

وهبطت ظلال المساء . وتسلت اشعة الشمس بين الاغصان ، فأعشت عينيها ، وانتثرت حولها هنا وهناك بين الاوراق او على الارض بقع من الضوء اخذت تهتز ، وكأن طائراً كالحباب قد نثر ريشه وهو يطير . وكان الصمت منتشرأ في كل مكان ، وكان شيئاً عذباً ينبعث عن الاشجار وأحست بقلبها يستأنف خفقانه ، والدم يجري في جسدها كأنه نهر من اللبن . وعندئذ سمعت عن بعد خلف الغابة وفوق التلال الاخرى صيحة غامضة ممتدة ... صوتاً متراخياً . استمعت اليه في صمت وقد امتزج كالموسيقى بأخر اهتزازات اعصابها الثائرة ، وقد وضع رودولف سيجارة بين اسنانه وأخذ يصلح بمطواته أحد العنانين المكسورين . وعادا الى يونفيل بنفس الطريق ورأيا على الوحل آثار حصانين جنبا الى جنب ، كما رأيا نفس الأشجار ونفس الاحجار في العشب فلم يتغير شيء مما حولها ، ومع ذلك فقد حدث بالنسبة اليها شيء اكثر خطورة من انتقال الجبال من مكانها ، ومن وقت الى آخر كان رودولف ينحني ويأخذ يدها ليقبلها .

وكانت ساحرة فوق الحصان ! وقد انتصبت بخصرها الضامر وركبتها المثنية فوق معرفة الدابة ، وقد تلوث وجهها قليلاً في الهواء الطلق وفي حمرة المساء .

ودخلا ايونفيل . واخذت تمشي على الطريق المرصوف والناس ينظرون اليها من النوافذ .

وكان زوجها يتناول العشاء وقد وجدها مشرقة الطلعة ، ولكن كان يلوح انها لا تسمعه عندما كان يسألها عن نزهتها . وقد ظلت متكئة بمرفقها بجوار طبقها بين الشمعتين المضيئتين .

فقال : ايما !

— ماذا ؟

— لقد أمضيت بعد ظهر اليوم عند السيد الكسندر ، ووجدت عنده

مهرة ، لكنها لا تزال جميلة ، وان تكن ركبناها متسلختين . واني
لنأكد من انه يمكن الحصول عليها بمائة دينار .
وأضاف : « ولما كنت اظن ان هذا قد يروقك فقد حجزتها .. لقد
اشتريتها .. فهل أحسنت صنعا ؟ أجيبي اذن ! »
فهزت رأسها كدليل على الموافقة . وبعد ذلك برع ساعة سألته : هل
ستخرج هذا المساء ؟ .

– نعم . لماذا ؟

– آه ! لا شيء ، لا شيء يا عزيزي .

وبمجرد ان تخلّصت من شارل صعدت وحبست نفسها في غرفتها .
وكانت أول الامر في شبه دوار ، فكانت ترى الاشجار والطرق
والحفرات ورودولف . وكانت لا تزال تحس بضمة ذراعيه ، بينما تهتز
الأعشاب وينبعث الصفيح من الغاب .

ولكنها عندما رأت نفسها في المرآة دهشت لمنظر وجهها ، فهي لم
تر قط عينيها في مثل هذا الاتساع وهذا السواد وهذا العمق ، وقد انساب
على شخصها شيء غامض غيرا تغييراً تاماً .

وكانت تكرر : « ان لي عشيقاً ! عشيقاً » . وهي تتلذذ بهذه
الفكرة ، وكأنها فورة مراهقة قد عادت اليها ، فهي سوف تمتلك اذن
لذات الحب وحمى السعادة التي كانت قد ينست منها . ودخلت في جو
عجيب انقلب فيه كل شيء الى انفعال وهيام وهذيان ، وهي تسبح في
محيط مترام ضارب الى الزرقة . وقم الاحساس تبرق امام خاطرها . اما
الحياة العادية فلم تعد تلوح امامها الا عن بعد ... وفي اسفل ... في
الظلال بين هذه القمم .

وعندئذ تذكرت بطلات الكتب التي قرأتها وأخذت تلك الكتيبة الشعرية
من النساء الزانيات يفنن في ذاكرتها بأصوات اخوات سحرتها . فقد
اصبحت هي نفسها جزءاً حقيقياً من تلك الخيالات ، وقد حققت حلم

شبابها الطويل وهي تتأمل نفسها في ذلك النوع من العاشقات الذي طالما تلهفت إليه ! وفوق ذلك أحست إيما بنوع من الرضا للانتقام . فهي قد قاست الكثير ، لكنها قد انتصرت الآن والحب الذي كبتته طويلاً قد اخذ يتفجر بعنفوانه الكامل كفقاقيع مرحة ، وأخذت تتذوقه من غير ندم ولا قلق ولا اضطراب .

ومر اليوم التالي في عذوبة جديدة ، فتبادلا العهود وقصت عليه احزانها . وكان رودولف يقاطعها بقبلاته وكانت تطلب اليه وهي تتأمله بعينها المغمضتين نصف اغماضة بأن يدعوها ثانية بأسمها ، وأن يكرر انه يحبها . وكانا في الغابة كالיום السابق تحت خصاص للفلاحين كانت جذرانه من القش وسقفه منخفضاً بحيث يقف فيه الانسان متمنياً وقد جلسا احدهما الى جوار الآخر على فراش من الاوراق الجافة .

ومنذ ذلك اليوم اخذا يتراسلان بانتظام كل مساء . وكانت إيما تحمل خطابها الى طرف الحديقة بجوار النهر وتضعه في شق من السياج ، حيث كان رودولف يأتي ليأخذه ويضع مكانه خطاباً آخر ، وكانت إيما تشكو دائماً من ايجازه .

وذات صباح - وكان شارل قد خرج قبل الفجر - أخذتها تزوة في ان ترى رودولف فوراً . وكان من الممكن ان تصل الى لاهوشيت سريعاً وأن تبقى هناك ساعة ثم تعود الى ايونفيل بينما لا يزال جميع الناس نائمين . فأسالت هذه الفكرة لعابها ، واذا بها وسط المراعي تسير بخطى سريعة دون ان تنظر خلفها .

وكان النهار قد اخذ ييزغ فعرفت إيما عن بعد منزل عشيقها حيث كانت دوارتا الريح المنصوبتان فوقه والمصنوعتان على شكل ذيل السنونو قد اخذتا تتحددان سوداوين فوق الغسق الشاحب .

وبعد جرن المزرعة كان يقوم ببناء لا بد أنه القصر ، فدخلته ، وكان الجدران قد انشقت من تلقاء نفسها لمقدمها . وقادها سلم كبير

الى الدهليز ، وأدارت مزلاج باب ، فاذا بها تلمح فجأة في نهاية الغرفة رجلاً نائماً . لقد كان رودولف وأطلقت صيحة .

فقال : « ها انت ذي ! ها انت ذي ! كيف حضرت ؟ آه ! لقد تبلل ثوبك ! »

فأجابت وهي تطوق رقبتة بذراعها : « اني احبك ! »
ولما كانت هذه الفعلة الجريئة الأولى قد نجحت ، ففي كل مرة يخرج فيها شارل مبكراً كانت ايما ترتدي ملابسها مسرعة وتنزل في خطوة الذئب - الدرج الذي يؤدي الى شاطئ الماء .

لكنها عندما كانت تجد معبر البقر الخشبي مرفوعاً ، كانت تضطر الى ان تسير في محاذة الجدران الممتدة على طول النهر .

ولما كان الشاطئ زلقاً ، فانها كانت تمسك بيديها شجيرات القرطم الذابلة لكي لا تسقط . ثم كانت تصير الطريق بالسير في الحقول المحروثة حيث كانت تغور وتتمتع ويفوض حذاؤها الزفيف . وكان خمارها المعقود فوق رأسها يهتز في الريح وسط الأعشاب ، وكانت تخاف من البقر فتأخذ في العدو ، وتصل لاهثة وردية الخدين وقد انبعث من وجودها كله عند عطر تضر من الحضرة والهواء الطلق ، ويكون رودولف لا يزال نائماً فكانت كصباح يوم ربيع يدخل في غرفته !

وكانت الستائر الصفراء على طول النوافذ ترسل في رفق شعاعاً ذهبياً ثقيلاً ينفذ الى الغرفة ، وكانت ايما تتحسس ما امامها ، وعيناها تحتلجان ، بينما قطرات الندى المعلقة بخصلات شعرها تلوح كهالة من الزبرجد حول وجهها ، ورودولف يجذبها نحوه وهو يضحك ، ويضمها الى قلبه .

وبعد ذلك كانت تفحص البيت وتفتح أدراج الأثاث وتمشط شعرها بمشطه وتنظر في مرآته ، وكثيراً ما كانت تضع بين اسنانها مبسم غليون ضخمة تجده على منضدة السرير ، وسط الليمون وقطع السكر الى جوار دورق ماء .

(ولم يكن يكفيها ربع ساعة للوداع) وعندئذ كانت إما تبكي وتود
ان لا تفارق رودولف قط لقد . كانت مدفوعة نحوه بشيء اقوي . إنه قطب
وجهه يوماً متضابقاً عندما رآها تفاجئه بالمجيء .

فقال . « ما بك اذن ؟ هل انت مريض ؟ قل لي ! » .
وأخيراً اعلن في نفحة جادة ان هذه الزيارات أصبحت مجازفة وأنها
تورط نفسها !

* * *

شيئاً فشيئاً اخذت مخاوف رودولف تتغلب عليها . ففي اول الأمر كان
الحب قد أثملها فلم تكن تفكر في شيء سواه . اما الآن وقد اصبح
شيئاً ضرورياً لحياتها فانها صارت تخشى ان تفقد منه شيئاً ، او ان يعكر
صفوه معكر . وأثناء عودتها من عنده كانت تلقي على كل ما حولها
نظرات قلقة فترقب كل شبح يمر بالأفق ، وكل كوة بالقربة يمكن ان
يراها منها احد ، وكانت تنصت لوقع الأقدام وللصيحات ، ولضوضاء
المحاريث ، وكانت تقف احياناً شاحبة مرتعدة اكثر من اوراق الحور
التي تهتز فوق رأسها .

وبينما كانت عائدة على هذا النحو ذات صباح ، اذا بها تتبين فجأة
ماسورة بندقية كبيرة لاح أنها موجهة الى خدها ، وكانت هذه الماسورة
تبرز بميل فوق حافة برميل صغير ، غاص نصفه بين الأعشاب ، على
حافة حفرة . وبالرغم من ان إما كانت على وشك الاغماء من الخوف ،
فانها تقدمت ، وخرج رجل من البرميل ، كتلك العفاريت ذات اللوالب
التي تقفز من قاع الصناديق ، وكان يرتدي حذاء طويلاً ذا اقفال يصعد
حتى ركبته ، وقلنسوة مكبوسة حتى عينيه ، شفناه ترتعدان وأنفه احمر ...
لقد كان القائد بينه متربصاً للبط البري !!

وصاح قائلاً : « كان يجب ان تتكلمي عن بعد . وعندما يرى

الانسان بندقيته يجب دائماً ان ينبه !

وكان المحصل يحاول بهذا ان يخفي الخوف الذي استشعره ، وذلك لأن قراراً من المديرية كان يحظر صيد البط الا في القارب . وبالرغم من احترام السيد بينيه للقوانين ، الا انه كان متلبساً بمخالفتها . ولذلك كان يظن في كل لحظة انه يسمع الخفير قادماً . لكن هذا القلق كان يثير لذته ، وكان يزهو وحيداً في الريميل بسعادته ودهائه !!
وعندما رأى ايما لاح انه يتنفس الصعداء فأخذ لفروره يتجاذب معها
الحديث :

- ان الجلو ليس دافئاً - انه قارس !

ولم ترد ايما بشيء فاستمر يقول :

- وها انت قد خرجت مبكرة ؟

فقلت متممة : نعم . اني قادمة من عند مرضعة طفلي !

- آه . حسن جداً ! حسن جداً ! وأما أنا فنزد مطلع الفجر تربييني

هنا في هذه الهيئة والجلو من الرداءة بحيث اذا لم يأخذ الانسان أهيته
كاملة ...

فقاطعت ايما وهي توليه ظهرها قائلة : « مرحباً يا سيد بينيه ! »

فأجاب بنفحة جافة : « خادمك المطيع يا سيدتي ! »

ثم انسحب الى برميله .

وندمت ايما لأنها غادرت المحصل فجأة على هذا النحو . فهو بلا ريب سوف يفترض فروضاً غير سارة ، وكانت حكاية المرضعة اردأ اعتذار ، ذلك لأن جميع الناس في ايونفيل كانوا يعلمون جيداً ان الطفلة بوفاري كانت قد عادت الى اهلها منذ عام . وذلك فضلاً عن ان احداً لم يكن يسكن في تلك الناحية . وهذا الطريق لم يكن يؤدي الا الى لاهوشيت . واذن فلا بد ان بينيه قد حدس من اين كانت قادمة . وهو لن يسكت بل سوف يثرثر بكل تأكيد . وظلت تعصر ذهنها حتى

المساء في كافة مشروعات الكذب التي يمكن تصورها ، وقد ظل ماثلاً امام عينها باستمرار ذلك المغفل ذو المخلاة !
ولما رأها شارل بعد العشاء مهمومة اراد ان يسليها بأن يأخذها عند الصيدلي . وكان اول شخص لمحته في الصيدلية هو المحصل ثانياً ، كان واقفاً امام البنك وقد انصب عليه الضوء من خلال الأتاء الاحمر وهو يقول :

— اعطني من فضلك نصف أوقية من ماء النار .

فصاح الصيدلي : « يا جويستان اعطنا حامض الكبريتيك » .
ثم قال لايمبا التي كانت تريد ان تصعد الى جناح مدام هوميه :
« لا . أبقني لا تعبي نفسك فانها ستنزل . أدفني نفسك على المدفأة الى ان تنزل ... معذرة . مرحباً يا دكتور » وكان الصيدلي يحلو له كثيراً ان يفوه بلفظة الدكتور ، وكأنه عندما يوجهها الى غيره يتوقع ان ينعكس على شخصه شيء مما يراه فيها من فخامة !! « ولكن احذر من ان تقلب الهاون ! ومن الأفضل ان تذهب الى الصالة الصغيرة لتحضر المقاعد ، فأنت تعلم جيداً اننا لا نمس فوتيات الصالون !! » .

اسرع هوميه خارج البنك لكي يضع الفول في مكانه وعندما طلب منه بينيه نصف اوقية من حامض السكر ، قال الصيدلي في ترفع : حامض السكر ؟ انني لا اعرف شيئاً كهذا — لا علم لي به ! ربما تريد ان تقول حامض الاوكزاليك ؟ أليست اوكزاليك هي الكلمة التي تقصدها ؟
وأوضح بينيه أنه في حاجة الى مادة كاوية لكي يركب بنفسه محلولاً من ماء النحاس يزيل به الصدأ عن عدد من ادوات الصيد . (فانتفضت ايما ، وقال الصيدلي : حقاً ان الجو غير ملائم بسبب الرطوبة !)
فقال المحصل بنجيب : « ومع ذلك فانه يلائم بعض الاشخاص !
فاختنقت !

وقال بينيه : « اعطني ايضاً ... »

فقلت لنفسها : « الظاهر انه لن يرحل ابدأ ! »
– نصف اوقية من الغراء والبرابنتينة واربع اوقيات من الشمع الاصفر ،
وثلاثة ارباع اوقية من فحم الحيوان ، من فضلك لتنظيف الجلد المصقول
في أدواتي . »

وابتدأ الصيدلي في تقطيع الشمع عندما ظهرت مدام هوميه ، وارما
في ذراعها ونابليون الى جوارها وأتالي من خلفها ، وانجهدت لتجلس
على اريكة المخمل الى جوار الدافذة . وقبع الطفل في مقعد ، بينما اخذت
اخته الكبيرة تحوم حول صندوق « الريسوس » الى جوار والدها العزيز ،
الذي كان يسكب السوائل في اقماع ، ويسد الزجاجات وياصق البطاقات
وياف اللفافات ! وكان الصمت مخمياً حوله فلم يكن شيء يسمع غير وقع
الصنج في الميزان من وقت لآخر ، وبعض عبارات يهمس بها الصيدلي
الى تلميذه كارشادات .

وفجأة سألت مدام هوميه : « وكيف حال طفلتكم الصغيرة ؟
فصاح زوجها الذي كان يكتب ارقاماً في دفتر السودات : هس !
فاستأنفت بصوت خافت : « لماذا لم تحضروها ؟ » فقالت ايما وهي
تشير باصبعها الى الصيدلي : هس ! هس ! »

ولكن بينيه الذي كان منهمكاً بمراجعة الحساب لم يسمع شيئاً فيما
يبدو . ثم خرج اخيراً . فتخلصت ايما وتنفست الصعداء !
وقالت مدام هوميه : انك تتنفسين تنفساً عميقاً ! « .
فأجابت : آه . ذلك لأن الجو حار .

وحرصت ايما ورودولف في اليوم التالي على تنظيم مقابلاتهما .
وأرادت ايما ان ترشو خادماتها هدية . وان كانت تفضل لوعثرا في
ايونفيل علي بيت منزو . ووعد رودولف بالبحث عنه .

وخلال الشتاء كان يأتي الى الحديقة في ظلام الليل ثلاث أو اربع
مرات كل اسبوع . وقد عمدت ايما الى ان تنزع من باب السياج

المفتاح الذي ظن شارل انه قد فقد .
ولكي يعلنها بوصوله كان رودولف يقذف خشب النافذة بحفنة من
الرمل فتنهض قافزة . وان كان يضطر أحياناً الى الانتظار . وذلك لأن
شارل كان مولعاً بالثرثرة الى جوار النار ، ولم تكن ثرثرته تنتهي .
وكانت الهمفة تفتك بها ، ولو أن عيناها استطاعتا لقفنا به من
النافذة . وأخيراً كانت تلبس ملابس النوم ثم تأخذ كتاباً وتستمر في
القراءة في هدوء ، كأنها مسرورة بهذه القراءة . ولكن شارل الراقد
في السرير كان يدعوها لكي تنام قائلاً : « ايما ، تعالي لقد حان
الوقت ! » .

فتجيب : نعم ، « اني قادمة ! »
ومع ذلك فلما كانت الشموع تعشى بصره فانه كان يستدير نحو
الحائط ويغلبه النعاس ، فتلفت حابسة أنفاسها، مبتسمة ، نابضة عارية!
وكان لرودولف معطف كبير يلفها فيه بأكملها ويطوق خصرها بذراعه
ثم يقودها في صمت حتى نهاية الحديقة .
كان يأخذها تحت العريشة على نفس المقعد المصنوع من الأعواد
المتعفة حيث كان ليون ينظر اليها في الماضي بعين وهانة خلال أمسيات
الصيف ... لكنها لم تعد تفكر فيه الان قط !

وكانت النجوم ت برق من خلال أغصان الياسمين العارية عن الورق ،
وكانا يسمعان من خلفها خريير مياه النهر . ومن وقت الى آخر قرقرة
البوحي الجاف على الشاطئ . وهنا وهناك كانت تنتفخ كتل من الظلال
وسط الظلام ، وتهتز كلها احياناً بحركة واحدة ، وتنهض ثم تنحني
كأمواج صخمة سوداء ، تتقدم لكي تغطيها . وكان يبرد الليل بحملها
على تشديد العناق ، وتنهديات شفيتها تلوح لها اكثر قوة ، وعيناها اللتان
لا تكادان يتبينانها تلوحان اكثر اتساعاً . وفي وسط الصمت كانا يتهامسان

بعبارات تسقط على روحيهما كرنين البلور ، وتتردد عنها ذبذبات عديدة متكاثرة .

وفي الليالي المطيرة كانا يلجآن الى غرفة الفحص بين المخزن والحظيرة . وكانت توقد احد مشاعل المطبخ وقد خبأته خلف الكتب . وكان رودولف يتربع هناك كأنه في بيته ، ومنظر المكتبة والمكتب ، والمكان كله يثير مرحة . ولم يكن يستطيع ان يمسك عن ان يطلق على شارل عدة نكات تخرج ايما التي كانت تود أن لو رأته اكثر جداً ، بل واكثر انقبالاً عندما تستدعي المناسبة ، كما حدث عندما خيل اليها انها تسمع وقع اقدام تقرب .

فقلت : ان احداً قادم .

فاطفاً النور .

— هل لديك مسدسك ؟

— لماذا ؟

فأجابت ايما : لماذا ... لكي تحمي نفسك .

— أحميها من زوجك ؟ آه ! هذا المسكين !!

وأنهى رودولف عبارته بحركة تفيد انه « يستطيع ان يسحقه بنفضة ظفر » .

فأذهلتها شجاعته ، وان تكن قد احست بنوع من الغلظة والسماجة الساذجة التي استهجنتها .

وفكر رودولف كثيراً في حكاية المسدس ، وظن انها كانت جادة في هذه الحكاية . فهي اذن مضحكة الى اقصى حد ، بل شنيعة ! وذلك لأنه لم يكن لديه أي سبب يبغض من أجله هذا الرجل الطيب شارل والا كان معنى هذا انه يلتهب ضده غيرة . وكانت ايما قد حدثته في هذا الصدد حديثاً طويلاً لم يَرَ فيه ذوقاً سليماً .

ثم انها اصيحت عاطفية . وكانا قد تبادلنا صوراً مصغرة خصلات

من الشعر كتذكار ، لكنها أخذت تطلب الآن خاتماً - خاتم زواج حقيقي شعاراً للارتباط الأبدي وكثيراً ما كانت تحدّثه عن اجراس المساء ، او عن اصوات الطبيعة ، ثم تحدّثه عن امها وعن امه التي كان رودولف قد فقدوها منذ عشرين عاماً . ومع ذلك فقد كانت ايما تعزبه عنها في عبارات تافهة ، كتلك التي توجه الى طفل محروم ، بل وكانت تقول له احياناً وهي تنظر الى القمر : « اني واثقة من انهما تباركان في عليائها حبنا !! »

لكنها كانت رائعة الجمال . ولم يكن قد عثر الا على القليل من هذا الصفاء . فهذا الحب الخالي من التهتك كان بالنسبة اليه شيئاً جديداً أخرجه من استهتاره المألوف ، وأخذ يداعب كبرياءه ولذته الحسية على السواء . «واندفاع» ايما ذلك الاندفاع الذي كان يحترقه بحسه البرجوازي أخذ يبدو له ساهماً في اعماق قلبه ما دام موجهاً الى شخصه . ومنذ ان استوثق من حبها فتر اهتمامه وأخذت معاملته تتغير في تدرج غير محسوس . - فلم تعد تصدر عنه - كما كان يفعل من قبل - مثل تلك الكلمات العذبة التي تسيل دموعها ولا مثل تلك القبلات الحارة التي تحس بها جنوناً حتى خيل اليها ان حبها العظيم الذي غاصت فيه قد أخذ يغيض من تحتها ، كمياه النهر التي تغيض في مجراه حتى تكشف لها الوحل ! ولم ترد ان تصدق ، فضاغت من حنانها ، لكن رودولف اخذ يتحلل شيئاً فشيئاً من اخفاء عدم مبالاته ، يقلل شيئاً فشيئاً من حرصه على اخفاء فتوره .

ولم تدر هل تندم لاستسلامها له ، ام على العكس تأمل في ان تزيده حباً ، وهل ينقلب الصغار الذي أحسته - لضعفها - الى حقد لا تطفئ نارها اللذات ؟ ولم يكن الأمر تعلقاً بل غواية مستمرة ، فقد سيطر عليها ، وأصبحت تحس نحوه بما يشبه الخوف . ومع ذلك فقد كانت المظاهر اكثر هدوءاً من أي وقت مضى . وقد

استطاع رودولف ان يقود الآئمة وفق هواه . وبعد ستة اشهر عندما جاء الربيع ، كان احدهما كزوج وزوجة ازاء الآخر يتعهدان في هدوء لهب الاسرة !

وكان هذا هو الموعد الذي يرسل فيه الاب رود الديك الرومي ، تذكراً لساقه التي جبرت . وكانت الهدية تصل مصحوبة بخطاب ، فقطعت اما الحبل الذي يعلقه بالسلة ، وقرأت الأسطر الآتية :

« أبنائي الاعزاء

« اني لأرجو ان يجدمكم خطابي هذا في صحة جيدة ، وان يكون هذا الديك في جودة سابقه ، وذلك لانه يلوح لي اكثر ضراوة ، واجرؤ ان اقول اكبر حجماً . ولكنني في المرة القادمة سأعطيكم - للتغيير- ديكاً من الدجاج وذلك ما لم تكونوا تفضلون السمك . وأرجو ان تعيدوا السلة مع السلتين السابقتين ! ولقد حدثت حادثة عندي لمظلة العربات ، اذ طارت. ريح عاتية بسقفها وسط الاشجار ، كما ان المحصول لم يكن مفرط الجودة ! واخيراً لست ادري متى سأحضر لرؤيتكم فمن الصعب علي ان اترك الآن المنزل ، منذ ان اصبحت وحيداً يا بنيتي العزيزة . وكانت في هذا الموضع فجوة بين السطور وكأن الرجف قد ترك القلم يسقط من يده لكي يسبح في احلامه بعض الوقت .

« واما عن نفسي فاني بخير ، فيما عدا الزكام الذي اصبته به منذ ايام في سوق ايفيتو ، حيث ذهبت لكي استحضر راعياً للغنم ، بعد ان طردت الراعي الذي كان عندي بسبب شراسته . ويا ويلنا من هؤلاء اللصوص امثال ذلك الراعي .

« ولقد علمت من تاجر متجول مر ببلدكم هذا الشتاء ، واقتاع ضرساً ، ان بوفاري يجهد دائماً نفسه في العمل . وليس في هذا ما يدهشني . ولقد اراني ضرسه وتناولنا القهوة سوياً .. وقد سألته عما اذا كان قد رآك فأجاب بالنفي لكنه اخبرني انه قد رأى حصانين في الحظيرة

فاستتجت ان العمل يسير سيراً مرضياً وفي هذا ما تطيب له نفسي يا
ابنائي الاعزاء ، وليضيف الله عليكما كل سعادة يمكن تصورها .

« وانه لما يحزنني أن لا اعرف حتى الآن حفيدتي العزيزة برت
بوفاري . ولقد غرست في الحديقة ونحت النافذة من اجلها شجرة برقوق،
ولا اريد ان يمساها احد اللهم الا لكي يظهر لها فيما بعد كومبوت واحفظه
لها في الصوان عندما تحضر !

« وداعاً ابنائي الاعزاء ، واقبلك يا ابني كما أقبل صهري والطفلة
على الوجنتين .

« وانني مع تحياتي .

ابوكم الخنون

تيودور رود »

وظلت بضع دقائق ممسكة بين اصابعها بهذه الورقة السميقة . وكانت
أخطاء الاملاء آخذة بعضها برقاب بعض . وكانت ايما تتابع تلك الروح
العذبة التي تتفنى خلالها ، كالزجاجة المتوارية تحت كومة من الشوك !
كانوا قد جففوا الكتابة برماد النار فتساقط بعض الغبار الرمادي من الخطاب
فوق ثوبها . وكادت تصور اباه منحنياً فوق المدفأة لكي يتناول الملقط .
وأخذت تفكر في الزمن الطويل الذي لم تعد تجلس فيه الى جواره فوق
المقعد المنخفض حول المدفأة وهي تشعل طرف عصا في لهب البوص
البحري الذي يتر وتذكرت أمسيات الصيف المشمسة والمهر تصهل عندما
يمر احد ، وتعدو ثم تعدو - وكانت هناك تحت نافذتها خلية عسل ،
وكان النحل يحوم احياناً في الضوء ويصطف بألواح الزجاج ككرات
ذهبية تتفاخر ... أبة سعادة كانت في تلك الأيام ! وأية حرية ! وأي
أمل ! واي فيض من الاحلام ! كل هذا لم يبق منه شيء الآن !
لقد انفقته في مغامرات روحها خلال مراحل حياتها المتتابعة : ايام
عذريتها وايام الزواج ، وايام الحب ، وهي تفقدها باستمرار على طول

حياتها ، كالمسافر الذي يترك شيئاً من ثروته في كل فندق من فنادق الطريق !

ولكن ، من الذي تسبب لها في كل هذه التعاسة ؟ وأية كارثة خارقة تلك التي قلبت حياتها ؟ ... ثم رفعت رأسها ، وأخذت تنظر حولها ، وكأنها تبحث عن السبب الذي نتج عنه هذا الشقاء .

وكان شعاع من شمس ابريل يداعب الاواني الصدئة فوق الرف ، والنار تتقد . وأحست رقة السجاد تحت خفها . وكان اليوم مشرقاً ، والجو فاتراً ، وسمعت طفلتها ترسل الضحكات .

لقد كانت الطفلة تندرج فوق العشب وسط الحشائش التي كانوا يجفونها . وكانت مستلقية علي بطنها فوق حجر طاحون ، وخدمتها تمسكها من ثوبها . وكان ليسيتيودوا يمزق الارض الى جوارها . وكلما اقترب انحنى ، وهي تضرب الهواء بكلثا ذراعها .

وقالت الأم وهي نهول لتقبلها ؟ « احضرها لى ! » كم احبك ايتها الطفلة المسكينة ! ... كم احبك ! »

ثم لمحت ان طرف أذنها به بعض الوسخ . فدفقت الجرس بسرعة لكي يحضروا لها الماء الساخن ونظفتها ، وغبرت ملابسها وجوربها وحذاءها ، وألقت آلاف الاسئلة عن صحتها ، وكأنها عائدة من رحلة . واخيراً قبلتها ثانية ، وبكت قليلاً ، ثم ردتها بين ايدي الخادمة التي ظلت مندهشة من ذلك الحنان المفرط !

وفي المساء وجدها رودولف نجادة اكثر من المعتاد .

فقد ر انها نزوة سوف تمر .

وتغيب عن ثلاثة مواعيد متتالية . وعندما عاد تظاهرت بالبرود، بل وبالاحتقار .

— آه ! انك تضيعين وقتك يا صغيرتي ... »

ولاح انه لا يلاحظ تنهداتها الحزينة ، ولا المنديل الذي كانت تشده ...

وعندئذ استشعرت ايما الزم !
بل وتساءلت لماذا اذن تبغض شارل؟ ألم يكن من الافضل ان تستطيع حبه . لكنها لم تستجب لسלטان هذا الاحساس ، بل ظلت بالغة الحيرة ازاء هذا الدافع الضعيف نحو التضحية ، حتى أتى الصيدلي في الوقت المناسب لكي يتيح لها فرصته .

• • •

كان قد اطلع اخيراً على تقريرط لطريقة جديدة لعلاج الاقدام الشوهاء. ولما كان من انصار التقدم ، فقد خطرت له تلك الفكرة الوطنية التي ترتفع بايونفيل الى المستوى اللائق بها ، وهي ان تجري فيها عمليات اصلاح جراحة العظام !!

وقال لايمّا : «وأي خطر في ذلك ؟ .. لنفحص الامر !» ثم اخذ يعدد على اصابعه مزايا هذا المشروع : « نجاح مؤكد تقريباً، تخفيف عن المرضى وتجميلهم ، وشهرة سريعة للجراح !... ولماذا لا يريد زوجك مثلاً ان يخلص هذا المسكين هيوليت خادم « الأسد الذهبي » ؟ ولتلاحظي انه لن يحجم عن ان يقص قصة شفائه على جميع النزلاء !» ثم خفض هومين من صوته ونظر حوله وقال : « ثم ما الذي يعني اذن من ان أرسل الى الجريدة نبذة صغيرة في هذا الصدد ؟ ! .»

وسيتشر المقال ويتحدث عنه الناس ، حتى ينتهي الامر بالتضخم ككرة الجليد . ومن يدري ؟ ! .. من يدري ؟ !

والواقع انه كان من الممكن لبوفاري ان ينجح . ولم يكن هناك شيء يثبت لايمّا انه غير ماهر . واي رضى عن نفسها ستصيبه اذا دفعته نحو هذا المشروع الذي سيزيد من شهرته وثروته . ولم تكن تبغي الا ان

تستند الى شيء اكثر صلابة من الحب .

وألت هي والصيدلي على شارل فاقتنع . واستحضر من روان مجلد الدكتور ديفال . وفي كل مساء كان يأخذ رأسه بين يديه ثم يغوص في هذه القراءة .

وبينما كان يدرس اعوجاج القدم من اسفل ومن الداخل ومن الخارج أي ما يسمى ب : ستريفوكا توبول يا وستريفندوبوديا وستريفكسوبوديا ، مع العمليات المسماة ستريفيوديا اي الاعوجاج الى اسفل ، والتصحيح الى اعلى ، كان السيد هوميه بحث خادم الفندق بكافة الحجج لكي يطلب اجراء العملية الجراحية ، قائلاً : انك لن تكاد تحس شيئاً - ربماً أماً خفيفاً ... وخزة بسيطة كعملية فصد صغيرة ، وأهون من انتزاع « كالو » !

وكان هيوليت يدور بعينين البلهاوين وهو يفكر .

ويضيف الصيدلي : « وعلى أية حال فان هذا لا يعنيني ، وانما هو في مصلحتك ، وبدافع انساني خالص ، وانما أريد ان أراك يا بني وقد تخلصت من هذا العرج القبيح ، واهتزاز حقوبك مما لا بد - مهاقلت ان يسيء اليك اثناء تأدية عملك ! »

ثم صور له هوميه كيف انه سوف يحس بعد العملية بأنه اكثر قوة ونشاطاً ، بل ولمح له بأنه سيصبح في حالة أدعى الى الاستحواذ على اعجاب النساء ! فأخذ الخادم يتبسم ابتسامة ثقيلة ، ثم اخذ هوميه يتملق غروره فقال : أولست رجلاً ؟ وماذا كنت فاعلاً لو انك جندت لتجارب في ظل العلم ؟ ... آه ! هيوليت ! ...

ثم أخذ هوميه يبتعد وهو يصرح بأنه لا يفهم هذا العناد وهذا التعامي عن افضال العلم !

واستسلم المسكين ! وذلك لأن الأمر كان كمؤامرة . فبينه الذي لم يكن قط يتدخل في امور الآخرين ، ومدام فرانسوا ، وأرتميس ، بل

والعمدة ، والسيد يتفاسق وجميع الناس اخذوا يدفعونه ويلحون عليه ويخجلونه ، وكان في مجانية العملية ما انتهى به الى اتخاذ قرار بل وتعهد بوفاري بأن يقدم الآلة اللازمة للعملية . وقد كانت ايمًا صاحبة فكرة هذا السخاء ، الذي وافق عليه شارل ، وهو يردد في اعماق نفسه ان زوجته ملاك !

وبعد محاولات ثلاث ومع ارشادات الصيدلي استطاع النجار بمساعدة الحداد ان يصنع شيئاً يشبه الصندوق وزنه ثمانية ارباط تقريباً لم ينقصه شيء من الحديد والخشب والقماش والجلد والمسامير اللولبية . ومع ذلك فلكي يعرف اي عضل سيقطعه هيوليت ، كان لابد من ان يعرف اولاً اي نوع من العرج كان في قدمه .

لقد كان قدمه يكون مع ساقه خطأً مستقيماً تقريباً ، وان لم يمنعه ذلك من ان يكون ملتويًا في الداخل ، بمعنى انه كان مصاباً باعوجاج من اسفل ممزوجاً بشيء من الاعوجاج الداخلي ، او كان مصاباً بقليل من الاعوجاج الداخلي مع اصابة شديدة باعوجاج سفلي . لكنه مع هذا الاعوجاج السفلي الكبير الذي يشبه قدم حصان بجلد سميك ، وعضلات جافة واصابع سميكة ، واطافر سوداء تشبه مسامير الحديد فان هذا الاعرج كان يجري منذ الصباح حتى المساء ويعدو كالوعل .

فكنت تراه دائماً في الميدان يقفز حول العربات ملقياً الى الامام بثقله غير المتوازن بل كان يلوح انه اقوى بهذه الساق منه بالساق الاخرى ولكثرة ما اشتغلت كان يلوح بأنها قد اكتسبت صفات اخلاقية من الصبر والنشاط . وعندما كان يكلف بعمل ضخم كان يفضل ان يرتكز فوقها .

ولما كان مصاباً باعوجاج سفلي فقد كان من الواجب قطع عضلة « اضيل » ، على ان يقطع فيما بعد عضل داخلي في الساق لكي يتخلص من الاعوجاج الداخلي ، وذلك لأن الطبيب لم يكن يجرؤ ان يجازف

بعمليتين في نفس الوقت ، بل وكان يرتعد خوفاً من ان يمس موضعاً هاماً لا يعرفه .

ان امبرواز باربه الذي اجري لاول مرة بعد جليز وبعد مضي خمسة عشر قرناً عملية ربط الشريان ربطاً مباشراً ، وديويوترين الذي فتح دملاً في طبقة كثيفة من المخ وجوزري عندما قام بأول عملية لاستئصال الفك الاعلى - كل هؤلاء لم يخفق قلبهم ولم ترتعد يدهم ولم يتوتر عقلهم كما حدث للسيد بوفاري ، عندما اقترب من هيوليت ممسكاً بمبضع العضلات بين اصابعه ! وكما يحدث في المستشفيات كنت ترى هناك على مائدة جانبية كومة من نسالة قماش وخيطاً مشعماً وكثيراً من الضمادات ... هرماً من الضمادات .. كل ما كان عند الصيدي من ضمادات !! وكان السيد هوميه هو الذي نظم منذ الصباح كل هذه المعدات (وذلك لكي يبهز الجمهور ، ثم لكي يرضي غروره) وشق شارل الجلد فسمعت قرععة جافة ، وقطع العضل وانتهت العملية ، ولم تنته دهشة هيوليت ، الذي انحنى على يد بوفاري وأخذ يغطيها بالقبلات .

وقال الصيدي : « هيا .. الزم الهدوء وسوف تعترف فيما بعد بالفضل لمن احسن اليك » .

ونزل لكي يقص النتيجة على خمسة او ستة من الفضوليين الذين كانوا يرابطون في صحن الدار ، والذين كانوا يتصورون ان هيوليت سيظهر ماشياً مشية مستقيمة . وبعد ان وضع شارل ساق مريضه في المحرك الميكانيكي عاد الى منزله حيث كانت ابما تنتظره على الباب في لهفة ، فقفزت الى عنقه ، وجلسا على المائدة ، وأكل كثيراً ، بل وأراد ان يتناول مع الحلوى فنجاناً من القهوة ، وهذا نوع من البذخ لم يكن يسمح لنفسه به الا في يوم الأحد عندما يكون لديه ضيوف .

وكانت الامسية ساحرة مليئة بالاحاديث والاحلام المشتركة . فقد تحدثنا عن ثروتها المقبلة وعن التحسينات التي سيدخلها في منزلها وأخذ هو

يرى صيته يذيع ورخاءه يزداد ، وزوجته تحبه دائماً وأخذت هي تحس بنفسها سعيدة ومحباتها تنتعش باحساس جديد أكثر سلامة وخيراً كما اخذت تستشعر شيئاً من الحنان نحو هذا الرجل المسكين الذي يحبها . ومرت بنظرها لحظة صورة رودولف ، ولكن عينيها انصرفتا الى شارل . بل ولاحظت في دهشة ان اسنانه لم تكن قبيحة .

وكانا في السرير عندما دخل السيد هوميه فجأة الى الغرفة ، بالرغم من الطباخة وفي يده ورقة لم يحف مدادها بعد ، هي اعلان اعده لجريدة فانال دي روان ، وقد حملة اليها ليقرأه .

وقال بوفاري : اقرأه انت .

فقرأ « بالرغم من الآراء الرجعية التي لا تزال تغطي جزءاً من سطح اوروبا كالشبكة ، فان الضوء قد اخذ مع ذلك يتغلغل في ريفنا . ففي يوم الثلاثاء كانت مدينتنا الصغيرة ايونفيل مسرحاً لتجربة جراحية تعتبر في نفس الوقت من اعمال البر ، وذلك ان السيد بوفاري احد جراحينا البارزين ... »

وقال شارل وقد خنقه الانفعال : « آه . هذا كثير . . ابدأ .. ابدأ .. كيف هذا ؟ .. » قد اجري عملية في قدم اعرج .. اني لم اضع الاصطلاح العلمي وذلك لأنه في جريدة سيارة كما تعلم .. وقد لا يفهمه الجميع ، ومن الواجب ان الجماهير ... »

وقال بوفاري ، « هذا حق . استمر »

وقال الصيدلي : ها انا اوصل .. « السيد بوفاري احد جراحينا الممتازين قد اجري عملية في ساق اعرج ، للمدعو هيبوليت توتان الذي يعمل منذ خمس وعشرين عاماً خادماً اسطبل في فندق الاسد الذهبي الذي تديره الأرمل مدام لي فرانسوا في ميدان السلاح . وقد كان في جدة هذه المحاولة وفي الاهمية المعلقة على هذا الموضوع ما استحوز على مشاعر السكان ، فاجتمعوا في زحام شديد عند مدخل المبنى . وقد تمت العملية

فما يشبه السحر ، ولم يسلم من الدم غير بضعة نقط على الجلد ، وكأنا سألت لكي تنبئ بأن العضلة الجموح قد انتهت بالاستسلام. لمجهودات الفن. ومن المدهش ان المريض (كما تحققنا بأعيننا) لم يستشعر اي ألم ، وحالته الآن لا تترك مجالاً لمستزيد . وقد تضافرت الدلائل على ان دور النقاهة سيكون قصيراً ومن يدري فلعلنا نشاهد في عيدنا الريفي المقبل فتانا هيبوليت الشجاع ، وهو يرقص في اعياد باخوس وسط جوقة من الفتية المرحين وبذلك يثبت لجميع الأعين بمرحه وخفته شفاءه الكامل ؟ الا فلذبحي علماءنا الاخيار ، تلك الارواح التي لا تمل والتي تكرس لياليتها لتحسين جنسها ، او للتخفيف من آلامه .. فلنجيها ولنحييها اكثر من مرة ، او لسنا في موقف يصح ان نصيح معه ان العميان سيصرون ، والعم سيسمعون والعرجى سيمشون وما كان التعصب الديني يعد به المؤمنين قد اصبح العلم الآن يقدمه لجميع البشر . ولسوف نوافي القراء بالمراحل المتتابعة لهذا العلاج الفذ .

ولكن كل هذا لم يمنع الأم لي فرنسوا من ان تأتي بعد ذلك بخمسة ايام ملتاعة وهي تصبح :

– الغوث .. انه يحتضر ... اني اكاد افقد صوابي ..

وهرول شارل الى الأسد الذهبي .. ولمحه الصيدلي وهو يمر في الميدان بغير قبعة فترك الصيدلية وقد لاح هو نفسه لاهتاً حمراً قلقاً وأخذ يسأل كل اولئك الذين كانوا يصعدون السلم .

– ما الذي اصاب اعرجنا العزيز ؟

لقد كان الاعرج يتلوى في تقلصات بشعة ، حتى ان المحرك الميكانيكي الذي كان قد وضع فيه ساقه كان يصدم الحائط وكأنه سيهدمه .

وفي كثير من الاحتياطات لكي لا يتغير وضع الساق سحبوا الصندوق واذابهم امام منظر بشع . فعالم القدم قد اختفت في ورم بلغ من الضخامة ان الجلد كله لاح على وشك الانفجار ، وقد تغطى بكدمات سببتها

تلك الآلة الشهيرة التي كان هيبوليت قد شكّا من تألمه منها ، ولكن احدآ لم يلتفت اليه وقد اصبح من الواجب الآن ان يعترف بأنه لم يكن مخطئاً كل الخطأ ولذلك تركوه حرأ بضع ساعات ، ولكن لم يكد يخفي الورم قليلاً حتى رأى العالمان الفاضلان انه من الانسب اعادة ساقه الى الجهاز مع زيادة احكامه لكي يسرعوا في الامر . واخيراً لم يستطع هيبوليت الإحتمال بعد ثلاثة ايام ، فسحبوا الآلة مرة ثانية ولاحظوا لشدة دهشتهم النتيجة : وهي ظهور خراج متقيح يمتد على الساق مع بثور هنا وهناك يسيل منها سائل اسود . واتخذت المسألة وضعأ جديأ . فهيبوليت قد اخذ يتضجر ، والام لي فرانسوا قد وضعت في الصالة الصغيرة الى جوار المطبخ وذلك لكي يجد بعض التسلية على الاقل .

ولكن المحصل الذي كان يتناول عشاءه كل يوم هناك اخذ يشكو في مرارة من مثل هذا الجوار ، فنقل هيبوليت عندئذ الى صالة البليار . لقد كان هناك يثن تحت غطائه السميك ، شاحبأ ، مرسل اللحية غائر العينين . ومن وقت الى آخر كان يقلب رأسه الغارق في العرق فوق الوسادة القذرة التي يتساقط عليها الذباب ، وكانت مدام بوفاري تأتي لتعوده وتحمل اليه قطعأ من القماش لعمل اللزقات وكانت تواسيه وتشجعه . وهو فوق ذلك لم يكن يعدم الصحبة ، وبخاصة ايام السوق عندما كان الفلاحون يدفعون من حوله كرات البليار ، ويتبارزون بالمضارب ويدخنون ويشربون ويغنون ويتصايحون .

وكانوا يقولون له وهم يضربون على كتفه : « كيف حالك ؟ آه . انك لست فعوراً فيما يبدو ولكنها غلظتك . يجب ان تفعل هذا وان تفعل ذلك ..

وكانوا يقصون عليه قصص اناس شفوا جميعأ بعلاج آخر غير علاجه . ثم يضيفون على سبيل المواسة : « انك تستسلم الى نفسك كثيراً . انهض اذن . انك تدلل نفسك كأنك ملك . آه وعلى اية حال فان رائحتك

ليست طيبة ايها العفريت .

والواقع أن الغرغرينا كانت تزايد شيئاً فشيئاً ، وكان بوفاري يكاد يفقد بسببها صوابه ، فهو يأتي في كل ساعة ، وهيبوليت ينظر اليه في كل لحظة بعينين مليئتين بالفزع ويتمم وهو ينشج من البكاء .

– « متى سأشفى ؟ .. آه .. انقذني .. يا لي من بائس .. يا لي من بائس » .

وكان الطبيب ينصرف دائماً وهو يوصيه دائماً بالامتناع عن الطعام . وكانت الأم لي فرانسوا تعقب عليه بقولها : « لا تستمع اليه يا بني . كفى ما انزلوا بك من عذاب . انك ستزداد ضعفاً . خذ . ابتلع » . وكانت تقدم اليه بعضاً من الحساء الجيد ، وقطعة من الفخذة ، وقطعة من الدهن ، واحياناً كؤوساً صغيرة من الخمر التي لم يكن يجد الشجاعة ليرفعها الى شفثيه .

وعلم القس بورنيسيان انه يزداد سوءاً ، فطلب ان يراه ، وابتدأ بالثناء لألمه مع الاشارة الى ان عليه ان يبتهج ما دامت تلك ارادة الرب ، وان ينتهز في سرعة هذه الفرصة لكي يتصافى مع السماء . وقال رجل الكنيسة بنغمة ابوية : « ذلك انك كنت تهمل بعض الشيء واجبانك وقلما كنت ترى في الصلاة . وكم من السنين لم تقرب فيها من المائدة المقدسة .

وانا افهم ان تصرفك مشاغلك ودوامه الحياة عن العناية بمخلصك ، ولكن الآن هو الوقت المناسب لكي تفكر في ذلك .. ومع ذلك فلا تيأس ، فقد عرفت مذنبين كباراً عندما احسوا بدنو ساعات مثولهم امام الله – واؤكد لك ان هذه ليست حالتك – اخذوا بتوسلون الى رحمته . ، ومن المؤكد انهم ماتوا في خير حالة . واننا نرجو ان تقدم الينا مثلهم خير الامثلة . وما الذي يمنعك من ان تردد صباحاً ومساءً من باب الاحتياط « اني احبيك يا مريم يا منبع الرحمة » و « ابانا الذي في

السموات » . نعم افعل هذا افعله من اجلي لكي ترضيني وماذا يكلفك هذا ؟.. اتعدني بذلك ؟. »

ووعد المسكين . وعاد القسيس في الايام التالية وكان يتحدث مع صاحبة الفندق بل ويقص حكايات ممزوجة بالنكات والاحاجي التي لم يفهما هيبوليت . وبمجرد ان تسنح الفرصة كان يعود الى مسائل الدين وقد اتخذ وجهه مظهرأ ملائماً .

والظاهر ان حماسه قد اثمرت ، وذلك لأن الاعرج لم يلبث ان ابدى رغبته في الذهاب الى الحج في بون سكور اذا شفي ، وأجاب السيد بورنيسيان على ذلك بأنه لا يرى ضيراً في هذه الرغبة ، وان مضاعفة الحيلة خير ، وليس في الأمر اية مخاطرة .

ولكن الصيدي امتعض مما سماه مناورات القسيس التي تسمى - في رأيه - الى نقاهة هيبوليت . وأخذ يردد على مسامع مدام لي فرانسوا : « اتركه .. اتركه انك تنزلين بروحه الاضطراب بهذه الغيبات » . ولكن السيدة لم تعد تقبل الاستماع اليه لأنه كان السبب في كل شيء . بل ودفعتها روح العناد الى ان تعلق في فراش المريض قنينة من الماء المقدس وغصناً من شجر البقس .

ومع ذلك فلا الدين ولا الجراحة استطاعت ان تسعفه وأخذ التعفن العاتي يتصاعد باستمرار من الاطراف الى البطن ، وعبثا كانوا يستبدلون العقاقير والضمادات - فعضلاته تزداد تفككاً يوماً بعد يوم . وأخيراً اجاب شارل بحركة موافقة من رأسه عندما سأته الأم لي فرانسوا عما اذا كان من الممكن كمالاً اخير ان تستقدم من نيوشاتل السيد كانيفيه الذائع الصيت .

وكان دكتوراً في الطب في الخمسين من عمره يشغل مركزاً طيباً ، وكان واثقاً من نفسه ، ولذلك لم يتحرج كزميل من ان يضحك في ترفع ، عندما اكتشف تلك الساق التي ضربت فيها الفرغرينا حتى الركبة .

وبعد ان صرح في حزم بأنه لا بد من بترها انصرف الى محل الصيدلي حيث اخذ يثرثر ضد اولئك الحيوانات ، الذين انتهوا بهذا الرجل المسكين الى مثل هذه الحالة . وأخذ يهز السيد هوميه من زرار رديجوتيه ويصيح في الصيدلية قائلاً : هذه هي اختراعات باريز . وهذه هي آراء السادة الباريسيين (وذلك مثل الاسترابزم (حول العينين) والكولورفورم والليثورتيا (عملية تفتيت حصوة المثانة) وأمثال هذه البشاعات التي يجب على الحكومة ان تحظرها ولكنهم يريدون اظهار المهارة ، فيحشونك ادوية دون ان يلقوا بالآ الى النتائج . واما نحن فلسنا في مثل قوتهم لاننا لسنا علماء ولا وجهاء ولا متأفين وانما نحن مطببون ومعالجون ولا يخطر لنا بخيال ان نجري عملية جراحية لشخص سليم الصحة ولا ان نصلح اقداماً عرجاء .. وهل من الممكن تسديد اقدام عرجاء ؟ ان هذا يشبه مثلاً محاولة تسديد ظهر احدب .

وكان هوميه ينفخ وهو يستمع الى هذا الحديث . وان اخفى ضيقه بابتسامة مصطنعة لانه كان في حاجة الى ان لا يغضب السيد كاليفيه الذي كانت تذاكر ادويته تصل احياناً حتى ايونفيل ، ولذلك لم يقم بالدفاع عن بوفاري ، بل ولم يبداً ملاحظة ، وتخلي عن مبادئه وضحي بكرامته في سبيل المصالح الجدية لتجارته .

وكان بتر الفخذ بواسطة الدكتور كاليفيه حدثاً جليلاً في القرية . فاستيقظ جميع السكان في ذلك اليوم في ساعة مبكرة . وبالرغم من ان الشارع الرئيسي كان مليئاً بالناس الا انه كان يلوح حزناً كثيراً وكأنهم بازاء تنفيذ حكم بالاعدام فكانوا يتناقشون عند البقال حول مرض هيبوليت والمحلات لا تبيع شيئاً ومدام ديفاش زوجة العمدة لم تتحرك من النافذة بسبب حالة الالتهمة التي كانت فيها في انتظار قدوم الجراح .

ووصل الجراح في عربته التي كان يقودها بنفسه ، ولكن لما كان اللولب الايمن قد انتهى به الامر الى الهبوط تحت ثقل ضخامته ، فان

العربة كانت تميل قليلاً اثناء سيرها وعلى المقعد الآخر كان يرى صندوق كبير مغطى بجلد الحور واقفاله النحاسية الثلاثة تلمع في فخامة .

وبعد ان دخل الطيب كالأعصار تحت باب « الاسد الذهبي » صاح بأعلى صوته آمراً ان يحل حصانه . ثم ذهب الى الحظيرة ليتأكد من انه يأكل الشوفان جيداً . فقد كان يهتم عند وصوله لدى مرضاه بمهرته وعربته قبل اي شيء آخر ، حتى لقد كان يقال بهذا الصدد « آه . السيد كانيفيه . انه رجل فريد . وكان تقدير الناس له يزداد بسبب هذه الجرأة العاتية ، وكان العالم يستطيع ان يفنى عن آخره دون ان يتخلى عن ائفه عاداته . وتقدم اليه هومييه .

فقال الدكتور : « اني معتمد عليك . هل نحن مستعدون ؟ الى العمل . » ولكن الصيدلي اعترف - وقد احمر وجهه خجلاً - بانه من الحساسية بحيث لا يستطيع ان يحضر مثل هذه العملية .

وأردف قائلاً : « عندما يكون الانسان مجرد مشاهد فان الخيال يصدمك كما تعرف .. ثم ان جهازني العصبي من »

فقاطعه كانيفيه قائلاً : « آه .. كلام فارغ . انك تلوح على العكس عرضة لداء السكتة . ولو ان هذا لا يدهشني لأنكم ايها السادة الصيادلة تحبسون انفسكم باستمرار في مطبخكم مما ينتهي بتغيير مزاجكم . ولكن انظر اليّ مثلاً تراني استيقظ كل يوم في الساعة الرابعة واحلق ذقتي بالماء البارد . ولا احس قط بالبرد ، ولا ألبس فانلة ولا اصاب قط بالزكام فالهيكل متين .. وانا اعيش طوراً على نحو وطوراً على نحو آخر كالفيلسوف ووفقاً لمصادفات الطعام . ولذلك لا تراني حساساً مثلكم . ويستوى عندي ان اقطع مسيحياً او ان اقطع اية دجاجة تصادفي . ولقد تقول بعد ذلك انها العادة .. العادة .. »

ثم دخل هذان السيدان في مناقشة ، قارن فيها الصيدلي هدوء الجراح بهدوء قائد الجيش ، وذلك دون اية مراعاة لهيوليت الذي كان يتصبب

عرقاً في دثاره من شدة الفرع . وان تكن المقارنة قد راقت لكانيفيه .
الذي استرسل في الحديث عن مقتضيات فنه الذي يعتبره رسالة مقدمة
(وان يكن قد دنسها موظفو الصحة) واخيراً عاد الى المريض ففحص
الضمادات التي احضرها هوميه ، وهي نفسها التي كانت قد ظهرت عند
عملية اصلاح الساق الاعرج ، وطلب شخصاً لكي يمسك له الساق ،
فأرسلوا لاحضار لتيبودوا . وبعد ان شمر السيد كانيفيه عن ساعديه
دخل صالة البليار بينا بقي الصيدلي مع ارتميز وصاحبة الفندق اللذين
كانا اشد شحوباً من مريليتها واذناهما مرهفتان نحو الباب .

وفي تلك الاثناء لم يجرؤ بوفاري على ان يتحرك من منزله ، حيث
ظل في الصالة بالدور الارضي جالساً الى جوار المدفأة الخالية من النار ،
وذقته فوق صدره ، وقد ربع يديه وجمدت حدقته وهو يفكر : يا له
من حظ سيء . يا لها من خيبة امل ومع ذلك ، فانه كان قد اتخذ كافة
الاحتياطات التي يمكن تصورها . ولكن القدر تدخل في الامر . ولكن اذا
حدث ان مات هيوليت بعد ذلك ، فانه سيُعتبر القتائل . ثم اي تفسير
سيقدمه اثناء عيادته لمرضاه عندما يسأل عن هذا الحادث ؟ ومع ذلك
فلعله اخطأ في شيء ما ؟ وأخذ يبحث ، ولكنه لم يهتد الى شيء .
ولكن او ما يخطيء اشهر الجراحين ؟ هذا ما لا يريد احد ان يعتقد .
بل انهم على العكس سوف يضحكون وينبحون وسيذيع الخبر حتى فورج .
وحتى نيوشاتل . حتى روان . وفي كل مكان .. ومن يدري ان الزملاء
لن يكتبوا ضده ، ويثور حول ذلك جدل ، ويتطلب الامر الرد في
الصحف بل قد يرفع هيوليت ضده دعوى . وأخذ يتصور نفسه وقد
أهين شرفه ونزل به الخراب وضاع . وتوالت على خياله جملة من
الافتراضات اخذ يسبح بينها كالبرميل الخالي الذي يحمله البحر ويتقلب
بين الامواج .

وكانت ايما تنظر اليه وهي في مواجهته وان لم تشاطره مذلته (اذ

كانت لها مذلة اخرى هي انها قد تصورت ان مثل هذا الرجل يمكن ان يساوي شيئاً . وكأنها لم تكن قد تبينت من قبل - في وضوح - اكثر من مرة تفاهته وخيبته .

واخذ شارل يروح ويحيء في الغرفة وحذاؤه يقرقع فوق خشبها .
فقال : اجلس ، فانك تثير اعصابي .
فعاد الى الجلوس .

كيف حدث ان عادت فأخطأت الحكم رغم شدة ذكائها ؟ ثم اي جنون محزن ذلك الذي جعلها تتلف حياتها على هذا النحو في توضيحات مستمرة ؟ وتذكرت جميع غرائز البذخ الكامنة في نفسها ، وكل ما في روحها من احساسات بالحرمان وما في الزواج ومنزل الزوجية من حقارة ، ثم احلامها التي سقطت في الوحل كالسنونو الجريح ، وكل ما رغبت فيه وحرمت نفسها منه ، وكل ما كانت تستطيع ان تناله . ثم لماذا - لماذا ؟
ووسط الصمت الذي كان مخيماً على القرية ارتفعت صرخة حادة اخترقت الهواء فشحب لون بوفاري الى حد الانحاء ، وقطبت ايما حاجبيها بحركة عصبية ثم واصلت خواطرها : فمن اجله .. من اجل هذا الكائن .. هذا الرجل الذي لا يفهم شيئاً ولا يحس بشيء ، فها هو محتفظ بهدوئه لا يخطر بباله ان العار الذي سيلطخ اسمه سوف يلطخها هي الاخرى كما يلطخه . ولقد بذلت مجهودات لكي تحبه ثم ندمت . لانها استسلمت لشخص آخر .

وفجأة صاح بوفاري اذ كان يفكر : « لعلها كانت سوسة ؟ »
وعند مفاجأة هذه العبارة التي سقطت في نفسها ككرة من الرصاص في طبق من الفضة انتفضت ايما ورفعت رأسها لكي تحس ما اراد ان يقوله . واخذ احدهما ينظر الى الآخر في صمت وكأنه مدهول عن نفسه وذلك لشدة البعد الذي كان بين ضميريهما . فشارل ينظر اليها نظرة مضطربة كالمخمور ، وهو ينصت جامداً لآخر صيحات الاعرج الذي تبت ساقه ،

وهي تتتابع في موجات متراخية تقطعها تشنجات حادة كالأحوار البعيد المنبعث عن دابة تذبح ، واخذت اما تعض شفيتها الشاحبتين ، وتدير بين اصابعها غصناً صغيراً من اللبلاب الذي كسرتة ، وقد ثبتت فوق شارل سنان حدقتيها الحادثين وكأنها سهمان من نار على أهبة الانطلاق ، وقد اخذ كل شيء فيه يشرها الآن : وجهه وحلته .. وما لم يقله .. وشخصه كله .. واخيراً وجوده ذاته .. كما اخذت تحاسب نفسها على عفتها الماضية وكأنها جريمة وقد انهار ما تبقى من تلك العفة تحت سوط كبرياتها المحتدمة واخذت تتلذذ بمسآخر الزنا المنتصر ، وعادت اليها ذكرى عشيقها مصحوبة بلذات مشملة . وألقت بروحها الى تلك الذكرى . محمولة اليها بحماسة جديدة وقد لاح لها شارل منفصلاً عن حياتها ومختفياً الى الأبد ومستحيلاً ومنعدم الوجود كأنه صائر الى الموت وانه ، يحضر تحت ناظريها .

وسمع وقع اقدام على الرصيف فنظر شارل . ومن خلال خشب النافذة المسدل رأى الى جانب السوق تحت وهج الشمس الدكتور كانيفيه وهو يجفف جبهته بلمفته وهويمه من خلفه حاملاً صندوقاً كبيراً أحمر ثم اتجه الاثنان ناحية الصيدلية .

وعندئذ التفت شارل نحو زوجته في انهيار وحنان مفاجيء وقال « قبلني يا عزيزتي » .

فقال وقد احمر وجهها من الغضب : « اليك عني » .
 فأخذ يردد مندحشاً : « ماذا بك .. ماذا بك ؟ اهدئي . استردي جأشك ... انك تعلمين جيداً انني احبك .. تعالي .. »
 فصاحت في نبرة مخيفة : « كفى » .
 ثم هربت من الصلاة واغلقت الباب في عنف . حتى لقد قفز البارومتر من الحائط وتكسر على الارض .

وتهاوى شارل في مقعده وقد اختل مزاجه واخذ يبحث عما يمكن ان يكون قد اصابها فتصور مرضاً عصبياً، واستسلم للبكاء كمن رأى في غموض شيئاً

مشثووماً غير مفهوم يحوم حوله .
وعندما وصل رودولف الى الحديقة في المساء ، وجد عشيقته تنتظره
عند اسفل السلم على اول درجة فتعانقا ، وذاب حقد هما كالجليد تحت
حرارة هذا العناق .

* * *

وبداً غرامها من جديد ، بل وكثيراً ما كانت تكتب اليه فجأة
وسط النهار ثم تشير من خلال الزجاج الى جويستان ، الذي كان يحل
مربلته في سرعة ويطيير الى هوشيت ويصل رودولف لكي تشكو اليه السأم
وتقول ان زوجها كريبه وان الحياة بغيضة .

وصاح بها يوماً وقد نفذ صبره : وهل لي في ذلك حيلة ؟
فقال وهي جالسة على الارض بين ركبتيه محلولة الضفائر زائغة
البصر : نعم لو أردت ..
فقال رودولف : ماذا ؟

فتنهدت قائلة : ان نذهب لنعيش بعيداً عن هنا .. في مكان آخر...
فقال ضاحكاً : أجمونة أنت .. أهذا ممكن ؟
وعادت الى هذا الموضوع . فتظاهر بأنه لا يفهم وغير مجرى
الحديث .

والذي لم يكن يفهمه هو كل هذا الاضطراب في شيء بسيط كالحب
ولا بد انه كان لديها باعث وسبب آخر يضاف الى هذا التعلق .
والواقع ان هذا الحب كان يزداد نمواً كل يوم مع زيادة نفورها
من زوجها وكلما استسلمت لأحد الرجلين ازدادت بغضاً للآخر . ولم
يلح لها شارل قط في مثل هذا القبح : اصابعه في مثل هذا الغلظة .
وروحه في مثل هذا الثقل . وعاداته في مثل هذا الابتذال . كما كان
يبدو بعد مقابلاتها لرودولف ثم اجتماعها بزوجها فانها رغم تمثيلها عندئذ

دور الزوجة والمرأة الفاضلة كانت تلهبها صورة ذلك الرأس الذي يلتف شعرها الاسود في خصلة نحو الجبهة الملوحة وصورة ذلك القد الذي يجمع بين القوة والرشاقة ، وبالجملة صورة ذلك الرجل الذي يمتلك حنكة العقل مع جموح الرغبة . من اجله كانت تسوي اظافرها في عناية المثل ومن اجله لم تكن .. تقنع بأية كمية من المساحيق لوجهها ، او من العطور لمناديلها . وقد اثقلت نفسها بالاساور والخواتم والعقود، وعندما كان يحين موعد قدومه كانت تملأ بالورد زهريتها الكبيرتين المصنوعتين من الزجاج الازرق ، وكانت ترتب بيتها وتهندم شخصها كغانية تنتظر اميراً . وكان لا بد للخادمة من ان تعمل طول النهار في غسل البيضات كما ان فيليستيه لم تكن تتحرك هي الاخرى طوال النهار من المطبخ حيث كان جويستان الصغير يصاحبها ويراقبها وهي تعمل .

كان جويستان يتكئ بمرفقه فوق اللوح الخشبي الطويل الذي تكوي فوقه الملابس ثم يتأمل في نهم كل تلك الملابس النسائية المنثورة حوله .. الجونيلات .. والحرمات والياقات والسراويل الواسعة عند الردف والتي تضيق من اسفل .

ويتساءل الفتى وهو يمر بيده فوق جونله كالمظلة ، او فوق بعض العرى والمشابك : فيم يستخدم هذا ؟
فتجيبه فيليستيه ضاحكة : او لم تر شيئاً في حياتك ؟ كأن سيدتك مدام هوميه لا تلبس شيئاً كهذا .
فقال : آه . نعم مدام هوميه ..

ثم أضاف في لهجة المفكر : وهل هي سيدة كهذه ؟
ولكن فيليستيه نفذ صبرها من رؤيته وهو يدور حولها علي هذا النحو وكانت تكبره بست سنوات، وكان تيودور خادم السيد جيومان قد اخذ يخطب ودها .

فقالت وهي تحرك اناء العصيدة : « دعني . فمن الافضل لك ان

تذهب لكي تقشر اللوز بدلاً من ان تظل تتمسح بالنساء ، ولتنتظر ايها المفعوص الصغير الى ان ينبت الشعر في ذقنك ، قبل ان تتدخل في مثل هذه الامور .

فقال الصبي : لا تغضبي سأنظف لك حذاءها .
واخذ فوراً حذاء ايما من جوار المدفأة وكان مغطى بالوحل - وحل مواعيد اللقاء الذي اخذ يتساقط تراباً تحت اصابعه ثم يراه يتصاعد برفق في شعاع الشمس .

فقالت الطاهية : « كم انت خائف من ان تلتفه ! » . وذلك لانها لم تكن تحاذر كل هذا الحذر عندما كانت تنظفه بنفسها ، حيث ان سيدتها كانت لا تلبث ان تتخلى لها عن اي حذاء بمجرد ان يفقد شيئاً من نضرتة .

وكانت ايما تمتلك في صوانها كمية من الاحذية تبذر فيها تباعاً ، دون ان يسمح شارل لنفسه قط بأن ييدي في ذلك أية ملاحظة .

وبنفس هذا التسامح دفع شارل للثمائة فرنك ثمناً لساق من الخشب رأت زوجته فيها هدية مناسبة لهيوليت . وكان تجويف الساق الصناعية مغلفاً بالفلين ولها مفاصل لولبية وصناعتها معقدة ومن فوقها سروال اسود ، كما تنتهي بحذاء من الجلد اللامع المصقول . ولما كان هيوليت لا يجروء على ان يلبس في كافة الايام مثل هذه الساق الجميلة فانه تضرع الى مدام بوفاري لكي تحصل له على ساق اخرى اكثر سهولة في استخدامها ، وبالطبع تكفل الطبيب بثمان هذه الساق الاخرى .

وعلى هذا النحو اخذ صبي الحظيرة يستأنف عمله شيئاً فشيئاً فكان يُرى وهو يجوب البلدة كما كان يفعل من قبل . وعندما كان شارل يسمع عن بعد صوت عصاه الجاف فوق الرصيف كان يسرع باتخاذ طريق آخر .

وكان السيد ليريه التاجر هو الذي عهد اليه بشراء الساقين فأتاح له

ذلك فرصة التردد على ايما ، حيث اخذ يتحدث معها عن واردات باريس الحديثة ، وآلاف الابتكرات النسائية . وكان يظهر لها مجاملة شديدة فلا يطلب نقوداً قط ، واستسلمت ايما الى تلك السهولة التي وجدتها في اشباع كافة نزواتها. فمثلاً ارادت ان تقدم الى رودولف سوطاً جميلاً كان موجوداً بروان في دكان مظلات ، فاذا بالسيد ليريه يضعه بعد اسبوع امامها على المنضدة .

ولكنه تقدم اليها في اليوم التالي بفاتورة بمائتين وسبعين فرنكاً فضلاً عن الستنيات فأخرجت ايما احراجاً شديداً ، اذ كانت جميع ادراج مكتبها خالية ، وكانوا مدينين للاستيودوا بما يزيد على خمسة عشر يوماً، وللخادمة ستة اشهر ، فضلاً عن مجموعة من الديون الاخرى ، وكان السيد بوفاري ينتظر بصبر نافذ الدفعة التي اعتاد السيد ديروزيريه ان يدفعها له كل عام حوالي عيد القديس بطرس .

وقد نجحت اول الامر في ان تتخلص من ليريه ، ولكن صبره نفذ، فهو مطارد، وقد اختفى رأسماله، واذا لم يسترد بعضه فانه سيضطر الى استرداد كافة البضائع التي لديها .

فقال ايما : لا بأس .. فليستردها .

ولكنه اجاب : اوه .. انني افرح وان كنت غير آسف الا على السوط الذي افكر في ان اطلب الى السيد بوفاري رده .

فقال : لا .. لا ...

ففكر ليريه في نفسه قائلاً : « آه .. ها قد امسكت بك . »

ثم خرج بعد ان اطمأن الى اكتشافه ، وهو يردد في صوت منخفض وفي صريره المعتاد : فليكن . فلننتظر .. فلننتظر .

وبينا كانت تحلم في مخرج من هذا المأزق اذ بالطاهية تدخل وتضع فوق المدفأة لفافة صغيرة من الورق الازرق مرسله من السيد ديروزيريه فوثبت عليها ايما وفتحتها واذا بها خمسة عشر جنيهاً من الذهب وهي

الدفعة المنتظرة ، وسمعت شارل صاعداً على السلم فألقت بالذهب في قاع الدرج وأخذت المفتاح .

وبعد ذلك بثلاثة ايام ظهر ليريه .

وقال : ان لدي تسوية اقترحها .. وبدلاً من المبلغ المتفق عليه .

هل تزيد ان تأخذي ...

فقلت وهي تضع في يده اربعة عشر جنيهاً من الذهب : ها هو .

فذهل التاجر ، ولكي يخفي خيبة امله ، اندفع في سيل من الاعتذارات

ومن عرض خدماته التي رفضتها ايما كلها ثم ظلت تتحسس في جيب

مربلتها قطعتي الفرنك اللتين ردهما اليها وعاهدت نفسها بأن تقتصد لكي

ترد في المستقبل ..

ثم استطرده تفكيرها : ولكن لا ، انه لن يفكر في ذلك بعد الآن .

وفضلاً عن السوط ذي المقبض العقيقي ، كان رودولف قد استلم

منها ختماً كتبت عليه عبارة « حبيب القلب » ثم شالاً استخدمه ككوفية ،

واخيراً مبسم سجاثر شديد الشبه بمبسم الفيكونت الذي كان شارل قد

التقطه قديماً من الطريق وكانت ايما قد احتفظت به . ومع ذلك فان هذه

الهدايا قد مست كبرياءه فرفض الكثير منها ، ولكنها اصرت فانتهى

رودولف بالرضوخ ، وان كان قد احس بسيطرتها بل واقحام نفسها

عليه .

وكانت تقول له : فكّر فيّ عندما يحين منتصف الليل .

واذا اعترف لها بأنه لم يتذكر ، وجهت اليه فيضاً من العتاب كان

ينتهي دائماً بتلك الكلمة الخالدة : هل تحبني ؟

فيجيب : نعم .. احبك بلا شك .

– كثيراً ؟

– قطعاً

– او لم تحب غيري قط ؟

فيتساءل ضاحكاً : وهل تعتقدين انك قد اخذتني بكرة ؟
فتبكي ايما ، ويحاول ان يهدئها ، وهو يحلي عباراته ببعض النكات.
فتقول : آه . ذلك اني احبك - احبك حتى انني لا استطيع ان
احيا بدونك .. هل تعلم ذلك .. وتثور بي احياناً رغبة في ان اعود
الى رؤيتك عندما تمزقني انفعالات الحب فأتساءل : اين هو ؟ ربما كان
يتحدث الى نساء أخريات ؟ فيضحكن ويقتربن ... ولكن . لا . أليس
كذلك ؟ ان اية واحدة منهن لا تروقك .. هناك من هن اكثر جمالاً
ولكنني اعرف جيداً كيف احب .. انني خادمتك وعشيقتك . وانت
ملكي ومعبودي . انك طيب . انك جميل . انك ذكي . انك قوي .
وكان كثيراً ما سمع هذه الاشياء ، فلم يعد فيها شيء جديد بالنسبة اليه .
لقد كانت ايما تشبه جميع العشيقات . وكان سحر الجدة قد اخذ يسقط
شيئاً فشيئاً كالرداء لكي يظهر عارياً ذلك الملل الابدي من الحب ، الذي
يتخذ دائماً نفس الصور ونفس اللغة . ولم يميز هذا الرجل المثقل بالخبرة
تفاوت المشاعر خلف تشابه العبارات . ولما كانت شفاه ابراحية او داعة قد
وسوست اليه بعبارات مماثلة ، فانه لم يعتقد غير اعتقاد ضعيف في اخلاص
عبارات ايما ، وفكر في ضرورة الخطأ من هذه العبارات ، وذلك لأن
المباليغات اللفظية تخفي مشاعر ضعيفة وكان مضمون النفس المترعة لا يفيض
احياناً نتيجة للتشبيهات الخاوية ، وذلك بحكم ان اي انسان لا يستطيع
قط ان يقدر حاجاته القدر الدقيق وكذلك الامر في ارائه وآلامه ، والحديث
البشري كالاناء المشروخ الذي ندق فيه انغاماً ترقص الدب ، عندما
نريد ان نستعطف النجوم .

ولكن رودولف بفضل ذلك التفوق الذي تملكه كل نفس ناقدة .
وبحكم وقوفها عن بعد خلف اية معركة ناشبة - اخذ يلمح في هذا الحب
لذات اخرى يمكن ان يستغلها . وكان يرى ان كل حياء امر غير عملي ،
فأخذ يعاملها في غير احتفال . وجعل منها شيئاً مرناً منحللاً ، فكان حبه

نوعاً من التأتق الابله الملىء بالاعجاب نحوه وباللذة بالنسبة اليها ... كان استرخاء سعيداً يحدرها ، وقد انغمست روحها في هذا الثمل وغرقت مثل دوق كلارانس في برميل نبيذه الاغريقي .

ولمجرد اعتيادها الغراميات غيرت مدام بوفاري من طبائعها ، فنظرتها اصبحت اكثر جرأة وأحاديثها اكثر تحمراً . بل وتجرات ذات مرة فخرجت للترمة مع رودولف وبفمها سيجارة وكأنها ارادت ان تتحدى الناس . واخيراً فان اولئك الذين كانوا لا يزالون يخامرهم شيء من الشك لم يلبث شكهم ان زال عندما رأوها تنزل في أحد الايام من « المصفورة » وقد شدّ خصرها في صدار على هيئة الرجال . ومام بوفاري الأم التي كانت قد لجأت الى منزل ابنها على اثر عراك عنيف مع زوجها ، لم تكن اقل سيدات الطبقة البرجوازية اشمئزاً ، فاشياء كثيرة لم ترقها .. منها انه لم يستمع الى نصائحها فيحرم كتب الروايات ، ثم ان طابع المنزل نفسه لم يكن يروقها ، فسمحت لنفسها بابداء ملاحظات بل وثارَت الخصومة بنوع خاص ذات مرة بمناسبة فيليسيته . فمام بوفاري الأم لاحظت في المساء وهي تعبر المشاة ان فيليسيته كانت في صحبة رجل في حوالي الاربعين من عمره يحيط بعنقه وشاح بني ، وعندما سمع هذا الرجل دفع اقدامها اسرع الى التسلل من المطبخ . وعندئذ اخذت ايما تضحك . ولكن السيدة الوقور ثار بها الغضب وأعلنت انه من الواجب ان يلاحظ الانسان سلوك الخدم ما لم يكن مستهتراً بالاخلاق .

وقالت زوجة الابن : من اي عالم انت ؟ قالتها مع نظرة بلغت من الوقاحة حداً دفع السيدة بوفاري الأم الى ان تسأل زوجة ابنها عما اذا كانت لا تدافع عن حالتها الخاصة .

فقالَت السيدة الشابة : وقد نهضت واثبة : اخرجي .

وصاح شارل لكي يصلح بينها : ايما .. ماما ..

ولكنها كليتها كانتا قد غرقتا في الغضب . فأخذت ايما تنفرز وهي

تردد : آه يا لها من تربية . هذه الفلاحة الجلفة .
وجرى نحو امه التي كانت قد خرجت عن طوقها وأخذت تتمم :
يا لها من وقحة طائشة . بل ربما كانت اسوأ من ذلك .
وأرادت ان ترحل فوراً ما لم تأت ايماء لتقدم اليها الاعتذارات فعاد
شارل الى زوجته وأخذ يضرع اليها لكي تتنازل ، وركع على ركبتيه
فانتهت بان قالت : فليكن سأذهب اليها .
وبالفعل مدت يدها الى ام زوجها في ترفع المركيزة . وقالت لها :
معذرة يا - سيدتي .

ثم صعدت ايماء الى مخدعها حيث انبطحت على السرير وأخذت تبكي
كالطفل وقد دفنت رأسها في الوسادة .

وكانت قد اتفقت مع رودولف على انه اذا جد امر خطير يطلق
بمصراع النافذة قصاصة من الورق الابيض ، حتى اذا كان موجوداً
بالصدفة في ايونفيل اسرع الى المر الممتد خلف البيت . وبالفعل علفت
ايماء الشارة ، وبعد ان انتظرت ثلاثة ارباع الساعة لمحت فجأة رودولف
عند ركن السوق فودت لو فتحت النافذة ونادته ، ولكنه قد اختفى
فانهارت يائسة .

ومع ذلك فلم تلبث ان خيل اليها ان احداً يمشي فوق الرصيف فحدثتها
نفسها بانه هو بلا ريب فتزلت السلم وعبرت الفناء واذا بها في الخارج
تلقى بنفسها بين ذراعيه .
فقال : احذري اذن .

فقالت : آه .. لو تعلم .
ثم اخذت تقص كل شيء في عجلة وبغير انتظام وهي تبالغ في
الوقائع وتخترع الكثير منها وتسرف في الجمل الاعتراضية ، حتى انه لم
يفهم شيئاً ، ولكنه قال : هيا يا ملاكي المسكين . تشجعي . عودي
نفسك الصبر .

فقلت : ها قد مضت اربع سنوات وأنا اصبر وأتألم .. ان حياً
كحينا يجب ان يسفر في ضوء النهار . انهم يعذبونني ولم اعد استطيع
الاحتمال . انقذني ..

وأخذت تلتصق به وقد امتلأت عيناها بالدموع وبريقها ينبعث كاللهب
تحت الموج وأخذ صدرها يلهث في ضربات سريعة ولم يشعر نحوها بوجع
مثلاً شعر في هذه اللحظة حتى فقد صوابه وقال لها : « وما الذي يجب
ان نفعل ؟ ماذا تريدين ؟ » .

فصاحت : « خذني .. اختطفني .. اوه انني اضرع اليك . »
وانهالت على فمه وكأنها تريد ان تقتنص منه موافقته غير المتوقعة وهي
تنبعث في قبلة .

فقال رودولف : ولكن ...

— ماذا ؟

— وابنتك ؟

ففكرت بضع دقائق ثم قالت : سنأخذها وأمرنا لله .

فقال وهو ينظر اليها وهي تبعد : يا لها من امرأة .

وذلك لأنها كانت قد دلفت الى الحديقة اذ كانوا ينادونها .

وفي الايام التالية دهشت الأم بوفاري دهشة بالغة من التغير الذي
طرأ على زوجة ابنها . وبالفعل اصبحت ايما اكثر طواعية ، بل وبلغت
من التوقير ان طلبت اليها نصيحة عن طريق تحليل الخيار .

هل كان ذلك امعائاً في خداعها لها معاً — الزوج والأم — ام هي
لذة الاستشهاد التي تدفعها الى ان تستشعر في عمق — مرارة الاشياء التي
ستتخلص منها ؟ ولكنها لم تكن تحذر شيئاً . وعلى العكس من ذلك اخذت
تعيش — كالمضالمة — في اللذة التي تتعجلها من سعادتها القريبة المقبلة . وكان
هذا هو الموضوع الخالد لحديثها مع رودولف . فهي تتكلم على كتفه
وتتمم : آه عندما تصبح في عربة سفرك .. هل تتصور ؟ هل هذا

ممكن ؟ يخيّل اليّ انني عندما اشعر بالعربة تنطلق نحس اننا نصعد في بالون ، وكأننا نصعد الى السحاب هل تعلم انني اعد الايام ؟ .. وانت ؟ ولم تكن مدام بوفاري قط جميلة كما كانت في هذه الفترة . فقد كان لها ذلك الجمال الذي لا يمكن وصفه ، والذي ينبعث عن الغبطة والحفاصة والانتصار ، والذي هو انسجام بين المزاج والظروف . فاطمعتها واحزانها ومزاولة اللذة واحلامها الدائمة الشباب ، قد فعلت فيها ما يفعله السهاد والمطر والرياح والشمس في الازهار فنمت بالتدرّج ثم ازدهرت في النهاية واكتملت طبيعتها فلاحت جفونها وكأنها قد نحتت لكي تلائم نظراتها الطويلة الوهانة ونضل فيها حدقتها بينما كانت انفاسها القوية تفتح شفرة انفها الرقيق كما ترفع ركن شفيتها المليئين اللتين يظللها في الضوء قليل من الرّغب الاسود . وكان فناً ماهراً في الغواية قد رتب شعرها فوق عنقها من الخلف وقد التف هذا الشعر في كتلة ثقيلة في اهمال ، ووفقاً لمصادفات اللقاءات الآثمة التي كانت تبعث بذلك الشعر كل يوم . واتخذ الآن صوتها نبرات أكثر استرخاء وكذلك قدما بل واخذ شيء نافذ ينبعث من قماش ثوبها نفسه ومن انحناءة قدمها فيخترقك ، وقد اخذ شارل يراها كما كانت في ايام زواجه الاولى مغربة لا تقاوم .

وعندما كان يعود في منتصف الليل لم يكن يجرؤ على ايقاظها . وكان مصباح الليل الصغير يعكس على السقف دائرة من الضوء المهتز . والستائر المغلقة فوق المهد الصغير تكون ما يشبه كوخاً ابيض يتنفخ في الظل عند حافة السرير وشارل ينظر اليها فيخيّل اليه انه يسمع الانفاس الرقيقة المنبعثة من طفلته التي اخذت تكبر الآن . وكل موسم يؤدي سريعاً الى تقدم حتى لكأنه يراها عائدة من المدرسة عند غروب الشمس ، مشرقة الوجه . وقد لطخت مربلتها بالمداد ، وعلقت السلّة في ذراعها . ثم انه لا بد من الحاقها بالقسم الداخلي وهذا امر باهظ التكاليف . فإ العمل ؟ وعندئذ اخذ يفكر وخطر له ان يستأجر مزرعة صغيرة في الناحية يشرف

عليها بنفسه كل صباح عند ذهابه لعيادة مرضاه ، وذلك لكي يدخر دخلها ويضعه في صندوق الادخار ، ثم يشتري اسهماً من أية جهة حسبما اتفق كما ان الزبائن سوف يزداد عددهم . وقد عول على ذلك لانه كان يريد ان يربحي برت تربية طيبة ، وان ينمي عندها المواهب فتتعلم البيانو .. آه كم ستكون جميلة فيما بعد - في الخامسة عشرة من عمرها عندما تشبه امها ، فتلبس مثلها في الصيف قبعات كبيرة من الخوص ، فيحسبها الناس عن بعد اختين . وتصورها وهي تعمل في المساء الى جوارهما تحت ضوء المصباح . حيث تطرز له خفياً ، وتعنى بامر المنزل وتملاؤه كله بظرفها ومرحها . وأخيراً سيفكران في استقرارها ، فيعثران لها على فتى صالح ذي مركز متين فيسعدنها وتدوم تلك السعادة .

ولم تكن ايما نائمة عند ذلك ولكنها كانت تتظاهر بالنوم . وعندما كان يغفو الى جوارها كانت تستيقظ في احلام اخرى .

فها هي اربعة جياذ تحملها منذ ثمانية ايام نحو بلاد جديدة لا تعود منها قط . فها يسيران ويسيران مشتبكي الذراعين دون ان يتحدثا ، وكثيراً ما يلمحان فجأة - من فوق جبل - مدينة رائعة ذات قباب وجسور وسفن وغابات من الليمون ، وكنايس من الرخام الابيض تحمل ابراجها اوكار اللقلق . والناس يسرون بخطى منتظمة بسبب قطع البلاط الكبيرة ، وعلى الارض باقات من الازهار تقدمها سيدات مرتديات صدارات حمر والنواقيس تدق والبغال تصهل والجيتار يهمس والنافورات تنخر والابخرة تتصاعد منها فترطب اكداساً من الفاكهة صففت في شكل اهرامات عند ساق تماثيل شاحبة تبتم تحت شآبيب الماء ثم يصلان ذات مساء الى قرية من قرى الصيادين حيث نشرت الشباك لتجف في الريح على طول الهضبة والاكواخ . وهنا يتوقفان ليعيشا فيسكنان بيتاً منخفضاً مسطح السقف يظلل النخيل عند نهاية خليج على شاطئ البحر وسيتزهان في جندول ويتأرجحان في فراش معلق بين الاغصان وسوف تكون حياتهما

سهلة صافية كملابسها الحريرية ودافئة مرصعة بالنجوم كالليالي العذبة التي سيتأملونها . ومع ذلك فان هذا المستقبل الغير متناهي الذي استحضره الخيال لم ينبعث عنه شيء نادر متميز . فالايام تشابه رائعة كالموج . واخذ كل هذا يتأرجح في الافق اللانهائي المنسجم الضارب الى الزرقة والمغطى بالشمس . ولكن الطفلة اخذت تسعل في مهدها وبوفاري يزداد شخيرها واما لم تم الا عند الصباح عندما ألقى الفجر ضوءه الابيض على الزجاج واخذ جويستان الصغير بفتح في الميدان مصاريع الصيدلية .

وكانت قد استدعت السيد ليريه وقالت له : « انني سأحتاج الى معطف - معطف كبير مبطن ذي ياقة طويلة . »
فسألها قائلاً : هل ستسافرين في رحلة .
فقلت : لا .. ولكن .. لا عليك - انني اعتمد عليك - أليس كذلك وبهمة ؟ » .

فانحني ..
واستأنفت قائلة : « وسأحتاج ايضاً الى حقيبة كبيرة .. ليست مفرطة الثقل .. عملية .

قال : نعم . نعم . لقد فهمت .. اثنان وتسعون سنتيمتراً . تقريباً في خمسين على نحو ما يصنعون في هذه الايام » .
واضافت : « ومعها حقيبة الليل » .

ففكر ليريه في نفسه قائلاً : « قطعاً ان في الامر سرأ » .
وقالت مدام بوفاري وهي تنزع ساعتها من حزامها : ثم خذ هذه لكي تقطع . منها الثمن » .

ولكن التاجر صاح بانها مخطئة ، فهو يعرفها ولا يمكن ان يشاك فيها فما هذا الصغار ؟ ولكنها مع ذلك ألحت لكي يأخذ على الاقل السلسلة . وكان ليريه قد وضعها في جيبه واخذ ينصرف عندما نادته لتقول له : انك ستحتفظ عندك بكل شيء .

ثم فكرت قليلاً . وازفادت : واما عن المعطف فانك لن تحضره
ايضاً الى هنا ولكنك ستعطيني عنوان العامل وتنبهه الى ان يحتفظ به
تحت تصرفي .

وكان من المقدر ان يهربا في الشهر المقبل . فيسافرا من ايونفيل
وكانهما ذاهبان لقضاء بعض الحاجات في روان . ويكون رودولف قد
حجز اماكن واعد جوازات السفر بل وكتب الى باريس لكي يستأجر
العربة كلها الى مرسيليا ، حيث يستأجران عربة خفيفة يتابعان السير
بواسطتها دون توقف على الطريق المؤدي الى جنوة . وكانت قد رتب
الامر بحيث ترسل حقائبها الى ليريه حيث تحملها « العصفورة » رأساً
وحيث لا يخامر الشك اي انسان . وفي كل هذا لم يعرض قط مصير
الطفلة . وكان رودولف يتجنب الحديث عنها لأن ايما لا تفكر فيها .

وكان يود ان يحتفظ بمهلة اسبوعين لكي ينتهي من بعض الاجراءات .
ولم تمض ثمانية ايام حتى طلب خمسة عشر يوماً اخرى ثم ادعى انه مريض
وبعد ذلك سافر في رحلته ومر شهر اغسطس ، وبعد كل هذه التأجيلات
قررا نهائياً ان رحيلها سيكون في يوم الاثنين ٤ سبتمبر .

واخيراً حل يوم السبت السابق ليوم الرحيل .
وجاء رودولف في المساء مبكراً عن عادته فسألته قائلة : هل كل
شيء معد ؟

— نعم .

ثم دارا حول حوض من الزهور ، وذهبا ليجلسا الى جوار الشرفة
على حافة الحائط .

قالت ايما : « انت حزين » ..

— لا .. لماذا ؟

ومع ذلك اخذ ينظر اليها نظرة غريبة في حنان .

فاستأنفت قائلة : هل ذلك لانك سترحل وترك مواضع حبك وحياتك ؟ ..

آه .. اني اقدر .. ولكنني انا ليس لي شيء في العالم .. انت كل شيء
بالنسبة الي .. ولذلك سأكون كل شيء بالنسبة اليك .. سأكون لك اسرة
ووطناً وسأعني بأمرك وسأحبك .

فقال وهو يضمها بين ذراعيه : يا لك من ساحرة .
فقلت وهي تضحك في نشوة : أهذا حق ؟ هل تحبني ؟ أقسم
بذلك اذن .

– هل احبك ؟ هل احبك ؟ بل اني اعبدك يا حبيبي .

وأخذ القمر يرتفع مستديراً قرمزي اللون عند سطح الارض في اقصى
المرج ثم لم يلبث ان صعد سريعاً بين اغصان الحور التي تخفيه من
موضع الى آخر كالستارة السوداء المثقوبة ثم ظهر ساطع البياض في السماء
الصافية التي اضاءها ، ثم اخذ يتباطأ وهو يلقي على النهر ، ببقعة
كبيرة تكون عدداً لا نهاية له من النجوم وجعل هذا الألق الفضي يتلوى
حتى القاع كعبان بلا رأس مغطى بمحار مضيء او كشمعدان عملاق
تساقط منه على طول المدى نقط من الماس الذائب . وامتد الليل العذب
من حولها ورقاع من الظلال تلف اوراق الشجر واسبلت ايما جفنيها
واخذت تنشق – في تنهدات كبيرة – النسيم الرطب الذي يهب . لم
يتحدثا ، اذ كانا غارقين في فيض من الاحلام . وعادت الى قلبها عذوبة
الايام الماضية ، فياضة صامته كالنهر المنساب مع كل تلك الرخاوة التي
يثرها عطر الازهار فعمكست في ذكرياتها ظللاً اكثر اسمى وعتواً من
ظلال اشجار الصفصاف الساكنة الممتدة فوق الحشائش . وكثيراً ما
كانت احدى دواب الليل كالقنفذ او ام عرس تأخذ في الطرد فتحرك
الاوراق ويسمع من وقت الى آخر صوت خوخة ناضجة تسقط من
الخميلة .

وقال رودولف : آه .. يا له من ليل جميل .

فقلت ايما : ستكون لنا ليال اخرى .

وأضافت وكأنها تحدث نفسها : «نعم ، ما أجمل الأسفار ومع ذلك
فما هو هذا الحزن الذي في قلبي .. أهو الخوف من المجهول ؟ ..
وأثر العادات التي نتخلى عنها .. أم ان ... ؟
لا .. انه فرط السعادة .. يا لي من ضعيفة .. أليس كذلك ؟ ..
أعذرني .

فصاح «ان الامر لا يزال بأيدينا . فكري.. فلربها ندمت .»
فقال في عنف « ابدأ » .

ثم اضافت وهي تقترّب منه : « آية كارثة يمكن ان تحل بي ؟ .
ليست هناك صحراء ولا هاوية ، ولا محيط لا أعبره معك . وما دمنا
سنعيش سوياً فلن تكون الحياة بالنسبة لنا سوى عناقاً يزداد مع الايام
قوة وكمالاً . ولن يقلقنا شيء . فلا هموم ولا عقبات وسوف نخلو لنفسينا
وحدنا الى الأبد .. تكلم اذن ، اجيني . »

وكان يجيب على فترات منتظمة : « نعم .. نعم .. » وكانت قد
مرت باصابعها في شعره واخذت تردد بصوت صبياني بالرغم من الدموع
الغزيرة التي تتساقط : «رودولف . رودولف . آه رودولف . حبيبي ..
رودولف . »

ودقت الساعة نصف الليل .

فقال : « نصف الليل .. هيا . انه الغد ، يوم آخر . »
ونفض لكي يرحل وكان هذه الحركة كانت بدء هربها فبدت ايما
فجأة في مظهر الفرح وقالت :

- لديك الجوازات ؟

- نعم

- لم تنس شيئاً ؟

- لا

- متأكد ؟

– بلا شك .

– ستنتظرنني في فندق بروفانس . أليس كذلك ؟ انك ستنتظرنني عند الظهر ؟

فأجاب بإيماءة من رأسه .

وقالت إيما وهي تقبله القبلة الاخيرة : الى غد إذن .

ونظرت اليه وهو يتعد .

ولم يلتفت الى الخلف فجرت في اعقابه وانحنت على حافة الماء بين

الاعشاب وصاحت : الى الغد ..

وكان قد عبر الى الضفة الاخرى من النهر واخذ يسير مسرعاً وسط

المروج .

وبعد بضعة دقائق وقف رودولف . وعندما رآها في ردائها الابيض

وهي تختفي في الظل شيئاً فشيئاً أحس في قلبه من الخفقان، مما دعاه الى ان

يستند الى شجرة لكي لا يسقط . وقال – وهو يقسم اغلظ الايمان :

يا لي من مغفل ! ولكن لا بأس فقد كانت عشيقة جميلة .

وفوراً عادت اليه صورة جمال إيما وكافة لذات ذلك الحب ، فاستشعر

الحنان اول الامر ، ثم ثار ضدها وهو يقول ويشير بيديه : في النهاية

لا استطيع ان اهجر موطني وأتحمل عبء طفلة .

وكان يقول هذه العبارات كي يشد من عزمه .

واضاف : ثم الارتباك والنفقات .. آه . لا .. لا .. ألف مرة ..

لا .. والا كانت حماقة كبرى .

لم يكبد رودولف يصل الى بيته حتى جلس فجأة الى مكتبه تحت

رأس الوعل المعلق في الحائط بين غنائم الصيد، ولكنه عندما اخذ القلم

بين انامله لم يجد ما يكتبه فاتكأ بمرفقيه على المكتب وأخذ يفكر . ولاحق

له اما وقد اوغلت في الماضي البعيد وكان القرار الذي اتخذته قد وضع بينها فجأة فترة شاسعة من الزمن .

ولكي يستعيد شيئاً منها نهض الى صوان بجوار فراشه واستخرج منه صندوقاً قديماً من صناديق بسكوت رانس حيث اعتاد ان يضع الخطابات التي تأتيه من النساء، فانبعثت منه رائحة تراب وورود ذابلة ووقع نظره اولاً على مندبل صغير مغطى ببقع شاحبة وكان مندبلها الذي نزلت فيه يوماً من انفها اثناء نزهة . لم يعد يذكر شيئاً من ذلك والى جواره صورة لها تتخبط في اركان الصندوق . ولاحت له زينتها مسرفة ونظرتها الفضولية سيئة الوقوع . وبطول التأمل في هذه الصورة واستحضار ذكرى صاحبها اختلطت ملامح ايما شيئاً فشيئاً في ذاكرته ، وكان الوجه الحمي والوجه المصور قد احتك احدهما بالآخر حتى انمحي الاثنان . واخيراً قرأ بعض خطابات المليئة بالاستفسارات الخاصة برحلتها (وهي خطابات قصيرة عملية ملحة كالمكاتبات التجارية) واراد ان يلقي نظرة على الخطابات الطويلة القديمة العهد فانتزع كافة الخطابات الاخرى لكي يعثر عليها في قاع الصندوق، وأخذ يقلب آلياً في كومة من الاوراق والاشياء حيث اختلطت الباقات واربطة الساق ، وقناع اسود ودبايس وخصلات من الشعر - خصلات من الشعر الاسود ومن الشعر الاشقر بل تعلق بحلقة الصندوق الحديدية فتقطع عند فتحه .

وهكذا أخذ يفحص وهو يتسكع بين الذكريات - الخطوط واسلوب الخطابات المتنوعة تنوع تلك الخطوط - لقد كانت عاطفية او مرحة عابثة او حزينة . وكان من بينها يتذكر وجوهاً وبعض حركات ونغمات صوت واحياناً كان لا يتذكر شيئاً .

والواقع ان اولئك النساء اللاتي تراحمن في ذاكرته كن يتدافعن بعضهم ضد بعض فيصغرن ويهبطن الى مستوى واحد من الحب يسوى بينهم . وأخذ يتناول حفنات من هذه الخطابات المختلطة ويلهو لبعض دقائق بأن

يتركها تتساقط كالشلال من يده اليمنى الى يده اليسرى . واخيراً مل واخذ يغفو فانصرف حاملاً الصندوق الى الصوان وهو يقول : يا لها من كومة من المضحكات !

وكانت هذه العبارة خلاصة رأيه وذلك لان اللذات كان قد طال وطوؤها على قلبه ، كاطفال المدارس في فناء المدرسة ، حتى انه لم يعد ينمو في ذلك القلب شيء اخضر . واولئك اللاتي مررن به كنّ أقل وعياً من الاطفال انفسهم حتى انهن لم يحرصن كالأطفال على ان ينقشن اسماءهن على الحائط . وقال لنفسه : هيا فلنبداً .

واخذ يكتب « الشجاعة يا ايما الشجاعة ! فلست اريد ان اكون سبياً في تعاسة حياتك .. » .

وحدث رودولف نفسه : والواقع ان هذا حق ، فانا اعمل لمصلحتنا كرجل شريف .

« هل قدرت جيداً عاقبة ما اعتزمت ؟ هل تدركين مدى الهاوية التي اسوقك اليها يا ملاكي المسكين ؟ لا - اليس كذلك ؟ انك تسيرين واثقة بجنونة مؤمنة بالسعادة في المستقبل ... آه . يا لنا من تعساء . حمقى . »

وهنا توقف رودولف لكي يجد عذراً مقبولاً .

وقال لنفسه : وماذا لو قلت لها انني قد فقدت ثروتني ؟ .. آه لا ، هذا لن يمنع شيئاً وسأضطر الى العودة الى الموضوع نفسه . وهل من الممكن ان نرد الى الصواب مثل اولئك النسوة ؟

وفكر ثم اضاف : انني لن انساك ، كوني واثقة من ذلك . وسأحفظ لك دائماً باخلاص عميق ، لكن هذا الهيام سيضعف ان عاجلاً او آجلاً . فهذا هو مصير المشاعر البشرية وقد يتسرب اليها الملل بل ربما يصيبني ذلك الالم الممض الذي سأستشعره عندما تأخذين في الندم الذي قد اشاركك فيه لانني سأكون سببه .. ومجرد التفكير في الاحزان التي قد تصيبك

يعذبني . فلتنسي يا ايماء . لماذا قدر على ان اعرفك ؟ ولماذا انت جميلة هكذا ؟ هل انا المخطيء ؟ يا لهي . لا ، لا ، لا لوم الا على القدر .
وقال لنفسه : هذه هي الكلمة التي تحدث دائماً الأثر المطلوب .
« آه . لو انك كنت احدى اولئك النسوة ذوات القلب العايب على نحو ما نرى ، اذن لاستطعت ان اقوم بمحاولة لاشباع اثرتي ، دون خطر عليك . ولكن هيامك الممتع الذي هو سر سحرك وعذابك على السواء قد منعك من ان تدركي - بالرغم مما انت اهل له من حب وتقديس - ما سوف يكون في وضعنا من شذوذ في المستقبل . وانا ايضاً لم افكر في الموضوع اول الامر ، بل استرخيت في ظل السعادة المثالية التي تشبه شجرة التفاح الاسطورية ذات العصارة السامة الكاوية دون ان افطن الى العواقب .

وقال لنفسه : انها قد تظن انني عدلت بسبب البخل .. آه فليكن . فليكن ، يجب ان انتهي !
« العالم قاسٍ يا ايماء ، وهو سوف يلاحقنا اينما نكون . ولقد تضطرين الى التعرض للاسئلة المحرجة والنميمة والاحتقار وربما للاهانة .. اهانتك .. اوه وأنا الذي أريد ان لو اجلستك على عرش . انا الذي احمل ذكراك كتميمة ، وذلك لانني سأعاقب نفسي بالنفي جزاء ما سببت لك من ألم . انني راحل ، أين أين ؟ لست ادري لقد اصبحت بالجنون . وداعاً! كوني دائماً طيبة . احتفظي بذكرى الشقي الذي فقدك ، علمي اسمي لطفلتك لكي ترده مع صلواتها . »

وأخذت ذبالة الشمعتين ترتجف ، فنهض رودولف لكي يغلق النافذة . وقال عندما عاد الى الجلوس : اظن ان هذا هو كل شيء . آه . ولكن هذا ايضاً لكي لا تعود الى مطارديتي . « وسأكون بعيداً عندما تطالعين هذه الاسطر الخزينة وذلك لانني اردت ان اهرب باسرع ما استطيع لكي اتجنب اغراء العودة الى رؤيتك . فلتجنب الضعف . سوف اعود .

وربما تحدثنا سوياً فيما بعد ببرود عن غرامياتنا القديمة؛ وداعاً. «
وقال لنفسه: والآن كيف أوقع؟ المخلص.. لا. صديقك؟ .. نعم
هو هذا.

« صديقك »

وأعاد قراءة الخطاب فلاح له جيداً .

وحدث نفسه في حنان قائلاً : يا لها من امرأة مسكينة ! انها
ستظني أقل احساساً من الصخر . لقد كان من الواجب ان اسفح فوقه
بعض العبرات . ولكنني لا استطيع ان ابكي، وليس هذا ذنبي . وعندئذ
سكب رودولف بعضاً من الماء في كوب وغمس فيه اصبعه ثم اسقط
منه نقطة غليظة احدثت بقعة شاحبة فوق المداد . ثم اراد ان يفلق الخطاب
فاخذ الحتم المنقوشة فوقه عبارة « حب القلب » .

ولكنه قال : ان هذا لا يطابق مقتضى الحال .. آه ولكن لا بأس..
وبعد ذلك دخن ثلاثة غلايين ثم ذهب لينام .

وفي اليوم التالي - عندما استيقظ حوالي الساعة الثانية، اذ كان قد
نام متأخراً، أمر بأن تجنئ سلة من الشمس وضع الخطاب في قاعها تحت
قليل من ورق العنب ثم أمر جيران عامل محراثه بأن يحمل السلة برفق
الى مدام بوفاري. وكان يستخدم هذه الطريقة لمراسلتها فيرسل اليها تبعاً
للمواسم الفواكه او طيور الصيد .

وقال للخادم : اذا سألتك عن اخباري فاجبها بانني قد سافرت في
رحلة، ويجب ان تسلم السلة اليها هي، وان تضعها بين يديها شخصياً .
اذهب وخذ حذرك .

وارتدى جيران مريلة جديدة ولف مندبله حول الشمس، وسار بخطوات
كبيرة ثقيلة في حذائه الضخم المنعول بالحديد، واتخذ في هدوء الطريق
الى أيونفيل .

وكانت مدام بوفاري عندما وصل الى منزلها ترتب مع فيليستين على

مائدة في المطبخ - كومة من الملابس المغسولة .

فقال الخادم : سيدي يرسل لك هذا .

فتملكها ارهاص بالخوف . وجعلت تبحث في جيبتها عن قطعة من النقود وهي تنظر الى الفلاح بعين شاردة . بينما كان ينظر هو في دهشة لانه لم يفهم كيف يمكن لمثل هذه الهدية ان تثير عند انسان كل هذا الانفعال ، واخيراً خرج وبقيت فيليستيه ولم تعد ايما قادرة على الاحتمال ، فاسرعت الى الصالة كانما لتحمل اليها المشمش وقلبت السلة وانتزعت الاوراق ووجدت الخطاب وفتحته ثم هرولت مذعورة الى غرفتها وكان حريقاً مروعاً يلاحقها من الخلف .

وكان شارل في الغرفة فلمحته . وتحدث اليها فلم تسمع شيئاً، واستمرت تصعد الدرج في سرعة لاهثة ذاهلة ثملى ، وفي يدها دائماً تلك الورقة المروعة التي تفرقع بين اصابعها كقطعة من الصاج . وفي الطابق الثاني وقفت امام مخزن الغلال الذي كان مغلقاً .

وارادت عندئذ ان تهدأ ، وتذكرت الخطاب . وكان لا بد ان تنمه فلم تجرؤ فأين وكيف ؟ دون ان يراها احد ؟ وحدثت نفسها قائلة : آه لا .. هنا .. سأكون مطمئنة . ودفعت ايما الباب ودخلت .

وكانت من خلال اردواز السقف تسقط حرارة ثقيلة ، وتكتمت انفاسها فسحبت نفسها حتى النافذة التي شدت رتاجها فانبثق في وثبة واحدة ضوء يعشي الأبصار .

ومن فوق الاسقف كانت تمتد امامها الحقول على مرمى البصر ، ومن تحتها كان ميدان القرية خالياً وحجارة الرصيف تلمع ودوارة الرياح ساكنة فوق المنازل. وفي ناصية الشارع انبعث من طابق سفلي شيء يشبه الشخير حاد النغمات ، فقد كان بينيه يلف مخرطته .

وكانت متكئة على اطار النافذة وهي تعيد قراءة الخطاب بزمجرات

غضب واكنها كلما ركزت انتباهها ازدادت افكارها اختلاطاً فكانت تستعيد صورته وتسمع صوته وتطوقه بذراعيها . وضربات قلبها التي تخفق تحت صدرها - وكأنها ضربات عاتية من قرون كبش - اخذت تتابع سراعاً الواحدة تلو الأخرى في غير انتظام واخذت تلقي من حولها النظرات وبودها لو انهارت الارض . ولماذا لا تنتهي ؟ وما الذي يمسكها عن ذلك ؟ انها حرة . وتقدمت ونظرت الى الشارع - وهي تقول :
هيا .. هيا .

وكان شعاع الضوء الصاعد مباشرة من اسفل يجتذب ثقل جسمها نحو الهاوية. وخيل اليها ان ارض الميدان المهترزة ترتفع على طول الجدران، وارض الغرفة تميل عند الحافة كالسفينة التي تترنح وهي تغوص في الرمال الطافية وهي ممسكة بالحافة وكأنها معلقة ومحاطة بفضاء واسع، وزرقة السماء تغزوها والهواء يسبح في رأسها الجوفاء ولم يكن لديها الا ان تستسلم وتترك نفسها . ولم يتوقف صوت المخرطة وكانه نداء صاحب يدعوها .
وصاح شارل : زوجتي .. زوجتي .
فتوقفت .

- اين انت ؟ تعالي .

وأدت بها فكرة نجاتها من الموت الى الاغواء من الخوف. فاغلقت عينيها ثم انتفضت عندما أحست بيد على ذراعيها وكأنت يد فيليسيته التي قالت : ان سيدي ينتظرك يا سيدتي والحساء على المائدة .
وكان لا بد من النزول . والجلوس على المائدة .

وحاولت ان تأكل فكانت اللقمة تكتم انفاسها وعندئذ نشرت فوطتها وكانها تفحص ما بها من ثقب وارادت بالفعل ان تشرع في عد خيوط النسيج. وفجأة تذكرت الخطاب هل فقد منها ؟ واين تجده ؟ ولكنها لم تعثر قط على مبرر لترك المائدة، ثم انها اصبحت جبانة. فهي تخاف شارل لانه يعلم كل شيء بلا ريب وبالفعل نطق شارل بهذه العبارات العجيبة:

«بلوح اننا لن نرى السيد رودولف قريباً» .

فقلت وهي تنتفض : من قال لك هذا ؟

فأجاب وقد اخذ بهذه النعمة الحادة : من قال لي ؟ انه جيران
الذي قابلته منذ هنيهة عند باب القهوة الفرنسية . انه قد سافر في رحلة
او على وشك السفر .
واختنقت بالعبرات .

فقال : وما الذي يدهشك في هذا ؟ انه يتغيب على هذا النحو من
وقت الى آخر كمي يسري عن نفسه . وفي الحق اني لاوافقه وعندما تكون
لدى الانسان ثروة ويكون اعزباً ! ... فضلاً عن ذلك فصديقنا يلهو
كما يحلو له ، وهو مولع بالعبث فقد أخبرني السيد لانجلوا .

وصمت مراعاة لللياقة بسبب الخادمة التي دخلت .
وأعدت الخادمة الى السلة المشمش الذي كان منثوراً على الرف ،
وأمر شارل بأن يحمل اليه دون ان يلاحظ الحمرة التي علت وجه زوجته.
ثم اخذ منه واحدة وقضمها وهو يقول : اوه !

مدهش ! خذي ! ذوقي !

ومد السلة نحوها فدفعتها برفق .

فقال وهو يضعه تحت انفها عدة مرات :

« شمي اذن . يا لها من رائحة . »

فصاحت وقد نهضت واثبة : « انني اختنق » .

ولكن بمجهود ارادي اختفى هذا الاختناق .

ثم قالت : « لا شيء . لا شيء .. انه طارىء عصبي . اجلس وتناول
طعامك » .

وذلك لانها خشيت ان يأخذوا في استجوابها والاهتمام بامرها فلا تترك
لنفسها .

وعاد شارل الى الجلوس اطاعة لامرها ، واخذ بلفظ في يده نوى

المشمس ثم يضعه في طبقه .
وفجأة مرت عربة زرقاء عدواً في الميدان ، فاطلقت ايما صرخة ،
وسقطت جامدة على الارض على أم رأسها .

وبالفعل كان رودولف بعد تفكير طويل قد قرر ان يسافر الى روان.
ولما لم يكن هناك بين لاهوشيت وبوشي طريق آخر غير الطريق ايرونفيل
فقد كان لا مفر من ان يعبر القرية . وكانت ايما قد لمحتة على ضوء
المصابيح الذي كان يحترق كالبرق ضوء الشفق .

واسرع الصيدلي عندما سمع الضوضاء التي حدثت بالمنزل . وكانت
المائدة قد انقلبت بما عليها من اطباق ، وكانت الصلصة واللحم والسكاكين
والملاحة وزجاجة الزيت منثورة على الارض ، وشارل يستغيث وبرت
تصيح رعباً ، وفيليبسته تفك بيديها ملابس السيدة التي كانت التشنجات
تمتد على طول جسمها .

وقال الصيدلي : ها انا اعدو لأحضر من معلمي قليلاً من الخل
المعطر . وقال عندما فتحت عينها وهي تستنشق القنينة - : « لقد
كنت متأكداً ، فانه يوقظ الموتى » .

وقال شارل : « حدثينا . حدثينا . استردي جأشك . انا شارل .
حبييك الذي يجبك . هل تدريكين من انا ؟ هيا . ها هي ابنتك الصغيرة .
قبلها اذن . »

ومدت الطفلة ذراعيها نحو امها لكي تتعلق بعنقها ، ولكن ايما
ادارت رأسها وقالت بصوت متقطع « لا .. لا .. لا اريد احداً . »
وأغمي عليها من جديد فحملوها الى الفراش . وظلت ممددة فاغرة
الضم ، مغلقة الجفنين ، باسطة يديها ، ساكنة شاحبة كتمثال من الشمع .
وجرج من عينها نهران من الدموع التي انسابت على الوسادة .
وظل شارل واقفاً في اقصى المخدع ، والصيدلي الى جواره صامتاً
مفكراً على نحو يليق بالمناسبات الخطيرة في الحياة .

وقال - وهو يغمز ذراع شارل : « اطمئن فاني اعتقد ان الأزمة قد مرت » .

وأجاب شارل : نعم . انها تستريح الآن قليلاً .
قال ذلك وهو يراها تنام ، ثم اضاف : « يا لها من امرأة مسكينة...
يا لها من امرأة مسكينة ... ها هي تنتكس » .
وعندئذ سأل هوميه كيف حدثت هذه الحادثة فأجاب شارل بانها
قد اصيبت فجأة وهي تأكل المشمش .

فقال الصيدلي : « هذا امر عجيب . ولكن من الجائز مع ذلك ان يكون المشمش هو الذي سبب الاغماء ، فهناك طبائع حساسة من ناحية بعض الروائح ، بل ان هذا الموضوع جدير بالدرس من الناحية الباثولوجية والناحية الفسيولوجية على السواء والقسس يعرفون اهمية هذا الأمر فهم يمتزجون دائماً بالعطور في طقوسهم وهم يستخدمونها لتخدير العقل واثارة الشهوة ، وهذا أمر يسهل الحصول عليه في الجنس الآخر لأنهن اكثر حساسية من الآخرين ولقد قيل ان بعضهن يصبن بالاغماء من القرن الذي يحترق او رائحة الخبز الطري . »

وقال بوفاري بصوت خافت : « احذر من ان توقظها . »
واستمر الصيدلي يقول : « ولا يتعرض البشر وحدهم لهذه الاعراض الشاذة . بل تتعرض لها ايضاً الحيوانات . فانت لا تجهل ذلك التأثير المنشط العجيب الذي يحدثه « التيبثاكتاريا » الذي يسمى بالعامية عشب القط على القوى الجنسية لفصيلة القطط . ومن جهة اخرى فاني استطاع ان اذكر حالة اؤكد صدقها ، وذلك ان بريديو - وهو زميل قديم يقيم الآن في شارع مالبالو - يمتلك كلباً يتشنج بمجرد ان يدني الانسان منه كينس الطباقي . وكثيراً ما يقوم هذا الزميل بهذه التجربة امام اصدقائه في قصره في غابة جيوم . وهل يتصور الانسان ان سعوطاً بسيطاً كهذا يمكن ان يحدث كل هذه الأحداث في جهاز ذوات الأربع ؟ ان هذا

لأمر عجيب - أليس كذلك ؟

فقال شارل الذي لم يكن ينصت : نعم .

واستأنف الآخر وهو يبتسم ابتسامة الرضى عن نفسه قائلاً : « وفي هذا ما يدلنا على مدى الاضطراب في جهازنا العصبي . وأما عن السيدة فاني اعترف انها قد لاحت لي دائماً مصابة بالحساسية . ولذلك لم اوصك قط ايها الصديق العزيز بأي من تلك العقاقير التي يدعون انها تهاجم المزاج . لا . لا عقاقير طفيلية بل نظام للحياة . وهذا كل ما في الامر . مسكنات وملينات ومنعشات ثم او ما تظن انه ربما كان من الضروري اثاره خيالها . »

وقال بوفاري : « بماذا ؟ وكيف ؟ »

فقال الصيدلي ؛ « آه . هذا هو السؤال . »

نعم . هذا هو السؤال . او كما قرأت اخيراً في احدى الصحف - هذه هي المشكلة .

ولكن ايما صاحبت وهي تستيقظ : « والخطاب ؟ والخطاب ؟ »

وظنا انها تهذي - وفعلاً اصيبت بالهذيان ابتداء من نصف الليل ،

وظهرت عليها اعراض حمى مخيطة .

ولم يغادرها شارل خلال ثلاثة وأربعين يوماً فتحلى عن جميع مرضاه ،

ولم يعد يرقد بل كان يجس نبضها باستمرار ، ويضع لها اللبخات

ومكمدات الماء البارد ، وكان يرسل جوستان حتى نبوشاتل ليحضر الثلج

الذي كان يذوب في الطريق فيرسلوه ثانية . واستدعى السيد كانيفيه

ليستشيريه ، واستحضر الدكتور لاريفير استاذه القديم من روان . اذ

كان اليأس قد اخذ يساوره . وكان انهيار ايما هو الذي يخيفه بنوع

خاص ، وذلك لأنها لم تكن تتكلم او تسمع شيئاً ، بل ولاح انها لا تتألم ،

وكأن جسمها وروحها قد استراحا معاً من كل اضطراب .

وحوالي منتصف اكتوبر استطاعت ان تجلس فوق الفراش ومن خلفها

الوسائد . وبكى شارل عندما رآها تأكل اول قطعة من الخبز المغطى بالمربى . وعادت اليها قواها ، فكانت تنهض لبضع ساعات بعد الظهر . وشعرت يوماً بتحسن فحاول ان يحملها علي ان تقوم بنزهة في الحديقة مستندة الى ذراعه . وكان رمل ممرات الحديقة قد اختفى تحت الاوراق الميتة ، فسارت خطوة خطوة وهي تجر خفها وتستند بكتفها الى شارل وهي ما زالت تبتم .

وسارا على هذا النحو حتى نهاية الحديقة بالقرب من الشرفة فدت ببطء قامتها وظلت عينيها بيدها لكي تنظر . ونظرت الى بعد سحيق ولكن لم يكن ثمة شيء حتى الأفق غير نيران كبيرة تشتعل في الاعشاب وترسل الدخان فوق التلال .

فقال شارل : « انك ستعبين نفسك يا حبيبي » . ودفعها في رفق لكي تدخل تحت العريشة وقال : « اجلسي على هذا المقعد لكي تستريحى » . فقالت بصوت متهافت : « أوه . لا . لا أريد ان اجلس هنا . ليس هنا » .

وأصيبت بدوار . ومنذ المساء عاد اليها المرض بأعراض غامضة ، وان تكن في الواقع اكثر تعقيداً . فهي احياناً تشكو القلب ثم الصدر والمخ والاطراف كما كانت تصاب بقيء ، لمح فيه شارل اول اعراض السرطان .

وفوق كل ذلك كان فتانا المسكين يحس بقلق من الناحية المادية .

* * *

وهو اولاً لم يدر ماذا يفعل لكي يعوض السيد هوميه عن كل تلك الادوية التي اخذها من صيدليته ، وانه وان كان يستطيع كطبيب ان لا يدفع ثمنها ، الا انه مع ذلك كان يحمر خجلاً من هذا الدين . ثم ان نفقات المنزل قد اصبحت باهظة بعد ان صارت الطباخة سيدة المنزل .

فالفواتير تتساقط ، والمتعهدون يتمتمون والسيد ليريه بنوع خاص اخذ
بلاحقه . والواقع ان هذا الأخير قد انتهز الفرصة عند اشتداد المرض
بأما لكي يشحن الفاتورة فأحضر المعطف وحقية الليل ، وحقيتي سفر
كبيرتين بدلاً من واحدة ، وعدة اشياء اخرى . وعبثا كان شارل يردد
انه لا حاجة به الى كل هذه الاشياء ، فقد رد التاجر - في غطرسة -
بأنها قد طلبت منه وانه لن يستردها ، فضلاً عما في ذلك من مضايقة
للسيدة اثناء نقاهتها ، فعلى السيد ان يفكر . وبالجملة كان مصمماً على
ان يرفع الامر الى القضاء للمحافظة على حقوقه بدلاً من ان يسترده
بضائعه . وبعد ذلك بوقت قصير امر شارل بأن ترد الى دكانه . ولكن
فيليسيته نسبت اذ كانت لديها مشاغل اخرى ، ولم يفكر احد بعد ذلك
في ردها . فعاد السيد ليريه مطالباً وهو يهدد ويثن طوراً بعد طور ،
وظل يحاور ويداور حتى اضطر بوفاري ان يضحى بكتابة كميالة تستحق
بعد ستة اشهر . ولكنه لم يكده يوقع الكميالة حتى عنت له فكرة جريئة
وهي ان يقترض ألف فرنك من السيد ليريه فسأل في ارتباك عما اذا كان
من الممكن الحصول عليها ، مضيفاً انها ستكون لمدة سنة وبالارباح التي
يريدها التاجر . فجرى ليريه الى دكانه وعاد معه بالنقود ، وأمل كميالة
اخرى تعهد بوفاري بمقتضاها ان يدفع لأمره في اول سبتمبر المقبل مبلغ
ألف وسبعين فرنكاً ، التي تضاف الى المائة وثمانين فرنكاً المتفق عليها
من قبل ، فيصبح المبلغ ألفاً ومائتين وخمسين . وهكذا اقرض بسة في
المائة مضافاً اليها الربيع مقابل عمولة وذلك فضلاً عن ان البضاعة قد
جنى منها ربحاً يساوي الثلث على الاقل بحيث يخرج من الصفقة بربح
قدره مائة وثلاثون فرنكاً في اثني عشر شهراً . بل وكان يأمل ان
لا تقف العملية عند هذا الحد ، فلا يستطيع سداد المبلغ ويجدد الكميالة
فتتغذى نقوده المسكينة عند الطبيب وكأنها في دار علاج ، فتعود اليه

يوماً وقد اقتصرت وتضخمت حتى ليزمق منها الكيس .
والواقع انه كان ناجحاً في كل شيء . فقد رسا عليه مزاد توريد السيدر
لمستشفى نيوشاتل ، ووعده السيد جيومان بعدد من الاسهم في مناجم تراب
النفط في جرومينيل ، وكان يحلم بأن ينظم خط مواصلات بالعربات بين
اركبي وروان . ولن يطول الزمن عندئذ في شل عربة « الاسد الذهبي »
وستكون عرباته الاسرع والاقبل اجراً واكبر حمولة كفيلاً بأن تضع كل
تجارة ايونفيل بين يديه .

وتساءل شارل عدة مرات بأية وسيلة يستطيع في العام المقبل ان يسد
كل هذا الدين .

واخذ يبحث ويتخيل الوسائل ، كأن يرجع الى والده او ان يبيع
شيئاً . ولكن والده سيصم دونه اذنيه ، وهو ليس لديه شيء يبيعه .
وعندئذ احس من الحرج والارتباك ما دفعه الى ان ينحى عن تفكيره
موضوعاً ممضاً كهذا . ولام نفسه اذ انساه هذا الموضوع ايما . وكان
كل تفكيره رهن تلك المرأة وكأنه يسلبها شيئاً اذا لم يفكر فيها باستمرار .
كان الشتاء قاسياً وطالت بالسيدة النقاها .

وعندما يصحو الجو كانوا يدفعونها في المقعد الى جوار المدفأة التي
تطل على الميدان ، وذلك لانها الآن اصبحت تبغض الحديدية . وظلت
النافذة المطلة عليها مغلقة باستمرار . وودت لو باعوا الحصان الذي كانت
تجبه فيما مضى والذي اصبحت تبغضه الآن . ولاح بان جميع افكارها
قد اقتصرت على العناية بنفسها ، فكانت تظلل في الفراش حيث تتناول
وجبات خفيفة وتدق الجرس لكي تسأل الخادمة عن النقيع الذي تعده ،
او لكي تتحدث معها .

ومع ذلك اخذ الجليد يعكس من فوق سقف السوق في الغرفة شعاعاً
ابيض ساكناً . ثم جاء المطر الذي اخذ يتساقط . وكانت ايما تنتظر في
لهفة كل يوم تكرر تلك الاحداث الصغيرة المحتومة التي لم تكن مع ذلك

تمهما في شيء . وكان اهم تلك الاحداث هو وصول « العصفورة » في المساء .

وعندئذ كانت صاحبة الفندق تأخذ في الصباح وتجاوبها اصوات اخرى ، بينما يبحث هيبوليت عن الحقايب فوق غطاء العربة وفي يده مصباحه الكبير وكأنه نجمة وسط الظلام . وعند الظهر كان شارل يعود الى المنزل ثم يخرج ثم يتناول طبقاً من الحساء . وحوالي الساعة الخامسة عند الغروب كان الاطفال يعودون من المدارس وهم يجرون احذيتهم فوق الرصيف ويضربون الواحد بعد الآخر مدقات المنازل بمساطرهم . وتلك كانت الساعة التي يأتي فيها السيد بورفيزيان لرؤيتها . وكان يسأل عن صحتها ويحمل اليها الاخبار ، ويدعوها الى الدين في ثرثرة صغيرة ناعمة لم تكن تخلو من طرافة . وكان منظر مسوحيه نفسه يشد من عزمها .

وفي يوم اشتد بها المرض حتى ظنت انها تحتضر فطلبت ان تتناول القربان ، وبينما كانوا يعدون العدة بالغرفة لهذا التناول ويضعون المائدة المزدهمة بأنواع العقاقير لتستخدم كمدبج ، وفيليبسيتيه تنثر الارض بأزهار الداليا اذ بايما تحمس بشيء قوي يمر فوقها فيخلصها من آلامها ومن ادراكها واحساسها ، وتخفف جسمها من عبء الفكر ، وابتدأت حياة اخرى ولاح لها ان كيائها الصاعد نحو الله سيفنى في ذلك الحب ، كالبخور المشتعل الذي يتبدد بخاراً .

ورشوا الماء المقدس فوق ملاءات السرير واخذ القسيس القربان الابيض من المزود المقدس وانهارت من النشوة الالهية وهي تمر شفيتها لكي تتناول اسم المسيح الذي تقدم اليها . وانضخت ستائر مخدعها حولها في ليونة وكأنها سحب ، والشمعتان تلتهبان فوق المائدة فتلوحان لها هاتين مجد يعشي الابصار . عندئذ تركت رأسها يسقط ، وقد خيل اليها انها تسمع في فضاء السماوات اغنية الملائكة على نغمات الاعواد . وانها ترى في زرقة

السماء الله الأب مشرق العظمة - فوق عرش ذهبي بين القديسين الذين يسكنون اغصاناً خضرا ، وبأشارة منه تهبط الملائكة الى الارض بأجنحة من لُب ليحملوها بين اذرعهم .

وظلت هذه الرؤيا الرائعة في ذاكرتها كأجمل شيء يمكن ان نحلم به حتى انها لتجاهد الآن لكي تسترد الاحساس بها ، ورغم ان الاحساس لا يزال مستمراً ، ولكن على نحو اقل استحواذاً ، وان يكن في نفس العذوبة العميقة . فروحها التي هدتها الكبرياء تستريح اخيراً في خشوع المسيحية ، وتتذوق لذة الاحساس بضعفها . وأخذت ايما تتأمل في ذاتها تحطم ارادتها التي اخذت تفتح الباب واسعاً لفيض من رحمة الله . وهكذا احست بأنه بدلاً من السعادة توجد مسرات اعظم ، كما يوجد حب فوق كل انواع الحب الاخرى - حب لا ينقطع ولا ينتهي بل يزداد على نحو دائم . ولمحت بين رؤى آمالها حالة من الظهيرة تسبح فوق الارض وتختلط بالغياء ، هفت اليها روحها ، فودت ان لو اصبحت قديسة ، فاشترت مسابح وحملت تماثم ، وتمنت ان تجد في غرفتها - عند مرقدتها ايقونة مرصعة بالزمرد لكي تقبلها كل مساء .

وقد دهش القسيس لهذا الاستعداد الذي ابدته ، وان رأى دين ايمان يمكن ان ينتهي بالاقتراب من الانحراف او الاسراف لفرط ما فيه من لهفة . ولكنه لما لم يكن متبحراً في هذه الامور اذا تجاوزت حداً معيناً ، فانه كتب الى السيد بولار امين مكتبة مونسينور لكي يرسل اليه كتاباً قيماً لشخص من الجنس اللطيف ، مليء بالذكاء ، فشحن اليه الامين خليطاً من كل ما كان شائعاً عندئذ في تجارة الكتب المقدسة - شحنها في غير مبالاة ، وكأنه يشحن كمية من الحردوات للزئوج . وكانت كتيبات صغيرة مكونة من اسئلة وأجوبة ، ونشرات ذات نغمة خشنة ، كتلك التي كتبها السيد ديميستر وروايات وردية الغلاف ذات اسلوب معسول لفقها قسس متجولون ، او راهبات ناديات من بينها كتيبات «فكر في

هذا جيداً ، و « رجل المجتمع عند اقدام مريم » مؤلفه السيد دي ...
الذي يحمل عدة نياشين و « ضلالات فولتير » موضحة للشبان الخ .
ولم يكن ذهن مدام بوفاري قد صفا بعد على نحو تستطيع معه ان
تقرأ اي شيء قراءة جدية ، فكانت تقرأ في سرعة مسرفة فثارت ضد
طقوس الدين ، كما ان غطرسة الكتب الجدلوية نفرتها لما فيها من تكالب
على مطاردة اناس لم تكن تعرفهم من قبل والقصص الدنيوية المطعمة
بالدين كانت تلوح لها صادرة عن جهل بالحياة ، ينحيتها على نحو غير
محسوس عن الحقائق التي كانت تنتظر دليلاً يؤيدها . ومع ذلك واظبت
على القراءة . وعندما كان يسقط من يدها مجلد كانت تظن نفسها - مأخوذة
بذلك الأسى الكاثوليكي الرفيق الذي تستطيع ان تحسه روح اثيرية .
وأما ذكرى رودولف فانها كانت قد نزلت بها الى اعماق قلبها ،
حيث بقيت في حالة اكثر جموداً وسكوناً من مومياء ملك في تابوت .
وكانت تنبعث من هذا الحب الكبير المحنط رائحة تحترق كل شيء ،
وتعطر بالحنان جو الطهارة الذي ارادت ان تعيش فيه . وعندما كانت
تركع على ركبتيها فوق المصلى الغوطى كانت توجه الى الرب نفس العبارات
العذبة التي كانت تهمس بها قديماً لعاشقها وسط ابتهالات الحب المحرم .
وكان ذلك لكي تستترل الايمان . ولكن لم تنزل من السماوات اية
نشوة . فكانت تنهض متعبة الأوصال مستشعرة خيبة امل شاسعة . وظنت
ان هذا البحث عن الايمان ليس الا فضيلة اخرى . ودفعتها كبرياء
تبعدها الى ان تقارن نفسها بالسيدات القدامى اللاتي كانت تحلم بمجدهن
فوق صورة للافالير ، واللاتي كن يجرجن في عظمة ذيول اثوابهن
الطويلة المبرقشة ، ثم ينسجن الى الوحدة ، لكن يرقن عند اقدام المسيح
كل تلك الدموع الفائضة من قلب جرحته الحياة .
واستسلمت عندئذ لأعمال البر المسرفة ، فكانت تحيك الملابس للفقراء ،
وترسل الحطب الى الوالدات . وذات يوم وجد شارل عند عودته الى المنزل

ثلاثة صعايك يتناولون الحساء على مائدة في المطبخ . لقد استرجعت الى المنزل ابنتها الصغيرة التي كان زوجها قد ارسلها الى المرضعة اثناء مرض زوجته . وأرادت ان تعلمها القراءة . ولم تعد اعصابها تثور مهما بكيت برت .

وقد وطدت نفسها على الاستسلام والتسامح الشامل . واصبحت لغتها ازاء كل شيء مليئة بالعبارات المثالية . فكانت تقول لطفلتها : « هل انتهى مغصك يا ملاكي ؟ »

ولم تجد مدام بوفاري الأم ما تعيبه الا اذا كان الولع المسرف بصنع قصان للأيتام من التريكو بدلاً من ان تصلح خرق مطبخها . ولكن هذه السيدة الطيبة التي اضمنتها الخلافات المنزلية راقها ان تعيش في هذا المنزل الهاديء بل واستمرت فيه حتى الى ما بعد عيد القيامة لكي تتجنب استهتار الأب بوفاري الذي لم يكن يفوته في كل يوم من ايام الجمعة المقدسة ان يشتري سجفاً .

وفضلاً عن صحة ام زوجها التي كانت تقوي ايمانها قليلاً بفضل استقامة آرائها ووقار حركاتها ، كانت ايما تحظى كل يوم بصحبة أخريات مثل مدام لنجلوا ومام كارون ومام دييوي ومام تيفاش والسيدة الممتازة مدام هوميه ، التي لم ترد قط ان تصدق شيئاً من الشائعات التي انتشرت عن جاريتها فكانت تصاحبها بانتظام بين الساعة الثانية والخامسة . وكان اطفال هوميه يأتون ايضاً لرؤيتها في صحة جوستان الذي كان يصعد معهم الى الغرفة ، حيث يقف الى جوار الباب ساكناً صامتاً . بل وكثيراً ما كانت مدام بوفاري تغفل عن وجوده فتأخذ في اعداد زيتها وتبدأ بسحب مشطها وهي تهز رأسها بحركة عنيفة . وعندما رأى لأول مرة كل هذا الشعر الذي ينزل حتى ركبتها في حلقات سوداء كان هذا المنظر بالنسبة للطفل المسكين بمثابة دخول مفاجيء في شيء خارق جديد اخافته روعته .

ولا شك ان ايما لم تلاحظ تلطفاته الصامته ولا تهيبه ، ولم يحظر بيالها قط ان الحب الذي اختفى من حياتها - ينبض هنا الى جوارها تحت هذا القميص المصنوع من القماش السميك ، وداخل هذا القلب اليباع المتفتح لنداءات جمالها .

فقد اصبحت الآن تغلف كل شيء بغلاف سميك من عدم المبالاة ، فعباراتها مليئة بالعاطفة ، ونظراتها بالترفع ، وحركاتها بالتفاوت ، حتى لم يعد من الممكن تمييز الأثره عن حجة الغير ، والفساد عن الفضيلة. فذات مساء مثلاً غضبت من خادمتها التي طلبت منها ان تسمح لها بالخروج وأخذت تتمم باحثة عذر .

وفجأة قالت : « انت تحبينه اذن . »

ودون ان تنتظر جواباً من فيليسيته التي احمرت خجلاً ، اضافت في نغمة حزينة : « هيا اجري . تمتعي . »

وفي اوائل الربيع قلبت الحديقة رأساً على عقب بالرغم من ملاحظات بوفاري . ومع ذلك فان هذا الأخير قد كان سعيداً بأن يراها تبدي ارادة ما . وأخذت هذه الارادة تزداد كلما تقدمت في استعادة صحتها .

فابتدأت بأن وجدت وسيلة لطرد الأم روليه المرضعة التي كانت قد اعتادت اثناء نقاهتها ان تتردد كثيراً على المطبخ ومعها رضيعيها وربيبها والذي كانت اسنانه أحد من اسنان آكلي لحوم البشر . ثم تخلصت من اسرة هوميه ، كما أخذت تتخلص من جميع الزيارات الاخرى ، بل أخذت تخفف من مواظبتها على الكنيسة ، مما حظي بموافقة الصيدلي المطلقة ، اذ قال لها في نغمة ودية : « انك مخدوعة قليلاً بالمسوح . »

وكان السيد بورنسيان يطوف كل يوم كما كان يفعل في الماضي عند خروجه من الصلاة . وكان يفضل ان يظل في الخارج في الهواء الطلق وسط العريشة التي كان يسميها الحميلة . وكانت تلك هي الساعة التي

يعود فيها شارل . وكانا يشعران بالضجر. ولذلك كانا يحضران نبيذ التفاح ويشربان سوياً نخب شفاء السيدة الكامل .

ويكون بينه هناك ، اي الى اسفل قليلاً عند جدار الشرفة حيث يصيد « ابو جلمبو » . وكان بوفاري يدعو له لكي يرطب حلقه، وكان بينه ماهرأ في فتح الزجاجات .

كان يقول وهو يلقي حوله وعلى مرمى البصر نظرة الرضى عن نفسه: « يجب ان توضع الزجاجاة رأسياً فوق المائدة ، وبعد ان تقطع الخيوط تدفع الفلينة دفعات صغيرة في رفق مستمر على نحو ما يفعلون مع مياه سلس في المطاعم » .

ولكن نبيذ التفاح كثيراً ما كان يفور في وجههم اثناء شرحه . وعند ذلك كان القسيس يضحك ضحكة سميكة ثم لا يفوته قط ان يقذف بهذه النكتة : « ان جودته تقفز الى الاعين » .

والواقع انه كان رجلاً طيباً بل انه لم يبد اشتمزازاً من الصيدلي الذي نصح شارل بأن يذهب بأمراته الى المسرح في روان لكي يرفه عنها بسماع المغني الشهير لاجاردي . واندهش هوميه من صمته وأراد ان يعرف رأيه . فأعلن القسيس انه يعتبر الموسيقى أقل خطراً على الأخلاق من الأدب .

ولكن الصيدلي اخذ يدافع عن الأدب وادعى ان المسرح يحطم الآراء الرجعية ويدعو الى الفضيلة تحت ستار اللهو.

وأضاف قائلاً باللغة اللاتينية : « انه يقوم الأخلاق بالضحك يا سيد بورنسيان . فانظر مثلاً الى مسرحيات فولتير تجدها ممزوجة في مهارة بالآراء الفلسفية التي تعتبر بالنسبة للشعب مدرسة حقيقية للأخلاق والدبلوماسية » وقال بينه : « اما أنا فقد رأيت قديماً مسرحية تسمى « طفل باريس » حيث تظهر شخصية قائد عجوز يلوح انه مختل العقل حقاً ، فهو يردع ابن أحد الأسر لأنه أغوى عاملة وفي النهاية ... » .

فاستمر هوميه قائلاً « لاشك ان هناك ادباً رديئاً ، كما ان هناك صيدلة رديئة ولكن ادانة أهم الفنون الجميلة بالجملة يلوح لي غباوة وتزمتاً لا يليقان الا بتلك الأيام اللعينة التي سجن فيها جاليليو .

فاعترض القسيس قائلاً : « انني اعلم جيداً ان هناك كتباً جيدة ومؤلفين فضلاء ، ومع ذلك فلو لم يكن هناك غير اجتماع الناس من الجنسين معاً في قاعة ساحرة مزينة بمباهج الدنيا ، ثم تلك الملابس الوثنية ، وتلك المساحيق والمشاغل والاصوات المختثة لكفى كل ذلك لكي ينتهي بتوليد نوع من الاباحية النفسية ، وغرس الافكار الفاسدة والشهوات الدنسة . وهذا على الأقل هو رأي جميع آباء الكنيسة » وأضاف وقد اتخذ صوته فجأة نغمة صوفية وهو يكور فوق ابهامه عطوساً من الطبايق « ومع ذلك فانه اذا كانت الكنيسة قد أدانت المسارح فان لديها من الاسباب ما يبرر هذه الادانة ، ومن واجبتنا ان تخضع لأوامرها .

فسأل الصيدلي : « ولكن لماذا حرمتهم الممثلين من الكنيسة مع انهم كانوا فيما مضى يساهمون جهاراً في الاحتفالات الدينية . نعم كانوا يلعبون ويمثلون في داخل الكنائس انواعاً من المهازل التي تسمى بالاسرار وفيها كانت تتمهن قواعد اللياقة . »

واكتفى القسيس بأن تنهد بينما استمر الصيدلي يقول : « كما ان الكتاب المقدس فيه ... فيه كما أعلم ... اكثر من جزئيه ... لاذعة... أشياء ... في الواقع بالغة التحرر . »

وعندما قام السيد برونسيان بحركة تدل على الغضب قال الصيدلي : « آه . لا نشك انك توافق انه ليس كتاباً يوضع بين أيدي الشباب ، وانه ليزعجني اذا كانت اتاليا ... »

فصاح الآخر وقد نفذ صبره : « ولكن البروتستانت لا نحن هم الذين يوصون بقراءة الكتاب المقدس . »

فقال هوميه : « وعلى أية حال فانه لما يدهشني في ايماننا ، وفي

عصر النور ان يصبروا على اداة ترفيه ذهني لا ضرر فيه ، بل اخلاقي وصحي في بعض الأحيان أليس كذلك يا دكتور ؟ » .

« بلا ريب » - تلك كانت الاجابة التي أجاب بها الدكتور في عدم مبالاة ، اما لأنه كان يعتقد في نفس الآراء ولم يرد ان يسيء الى أحد ، واما لأنه لم تكن لديه أية افكار .

ولاح ان المناقشة قد انتهت عندما رأى الصيدلي انه من المناسب ان يضرب آخر ضربة فقال : « لقد عرفت قسماً يرتدون الملابس المدنية لكي يذهبوا لرؤية الراقصات وهن يتبخترن » .

فقال القسيس : « ما هذا الذي تقول ؟ »

فأجاب : « آه لقد عرفت قسماً من هذا النوع . »

وكرر هومييه عبارته الاخيرة وهو يمد في مقاطعها . «

عرفت قسماً من هذا النوع » .

فقال بورنسيان وقد وطد نفسه على سماع كل شيء : « فليكن . لقد

كانوا مخطفين » .

فصاح الصيدلي : « يا لله . وهم يفعلون غير ذلك أيضاً » .

فقال القسيس في نظرة مفترسة أخافت الصيدلي : « سيدي »

فقال الصيدلي في نغمة أقل حدة : « ان كل ما اريد قوله هو ان

التسامح خير وسيلة لجذب النفوس نحو الدين » .

فقال الرجل وهو يعتدل في جلسته فوق الكرسي :

« هذا حق . هذا حق . »

ولكنه لم يمكث غير دقيقتين ، وبمجرد ان انصرف قال السيد هومييه للطبيب : هذا هو ما يسمى باشتباك المناقير . لقد طويته طياً كما رأيت ، ولكن صدقتي ، وخذ السيدة الى المسرح ، ولو لم يكن في ذلك الا اثارتك مرة في حياتك لأحد هؤلاء الغربان . ووالله ، لو استطاع أحد ان يحل محلي ، لصاحبتكما بنفسي . اسرعوا فان لاجاردي لن يغني غير

ليلة واحدة ، وقد ارتبط في انجلترا بأجور ضخمة ، فهو فيما يقولون « نمس » ماهر ! يتقلب فوق الذهب أو هو يصطحب معه ثلاث عشيقات وطاهية ! ان هؤلاء الفنانين الكبار يحرقون الشمعة من طرفيها، وهم في حاجة الى حياة مهتكة لكي يثيروا قليلاً خيالهم ، ولكنهم يموتون في المستشفى ، وذلك لانهم لم يفتنوا في شبابهم الى ان يدخروا شيئاً ! هيا ! هنيئاً مريئاً ! والى الغد ! »

ولم تلبث فكرة المسرح ان نمت بسرعة في رأس بوفاري ، فقد بادر فأخبر بها امرأته ، التي رفضت في اول الأمر متغلة بالتعب والمشقة والتكاليف ، ولكن شارل على غير عادته لم يرضخ ، وذلك لشدة ايمانه بأن هذا الترويج سيفيدما كثيراً . ولم يكن هناك اي عائق ، فقد أرسلت اليهم أمه ثلثمائة فرنك لم يكونوا يتوقعونها ، والديون الجارية لم تكن جسيمة ، وموعد استحقاق كيميالات ليريه لا يزال بعيداً ، بحيث أنه لم يكن هناك محل للتفكير فيها ! ولما كان شارل يظن ان امرأته غير متحرجة ، فقد اخذ يزداد الحاحاً ، حتى انتهى الامر بأن وافقت تحت تأثير الحاحه . وفي اليوم التالي سافرا في الساعة الثامنة في «العصفورة» . وتنهذ الصيدلي الذي لم يكن هناك ما يستوجب بقاءه في ابونفيل ، ولكنه اعتقد مع ذلك انه مضطر الى عدم مغادرتها ، وقال وهو يراهما مسافرين : « هيا - رحلة سعيدة ! يا لكما من محظوظين ! »

ثم وجه الحديث الى اما التي كانت تلبس ثوباً من الحرير الازرق بمراوح اربع قائلا : « انني اراك جميلة كالكلمة الحب والسوف و بشرق ضياؤك في روان ! »

وتوقفت العربة عند فندق « الصليب الاحمر » في ميدان بوفوازين ، وكان من تلك الفنادق التي توجد في قرى الريف ، وبها حظائر واسعة ، وغرف نوم ضيقة . وفي فنائها يشاهد الدجاج وهو يلتقط الشوفان تحت عربات المندوبين التجاريين الملطخة بالاوحال ... اكواخ عتيقة ذات

شرفات من الخشب الذي ينخر فيه السوس ، والذي يقرقع عندما تهب
الريح في ليالي الشتاء ، وهي مليئة دائماً بالناس والضوضاء والمأكولات ،
وحيث ترى الموائد السوداء لزجة من أثر ما يتساقط عليها من قهوة او
شاي مسكرين ممزوجين بالحمز، وزجاج النوافذ السميك مصفر من الذباب،
والفوط المبللة ملوثة ببقع من النييلد الازرق، والتي تفوح منها دائماً رائحة
القرية كعمال المزارع الذين يرتدون ملابس المدينة . ولها مقهى على الشارع ،
وحديقة خضروات من ناحية الحقول . وأخذ شارل العمل فوراً .
وكان يخلط بين الصلاة والمقاصير ، وبين بناوير واللوجات . وطلب
ايضاحات ولكنه لم يفهمها ، فأرسله المراقب الى المدير . وعاد الى الفندق
ثم ارتد الى المكتب ، وهكذا جاب المدينة من اقصاها الى ادناها عدة
مرات من دار المسرح الى الطريق العام .

واشترت السيدة قبة وقفازاً وياقة زهر . وأما السيد فقد كان يخشى
كثيراً ان يتأخر عن بدء المسرحية ، فلذلك لم يجد الوقت الكافي لكي يزدرد
حسائه ، ووصل الاثنان امام ابواب المسرح التي كانت لا تزال مغلقة .

كان الجمهور واقفاً بازاء الحائط ، وقد تجمع في مجموعات متقابلة
بين حواجز الشرف، وعلى ناصية للشوارع المجاورة كانت توجد اعلانات
ضخمة كتبت عليها بأحرف كبيرة عبارات « لوسي دولامرمور
لاجاردي اوبرا الخ »
وكان الجو صحواً حاراً ، والعرق يتصبب في الشنايا . والمناديل المنشورة
تجفف الجباه الحمراء وحياناً تهب ريح فاجرة من النهر فتهد في رفق
حافة مظلات القماش المعلق فوق ابواب المقاهي ومع ذلك فعلى مسافة قريبة
كان يسري تيار منعش من الريح الثلجية تفوح منه رائحة الشحم والجلد
والزيت ، وتلك كانت رائحة شارع العربات المليء بحوانيت كبيرة
يدحرجون فيها البراميل .

وارادت ايما ان يتمشيا قليلاً على الميناء للنزهة وتمضية الوقت ، حتى لا يلوحان مضحكين وهما ينتظران امام ابواب المسرح التي لا تزال مغلقة . وامسك شارل على سبيل الاحتياط بالتذاكر في يده داخل جيب سرواله الذي ضمه الى بطنه .

وخفق قلبها منذ دلفت الى الردهة ، وابتمت ابتسامة غير ارادية من الغرور عندما رأت الجمهور يتدافع على اليمين في المشاة الأخرى ، بينما صعدت هي سلام الدرجة الاولى . وكانت تجد سروراً كسرور الاطفال عندما تدفع باصبعها الابواب الواسعة المبطنة بالبلاد وكانت تستنشق بملء رئتيها رائحة المشايات المعبأة بالغبار ، وعندما جلست في مقصورتها شدت جسمها في غطرسة المركيزة .

وابتدأت الصلاة تمتليء واستلت العوينات من جرابها ، واخذ المشتركون يلمح بعضهم البعض عن بعد ويتبادلون التحية ، وقد اتوا ليتلهوا بالفنون الجميلة عن قلق التجارة ، ولكنهم لم ينسوا الاعمال قط ، فكانوا لا يزالون يتحدثون عن القطن والحمور او النبلة .. وكانت ترى رؤوس العجايز المسالمة الخالية من كل تعبير وكأنها ميداليات من الفضة اطفأ بريقها بخار الرصاص . والشبان المرد بشرقون في الصلاة ناشرين من فتحات صداراتهم الرقبة الوردية او التفاحية الخضراء .

وكانت مدام بوفاري تعجب بهم من اعلى ، وهم يقبضون بقفازاتهم الصفراء على كرات عصيهم المذهبة .

واشتعلت مصابيح الاوركسترا ، وتدلت الثريا من السقف فانساب من بلورها نور ، ناشراً بهجة مفاجئة في الصلاة . ثم دخل الموسيقيون بعضهم خلف بعض ، وسمعت اولاً ضوضاء من شخير الفيولونسل ، ثم صراخ الكمان وضجة البوق ونوح الناي والمزمار . ولكن لم تلبث ان سمعت ثلاث دقات على المسرح وأخذت الطبول تدق ، وعزفت الآلات النحاسية بعض الإنغام ، وعندما ارتفعت الستارة كشفت عن منظر طبيعي .

كان ملتقى طرق في غابة وعلى اليسار نافورة ماء تظلها شجرة بلوط ،
وفلاحون ، ونبلاء يحملون معاطفهم فوق اكتافهم ، وقد اخذوا يغنون
سويًا احدى اغنيات الصيد . ثم ظهر ضابط وأخذ يبتهل الى ملاك الشر
رافعاً ذراعيه الى السماء فظهر شخص آخر ثم اختفيا . واستأنف الصيادون
غناهم .

واحست بنفسها من بين قراءات الشباب وسط قصص وولتر سكوت ،
وخيل اليها انها تسمع من خلال الضباب صوت القرب الاسكتلندية ،
وهو يتردد بين الاعشاب الملتفة . والواقع ان ذكريات القصة سهلت لها
فهم الاوبريت فتابعت القصة عبارة بعد عبارة وذلك بينما كانت الخواطر
الخفية التي تعود اليها لا تلبث ان تتبدد تحت امواج الموسيقى؛ وأخذت
ترنح مع هدهدة الانغام، وأحست بكيانها كله يهتز وكأن قوس الكمان يمر
فوق اعصابها ، ولم تكفها عينها لكي تتأمل الملابس والديكور والاشخاص
والاشجار الملونة التي كانت تهتز عندما يسير الممثلون فوق المسرح ،
والمعاطف وملابس الممثل والجرب وكل هذه الرؤى التي كانت تتحرك
في انسجام الموسيقى وكأنها في جو من عالم آخر . ولكن امرأة شابة
تقدمت وهي تقذف ببذرة من النقود الى فارس اخضر الثياب وبقيت
وحدها . وعند ذلك سمع ناي يحدث نغمًا كأنه خرير نافورة او زقزقة
عصفور ، وغنت لوسي مذهباً في نغمة جادة من الصول ماجير ، كانت
تشكو الغرام وتمنى جناحين ، وكذلك ايما كانت تود ان تهرب من
الحياة لطير في عناق ، وفجأة ظهر ادمار لاجاردي .

كان في شحوب رائع يوحى بعظمة الرخام التي تبدو على تلك الاجناس
المارة من سكان الجنوب . وكان صدره القوي مشدوداً في صدر بني اللون ،
وخنجر صغير منقوش بصطك بفخذه الايسر وهو يقرب نظرات وهانة
ويكشف عن اسنانه البيضاء .

ويروون ان اميرة بولندية سمعته ذات مساء وهو يغني على شاطئ

بيارتز حيث كان يعمل في القوارب، فأغرمت به وفقدت ثروتها بسببه ،
ثم تخلى عنها بسبب نساء اخريات . وقد ساهمت هذه الشهرة الغرامية في
شهرته الفنية .

بل وكان هذا الممثل الخيىث يحرص دائماً على ان يزوج في اعلاناته
عبارة شقوية عما في شخصه من سحر وفي روجه من حساسية . وبخنجرة
قوية وجراءة ثابتة ، وحرارة اكثر من ذكاء ومبالغة اكثر من عاطفة
شعرية ، استطاع هذا المهرج ان يرفع من طبيعته التي كان فيها شيء
من طبيعة الحلاق ومضارع الثيران .

وقد اثار الحماسة منذ الشهر الاول وهو يضم لوسي بين ذراعيه
ويتركها ثم يعود اليها وقد لاح عليه انه بائس . كانت تنطلق منه انفجارات
الغضب وحشجة الاين في حنان لا حد له .

والنغزات تنطلق من عنقه العاري مليئة بالتنهدات والقبلات ، وكانت
ايما تنحني لكي تراه وهي تخدش باظافرها مخمل المقصورة، وأخذت تملأ
قلبا بالنحيب المنغم الذي استرسل مع صوت الكنتراباص ، وكأنه صيحات
غرقي في ضجيج العاصفة . ووجدت فيه صدى لكل ذلك الثمل واللهفة
الذين اوشكا ان يقتلاها ، وكان صوت المغنية يلوح لها ترحيباً لمكنون
نفسها بل ولاحت لها كل هذه الرؤيا جزءاً اصيلاً من حياتها .

ولكن احدآ في الدنيا لم يحبها مثل هذا الحب ، فهو لم ييك كادجار في
العشية الاخيرة عندما تبادلوا عبارة : الى الغد الى الغد .

واهتزت القاعة بعبارات الاستحسان واستعيدت الحاتمة كلها وتحدث
العشيقان عن ازهار قبرهما ، وعن المهد والفراق والقدر والآمال . وعندما
نطقا بالوداع الاخير، اطلقت ايما صيحة حادة اختلطت برنين آخر النغزات
الموسيقية .

وتساءل بوفاري : لماذا يضطهدها هكذا هذا النبيل ؟
فاجابت ايما : لا ... انه عشيقها .

فقال شارل: « ومع ذلك يقسم بأنه سينتقم من أسرته بينما الآخر الذي ظهر من هنية كان يقول ، « اني احب لوسي واضن انها تحبني ، كما انه انصرف مع ابيها وكل منها يتأبط ذراع الآخر ، لانه ابوها - أليس كذلك ؟ ذلك الرجل القصير القبيح الذي يلبس ريشة ديك في قبعته ؟ . وبالرغم من تفسيرات ايمما منذ بدء الحوار الذي عرض فيه جيلبير حيلة الأثمة على سيده اشتون ، فان شارل عندما رأى دبله الخطوبة الكاذبة التي اتخذت بها لوسي اعتقد انها كانت تذكر حب مرسل من ادجار ، وان يكن قد اعترف بأنه لم يفهم القصة بسبب الموسيقى التي اساءت كثيراً الى الحوار .

وقالت ايمما : « فليكن : اسكت : »

فقال وهو ينحني فوق كتفها : « اني فقط احب ان افهم كما

تعلمين : »

فقال وقد نفذ صبرها : اسكت : اسكت :

وكانت لوسي تتقدم ونساؤها يسندنها نصف اسناد ، وفي شعرها تاج من اغصان البرتقال ، ووجهها اكثر شحوباً من ساتان ثوبها الابيض، فأخذت ايمما تحلم بيوم زواجها وقد تصورت نفسها هناك وسط حقول الحنطة على الطريق الصغيرة ، عندما كانوا يسرون نحو الكنيسة . فلماذا اذن لم تقاوم كهذه ولم تنزع ؟

لقد كانت على العكس من ذلك فرحة لا ترى الهاوية التي تتردى فيها . آه يا ليتها وهي في نضرة الجبال وقبل التلوث بالزواج وضلال الحياة الزوجية قد علقت حياتها بقلب كبير صلب ، وعندئذ كانت الفضيلة والحنان والشهوة والواجب تختلط معاً بحيث لا تسقط قط من قبة تلك السعادة . ولكن هذه السعادة كانت بلا ريب اكلوبة متخيلة لكي تنزل اليأس بكل رغبة . فهي الآن تعرف ضالة الاحساسات التي يباليغ فيها الفن . وهكذا حاولت ايمما ان تصرف تفكيرها لكي لا ترى في تمثيل آلامها على

المسرح إلا خيالاً مجسماً يصلح لتسليّة العيون ، بل واخذت تبسم ابتساماً داخلياً في اشفاق مترفع ، وذلك عندما ظهر في اقصى المسرح ، تحت باب من المخمل ، رجل يرتدي عباءة سوداء .

وسقطت قبعته الاسبانية عندما قام بحركة ، وبعد ذلك مباشرة ابتدأت الآلات والمغنون في القطعة السداسية ، وغطى اادجار الهاج الغضب على جميع الآخرين ، بصوته الأكبر صفاء ، وقد اخذ اشتون يوجه اليه بنغيات عميقة تحدياته القاتلة ، كما اخذت لومي تطلق شكواها الحادة بينما اخذ ارتير ينغم جانباً بعض الانغام المتوسطة . والباريتون الاول يدوي كالارغون ، واصوات النساء ترجع عباراته على هيئة جوقة ممتعة . وكانوا يقفون في صف واحد وكان الغضب والانتقام والغيرة والرعب والدهشة تنطلق معاً من افواههم المنفرجة ، فالعاشق المهتاج يشهر سيفه المسلول وياقة الدانتيللا ترتفع وتنخفض تبعاً لحركات صدره ، وهو يذهب بمنة ويسرة بخطى واسعة ، ويقف على خشبة المسرح بمهازه القرمزي المركب في حذائه الطري الذي ينفرج عند ساقه . وخطر لها انه يحمل بلا ريب حباً لا ينفذ حتى يستطيع ان يصب فيه على الجمهور كل هذا الفيض الكبير ، واختفت كافة نزعات النقد من نفسها تحت تأثير شاعرية الدور التي اخذت تغذوها وانجذبت نحو الرجل بوهم التمثيل فحاولت ان تتصور حياته ، تلك الحياة الصاخبة الفريدة الرائعة ، والتي كانت تستطيع مع ذلك ان تحياها لو سمح الحظ فتعرف احدهما بالآخر واحبه . وكانت تستطيع ان تجوب معه اوروبا عاصمة عاصمة ، وان تشاركه متاعبه ومواضع فخاره ، وان تلتقط الازهار التي ترمي اليه ، وان تطرز بنفسها ملابسه ، وفي كل مساء تلتقي مشدوهة ، وهي جالسة في احد الالواج خلف الحاجز ذي القضبان الذهبية ، انفجارات عواطف تلك الروح التي لن تغني عندئذ الا لها وحدها ، وهو ينظر اليها من فوق المسرح اثناء قيامه بدوره . ثم استولى عليها الحجل ... ان ينظر اليها لا شك في ذلك

وثارث بها الرغبة في ان تلقي بنفسها بين ذراعيه لكي تحتمي بقوته، وكأنه قد اصبح الحب مجسماً ، وان تقول له بل وتصيح : اخطفني . خذني فلنرحل : فلك ، لك وحدك كل اشواقي وكل احلامي .
ونزلت الستارة .

واختلطت رائحة الغاز بالانفاس ، وزاد هواء المراوح الجو اختناقاً . وأرادت ايما ان تخرج . وكان الجمهور يملأ المرات فارتمت في مقعدها مخنقة بدقات قلبها . وخشي شارل ان تصاب بالاغماء، فجرى الى البوفيه لكي يحضر لها كوباً من نقيع الشعير .

ووجد مشقة كبيرة في ان يعود الى مقعده ، لانه كان يصطدم بمرفقه عند كل خطوة بسبب الكوب الذي يمسكه بين يديه . بل وانسكب ثلاثة ارباعه على اكتاف سيدة من رواده كانت ترتدي ثوباً قصيراً بلا أكمام : واحست بالشراب البارد ينساب على ظهرها فارسلت صرخات كصرخات الطاووس وكأنها ذبحت . وثار زوجها، وهو صاحب مصنع نسيج ، ضد هذا التصرف الأخرق .

وبينا كانت السيدة تجفف بمنديلها البقع من فوق ثوبها الجميل المصنوع من التافتاه ذات اللون الكزبري ، كان زوجها يتمم في نعمة مكظومة عبارات التعويض والنفقات والاسترداد . واخيراً وصل شارل الى جوار زوجته وقال وهو يلهث : لقد ظننت اني لن اصل فهناك زحام ... زحام ...

ثم اضاف : « احسني من قابلت هناك ؟ ... السيد ليون - ليون ! »
- ليون ؟

- هو نفسه : وسيحضر ليقدم اليك احتراماته .

ولم يكذب ينتهي من هذه العبارة حتى دخل المقصورة كاتب ابونفيل القديم .

ومد يده في غير تكلف وكأنه من الطبقة العليا المهذبة ومدت مدام

بوفاري يدها آلياً وهي تستجيب بلا ريب الى جاذبية ارادة اقوى . ولم تكن قد مست تلك اليد منذ امسية الربيع التي كان ينهمر فيها المطر فوق الاوراق الخضراء ، عندما ودع احدهما الآخر وهي واقفة عند حافة النافذة . ولكنها تذكرت في سرعة ما يقتضيه الموقف من لباقة، فنفضت في جهد ما في ذكرياتها من خول ، واخذت تتمم في عبارات سريعة :

– آه طاب وقتك ... كيف حالك ؟

– انت هنا ؟

وصاح صوت من الصالة اذ كان الفصل الثالث قد ابتداء « هس » .

– انت اذن في روان ؟

– نعم .

– ومنذ متى ؟

– اخرجوا ، اخرجوا !

والتفتت اليها الانظار فسكتا .

ولكنها منذ تلك اللحظة لم تعد تنصت الى جوقة المدعوين ومشهد اشتون وخادمه، وهو دبالوج غنائي كبير من الري ماجير ، كل هذا مر بالنسبة اليها قصياً ، وكأن الآلات قد اصبحت اقل رنيناً والشخصيات اكثر بعداً . واخذت تتذكر لعب الورق عند الصيدلي، والنزهة عند المرضعة ، والقراءات تحت العريشة ، والخلوات الى جوار المدفأة . وكل هذا الحب المسكن الهادئ الطويل المتحفظ الحنون ، الذي كانت مع ذلك قد نسيته . فلماذا يعود اذن ؟ كيف تأمرت المصادفات لكي تعود به الى حياتها ؟ وظل واقفاً خلفها مستنداً بكتفه الى حاجز المقصورة ، وبين وقت وآخر كانت تحس برعشة من تأثير الانفاس الدافئة المنبعثة من انفه الى شعرها : وقال وهو ينحني فوقها عن قرب حتى مس طرف شاربه خدها :

«هل هذا يروقك ؟»

فاجابت في غير اهتمام : «اوه ! في الحق . لا ! لا يروقي كثيراً»

وعندئذ اقترح ان يخرجوا من المسرح ليتناولوا المثلجات في جهة ما .
فقال بوفاري : لا ليس الآن ؛ فلننتظر ، ان شعرها منفوش ، مما
يدل على ان المشهد سيكون عنيفاً .

ولكن مشهد الجنون لم يثر اهتمام ايما ولاح لها تمثيل المغنية مبالغاً فيه .
وقالت انها تصبح بصوت اكثر ارتفاعاً مما يجب .

والتفتت الى شارل وهي تقول هذه العبارة ، بينما كان هو منصتاً .
فأجاب وهو يتأرجح بين حيرته الواضحة والاحترام الذي يحمله لآراء
زوجته : « نعم .. ربما .. قليلاً »

وقال ليون وهو يتنهد :

— يا له من جو حار !

— لا يحتمل هذا بالفعل !

وسأل بوفاري : — هل انت متضايقه ؟

فاجبت : — نعم . اني اختنق . فلنخرج .

ووضع السيد ليون في رفق فوق كتفها شالها الطويل المصنوع من
الدانيللا ، وهب الثلاثة لكي يجلسوا عند الميناء في الهواء الطلق امام
واجهة احد المقاهي .

وجرى الحديث اولاً عن مرضها وان تكون ايما قد قاطعت شارل
من وقت الى آخر ، زاعمة انها تخشى ان يكون في هذا الحديث ما يضايق
السيد ليون . واخبرهم هذا الاخير بأنه قد اتى الى روان لكي يمضي
سنتين في مكتب كبير لكي يتمرس بالاعمال التي تختلف في نورمانديا
عنها في باريس . ثم سأل عن برت واسرة هوميه والأم ليفرانوا . ولما
لم يكن لديها شيء آخر يقولانه في حضور الزوج فان الحديث لم يلبث
ان توقف .

وكان الناس الخارجون من المسرح يمرحون على الرصيف وهم يدندنون
او ينهقون بملء حناجرهم . « ايها الملاك الجميل » . اي لوسي :

وعندئذ اخذ ليون يتفقه ويتحدث عن الموسيقى . فهو قد رأى
تامبوريني وروبيني وبرسياني وجريزي فضلاً عن لاجاردي الذي لا يساوي
شيئاً رغم صرخاته العالية .

وقاطعه شارل وهو يقضم في جرعات صغيرة شرابه الممزوج « بالروم »
ومع ذلك فأنهم يقولون انه رائع كل الروعة في الفصل الأخير واني
لنادم لخروجي قبل النهاية ، وذلك لانه كان قد اخذ يروقني .

فقال الكاتب : « ومع ذلك فأنهم سيعرضون عما قريب رواية اخرى » .
ولكن شارل اجاب بانهم سيرحلون في الغد .

واضاف وهو يلتفت نحو زوجته : وذلك ما لم تريد ان تبقي وحدك
يا قطبي الصغيرة ؟

وانتهز الشاب هذه الفرصة غير المتوقعة التي سنحت لأمله فغير من
مناورته واخذ يمتدح لاجارديه في مقطوعته الختامية قائلاً : لونه شيء
ضخم جليل !

وعندئذ ألح شارل قائلاً « ستعودين يوم الأحد . هيا ، قرري :
انك مخطئة في ترددك اذا كنت تحسبن ان هذا قد يفيدك اقل فائدة » .
وفي اثناء ذلك اخذت الموائد تخلو من حولهم ، وجاء خادم ووقف الى
جوارهم في تأدب . وفهم شارل فسحب كيسه ومنعه الكاتب بذراعه ، بل ولم
ينس ان يترك فضلاً عن الثمن ، قطعتين من العملة الفضية رهنها على الرخام :
وتتم بوفاري قائلاً « اني في الواقع غير مرتاح للنقود التي » .
وبدت من الآخر حركة حفاوة مترفة ثم قال وهو يتناول قبعته :
اتفقنا : « أليس كذلك .. الى الغد في الساعة السادسة » .

وصاح شارل مرة اخرى بانه لا يستطيع ان يتغيب اكثر من هذا ،
ولكن شيئاً لا يمنع ايما :

وتتمت ايما مع ابتسامة فريدة : « ذلك اني ذلك اني لا ادري ... »
فقال شارل : « وعلى اية حال فستفكرين ، وامامنا الليل كله »

ثم قال ليون الذي كان يصاحبها : « والآن ما دمت في مقاطعتنا فاني آمل ان تأتي من وقت الى آخر لتتناول معنا الغذاء » .
فأكد الكاتب انه لن يتخلف عن ذلك ، كما ان لديه حاجة للذهاب الى ابونفيل بسبب أمر يتعلق بمكتبه .
واقترحوا امام ممر سان بلان عندما كانت الكاندرائية تدق الحادية عشرة والنصف .

كان ليون مع دراسته للقانون، يتردد على مقهى الشومير ، بل واحرز فيها بعض انتصارات مع الغانيات اللاتي كن يجندنه اتيق المظهر .
وكان اكثر الطلبة احتشاماً ، فهو لا يرسل شعره مسرف الطول ، ولا يبلغ في قصته قصيراً ، ولا يأكل في اول يوم في الشهر نقود الاشهر الثلاثة القادمة . وهو يحافظ على علاقة طيبة مع اساتذته . وأما عن الافراط فانه كان يتمتع عنه سواءً بدافع ارادته او لرهافة حسه .
وعندما كان يجلس ليقراً في غرفته او تحت اشجار الزيزفون بحديقة اللكسمبورج في المساء ، كثيراً ما كان يترك مجموعة القوانين تسقط من يده على الارض ، وتعود اليه ذكرى ايما . ولكن هذا الشعور اخذ يضعف شيئاً فشيئاً ، وتجمعت فوقه اطماع اخرى ، وان يكن قد ظل موجوداً خلال هذه الاطماع ، وذلك لأن ليون لم يفقد كل أمل . وكان هناك بالنسبة اليه وعد غامض يتأرجح في المستقبل كالثمرة الذهبية المعلقة بغصن خيالي موهوم .

فلما عاد الى رؤيتها بعد غيبة ثلاث سنوات ، استيقظت عاطفته ، وخيل اليه انه لا بد من ان يقرر في النهاية الاستسلام الى رغبته في تملكها . فان حياؤه قد تضاعف بحكم مخالطاته الماجنة ، وقد عاد الى الريف وهو يحتقر كل من لم يحظ بحذاء لامع وهو في اسفلت باريس . ولا شك ان كاتبنا المسكين كان يرتعد بلا ريب كأنه طفل امام باريسية مغطاة بالدنتيلا في صالون طبيب شهير ذي شخصية وألقاب وعربة خاصة .

ولكن هنا في روان ، وعلى الميناء ، وامام هذا الطيب الصغير ، كان لا يحس بأي حرج ، متأكداً مقدماً من انه سيتألق . والجراحة تتوقف على الاوساط التي يوجد المرء فيها . فالانسان لا يتحدث في الدور الارضي كما يتحدث في الدور الرابع .. والمرأة الغنية تبدو كأنها محاطة بكل هذه الاوراق من البنكنوت لحماية فضيلتها ، وكأنها درع في بطانة صدرها .

وعندما ترك ليون في مساء اليوم السابق السيد والسيدة بوفاري ، اخذ يتبعها عن بعد في الشارع . وعندما رأهما واقفين عند فندق « الصليب الاحمر » دار على عقبه . وأمضى الليل بطوله في تدبير خطة . وفي اليوم التالي ، دخل ردهة الفندق حوالي الساعة الخامسة محتق الانفاس شاحب الوجنتين ، وقد انعقد منه عزم الجبناء الذين لا يقف في سبيلهم شيء . ورد خادم قائلاً : « ان السيد ليس هنا . » فلاح له هذا الرد فأل خير ، وصعد . ولم تضطرب لمقدمه ، وعلى العكس قدمت اليه الاعتذارات لأنها نسيا ان يخبراه عن الفندق الذي يتزلان به . فقال ليون : « اوه لقد حدثته » .

— كيف ؟

فزعم انه قد استسلم لغيرزته فقادته نحوه ، واسرع ليون الى اصلاح سخافته ، فقص عليها انه قد انفق صباحه كله في البحث عنها في فنادق المدينة ، الواحد بعد الآخر .

واضاف قائلاً : « لقد قررت اذن ان تبقي » .

فقالت — نعم ، ولقد اخطأت ، فلا يجوز ان يعتاد الانسان مسرات ليس في طوقه ممارستها ، عندما يكون الانسان محاطاً بألاف من الالتزامات .

— اوه يخيل اليّ

— ايه ، لا ، لانك انت لست امرأة !

— ولكن للرجال ايضاً احزانهم ...

وبدأت المناقشة ببعض الافكار الفلسفية ، وأفاضت ايما في الحديث

عن بؤس العواطف الارضية ، والوحدة الدائمة التي يقبر فيها القلب .
ولكي يعطي نفسه اهميته ، او من باب المحاكاة الساذجة لتلك السوداوية
التي اثارت سوداويته ، اعلن الشاب انه قد اصابه سأم شديد طوال مدة
دراسته ، فعلم المرافعات يهيج اعصابه ، ومهن اخرى تستميله ، وأمه
لا تمسك عن تعذيبه في كل خطاب . ولانها كانا يحددان شيئاً فشيئاً
بواعث ألمها ، اخذ كل منهما يستعذب هذه الثقة المتزايدة خلال الحديث ،
ولكنهما كانا يتوقفان احياناً دون الكشف الكامل لافكارهما ويحاولان عندئذ
تصور عبارة يمكن ان تترجم مع ذلك فهي لم تعترف بحبها لشخص آخر ،
وهو لم يقل انه كان قد نسيها .

فهو ربما لم يذكر وجبات العشاء التي كان يتناولها بعد الرقص مع
الغانيات ، وهي لم تعد تذكر بلا ريب مقابلات العهد الماضي ، عندما
كانت تجري في الصباح وسط الاعشاب نحو قصر عشيقها ! وكانت
ضوضاء المدينة لا تكاد تصل اليهما ، ولاح ان الغرفة صغيرة عن عمد
لكي تزيدهما قرباً في خلوتهما . وكانت اما تسند عقصة شعرها الى ظهر
المقعد القديم ، وقد ارتدت معطفاً من القطن المطرز . وكان ورق الحائط
الاصفر يتلون من خلفها بأرضية مذهبة ، وقد ظهرت في المرآة صورة
رأسها ، بالخط الابيض الذي يفرق شعرها ، وطرف اذنيها يبرز من
تحت خصلاته .

وقالت : « ولكن معذرة .. اني مخطئة ! اني اصيبك بالسأم
بشكاياتي التي لا تنتهي ! »
- كلا ! ابدأ ! ابدأ !

فقال وهي ترفع الى السقف عينيها الجميلتين اللتين تترقق فيهما دمعة :
« ليتك تعلم كل ما كنت احلم به ! »
- وأنا اذن ؟! .. اوه ! لقد قسيت كثيراً ! ... وكثيراً ما كنت
خرج وأسير وأتسكع على طول شواطئ السين ، وأذهل نفسي بضحيج

الجمهور ، دون ان استطيع التخلص من الخيال الذي يلاحقني . وفي احد الشوارع الكبيرة توجد عند احد تجار اللوحات صورة ايطالية تمثل احدي ربات الفن وهي تلتف بقميص وتنظر الى القمر ، وفوق شعرها المرسل زهرة ، وكان شيء يدفعني دائماً الى هناك حيث اظل ساعات كاملة

ثم اضف بصوت مرتعش : « انها تشبهك قليلاً ! »

وأدارت مدام بوفاري رأسها لكي لا يرى على شفيتها تلك الابتسامة التي شرعت فيها ولم تستطع كتبها .

واستمر يقول : « كثيراً ما كنت اكتب لك خطابات ، ثم أمزقها بعد ذلك ! »

ولم تجب ، واستمر يقول : « لقد كنت اتخيل احياناً ان مصادفة ستأتي بك ، وكنت اعتقد اني اراك عند منعطف الطرق ، وكنت اعدو خلف كل عربة يتطاير من بابها شال او وشاح يشبه وشاحك » .

ولاح انها مصممة على ان تتركه يتكلم دون ان تقاطعه ، وقد ربت ذراعيها ، وحنّت رأسها وأخذت تنظر الى كرات خفها ، ومن وقت الى آخر تحركها حركات صغيرة بأصابع قدمها . ثم تنهدت قائلة : « انه لما يشير اكبر الاسي ان يحيا الانسان حياة كحياتي لا فائدة فيها . ولو انه كان من الممكن ان يستفيد غيرنا من آلامنا، اذن لوجد الانسان عزاء في فكرة التضحية ! »

واخذ هو يشيد بالفضيلة والواجب والتضحيات الصامتة ، لانه هو نفسه في حاجة ماسة - لا يستطيع اشباعها - الى البذل والتفاني .

وقالت « كم اود لو كنت راهبة في مستشفى » ! فأجاب : « وأسفاه ! ان الرجال لا يؤدون مثل هذه الرسائل المقدسة ، ولست ارى في اية جهة اية مهنة الا ان تكون مهنة الطبيب ... »

وبهزة خفيفة من كتفها قاطعته ايما لكي تشكو من مرضها الذي

اوشك ان يقتلها ، ويا ليته فعل ! اذن لما عادت الآن الى التألم ! وعلى الفور تمنى ليون هدوء القبر ، بل كان قد كتب وصيته ذات مساء موصياً بأن يكفن بذلك الغطاء المحلى بالقطيفة ، الذي كان يحتفظ به منها . ذلك لأن هذا هو النحو الذي كانا يودان ان يكونا عليه !! وقد حدد كل منها مثله الاعلى ، الذي يريد ان لو طابق الآن بينه وبين حياته الماضية ؛ والواقع ان الكلام يشهد الشاعر دائماً !

وقالت عندما سمعت حكاية الغطاء : « ولكن لماذا ؟ » .

— لماذا ؟

وتردد قليلاً ثم قال : « لانني احببتك حباً مبرحاً ! »
وهنا ليون نفسه اذ تخطى العقبة ، وأخذ يراقب ملامحها بزواية عينه ! وكانت كالسما عندما تترد منها السحب هبة ريح، فانسجت من عينها الزرقاوية لومة الافكار الحزينة التي كانت تنشر عليها الكتابة ، وتهلل بالاشراق وجهها كله .

وانظر فأجابت في النهاية قائلة : « لقد خيل اليّ ذلك دائماً » .

وعندئذ اخذا يقصان الاحداث الصغيرة التي دفعتها في تلك الحياة البعيدة التي كانا قد لحصا - في كلمة واحدة - لذاتها واحزانها . فتذكر عريشة اللباب ، والاثواب التي كانت تلبسها ، واثاث غرفتها ، ومترها كله .

فقال : « وصبارنا المسكين أين هو ؟ »

— لقد قتله البرد هذا الشتاء .

— آه . كم فكرت فيه ! هل تعلمين انني كثيراً ما تخيلته على نحو ما كان فيما مضى ، عندما كانت الشمس تلقي بأشعتها صباح كل يوم من ايام الصيف على خشب النافذة وألمح ذراعيك العاربتين تمران بين الازهار !

فقالت وهي تمد اليه يدها : « ايها العزيز المسكين ! »

فاسرع ليون الى الصاق شفثيه بها ثم قال :
- بعد ان استنشقت جرعة كبيرة من الهواء - :
« لقد كنت بالنسبة اليّ في ذلك الوقت قوة غامضة لا ادرك كنتها ،
تأسر حياتي . ففي ذات مرة مثلاً ، حضرت عندكم - ولكنك لا تذكرين
بلا ريب »
فقلت : « اتذكر ، استمر ! »

- لقد كنت في الردهة في الطابق الاسفل على اهة الخروج ... فوق
آخر درجة - بل واذاكر انك كنت ترتدين قبعة محلاة بزهور صغيرة
زرقاء . وبدون اية دعوة منك ، وبالرغم مني صاحبتك ، ومع ذلك
كنت ازداد شعوراً من دقيقة الى اخرى بمحاطتي ! وواصلت السير بالقرب
منك وأنا لا اجرؤ ان اتبعك كما لا اريد ان اتركك . وعندما دخلت
دكاناً بقيت في الشارع انظر اليك من الزجاج ، وانت تخلمين قفازك
وتعدين النقود على المكتب ، ثم دقت بعد ذلك الجرس عند مدام
تيغاش ، الثقيل الذي اغلق دونك ! .

وكانت مدام بوفاري تدهش وهي تنصت اليه من انها قد اصبحت
عجوزاً على هذا النحو فكل هذه الاشياء التي تستعاد ذكرها الآن بدت
انها توسع من حياتها اذ تعطىها آفاقاً عاطفية شاسعة تعود اليها . وكانت
تقول من وقت الى آخر في صوت خفيض وقد اسبلت جفنيها : « نعم !
هذا صحيح ... هذا صحيح ... »

وسمع الساعة الثامنة تدقها الساعات المختلفة في حي بوفورازين المليء
بدور الضيافة والكنائس والفنادق الكبيرة المهجورة ، ولم يعودا يتحدثان ،
ولكنها كانا يشعران - وهما ينظران احدهما الى الآخر - بحفيظ في
رأسيهما . وكان شيئاً منقماً قد انطلق من عيني كل منهما نحو الآخر
واشبتكت ايديهما ، واختلط في علوبة هذه النشوة الماضي والمستقبل
والذكريات والاحلام . واخذت ظلمة الليل تتكاثف فوق الجدران ، وأوشكت

ان تختفي في الظلال ألوان لوحات تمثل اربعة مناظر من برج نيل ، كتبت تحتها ايضا حات بالاسبانية والفرنسية . ومن خلال شجرة كانت ترى زاوية من السماء السوداء من بين الاسقف المدبية .

ونهضت لكي تشعل شمعتين فوق الصوان ثم عادت للجلوس .

فقال ليون : ثم ماذا ؟...

واجابت : ثم ماذا ؟

وبينما هو يبحث عن وسيلة يستأنف بها الحوار الذي انقطع اذ قالت له : « كيف حدث ان احداً لم يعبر لي حتى اليوم عن مثل هذه المشاعر ؟ » صاح الكاتب قائلاً ، ان الطبايع المثالية من الصعب فهمها ، فهو قد احبها من النظرة الاولى . وكان الألم يحز في نفسه عندما يفكر في السعادة التي كان من الممكن ان تغمرهما ، لو ان القضاء ترفق فسمح ببقائها قبل ذلك وارتبط احدهما بالآخر برباط لا ينفصم .

فقالت : لقد فكرت في ذلك احياناً .

وتمنح ليون قائلاً : يا له من حلم !

واضاف وهو يداعب في رفق الاهداب الزرقاء لحزامها الطويل : وما الذي يمنعا اذن من ان نبدأ من جديد ؟

فأجابت : لا ، يا عزيزي . اني عجوز وأنت شاب ... انسي !

— تحبك أخريات ... وستحبين !

فصاح : « لسن مثلك ! »

— يا لك من طفل ! هيا . فلنكن عقلاء ! انني اريد ذلك !

وأوضحت له اسباب استحالة حبها ، وان من الواجب ان يظلا كما كانا من قبل في حدود الصداقة الاخوية .

فهل كانت جادة في حديثها هذا ؟ لاشك ان اما نفسها لم تكن تعلم . فقد كانت غارقة في سحر الاغراء وضرورة المقاومة . وكانت — وهي تنظر الى الشاب نظرة حنان — تدفع في رفق المداعبات الحمية التي كانت

تحاولها يدها المرتعشتان .

فقال - وهو يرتد الى الخلف - : آه ! معذرة ! وتولى واخترق
ايما فزع غامض من هذا الحياء ، الذي كان اكثر خطراً عليها من جراءة
رودولف عندما كان يتقدم نحوها فاتحاً ذراعيه . ولاح لها انها لم ترقط
رجلاً في مثل هذا الجمال ، لقد كانت الطهارة الممتعة تتبعث من ملامحه .
وأسدل اهدابه الطويلة الدقيقة المقومة واحمرت بشرة خده النضرة ، فرأت
في هذه الحمرة رغبته في شخصها ، وأحست ايما برغبة لا تدفع في ان
تحمل الى هذا الحد شفيتها ، ثم قالت :

- وهي تنحني نحو الساعة كأنها تستطلع الوقت : يا الهي لقد مر بنا
الوقت حتى تأخرنا ونحن في ثرثرتنا !
ففهم الاشارة وبحث عن قبته .

- بل لقد نسيت المسرح ! وقد تركني المسكين بوفاري من اجله
خاصة ، وكان من المقدر ان يصطحبني اليه مع زوجة السيد لورموه المقيم
في شارع الكوبري الكبير .

وكانت الفرصة قد ضاعت لأنه كان من المقدر ان تسافر في اليوم التالي .
فقال ليون : أهذا صحيح ؟

- نعم ! .

- ومع ذلك فلا بد ان اراك ثانية ، فان لدي ما اقوله لك ...

- ماذا ؟

- شيئاً ... خطيراً . جدياً . ايه ! لا ثم انك لن تسافري . فهذا
مستحيل ! انك لو علمت انصتي اليّ ... انك اذن لم تفهميني ؟
انك اذن لم تحدسي ما بنفسني ؟ ...

فقالت ايما : « ومع ذلك فانت بالغ الفصاحة ! »

- آه ! هذه النكات ! كفى . كفى ! ارحميني واقبلي ان اراك

ثانية مرة مرة واحدة .

- ثم ماذا ...

وتوقفت ثم استأنفت وكأنها تراجع نفسها : اوه ! ليس هنا !
- في اي مكان تريدن .

- هل تريد . . .

- ولاح انها تفكر . . . ثم قالت في نفمة موجزة : « غدا الساعة
الحادية عشرة بالكاتدرائية .

فصاح وهو يمسك بيديها اللتين استخلصتهما منه : سأكون هناك !
وكان الاثنان واقفين ، وهو من خلفها وأحنت رأسها ، فانه لم
يلبث ان انحنى فوق رقبتها وقبلها قبلة طويلة فقالت وهي تضحك
ضحكات صغيرة رنانة بينما تتكرر القبلات : « آه انك مجنون . . .
انك مجنون ! . . .

وعندئذ اخذ يطل من فوق كتفها ، وكأنه يبحث عن موافقة
عينها اللتين سقطتا عليه مليئتين بعظمة باردة !

وارتد ليون ثلاث خطوات الى الخلف لكي يخرج ، ووقف على
العتبة ، ثم همس في صوت مرتعد : « الى الغد ! »
فاجابت بإيماءة من رأسها ، ثم اختفت كالعصفور في الغرفة
المجاورة !

وفي المساء كتبت ايما الى الكاتب خطاباً لا ينتهي ، تتحلل فيه من الموعد
وتقول ان كل شيء بينهما قد انتهى الان ، وأن سعادته تقتضي ان لا
يعود الى الالتقاء . ولكنها عندما أغلقت الخطاب أحست بارتباك شديد،
لأنها لم تكن تعرف عن ان ليون .

وقالت لنفسها سأعطيه له بنفسي ، فهو سيحضر .

وفي اليوم التالي فتح ليون النافذة ووقف يغني في الشرفة ويلمع حذاءه
بنفسه عدة مرات ، وقد لبس بنظولاً أبيض وحلة خضراء ، وسكب في
منديله كل ما لديه من عطور ثم جمعد شعره ، وعاد فأسبله وذلك لكي
يزيده رشاقة طبيعية !

وقال لنفسه - وهو ينظر الى ساعة الحلاق فبرى انها التاسعة : وان الوقت لا يزال مبكراً جداً !

وقرأ صحيفة قديمة عن الازياء ، وخرج ودخن سيجارا، وقطع ثلاثة شوارع ؛ ثم ظن ان الوقت قد حان فاتجه في بطاء نحو ساحة نوتردام .

كان ذلك في صبيحة يوم جميل من أيام الصيف ، وكانت الاواني الفضية تلمع في حوانيت الصياغ ، والضوء يسقط جانيبا على الكتدرائية، فينعكس على ثنايا الاحجار الرمادية . وسرب من العصافير يحوم في السماء الزرقاء حول الابراج الصغيرة المزركشة والمبدان يعج بالصباح وتفوح فيه رائحة الازهار التي تحف به : ورد وياسمين وقرنفل ونرجس وزنبق متناثر على مسافات غير متساوية فوق خضرة رطبة من الحشائش التي تفتتت بها العصافير . ونافورة المياه تكرر في الوسط . وتحت مظلات كبيرة وقفت البائعات عاريات الرؤوس بين أكوام من ثمار الشهد صفت في شكل اهرامات ، وقد اخذت أولئك البائعات يلففن باقات من البنفسج في الورق .

واشترى الشاب احدى هذه الباقات وكانت هذه اول مرة يشتري فيها زهورا لامرأة ! وعندما كان يستنشق عبيرها كان صدره يفتح كبرياء وكان هذه التحية التي أعدها لشخص آخر قد ارتدت فتوجهت اليه ! وخشي ان يراه احد ، فدخل الكنيسة في عزم .

وكان القواس واقفاً عندئذ على العتبة وسط الباب الايسر تحت صورة « مارين ترقص » والریش في رأسه والسيف الى جوار ساقه والعصاة في يده ، وقد بدا اكثر جلالاً من كردينال واكثر بريقاً من اناء مقدس ! وتقدم نحو ليون وعلى شفثيه تلك الابتسامة الوديعه الماكرة التي بصطنعها رجال الكهنوت عندما يستجوبون الاطفال !

ان السيد بلا زيب ليس من هنا وهو يريد ان يشاهد ما في الكنيسة من نفائس ؟

فقال ليون ، « لا ، !

ودار بالكنيسة من المحشائين الجازيبتين ، ثم عاد لكي يلقي نظرة على الميدان ، ولكن أيما لم تكن قد وصلت ، فارتد الى مكان الجوقة . وكان صحن الكنيسة ينعكس في اوعية الاوعية المليئة بالماء المقدس ، وكذلك جانب من الاقواس الغوطية ، وبعض اجزاء البلاط الملون ، ولكن الصور المنعكسة كانت تنكسر على حافة الرخام ، ثم تسقط ابعد من ذلك بقليل فوق البلاط ، وكأنها سجادة مزركشة .

وكان الضوء الخارجي يمتد داخل الكنيسة في ثلاثة اشعة ضخمة ، من خلال الابواب الثلاثة المفتوحة . ومن وقت الى آخر كان يمر خادم الكنيسة عند قاعها ، ويثني ركبتيه في حركة جانبية سريعة كالمؤمنين العجلى ! وكانت القناديل البلورية تتدلى ساكنة ، وفوق المذبح يشتعل مصباح من الفضة . وكان ينبعث أحيانا من الصوامع الجانبية - ومن الاجزاء المعتمة داخل الكنيسة ما يشبه التنهدات ، مع صوت الحاجز عندما يقفل الباب ، فيتردد صدها في القباب العالية !

وأخذ ليون يتمشى بوقار الى جوار الجدران ، ولم تلح له الحياة قط في مثل هذه العذوبة ، فهي ستحضر بعد قليل ساحرة مضطربة ، ترقب النظرات التي تتابعها - من خاف ، وقد ارتدت ثوبها ذا الاجنحة ، وعويناتها الذهبية ، وحذاءها الرفيع ، وكل تلك الاناقات التي لم يسبق له ان تذوقها !

ثم ذلك الاغراء الذي لا يوصف ، المنبعث عن الفضيلة التي تسقط وقد احاطت بها الكنيسة كمخدع ضخم والقباب تنحني كي تتقبل في الظل اعترافاً بالحب ، والزجاج الملون يشع كي يضئ وجهها والمباخر تحترق ، فظهرها كملاك وسط اخرة العطور .

ولكنها لم تحضر ! وجلس فوق مقعد ، والتقت عيناه بلوح من الزجاج الازرق رسمت فوقه صورة بحارة يحملون سلالا ، فنظر الا اللوح

طويلاً في انتباه ، وعدّ قشر السمك ، وازرار اقمصة البحارة ، بينما
اخذت افكاره تحوم باحثة عن ايمان .

وأخذ القواس يشمتر داخلها من هذا الشخص الذي سمح لنفسه بان
يتأمل في اعجاب الكتدرائية وحده ! ولاح له سلوكه بشعاً ، وكأنه
يسرق منه شيئاً ، ويدنس شيئاً مقدساً !

ولكن ها هو حفيف من الحرير فوق البلاط ، وحافة قبعة وحرملة
سوداء انها هي ! ونهض ليون وعدا لكي يلقاها !
كانت ايمان شاحبة تسير بسرعة .

وقالت وهي تمد اليه ورقة : « اقرأ ! أو . . . لا ! »
واستردت يدها فجاءه لكي تدخل في هيكل العذراء ، حيث جثت
على ركبتها فوق مقعد وأخذت تصلي ! وثار الشاب من تلك التزوة
الدينية . ثم شعر مع ذلك بشيء من اللذة في ان يراها وسط موعد
غرامها غارقة على هذا النحو ، في الابتهاال كأنها احدى مركيزات
الاندلس ! ولكنه لم يلبث ان شعر بالسأم ، لانها لم تنته من عبادتها
كانت ايمان تصلي ، او على الاصح تحاول ان تصلي ، على امل ان
ان ينزل عليها من السماء قرار مفاجيء . وركعت قرب المذبح كي تستجلب العون
الالهي وتستنشق عطر الزهور البيضاء المتفتحة في الزهيرات الكبيرة ، وتلقى
اذنها لصمت الكنيسة الذي لم يكن له من اثر سوى ان يزيد في صخب قلبها .
ونفضت وهمت بالخروج ، واذا بالقواس يقرب منها بسرعة وهو
يقول :

— ان السيدة ليست من هنا بلا ريب ، ولكنها تريد أن ترى
طرائف الكنيسة

فصاح الكاتب قائلاً : « لا »

وقالت هي « ولم لا ؟ »

وذلك لانها كانت — بفضيلتها المهترئة تتعاقب بالعذراء وبالتمائيل

والمقابر في كافة المناسبات . ولكني سيرا في المشاهدة بنظام عاد بها القواس الى المدخل بالقرب من الميدان ، حيث اشار بعصاه الى دائرة كبيرة من الارض المرصوفة السوداء ، خالية من النقوش والزخارف ، ثم قال في عظمة :

— هذا هو محيط ناقوس أمبواز الجميل ، الذي كان يزن أربعين ألف رطل ، ولم يكن له مثيل في أوروبا كلها ، وقد مات العامل الذي صبه من الفرح . . .

وقال ليون : فلتنصرف !

واستأنف الرجل السير ثم عاد الى هيكل العذراء ، ومد ذراعيه في حركة قوية الدلالة . وفي كبرياء يفوق كبرياء ملاك الريف ، عندما يطلعونك على عرائش حداقهم ، قال :

— ان هذه البلاطة البسيطة تغطي بيردي بريزيه ، سيد لا فارين ، ويريذاك مريشال بوتو وحاكم نورمنديا ، الذي مات في معركة مونتيه في يوليو سنة ١٤٦٥ !

واخذ ليون يتفزز وهو بعض شفثيه .

واستمر القواس يقول : « والى اليمين ، هذا السيد المغطى بالحديد فوق حصان جامح ، هو حفيد لويس دي بريزيه سيد بريفال دمون شوفيه كونت دي مالافرين بارون دي موين ، يا ور الملك وحامل نيشان الفروسية ، وهو أيضا حاكم نورمنديا ، وقد توفي في ٢٣ يوليو سنة ١٥٣٤ في يوم أحد كما يستدل من الكتابة المنقوشة عليه والى أسفل هذا الرجل المتأهب للزول في القبر يمثل لك تماماً نفس الرجل ، وما أظن أنه من الممكن أن يرى الانسان تمثيلا أصدق من هذا للغناء ! . واخذت مدام بوفاري نظارتها ، وليون ينظر اليها ساكتاً دون ان يحاول ان يقول حتى كلمة واحدة ، او ان يقوم بحركة واحدة ، وذلك لشدة ما أحس من بأس ازاء هذه المؤامرة المزدوجة من الثرثرة وعدم المبالاة .

واستمر الدليل الخالد يقول :

– وبالقرب منه هذه المرأة الراقدة التي تبكي ... هي زوجته ديان دي بواتيه كوثيس دي بريزيه فالانتوا ، المولودة في سنة ١٤٩٩ والمتوفاة سنة ١٥٥٦ . والى اليسار تلك التي تحمل طفلاً ، هي العذراء المقدسة ! والآن فلتتجه الى هذا الجانب فهنا قبر امبواز ، وقد كان الاثنان كل منهما كردينالا ورئيسا لاساقفة روان ، وهذا كان وزيراً للملك لويس الثاني عشر ، وقد احسن كثيراً للكثيرات ، وقد وجدوا في وصيته ثلاثين ألف دينار ذهبي للفقراء !

ودون ان يقف ، ومع استمراره في الكلام ، دفع بهما الى صومعة مكدسة بالحواجز التي أزاح بعضاً منها ، وكشف عن كتلة من الحجر ، ربما كانت فيها مضي تمثالاً سيء الصنع وقال في أنه طويلة : انه كان يزين فيها مضي قبر ريتشارد قلب الاسد ملك إنجلترا ودوق نورمانديا . ولكن اتباع كالفن يا سيدي هم الذين أحالوه الى هذه الحالة ، اذ دفعهم الشر الى ان يدفنوه في الارض تحت مقعد نياقة الاسقف ، وها هو الباب الذي يدخل منه نيافته الى مسكنه . ولنمر لئرى الزجاج الملون في مؤخر الكنيسة !

ولكن ليون أخرج بحركة عصبية قطعة بيضاء من جيبه ، وأمسك ايما من ذراعها ، فأخذت القواس الدهشة ، ولم يفهم قط هذا السخاء المفاجيء بينما ظلت امام الزائر الغريب اشياء كثيرة تستحق ان ترى ، ولذلك ناداه قائلاً : « اين ! ايها السيد ! السهم ! السهم ! ... »

فقال ليون : « شكراً ! »

وقال القواس : « ان السيد مخطفء ! ان طوله اربعمائة واربعون قلماً ، اي تسعة اقدام أقل من هرم مصر الاكبر ، وهو كله من الحديد الزهرة وهو ... »

وأخذ ليون في الهرب ، اذ لاح له ان حبه الذي تجمد في الكنيسة

منذ ساعتين كالحجارة ، سيأخذ الآن في التبحر كالدخان ، بواسطة تلك
القصبية المثلومة الصاعدة من القفص المستطيل ، وكأنها مدخنة مثقوبة
جائمة بشكل مضحك على الكندرائية ، وكان القواس كمحاولة مسرفة
لصانع أوان نحاسية متحذلق .

وسألته ايما : الى اين نحن ذاهبون ؟

واستمر ليون في السير بخطوة سريعة دون ان يجيب . وكانت مدام
بوفاري قد غمست بالفعل اصبعها في الماء المقدس ، عندما سمعا خلفهما
نفساً كبيراً لاهناً يقطعه في انتظام وقع عصا ، فالتفت ليون .

- سيدي !

- ماذا ؟

ورأى أمامه القواس حاملاً تحت ذراعه ، ومسنداً الى بطنه حوالي
عشرين مجلداً كبيراً كانت عبارة عن الكتب التي تتحدث عن الكندرائية !
فتتم ليون وهو ينطلق خارج الكنيسة :

« ياله من مغفل ! »

ورأى ليون طفلاً يلعب في الساحة فقال له : « اذهب واحضر

عربة ! » .

فانطلق الطفل كالقذيفة ، في شارع كاترفان (الرياح الاربع) .
وعندئذ بقيا وحيدين لبضع دقائق وجهاً لوجه في شيء من الارتباك .
فقال في دلال : « آه ! ليون ! ... حقاً ... لست أدري ...
اذا كان من الواجب ... »

ثم اضافت بنغمة جادة « هذا غير لائق بالمرّة ! ... أو ما ترى
ذلك ؟ » .

فأجاب الكاتب : « ما وجه عدم لياقته ؟ ... ان هذا يحدث في
باريس ! » .

وجعلتها هذه العبارة تبت في الامر كأنها حجة لا تدفع .

ولكن العربية لم تصل وكان ليون ينحشى ان تعود الى الدخول في الكنيسة !

– واخيراً ظهرت العربية !

وصاح بهما القواس الذي كان لا يزال واقفاً : « اخرجنا على الأقل من الباب الشمالي لتشهدا البعث ويوم الحساب » والجنحة « و الملك داوود » و « والمعذبين في نار جهنم » .

وسأل الحوذني : « الى اين يذهب السيد ؟ »

فقال ليون وهو يدفع ايما في العربية « الى حيث تشاء ! »

واخذت المركبة الثقيلة في السير .

لقد نزلت الى شارع جران بو ، مارة « بميدان الفنون » وشاطيء نابليون ، والكبري الجديد . ووقفت فجأة امام تمثال بيير كورني .

وقال صوت منبعث من داخلها : « استمر ! » فاستأنفت العربية السير . وبمجرد ان غادرت ميدان لافاييت انسافت في الانحدار حتى اوشكت ان تدخل وهي تعدو محطة سكة الحديد .

فصاح نفس الصوت : « لا ! ... استمر ! الى الامام !

وخرجت العربية من السور الحديدي ، وبمجرد ان وصلت الى الساحة اخذت تحب في رفق وسط اشجار الدردار الضخمة . وجفف الحوذني جبينه ، ووضع قبعته الجلدية بين فخذه ، ودفع العربية خارج الطريق المعبد على حافة الماء ، الى جوار الحشائش .

وسارت العربية في محاذاة النهر على طريق مرسى السفن المرصوف بالزلط الجفاف الى مسافة طويلة من ناحية اويسيل ، بعد ان تجاوزت الجزر .

ولكنها اندفعت فجأة عبر طريق كاترمار وسوتفيل وجراند شوسيه ، وشارع اليف ووقفت وفتحتها الثالثة امام حديقة النباتات .

وصاح الصوت في عنف أشد : « استمر في السير ! » .

واستأنفت الشوط فوراً فمرت بسان سيفير ووصيف كورانديبير، ووصيف الطواحين . وعادت مرة ثانية الى الكوبري عن طريق ميدان سان دي مارس ، ومن خلف حديقة المستشفى حيث كان بعض العجائز يتنزهون في الشمس ، في ستر سوداء ، على طول شرفة مخضرة بأوراق اللبلاب – وصعدت العربة بولفار بوفري ، وسلكت بولفار كوشواز، ثم مون رويويديه كله ، حتى وصلت الى هضبة ديفيل .

ثم عادت واخذت تنسكع دون قصد ولا اتجاه معين ، فرؤيت عند سان بول ، ولنسكير . وجبل جارجان ، وروجيار ، وميدان جياربوا ، وشارع مالاديريه، وشارع ديناندره امام سان رومان، وسان فييان وسان ماكلو، وسان نيكيكز امام الجمرك عند البرج القديم المنخفض، وعند الترواييب والمقبرة التذكارية ! ومن وقت الى آخر كان الحوذني يلقي من فوق مقعده بنظرات يائسة الى الحانات اذ لم يفهم هذا الولوج بالحركة الذي يدفع هذين الشخصين الى حد لا يريدان معه الوقوف !! ولقد حاول ان يقف احياناً ، ولكنه كان يسمع فوراً صيحات الغضب تنطلق من خلفه! وعندئذ كان ينهال بالسوط على الحصانين الهزيلين المتصبين عرقاً، دون ان يلقي بالا الى اهتزازات العربة وهي تميل هنا وهناك وقد اعتل مزاجه، واوشك ان يبكي من العطش والتعب والحزن !

وعند الميناء وسط عربات النقل والبراميل ، وفي الشوارع ، وعند المنعطفات ، كان الناس يحملقون بعيونهم دهشة من هذا المنظر الفريد في الريف : منظر عربة ذات ستائر مسدلة ، وقد لاحت باستمرار اكثر اغلاقاً من قبر وهي تهتز كالسفينة ؟

وذات مرة في منتصف النهار ، وفي قلب الحقول ، وفي الوقت الذي كانت ترسل فيه الشمس اقوى اشعتها فوق المصابيح العتيقة الفضية اللون ، مرت يد عارية من تحت الستائر الصغيرة الصفراء ، وألقت

بقصاصات من الورق انتشرت مع الريح ، وتساقت عن بعد قريب
كفراشات بيضاء فوق حقل من البرسيم الاحمر المزدهر !
ثم وقفت العربية حوالي الساعة السادسة في زقاق بجي بوفوازيه ، ونزلت
منها امرأة أخذت تسيير مسدلة الخمار دون ان تلفت رأسها !

* * *

عندما وصلت مدام بوفاري الى الفندق أدهشها الا ترى عربية السفر،
فان هيفير بعد ان انتظرها ثلاثاً وخمسين دقيقة كان قد رحل .
ومع ذلك فان شيئاً لم يكن يضطرها الى الرحيل ، الا انها كانت
قد وعدت بأن تعود في نفس المساء . وكان شارل ينتظرها ، كما انها
كانت قد اخذت تشعر في قلبها بذلك الخضوع الجبان الذي يعتبر بالنسبة
للكثير من النساء بمثابة العقاب ، لتكفر عن الخيانة الزوجية في وقت
واحد .

وفي سرعة أعدت حقيبتها ودفعت الحساب ، وأخذت عربية من الساحة،
وحثت الحوذني وشجعته ، وهي تسأل في كل دقيقة عن الساعة ، وعن
الكيلومترات التي تقطعها ، حتى تمكنت من اللحاق « بالمصفورة » عند
مشارف قرية كوينكانبوا .

وبمجرد ان جلست في مقعدها اغلقت عينيها ولم تفتحهما الا اسفل
المضبة ، حيث لمحت عن بعد فيليستين ، التي كانت تقف في مكان بارز
امام منزل البيطار . وشد هيفير عنان الخليل ، واشربأت الطباخة حتى
مقبض باب العربية ، ثم قالت في توجس « يجب يا سيدتي ان تذهبي
فوراً عند السيد هوميه من اجل شيء لا يحتمل الابطاء » .

كانت القرية صامته كما دنتها ، وفي اركان الشوارع كراس صغيرة
وردية يتصاعد منها البخار في الهواء ، وذلك لاننا كنا في موسم المربات،
وكان جميع الناس في ابونفيل يعدون خزينهم في نفس اليوم . ولكن

الناس كانوا يعجبون - أمام دكان الصيدلي - بكومة اكبر كثيراً تفوق الكومات الاخرى بقدر ما يفوق مصنع فرنأ منزلياً وبقدر ما تفوق حاجة عامة نزوات فردية !!

ودخلت ، حيث رأيت المقعد الكبير مقلوباً ، حتى صحيفة فانال دي روان كانت ملقاة على الارض ممددة بين الهاونين . ودفعت باب الصالة فرأت وسط المطبخ ، بين القدور الداكنة المليئة بعنب الذئب المنفرط والسكر المدقوق ، والسكر القوالب ، والموازين الموضوعه على المائدة ، والاحواض التي على النار . رأيت عائلة هوميه كباراً وصغاراً ، وقد ارتدوا مرايل تصعد حتى اذقاهم ، وفي يدهم المغارف ، وجوستان واقف مخني الرأس ، والصيدلي يصبح :

- من الذي قال لك ان تذهب لتبحث عنه في المخزن ؟

- ماذا تعني ؟ وما الأمر ؟..

- فأجاب الصيدلي : « ماذا اعني ؟ اننا نصنع مربات ، ولكنها

اوشكت وما هي على النار ان تفيض بسبب الغليان الشديد . وقد طلبت حوضاً آخر ، واذا به بسبب الرخاوة والكسل - يذهب ليأخذ مفتاح المخزن من المسمار المعلق في معلمي ، وهذا هو الامم الذي كان الصيدلي يطلقه على حجرة تحت السقف مليئة بالأواني والسلع اللازمة لمهنته .

وكثيراً ما كان يقضي فيها وحده ساعات طويلة يلصق فيها البطاقات ، ويسكب السوائل ، ويحزم الادوية . ولم يكن يعتبرها كمخزن بسيط ، بل معملأً حقيقياً تنطلق منه بعد ذلك شتى انواع الحبوب التي يعدها بيديه ، والجرجعات ، والمنقوعات ، والغسولات ، والامزجة التي تنشر شهرته على الملأ ! ولم يكن احد في العالم يضع فيها قدمه ، وكان هو يحترمها الى حد انه كان يكتسها بنفسه . واخيراً اذا كانت الصيدليسة المفتوحة للجميع هي المكان الذي يعرض مواضع فخاره ، فان المخزن كان الملاذ الذي يتركز فيه هوميه بأنانيته ، حيث يتمتع بمزاولة عمله المحبوب !

ولذلك لاح له لمس جويستان بشعا ، بما يدل عليه من نقص في الاحترام واصبح وجهته اكثر من عنب الذئب !! وهو يردد قائلاً « نعم ! مفتاح المخزن ! المفتاح ، الذي يعلق الباب على الاحماض والقلويات الكاوية ثم يذهب ليأخذ حوضاً احتياطياً ! حوضاً ذا غطاء ، حوضاً ربما لا استخدمه قط . وكل شيء له اهميته في العمليات الدقيقة التي تزاوها في فننا . ولكن !..... يجب اقامة الحدود بحيث لا نستخدم في مهام تكاد تكون منزلية ما هو معد لمهام الصيدلة ، والا كنا كمن يقطع دجاجة بمشرط ، او كقاض »

وقالت مدام هوميه : « ألا فلتهدىء من روعك ! »
وشدته اتاليه من رديجوتة وهي تقول : « يا با ! بابا ! » فقال الصيدلي :
« لا » . اتركوني !... اتركوني ! يا للخيبة !... انه لمن الانضل اذن ان افتح بقالة بشرفي ! هيا اذهب !.... لا تحترم شيئاً ! كسر ! حطم ! أطلق العلق ! احرق الاعشاب المليئة ! واخلل الخيار في زجاجات الدواء ، ومزق الضمادات ! »

وقالت ايما « ومع ذلك فان لديك »
- هل تعرف لأي شيء تعرضت منذ هنية ؟...
- الم تر شيئاً في الركن الى اليسار على المنضدة الثالثة الصغيرة ؟
تكلم ! اجب ! انطق بشيء !

فتمتم الغلام قائلاً « اني ... لا اعرف »
- آه انت لا تعرف ، ولكنني انا اعرف ! لقد رأيت زجاجة زرقاء مغلقة بالشمع الابيض ومحتوية على مسحوق ابيض ، وقد كتبت عليها ... « خطر » ! وهل تعرف ماذا كان بها ؟ « زرنينخ » ! وكنت ستمسه ! وتأخذ حوضاً من جواره !

وقالت مدام هوميه وقد ضمت يديها « زرنينخ » الى جواره ؟! لقد

كان من الممكن ان تصيينا جميعاً بالتسمم !
واخذ الاطفال يطلقون الصيحات ، وكانهم قد اخذوا يحسون في
امعائهم بالام مبرحة .

واستمر الصيدلي بقوله : او يصيب مريضاً بالتسمم ! لقد اردت اذن
ان اذهب الى مقعد المجرمين في محكمة الجنايات ؟ وان تراني اصعد الى
المشقة ؟ ... وهل تجهل الحرص الذي اراعيه في تناول تلك المواد ،
بالرغم من خبرتي العاتية ؟ ! وكثيراً ما يأخذني انا نفسي الفزع عندما
افكر في مسئوليتي ، وذلك لأن الحكومة تطاردنا ، والقانون الاحتمى
الذي نخضع له مسلط على رؤوسنا كأنه سيف « داموكليس » ! !

ولم تعد ايماناً تفكر في ان تسأل عما يراد منها !
واستمر الصيدلي يقول في عبارات لاهثة :

« هكذا تقدر كل الحسنات التي نسيها اليك ! هكذا تكافىء العناية
الابوية التي اغمرك بها ! وذلك لانك بدوني ماذا كنت ستفعل ؟ ! من
الذي يمدك بالغذاء والتربية والكساء وكافة الوسائل التي تمكنك من ان
تظهر يوماً في شرف بين صفوف المجتمع ؟ ولكنه لا بد لذلك من ان
تتصبب عرقاً فوق الجداف ، وان تكتسب - كما يقولون - خضوة في
اليدين ! فبالطرق تصبح حداداً ، ومن الواجب ان تنهض بعملك ! »
كان هومييه يستشهد بالامثال اللاتينية لشدة هياجه بل وكان من الممكن
ان يستشهد بالصيني وبقوال سكان جرنيلاتو لو انه كان يعرف هاتين
اللغتين ! وذلك لأنه كان في احدى تلك الازمان التي تظهر فيها النفس
كلها بدون تمييز - كل ما تحتويه كالمحيط الذي ينشق في العاصفة عن
طحالب شاطئه كما تنشق عن رمال قاعه ! !

ثم استأنف قائلاً : « لقد ابتدأت اندم ندماً شديداً لعنايتي بشخصك ،
وقد كان من الافضل ان اتركك في الماضي قابعاً في بؤسك ، وفي القدارة
التي ولدت فيها ! فما كنت لتصلح قط لأن تكون حارساً طيباً للهاشية

ذات القرون !! وانت خال من كل استعداد للعاوم . وكل ما تستطيع
لا يعدو لصق البطاقات ! وهأ أنت تعيش عندي هنا كالتقيس او كديك
من معجون ، تلهو وتلعب ! »

ولكن ايما قالت ، وهي تلتفت نحو مدام هوميه : « لقد استدعيتموني .. »
فقاطعتها السيدة الطيبة قائلة في صوت حزين : « آه ! يا الهي .
ماذا اقول لك ؟ ... انها كارثة ! »

ولم تكمل حديثها فقد انفجر الصيديلي : « افرغه ! نظفه ! ارجعه
الى مكانه ! اسرع ! »

وهز جويستان من قبة سترته فسقط من جيبه كتاب !
وانحنى الطفل ، ولكن هوميه كان اسرع منه ، فالتقط الكتاب
واخذ يتأمل فيه ، محذراً بعينيه ، فاغراً فاه ، وقال - وهو يفصل الكلمتين
احدهما من الاخرى في بطاء : « الحب الزوجي ! آه ! حسن
جداً ! حسن جداً ! شيء جميل ! وصور ! آه ! هذا شيء فظيع ! »
وتقدمت مدام هوميه .

فقال : « لا . لا تمسيه ! »

واراد الاطفال ان يروا الصور ، فقال في عنف : « اخرجوا » .
وخرجوا !

ومشى اولاً ضولاً وعرضاً بخطوات واسعة ، محتفظاً بالكتاب مفتوحاً
بين اصابعه وعيناه تدوران ، وقد اختنقت انفاسه وتورم وجهه ، كأنما
قد اصيب بالصرع ! ثم جاء رأساً الى تلميذه ، حتى انصب امامه ،
وقد ربّع ذراعيه ، ثم قال : « ان لديك اذن ايها الشقي كافة الرذائل ؟
احذر ! انك على المنحدر ! ... انك لم تظن الى ان هذا الكتاب الحقير
قد يسقط بين يدي اولادي ، وان يضرم النار في عقولهم ، فيلوث طهارة
اتالي ، ويفسدنا بليون ، وقد بلغ فعلاً طور الرجولة ! وهل انت متأكد
على الاقل من انه لم يقرأه ؟ هل تستطيع ان تدلل لي ؟ »

وقالت إيمّا : « ولكنك يا سيدي تريد ان تقول لي شيئاً ... ؟ »
فقال : « هذا حق يا سيدتي ... ان حياك قد توفي ! »
وبالفعل كان السيد بوفاري الاب قد توفي مند يومين فجأة نتيجة لذبحه
صدرية عند نهوضه من المائدة، وزيادة في الحيطه ومراعاة لحساسية إيمّا
كان شارل قد رجا السيد هوميه ان ينقل اليها الخبر المزعج في ترفق .
وكان هوميه قد فكر في العبارة ، وهذب فيها ، وشذب منها ،
واحكم ايقاعها ، حتى اصبحت مثلاً أعلى في الحيطه والتدرج والترفق
والرقه ، ولكن الغضب اطاح بالبلاغة !

وعدلت إيمّا عن أن تطلب أية تفصيلات ، ثم تركت الصيدلية لأن
السيد هوميه كان قد استأنف هياجه . ولكنه مع ذلك عاد الى الهدوء
وأخذ يتمّم في نعمة ابدية وهو يروح عن نفسه بقلنسوته الاغريقية
قائلاً : ليس ذلك لأنني اعيب الكتاب كله ، فالمؤلف كان طيباً ،
وفي الكتاب بعض النواحي العلمية التي لا بأس من ان يلم الانسان بها،
بل إنني لأجرؤ على القول بأن من واجب المرء ان يعلم ، ولكن في
وقت متأخر عن هذا - نعم في وقت متأخر ! ولتنتظر على الاقل حتى
تصبح انت نفسك رجلاً، وحتى يتكون مزاجك !

وعندما دقت إيمّا الباب ، تقدم شارل الذي كان ينتظره مفتوح
الذراعين ، وقال والدموع في صوته : آه يا عزيزتي . . .
وانحنى في رفق لكي يقبلها ، ولكنها عندما أحست بشفتيه لم تلبث
ان استعادت ذكرى الآخر، ومرت بيدها فوق وجهها وهي ترتعش !
وأجابت قائلة : نعم انني اعرف . . . إنني أعرف . . . !
وأطلعها على الخطاب الذي تقص فيه امه الحادث دون أية مداراة
عاطفية ، وإن تكن قد أبدت اسفها لأن زوجها لم يتلق العون الديني ،
لأنه توفي في دورفيل في الشارع على مدخل مقهى ، بعد وجبة شعبية مع
جماعة من قدامى الموظفين !

وردت إيما الخطاب ، ثم تصنعت عند العشاء - على سبيل اللياقة - شيئاً من التعفف . ولكنها إزاء إلحاحه اخذت في الاكل بعزم ، بينما ظل شارل جامداً في مواجهتها في وضع مقل بالأحزان .

ومن وقت الى آخر كان يرفع رأسه ، ويرسل اليها نظرة مليئة بالحزن . وتنهى مرة قائلاً : «لقد كنت اود لو اراه مرة اخرى» ! . ولزمت الصمت ، ولكنها ادركت انه لا بد من الكلام ، فقالت : «في اي سن كان والدك ؟»

- في الثامنة والخمسين !

- آه !

وكان هذا كل ما قيل .

وبعد ذلك بربع ساعة أضاف : «وامي المسكينة؟ .. ما مصيرها الآن؟»
فقامت بحركة تفيد أنها لا تعرف !

وعندما رآها شارل في هذا الصمت ، ظن أنها حزينة ، واخذ نفسه بأن لا يقول شيئاً لكي يثير هذا الالم الذي يحرك شفقتة . ومع ذلك فقد نقض حزنه ليسأل : هل طابت لك التسرية امس ؟

- نعم

وعندما رفع غطاء المائدة لم ينهض السيد بوفاري ، وكذلك إيما . وكلما نظرت في وجهه ، اخذ اطراد المنظر ينحني عن قلبها - شيئاً فشيئاً - كل شعور بالراء . وقد لاح لها هزيبلاً ضعيفاً نافها ، وبالجملة رجلاً مسكيناً من كافة النواحي ! كيف السبيل الى التخلص منه ؟ ! يالها من امسية لانتتهي! وقد اخذ شيء مخدر كبخار الافيون يخدر اعصابها . وسمع في الصالة وقع عصا على البلاط ، واذا به هيبوليت حاملاً حقائق السيدة ، التي اضطر لكي يضعها على الارض الى ان يرسم بعكازه ربع دائرة . وقالت وهي تنظر الى هذا الشقي ، الذي كان شعره الاحمر الكثيف يتصبب عرقاً : انه لم يعد يفكر في مصيبته !

وفتش بوفاري عن دائق في قاع كيسه ، ودون ان يلوح عليه انه فهم شيئاً من الالهانة التي يحملها مجرد حضور هذا الرجل الذي يقف امامه كشاهد مجسم على خيبتته قال : « خذ » ! . . . ثم مخاطباً زوجته وهو ينظر فوق المدفنة الى بنفسج ليون : « ان لديك باقة جميلة ! » فقالت إيما في غير اكتراث :

« نعم ! إنها باقة اشريتها منذ هنيهة من شحادة »

واخذ شارل البنفسج ، ونضر عينيه المحمرتين من البكاء . واستنشق عيره في رقة ، لكنها انتزعت من يده وحملته لكي تضعه في كوب ماء . وفي اليوم التالي ، وصلت مدام بوفاري الأم . وبكت كثيراً هي وابنها بينما اختفت إيما بحجة اصدار اوامر للخدم .

وفي اليوم الذي يليه كان لا بد من ان ينظروا معاً في امور الحداد . فذهبت المرأتان ومعها صناديق الخياطة وجلستا على شاطئ الماء تحت العريشة . كان شارل يفكر في ابيه ، وتأخذه الدهشة من ان يحس بكل هذا الحب نحو هذا الرجل الذي كان يعتقد من قبل انه لا يحبه الا حبا ضئيلاً ! وكانت مدام بوفاري الام تفكر في زوجها ، ولاحت لها اتمس الايام القديمة اياما تنلطف اليها ! وقد اختفى كل شيء تحت تأثير ذلك الندم الغريزي الذي شعرت به نحو عادة طال بها كل هذا الزمن ! ومن وقت الى آخر ، واثناء دفعها الابرة ، كانت تسقط دمعة كبيرة على طول انفها ، وتظل معلقة لوقت ما وكانت إيما تفكر في انه لم يمض ثمان واربعون ساعة على وجودها مع ليون بعيدين عن العالم في نشوة ، وعيناها لانكاد تكفيان ليتأمل كل منها الآخر ! وكانت تحاول ان تستعيد اصغر تفاصيل ذلك اليوم الذي انقضى ، ولكن حضور حاتمها وزوجها كان يضايقها . وكانت تود الا تسمع شيئاً وألا ترى شيئاً ، حتى لا تقلق استجمام حبها الذي كان آخذاً في التلاشي مها عملت ، تحت تأثير الاحساسات الخارجية !

كانت تحمل بطانة ثوب فتتناثر قطع القماش من حولها ، ومدام بوفاري
لأم بصراً بين يديها المقص دون ان ترفع رأسها وشارل في خفه ذي
الشرايط وريدنجوته البني القديم الذي كان يستخدمه « كروب دي
شامبر » صامت هو الآخر لا يقول شيئاً وقد وضع يديه في جيبه . والى
جوارهم برت في مريلة صغيرة بيضاء تغرف رمل الماشي بمجرفتها .
وفجأة رأوا السيد ليريه تاجر الاقشة يدخل من سياج الحديقة .
لقد جاء ليعرض خدماته مراعاة لظرف الحداد ، ولكن إيما اجابت
بانها تعتقد ان باستطاعتها ان تستغني عن هذه الخدمات ، ولكن التاجر
لم يسلم بالهزيمة .

فقال : « الف معذرة ، لقد اردت ان احظى بمحديث خاص . »
وفي صوت خفيض قال : « وانه خاص بذلك الموضوع... هل تذكرين ؟ »
واحر شارل حتى اذنيه ، وقال : « آه ! .. نعم ! ... هذا حق ! »
ثم التفت نحو امرأته وهو مضطرب وقال : « هل تستطيعين .. يا عزيزتي ؟ »
ولاح انها تفهمه ، ذلك لأنها نهضت . وقال شارل لأمه : « ليس
هذا بشيء ... انه بلا ريب امر تافه من امور المنزل .. »

انه لم يكن يريد ان تعرف شيئاً عن قصه الكمييالة خوفاً من ملاحظاتها !
وبمجرد ان انفردا معاً اخذ السيد ليريه يهنيء إيما في الفاظ واضحة
بالميراث. ثم تحدث في امور تافهة كعرائش الشجر والمحصول وصحته التي
تتخبط في سيرها بين بين لأنه - في الواقع - كان يرهق نفسه في
العمل والسعي ، وان لم تتجاوز ثروته - بالرغم من اقاويل الناس -
ما يكفي لادام خبزه ! .

وتركته إيما يتكلم ، وكانت قد اخذت تشعر منذ يومين بسأم شديد !
فاستمر يقول : « وهأنت قد استعدت صحتك كاملة ! وفي الحق لقد
رأيت زوجك المسكين في حالات مؤلمة . انه رجل طيب ، وان تكن
قد قامت بيننا صعوبات ! »

فسألته عن تلك الصعوبات ، لأن شارل كان قد اخفى عنها المنازعة حول التوريدات .

فقال لبريه : « انك تعرفين الموضوع جيداً ، فقد كان بسبب رغباتك ، أعني صناديق السفر ! »

وكان يتسم وقد انزل قبعته فوق عينيه ووضع يديه خلف ظهره وفي صوته صفير واخذ ينظر اليها مواجهة في هيئة لا تحتمل . فهل كان يفترض شيئاً ؟ لقد ظلت ضالة في كافة انواع المخاوف .

ومع ذلك فانه في النهاية استأنف قائلاً : « لقد استأنفنا علاقاتنا ، بل لقد اتيت لكي اعرض عليك تسوية . »

وكانت هذه التسوية عبارة عن تجديد الكميالة الموقع عليها من بوفاري . وفضلاً عن ذلك ، فإن السيد بوفاري يستطيع ان يتصرف وفق هواه ، وما ينبغي ان يعني نفسه - وبخاصة الآن - وهو مقبل على الكثير من الارتباكات ! بل ان من الخير له ان يتخلى عن هذا الموضوع الى شخص آخر ، وليكن لك انت مثلاً ، وبتوكيل يسهل الامور ، وعندئذ ستم بيننا بعض العمليات البسيطة !

ولم تفهم شيئاً ، فسكت ، ثم انصرف الى دكانه وهو يقول ، ان المدام لا تستطيع ان تستغني عن ان تأخذ منه شيئاً ، وانه سيرسل اليها قطعة من التيل الخفيف الأسود طولها اثنا عشر متراً لتحريك منها ثوباً مردداً : « ان هذا الثوب الذي ترتدينه يصلح للمنزل ، ولكن لا بد لك من ثوب آخر للزيارات ، وقد لمحت انا ذلك لأول نظرة عند دخولي ، فلدي عين امريكية ! »

ولم يرسل القماش ، بل احضره بنفسه ، ثم عاد بسبب المقاس ، كما عاد لتعللات اخرى ، محاولاً كل مرة ان يبدو ودوداً خدوماً متسللاً على نحو ما يقول هوميه ، مسدياً دائماً الى انما نصيحة ما عن التوكيل . ولم يكن يتكلم عن الكميالة ، كما انها هي الأخرى لم تكن تفكر فيها .

وكان شارل قد قصّ عليها شيئاً في بدء نقاشتها ، ولكن رأسها كان قد مر بها من الاضطرابات ما جعلها لا تذكر شيئاً . فضلاً عن ذلك فإنها كانت حريصة على الا فتحة اية مناقشة في المسائل المادية . وقد اندهشت الأم بوفاري لهذه الحالة ، وعزت تغيير مزاجها الى المشاغل الدينية التي استولت عليها اثناء مرضها !

ولكن بمجرد رحيل الأم لم تلبث ايما ان اخذت تدهش بوفاري بحسبها العملي ، فكانت تذهب لتحصل على المعلومات ، ولتتحقق من الرهونات ، ولتبحث عما اذا كان هناك محل لتصحيح اجراء او عمل تصفية . وكانت تستعمل عبارات فنية كيفما اتفق متفوهة بألفاظ كبيرة : كالنظام والمستقبل والتبصر ، كما كانت تبالغ دائماً في ارتباكات التركة ، حتى اطلعت يوماً على انموذج لتصريح عام بادارة اعماله بما فيها عقد القروض وتوقيع الكمبيالات وتظهيرها ودفع المبالغ ... الخ . فقد كانت استفادت من دروس ليريه !!

وسألها شارل في سداجة من اين انت بهذه الورقة .

فاجابت : « من السيد جيومان » .

وأضافت في اشد برود ممكن : « انني لا اثق به كثيراً ، والموثقون لهم شهرة بالغة السوء ، وربما كان من الواجب ان نستشير ... اننا لا نعرف غير ... أوه ! لا أحد ! »

فأجاب شارل الذي كان يفكر : « وذلك ما لم يكن ليون »
ولكن كان من الصعب التفاهم بالمراسلة ، ولذلك عرضت ايما ان تقوم بالسفر ، فشكرها . وألحت فكانت ثورة من الاشفاق ، وأخيراً صاحت في نغمة عناد مصطنعة قائلة : « لا - ارجوك - سأذهب »
فقال وهو يقبلها في جبهتها : « كم انت طيبة ! »

ومنذ اليوم التالي تربعت في « العصفورة » لكي تذهب الى روان

استشير السيد ليون . وهناك بقيت ثلاثة ايام !!

• • •

لقد كانت ثلاثة ايام مليئة لذيدة رائعة - كانت شهر عسل حقيقي !
كانت في فندق بولون على الميناء ، وقد عاشا هناك والنوافذ مغلقة ،
والابواب موصدة ، وفوق الارض ورود ، والمشروبات السكرية المثلجة
تحمل اليها كل صباح !
وحوالي المساء كانا يأخذان زورقاً مغطى ويذهبان الى احدى الجزر
لتناول العشاء !

كانت تلك هي الساعة التي تسمع فيها على حافة الاحواض مطارق
العالم وهي تدق جدران السفن ، وفوق النهر كانت ترى بقعاً واسعة من
الشحم وهي تتموج تموجاً متفاوتاً تحت لون الشمس القرمزي وكأنها
صفائح من البرونز الفلورنسي تطفو فوق الماء .
كانا يتزلان وسط الزوارق الراسية التي تمس جبالها المنحرفة مساً خفيفاً
اعلى الزورق .

كانت ضوضاء المدينة تبتعد على نحو غير محسوس ، بما في ذلك
ضجيج العربات وضوضاء الاصوات ونباح الكلاب فوق ظهور السفن ،
وكانت تحمل عقدة قبعتها ويتزلان الى جزيرتهما .

كانا يجلسان في الصالة المنخفضة بإحدى البارات ، التي كنت ترى
معلقاً على بابها بعض السباك السوداء ، وكانا يأكلان السمك المقلي والكريمة
والكريبز ، ويضطجعان فوق العشب ويتبادلان القبل تحت اشجار الحور .
وكانا يودان ان لو عاشا الى الابد في هذا المكان الصغير كروبنسن كروزو
وقد لاح لهما هذا المكان وسط سعادتهما اروع مكان في الارض . ولم
تكن هذه اول مرة يريان فيها اشجاراً وسماء زرقاء وحشائش ، كما لم
تكن اول مرة يسمعان فيها خرير الماء وبحسان هبوب النسيم بين الأغصان ،

ولكنها لم يكونا قط قد اعجبا بكل هذا ، وكأن الطبيعة لم تكن موجودة قبل ذلك ، او كأنها لم تبدأ جهاها الا منذ ان اشبعا رغباتها ! وفي الليل كانا يرحلان والزورق يتابع شواطئ الجزر ، وقد قبا فيه معاً ، مختفين في الظلال ، دون ان يتكلما ، والمجاديف المربعة تصطك في حلقاتها الحديدية ، فيشبه اصطكاكها - وسط الصمت - دقائق الساعة . وعند وصولها كانت اهتزازات الماء لا يقف خريرها العذب .

وذات مرة ظهر القمر فلم يفتها ان يصفاه بعبارات عذبة اذ وجدنا الكوكب حزينا موحياً بالشعر ، بل اخذت ايماناً تغني !

« ذات مساء ، هل تذكرين ، ونحن نجدف .. الخ »

وكان صوتها المنسجم الضعيف يتلاشى فوق الموج ، وكانت الريح تحمل الترجيمات التي كان ليون يسمعها ، وهي تمر كحفيف اجنحة من حوله !

وكانت تقف في مواجهته مستندة الى حافة الزورق ، حيث كان القمر يدخل من احد المصاريح المفتوحة . وكان ثوبها الأسود الذي ينتفخ قماشه في هيئة مروحة ، يظهرها نحيفة ، واكثر طولاً ، وقد رفعت رأسها وضمت يديها واتجهت بعينها نحو السماء . واحياناً كان ظل الصفصاف يخفيها كلها ، ثم تعود الى الظهور فجأة كالرؤيا في ضوء القمر . وعثر ليون تحت يدها وهو الى جوارها على الارض ، بشريط من الحرير المخمل .

وفحصه البحار ثم انتهى بأن قال : « آه ! انه كان لجماعة صحبتهم في نزهة منذ ايام ، وقد اتوا كفريق من المهرجين رجالاتاً ونساء ، ومعهم فطائر وشبانيا وآلات عزف ، و « العدة » كلها ! وكان بينهم بنوع خاص رجل طويل جميل بشوارب قصيرة وكان مسلياً على نحو مدهش وكانوا يقولون هكذا : « هيا ! قص علينا شيئاً .. أدولف .. أدولف ... فيما اظن » .

فأخذتها رعشة . وقال ليون وهو يقرب منها : « هل تشعرين بالم ؟ »
فقلت : « أوه ! لا شيء . أنها بلا ريب - رطوبة الليل . »
وأضاف البحار العجوز في رفق - وهو يظن انه يقدم للغريب تحية :
« وأظن فوق ذلك ان النساء لا تعوزه . »

ثم بصقت في يديه ، واستأنفت الضرب بالمجاديف !
ومع ذلك فلم يكن بد من الافتراق ! وكان الوداع حزيناً ، وقد
اتفقا على ان يرسل الخطابات عند الأم روليه . وزودته بتوصيات دقيقة
خاصة بالفلاف المزدوج حتى لقد اعجب كثيراً بهذه الحيلة الغرامية .
وقالت مع القبله الأخيرة : « هكذا تؤكد لي ان كل شيء على
ما يرام . »

فأجاب : « نعم . بكل تأكيد ! »
وأخذ يفكر وهو عائد وحده وسط الشوارع : « ولكن لماذا اذن
تحرص كل هذا الحرص على هذا التوكيل ؟ »

• • •

وبعد قليل اتخذ ليون امام زملائه هيئة استعلاء ، وامتنع عن مصاحبتهم ،
وأهمل عمله اهمالاً تاماً !

كان ينتظر خطاباتهما ويعيد قراءتها ويكتب اليها . وكان يستحضرها
امام خياله بكل ما في رغبته وما في ذكرياته من قوة . وأخذت الرغبة
في رؤيتها مرة اخرى تزداد بدلاً من ان تنقص بغياها ، حتى هرب
من مكتبه في صبيحة يوم سبت . وعندما لمح من اعلى الهضبة في الوادي
برج الكنيسة وعلمها المرفوع فوق عمود من الحديد الابيض وهو يدور
مع الريح - احس بتلك اللذة المزوجة بالغرور المنتصر ، وبالحنان الاناني
الذي كثيراً ما يحس به اصحاب الملايين عندما يعودون لزيارة قريتهم !
ذهب ليحوم حول مترلها ، ولمع ضوء في المطبخ ، واخذ يتربط ظلها

خلف الستائر ، ولكن شيئاً لم يظهر !
وعندما رأته الأم ليفرانسوا اطلقت صيحات تعجب كبيرة ، ووجدت
انه قد ازداد طولاً كما ازداد نحافة ، بينما وجدت ارتيميس انه على
العكس قد ازداد قوة واسمراراً .

وتناول العشاء في الصالة الصغيرة كما كان يفعل في الماضي ، ولكنه
تناوله وحيداً بدون المحصل ، وذلك لأن بينه كان قد تعب من انتظار
« العصفورة » فمجلّ نهائياً موعد عشاءه بمقدار ساعة ، واصبح يتناوله
الآن في الساعة الخامسة تماماً ، بل وكثيراً ما كان يدعي ان الساعة
القديمة الخربة تؤخر !

ومع ذلك فقد عقد ليون عزمه وذهب ليدق باب الطيب . وكانت
السيدة في غرفتها التي لم تنزل منها الا بعد ربع ساعة . وظهر السيد
مبتهجاً لرؤيته من جديد ، ولكنه لم يتحرك طوال المساء ولا اليوم
التالي .

لقد رآها وحيدة في المساء في وقت متأخر خلف الحديقة في الزقاق—
في الزقاق كما كانت تفعل مع الآخر ! وكان الجو عاصفاً ، وأخذنا
يتحدثان تحت مظلة على ضوء البرق .

لقد أصبح فراقها شيئاً لا يطاق !

وقالت ايما : « ان الموت افضل ! »

وكانت تتلوى فوق ذراعه والدموع تتصبب من عينيها .

وقال : « الوداع ! ... الوداع ! ... متى سأراك ثانية ؟ »

وعاذا أدراجهما لكي يتبادلا القبلات مرة اخرى . وعندئذ وعدته بأن
تجد قريباً بأية وسيلة فرصة تسمح بأن يلتقيا في حرية ، مرة واحدة على
الأقل كل اسبوع . ولم تكن ايما تشك في ذلك بل كانت مليئة بالأمل ،
وعما قريب سيأتيها المال .

وهكذا اشترت لغرفتها زوجاً من الستائر الصفراء ذات الخطوط

المریضة ، وكان السيد لیریه قد مدح لها رخصتها . وحلمت بسجادة ، وأكد لیریه ان ثمنها لن یكون باهظاً ، وتعهد في أذب بأن يأتيها بواحدة ، وقد اصبحت لا تستطيع ان تستغني عن خدماته ! وفي اليوم الواحد كانت ترسل في استدعائه عشرين مرة . فترك اعماله من غير تملل . كما ان احداً لم يفهم لماذا اخذت الام رولیه تتناول عندها الغذاء كل يوم ، بل وأخذت تزورها زيارات خاصة .

وحوالي تلك الفترة ، اي في اوائل الشتاء ، ظهر انها قد اخذت بحاسة كبيرة للموسيقى .

وذات مساء بينما كان شارل ينصت اليها ، ابتدأت أربع مرات متوالية نفس المقطوعة دون أن ترضى قط بعزفها ، وذلك بينما اخذ شارل يصيح ، دون ان يلاحظ الفارق قائلاً : « برافو ! ... حسن جداً ! ... انك مخطئة في ظنك ! استمري إذن ! »

فردت قائلة : « إيه ! لا ! هذا شيء قبيح . إن اصابعي قد اصابها الصدا ! »

وفي اليوم التالي رجاها ان تعزف له شيئاً مرة اخرى فقالت : « فليكن ... مرضاة لك ! » .

واعترف شارل بأنها قد نسيت قليلاً . وكانت قد اخطأت في الجملة الموسيقية ، وتخبطت ثم توقفت وقالت : « آه ! كفى ! يجب ان اتلقن دروساً ، ولكن ... »

وعضت على شفيتها ثم أضافت : « عشرون فرنكاً في الدرس . هذا كثير ! »

وقال شارل كاظماً في بله : « نعم . هذا صحيح ... الى حد ما ! ومع ذلك يلوح لي انه ربما كان من الممكن تلقي هذه الدروس بأجر أقل ، وذلك لأن هناك فنانون بلا شهرة ، ومع ذلك ، كثيراً ما يتساوون مع ذوي الشهرة العريضة ! »

فقالت ايما : « ابحث عنهم »

وفي اليوم التالي اخذ شارل ينظر اليها عند دخوله بنظرة ناكرة، وفي النهاية لم يستطع ان يمسك عن ان يفوه بهذه العبارة : « يا لك من عنيدة أحياناً ! لقد كنت في بارفيشير اليوم ، وقد أكدت لي مدام ليجار ان آنساتها الثلاثة الملحقات بالملجأ يأخذن دروساً مقابل خمسين سنتاً لكل جلسة من مدرسة شهيرة ! »

فرفعت كنفها ، ولم تفتح بعد ذلك قط معزفها ! ولكنها عندما كانت تمر الى جوان ويكون بوفاري حاضراً كانت تنهد قائلة : « آه . معزفي المسكين » .

وعندما كان أحدٌ يأتي لزيارتها لم تكن تغفل ان تخبره انها قد هجرت الموسيقى ، ولم تعد الآن تستطيع العودة اليها لأسباب قهرية . وعندئذ كانوا يرثون لها ويرون في هذا خسارة ، وذلك بسبب موهبتها الفذة ! بل ولم يكن أحد يتحدث الى بوفاري ، لأن في ذلك ما يخجله ، وبخاصة الصيدلي ، الذي قال له : « انك مخطيء ! فلا ينبغي ان يترك الإنسان الملكات الطبيعية عاطلة ! وفوق ذلك عليك ان تقدر يا عزيزي أنك عندما تدفع السيدة نحو الدرس ، فإنك تفتصد بالنسبة للمستقبل فيما يختص بالتربية الموسيقية الواجبة لطفلك . وفي رأيي أن الامهات يجب ان يقمن أنفسهن بتعليم اطفالهن ، وهذه فكرة أخذتها من روسو ، وربما كانت لا تزال حديثة ، ولكنني متأكد من أنها سوف تنتصر كما انتصرت فكرة رضاعة الام وفكرة الختان ! »

وعاد شارل إذن مرة ثانية الى موضوع المعزف ، وأجابت ايما في مرارة بأنه من الأفضل بيعه ! ولكن هذا المعزف المسكين الذي طالما أرضى غروره كيف يمكن ان يراه خارجاً من بيته - لقد كان هذا بالنسبة لبوفاري بمثابة انتحار عجيب لجزء من نفسه !

فقال : « اذا اردت ... من وقت الى آخر درساً ، فإن هذا لن

يتسبب في النهاية في خراب شامل ! »

فأجابت قائلة : « ولكن الدروس لا تثمر الا اذا كانت متتابعة ! »
وهكذا استطاعت ان تحصل من زوجها على تصريح بأن تذهب الى
المدينة مرة كل اسبوع لترى عشيقها ، بل وقد لوحظ بعد شهر انها قد
احرزت تقدماً كبيراً !

* * *

كان يوم خميس فاستيقظت وارتدت ملابسها في صمت كي لا توقظ
شارل ، خشية ان يبدي ملاحظات حول رحيلها الباكر جداً . ثم اخذت
تمشي طولاً وعرضاً ، وتقف امام النوافذ وتنظر الى الميدان .
وأخذ ضوء الفجر يسري بين أعمدة السوق وبين بيت الصيدلي الذي
كان مغلق النوافذ . وكانت الحروف الكبيرة بلافتته تظهر بفضل لون
الفجر الشاحب .

وعندما دقت الساعة السابعة والربع ، ذهبت الى فندق الأسد الذهبي
الذي كانت ارتميس قد فتحت بابه وهي تتشاءب . ونبشت الخادمة - من
اجل السيدة - قطع الفحم المدفونة في الرماد ، ثم ظلت ايما وحدها
في المطبخ . ومن وقت الى آخر كانت تخرج . وكان هيفير يشد الخيل
الى العربية في تراخ ، وهو يستمع في نفس الوقت الى الأم لوفرانسوا التي
أخرجت رأسها المغطى بقلنسوة قطنية من كوة ، واخذت تكلفه بمهمات ،
وتقدم اليه تفسيرات خليقة بأن تنزل الاضطراب برأس رجل من طراز
آخر ! بينما ايما تدق بنعل حذاءها على بلاط الفناء .

واخيراً بعد ان تناول حساءه ، وارتدى معطفه ، واوقد غليونه ،
وقبض على سوطه ، استقر في هدوء فوق مقعده !
وانطلقت « العصفورة » في خيب بطيء . وخلال ثلاثة ارباع الفرسخ

كانت تقف من مكان الى آخر ، لتلتقط المسافرين ، الذين كانوا يترقبونها وقوفاً على حافة الطريق امام سياج الأفنية . وكانت تنتظر اولئك الذين اتفقوا معها على موعد . بل وكان بعضهم لا يزال في فراشه بالمنزل . وكان هيفير ينادي ويصبح ويسب ، ثم ينزل من مقعده ، ويذهب ليدق على الأبواب دقات قوية . وكانت الريح تهب من شراعات النوافذ المشدوخة !

ومع ذلك امتلأت المقاعد الأربعة ، وانطلقت العربية ، وتتابع اشجار التفاح . وأخذ الطريق المحصور بين خندقين مليئين بالماء الاصفر - يضيّق باستمرار عند الأفق .

كانت ايما تعرف هذا الطريق من طرف الى طرف ، وتعرف أن بعد الأعشاب عموداً ، ثم شجرة دردار ، ثم مخزناً أو كوخ خفير ، بل وحياناً ، كانت تغلق عينيها لكي تهيم لنفسها المفاجآت ، ولكنها لم تفقد قط إحساسها الدقيق بالمسافة التي لا بد من قطعها .

واخيراً قربت المنازل المبنية من الطوب ، واخذت الارض ترن تحت العجلات ، وانسابت « العصفورة » بين الحدائق التي كانت ترى بداخلها من خلال الفرجات بعض التماثيل ، او عريشة عنب ، او شجر السرو المشذب ، او ارجوحة ، ... ثم ظهرت المدينة في لمحة بصر !

كانت تنحدر كلها في مدرج ، غارقة في الضباب وتتسع بعد الكباري في اختلاط ، ثم اخذت الحقول بعد ذلك ترتفع في حركة مضطربة مملّة حتى تمس عن بعد أسفل السماء الشاحبة غير المحددة . وهكذا كان المنظر كله عن بعد يلوح كأنه لوحة ثابتة ، والسفن الراسية تتكدس في ركن ، والنهر تستدير انحناؤه عند ماق التلال الخضراء . والجزر المستطيلة الشكل تلوح فوق الماء كأنها أسماك كبيرة سوداء واقفة ، ومداخن المصانع ترسل ذبولاً داكنة كبيرة تنطير عند طرفها . وكان فحيح المسابك يسمع مع صوت الأرغن من الكنائس التي تنهض وسط الضباب .

واشجار الشوارع المجردة من اوراقها تشبه الأحرش البنفسجية وسط البيوت . والسقوف اللامعة بماء المطر تبرق بريقاً غير متساوٍ تبعاً لارتفاع الأحياء . و أحيانا كانت هبة ريح تحمل السحب نحو هضبة سانت كاترين ، وكأنها موجات هوائية تتحطم في صمت على الهضبة .

كان شيء مذهل ينبعث بالنسبة إليها من هذه الحيوانات المتكدسة ، وبهذا الشيء كان ينتفخ قلبها انتفاخاً كبيراً ، وكان المائة وعشرين ألف نفس التي تنبض هناك قد ارسلوا جميعاً إليها انخزة الانفعالات التي افترضتها لديهم . وكان حبها يتسع امام الفضاء ويمتلئ بالصخب ، على صوت الطنين المرتفع الصاعد نحوها والذي كانت تسكبه في الخارج فوق الميادين والمتزهات والورود ! وامتدت المدينة النورماندية القديمة امام عينيها كعاصمة ضخمة وكأنها تدخل بابل ! وارتكزت بيديها فوق الشراعة وهي تستنشق النسيم ، والخيل الثلاثة تعدو في الوحل ، والعربة تهتز ، وهبفير يصيح بالعربات الصغيرة على الطريق ، بينما أهل المدينة الذين قضوا الليل في غابة جيوم ، ينزلون عن الهضبة في سكون فوق عرباتهم العائلية الصغيرة ..

ووقفوا عند السياج ، وخلعت ايما الخفين اللذين تلبسهما فوق الحذاء ولبست قفازاً آخر ، واصلحت من وضع شالها . وعلى بعد عشرين خطوة من هناك خرجت من « العصفورة » .

كانت المدينة عندئذ آخذة في الاستيقاظ . والخدم في « قلنسواتهم الاغريقية آخذون في مسح واجهات الدكاكين ، والنساء يطلقن من نواحي الشوارع صيحات مجلجلة ، وهن حاملات السلال فوق خصورهن . وسارت ايما منكسة البصر الى جوار الجدران ، مبتسمة من السرور تحت وشاحها الأسود المسدل !

وخوفاً من ان ترى ، لم تكن تسلك عادة أقرب الطرق ، بل كانت تندس في الأزقة المظلمة .. ووصلت وهي تنصب عرقاً عند نهاية شارع

« الناسيونال » الى جوار النافورة القائمة هناك . وهذا هو حي المسرح
والصالات وبنات الهوى . وكثيراً ما كانت تمر الى جوارها احدى
العربات وهي محملة بمناظر المسرح التي تهتز فوقها ، وغلمان في مرايل
يسكبون الرمال على البلاط بين الشجيرات الخضراء . وكانت نفوح رائحة
الخمر والسيجار والقواقع !

وانعطفت في شارع ... وعرفته من شعره المعجد المظل من قبعتة !
واستمر ليون يسير على الرصيف وهي تتبعه حتى الفندق . ثم صعد
وفتح الباب ودخل ... ويا له من عناق !

ثم انهالت العبارات بعد القبلات ! وكانا يتبادلان الحديث عن اشجان
الاسبوع ، والمخاوف ، والقلق على الخطابات . ولكن كل شيء قد
نُسي الآن ، وما هما وجهاً لوجه مع ضحكات اللذة ، ونداءات
الحنان .

كان السرير سريراً كبيراً من الأكاجو في شكل زورق ، وكانت
الستائر المصنوعة من الحرير الأحمر تنزل من السقف وتتجمع في اسفل ،
بالقرب من الوسادة حيث تنفرج . ولم يكن في العالم شيء في جمال
رأسها ذات الشعر الأسود ، وجلدها الأبيض يبرز فوق هذا اللون
القرمزي ، عندما كان الحياء يدفعها الى ان تضم ذراعيها العاريتين وهي
تخفي وجهها في يديها .

وكان جو الجناح الفاتر ، بسجاده الهادئة اللون ، وزينته الخفيفة ،
وضوئه الهاديء ، يلوح ملائماً كل الملاءمة لخلوات الغرام . وكانت
المشاجب النحاسية وكرات المقابض الكبيرة تلمع فجأة عندما تدخل الشمس .
وفوق المدفأة كان يوجد بين الشمعدانات قوعمتان ورديتان كبيرتان يسمع
فيها صخب البحر عندما تلتصقان بالأذن .

كم كانا يجبان هذه الغرفة الطيبة المليئة بالمرح ، بالرغم من فخامتها
التي ذبلت قليلاً ! وكانا يجدان دائماً الأثاث في مكانه ، بل ودبابيس

الشعر التي كانت قد نسيتهما يوم الخميس الآخر تحت قاعدة الساعة . وكانا يتناولان الغداء الى جوار النار فوق مائدة مستديرة مطعمة بنحشب الأبنوس . وكانت إما تقطع اللحم وتضع القطع في طبقه وهي تسرد كافة انواع المداعبات . وكانت تضحك ضحكات رثانة خليعة عندما يفيض زبد الشمبانيا من الكأس الخفيف فوق خواتم اصابعها . وكانا غارقين غرقاً كاملاً في امتلاك ذاتهما حتى لكأنهما يعتقدان انهما في بيتها الخاص ، وانهما سيعيشان فيه حتى الموت كزوجين خالدين ! وكانا يقولان « غرفتنا » و « سجادتنا » و « كراسينا » ، بل وكانت تقول « خفي » الذي كان هدية من ليون استجابة لاحدى نزواتها ، وكان خفاً من الستان الوردي ، محلاة حافته بالبيجع ! وعندما كانت تجلس فوق ركبتيه ، كان ساقهما القصير يتدلى في الهواء ، وكان الخف الجميل الذي لا عقب له يمسك فقط بأطراف اصابع قدمها العارية .

لقد تذوق لأول مرة تلك الرقة المرهفة المنبعثة من الأناقة النسائية ، ولم يكن قد صادف قط هذه الرشاقة وهذه اللغة وهذه الألوان من الثياب المشكلة وهذه الاوضاع الشبيهة بأوضاع الحمامة الغافية . وكان يعجب بحرارة روحها وذنوبها ! ولم لا ؟ أليست هي احدى نساء الطبقة الراقية ، وامرأة متزوجة ؟ ! وبالجملة ، أليست عشيقة حقيقية ؟ !

وبتلون مزاجها المتثقل طوراً بعد طور ، من الاحساس الصوفي الى المرح ، ومن الثرثرة الى الصمت ، ومن العنف الى عدم المبالاة - كانت تثير في نفسه مئات الرغبات والغرائز والذكريات - لقد كانت المغرمة التي تتحدث عنها الروايات ، والبطلة التي تتحدث عنها المسرحيات ، و « هي » الغامضة التي تتحدث عنها داووين الشعر ! وكان يجد على كتفها اللون العنبري الخاص بـ « الجارية في الحمام » كما يجد القدر الطويل الخاص بربات قصور الإقطاع ، كما كانت تشبه ايضاً امرأة برشلونة الشاحبة ، ولكنها فوق كل هذا كانت ملاكاً !

وعندما ينظر اليها ، كثيراً ما كان يجيل اليه ان روحه قد هربت اليها ، وانسابت كموجة فوق حدود رأسها ، ثم انحدرت كالسيل في بياض صدرها !

وكان يلقي بنفسه على الارض امامها ، ويتكئ بمرفقيه فوق ركبتيه ثم يأخذ في تأملها مبتسماً مشدود الجبهة .

وكانت تنحني نحوه وتتمم ، وكأنها محتنقة من الشمل وتقول : « أوه ! لا تتحرك ! لا تتكلم ! انظر اليّ ! ان عينيك ينبعث منها شيء عذب تستريح اليه نفسي » .

وكانت تسميه طفلاً .

— ايها الطفل ! هل تحبني ؟

ولم تكن تسمع جواباً مع سرعة شفثيه اللتين كانتا تصعدان الى الفم . وكان فوق الساعة الدقاقة تمثال صغير من البرونز لكوييدون إله الحب ، مبتسماً وقد حنا ذراعيه تحت باقة مذهبة . وكثيراً ما كانا يضحكان منه . ولكن كل شيء كان يبدو جاداً عندما يحين موعد الفراق .

كان كل منهما يكرر للأخر وهما واقفين ساكنين : « الى يوم الخميس ! ... الى يوم الخميس ! ... »

وفجأة كانت تأخذ رأسه بين يديها وتقبله مسرعة في جبهته وهي تصيح : « الوداع ! » ثم تنطلق من السلم .

كانت تسير الى شارع الكوميديا حيث تصلح خصلات شعرها عند حلاق ، وعند قدوم الليل كان الحلاق يضيء حانوته بالغاز .

وكانت تسمع جرس المسرح وهو ينادي المنسكعين للدخول ، وترى في مواجهتها الرجال يمرون بأوجهم البيضاء ، والنساء بزيتهن الذابلة والجميع يدخلون من باب الكواليس .

كان الجو حاراً في ذلك الحانوت الصغير المنخفض ، حيث كان السخان يثر وسط الشعر المستعار والمراهم ، وكانت رائحة الحدائد والايدي

التي تتناول رأسها لا تلبث ان تصيبها بالدوار . وكانت تغفو تحت جلباب الحلاقة ، وكثيراً ما كان الغلام يعرض عليها اثناء الحلاقة تذاكر لحفلة رقص تنكرية .

ثم كانت تنصرف ! وتصعد الشوارع حتى تصل الى فندق « الصليب الاحمر » . وكانت تأخذ خفها الذي اخفته في الصباح تحت المقاعد ، وتجلس صامتة في مكانها بين المسافرين النافدي الصبر . وكان بعضهم ينزل عند اسفل الهضبة فتبقى وحدها بالعربة .

وعند كل منحني كانت تريد رؤية اضواء المدينة ، التي تتجمع كموجة واسعة من البخار المضيء فوق المنازل المختلطة . فكانت ايما ترقع على ركبتيها فوق المساند ، وتفضل بعينها في هذا الوهج المعشى . وكانت تنتحب وتناجي ليون ، وترسل اليه الفاظاً رقيقة ، وقبلات تضل في الهواء .

وكان على الطريق المرتفع متشرد بائس يمسك عصا وسط العربات وعليه كومة من الاسماك تغطي كتفيه ، وقلنسوة مهدمة مستديرة كالطاسة تنجىء وجهه ، ولكنه عندما انتزعها كشف عن محجرين داميين مليئين بالصديد بدلاً من الجفون ، وكان اللحم يتهدل في امشاج حمراء ، وكانت تسيل منها سوائل تتجمد في بثور خضراء حتى الأنف ، الذي كانت خياشيمه تشخر في تشنج . ولكي يتحدث كان يطرح رأسه الى الخلف وهو يضحك ضحكة بلهاء ، وعندئذ كانت حدقاته الضاربتان الى الزرقة تدوران في حركة مستمرة حتى تصطدمان عند الاصداع على حافة الجرح الحي .

كان يغني اغنية صغيرة وهو يتبع العربات مطلعها : « كم تدفع حرارة يوم صحو البنت الصغيرة الى ان تحلم بالحلب ! »

وكان في بقية الأغنية عصفير وشمس واوراق اغصان !
وأحياناً كان يظهر فجأة خلف ايما عاري الرأس ، فكانت تبتعد وهي

تصبح ، وكان هيفير يداعبه ويدعوه الى ان يتخذ له ركناً في عيد سان رومان ، او يسأله ضاحكاً عن صحة صديقته العزيزة !
وكثيراً ما كانت قبعتة تدخل بحركة مفاجئة داخل العربة من خلال نافذة العربة ، بينما يتعلق بذراعه الاخرى على السلم وسط احوال العجلات . وكان صوته الضعيف المتهاافت اول الامر ، يصبح حاداً ، وينساب في الليل كالنحيب الغامض المنبعث عن حزن خفي ومن خلال دقائق اجراس الخليل وحفيف الشجر وفحيح الصندوق الاجوف كان يوحى بشيء بعيد يصيب ايماناً بالاضطراب ، وكان هذا الشيء يغور حتى اعماق روحها كالدوامة في هاوية ، ويحملها وسط آفاق من الحزن الذي لا حدود له . ولكن هيفير الذي كان يحس بثقل الأعمى وهو متعلق بالعربة كان يضربه ضربات قوية بسوطه ، فيصيب جراحه ، ثم يسقط في الوحل وهو يطلق الصيحات .

وكان ركاب « العصفورة » ينتهي بهم الأمر الى النوم ، بعضهم وهو فاغرافه ، والبعض الآخر وقد حنى ذقنه واستند على كتف جاره ، او ادخل ذراعه في القبض الجلدي ، وأخذ يهتز هزات منتظمة على وقع العربة . وشعاع المصباح الذي يهتز في الخارج فوق اشجار الليمون يتسلل الى الداخل من خلال الستائر الصفراء الداكنة ، فيلقي ظلالاً قريبة من لون الدماء على كل اولئك الاشخاص الساكنين . وكانت ايماناً الثملة بالحزن ترتعد تحت ملابسها وتزداد احساساً بالبرد في اقدامها ، والموت في روحها .

وفي المنزل كان شارل ينتظرها . وقد اعتادت « العصفورة » ان تصل متأخرة يوم الخميس . واخيراً وصلت السيدة ، فلا تكاد تقبل على تقبيل طفلتها . وكان العشاء لم يعد فلم تهتم بالأمر والتمست المنبر للطاهية ، فكل شيء أصبح الآن مسموحاً به لهذه الفتاة !!
وكثيراً ما كان زوجها يلاحظ شحوبها فيسألها عما اذا كانت مريضة .

وكانت ايما تجيب قائلة : « لا ! »

فيقول : « ولكنك غريبة هذا المساء ! »

— « ايه ! ليس هناك شيء ! ليس هناك شيء ! »

بل وفي بعض الايام كانت لا تكاد تدخل حتى تصعد الى غرفتها ،
حيث كان جويستان يروح ويجيء بخطى صامتة مبادراً الى افضل من اية
وصيفة ، فكان يضع اعواد الثقاب ، والشمعدان ، وكتاباً في متناول
يدها ويرتب قيصها ويقلب الملاءات !

وكانت تقول له : « هيا ! هذا حسن ! اذهب ! »

ذلك لأنها كانت تظل واقفة مدلاة اليدين مفتوحة العينين ، وكأنها
محزومة بخيوط ساكنة من حلم مفاجيء !

وكان اليوم التالي مزعجاً ، والايام الاخرى اشد ازعاجاً بسبب صبر
ايما النافذ في استرجاع سعادتها . فكان الشوق المتأجج المتكالب الملهب
بصور الذكريات ينفجر في اليوم السابع فينطلق في احضان ليون ! اما مشاعره
هو فقد كانت تحتفي تحت فورات تعجب وعرقان بالجميل ، وكانت ايما
تذوق هذا الحب على نحو خفي مستغرق ، وكانت تتعهد بكافة حيل
الحنان ، وترتعد قليلاً خشية ضياعه فيما بعد !

وكثيراً ما كانت تقول له في صوت عذب حزين : آه ! سوف

تركني انت !... سوف تتزوج !... ستكون كالأخرين !

وكان يسأل : « من تعين بالأخرين ؟ »

وكانت تجيب : « اعني الرجال . »

ثم تضيف وهي تدفعه بحركة ولهانة : « انكم جميعاً انذال ! »

وبيما كانا يتحدثان يوماً حديثاً فلسفياً عن اوهام الحياة الدنيا ، انسقت
ايما رغبة في اختبار غيرته او بدافع قوي نحو الانطلاق — انسقت الى
القول بأنها كانت قد احبت قبله في الماضي رجلاً — ثم اضافت انه لم

يكن يشبهه . وأقسمت برأس ابنتها انه لم يحدث بينها شيء !
وصدقها الشاب ، ولكنه مع ذلك استجوبها لكي يعرف ماذا
كان يفعل .

قالت : « كان قائد سفينة يا عزيزي ! »

وكان في هذه الاجابة ما يقطع السبيل على كل بحث ، كما كان فيها
ايضاً ما يرفع من قدرها بسبب ذلك السحر المدعي ، الذي انصب منها
على رجل لا بد انه كان ذا طبيعة مقاتلة ، معتاداً على تلقي الاهتمام .
وأحس الكاتب عندئذ بوضاعة مركزه ، وود ان لو كانت له نجوم
وتيجان وألقاب ، فإن كل هذا جدير بأن يروقها ، وقد ظن بها ذلك
لما رآه من اعتيادها الاسراف .

ومع ذلك فإن اما كانت تكبح عدداً من نزواتها المسرقة ، كرجبتها
في ان تمتلك عربة فخمة زرقاء يشدها حصان انجليزي ، ويقودها سائس
في حذاء طويل مثني لكي تحملها الى روان . وكان جويستان هو الذي
اوحى اليها بهذه النزوة ، وهو يضرع اليها ان تأخذه عندها كخادم
عربة . وهذا الحرمان لم يكن يضعف من سرورها بكل لقاء ، وان كان
يزيد بلا ريب من مرارة العودة .

وعندما كانا يتحدثان عن باريس كثيراً ما كانت تنتهي بان تتمم
قائلة : « آه . كم نكون سعداء لو عشنا هناك ! »

وكان الشاب يجيب في رفق وهو يمر بيده فوق جدائل شعرها : « او
لسنا سعداء ؟ »

فبتقول : « نعم . هذا حق . انني مجنونة - قبلي ! »

لقد اصبحت بالنسبة لزوجها اكثر سحراً من أي يوم مضى . فهي
تصنع له الكريمة بالفستق ، وتعزف الفالس بعد العشاء . وهكذا وجد نفسه
أسعد البشر ! وعاشت اما بدون قلق ، حتى كان مساء قال فيه شارل
فجأة : « ان الآنسة لميرور هي التي تعطيك الدروس اليس كذلك ؟ »

– نعم !

فاستأنف شارل قائلاً : « ولكنني قابلتها منذ هنيهة عند مدام ليجار . وقد تحدثت إليها عنك ، ولكنها لا تعرفك ! »

وكانت هذه العبارات كالصاعقة ، ولكنها مع ذلك ردت في نغمة طبيعية : « آه ... إنها بلا شك قد نسيت اسمي ؟ »

وقال الطيب « ولكن ربما كان في روان عدة آنيات يحملن الاسم لمرور » ويدرسن البيانو !

– هذا ممكن !

ثم قالت في حدة : « ومع ذلك فإن لدي الإيصالات ! ... انتظر ! » .

وذهبت الى الصوان حيث اخذت تفتش في الأدراج وتقلب الأوراق ، وانتهت بأن اصابها الدوار ، حتى ان شارل دعاها في قوة الى ألا تتعب نفسها كل هذا التعب من أجل ايصالات تافهة !

وقالت : « أوه ! .. سوف أجدها ! »

وبالفعل في يوم الجمعة التالي بينا كان شارل يلبس أحد أحذيته في الغرفة المظلمة التي تحوي ملابسه ، أحس بورقة بين الجلد وجوربه ، فأخذها وقرأ : « وصل لدروس ثلاثة أشهر وتوريدات مختلفة بمبلغ خمس وستين فرنكاً . »

فيليبه لمرور

« مدرسة موسيقى »

وقال شارل : « ولكن كيف وصات هذه الورقة الى حدائي ؟ »

فأجابت « إنها بلا ريب سقطت من ملف الايصالات الموضوع على حافة الرف » .

ومنذ تلك اللحظة لم تعد حياتها غير سلسلة من الأكاذيب التي كانت تلف فيها حبها – وكأنها اوشحة – لكي تحفيه .

واصبح الكذب بالنسبة اليها حاجة وولع ولذة ، الى حد انها اذا
قالت انها قد مرت بالأمس من الناحية اليمنى لأحد الشوارع ، كان
من الواجب ان نعتقد انها مرت من الناحية اليسرى !

وذات صباح سقط الجليد فجأة بعد ان كانت قد سافرت بملابس
خفيفة كمعادتها . وبينما كان شارل ينظر الى الجو من النافذة ، رأى السيد
بورنسيان في عربة السير تيفاسن وهو يقودها الى روان . وعندئذ
نزل لكي يعطي القس شالاً سميكاً ليحمه الى السيدة بمجرد ان يصل
الى فندق « الصليب الاحمر » . وبمجرد ان وصل بورنسيان الى الفندق
سأل أين زوجة طبيب ابونفيل . فأجابت صاحبة الفندق بأنها لا تتردد
على فندقها الا قليلاً ، ولذلك عندما رأى القس مدام بوفاري في المساء
في « العصفورة » قص عليها حيرته وارتباكها دون ان يبدو عليه انه
يعلق اهتماماً على الموضوع ، وذلك لأنه ابتداء الحديث عن موضوع آخر،
وهو نثاؤه على واعظ أخذ يثير الاعجاب في الكاتدرائية ، وتتسابق السيدات
لساعه !

ولكن اذا لم يكن قد اهتم بأن يطلب ايضاحات ، فان غيره قد
يكونون فيها بعد اكثر فضولاً . ولذلك رأت من المفيد ان تنزل كل
مرة في فندق «الصليب الأحمر» بحيث ان أهل قريتها الذين يرونها في
السلام لا يشكّون في شيء .

ومع ذلك فقد رأها السيد ليريه وهي تخرج من فندق بولوني متأبطة
ذراع ليون . وتملكها الخوف ، متصورة انه قد يأخذ في الثرثرة ، وبخاصة
وأنة ليس مغفلاً !

ولكنه بعد ذلك بثلاثة ايام دخل غرفتها واغلق الباب ، وقال :
« لانني قد احتاج الى المال ! »
واعلنت انها لا تستطيع ان تعطيه شيئاً . فأخذ ليريه يثن ، ويذكرها
بكل ما قدمه لها من خدمات .

والواقع ان ايما لم تكن قد دفعت حتى الآن غير قيمة واحدة من الكيمبالتين اللتين وقعها شارل . اما الثانية فقد قبل التاجر - بناء على رجائها - ان يستبدلها بكيمبالتين ، بل وجددهما لمواعيد طويلة . ثم استل من جيبه قائمة بالتوريدات التي لم يحاسب على ثمنها ، وهي الستائر والسجادة وقماش الفوطيات وعدة اثواب وأدوات متنوعة للزينة ، يرتفع ثمنها الى مبلغ ألفي فرنك تقريباً !

وطأطأت رأسها فاستأنف يقول : « ولكن اذا لم تكن لديكم نقود سائلة فلديكم عقارات ! »

وحدد بيتاً حقيراً يقع في بارنفيل الى جوار اومال ، وهو لا يغل دخلاً كبيراً ، وكان فيما مضى ملحفاً بمزرعة صغيرة ابتاعها السيد بوفاري الأب ، وذلك لأن ليريه كان يعرف كل شيء ، حتى مقدار الهكتارات واسم الجيران !

وقال : « لو انني كنت في مكانكم لتخلصت من الدين ، وبقي لي بعد ذلك الفائض . »

واعترضت بصعوبة العثور على مشتر . فأعطاها الأمل بأن يجد مشربياً . ولكنها تساءلت عما يلزم لكي تستطيع ان تبيع .

فأجاب : « أليس لديك التوكيل ؟ »

فوصلت اليها هذه العبارة كهبة هواء رطب .

وقالت ايما : « اترك لي القائمة . »

فأجاب ليريه : « أوه ! .. لا داعي لهذا ! »

وعاد في الاسبوع التالي فخوراً بأنه قد استطاع بعد مساع جمة ان يكتشف المدعو لانجلوا ، الذي كان يتطلع الى البيت دون ان يفصح عن الثمن !

فصاحت : « الثمن لا يهم ! »

وكان الواجب - على العكس - الانتظار ، وجس هذا العملاق !

وكان الامر يستحق السفر ، ولكنها لما كانت لا تستطيع هذا السفر فقد عرض ان يذهب هو الى المكان ، لكي يتشافه مع لنجلوا . وبمجرد عودته أعلن ان المشتري قد اقترح اربعة آلاف . وتهللت ايما لهذا الخبر .

واضاف : « بصراحة هذا ثمن طيب ! »
وقبضت نصف المبلغ فوراً . وعندما اخذ التاجر يصفي حسابه قال : « بشرني انه ليؤمني ان اراك تدفعين مرة واحدة مثل هذا المبلغ المحترم . »

وعندئذ نظرت الى اوراق البنكنوت وهي تحلم بعدد المواعيد التي لا حصر لها والتي يمثلها هذان الألفان من الفرنكات .
وتتمت قائلة : « كيف ١؟ ... كيف ١؟ ... »

فأجاب وهو يضحك في مظهر وديع : « أوه ... إن الانسان يضع كل شيء على الحساب ... أو لست اعرف المنازل ؟ »
واخذ يحدق فيها وهو ممسك في يده قائمتين طويلتين يتحسسها بين أظافره . واخيراً فتح حافظته ونشر على المائدة اربعة كمبيالات كل منها بألف فرنك .

وقال « وقعي لي هذه ، واحتفظي بالكل ! »
واستنكرت قوله مشمذة .

ولكنه اجاب في وقاحة قائلاً : « ولكنني اعطيك الفانض ...
ليس في ذلك خدمة لك انت ١؟ »

ثم اخذ قلماً وكتب في اسفل قائمة الحساب : « وصل من مدام بوفاري اربعة آلاف فرنك » واطاف قائلاً : « ماذا يقلقك ما دمت ستسلمين بعد ستة اشهر متأخر ثمن متراك ، وما دمت قد حددت ميعاد آخر كمبيالة لما بعد الدفع ؟ »

وارتبكت ايما قليلاً في هذه الحسابات ، وأخذت أذناها تطنان ، كأن قطعة

من الذهب قد شقت اكياسها واخذت ترن حولها على الارض . واخيراً اوضح ليريه ان له صديقاً اسمه فانسار صاحب بنك في روان وانه سيخضم هذه الكمبيالات الأربعة ، ثم انه سيدفع بنفسه الى السيدة ما يفيض عن الدين الحقيقي .

ولكن بدلاً من الفي فرنك لم تفرز الا بألف وثمانين ، وذلك لأن الصديق فانسار قد اخذ مائتين كمصاريف عمولة واجرة خصم !
ثم طلب فظاهر بعدم الأكتراث ان تكتب له وهو يقول : « انت تعرفين في التجارة ... احياناً ومع التاريخ من فضلك - التاريخ .. »

وانفتح عندئذ امام ايما أفق للتروات الممكنة التحقيق . وكان لديها من الحزم ما دفعها الى ان تضع ألف فرنك من الاحتياطي . وبواسطتها استطاعت ان تدفع الكمبيالات الثلاثة الأولى عندما حل موعدها . ولكن الرابعة سقطت في المنزل مصادفة يوم خميس ، وانتظر شارل مضطرباً في صبر عودة امرأته ليطلب ابصاحات .

وإذا كانت لم تجربه بهذه الكمبيالة فانما كان ذلك لكي تجنبه الموم المتزلية ! وجلست فوق ركبتيه وداعبته وناغته ، واخذت تعدد قائمة طويلة من الأشياء الضرورية التي اخذتها على الحساب .

واضافت قائلة : « ولا شك انك تقدر ان هذا الثمن ليس مرتفعاً بالنسبة لكثرة هذه الأشياء ! »

وعاد شارل الى ليريه الخالد بعد ان استفد كل افكاره ، وأقسم التاجر ان يهديء الأمور اذا وقع السيد له كمياليتين ، إحداهما بسبعائة فرنك تدفع بعد ثلاثة اشهر . ولكي يغطي الموقف كتب الى امه خطاباً مؤثراً ، ولكنها بدلاً من ان ترد ، حضرت بنفسها . وعندما ارادت ايما ان تعرف ما اذا كان قد استخلص منها شيئاً أجاب قائلاً : (نعم!) ولكنها طلبت ان تطلع على الحساب .

وفي اليوم التالي اسرعت إيما عند بزوغ الشمس الى السيد ليريه لكي
ترجوه ان يعد قائمة حساب اخرى لانتجاوز الالف فرنك . وذلك لانه
لكي تظهر كمبيالة الاربعة آلاف كان لا بد ان تقول انها دفعت الثلاثين ،
وان تعترف تبعا لذلك ببيع العقار الذي احسن التاجر المساومة عليه ،
والذي لم تعلم يبيعه فعلا الا بعد ذلك .

وبالرغم من رخص ثمن كل سلعة فان مدام بوفاري الأم لم يفتها
ان تلاحظ المبالغة في المصروف .

واضافت قائلة (او لم يكن من الممكن الاستغناء عن سجادة ؟ وما
الداعي الى تجديد قماش القوتيات ؟ في ايماننا لم يكن في المنزل غير فوتي
واحد للمسنين ، او على الاقل كان هذا هو الحال عند امي التي كانت
سيدة ممتازة . أؤكد لكم ان كل انسان لا يستطيع ان يكون غنياً !
ان اية ثروة لا تستطيع ان تثبت على الاسراف ! انه ليخجلني ان ادلل
نفسي كما تفعلون ! ومع ذلك فانا عجوز وفي حاجة الى العناية . ما
هذه (الأنتكة والفخفة) : حرير للبطانة بفرنكين بينما يوجد قماش
بنصف فرنك بل وربع فرنك يؤدي نفس الغرض)

واجابت إيما في هدوء مطلق وهي منطرحة على المقعد (ايه يا
سيدتي . . . كفى . . . كفى . . .)

واستمرت الأخرى تعظها وتتنبأ بأنهما ستنتهيان الى المستشفى ! كما ان
الخطأ يعود الى بوفاري . وانه لمن حسن الحظ انه وعد بأن يلغي
التوكيل .

— كيف ؟

— آه ، لقد اقسم لي بذلك

وفتحت إيما النافذة ونادت شارل . واضطر المسكين الى ان يعترف
بالوعد الذي انتزعتة امه .

واختفت إيما ثم عادت مسرعة وهي تمد اليه في عظمة ورقة ضخمة.

فقالت السيدة العجوز : « اشكرك » !.

ورمت التوكيل في النار !

واخذت إيمًا تضحك ضحكا صارخا صارخا مستمرا . اذ انها قد اصيبت بازمة عصبية . وصاح شارل قائلا : « آه ... يا الهي ... انك انت الاخرى مخبطة . لقد اتيت لتسني عليها معركة ! » وهزت امه كنفها وادعت ان كل هذا ليس الا تمثيلا .

ولكن شارل - الذي ثار لأول مرة - اخذ جانب الدفاع عن امرأته ، حتى ان مدام بوفاري الأم ، ارادت ان ترحل . وفي اليوم التالي رحلت بالفعل ، وعندما اراد شارل ان يثنىها عن الرحيل وهي واقفة على العتبة اجابت قائلة « لا لا ... انك تحبها اكثر مني ! سوف ترى ... آتمنى لك العافية وذلك لانني لست مستعدة لان اشن عليها معارك كما تقول ! » ومع ذلك لم يكن شارل اقل ارتباكاً إزاء إيمًا التي لم تخف الموجودة التي بقيت في نفسها من نقص ثقته فيها . وكان لا بد من عدة ضراعات قبل ان توافق على استرداد توكيلها ، بل واصطحبها عند السيد جيوما لكي يحرر لها توكيلا ثانيا مشابها تماما للأول . وقال الموثق : اننى افهم ذلك ، فرجل العلم لا يستطيع ان يشغل نفسه بتفاصيل الحياة العملية .

واحس شارل بالراحة عندما سمع هذه العبارات الماكرة التي تضي على الضعف مظاهر خداعة من الاهتمام بامور اكثر سمواً .

اية انفعالات كانت تلك التي شهدتها غرفة الفندق في الخميس التالي مع ليون ! فقد ضحكت وبكت وغنت ورقصت وطلبت مثلجات من عصير الفاكهة المزوج بالخمير ، وارادت ان تدخن السجاير ، وبدت له مسرفة ولكن ساحرة رائعة . ولم يدر اي تفاعل في شخصها كان ذلك الذي يدفعها - اكثر من ذي قبل - الى التهالك على لذات الحياة . وقد اصبحت عصبية ، نهمة شهوانية . واخذت

تنزّه معه في الشوارع رافعة الرأس ، ودون خوف - فيما تقول - من الفضيحة . ومع ذلك فان إيما كانت ترتعد احيانا عندما تمر برأسها فجأة فكرة الالتقاء برودلوف ، وذلك لانه كان يلوح لها انها لم تتحرر تحرر مطلقا من التعلق به ، بالرغم من انها قد افترقا الى الابد .

وذات مساء لم تعد الى ايونفيل ، فطار صواب شارل ، ولم ترد الصغيرة برت ان تنام بدون امها ، فأخذت تبكي بكاء كاد يصدع صدرها . وانطلق جويستان على الطريق دون هدف ، وترك السيد هوميه صيدليته بسبب هذا الحادث .

واخيراً في الساعة العاشرة نفذ صبر شارل، فأعد عربته وقفز فيها وساط الدابة ، ووصل حوالي الساعة الثانية صباحا الى فندق الصليب الاحمر ، ولكنه لم يجدها . وظن ان الكاتب قد رآها، ولكن اين يقيم ؟ ومن حسن الحظ تذكر شارل عنوان رئيسه ، فاسرع الى هناك .

كان النهار قد اخذ يظهر ، ورأى لافتة على باب فندق . وصاح شخص من الداخل دون ان يفتح ، مقدما المعلومات التي طلبها ، وهو يسب اولئك الذين يقلقون الناس في الليل .

وكان المنزل الذي يقطنه الكاتب ليس له جرس ولا مدقة ولا بواب ، فاخذ شارل يضرب بقبضة يده ضربات قوية على خشب النوافذ . وممر شرطي فتملكه الخوف ، وانصرف وهو يحدث نفسه قائلاً (انني مجنون ... انهم بلا ريب قد استبقوها لتناول العشاء عند السيد لورمو) ولم تكن اسرة لورمو تقيم بعد في رواق . فحدث نفسه ثانية قائلاً (انها قد تخلفت للعناية بمدام دي بروي ... آه ! ان مدام دي بروي قد ماتت منذ ستة اشهر . . اين هي اذن ؟)

وجاءته فكرة . فطلب من مقهى دفتر التلفون ، وبحث في سرعة عن مدموازيل لاميرو التي تقيم في شارع وينيل دي ماروكينييه رقم ٧٤ . وبينما هو يدخل في هذا الشارع اذ بإيما تظهر هي نفسها عند الطرف

الآخر ، فرمى نفسه عليها في تهالك اكثر من عناق ، وهو يصيح :
ما الذي استبقاك امس ؟

– لقد كنت مريضة .

– بأي مرض ؟ ... اين ؟ ... كيف ؟ ...

ومرت بيدها فوق جبهتها ثم اجابت « عند مدموازيل لامرور »
– لقد كنت متأكدا من هذا ، وكنت ذاهبا الى هناك .

فقلت لهما : « اوه ! لا داعي لذلك ، فقد خرجت منذ هنيهة . ولكن في
المستقبل اطمئن ! فانا- كما تقدر - لن اكون حرة اذا كنت اعلم ان
اقل تاخير يزعجك على هذا النحو .»

وكان هذا بمثابة تصريح اعطته لنفسها بالانتحرج في شطحاتها .
وعندما كانت تحس برغبة في رؤية ليون كانت تتحلى اي سبب !
ولما كان لا ينتظرها في مثل ذلك اليوم ، فانها كانت تذهب لتستحضره
من مكتبه . وقد وجد سعادة كبيرة في الأيام الأولى ، ولكن بعد قليل
لم يعد يخفي الحقيقة ، وهي ان رئيسه قد اخذ يشكو من هذا
الاضطراب في العمل . وكانت تقول (آه ... ياه .. تعال اذن ..)
وكان يطبع .

وارادت ان يلبس ملابس سوداء ، وان يطلق عثنونا في ذقنه لكي
يشبه صور لويس الثالث عشر ! كما ارادت ان تعرف مسكنه ، ووجدته
حقيرا ، ولكنه لم يخجل ، ولم تهتم بذلك . ثم نصحته بان يشتري
ستائر شبيهة بستائرها . وعندما احتج بالتكاليف قالت وهي تضحك :
(آ .. آه ! انك حريص على دريهماتك !)

وكان من الواجب على ليون ان يقص عليها كل مرة سلوكه كله منذ
اللقاء الاخير . وكانت تطلب اشعاراً ... اشعاراً من اجلها ... قصيدة
غرام تمجدها ! ولكنه لم يصل قط الى ان يقع على قافية البيت الثاني
وانتهى بان نسخ مقطوعة من مجموعة اشعار .

لم يكن هذا ارضاء لفروره فحسب بل كان ايضاً لمجرد ارضائها؛
فانه لم يكن يناقش آراءها ، وكان يوافق على كل رغباتها ، وقد
اصبح عشيقها بدلا من ان تصبح عشيقته ! وكانت لها عبارات حنونة ،
وقبلات تطير بروحه . ولكن اين تعلمت هذا الاغراء الذي يكاد لا يكون
مادياً لفرط عمقه وتنكره ؟

* * *

في الرحلات التي كان يقوم بها ليون لرؤيتها ، كثيراً ما كان يتناول
طعامه عند الصيدلي ، ولذلك رأى نفسه مضطراً بحكم اللياقة الى ان
يدعوه هو الآخر الى الطعام .

فاجاب السيد هوميه : « بكل ارتياح ! وذلك فضلا عن حاجتي الى
التجديد قليلا لأنني قد اخذت اصداً هنا . وسوف نذهب الى المسرح ،
والمطعم، ونأني ما نشاء من مرح »

وتمتتم مدام هوميه في حنان ، وقد ازعجتها الاخطار الفاضحة التي
قد يتعرض لها : « آه يا عزيزي ! »

فقال الصيدلي : « ثم ماذا؟ هل ترين انني لا ادمر صحتي التدمير الكافي
بالحياة وسط هذه الروائح المنبعثة باستمرار من الصيدلية ؟ ولكن هذا
هو خلق النساء ! إنهن غيورات من العلم ، ومع ذلك يأبين ان يتمتع
الانسان بأية تسرية مشروعة . ولكن ثقي، على اي حال، بانني سوف
اسقط يوما على روان ، واننا سنطبخ سوياً بالتعود ! »

كان الصيدلي فيما مضى يحذر مثل هذه العبارة ، ولكنه اخذ الآن
يظهر بالمظهر الباريسي المستخف الذي رآه ملائماً للذوق الرفيع ، وأخذ
يسأل - كجارتها مدام يوفاري - الكاتب في نهم عن اخلاق العاصمة ،
بل وأخذ يتحدث بلهجتها الخاصة لكي يدهش من حوله من البرجوازيين
فيقول « يسخن الطاسة » و « يسلطن » و « يتجلى » ... الخ

وهكذا دهشت إيماناً في يوم خميس بأن تلقى في مطبخ «الأسد الذهبي» السيد هومييه في حلة السفر، أي مغطى بمعطف قديم لم يكن معروفاً أنه يمتلكه، بينما يحمل في إحدى يديه حقيبة وفي اليد الأخرى الوجاء الذي يدفء فيه قدميه وهو في الصيدلية. ولم يخبر أحداً بمشروعه خوفاً من أن يقلق الجمهور أباه!

كانت تثيره فكرة رؤية الأماكن التي قضى فيها شبابه من جديد، ولذلك لم يتوقف عن الكلام طوال الطريق. وبمجرد أن وصل قفز من العربة في سرعة، وأخذ يبحث عن ليون، الذي حاول عبثاً أن يتخلص منه. فان السيد هومييه قد جره إلى مقهى نورمانديا الكبير الذي دخله في عظمة دون أن يلح قبعته، مقدراً أن خلعها في مكان عام دليل قوي على الرفية!

وانتظرت إيماناً ليون ثلاثة أرباع الساعة، وأخيراً أسرع إلى مكتبه، وقد ضلت في الإفراضات، فاتهمت بعدم المبالاة، كما أتهمت نفسها بالضعف، وأمضت بعد الظهر ملصقة الجبين بزجاج النافذة.

كانا في الساعة الثانية لا يزالان متربعين على المائدة، أحدهما أمام الآخر، وقد أخذت الصلاة الكبرى تخلو من الناس، ومواسير المدفأة تستدير في السقف الأبيض في صورة شجرة نخيل ذهبية السعف، وبالقرب منهما - خلف الزجاج وتحت أشعة الشمس - كانت تخر نافورة ماء صغيرة في حوض من الرخام به إلى جوار الجرجير والمليون - ثلاثة من أبو جلمبو متصلبة وممتدة حتى كومة من السمان المضطجع على جنبه! كان هومييه منتشياً، ولو أنه كان ثملاً بالبذخ أكثر منه بجودة الطعام، وإن يكن نبيذ بومار قد أثار قليلاً من ملكائه. وعندما ظهرت العجة بالروم أخذ يعرض عن النساء نظريات لأخلاقية. كان أهم ما يجذبه هو الأناقة، فهو يعبد زينة أنيقة في جناح حسن الاثاث. وأما عن الصفات الجسمية فإنه لم يكن يكره «الكتلة»!

وكان ليون يرقب الساعة الدقاقة في يأس ، بينما الصيدلي يشرب ويأكل ويتكلم !

وقال فجأة : « لا بد أنك محروم في روان ، وان يكن احبابك لا يقيمون بعيداً من هنا ! »

وعندما اخذت الحمرة تعلق وجه الآخر ، اضاف قائلاً : « هيا ! فلنكن صرحاء ! هل تنكر انك في ايونفيل ...؟ »

فتمتم الشاب ، وأضاف الصيدلي : « عند مدام بوفاري أوما تداعب ...؟ »

– من ؟

– الخادمة !.

لم يكن الرجل يمزح ، ولكن الغرور تغلب عند ليون – رغم انقه – على الحذر ، فاستنكر ما سمع ! ثم انه لم يكن يجب غير السمراوات . وقال الصيدلي : « انني اؤيدك ، فإنهن اكثر حرارة ! »

ومال على أذن صديقه وأخذ يوضح الإمارات التي بواسطتها تعرف المرأة الحارة المزاج ! ثم انطلق في استطراد عن علم الإجناس ، فالالمانية خيالية ، والفرنسية اباحية ، والايطالية انفعالية !

وسأل الكاتب : – والزنجيات ؟

فقال هوميه : – « هذا ذوق الفنان ! »

ثم نادى الجرسون وطلب كأسين .

فقال ليون وقد نفذ صبره في النهاية : « هل ننصرف ؟ »

فاجاب الصيدلي بالانجليزية : « نعم ! »

ولكنه اراد قبل ان ينصرف ان يرى صاحب المطعم ، وان يقدم

اليه بعض التهاني !

وعندئذ ادعى الشاب ان لديه بعض المهام ، وذلك لكي يخلو بنفسه .

فقال هوميه : « آه ! سأصطحبك ! »

وبينا هو ينحدر معه في الشوارع اخذ يتكلم عن زوجته ، وأولاده
ومستقبلهم ، وصيدليته ، ويقص ما كانت عليه من تدهور فيما مضى ،
ودرجة الكمال التي وصل بها اليها !
وعندما وصلا الى فندق بولون تركه ليون فجأة ، وتسلى السلم ،
ووجد عشيقته في انفعال شديد .

وعندما سمعت اسم الصيدلي اخذها الغضب ، ولكنه اخذ يعدد الأعذار ،
فالحطاً لم يكن خطأه ، وهل هي تجهل السيد هوميه ؟! وهل يمكن ان
تعقد انه يفضل صحبته ؟ ولكنها دارت على عقبيها ، فأمسك بها
وجثا على ركبتيه ، ولف ذراعيه حول خصرها في وضع مدله مليء
بالشهوة والضراعة .

كانت واقفة ، وعيناها الكبيرتان الملتهتان تنظران اليه في جد بل
وفي هيئة تكاد تكون مخيفة ، ثم غامت عيناها بالدموع ، وانسدل جفناها
الوردبان ، وارتجت يداها فحملها ليون الى فمه ، عندما ظهر خادم يخبر
السيد ان هناك احداً يطلبه .

فقالت : « انك ستعود ؟ »

— نعم !

— ولكن ؟

— فوراً !

وقال الصيدلي عندما لمح ليون : « انها حيلة اردت بها ان اقطع هذه
الزيارة التي لاح لي انها تضايقتك ! هيا ! فلنذهب الى بار بريديو لتناول
كوباً من المغات ! »

فأقسم ليون بأنه مضطر ان يعود الى المكتب ! وعندئذ اخذ الصيدلي
يرسل التكات عن الاضابير والاجراءات القضائية !

وقال : « فلتترك قليلاً فقهاءك كيجاس وبيرتول وغيرهما ! ومن
الذي يمنعك ؟ كن شجاعاً ! وهيا الى محل بريديو وسوف ترى كلبه .

انه كلب عجيب ! »

وعندما ظل الكاتب مصراً على الامتناع عن الذهاب قال هوميه :
« سأذهب الى هناك انا ايضاً ، وسوف اقرأ جريدة في انتظارك او اقلب
صفحات مجموعة قوانين! »

وظل ليون متردداً ورأسه يدور من غضب ايما وثرثرة السيد هوميه ،
بل وربما من ثقل الطعام ! وكان الصيدلي قد أخذ يغريه وهو يردد :
« هيا الى محل بريديو ! انه على مسافة خطوتين في شارع ملبالي ! »

وعندئذ استسلم منساقاً الى محل بريديو عن جنب او غفلة ، او عن
ذلك الشعور الغامض الذي يسوقنا نحو الاشياء التي نبغضها اشد البغض .
ووجدا بريديو في الفناء الصغير ، حيث كان يلاحظ ثلاثة غلمان يلهثون
وهم يريدون عجلة كبيرة لآلة ضخمة تصنع المياه الغازية ، فاعطاهم
هوميه بعض النصائح ، وقبل بريديو ، وشربا المغات. وأراد ليون عشرين
مرة ان ينصرف ، ولكن الآخر كان يمسكه من ذراعه قائلاً « بعد
هنيهة ! سأخرج وسنذهب الى جريدة فنال دي روان لئري اولئك السادة ،
وسوف اقدمك الى توماسان ! »

ومع ذلك تخلص منه وجري وثباً حتى الفندق ، ولكن ايما كانت
قد غادرته !

كانت قد رحلت نائرة وقد اصبحت الآن تبغضه ، ولاح لها اخلاله
بالموعد اهانة ، كما بحثت عن اسباب اخرى لتنفصل عنه فهو غير قادر
على البطولة ، ضعيف مبتذل ، اكثر رخاوة من امرأة ، فضلاً عن انه
يخيل منعدم النخوة ! »

ثم أخذت تكتشف ، عندما هدأت ، انها بلا ريب قد اغتابته ، ولكن
انتقاصنا لمن نحب لا بد ان يقصينا عنهم قليلاً ، فالأصنام المعبودة لا يجب
ان تمس ، والا فقدت طلاءها الذهبي الذي يلتصق عندئذ بأيدينا .
ثم اصبحا يتحدثان عن اشياء بعيدة عن حبهما ، وفي الخطابات التي

كانت ترسلها اليه ايما كان يجري الحديث عن الزهور والاشعار والقمر
والنجوم ، وكلها رسائل بدائية لغرام اصابه الضعف ، وأخذ يحاول ان
ينتعش بالمساعدات الخارجية ! وكانت تعد نفسها بسعادة عميقة في كل
رحلة مقبلة ، ثم كانت تعترف بأنها لم تحس بشيء خارق للعادة . ولكن
هذه الخيبة كانت تمحي تحت تأثير امل جديد ، فتعود ايما اليه اكثر
اشتعالاً ونهياً ، فكانت تتعمى في عنف ، وتتزع شريط صدارها
الرفيع الذي يدور حول رديها كما يتسلل الثعبان . وكانت تذهب على
اطراف اصابعها العارية لكي تتأكد مرة اخرى من ان الباب مغلق ،
ثم تسقط ملابسها كلها بحركة واحدة ، وتتهالك على صدره في رعشة
طويلة ، شاحبة صامتة جادة !

ومع ذلك فقد كان فوق جبينها المغطى بقطرات العرق الباردة ، وفوق
شفتيها المتممتين ، وفي حدقتيها الضاليتين ، وفي ضمة ذراعها إسراف
غامض مقبض ، بلوح لليون انه ينساب بينهما في تسلل وكأنه يود ان
يفصل بينهما !

لم يجرؤ ان يلقي عليها اسئلة . ولكنه لما كان يدرك انها ذات خبرة ،
فقد قال لنفسه انها لا بد قد مرت بكافة تجارب الألم واللذة . وما كان
يسحره فيها مضي اصبح الآن يخيفه قليلاً . وفوق ذلك فانه اخذ يثور
على امتصاصها لشخصيته امتصاصاً يتزايد يوماً بعد يوم ، حتى لقد أخذ
يحقد على ايما هذا الانتصار الابدئي ! بل وحاول ان لا يهتم بها ، ولكنه
بمجرد سماعه وقع اقدامها كان يحس نفسه جباناً ، كمدني الحمر عندما
يرون شراباً قوياً !

ومع ذلك فانها في الحق لم تتخل عن ان تحيطه بأنواع من الرعاية ،
فن طيات المائدة الى اناقة الملابس ، الى هيام النظرة . وكانت تستحضر
من ابونفيل الورد في صدرها لكي تلقيه في وجهه ، كما كانت تظهر التلق
على صحته وتقدم له النصائح عن سلوكه . ولكي تستقيه مرة أطول

– وقد رجحت ان تساعدنا العناية الإلهية على ذلك – طوقت عنقه بنوط للعدراء . وكانت تسأله – كأم فاضلة – عن رفاقه، وتقول له : « لا ترهم ، ... لا تخرج ... لا تفكر الا فينا ... احبيني ! »

وكانت تود ان لو راقبت حياته ! وطرأت عليها فكرة تكليف بعض الاشخاص بمتابعته في الشوارع ! وكان هناك دائماً الى جوار الفندق متسول شريد كان يقطع الطريق على المسافرين ولم يكن ليرفض ولكن كبرياءها ثارت ، فقالت : « ايه ..! فليكن ..! وليخني ... ان هذا لا يعنيني ! هل انا متمسكة به ؟ »

وفي احد الايام افرقا في وقت مبكر ، وعادت وحدها عن طريق البولفار ، فلمحت جدران ديرها . وعندئذ جلست على مقعد في ظل اشجار الدردار . ايّ هدوء كان في ذلك الزمن ! وكم تمنى تلك المشاعر الغرامية الغامضة التي كانت تحاول ان تنصورها كما توحى بها الكتب ! والاشهر الاولى لزوجها ، والنزهات على صهوة الجواد في الغابة ، والفيكونت الذي كان يرقص الفالس ، ولاجارديه وهو يغني – كل هذا مر امام عينيها . ولاح لها ليون فجأة على نفس البعد الذي يفصلها عن الآخرين !

وقالت لنفسها : « ومع ذلك فياني احبه ! »

وعلى اية حال، فانها لم تكن سعيدة ، ولا كانت سعيدة قط ! ومن اين يأتي اذن هذا النقص في الحياة ، وهذا التعفن السريع الذي يصيب كل ما تتكوى عليه ؟ ... ولكن اذا كان في مكان ما شخص قوي جميل ذو طبيعة ممتازة ، مليء بالحماسة والرفافة معاً . قلب شاعر في مظهر ملاك ، عود ذو اوتار من نحاس ترتفع للسما نغماته وهو يعزف اناشيد الزفاف العاطفية ، فلماذا لا تلقاه مصادفة ؟ أوه ! يا له من مستحيل !! وفوق ذلك: فلا شيء يستحق عناء البحث ، وكل شيء خادع ! ... كل ابتسامة تخفي ثناؤب ملل ، وكل نشوة لعنة ، وكل لذة تفززاً ، وأحلى

القبلات لا تترك فوق الشفة الا رغبة مستحيلة في لذة أقوى !
انسابت حشرجة معدنية في الهواء ، وسمعت اربع دقات من جرس
الدير . الساعة الرابعة !؟ ... ولاح لها انها كانت هناك فوق هذا
المقعد منذ الأبد . ولكن عدداً لا نهاية له من الانفجالات ، يمكن ان
ينحصر في دقيقة واحدة ، كجمهور من الناس في مكان صغير !
كانت ايما تعيش مشغولة بنزواتها انشغالاتاً تاماً ، دون ان تعني نفسها
بمسألة المال ، اكثر مما تعني بها نفسها ارشيدوقة !

ومع ذلك حدث ذات مرة ان دخل عندها رجل هزيل المظهر ،
ضارب الى الحمرة ، اصلع . معلناً انه مرسل من السيد فانسار المقيم
في روان . وانتزع الدبايبس التي كانت تغلق الجيب الجانبي لردنجوته
الطويل الاخضر ، وغرسها في كفه ، ثم مد يده في تأدب ورقة !
كانت كميالة بسبعمائة فرنك مقيدة عليها ، وكان ليريه قد حولها
لأمر فانسار بالرغم من معارضتها القوية .

وأرسلت خادمتها الى منزله ، ولكنه لم يستطع ان يحضر .
وعندئذ اخذ الرجل المجهول الذي ظل واقفاً يتطلع بمنة وبسرة
بنظرات مستطلعة ، يخفيها حاجباه الشقراوان السميكان - أخذ يسأل في
مظهر ساذج : « اي جواب احمل للسيد فانسار ؟ »
وأجابت ايما « حسن ، قل له ... انه ليس عندي ... وسيكون
عندي في الاسبوع المقبل ... فلينتظر ... نعم ! الاسبوع المقبل ! »
وانصرف الرجل دون ان ينبس بكلمة .

ولكنها تسلمت في اليوم التالي عند الظهر إنذاراً . وقد افزعها فزعاً
شديداً منظر ورقة الدفعة ، وقد انتشر فوقها في عدة مواضع ، وبأحرف
كبيرة « الاستاذ هاران - محضر بوشيه » حتى انها انطلقت عادية الى
منزل بائع القماش !
وجدته في دكانه مشغولاً بجزم لفة .

فقال : « خادمك ! انا تحت الأمر ! »

ومع ذلك استمر ليريه في عمله ، تعاونه بنت صغيرة في الثالثة عشرة من عمرها تقريباً ، محدودبة الظهر قليلاً ، وهو يستخدمها كساع وطاهية في الوقت نفسه .

ثم دقّ بجذائه فوق خشب ارضية الدكان ، وصعد امام السيدة الى الدور الأول ، وأدخلها في غرفة مكتب ضيقة حيث كان مكتب سميك من خشب الأنقاض ، فوق بعض السجلات ، التي يضمها ضماً افقياً عمود من الحديد مثبت بقفل . والى جوار الحائط تحت قصاصات من القماش كانت تُلمح خزائن ، ولكنها في حجم يدل على انها كانت تحتوي شيئاً آخر غير الكيمبيالات والنقود . والواقع ان السيد ليريه كان يقرض على رهونات ! وفي هذه الخزائن كان قد وضع سلسلة مدام بوفاري الذهبية ، مع اقراط الأب تيليه المسكين الذي اضطر الى ان يبيعها ، واشترى من كوانكانيوا بقالة هزيلة مات فيها من الربو ، وسط شمعداناته التي كانت أقل اصفراراً من وجهه !

وجلس ليريه في فوتيه الضخم المصنوع من القش وهو يقول :
« ماذا جد ؟ » .

فأطلعته على الورقة وهي تقول : « خذ ! »
— ولكن ماذا استطع !؟

فثارت غاضبة وهي تذكره بوعده بأن لا يدفع كيمبيالاتها الى التداول—
فأمّن على هذا القول ، ولكنه اضاف : « ولكنني كنت مضطراً انا نفسي اذ كانت السكين مسلطة على عنقي ! »
فقلت : « وما الذي سيحدث الآن ؟ »
قال : « اوه ! الحكاية بسيطة : حكم من المحكمة ثم حجز ...
أمر تافه ! »

وكبحت ايما نفسها حتى لا تضربه ! وسألته في رفق عما اذا كانت

هناك وسيلة لتهدئة السيد فانسار .

فقال : « حسن ! ... نعم ! .. تهدئة فانسار ! انك لا تعرفينه !
انه اكثر وحشية من وحش كاسر ! »
ومع ذلك كان لا بد من ان يتدخل السيد ليريه في الأمر .
فقال : انصني الي اذن ! يلوح لي اني حتى الآن كنت طيباً معك
الي حد بعيد ! »

ثم فتح احد سجلانه وقال : « انظري ! »
واخذ يصعد في الصفحة بأصبعه وهو يقول : « انظري ... انظري ...
في ٣ أغسطس : مائتا فرنك ... و ١٧ يونية مائة وخمسون .. ٢٣ مارس
سنة واربعون ... وفي ابريل ... »

وتوقف كأنما يخشى ان يرتكب حماقة !
ثم اضاف : « وانا لا اقول شيئاً عن الكمبيالات المقيدة على حساب
السيد : واحدة بسبعمائة فرنك ، واخرى بثلاثمائة . واما عن قروضك
الصغيرة ، وعن الفوائد فهذا امر لا ينتهي ، وان الانسان ليضل فيه !
ولن أتدخل فيه بعد الآن ! »

وأخذت تبكي ، بل ونادته بقولها : « يا سيدي الطيب ليريه ! »
ولكنه كان يلقي التبعة دائماً على هذا الكلب فانسار ! وفوق ذلك
فانه ليس لديه سنتيم واحد ! ولا احد يدفع له الآن ! بل انهم ليأكلون
الصوف من فوق ظهره ! وصاحب دكان فقير مثله لا يستطيع ان
يقرض !

وصممت ايما ، فأخذ القلق يساور ليريه الذي اخذ بعض ريشة الكتابة .
فقد استأنف قائلاً : « لو انه اصبح لي يوماً شيء من الدخل ... اذن
لاستطعت ... »

وقالت : « وعلى أية حال فتأخر بارنفيل عندما ... »
- كيف ؟ ...

وعندما علم ان لانجلوا لم يكن قد دفع بعد ، لاحت عليه الدهشة ،
ثم قال بصوت معسول :

– وننطق كما تقولين ... ؟

– اوه ... ننطق كما تشاء !

وعندئذ اغلق عينيه لكي يفكر ، وكتب بعض ارقام ، واعلن ان
في الأمر مشقة كبيرة وانه امر شائك ، وانه يتزف ماله ، وأملى اربع
كسبيالات كل منها بمائتين وخمسين فرنكاً بتواريخ استحقاق متدرجة بين
كل تاريخ وآخر فترة شهر .

واضاف قائلاً : وكل هذا على ان يستمع لي فانسار . وفضلاً عن
ذلك فأنا لا اماطل . وقد اتفقنا ! وانا رجل مستقيم كحد السيف !
ثم اطلمها في غير اكتراث على عدة سلع جديدة وان لم تكن اي
منها في نظره جديدة بالسيدة !

واضاف قائلاً « عندما ارى ثوباً كهذا بثلك فرنك المبر ومضمون
الصبغة ! ... ومع ذلك يصدقون هذا ! والواقع انهم لا يذكرون لهم
الحقيقة . »

وقد اراد بهذا التصريح الماكر عن الآخرين ، ان يقنعها اقناعاً تاماً
بتراهته !

ثم دعاها لكي يطلعها على ثلاثة أذرع من الحرير كان قد عثر عليها
اخيراً في احدى التصفيات .

وقال ليريه : « او ليس جميلاً ؟ ... انه يستخدم الآن كثيراً ،
لتغطية ظهور الفتيات . وهذه هي « الموضة » .

وفي خفة اسرع من خفة الحاوي ، لف الحرير في ورق ازرق
ووضعه بين يدي ايما !

فقالت : « دعني على الأقل اعلم ... »

فقالت وقد ادار لها ظهره : « آه ! .. فيما بعد ! »

ومنذ المساء اخذت تستحث بوفاري ليكتب الى امه كي ترسل اليهم
بسرعة متأخر التركة .

وردت حاتمًا بأنه لم يعد لديها شيء ، فالتصفيه قد انتهت ، وقد
بقي لهم - فضلاً عن بارنفيل - ستمائة فرنك كدخل سنوي سوف
ترسلها لهم كاملة بانتظام .

وعندئذ ارسلت ايما قوائم الحساب لعميلين او ثلاثة من المرضى ،
ثم توسعت في استخدام هذه الوسيلة التي نجحت فيها . وكانت تحرص
دائماً على ان تضيف في ذيل كل قائمة عبارة « لا تخبروا زوجي بشيء ،
فأنتم تعلمون مبلغ كبريائه ... معذرة ... خادمتكم ... » وكانت هناك
بعض مطالبات فأوقفتها .

ولكي تحصل على نقود اخذت تبيع قفازاتها وقبعاتها القديمة ، وكثيراً
من الأشياء المهملة . وكانت تسامح في شدة . وكان دمها الريفى يدفعها
الى الكسب . وفي اثناء رحلاتها الى المدينة كانت تتسوق بعض التوافه التي
لا شك ان ليريه سيأخذها منها اذا لم تجد غيره . فكانت تشتري ريش
نعام ، وخزفاً صينياً ، واصونة صغيرة . وكانت تقترض من فيليستيه
ومن مدام لوفرانسوا ، ومن صاحبة فندق « الصليب الاحمر » ومن
جميع الناس في أي مكان . واخيراً دفعت بالنقود التي استلمتها من
بارنفيل قيمة كيميالين، وبددت الألف وخمسة مائة فرنك الأخرى. ووقعت
كيميالات من جديد ، واستمرت هكذا على الدوام .

ومع ذلك فإنها حاولت احياناً ان تدون حسابات ، ولكنها اكتشفت
اشياء مرهقة الى درجة لم تستطع تصديقها . وعندئذ ابتدأت ترتبك
بسرعة فتخلت عن كل شيء ، ولم تعد تفكر في شيء !

واصبح البيت الآن بالغ الكآبة . وكان الباعة يشاهدون وهم خارجون
منه بأوجه مكفهرة . وكانت المناديل مطروحة فوق المدفأة ، وبرت
الصغيرة تلبس جوارب مثقوبة مما يثير اشمزاز مدام هوميه . وتجراً شارل

في جن على تقديم ملاحظة، فردت في عنف بأنها ليست هي المخطئة !
ولكن لماذا كل هذه الثورات العصبية ؟! لقد اخذ يفسر كل شيء
بمرضها العصبي القديم . كما اخذ يلوم نفسه انه يحاسبها على امراضها
كنقائص . واخذ يتهم نفسه بالأنانية ، ويشعر بالرغبة في ان يجري
ليقبلها .

ثم قال لنفسه : « اوه ! لا ... اني ... » وبقي في مكانه .
وبعد العشاء اخذ يتتره وحيداً في الحديقة ، واجلس برت فوق
ركبته ، ثم فتح صحيفته الطبية ، وحاول ان يعلمها القراءة ، ولما
كانت الطفلة لم تدرس قط ، فانها لم تلبث ان فتحت عينين كبيرتين
حزينتين واخذت تبكي . وعندئذ اخذ يعزبها ، وذهب لكي يستحضر
لها ماء من رشاشة الحديقة لكي تصنع انهاراً فوق الرمل ، او يقطع
اغصاناً لكي تزرع اشجاراً في الأحواض ، مما كان يفسد قليلاً الحديقة
المكتظة بالحشائش الطويلة . وكانوا مدينين بأجر عدة ايام للستيبيودوا !
ثم شعرت الطفلة بالبرد وطلبت امها .

فقال شارل : « نادي خادمك فانت تعرفين جيداً يا صغيرتي ان
امك لا تريد ان نقلقها . »

وابتدا الحريف واخذت الأوراق تسقط على نحو ما حدث منذ عامين
عندما كانت مريضة ! فتي ينتهي اذن كل هذا ؟ ... واستمر يسير
ويده خلف ظهره .

كانت السيدة في غرفتها ، ولم يكن احد يصعد اليها . كانت تظلم
هناك طول النهار ، متصلبة شبه عارية ، ومن وقت الى آخر كانت
تحرق بعض البخور الذي اشترته من روان من دكان رجل جزائري .
ولكي لا تحس في الليل ملاصقاً لحمها بذلك الرجل الذي ينام ممتدداً
الى جوارها، اخذت تتجهم حتى انتهت بأن نفته الى الطابق الثاني .
وكانت تقرأ حتى الصباح كتباً مثيرة مليئة باللوحات الداعرة والحوادث

الدائمة . وكثيراً ما كان يأخذها الرعب فتطلق صيحة ، ويهرول شارل
فضول :

– « آه ... اذهب غني ! »

واحياناً اخرى كانت تحترق في شدة ، بذلك اللهب الداخلي الذي
يضرمه الفجور ، وتتفعل وتلهث ، وتستيقظ رغبتها ، فتفتح النافذة
وتستنشق الهواء البارد ، وتثر في الرياح شعرها الثقيل ، وتنظر الى
النجوم ، وتتمنى غراميات امير !!

وكانت تفكر فيه : في ليون . وكانت مستعدة لأن تعطي كل شيء
مقابل موعد من تلك المواعيد التي كانت تشبع نهمها !

كانت تلك المواعيد هي ايام بهجتها . وكانت تود ان تكون اباماً
فخمة. وعندما كان لا يستطيع ان يتحمل وحده النفقات، كانت تكمل
العجز في سخاء . وكان هذا يحدث كل مرة تقريباً ، وحاول ان يقنعها
بانها سيجدان المتعة نفسها في مكان آخر – في فندق اكثر تواضعاً ،
ولكنه كان يلقي اعتراضات . وفي احد الايام اخرجت من حقيبتها ست
ملاعق من العقيق كانت هدية الزواج التي قدمها لها الأب روو . ورجت
ليون ان يذهب بها فوراً – من اجلها – الى بنك الرهونات . فأطاع،
بالرغم من ان هذا الإجراء لم يرقه ، وكان يخشى ان يتورط !
ثم هداه الضكير الى ان يلاحظ ان عشيقته تتصرف تصرفات غريبة،
وانهم ليسوا مخطئين عندما يحاولون فصله عنها .

والواقع ان شخصاً كان قد ارسل الى امه خطاباً طويلاً غفلاً من
الإمضاء يخبرها فيه بأنه قد ضاع مع امرأة متزوجة . فلمحت السيدة
الطيبة فوراً ذلك الشبح الحمالد الذي يخيف الأسر ، اي ذلك الكائن
الحيث الغامض : « الجنيسة » او الوحش الذي يسكن – على نحو
جهنمي – في اعماق الحب ، فكتبت الى الاستاذ ديفوكاج الذي يعمل
عند ابنتها . وكان هذا الاستاذ اميناً في هذا الموضوع ، اذ انه اوقف

ليون امامه ثلاثة ارباع الساعة ، محاولاً ان يفتح عينيه وان يحذره من
الهاوية وأن مثل هذه المغامرة لا بد ان تضر فيها بعد بكل محاولة يقوم
بها للزواج والاستقرار ، ورجاه ان يقطع العلاقة . واذا لم يكن يريد
ان يقوم بهذه التضحية في سبيل مصلحته الخاصة ، فلا اقل من ان يقوم
بها من اجله هو ، اي من اجل الاستاذ ديفولاج .

وأخيراً اقسم ليون الا يعود الى رؤية ايما . ولام نفسه بأنه لم يحترم
هذا القسم ، مقدراً كل ما يمكن ان تسببه له هذه المرأة من ارتباك
واقاويل ، فضلاً عن نكات زملائه التي كانوا يرسلونها في الصباح حول
المدفأة . وفضلاً عن ذلك فانه كان على وشك ان يصبح كاتباً اول ،
وهذه هي اللحظة التي يجب ان يكون فيها مستقيماً . ولذلك تخلى عن
موسيقاه وعن المشاعر المتقدة ، وعن الخيال . وذلك لأن كل بورجوازي
في وقدة شبابه لا بد انه اعتقد نفسه قادراً - ولو ليوم او دقيقة - على
الانفعالات الشاسعة ، والمغامرات العنيفة . وأحقر اباحي قد حلم بالسلطانات ،
وكل كاتب يحمل في نفسه انقاض شاعر .

لقد اصبح الآن يشعر بالضجر كلما انتحبت ايما فجأة فوق صدره .
وأصبح قلبه - كأولئك الناس الذين لا يستطيعون ان يحتملوا غير قدر
محدود من الموسيقى - أصبح يغفو من عدم المبالاة ، بضجة حب لم يعد
يميز لطائفه .

لقد طالت معرفة احدهما بالآخر حتى اصبح لا يحس بنشوة التملك
التي كانت تضاعف من اللذة ، وأصبحت تشمئز منه بقدر ما اصبح
متعياً منها . وقد اخذت ايما تجد في الزنا كل ما في الحياة الزوجية من
رتابة مملة .

ولكن كيف الخلاص ؟.. ثم انها بالرغم من احساسها بوضاعة مثل
هذه السعادة ، فانها كانت متعلقة بها بحكم العادة ، او بحكم الانحلال .
وفي كل يوم كانت تزداد تكالباً ، واصلة كل سعادة يرغبتها في ان

تكون سعادة اكبر ! وكانت تنهم ليون بحية آمالها وكأنه قد خانها ، بل وتمنت ان لو وقعت كارثة تؤدي الى افتراقها ما دامت لا تجسد الشجاعة لتقرير ذلك .

ومع ذلك استمرت تكتب له الخطابات الغرامية ، نزولاً على تلك الفكرة التي تقول بان المرأة يجب ان تكتب دائماً الى عشيقها !

ولكنها في اثناء الكتابة كانت تلمح رجلاً آخر - شبحاً مكوناً من ذكرياتها الحارة ، ومن اجمل قراءاتها ، ومن اطاعها الشديدة . وفي النهاية أصبح هذا الرجل شبه حقيقة يمكن تناولها ، حتى انها لتنتفض له مندهشة ، ولكن دون ان تستطيع ان تتخيله في وضوح ، وذلك لأنه كان ضالاً كإلته ، تحت فيض الصفات التي خلعتها عليه . وكان يسكن تلك المقاطعة الزرقاء التي تتأرجح فيها السلام الحربية في الشرفات، تحت انفاس الزهور وضوء القمر !! وكانت تحس به الى جوارها ، وانه سيأتي لكي يحتفظها كلها في قبلة !! ثم كانت تسقط محطة ، وذلك لأن اندفاعات هذا الحب الغامض كانت تتبعها اكثر من العريضة العنيفة .

لقد اصبحت الآن تشعر بتكسر دائم في جسمها كله ، بل وكثيراً ما كانت تتسلم اذنارات وأوراقاً مدموغة لا تكاد تنظر فيها . وكانت تود ألا تظلم حية ، او ان تنام باستمرار !

وفي احد ايام الأعياد لم تعد الى ابونفيل ، وذهبت في المساء الى حفلة رقص تنكرية ، وارتدت بنطلوناً من القטיפه وجوارب حمراء ، وشعراً مستعاراً مربوطاً بشريط ، ومصباحاً صغيراً فوق الأذن . وأخذت تقفز طوال الليل على صوت النفير المهتاج ، فالتف حولها الناس في حلقة . وفي الصباح وجدت نفسها في شرفة المسرح بين خمسة او ستة اقنعة لعاملات وبحارة من رفاق ليون ، وقد اخذوا يتحدثون عن الذهاب لتساؤل وجبة الليل !

كانت المقاهي المحيطة مليئة ، فانجه تفكيرهم الى مطعم بالغ الحفارة

عند الميناء ، فتح لهم صاحبه غرفة صغيرة في الطابق الرابع .
أخذ الرجال يتهايمسون في ركن . وكان تهايمسهم بلا ريب حول
التكاليف . وكانوا كاتباً وخفيرين وساع . أية صحة بالنسبة اليها !!
وأما النساء فقد ادركت ايما بسرعة ، نغمة في اصواتهن ، تدل على انهن
جميعاً من الطبقة الدنيا ! وعندئذ سحبت مقعدها الى الورا وأسبلت
عينها !

اخذ الآخرون في الأكل ، اما هي فلم تأكل ، وقد التهبت جبهتها .
وأحست بحكة في جفنيها وببرد ثلجي في جلدها . وأخذت تحمس في رأسها
بأرضية المرقص وهي لا تزال تهتز تحت الففزات الموقعة من ألف قدم
ترقص . ثم رائحة الخمر ودخان السجاير وهي تنزل برأسها الدوار .
وكادت ان يغشى عليها ، فنقلوها في مواجهة النافذة !

اخذ النهار يبرز ، وأخذت بقعة كبيرة قرمزية اللون تتسع في السماء
الشاحبة من ناحية سانت كاترين ، والنهر الخامد يهتز مع الريح ، ولم
يعد احد فوق الكباري ، واخذت المصابيح تنتفض .

ومع ذلك انتعشت ، وأخذت تفكر في برت التي تنام هناك في غرفة
خادمتها . ولكن عربة مليئة بالقضبان الحديدية مرت وهي تلقي على جدار
المنازل اهتزازات معدنية تصم الآذان .

وانسحبت فجأة وتخلّصت من ملابسها التنكرية ، وقالت لليون انه
لا بد لها من العودة . وأخيراً بقيت وحدها في فندق بولون . وكان
كل شيء بالنسبة اليها غير محتمل حتى شخصها . وودت ان لو هربت
كعصفور الى حيث تسرد شبابها في جهة ما ، في الفضاء الناصع غير
الملوث !

وخرجت وعبرت البولفار وميدان كوشواز وضاحية المدينة حتى وصلت
الى شارع مكشوف يطل على الحدائق ، وأخذت تسير بسرعة فهدأها
الهواء الطلق . وشيئاً فشيئاً اخذت اوجه الجمهور والاقنعة ورباعيات الرقص

والثريات ووجبة الليل واولئك النسوة - اخذ كل هذا يحتفي كضباب تبدد .
ثم عادت الى فندق « الصليب الأحمر » وألقت بنفسها فوق السرير
في الغرفة الصغيرة بالطابق الثاني ، حيث كانت توجد صور من برج نيل .
وفي الساعة الرابعة مساء ايقظها هيفير .

وعند عودتها الى منزلها أظلمتها فيليستيه خاف الساعة الدقاقة على
ورقة رمادية قرأت فيها : « بناء على الصيغة التنفيذية لحكم »

اي حكم ؟... والواقع أنهم كانوا قد حملوا الى منزلها في اليوم السابق
ورقة اخرى لم تدر بها ، ولذلك اخذها الذهول من هذه الكلمات :
« أمر باسم الملك والقانون والقضاء الى مدام بوفاري » ثم قفزت
عدة اسطر لكي تقرأ : « في ظرف اربع وعشرين ساعة وهو آخر
مهلة » ما هذا ؟... « يدفع مبلغ ثمانية آلاف فرنك » . بل وقرأت
بعد ذلك بقليل « وسوف ترغم بكافة الطرق القانونية ، وبخاصة بالحجز
التنفيذي على ائاثها وممتلكاتها » .

ما العمل ؟.... في ظرف اربع وعشرين ساعة ، اي غداً !.. وظنت
ان ليريه قد اراد بلا ريب ان يخيفها مرة اخرى ، فقد حدثت لساعتها
كافة مناوراتها والهدف من مجاملاته . وكانت المبالغة نفسها في المبلغ هي
التي طمأنتها .

ومع ذلك فانها لكثرة ما اشترت دون ان تدفع ، ولكثرة ما اقترضت
وقيدت الكمبيالات وجدتها فتضخمت عند كل تجديد - كانت قد انتهت
بأن اعدت للسيد ليريه رأس مال كان ينتظره بصبر نافذ من اجل
مضارباته !

ودخلت عنده في هيئة منطلقة وقالت : « هل تعلم ما حدث لي ؟.. »

انه بلا ريب مزاح !

- لا !

- كيف هذا ؟!

فالتفت نحوها في بطاء وقال وهو يربح ذراعيه ، « هل تظنين يا سيدتي الصغيرة انني سأستمر حتى فناء الزمن في ان اكون متعهدك ، وبنكك ، حباً في الله ؟! .. يجب ان أسترد اموالي ... كوني عادلة !. » ونازعت في مبلغ الدين فقال : « آه ! فليكن ! لقد اعترفت به المحكمة ! هناك حكم ! لقد اعلناك به ! وفضلاً عن ذلك فهو ليس لي انه لفانसार ! »

– أو ما تستطيع ؟

– اوه ... لا استطع شيئاً على الاطلاق !

– ولكن مع ذلك فلنفكر .

واخذت تبحث عن مخرج قائلة انها لم تكن قد علمت شيئاً لقد كانت مفاجأة !

وقال ليريه منحنيأ في تهكم : « ومن المخطيء ؟... بينا انا اكدح كالعبد اذا بك تقضين اوقاناً طيبة . »

– آه ! لا اريد وعظاً !

فأجاب : « انه لا يضر مطلقاً ! »

وكانت جبانة ، فضرعت اليه ، بل وأسندت يدها الجميلة الطويلة البيضاء فوق ركبتي التاجر .

فقال : « اتركيني اذن ! لكأنك تريدان ان تغويني ! »

فصاحت « انك رجل تعس ! »

فصاح ضاحكاً : « أوه !.. أوه ! ما هذه ؟! »

– سأفضح امرك ! سأقول لزوجي !

– وانا سأطلع زوجك على شيء ما !

وأخرج ليريه من خزائنه ايضالاً بألف وثمانمائة فرنك كانت قد اعطته اياها عند الخصم الخاص بفانसार .

وأضاف : « هل تعتقدين انه لا يفهم سرقتك الصغيرة ، هذا الرجل

العزير المسكين !! »

فأهارت وقد انصدعت أكثر مما لو كانت قد تلقت ضربة مطرقة .
وأخذ يتمشى من النافذة الى المكتب وهو يردد : « آه ! سأظهر له
جيداً ... سأظهر له جيداً »

ثم اقترب منها ، وبصوت عذب قال : « انه امر لا يسر ... انا
اعلم هذا ! ومع ذلك فانه لم يسبب الموت لأحد . وما دامت هذه هي
الوسيلة الوحيدة التي تبقت لك لكي تردي اليّ نقودي ومالي »
وقالت ايما وهي تلوي ذراعها : « ولكن اين اجد المال ؟ »
— آه ... يا ...! عندما يكون للانسان اصدقاء مثلاً لك .

ونظر اليها نظرة نافذة مخيفة ارتعدت منها حتى الاحشاء ، وقالت :
« اني اعدك ... سأوقع ! »

— لقد شيعت من توقعاتك !

— سأبيع ايضاً

فقال وهو يهز كتفيه ، « تبعين ؟! ... انه لم يعد لديك شيء ! »
وصاح من الكوة التي تطل من الحانوت « انيت ! لاتنس القصاصات
الثلاثة رقم ١٤ ! »

وظهرت الخادمة ، وفهمت ايما ، وسألت عما يلزم من مال لإيقاف
كافة الاجراءات .

— لقد فات الأوان !

— ولكن اذا حملت اليك عدة آلاف من الفرنكات... ربع المبلغ ...

الثالث كله تقريباً ؟

— ايه !.. لا ..! لا فائدة !

ودفعها في رفق نحو السلم !

— انني اضرع اليك يا سيد ليريه بضعة ايام اخرى !..
وأخذت تنتحب .

— هيا .. حسن !.. دموع !؟
— انك تلقي بي الى اليأس !
وقال وهو يغلط الباب « هذا لا يهمني في شيء ! »

• • •

كانت في اليوم التالي هادئة متجلدة عندما تقدم اليها المحضر الاستاذ هاران لكي يحرر محضراً بالحجز .
لقد ابتدأوا بمكتب بوفاري، ولم يقيدوا الرأس التشريحية التي اعتبرت من ادوات المهنة ، ولكنهم قيدوا في المطبخ الأطباق والقدر والكراسي ، وفي غرفة نومها كل التوافه الموجودة على الرف ، وفحصوا اثوابها وملابسها الداخلية ، وغرفة الزينة ، وكل حياتها ، حتى الأركان الخاصة بأشد الاشياء اتصالاً بذاتها ، وكأنهم يقومون بعملية مساحة لأرض زراعية !
فانتشرت حياتها انتشاراً كاملاً امام انظار هؤلاء الرجال الثلاثة .
كان الاستاذ هاران في حلة سوداء رفيعة مشدودة الأزرار ورباط رقبة بيضاء . وفي قدميه خف تحت حذائه مشدود في عنف ، وقد اخذ يردد من وقت الى آخر : « هل تسمحين يا سيدتي ؟... هل تسمحين ؟ »
وكثيراً ما كان يطلق صيحات اعجاب : « ساحر ! جميل جداً ! »
ثم يعود الى الكتابة ويغمس سنان القلم في المحبرة التي يحملها بيده اليسرى !

وبعد ان انتهوا من المسكن صعدوا الى مخزن الحبوب .
وكانت تحفظ بخطابات رودولف في درج هناك . وكان لا بد من فتحه .
وقال الاستاذ هاران في ابتسامة حنية : « آه ! مراسلات !... ولكن ...
اسمحي لي ! لأنه من الواجب ان اتحقق من ان الصندوق لا يحتوي شيئاً آخر !

وأمال الاوراق قليلاً ، وكأنما يتوقع ان تسقط الجنيهات الذهبية !
وعندئذ اخذها الاشمئزاز من ان ترى هذه اليد الغليظة ذات الاصابع
الحمرء الرخوة كالسحالي ، تمس هذه الصفحات التي خفق اليها قلبها !
ولاح لها شارل في العشية مهموماً ، واخذت ايما ترقبه بعين مليئة
بالقلق ، معتقدة انها ترى اتهامات في تجاعيد وجهه .

وعندما كانت عيناها تتحولان الى المدفأة المغطاة بالخزف ، والى
الستائر العريضة والفوتيات ، وبالجملة كل تلك الأشياء التي كانت قد
خففت من مرارة حياتها ، كانت تمس بالندم ، أو على الأصح بالأسف
الشديد الذي يثير العاطفة ، بدلا من أن يقتلها . وكان شارل يقرب
الجمرات في هدوء وقدماه فوق المجرمة .

وحان وقت تملل فيه الحارس بلا ريب في منجبهه ، فأحدث ضوضاء
خفيفة .

وعندئذ قال شارل : « هناك وقع أقدام في أسفل » .

فقالت : لا ! انها كوة تُركت مفتوحة فهزتها الريح » .

وسافرت في اليوم التالي - وكان يوم أحد - الى روان ، لكي
تذهب عند جميع أصحاب البنوك الذين كانت تعرف أسماءهم . وكانوا
في رحلة بالريف ، ولكنها لم تراجع ، وطلبت نقوداً ممن التقت بهم ،
مدعية أنها في حاجة اليها ، وأنها ستردها ، فضحك بعضهم في وجهها ،
ورفض الجميع !

وفي الساعة الثانية جرت عند ليون ، ودقت على بابه فلم يفتح .

وأخيراً ظهر !

— ما الذي أتى بك ؟!

— هل هذا يزعجك ؟

— لا ... ولكن

وصارحها بأن صاحب المنزل لا يجب أن تُستقبل النساء في داره .

فقلت : « ان لدي شيئاً أريد أن أقوله لك » .
وعندئذ تناول المفتاح فأوقفته قائلة : « أوه ! لا ... هناك ...
عندنا ! » .

وذهبا الى غرفتها في فندق بولون . وشربت عند وصولها كوباً
كبيراً من الماء ، وكانت شديدة الشحوب وقالت له : « ليون !
إنك ستؤدي لي خدمة ! » .

وأضافت وهي تهزه بيديها اللتين شدت قبضتهما : « اسمع ! ... إنني
في حاجة إلى ثمانية آلاف فرنك ! »
- أجنونة أنت ؟!

- لا ... لم أجن بعد !
ولم تلبث أن قصت عليه حكاية الحجز ، وعرضت عليه مآزقها ،
وذلك لأن شارل كان يجهل كل شيء ، وحماتها تبغضها والأب روو
لا يستطيع شيئاً ، ولكنه هو ، ليون ، سيجوب الآفاق لكي يعثر على
هذا المبلغ الضروري !!

- كيف تريدین ...؟

فصاحت : « يا لك من جبان ! »
وعند ذلك قال مهوناً : « إنك تبالغين في المأساة ، فلربما هذا
الرجل بألف فرنك » .

وكان هناك سبب آخر لمحاولة عمل شيء ما ، فلم يكن من الممكن
ألا يعثر الإنسان على ثلاثة آلاف فرنك ، وفضلاً عن ذلك فإن ليون
يستطيع أن يضمن القرض بدلاً منها !

فقلت : « هيا ! حاول ! هذا واجب ! اجر ! ... أوه !
حاول ! حاول ! سأحبك جداً !! »

وخرج وعاد بعد ساعة ، وقال بوجه جاد : « لقد ذهبت إلى
ثلاثة أشخاص ... عبثاً ! »

ثم بقيا جالسين أحدهما في وجه الآخر عند ركني المدفأة جامدين لا يتحدثان . وإيما ترفع كتفها وهي تزجر وسمعتها تتمم قائلة : « لو أنني كنت في مكانك ... أنا ، لوجدت النقود ! »

- أين إذن ؟!

- في مكتبك !

ونظرت إليه !

وكانت جراءة جهنمية تنبعث من خدقتيها الملتهتين . وتداني جفناها على نحو شهواني مشجع ، حتى ان الشاب احس بالضعف تحت تأثير الإرادة الصامتة لهذه المرأة التي تنصحه بجريمة ! وعندئذ تملكه الخوف ، ولكي يتجنب كل ايضاح ضرب جبهته وهو يصيح قائلاً « ان موريل سيعود هذه الليلة ! وسوف لا يردني خائباً ، فيما أأمل . (وكان صديقاً له ، وابناً لتاجر وافر الثراء) وسأحمل اليك هذا غداً ! » .

ولم يظهر على إيما انها قد تلقت هذا الأمل بمثل ما تصور من فرح ، فهل كانت تشك في الكذب ؟!

واستأنف وهو محمرّ الوجه : « ومع ذلك ، فاذا لم تربني في الساعة الثالثة فلا تنتظريني اكثر من ذلك يا عزيزتي !.. لا بد لي من الذهاب !... معذرة !... الوداع ! »

وشدّ على يدها ، ولكنه وجدها مرتخية ، فأيما لم تعد قادرة على اي احساس .

ودقت الساعة الرابعة ، ونهضت لكي تعود الى ايونفيل مستجيبة لدفعة العادة ، وكأنها كائن آلي .

كان الجو صحواً اذ كنا في احد ايام شهر مارس الصافية الصباحية التي تلمع فيها الشمس وسط سماء كاملة البياض ، وكان بعض سكان روان يتزهون في ملابس الأحد وعليهم مظهر السعادة ، ووصلت الى ميدان ساحة الكنيسة حيث كان الناس يخرجون من صلاة المساء

متدققين من الابواب الثلاثة ، كالنهر المنساب من ثلاثة اقواس بأحد الكباري .
وفي الوسط كان يقف القواس اشد جموداً من صخرة .
وعندئذ تذكرت ذلك اليوم ، حين كانت متلهفة مليئة بالأمل ، وقد
دخلت تحت هذا الصحن الكبير الذي بدا لها يومئذ وقد امتد امامها اقل
عمقاً من جها .
واستمرت في السير وهي تبكي تحت وشاحها ، ذاهلة مترنحة على
وشك الإغماء .

وسمع صوت خارج من بوابة تفتح : « الحذر ! »
ووقفت لكي تفسح الطريق لحصان اسود ؛ يضرب الارض بحوافره
وهو مشدود الى عربة فخمة يقودها احد النبلاء مرتدياً فراء سمور ؛ فن
يكون هذا الرجل ؟ إنها تعرفه ... وانطلقت العربة واختفت !
لقد كان هو الفيكونت ! والتفتت الى الخلف ، فكان الشارع خالياً ،
وقد احست بنفسها مثقلة حزينة ، الى حد انها استندت الى جدار لكي
لا تسقط .

ثم ظنت انها قد اخطأت ، وعلى اية حال فانها لم تكن تعلم عنه
شيئاً . وقد اخذت كل شيء في داخلها وخارجها يتخلى عنها . وأخذت
تحس انها ضائعة تتسكع على غير هدى في مهاوي لا حد لها ، وقد
كادت تشعر بالفرح عندما لمحت - عند وصولها الى فندق الصليب
الاحمر - السيد هوميه ، الذي كان يشرف على شحن صندوق كبير
من سلع الصيدلية فوق « العصفورة » . وكان يمسك في يده - داخل
كوفية - ستة ارغفة من نوع خاص من الخبز لزوجته .

كانت مدام هوميه تحب كثيراً هذا الخبز الصغير الثقيل المصنوع على
شكل عمامة ، والذي كانوا يأكلونه في عيد الصوم الكبير مع الزبد
الملح ، وهو آخر بقية من الاطعمة القوطية التي ربما ترجع الى عصر
الحروب الصليبية ، والتي كان النورمانديون الاقوياء يملأون منها بطونهم

قديمًا معتقدين أنهم يرون على المائدة ، في ضوء المشاعل الصفراء ، بين
كنوس النبيذ وقطع الخنزير الضخمة - رؤوساً شرقية يلتهمونها! وكانت
زوجة الصيدلي تقضمه مثلهم في بطولة ، بالرغم من سوء حالة أسنانها!
ولذلك ، ففي كل مرة كان يسافر فيها السيد هوميه الى المدينة ، لم
يكن ينسى ان يحضر لها بعضاً منه، من صانعه الكبير في شارع ماساكر!
وقال وهو يقدم يده الى الأمام لكي يعينها على الصعود الى العصفورة

« لاني سعيد برؤيتك »

ثم علق الأرخفة في حبال الشبكة وبقي عاري الرأس مريع اليدين ،
في هيئة مفكرة نابليون.

ولكن عندما ظهر الأعمى كعادته عند اسفل الهضبة صاح قائلاً: «واني
لا افهم كيف لا تزال تبيع السلطات مثل هذه الحرف المجرمة ! ان من
الواجب حجز هؤلاء النساء وحملهم على العمل . وفي الحق ان التقدم
ليسير بخطى السلحفاة ! ونحن نتخبط في بربرية كاملة .
ومدّ الأعمى قبعته التي اخذت تتأرجح عند حافة الباب ، وكأنها
جانب من فرس العربية سقطت مساميره .

وقال الصيدلي: « هذه حالة اصابة درنية وبالرغم! من انه يعرف
هذا المسكين ، فانه نظاهر بانه يراه للمرة الأولى ، وتمتم عبارات :
القرنية والقرنية السميقة والملتحق والسياء ، ثم سأل في نغمة مرتفعة :
« هل مضى وقت طويل يا صديقي وانت مصاب بهذه العاهة الفظيعة ؟
لقد كان من الخبير لك ان تتبع نظاماً خاصاً في الطعام بدلا من ان تسبكر
في الحانة » .

واستحسه على ان يتناول نبيذاً جيداً ، وبيرة جيدة ، وشواء طيباً .
واستمر الأعمى في اغنيته . وكان يلوح فوق ذلك انه ابله ، واخيراً فتح
السيد هوميه كيسه وقال « خذ ! فرنك ! رد لي ليريك ، ولا تنس
توصياتي ، فانها ستفيدك ،

وسمح هيفير لنفسه بان يبدي في صوت مرتفع بعض الشك في جدوى هذه النصائح ، ولكن الصبدلي اكد أنه هو نفسه سيشفيه بواسطة مرهم مطهر من صنعه ، ثم اعطاه عنوانه : « السيد هوميه الى جوار السوق - معروف المعرفة الكافية »

وقال هيفير : « ومقابل ذلك سترينا شيئا من الكوميديا » وانطرح الأعمى على باطن ركبته ، وطرح رأسه الى الخلف وهو يدور بعينه الضاربتين الى الخصرة ويخرج لسانه . واخذ يحك بطنه بيديه بينما يطلق صيحات صماء كالكلب الجائع ، فاشمأزت ابما ، فألقت اليه من فوق الكتف بقطعة من ذوات الخمس فرنكات ، كانت كل ثروتها . ولاح لها انه من الجمال ان تلقيها على هذا النحو !

وكانت العربية قد انطلقت عندما اطل السيد هوميه فجأة من النافذة وصاح : لا نشويات ولا البان ! البس الصوف على الجلد ، وعرض الأجزاء المريضة لأبخرة ادغال شجر العرعر .

واخذ منظر الاشياء المعروفة التي تتابع امام عينها تصرف ابما شيئاً فشيئاً عن ألماتها الحاضر . وانقلها تعب لا يحتمل ، حتى وصلت الى بيتها ذاهلة محطمة الروح ، نائمة تقريباً .

وقالت لنفسها : « فليكن ما يكون ! »

ثم من يدري ؟ ولماذا لاينجم من وقت الى آخر حدث خارق ؟ ! فليبره نفسه يمكن ان يموت !

واستيقظت في الساعة التاسعة صباحاً على رنين صوت في الميدان حيث كان الناس متجمعين حول السوق لكي يقرأوا إعلاناً كبيراً ملصوقاً على احد الاعمدة . ورأت جويستان وهو يصعد فوق حجر ويمرّق الاعلان . ولكن الحفير امسك بتلابيبه في تلك اللحظة ، وخرج السيد هوميه منه ، وكان يلوح على الأم لوفرنسوا انها تعظ وسط الجمهور . وصاحت السيدة فيليسيته وهي داخلة : « يا سيدتي ! انها الكارثة ! »

ومدت الفتاة المسكينة اليها، وهي متفعل، ورقة صفراء كانت قد انتزعتها من فوق الباب. وقرأت إيما في لمحة البصر ان اثائها كله معروض للبيع ! وعندئذ اخذتنا تنظران احدهما الى الأخرى في صمت وذلك لأنهما - الخادمة والسيدة - لم يكن لاحدهما سر بالنسبة للأخرى . واخيراً تنهدت فيليسيته قائلة : « لو اني كنت مكانك يا سيدتي لذهبت الى السيد جيومان »

- هل تظنين ذلك ؟

وكان معنى هذا السؤال هو : « انت التي تعرفين المنزل بواسطة الخادم ، هل يمكن ان يكون السيد قد تحدث عني أحياناً ؟ »
- نعم ! اذهبي الى هناك ، فانك تحسنين صنماً !
وارتدت ثيابها ، فلبست ثوباً اسود ذا طرطور على بحبات من الكهرمان الأسود . ولكي لا يراها احد ، اذ كان الميدان لا يزال مليئاً بالناس ، سارت خارج القرية في الطريق المار على حافة الماء .
ووصلت لاهثة امام منزل موثق العمود ، وكانت السماء داكنة ، وقليل من الجليد يتساقط .

عند سماع الجرس ظهر تيودور عند الشرفة في صدر احمر، وقد اتى لكي يفتح في غير كلفة ، وكأنه يفتح لأحد المعارف ، وأدخلها في غرفة المائدة .

كانت مدفئة كبيرة من الخبز تظن تحت شجرة من الصبار وتملاً فجوتها . وفي داخل اطارات من الخشب الأسود ، فوق الجدران المغطاة بنسيج ورق البلوط ، كانت توجد « ازمردالدا » لاستييون مع باتيفار لشوبان . وكانت المائدة معدة . وكان الموقدان المصنوعان من الفضة ، ومقابض الابواب المصنوعة من البلور وارضية الغرفة والاثاث، كل هذا كان يلمع في نظافة دقيقة انجليزية . كما كان زجاج النوافذ مزيناً في كل زاوية بزجاج ملون .

وفكرت ايما قاتلة : « هذه غرفة طعام ؟ ! كم انا في حاجة الى واحدة مثلها ! »

ودخل موثق العقود وهو يضم الى جسمه - بذراعه اليسرى - معطفه المنزلي ذي الأوشحة ، بينما يخلع ويلبس في سرعة باليد الأخرى طاقية المصنوعة من القطيفة البنية ، وقد وضعها في زهو فوق الناحية اليمنى ، حيث كانت تنسدل اطراف ثلاثة خصل شقراء ، أخذت من مؤخر رأسه ثم دارت حول جمجمته الصلعاء !
وبعد ان قدم مقعدا ، جلس ليتناول الغداء ، وهو يعتذر كثيرا عن سوء ادبه

وقالت : « ياسيدي ! اني اود ان ارجوك ... »

- عن ماذا ؟ هأنا انصت !

واخذت تعرض عليه حالتها .

كان الاستاذ جيومان يعرفها ، بحكم الاتصال سراً بتاجر القماش الذي كان يجد لديه دائما اموالا للرهنات التي كان يطلب اليه ان يعقدها. ولذلك كان يعرف اكثر منها القصة الطويلة الخاصة بهذه الكمبيالات ، التي كانت صغيرة في اول الامر ، ثم ظهرت لها أسماء مختلفة ، وامتدت مواعيد استحقاقها الى فترات طويلة ، وجددت باستمرار ، حتى كان يوم جمع فيه التاجر كافة انذارات الدفع ، وكلف صديقه فانسار بأن يتخذ باسمه الخاص الاجراءات اللازمة ، وذلك لأنه لم يرد ان يظهر بمظهر النمر بين اهل بلده !

وكانت تمزج بقصتها ما تأخذه على ليريه من مأخذ - مأخذ كان يرد عليها موثق العقود من وقت الى آخر بعبارة تافهة . وبينما كان يأكل « الكستلية » ويشرب النبيذ ، كان يحني ذقنه فوق رباط رقبته الازرق زرقة السماء ، وقد ثبته بدبوس من الماس تصل بينها سلسلة من الذهب . وكان يتسم ابتسامة عجيبة فريدة على نحو ناعم غامض . ولكن

عندما لاحظ ان اقدامها مبلة قال : « اقتربي اذن من المدفأة الى اعلى ! ... في مواجهة الخرف ! »

وكانت تخشى ان تصيب هذا الخرف بالقذارة ، فاستأنف موثق العقود في شهامة قائلاً : « ان الأشياء الجميلة لا تتلف شيئاً ! »
وعندئذ حاولت ان تحرك قلبه وقد جاشت اشجانها وقصت عليه ضيق عيشتها ، ومصاعبها وحاجاتها . وكان يفهم هذا ، فالمرأة الرشيقة...! ودون ان يتوقف عن الأكل ، التفت نحوها بكلية حتى مس حذاءها بركبته ، وكان نعل الحذاء المبتل قد اخذ ينحني ، والبخار يتصاعد منه وهو في مواجهة المدفأة .

ولكنها عندما طلبت منه الف فرنك ، ضخم شفتيه ، ثم اعلن انه شديد الألم ، لأنه لم يتول فيما مضى ادارة ثروته عندما كانت هناك عدة وسائل مربحة للاستثمار حتى بالنسبة للسيدات ، اما في المناجم في جروستيل ، او في ارض الهافر حيث تمكن المغامرة المأمونة في مضاربات مثمرة . وتركها تتميز من الغيظ لفكرة الأموال الضخمة التي كان من الممكن ان ان تكسبها على نحو مؤكد !

واستأنف يقول : « كيف لم تأتي عندي ؟ »

فقلت : « لست ادري »

— لماذا حقاً ؟ هل كنت اخيفك ؟ . انني انا الذي يجوز لي على العكس ان اشكو ! فاننا لا يكاد احدنا يعرف الآخر ، ومع ذلك فاني مخلص لك كل الاخلاص وارجو ان لا يكون لبديك شك في ذلك . ومد يده واخذ يدها ، وغطاها بقبلة نهمة ، ثم احتفظ بها فوق ركبته واخذ يلعب في رفق بأصابعها ، وهو يسرد عليها فيضا من المداعبات الناعمة .

كان صوته الفاتر يثرثر كالنهر الذي ينساب ، وانبثقت شرارة من

حدقته خلال زجاج نظارته وامتدت يداه في كمّ ايما لكي يجس ذراعها،
وأحست عند خدها هبة أنفاس لاهثة ، وكان هذا الرجل يضابقها مضابقة
شديدة !

فنهضت في وثبة وقالت له : « يا سيدي انظر ! » .
وقال موثق العقود الذي علاه الشحوب الشديد فجأة : «ماذا تنتظرين ؟» .

– هذه العقود

– ولكن ...

ثم استسلم لانفجار رغبة شديدة العنف وقال : « هذا حق –
نعم ! ... » .

وأخذ يجر نفسه على ركبته نحوها دون مراعاة لمعطفه المنزلي .

– من فضلك إبق في مكانك !

– إنني احبك !

وامسكها من خصرها .

وصعد فيض من الحمرة سريعاً الى وجهه مدام بوفاري ، وارتدت
الى الخلف وهي تصيح : « إنك تستغل يا سيدي حالة ضيقي في غير
حيلة ! إنني استحق الزناء ولكنني لست للبيع ! »

وخرجت !

وبقي موثق العقود مذهولاً منكس العينين فوق خفيه الجميلين
المطرزين. لقد كانا هدية حب ! وفي النهاية عزاه هذا المنظر ! وفضلاً
عن ذلك، فانه قد فكر في ان مغامرة كهذه كانت خليقة بأن تورطه الى
حد بعيد !

وأخذت تقول لنفسها وهي هاربة بخطى عصبية تحت اشجار الحور
القائمة في الطريق : « يا له من حقير ! يا له من وغد ! » . وقد
قوت مضاضة الفشل من ثورتها لعفتها المهانة ، وخيل اليها ان القضاء
يتكالب على ملاحقتها ، وانتفضت كبرياء حتى خيل اليها انها لم تشعر

قط يمثل هذا الاحترام لنفسها والإحترار للآخرين . واحتدمت بها نزعة الى القتال ، فودت ان لو ضربت الرجال وبصقت في وجوههم ، وسحقتهم جميعاً . واستمرت تسير مسرعة الى الأمام ، شاحبة ، متنفضة ، هائجة ، ترفق بعين دامعة الأفق الحماوي وكأنها تتلذذ بالضغينة التي تخفيها .

وعندما لمحت منزلها أحست بالحذر ، ولم تستطع ان تتقدم ، ومع ذلك فانه لم يكن لها مفر من هذا التقدم ، والا فلإى اين تهرب ؟ وكانت فيليسيته تنتظرها على الباب .

- خيراً ؟

فقلت ايما : « لا ! » .

وظلا يستعرضان معاً - لربع ساعة - افراد ابونفيسل المختلفين ، الذين يمكن ان يكون لديهم استعداد لإنقاذها . ولكن في كل مرة تنطق فيها فيليسيته باسم شخص ، كانت ايما تجيب قائلة : « هل هذا ممكن ؟ لهم لن يقبلوا ! »

- وسيدي الذي قرب موعد عودته ؟!

- لأنني اعرف ذلك جيداً ... دعيني وحدي .

وكانت قد حاولت كل شيء ولم يبق الآن شيء تفعله ، وفكرت في ان تقول لشارل : « ابتعد . فهذه السجادة التي تمشي فوقها لم تعد لنا ، وفي بيتك كله لم تعد من قطعة أثاث ولا دبوس ولا قشة ، وانا التي خربتلك ايها الرجل المسكين ! »

وعندئذ ستكون شهقة كبيرة ثم يبكي في غزارة ، وفي النهاية تمر المفاجأة ويعرفو !

وتمتت وهي تعضّ على اسنانها : « نعم ، سيعفو عني ، وهو الذي لن يكفيني مليون من الجنيهات يقدمه الي لكي اغفر له تعرفه بي ...

أبدأ ! أبدأ !! »

لقد احتاجتها فكرة تسامي بوقاري عليها ، ولكنها سواء اعترفت ام لم تعترف ، الآن او بعد هنيهة او غداً ، فإنه لا بد ان يعلم بالكارثة. وإذن فلا مفر من أن تنتظر هذا المشهد الفظيع ، وأن تتحمل ثقل تفضله بالعفو عنها . وصارت بها رغبة في ان تعود الى ليريه ، ولكن ما جدوي ذلك ؟ او ان تكتب الى ايها ، ولكن الوقت كان قد فات . بل ومن المحتمل ان تكون قد اخذت تندم لأنها لم تستلم للرجل الآخر . واذا بها تسمع وقع أرجل حصان في الطريق . لقد كان هو . وفتح باب السياج ، وكان اكثر شحوباً من الحائط الجيري ! ووثبت في السلم لكي تفلت الى الميدان ، ورأتها زوجة العمدة - التي كانت تتحدث امام الكنيسة مع ليستيبودوا - وهي تدخل عند المحصل .

وجرت لكي تجرب مدام كارو ، وصعدت هاتان السيدتان الى مخزن الحبوب ، واختفتا خلف ملابس كانت منشورة على الحبال ، واستقرتا مستريحتين لكي تريا داخل منزل بينيه كله ! كان وحيداً في الغرفة الواقعة تحت السقف المائل ، منهمكاً في ان يقلد بالخشب احدى تلك الحلبيات العاجية التي لا توصف ، والمكونة من أهلة وكرات مجوفة داخلة بعضها في بعض ، تكون متحداً مستقيماً كالمسلة لا يستخدم في شيء ! وكان يعمل في القطعة الأخيرة ، وأوشك ان ينتهي . وفي ظلام مصنعه الذي يتخلله بعض الضوء ، كان التراب الاشقر يتطاير من الآلة التي يعمل بها ، كسنبلة من الشرر تحت حدوة حصان يعدو ، والعجلتان تدوران وتنخران ، وبينيه يبتسم مخني الذقن مفتوح المنخرين ، وقد لاح انه غارق في احدى تلك السعادات الكاملة، التي لا تتوفر الا في المشاغل التافهة ، التي تداعب الذكاء بصعوبات سهلة تملئه حين ينجز شيئاً لم يتجاوزه أحلامه .

وقالت مدام تيفاسن : « آه ! ها هي ! » .
ولكنه لم يكن من الممكن ان يسمع ما تقول بسبب دوران الآلة !

واخيراً اعتقدت هاتان السيدتان انها قد ميزتا كلمة « فرنكات » !
وقالت الأم نيفاسن بصوت خفيض : « انها ترجوه لكي تحصل على مهلة
لسداد ضرائبها » .

وقالت الأخرى : « هذا ما يبدو ! » .
ورأياها وهي تسير طولاً وعرضاً ، فاحصة على الجدران حلقات
الغوظ والشمعدانات ومقابض السلالم ، بينما يداعب. بينه لحيته في
رضاً !

وقالت مدام تيفاسن : « ربما تكون قد أتت لتوصيه بصنع شي ! »
ولكن جارتها اعترضت قائلة : « ولكنه لا يبيع شيئاً » .
وكان المحصل يلوح عليه أنه ينصت ، وقد ضمّ جفنيه كأنه لا يفهم ،
واستمرت تحدّثه في هيئة رقيقة متضرعة ، واقتربت وصدورها ينتفض ،
ولم يعودا يتحدثان !

وقالت مدام تيفاسن : « هل تحاول اغراءه ؟ » .
وكان بينه محمراً حتى أذنيه ، وامسكت بيديه !
فقال السيدتان : « آه ! هذا شيء عجيب ! »
ولا شك انها كانت تعرض عليه امرأ إداً !

ذلك لأن المحصل - بالرغم من شجاعته ، وبالرغم من أنه قد
حارب في بوتزين وليتز وخواص معركة فرنسا ، فإنه قد ارتد فجأة
الى الخلف مسافة طويلة وكأنه قد رأى ثعباناً ، وأخذ يشمتر قائلاً :
« يا سيدتي ! اتفكرين حقاً في هذا ؟ »

وقالت مدام تيفاسن : « إن من الواجب جلد مثل هؤلاء النساء ! »
وأضافت مدام كارون : « أين هي اذن ؟ »

وذلك لأنها كانت قد اختفت اثناء هذه الكلمات ، ثم لمحها وهي
تتابع الشارع الكبير وتنحني الى اليمين ، كأنما هي ذاهبة الى المقابر ،
فأخذنا يضلان في الفروض !

وقالت عندما وصلت عند المرضعة : أيتها الأم روليه ! لاني اختنق ! ..
فكّتي عني الثياب .

وارتمت على السرير وهي تنتحب ، وغطتها الأم روليه بجونلة وبقيت واقفة الى جوارها . ولما لم تجب ابتعدت المرأة واخذت مغزلاً وشرعت في غزل الكتان .

وتتمت - وهي تعتقد انها تسمع آلة بينيه : « أوه ! فلنته ! » .
وتساءلت المرضعة : « ما الذي يضايقك ؟ ولماذا اتيت الى هنا » .
لقد أنت مدفوعة بنوع من الرعب الذي طردها من منزلها .

كانت مطروحة على ظهرها جامدة ثابتة الحدقتين ، لا تميز الاشياء الا في غموض ، بالرغم من تركيز انتباهها في إلحاح أبله . وكانت تتأمل تجعدات الحائط ، وجمرتين تدخان إحداهما عند طرف الاخرى، وعنكبوتة طويلة تمشي فوق رأسها في شق كتلة الخشب ، واخيراً جمعت افكارها وأخذت تتذكر ... يوماً مع ليون ... أوه ! كم قد أصبح هذا بعيداً ... وكانت الشمس تلمع فوق النهر [والأزهار يفوح أريجها ... وعندئذ حملتها الذكريات وكأنها السبل الذي يغلي ، ولم تلبث ان تذكرت اليوم السابق .

وسألت : كم الساعة ؟

وخرجت الام روليه ورفعت اصابع يدها اليمنى في الناحية التي كانت فيها السماء صافية ، ثم دخلت في بطاء وهي تقول : الثالثة عما قريب .
وقالت ايما : آه ! شكراً ! شكراً !

ذلك لأنه كان على وشك الحضور ... بكل تأكيد ! وإنه لقادر على ان يجد نقوداً ، ولكنه قد يذهب الى هناك دون ان يظن انها كانت هنا . وطلبت الى المرضعة ان تعدو الى منزلها لكي تحضره .

وقالت : « اسرعي ! »

وأجابت المرضعة : « ها انا ذاهبة يا سيدتي العزيزة ! ها انا ذاهبة ! » .

وأخذت الآن تدهش لأنها لم تفكر فيه أولاً . لقد وعد بالإمس ولن يخلف وعده . وتصورت نفسها بالفعل عند ليريه وهي تنشر فوق مكتبه أوراق البنكنوت الثلاثة . ثم لا بد من اختراع قصة تسرح الأمور لبوفاري . ولكن أية قصة ؟

ومع ذلك غابت المرضعة طويلاً جداً قبل ان تعود . ولما لم تكن هناك ساعة بالكوخ ، فان ايما قد خشيت من ان تبالغ في طول الزمن ، وأخذت تقوم بدورات نزهة في الحديقة خطوة بخطوة ، وسارت في الطريق المحاذي للسياح وعادت منه بسرعة ، آملت ان تكون المرأة قد عادت من طريق آخر . واخيراً انهكها الانتظار وساورتها الظنون التي كانت تطردها ، ولم تعد تدري أهي هنا منذ قرن ام منذ دقيقة ، فجلست في ركن واغمضت عينيها وسدت أذنيها . وسمعت صرير باب السياج ، فقفزت ، وقبل ان تتكلم كانت الأم روليه قد قالت لها :
« لا أحد في منزلكم ! »

– كيف ؟

– اوه ! لا احد ! والسيد يبكي ويناديك ، وهم يبحثون عنك !

لم ترد ايما بشيء ، واخذت تلهث وهي تدور بعينيها من حولها ، بينما تراجع الفلاحة الى الخلف بطريقة غريزية ، وقد اخذها الذعر وظنتها مجنونة . وفجأة ضربت جبهتها واطلقت صيحة ، وذلك لأن ذكرى رودولف مرت بروحها كبرق خاطف في ليلة مظلمة . لقد كان رجلاً طيباً رقيقاً كريماً ، وفضلاً عن ذلك ، فانه لو تردد في ان يؤدي لها هذه الخدمة ، لاستطاعت ان ترغمه عليها بأن تذكره بغمزة عين بحبها الضائع . وهكذا انطلقت نحو لاهوشيت دون ان تدرك انها تهول

لكي تقدم نفسها الى من أثار غيظها كل هذه الإثارة منذ وقت قريب ،
ودون ان تفكر لحظة واحدة في هذا التبذل .

• • •

كانت تتساءل وهي تسير « ماذا سأقول ؟ وبأي شيء ابدأ ؟ »
وكلما تقدمت في السير ، تعرفت على الأدغال والأشجار والبوص المائي فوق
التل والقصر هناك . وعادت الى الإحساس بغرامها الأول ، واخذ قلبها
المسكين المكبوت يتفتح للحب ، وهبت ريح فاترة على وجهها ، وأخذ
الجليد - وقد ذاب - يتساقط نقطة فنقطة من البراعم فوق العشب .
ودخلت كما كانت تفعل من قبل من باب البستان ، ثم وصلت الى
ساحة الشرف ، التي يحدها صفان من شجر الزيزفون الملتف الذي يهز
اغصانه الطويلة وهو يصفر . ونبحت جميع الكلاب في حظيرتها وتردد
صوت نباحها دون ان يظهر أحد .

وصعدت السلم العريض ذا « الدرايزين » الخشبي الذي يؤدي الى
الصالة المغطاة ببلاط معفر بالتراب . وعلى هذه الصالة تفتح عدة غرف
في صف واحد كما يحدث في الأديرة والفنادق . وكانت حجراته في
النهاية عند القاع الى اليسار . وعندما وضعت اصابعها فوق القفل أحست
فجأة بقواها تتخلى عنها ، وكانت تخشى ألا يكون هناك ، بل وكادت
تتمنى ذلك بالرغم من انه كان املها الوحيد ، وآخر فرصة للخلاص .
واستجمت دقيقة ، وجددت شجاعتها بالشعور بالضرورة الراهنة ،
ودخلت !

كان امام النار ، وقدماه فوق إطار المدفئة ، وهو يدخن غليونه .
وقال وهو ينهض فجأة : أنت !
- نعم أنا ! انني اريد يا رودولف ان اطلب اليك نصيحة .
وبالرغم من كافة مجهوداته ، كان مستحيلاً عليه ان يفتح فه .

وقال : - انك لم تتغيري - انك دائماً ساحرة !
وقالت في مرارة : اوه ! إنه سحر حزين يا صديقي ، ما دمت
قد احتقرته !

وعندئذ حاول ان يلتمس عذراً لسوكه متعللاً بالفاظ غامضة إذ أنه
لم يستطع ان يبتدع خيراً منها .

وتركت نفسها تؤخذ بأقواله ، فضلاً عن صورته ومظهر شخصه ،
حتى تظاهرت بأنها تصدق . او لعلها صدقت العذر الذي قدمه لافتراقها ،
وكان هذا العذر سراً توقف عليه شرف ، بل ربما حياة شخص
ثالث !

وقالت : - وهي تنظر اليه في حزن : « فليكن ! ولكنني قاسيت
كثيراً ! » .

واجاب في نغمة فلسفية : « هكذا الحياة ! »
فاستأنفت ايما قائلة : « ولكن هل كانت على الأقل حياة طيبة بالنسبة
اليك منذ افتراقنا ؟ »

- اوه ! لا طيبة ... ولا رديئة !

- ربما كان من الأفضل ان لو لم نفرق ابدأ .

- نعم ... ربما !

وقالت وهي تقرب : « هل تعتقد ذلك ؟ »

واضافت وهي تتنهد : « أي رودولف ! لو كنت تعلم ! ... لقد
أحببتك كل الحب ! » .

وعندئذ اخذت يده وبقياً بعض الوقت مشتبكي الاصابع - على نحو
ما حدث في اليوم الأول في المعرض الزراعي . وبحركة كبرياء ، جاهد
ضد الحنين ، ولكنه انهار على صدرها . وقالت له : « كيف كنت
تريد ان اعيش بدونك ؟ إن الانسان لا يستطيع ان يتخلص من سعادة
اعتادها . لقد كنت يائسة واعتقدت اني سأموت . وسأقص عليك كل

هذا وسوف ترى . اما انت ... فقد هربت مني ! ... »

وذلك لأنه كان يتجنبها بعناية منذ ثلاث سنوات ، بسبب ذلك الجبن الطبيعي الذي يتميز به الجنس القوي ! واستمرت اما في حركات لطيفة من رأسها اكثر مداعبة من حركات قطة في شبق : « انك تحب أخريات . اعترف . أوه ! اني افهمهن وأعذرهن ! لقد اغويتهن كما اغويتني ! انك رجل . انت ! ولديك كل ما يلزم لكي تكون موضع حب . ولكننا سنستأنف . أليس كذلك ؟ سيحب احدنا الآخر . انظر . ها انا اضمك . انني سعيدة !... تكلم اذن ! »

وكانت رائعة المنظر بنظراتها التي تهتز فيها دمعة ، كماء العاصفة في كأس ازرق .

وجذبها فوق ركبتيه ، وداعب بظهر يده جدائلها الناعمة التي كانت تلمع في ضوء الشفق كسهم ذهبي في آخر شعاع للشمس ، وحنث جيبتها ، فانتهى بأن قبلها فوق جفניה في رفق بطرف شفته .
وقال : ولكنك قد بكيت ! لماذا ؟

وانفجرت منتحبة ، وظن رودولف انه انفجار حبها . وعندما صمت ظن هذا الصمت آخر احساس بالحياة . رعدتذ صاح قائلاً : « آه . اغفري لي ! انك الوحيدة التي تعجبي . ولقد كنت مغفلاً وشريراً . انني احبك وسأحبك دائماً ! ماذا بك ؟ اذن قولي ! »
وركع على ركبتيه .

فقالت : فليكن ... لقد نزل بي الخراب يا رودولف وستقرضني ثلاثة آلاف فرنك !

فقال وهو ينهض قليلاً قليلاً بينما اخذت ملامحه هيئة جادة : ولكن ... ولكن ..

واستمرت في سرعة تقبول : « انك تعرف ان زوجي كان قد وضع ثروته كلها عند موثق عقود وقد هرب . وقد اقترضنا . والعملاء

لا يدفعون وفوق ذلك فان التصفية لم تتم . وسوف ، يأتينا المال فيما بعد . ولكنهم سيحجزون علينا اليوم بسبب ثلاثة آلاف فرنك - انهم سيحجزون الآن في هذه اللحظة . وقد أتيت معتمدة على صداقتك ! »
وفكر رودولف الذي اصابه الشحوب فجأة : آه ! أمن اجل هذا أتيت !

واخيراً قال في نغمة بالغة الهدوء : « انني لا املكها يا سيدتي العزيزة » .

انه لم يكذب ، ولو انها كانت حاضرة لديه لدفعها بلا شك ، وان يكن من غير المستحب عادة اتيان مثل هذه الافعال الجميلة ! وطلب المال يعتبر - من بين الصواعق التي تسقط على الحب - اكثرها برودة وتخطياً .

وظلت اول الامر تنظر اليه عدة دقائق ثم كررت قولها : « انك لا تملكها ؟ » ولقد كان من الواجب ان اجنب نفسي هذا الخزي الاخير ! انك لم تحبني قط ! انك لا تساوي اكثر من الآخرين ! » .
لقد كشفت عما بنفسها وطار صوابها .

وقاطعها رودولف مؤكداً انه هو نفسه في ضيق .

وقالت ايما : « آه . انني ارثي لك . نعم . كثيراً ! »

وثبتت عينيها فوق طبنجة مطعمة بالفضة كانت تلمع وسط مجموعة سلاحه وقالت : « ولكن عندما يكون الانسان فقيراً لا يضع الفضة في دبشك طبنجته ! ولا يشترى ساعة دقاقة مطعمة بالصدف - وأشارت الى ساعة بول الدقاقة - كما لا يشترى صفارات من العقيق لأسواطه - ولمست هذه الصفارات - ولا تحفاً يعلقها بسلسلة ساعة جيبه ! اوه ! لا شيء ينقصك ! حتي حامل الخمر في غرفة نومك - وذلك لأنك تحب نفسك وتعيش عيشة طيبة ، ولك قصر ومزارع وغابات ، وتصيد على الحصان وتقوم بالرحلات الى باريس . » وصاحت وهي تأخذ من

فوق المدفنة ازرار اكمامه : « ولو لم يكن غير هذه كأحقر حماقاتك لما استطاع الانسان ان يجمع مالا...! أوه ! انني لا احقد عليك ! احتفظ بها ! »

ورمت بعيداً بالزرارين اللذين انفصمت سلسلتها عندما اصطدما بالحائط .
وقالت : وأما انا فقد كنت اعطيك كل شيء ، وكنت ابيع كل شيء وأعمل بيدي بل وأستجدي على الطرقات من اجل ابتسامة - من اجل نظرة - من اجل ان اسمعك تقول : شكراً ! وها انت متربع في مقعدك وكأنك لم تتسبب لي فيما يكفي من الألم . وانت تعلم جيداً انني كنت استطيع ان اعيش بدونك سعيدة ! ما الذي اضطرك ؟ أكان رهان ؟ ومع ذلك فقد كنت تحبني وقد قلت ذلك بل وقلته منذ هنيهة ... آه ! لقد كان من الأفضل ان تطردني ! ان يدي لا تزالان حاريتين من قبلاتك . وها هو - فوق السجادة - المكان الذي كنت تقسم فيه على ركبتك انك ستحبي الى الأبد ! لقد حملتني على التصديق وسحبني خلال عامين في افخم حلم وأشده عدوية ! آه ومشروعات سفرنا . هل تذكرها ؟ أوه ! خطابك خطابك ! لقد مزق قلبي ! ثم عندما ارتد نحوه ، نحوه هو الغني السعيد الحر لكي استجدي عوناً يمكن ان يقدمه اي انسان ، وانضرع حاملة اليه كل حبي وحناني يردني ، لان هذا سيكلفه ثلاثة آلاف من الفرنكات ! » .

وأجاب رودولف في ذلك الهدوء الكامل الذي يتغطى به الغضب المستسلم وكأنه الدرع : « انني لا املكها ! »

وخرجت . وكانت الجدران تهتز ، والسقف يكاد يسحقها . ومرت بالمشاة الطويلة وهي تتعثر في اكوام الاوراق الميتة التي نثرتها الرياح . واخيراً وصلت الى المعبر امام السياج وكسرت اظافرها في القفل لشدة سرعتها في فتحه . وبعد ذلك بمائة خطوة توقفت لاهثة على وشك السقوط ، وعندئذ استدارت ولمحت القصر الجامد مرة اخرى : بيستانه وحدائقه

وأفئاته الثلاثة وكافة نوافذ واجهته .

واستمرت غارقة في ذهولها لا تحس من نفسها غير ضربات شرايينها التي خيل اليها انها تسمعها كموسيقى صاحبة تملأ الحقول . وكانت الارض تحت اقدامها اكثر زخاوة من موجة . ولاحت لها خطوط الحرث موجات كبيرة داكنة تتتابع ، قد اخذ جميع ما في رأسها من ذكريات وأفكار ينطلق معاً في وثبة واحدة كآلاف الخيوط التي تنبعث من صاروخ . فرأت اباه ومكتب ليريه وغرفتها هناك ، ورأت الطبيعة في مظهر آخر ، وتملكها الجنون ، وأحست بالخوف ، ثم عادت فقالتك نفسها ، وان يكن بطريقة مختلطة . وذلك لأنها لم تعد تذكر سبب ما هي فيه من فزع ، اي مسألة النقود ، ولم تكن تتألم الا من جنبها . وأحست بروحها تهرب من جسدها عندما تذكرت هذا الحب كما يحس الجرحى - وهم يحتضرون - بالحياة وهي تتسرب من خلال جروحهم التي تدمى !

اخذ الليل يهبط والغريان تطاير .

وخيل اليها فجأة ان كرات في لون النار تنفجر في الهواء كطلقات الرصاص الحافظة ثم تنداح وتدور لكي تنتهي بالذوبان في الجليد بين اغصان الاشجار . وفي وسط كل منها كان يظهر وجه رودولف .. وتعددت هذه الكرات وتقارب ظهورها وهزت كيانها ثم اختفى كل شيء . وتعرفت على اضواء المنازل التي كانت تشع في الضباب .

وعندئذ مثلت امامها حالتها كالهوية ، وأخذت تلهث لهثاً يكاد يصدع صدرها . وفي انتفاضة بطولة - كادت تردها مرحة ، انحدرت فوق الهضبة وهي تعدو ، وعبرت مرعى البقر والطريق الضيق والممشاة والسوق ، ووصلت امام دكان الصيدلي !

لم يكن هناك احد وهمت بالدخول ، ولكن احداً قد يحضر عند دق الجرس وارتفاع صوته . ولذلك انسابت من خلال السياج وهي كاتمة انفاسها تتحسس الجدران . وتقدمت حتى وصلت الى عتبة المطبخ حيث

كانت تتقد شمعة فوق الفرن ، وجوستان المشمر الساعدين يحمل طبقاً .
- آه ! أنهم يتناولون العشاء . فلننظر .
وعاد فذقت على الزجاج . وخرج .
- المفتاح ! مفتاح السطح حيث توجد ...
- ماذا !

ونظر اليها مندهشاً من شحوب وجهها الذي كان يبرز بياضه وسط
ظلام الليل ، وقد لاحت له خارقة الجمال والجلال كأنها شبح ، دون ان
يفهم ماذا تريد ، وقد اخذ يوجس من شيء مرعب .
واستأنفت في سرعة ، في صوت خفيض رقيق مؤثر : « اني أريده !
اعطني اياه . »
ولما كان الحاجز رقيقاً فان صوت الشوكات على الاطباق كان يسمع
في حجرة الطعام .

وادعت أنها في حاجة الى ان تقتل الفيران التي تمنعها من النوم .
- يجب ان اخبر سيدي .

- لا ! ابق في مكانك .

ثم اضافت في عدم مبالاة : « آه ! لا داعي لهذا فسأخبره بكل شيء
بعد هنيهة . اضيء لي الطريق ! »

ودخلت في المشاة التي يفتح عليها باب المعمل حيث كان على الحائط
مفتاح علقت به بطاقة باسم المخزن .

وصاح الصيدي الذي نفذ صبره : « جوستان ! »

وقالت ايما : « هيا . فلنصعد . »

وتبعها .

ودار. المفتاح في القفل ، واتجهت مباشرة نحو المائدة الثالثة بفضل
ذاكرتها التي احسنت قيادتها ، وامسكت بالاناء الأزرق ، ونزعت غطاءه ،
ودست فيه يدها ، وأخرجتها مليئة بيودرة بيضاء أخذت تبتلعها .

وصاح وهو يلقي بنفسه عليها : « امسكي ! »

— اسكت ! والا حضروا !

وتملكه الملح وود ان يستغيث !

— لا تقل شيئاً ! والا وقعت المسئولية كلها على سيدك ! .

ثم عادت وقد هدأت فجأة ، وكأنه هدوء واجب أدته !

وعندما عاد شارل الى المنزل فزعاً من خبر الحجز ، كانت إيما قد خرجت منه ، فصاح وبكى وأغمي عليه ، ولكنها لم تعد . أين يمكن ان تكون ؟ لقد ارسل فيليسيته الى منزل هوميه ومنزل السيد تيفاش ومنزل ليريه والى فندق الاسد الذهبي والى كل مكان . وفي لحظات هدوء فزعة كان يتمثل باعتباره وقد تحطم ، وثروته وقد ضاعت ومستقبل برت وقد اظلم ! بأي سبب؟! ... لا جواب ! وانتظر حتى الساعة السادسة مساءً . وأخيراً لم يعد يطيق صبراً ، وخيل اليه انها قد سافرت الى ليون فسار في الطريق العام وقطع نصف فرسخ ولم يقابل احداً . فانتظر وقتاً آخر ثم عاد
وكانت قد عادت :

وتسأل قائلاً : ما الذي حدث ؟ ... لماذا ؟ ... افصحي ؟ ...

وجلست الى مكتبها وكتبت خطاباً أغلقته في بطء وأضافت التاريخ والساعة ثم قالت في نغمة جادة : « ستقرأه غداً . ومنذ الآن حتى غد ارجوك ان لا توجه اليّ اي سؤال ! ... نعم اي سؤال ! . »

— ولكن !

— اوه ! دعني !

وتمددت بطول جسمها فوق سريرها .

واحست بطعم لاذع في فمها فاستيقظت ، ورأت شارل ، وأغلقت عينيها .

كانت تراقب نفسها في اهتمام لكي تدرك ما اذا كانت لا تتألم ، ولكن

لا ! لا شيء حتى الآن وكانت تسمع دقات الساعة وصوت النار وشارل واقفاً الى جوار مخدعها وهو يتنفس .

وفكرت لنفسها قائلة : آه ! الموت . شيء هين ! سأنام وينتهي كل شيء ! .

وشربت جرعة ماء واستدارت نحو الحائط ، واستمر هذا الطعم المزعج الذي يشبه طعم المداد . وتنهدت قائلة : « اني عطشى !... أوه ! عطشى جداً . »

وقال شارل وهو يمد اليها كوباً : ماذا بك اذن ؟ «

— لا شيء !... افتح النافذة ... انني اختنق !

وأخذها غثيان مفاجيء حتى انها اوشكت ان لا تتمكن من سحب منديلها من تحت الوسادة .

وقالت في سرعة : « ابعده ! اقذف به ! »

واستجوبها فلم تجيب ، وظلت جامدة خوفاً من ان يحملها اقل انفعال على الغثيان ، ومع ذلك اخذت تحمس ببرد ثلجي يصعد من قدميها الى قلبها !

وتتمت قائلة : « آه ! ها هو بيتديء ! »

— ماذا تقولين ؟ .

كانت تدبر رأسها في حركة رقيقة مليئة بالضيق ، وهي تفتح باستمرار فكيتها ، وكأنها تحمل فوق لسانها شيئاً بالغ الثقل . وفي الساعة الثانية عاد الغثيان الى الظهور .

ولاحظ شارل انه كان هناك في قاع الوعاء نوع من الحصى الابيض عالقاً بجدران الخزف .

وأخذ يكرر : « هذا شيء غريب ! شيء فريد !

ولكنها قالت في صوت قوي : « لا . انك مخطيء ! »

وعندئذ مرّ بيده فوق بطنها في رقة وكأنه يداعبها ، فأطلقت صيحة

حاددة ، فارتدت الى الخلف مذعوراً !
ثم اخذت تثن في ضعف اول الامر ، وهزت كتفيها رعشة كبيرة ،
وأصبحت اشد شحوباً من الملاءة التي تنشب فيها اظافرها المتشنجة .
وأصبح نبضها غير المتساوي متهافتاً لا يكاد يسمع .
وأخذت قطرات العرق تنصح فوق وجهها الضارب الى الزرقة ، والذي
اخذ يلوح كالمجمد وسط انخرة معدنية متصاعدة . وأخذت اسنانها
تصطك وعيناها اللتان اتسعنا تنظران في غموض حولها . وعلى كافة
الاسئلة لم تكن ترد الا بهزة رأس ، بل وابتسمت مرتين او ثلاث مرات .
وشياً فشيئاً اخذ انينها يزداد قوة ، وانطلقت منها صيحة صمّاء ، فادّعت
انها قد اخذت تتحسن وانها ستنهض عما قليل . ولكن التشنجات استولت
عليها فصاحت : « آه ! هذا شيء فظيع ! يا الهي ! »

وارتمى على ركبته الى جوار سريرها !
- تكلمي ! ماذا أكلت ؟ اجيبي ! استحلّفتك بالله !
ونظر اليها بعينين حائيتين نظرة لم تر منه مثلها قط !
وقالت في صوت متهافت : « آه !... هناك ... هناك ...
ووثب الى درج المكتب وفض الغلاف وقرأ بصوت مرتفع « لا تتهموا
احداً ... » وتوقف ومر بيده فوق عينيه ثم عاود القراءة .
- كيف هذا !... الغوث ! اغيثنوني !

ولم يستطع الا ان يكرر هذه الكلمة : « مسمومة . مسمومة ! »
وجرت فيلبسيته الى هوميه الذي استجوبها في الميدان بصوت مرتفع
سمعته مدام لفرانسوا في الفندق الذهبي ، ونهض بعض الناس لكي يجربوا
جيرانهم ، وظلت القرية كلها ساهرة طوال الليل .
وظل شارل يدور في الغرفة ذاهلاً متلعثماً يكاد يسقط ، وهو يصطدم
بالأثاث ويتزعزعه . ولم يكن الصيدلي يعتقد انه من الممكن ان يوجد
مثل هذا المشهد المفزع .

وعاد الى منزله لكي يكتب الى السيد كانيفيه والى الدكتور لاريفير
وقد فقد صوابه . فكتب اكثر من خمس عشرة مسودة ، وسافر هيوليت
الى نيوشاتل ، وأخذ جويستون يهزم حصان بوفاري في عنف حتى تركه
عند هضبة بواجيوم منهوكاً على وشك ان ينفق .
وأراد شارل ان يقلب صفحات قاموسه الطبي ، ولكنه لم ير شيئاً ،
وكانت الأسطر ترقص امام عينيه .

وقال الصيدلي : « الهدوء ! فكل ما يلزم هو ان نعطيها تريباقاً قوياً .
ما هو السم ؟ »

وأظهر شارل الخطاب فكان الزرنبخ .

واستأنف هوميه قائلاً : « يجب اذن ان نعمل تحليلاً ! »

وذلك لأنه كان يعرف ان من الواجب عمل تحليل في حالات التسمم !
وأجاب الآخر الذي لم يكن يفهم شيئاً : « آه ! افعل ! افعل !
انقذها ... »

ثم عاد الى جوارها حيث انهار على الارض فوق السجادة ، وظل
مسنداً رأسه الى حافة الفراش وهو يتتجب .

وقالت له : « لا تبك ! فعما قليل لن اسبب لك متاعب . »

— لماذا ؟ ما الذي اضطرك الى هذا ؟

وأجابت : لقد كان امراً ضرورياً يا صديقي !

— ألم تكوني سعيدة ؟ أكان الخطأ خطئي ؟ ومع ذلك فقد فعلت

كل ما استطعت !

— نعم ... هذا حق ... انك طيب ... أنت !

ومرت بيدها في شعره في ببطء . وزادت عذوبة هذا الاحساس من
حزنه . فأحس بكيانه كله ينهار ياساً من فكرة انه لا بد ان يفقدها في
الوقت الذي تعترف له فيه على العكس بحب لم تعترف بمثله قط . ولم
يجد شيئاً . ولم يعرف شيئاً . ولم يجروؤ . وضرورة الاسراع الى حل عاجل

قد انتهت بأن بلغت باضطرابه الى اقصاه !
واخذت تفكر في انها بالموت ستضع حداً لكافة الحيوانات والحقارات
والاطلاع العديدة التي كانت تضئها . وهي الآن لا تكره احداً ، وقد
هبط على تفكيرها ظلام اختلطت فيه الناس والاشياء . ومن كافة اضواء
الارض لم تعد ايما تسمع غير الأنين المتقطع العذب المختلط ، المنبعث عن
ذلك القلب المسكين ، كأخر صدى لسفونية آخذة في الابتعاد .
وقالت - وهي تنهض فوق مرفقها : « احضروا لي الصغيرة ! »
وسأل شارل : « انك لم تعودى تتألين . أليس كذلك ؟ »
- لا ! لا !

ووصلت الطفلة على ذراع خادمتها ، وهي مرتدية قبض نومها الطويل
الذي تبرز منه قدمها العاريتان وعلى وجهها مظهر جاد وكأنها لا تزال
تحلم . وأخذت تتأمل مندهشة الغرفة التي اختل نظامها ، وهي تغمض
عينها التي تعشيبها المشاعر المتقدة فوق الأثاث . وقد ذكرتها بلا ريب
بصباح ايام رأس السنة او عيد الصيام الكبير ، عندما كانوا يوقظونها في
الصباح المبكر على ضوء الشموع ، ثم تأتي الى سرير امها لكي تتسلم
الهدايا ، لأنها اخذت تقول : « اين اذن ماما ؟ »

وعندما صمت الجميع قالت : « ولكنني لا ارى حدائتي الصغير ! »
واخذت بها فيليسيته نحو السرير بينما ظلت هي تنظر ناحية المدفئة
وقالت : « هل المرصعة هي التي اخذته ؟ »

وعند سماع هذا الاسم الذي عاد بها الى ذكري اثمها وكوارثها ،
ادارت بدمام يوفاري رأسها وكأنها تشمئز من سم آخر اكثر قوة اخذ
يصعد الى فمها ! ومع ذلك بقيت برت قابعة فوق السرير .

وقالت : « أوه ! ما اكبر عينيك يا أماه ! كم انت شاحبة ! ما
اغزر عرقك ! ... »

وأخذت الأم تنظر إليها . فارتدت الطفلة الى الخلف وهي تقول :

« اني خائفة »

وأمسكت ايمًا بيدها لكي تقبلها ولكنها اخذت تتملص منها .
وصاح شارل الذي كان ينتحب في احد الأركان : « كفى !
خذوها ! »

ثم توقفت الأعراض لحظة فلاحت أقل هياجاً . وعند كل كلمة نافهة
او نفس من صدرها أكثر سكوناً ، كان يعاوده الألم ، وأخيراً عندما
دخل كانيفيه ارتمى بين ذراعيه !
وقال : آه ! انه انت ! شكراً ! انك طيب ! لقد أخذت تتحسن :
هيا . أنظر اليها ...

لم يكن الزميل من هذا الرأي قط . ولما لم يكن يعرف المواراة - كما
قال هو نفسه - فقد أوصى بمقيء لكي يخلي المعدة اخلاءً كاملاً .
ولم تلبث ان قاءت دماً ، وازدادت شفتاها التصاقاً ، وتصابت
أعضاؤها ، وتغطى جسمها ببقع داكنة ، وأخذ نبضها يهرب تحت الاصابع
كالحيط المشدود ، او كوتر العود الموشك على الانقطاع .

ثم أخذت تصيح صياحاً فظيحاً وتلعن السم وتسب ، وتضرع اليه كي
يسرع ، وتدفع بذراعيها المتصلبتين كلما حاول شارل ، الاكثر
احتضاراً منها ، ان يحملها على شربه . وكان شارل واقفاً ومنديله فوق
شفتيه وهو ينتحب ويبيكي ويخنتق بالشهقات التي تهزه حتى عقيبه ،
وفيلبسيته تجري في الغرفة هنا وهناك ، وهوميه جامد في مكانه يرسل
التنهيدات الكبيرة ، والسيد كانيفيه قد أخذ يشعر بالاضطراب بالرغم من
احتفاظه المستمر برباطة الجأش .

وقال كانيفيه : « امر غريب ، ومع ذلك .. فقد تطهّرت معدتها وما
دام السبب قد توقف »

فقال هوميه : « يجب ان يتوقف الأثر . هذا واضح ! »
وصاح بوفاري : « ولكن انقذوها ! »

وبالرغم من ان الصيدلي قد جازف ايضاً بفرض هو قوله : « قد تكون قفة الازمة التي تأتي بعدها النجاة » ، فإن كانيفيه لم ينصت اليه ، وأسرع الى اعطائها تريباقاً . ثم سمعت قرعمة سوط اهتزت له كافة ألواح الزجاج ، ودلفت في قفزة الى ركن السوق عربية اجرة فخمة ، تحبها ثلاثة خيول ملطخة بالوحل حتى آذانها . وكان بالعربة الدكتور لاريفير .

ولو ان إلماً ظهر لما سبب انفعالاً أكبر ، فوفاري يرفع يديه ، وكانيفيه يتوقف فجأة ، وهو يهتف بخلع طاقيته الأخرقية قبل ان يدخل الدكتور بوقت طويل .

كان ينتمي الى المدرسة الجراحية الكبيرة المتخرجة على الاستاذ ريشيه ، الى ذلك الجيل الذي اختفى الآن ، والذي كان مكوناً من الأطباء الفلاسفة ، الذين كانوا يحبون فنهم حباً تعصب ، ويزاولونه في حماسة ومهارة حكيمة . وكان كل ما في مستشفاه يرتعد عندما يغضب . وكان تلاميذه يجلّونه الى حد أنهم كانوا يحاولون بمجرد ان يستقروا ، ان يقلدوه الى أبعد حد ، حتى كانوا يرون في المدن المجاورة وهم مرتدون مسوحيه الصوفي الطويل ، ومعطفه الاسود الواسع ، الذي كانت اكمامه المفتوحة الازرار تغطي قليلاً ايديهم الرخصة - اياد بالغة الجمال لم تكن ترتدي قط القفازات لكي تستطيع ان تكون اكثر سرعة في الانغاس في مآسي الناس . وكان في احتقاره للنياشين والالقاب والاكاديميات ، وفي كرمه وسخائه وعطفه على الفقراء ، ومزاولته للفضيلة دون اي رجاء - يكاد يكون قديساً . لولا ان نفاذ روحه ولذعها ، كانا يجعلانه مخوفاً كشيطان ! وكانت نظرتة الأشد مضاء من مشرطه تغوص في النفس ، وتشرح كل كذب خلال الادعاء والحياء . وهكذا سار مليئاً بتلك العظمة البسيطة الخيرة ، التي يمنحها الاحساس بالموهبة العظيمة والثروة ، وبأربعين عاماً من حياة مجددة لا غبار عليها .

وقطّب حاجبيه منذ الباب عندما لمح وجه إيما في شخوب الموت وهي ممددة على ظهرها فاغرة الفم . ثم انه بينما كان يبدو منصتاً لكانيفيه، كان يمر بسبابته تحت انفها وهو يقول : « حسن حسن ! » ولكنه هزّ كتفيه هزة بطيئة ، ولاحظه بوفاري ، وأخذ احدهما ينظر الى الآخر . وبالرغم من تعود هذا الرجل على رؤية الآلام ، الا انه لم يستطع ان يمسك دمعة انحدرت فوق صدره .

وأراد ان يصطحب كانيفيه الى الغرفة المجاورة فتبعه شارل الذي قال : « انها في حالة سيئة . أليس كذلك ؟ ماذا لو وضعنا لها لبخات ؟ لست ادري ماذا ؟ اعثر لها اذن على شيء . انت الذي طالما انقذت ! » وطوقه شارل بذراعيه ، وأخذ يتأمله على نحو فزع ضارع ، وقد اصيب بشبه اغماء فوق صدره .

فقال الدكتور : « هيا ! يا غلامي المسكين ! تشجع . ليس هناك ما يمكن عمله ! »

ودار الدكتور لاريفيير على عقبيه .

— أذهب انت ؟

— سأعود !

لقد خرج ، وكأنما ليعطي امرأ الى السائس ، ومعه السيد كانيفيه ، الذي لم يكن حريصاً هو الآخر على ان يرى إيما تموت بين يديه .

وانضم اليها الصيدلي في الميدان حيث انه بطبيعته لم يكن يستطيع ان ينفصل عن الرجال المشهورين ! ولذلك استحلف السيد لاريفيير ان يسبح عليه شرفاً عظيماً بأن يقبل الغداء معه .

وأرسل في سرعة لكي يحضر ما في فندق الاسد الذهبي من حمام ، وكل ما عند الجزائر من « كستليتة » ، والكريمة من عند تيفاش ، والبيض من عند ليستيودوا . وساهم الصيدلي بنفسه في الاعداد بينما قالت مدام هوميه وهي تشدّ حزام مريبتها : « نسألك المَعذرة يا سيدي ، وذلك

لأنه في قريتنا المسكينة ما لم يكن لدى الانسان علم من اليوم السابق ... «
وهمس هوميه قائلاً : « الأكواب ذات الأرجل ! »
وقالت السيدة : « لو اننا كنا في المدينة لاستعنتنا على الأقل بالكوارع
المحشوة » .

وقال هوميه : « اسكتي ! ... الى المائدة يا دكتور ! »
ورأى بعد تناول القطع الأولى ان يقدم بعض التفاصيل عن الكارثة .
قال : - لقد لاحظنا اولاً جفافاً في الحنجرة، ثم آلاماً مبرحة في فم
المعدة وإسهالاً شديداً وغيوبية .
- وكيف تسمت إذن ؟
- لست ادري يا دكتور ! بل ولا اعلم أين استطاعت ان تجد حامض
الزرنبخ !

وعندئذ اخذت جويستان الذي كان يحمل صفاً من الأطباق رعشة .
وقال الصيدلي . : « ماذا بك ؟ »
وعندما سمع الشاب هذا السؤال سقط على الارض كل ما بين يديه
في ضجة كبيرة .

فصاح هوميه : « مغفل ! أخرق ! خائب ! حمار ! »
ولكنه تماسك فجأة ليقول : « وقد اردت يا دكتور ان اعلم تحليلاً ،
وابتدأت بأن ادخلت في رفق داخل انبوبة ... »
وقال الجراح : « لقد كان من الأفضل ان تدخل اصابعك في
حلقتها ! » .

وكان زميله يلتزم الصمت ، بعد ان سمع - على حدة - لوماً شديداً
فيما يختص بالمقيء الذي قدمه . حتى ان هذا السيد كان فيه الذي كان
متغظراً وثرثراً عند حادثة الرجل العرجاء ، اصبح اليوم متواضعاً ،
يبتسم بغير انقطاع ابتسام الموافقة !
كان هوميه مزدهراً في زهو كرمه الخارق ، وكانت صورة بوفاري

المحزنة تؤدي في غموض الى سروره ، وذلك عندما يقارن نفسه بشارل !
ثم إن حضور « الدكتور » كان ينعشه ، فأخذ يعرض علمه فيتحدث
حيماً اتفق عن الذباب الهندي وسم نبات الإيباس ، وشجرة الزقوم
والعقرب !

— بل لقد قرأت يا دكتور عن اناس تسموا — وكأنهم قد صعقوا —
بالسجق الذي تعرض لعملية تدخين شديدة ، وقد كان هذا في تقرير
فخم ألفه واحد من أعلام الصيدلة عندنا ، أحد اساتذتنا ، وهو العالم
المشهور كاديه دي جاسيكور !

ثم عادت مدام هوميه وهي تحمل إحدى تلك العدد الخريبة ، التي
توقد بكحول النبيذ ، وذلك لأن هوميه قد حرص على ان يصنع قهوته
على المائدة ! وكان قد حمّص البن وطحنه وتبلّه بنفسه !

وقال باللاتينية وهو يقدم السكر : « سكاروم يا دكتور ! »
وأنزل كافة أطفاله ، الذين كانوا حريصين على ان يأخذوا رأي
الجرّاح في بنتهم !

واخيراً ، بينما كان السيد لاريفير بهمّ بالرحيل ، طلبت اليه مدام
هوميه استشارة خاصة بزوجها ، عن نومه كل مساء بعد العشاء ، مما
يصيب دمه بالغلظ !

— اوه ! ولكن عقله لا يشكو من هذا الغلظ !

وفتح « الدكتور » الباب وهو يتسم قليلاً من هذه النكتة الخفية .
ولكن الصيدلية كانت غاصّة بالناس ، ووجد مشقة كبيرة في ان يتخلص
من السيد تيفاش ، الذي كان يخشى على زوجته التهاباً رثوباً ، لأنها
اعتادت ان تبصق في رماد المدفأة ! ثم السيد بينيه الذي يشكو احياناً من
الجوع المؤلم المفاجيء ! ومام كارون التي تشكو الحكمة ، وليريه الذي
يشكو الدوار ، وليستيودوا الروماتيزم ، ومام لوفرانسوا الحموضة !
واخيراً انطلقت الخيول الثلاثة . وقد رأوا بوجه عام انه لم يكن مجاملاً !

وتحول الانتباه العام بظهور السيد بورنيسيان ، وهو يمر تحت السوق بزبوته المقدسة .

وقارن هوميه - بحكم مبادئه - القسس بالغربان ، التي تجتذبها رائحة الموتى ! وكانت رؤية احد رجال الكهنوت ممضة لشخصه ، وذلك لأن المسوح كان يجعله يتخيل بالكفن ، وكان يبغض احدهما الى حد ما خوفاً من الآخر !

ومع ذلك ، فإنه لم يكن يتراجع امام ما يسميه رسالته ، ولذلك عاد الى منزل بوفاري في صحبة كانيقيه ، الذي كان السيد لاريفير قد كلفه بشدة - قبل ان يرحل - بالعودة الى هناك .

وحتى بدون توصيات زوجته ، كان لا بد من ان يصطحب معه ولديه ، لكي يعتادا الظروف القاسية ، ولكي يكون هذا درساً ومثلاً ولوحة مسجلة تبقى في الرأس بعد ذلك !!

كانت الغرفة عندما دخلوا مليئة بنجو جنائزي . وفوق منضدة حياكة مغطاة بفوطة بيضاء ، خمسة او ستة كرات صغيرة من القطن ، في طبق من الفضة ، الى جوار صليب كبير ، بين شمعدانين متقدين . وكانت ايما منحنية الذقن فوق صدرها ، وقد فتحت جفنيها على نحو أوسع من المألوف ، وبداها المسكيتان تتحسان الملاءات في حركة نحيفة رقيقة تصدر عن المحتضرين ، الذين يلوح أنهم يريدون عندئذ ان يتغطوا بالكفن . وهي شاحبة كالتمثال ، وعيناها محمرتان كالجمر ، وشارل واقف امامها دون بكاء عند ساق السرير، بينما ركع القسيس على ركبته، وأخذ يتمم في صوت خفيض بعض العبارات .

وادارت وجهها في بطاء ، ولاح انها قد تملكها النشوة اذ رأت فجأة المسوح البنفسجي . ولا شك انها قد عادت فأحست وسط هذا الهدوء الحارق، بتلك اللذة المفقودة التي كانت تستشعرها في انطلاقاتها الصوفية الأولى مع رؤى من السعادة الخالدة التي اخذت تبتديء .

ونهض القسيس لكي يأخذ الصليب . وعندئذ مدت رقبتها كمن به ظمأ ، وألصقت شفثتها فوق جسم «الرجل الإله» ، ووضعت فوقه ، بكل قوتها المولية ، أكبر قبلة حب اعطتها في حياتها . ثم ردّد القسيس «رحمتك يا الله» وصلاة الاستغفار ، وغمس اصبعه الأيمن في الزيت ، وابتدأ المسحات الأخيرة : أولاً على عينيها اللتين طالما تطلعتا الى المتع الأرضية ، ثم فوق أنفها المولع بالنسبات الفاترة والروائح الغرامية ، ثم فوق فمها الذي كان مفتوحاً للكذب والذي كان يئن من التكبر ويصيح من الشهوة ، ثم فوق اليدين اللتين كانتا تتلذذان باللمسات العذبة ، واخيراً فوق مسطح قدميها اللتين كانتا - فيما مضى - بالغني السرعة في الجري لإشباع رغباتها ، واللتين لن تعودا تسيران الآن .

وجفف القسيس اصابعه وألقى الى النار بقطع القطن المبلّلة بالزيت ، وعاد ليجلس الى جوار المحتضرة لكي يخبرها ان من واجبها الآن ان تضم آلامها الى آلام المسيح وان تستسلم للرحمة الإلهية .

وعندما انتهى من وصاياها ، حاول ان يضع في يدها شمعة باركها ، رمزاً لأعجاب السماء التي ستحيط بها بعد قليل ، ولكن ايما البالغة الضعف ، لم تستطع ان تغلق اصابعها ، ولولا السيد بورنيسيان لسقطت الشمعة على الأرض .

ومع ذلك ، فانها لم تعد شاحبة كما كانت ، وقد انتشر على وجهها مظهر اطمئنان ، وكان الطقوس الدينية قد شفثتها .

ولم يغفل القسيس عن إبداء هذه الملاحظة ، بل وشرح لبوفاري كيف ان الله يمدّ أحياناً في حياة الأشخاص عندما يرى ذلك ملائماً لخلاصهم . وتذكر شارل كيف انها تلقت يوماً وهي قريبة من الموت ، طعام التناول ؛ وظن انه ربما لم يكن هناك محل للباس .

وبالفعل ، نظرت حولها في بطاء كمن يستيقظ من حلم ، ثم طلبت في صوت واضح مرآتها ، وظلت محنية فوقها بعض الوقت حتى تساقطت

من عينيها دموع كبيرة . وعندئذ طرحت رأسها الى الخلف وهي تنهد ،
وعادت الى السقوط فوق الوسادة .

أخذ صدرها بعد ذلك مباشرة يلهث في سرعة ، وخرج لسانها كله
من فمها ، وشجبت عيناها وهما تدوران ككرتي مصباح تنطفئان ، حتى
ظنّ انها قد ماتت ، لولا الانتفاضات المخيفة في اضلاعها التي كانت تهتزّ
بنفس عنيف ، وكان الروح تقوم بوثبات كي تتخلص من الجسد .
وركعت فيليسيته امام الصليب ، بل وثني الصيدي نفسه ركبته قليلاً ،
بينما أخذ السيد كانيفيه ينظر الى الميدان في غير هدف . وكان بارناسيان
قد أخذ يعود الى عمله كقيس ، ووجهه محني فوق حافة السرير ،
وفوقه مسوحة الطويل الأسود الذي يجره من خلفه في المنزل . وكان
شارل راکماً على ركبته من الناحية الأخرى، ماداً ذراعيه نحو ايما وقد
أخذ يديها وضمهما ، وهو ينتفض لكل ضربة من ضربات قلبها ، وكأنها
هزات خرائب تنفض . وكلما اشتدت الحشجة ، أسرع القيس في
مواعظه التي كانت تختلط بانتحابات بوفاري المكبوتة . وحياناً كان
يلوح ان كل شيء يختفي في التمتمة الصامتة للمقاطع اللاتينية ، التي
كانت ترن كدقات ناقوس حزين !

وفجأة ، سمعت على الرصيف ضوضاء حذاء خشبي سميك مع حفيف
عصا وصوت أجش يرتفع مغنياً : « كثيراً ما تدفع حرارة يوم صحو
الصبية الى ان تحلم بالحب » .
ونفضت ايما كالجثة التي ينفخون فيها الحياة ، محلولة الشعر ، جامدة
الحدقة مفتوحتها .

واستمرّ الصوت بغني : « لكي تجمع - في خفة - السنابل التي
يحصدها المنجل ! ما هي حبيبتي قامت تنحني فوق خط المحراث الذي
يعطينا هذه السنابل ! »
وصاحت ايما : « الأعمى ! » ثم أخذت تضحك ضحكاً مؤلماً

مجنوناً يائساً ، معتقدة انها ترى الوجه المخيف لهذا الشقي ، الذي ينهض
في الظلمات الأبدية كشبح مرعب .

واستمر الغناء : « وهبت الريح قوية في ذلك اليوم ، وتطايرت
الجونلة القصيرة ،
وألفت بها شهقة فوق الحشية ، واقترب الجميع ... كانت قد
فارت الحياة !

* * *

هناك دائماً بعد موت أحد من الناس ، شيء يشبه الذهول الذي يملأ
الجو ، وذلك لأنه من الصعب فهم هذا العدم الطارىء ، والاستسلام
لتصديقه . ومع ذلك فإن شارل ، عندما تبين جموده ، لم يلبث ان ألقى
بنفسه عليها وهو يصيح : « الوداع ! الوداع ! » .

وقاده هوميه وكانيفيه الى خارج الغرفة وهما يقولان : « إهدأ !
فقال وهو يتملص : « نعم ! سأكون معقولاً ، ولن أعمل سوءاً ،
ولكن اتركاني ! أريد ان أراها ! انها زوجتي ! » .
وأخذ يبكي !

وقال الصيدلي : « إبكِ . اطلق العنان للطبيعة ، فان هذا سيسري
عنك ! » .

واصبح شارل اكثر ضعفاً من طفل ، واسلم قياده ، فصحبوه الى
الصالة في الطابق الأرضي . وبعد ذلك بقليل عاد هوميه الى منزله .
وفي الميدان ، تعرض له الأعمى الذي تحامل حتى وصل الى ايونفيل على
أمل ان يحظى بالمرهم المضاد للالتهاب الرئوي ، وكان يسأل كل من يمر
أين يقيم الصيدلي .

وقال الصيدلي : « حسن ! هيا . كأنني خلو من المنغصات ! آه !

فليكن . ارجع اليّ فيما بعد .

ودخل مسرعاً الى الصيدلية .

وكان عليه ان يكتب خطابين ، وان يعد شراباً مهدئاً لبوفاري ،
وان يجد اكدوبة للتستر على التسمم ، وان يحررها مقالاً لصحيفة
« الفنال » . ذلك فضلاً عن الأشخاص الذين كانوا ينتظرونه لكي
يحصلوا على أخبار . وعندما سمع اهل ايونفيل قصته الخاصة بالزرنينخ
الذي اعتقدته سكرّاً وهي تصنع كريمة بالقرفة ، عاد هوميه ثانية الى
منزل بوفاري !

لقد وجدته وحيداً بعد ان سافر السيد كانيهيه ، وقد جلس في فوتي
الى جوار النافذة ، واخذ يتأمل بلاط الصلابة في نظرة بلهاء !
وقال الصيدلي : - « يجب ان تحدّد بنفسك ساعة الاحتفال » .

- لماذا ؟ اي احتفال ؟

ثم اضاف بصوت متلعثم فزع : « أوه ! لا . أليس كذلك ؟ لا .
لأنني اريد ان احتفظ بها ! »

وأخذ هوميه - على سبيل التماسك - دورقاً من فوق الرف لكي
يسقي شجيرات الجيرانيوم .

وقال شارل : - « آه ! شكراً . انك رجل طيب ! »

ولم يستطع ان يتم عباراته لانه اختنق تحت فيض من الذكريات التي
اثارتها حركة الصيدلي .

وعندئذ رأى هوميه انه من المناسب ان يتحدث قليلاً عن فلاحه
الساتين لكي يسري عنه ، فالنباتات في حاجة الى رطوبة ! وطأطأ
شارل رأسه دليلاً على الموافقة .

وقال هوميه : « وفضلاً عن ذلك فإن ايام الجو الجميل على وشك
العودة » .

فقال شارل : « آه ! »

وأحسن الصيدي بأفكاره تنضب، فأخذ يحرك في رفق الستائر الصغيرة
المثبتة على ألواح الزجاج .

ثم قال : « آه ! ها هو السيد تيفاش يمر » .

فردد شارل كالألة : « السيد تيفاش يمر » .

ولم يجرؤ هوميه على ان يعود ليحدثه عن اجراءات الجنازة ، وانما
القسيس هو الذي استطاع ان يحل هذا الإشكال .

وحبس نفسه في مكتبه واخذ قليلاً . وبعد ان انتحب بعض الوقت

كتب : « اريد ان تدفن في ثوب زفافها وفي حذاء ابيض وتاج ،

وان ينشر شعرها على كتفيها . واريد ثلاثة نعوش : واحد من البلوط

وواحد من السفت وواحد من الرصاص ، ولا اريد ان اسمع شيئاً من

احد ، فستكون لدي القوة . ويوضع فوق كل هذا قطعة كبيرة من

القطيفة الخضراء . هذا ما أريده فافعلوه » .

ودهش هؤلاء السادة كثيراً من أفكار بوفاري الخيالية . وعندئذ

ذهب الصيدي فوراً ليقول له : « ان هذه القطيفة تلوح بذخاً كالياً

ثم ان التكاليف ... » .

فصاح شارل : « هل هذا يخلصك ؟ دعني ! انك لم تكن تجبها !

اخرج ! » .

وتأبط القسيس ذراعه لكي يحمله على ان يقوم بتزته في الحديقة ،

وأخذ يتحدث عن غرور الحياة الدنيا ويوضح كيف ان الله عظيم طيب ،

وانه من الواجب ان نخضع لإرادته دون تملل ، بل وأن نشكره .

وانفجر شارل في اللعنات ثم قال : « لقد عفوت عنه ، إلهك هذا ! »

وتنهّد القسيس قائلاً : « ان روح الثورة لا تزال كامنة فيك ! »

وكان شارل قد ابتعد وأخذ يسير بخطوات كبيرة في محاذاة الجدار

بالقرب من العريشة ، وهو يضغط اسنانه بشدة ، ويرفع الى السماء

نظرات اللعنة . ولكن ورقة واحدة فوق غصن لم تتحرك لذلك !

وأخذ مطر خفيف يسقط ، وكان شارل عاري الصدر ، فاذا به يرتعد ، فدخل لكي يجلس في المطبخ .
وفي الساعة السادسة سمعت ضوضاء حديدية في الميدان ، وكانت «العصفورة» هي التي وصلت . وظل ملصقاً بجهته بزجاج النافذة ليرى المسافرين ينزلون الواحد بعد الآخر . ومدّت له فيليسيته حشية في الصالون ألقى بنفسه فوقها ونام .

وبالرغم من ان السيد هوميه كان فيلسوفاً ، الا انه كان يحترم الموتى ! ولذلك لم يضمم ضمناً لشارل المسكين ، وعاد في المساء لكي يسهر الى جوار الجثة حاملاً معه مجلدات ثلاثة ، ومفكرة لكي يدون مذكرات . كان السيد بورنيسيان موجوداً ، وشمعتان كبيرتان تتقدان عند رأس السرير الذي كانوا قد جرّوه من المخدع .

ولم يلبث الصيدلي، الذي أنقله الصمت، ان تفوّه ببعض الآثبات لتلك «الشابة» المنكودة الحظ . وأجاب القسيس بأنه لم يبق الآن الا ان يصلوا من اجلها .

فقال هوميه : « ومع ذلك فنحن بين أمرين . إما انها قد ماتت في مغفرة ورضوان كما تقول الكنيسة ، وهي في هذه الحالة لا تكون في حاجة الى صلواتنا ، واما ان تكون قد ماتت عاصية كما يقول التعبير الكهنوتي وعندئذ ... »

وقاطعه بورنيسيان مجيئاً بنغمة خشنة انه في اية حالة لا بد من الصلاة . فاعترض الصيدلي قائلاً : « ولكن ما دام الله يعلم ... »
فقال القسيس : « كيف ؟ الصلاة ؟ انك اذن لست مسيحياً ! »
وقال هوميه : « عفواً ! انني معجب بالمسيحية التي حرّرت الارقاء وأدخلت الاخلاق في العالم . »

— ليس هذا هو المقصود ! ان كافة النصوص ...

— أوه ! أوه ! أما عن النصوص فافتح التاريخ . لقد زورها

كلها يسوعيون .

ودخل شارل وتقدم نحو السرير وشد الستائر في ببطء .
كان رأس ايمّا منحنيّاً فوق كتفها الايمن ، وزاوية فيها التي كانت
مفتوحة، تشبه حجراً اسود في اسفل وجهها ، وقد ظل ابهامها مطويين
في راحة يديها ، ونوع من التراب الابيض ينتشر فوق اهدابها ، وقد
أخذت عينها تخفتيان في شحوب هلامي يشبه غشاء رقيقاً ، وكأنه العنكبوت
قد نسج فوقها . وتجمفت الملاءة من ثدييها الى ركبتيها ، ثم ارتفعت
بعد ذلك عند اطراف اصابع قدميها ، وقد لاح لشارل ان ثقلاً لا نهاية
لها واحمالاً كبيرة تنقلها .

ودقت ساعة الكنيسة الثانية، وكان يسمع خرير النهر الذي ينساب في
الظلام عند اسفل الشرفة ، وكان السيد بورنيسان يتمخّط في ضوضاء
من وقت الى آخر ؛ وهوميه يصر قلمه فوق الورق .

وقال : « هيا يا صديقي انسحب ، فان هذا المنظر يمزقك ! . »

وبمجرد ان انسحب شارل استأنف الصيدلي والقسيس مناقشتها .

قال احدهما : « اقرأ فولتير . اقرأ هولسباخ . اقرأ دائرة المعارف ! »

وقال الآخر : « اقرأ رسائل لبعض يهود البرتغال . اقرأ حكمة

المسيحية للقاضي القديم نيقولا . »

والتهب واحمرّ وجههما ، وتكلّما في وقت واحد دون ان ينصت

احدهما للآخر . فبورنيسان يشمئز من مثل هذه الجرأة ، وهوميه يدهش

من مثل هذا التغفيل . ولم يكونا بعيدين عن ان يتساباً عندما عاد شارل

فجأة الى الظهور ، وكان مغناطيساً يجذبه فيصعد السلم باستمرار .

ووقف في مواجهتها لكي يحسن رؤيتها ، وضل في مثل هذا التأمل

الذي لم يكن مؤلماً لشدة عمقه .

وتذكر قصص التشنج العصبي ومعجزات المغناطيسية ، وقال لنفسه

انه بشدة رغبته فيها، ربما استطاع ان يعيئها الى الحياة ، بل وانحني مرة

فوقها ، وصاح بصوت خفيض : « ايما ! ايما ! » واهتز لهب الشموع على الحائط من نفّسه الذي كان يخرج به بقوة .

وعند مطلع الفجر ، وصلت مدام بوفاري الأم . وعندما قبلها شارل سكب فيضاً جديداً من الدموع ، وحاولت كما حاول الصيدلي من قبل ، ان تبدي له بعض الملاحظات عن تكاليف الدفن ، وغضب في شدة اسكتتها ، بل وكلفها بأن تذهب فوراً الى المدينة لكي تشتري ما يلزم . ظلّ شارل وحيداً بعد الظهر كله . وكانوا قد ذهبوا ببرت الى منزل مدام هوميه ، وظلت فيليسييتيه في أعلى بالغرفة مع مدام ليفرانسوا .

وفي المساء استقبل عدة زائرين ، وكان ينهض ويصافح الايدي دون ان يستطيع الكلام . ثم جلسوا بعضهم الى جوار بعض في شكل نصف دائرة كبيرة امام الغرفة ، والوجوه منكّسة ، والافخاذ مثنية ، والسيقان تتأرجح ، وهم يرسلون من وقت الى آخر تنهدات كبيرة ، وكل منهم يحس بالملل على نحو مفرط ؛ ومع ذلك كانوا يتنافسون في البقاء اطول فترة ممكنة !

وعندما عاد هوميه في الساعة التاسعة - بعد ان ظل بمفرده منذ ساعتين في الميدان - كان محملاً بكمية من الكافور واللبان الجاوي والاعشاب العطرية ، كما كان يحمل إزاء مليئاً بالكلور لكي يطرد الروائح الكريهة . وفي هذه اللحظة ، كانت الخادمة ومام ليفرانسوا والأم بوفاري يدرن حول ايما ، وقد انتهن من لباسها ثيابها ، وطرحن فوقها الوشاح اليابس الذي غطاها حتى حداثها المصنوع من الساتان .

وكانت فيليسييتيه تنتحب وهي تقول : « آه يا سيدتي المسكينه ! يا سيدتي المسكينه ! »

وقالت صاحبة الفندق وهي تنهد : « انظروا اليها . كيف لا تزال جميلة ! ان الانسان ليكاد يقسم انها ستنهض بعد برهة . » ثم انحنين لكي يلبسها تاجها .

وكان لا بد من رفع رأسها قليلاً ، وعندئذ انسكب من فمها فيض
من السوائل السوداء وكأنه قيء !
فصاحت مدام ليفرانسوا : « آه ! يا آلهي ! الثوب ! خذني
حذركن ! »

وقالت للصيدلي : « اعينونا اذن ! اخائفون انتم ؟ »
فأجاب : « انا خائف ؟ هيا . لقد رأيت الكثيرات غيرها في مستشفى
اوتيل ديو عندما كنت ادرس الصيدلة . وكنا نشرب الانتخاب في صالة
التشريح . والعدم لا يخيف فيلسوفاً ؛ بل انني كثيراً ما اقول ان في
عزيمي ان أوصي بجسمي للمستشفيات لكي انفع العلم فيما بعد ! »
وعندما وصل القسيس سأل عن حالة السيد ، وحينما اجابه الصيدلي
استأنف يقول : « انكم تقدرون ان الصدمة لا تزال حديثة جداً ! »
وعندئذ هنا هوميه بأنه ليس معرضاً كغيره من الناس الى ان يفقد
رفيقة عزيزة . وعندئذ تولدت مناقشة عن عزوبة القسس .

وقال الصيدلي : « ذلك لأنه من غير الطبيعي ان يستغني الرجل عن
المرأة ! ولقد حدثت جرائم ... »

فصاح القسيس : « ولكن بالله كيف تريد من شخص مشتبك بالزواج
ان يستطيع الاحتفاظ مثلاً بأسرار الاعترافات ؟ »

وهاجم هوميه مبدأ الاعتراف ، ودافع عنه بورنيسان ، وأسهب في
الحديث عن الاوضاع التي يعيدها الى نصابها ، وذكر عدة قصص عن
لصوص اصبحوا شرفاء فجأة ، ورجال الحرب الذين احسوا بالغشاوة
تسقط عن اعينهم بمجرد ان اقتربوا من كرسي الندم ، وكان في
فرايبورج قسيس

وكان رفيقه قد اخذ يغط في النوم ! ثم انه اخذ يحس بالاختناق
في جو الغرفة الثقيل ، ففتح النافذة واذا بالصيدلي يستيقظ .
وقال : « هيا ! قليلاً ! السعوط ! اقبل ! انه ينعش ! »

وكان نباح مستمر يتتابع بعيداً في ناحية ما .

وقال الصيدلي : « هل تسمع كلباً ينبع ؟ »

فأجاب القسيس : « أنهم يدعون ان الكلاب تشم الموتى ، وهي

كالنحل تنطلق من الخلية عند موت الاشخاص . »

ولم يعلق هوميه على هذا الاعتقاد القديم ، اذ انه كان قد عاد الى النوم !

واستمر السيد بورنيسيان الاقوى بنية يحوك شفثيه في صوت خفيض

لوقت ما ، ثم حتى ذقنه على نحو غير محسوس ، وتخلّى عن كتابه الضخم
واخذ يشخر !

كانا وجهاً الى وجه ، والبطن بارزة الى الامام ، والوجه محتقن ،

والجبين مقطب بعد كل هذه الخسافات ! وقد التقيا اخيراً في نفس

الضعف البشري ولم يعودا يتحركان ، أكثر من الجنة التي الى جوارهما ،

والتي تبدو وكأنها نائمة .

وعندما دخل شارل لم يوقظها ، وكانت هذه هي المرة الاخيرة ، وقد

جاء لكي يودعها الوداع النهائي .

كانت الاعشاب العطرية لا تزال ترسل الدخان ، ودوامات من البخار

الضارب الى الزرقة تختلط عند حافة النافذة مع الضباب الذي أخذ يدخل .

وكانت لا تزال هناك بعض النجوم ؛ وكان الليل عذباً .

كان وهن الشموع يتساقط دموعاً كبيرة فوق ملاءة السرير ، وأخذ

شارل ينظر اليها وهي تحترق ، ويضني عينيه بشعاع لهيها الاصفر !

كان البريق يهتز فوق ثوب الساتان الالبيض وكأنه ضوء القمر ، وقد

اختضت اما تحته . وقد خُيل اليه انها قد انسكبت خارج نفسها ، وانها قد

اختلطت في غموض مع ما يحيطها من اشياء وسط الصمت والليل ، والريح

التي تحترق الروائح الرطبة المتصاعدة .

ثم رأها فجأة في حديقة توست على المقعد الى جوار سياج الاشواك ،

او في روان في الشوارع عند عتبة منزلهم في فناء برتو ، وسمع ثانية ضحك

الغبان في مرح وهم يرقصون تحت اشجار التفاح . وكانت الغرفة مليئة بعطر شعرها ، وثوبها يُصدر حفيفاً بين ذراعيه مع صوت البرق . وكانت هي هي !

وأضى وقتاً طويلاً في تذكّر كل هذه السعادات التي اختفت ، وأوضاعها وحركاتها ونبرة صوتها . وبعد يأس كان يطرأ بأس آخر ، وهكذا باستمرار على نحو لا ينتهي ، كأموج المد الطاغية .

ودفعه حب استطلاع مخيف الى ان يتحسس في بطاء بأطراف اصابعه ، ويرفع الوشاح ، ولكنه اطلق صيحة فزع ايقظت الاثنين الآخرين ، فقاده الى اسفل في الصلاة .

ثم انت فيليسيته لكي تقول انه يطلب خصلة شعر .

فاجاب الصيدلي : « قصيَّي خصلة ! »

ولما لم تجرؤ تقدم بنفسه والمقص في يده ، وكان يرتعش بشدة ، حتى انه اخترم جلد الصدغين في عدة مواضع ، واخيراً شدّ هوميه نفسه ضد الانفعال ، وضرب بالمقص ضربتين او ثلاث ضربات قوية تركت بقعاً بيضاء وسط هذا الشعر الاسود الجميل .

وانغمس الصيدلي والقسيس من جديد في حوارهما دون ان يغفلا عن النوم من وقت الى آخر ! وكان كل منهما يتهم اخاه بهذا النوم عندما يستيقظان من جديد ، وعندئذ رش السيد بورنيسان الغرفة بالماء المقدس وألقى هوميه قليلاً من الكلور على الارض .

وكانت فيليسيته قد حرصت على ان تضع لها فوق المائدة زجاجة من الخمر وقطعة من الجبن ورغيفاً كبيراً .

وتنفس الصيدلي الصعداء حوالي الساعة الرابعة صباحاً ، وقد اوشكت قواه ان تنهار وقال : « في الحق انه لطيب لي ان استلقي قليلاً . » ولم ينجح القسيس الى من يرجوه ، وخرج لكي يؤدي الصلاة ، وعاد . ثم اكلا وشربا الكؤوس وهما يتململان قليلاً دون ان يعرفا

السبب . واثارتها تلك الغبطة الغامضة التي نحس بها بعد مشاهد الحزن وعند آخر كأس قال القسيس للصيدلي وهو يضرب على كتفه : « سنتهي بأن نستلقي ! »

والتقيا في اسفل عند مدخل البيت بالعمال الذين وصلوا . وعندئذ ظل شارل لمدة ساعتين يتحمل عذاب المطرقة التي ترن فوق الواح الخشب . ثم انزلوها في نعشها المصنوع من البلوط ووضعوا هذا النعش في النعشين الآخرين . ولكن لما كانت النقالة اعرض مما يجب ، فقد كان من الضروري ان يحشوا الفراغات بصوف حشوية ، وأخيراً عندما أقلت الغطاءات الثلاث سمرت ولحمت ، ثم عرضوها امام الباب وفتحوا الباب على مصراعيه واخذ اهل إيونفيل يتوافدون .
ووصل الأب روو فأغمي عليه في الميدان، عندما رأى القماش الأسود.

* * *

لم يكن قد تسلم خطاب الصيدلي إلا بعد الحادث بست وثلاثين ساعة. ومراعاة لاحساسه كان السيد هوميه قد حرره على نحو يستحيل معه معرفة حقيقة الامر .

لقد سقط الرجل في أول الامر ، وكأنما أصيب بتشنج عصبي . ثم فهم بعد ذلك انها لم تمت ، ولكن من الممكن ان تموت . واخيراً لبس معطفه وأخذ قبعته ووضع مهاذا في حذائه . وسافر في سرعة شديدة . وطوال الطريق كان الأب روو يلهث ويفترسه الفزع ، بل واضطر مرة ان ينزل . ولم يعد يرى ، وكان يسمع اصواتا من حوله، وأحس بأنه يفقد صوابه .

طلع النهار ورأى ثلاث دجاجات سوداء تنام فوق شجرة ، فاقشعر مرتاعاً من هذا الفأل ! وعندئذ نذر للعدراء المقدسة ثلاث حلال كهنوتية لكنيسة ، كما نذر ان يسير عاري القدمين من مقبرة برتو حتى كنيسة

فاسونفيل !

ودخل ماروم وهو ينادي عمال الفندق ، وفتح الباب في عنف بضربة من كتفه ، وقفز إلى جوال الشوفان ، وسكب في المزود زجاجة من خمر التفاح الخفيف ، وامتنى مهره الذي اخذ يقدر الشرر بحوافره الأربعة .

كان يقول لنفسه انهم سينقذونها بلا ريب ، وان الاطباء سيكشفون علاجاً بكل تأكيد . وتذكر كافة معجزات الشفاء التي سمع بها . ثم ظهرت له ميتة . وها هي امامه مستلقية على الظهر وسط الطريق . وشد العنان فاخفى الهديان !

وفي كوينكا يبوا شرب ثلاثة اقداح من القهوة الواحدة بعد الأخرى ، كي يبث الشجاعة في قلبه .

وظن انهم قد اخطأوا في الاسم عند الكتابة . وبحث عن الخطاب في جيبه ، وأحس به ولكنه لم يجرؤ على ان يفتحه .

بل وظن انها نكاية وانتقام قام به احد من الناس ، او نزوة رجل مخمور . وفضلاً عن ذلك ، فانها إذا كانت قد ماتت ، فسوف يظهر ذلك . ولكن لا ! فالحقول ليس بها شيء خارج عن المألوف ، والسما زرقاء ، والاشجار تهتز . ومر قطع من الغنم ، ولمح القرية ، ورؤي وهو يسرع محنياً فوق حصانه الذي اخذ يضربه بالعصا ضرباً شديداً نزع منه الدم . وعندما علم بالأمر سقط باكياً بين ذراعي بوفاري وهو يقول : « ابنتي ! اعمى ! طفلي ! اشرحوا لي ! »

وأجاب الآخر وهو ينتحب : « لست اعلم ! انها نعمة ! » وفرق بينها الصبدي وهو يقول : « ان هذه التفاصيل الفظيعة لا فائدة منها وسأخبر بها السيد . ها هي الناس تأتي ! احتفظوا بوقاركم شيئاً من الفلسفة »

وأراد الغلام المسكين ان يبدو قويا ، فردد عدة مرات وصاح :

« نعم الشجاعة ! »

وصاح الرجل : «فضل الله ستكون لدي الشجاعة وسأصحابها حتى النهاية . »

وأخذ الناقوس يندق وقد اصبح كل شيء معداً ، وحنان موعد السير .

وجلسوا على الكراسي الموضوعة عند المذبح الواحد الى جوار الآخر، حيث رأوا المنشدين الثلاثة يرددون الصلوات والمزمار بصفر بكل قوته، والسيد بورنسيان في كامل ملابسه يغني بصوت حار ، ويحيي بيت الرب ويرفع يديه ، ويمد ذراعيه، وليستيبودوا يروح ويغدو في الكنيسة بعصاه. والى جوار القمطر وضع التابوت بين اربعة صفوف من الشموع ، وكان شارل يود انه لو نهض ليظفنها !

ومع ذلك حاول ان يستثير التقوى في نفسه وان ينطلق في أمل الحياة الأخرى التي سيعود الى رؤيتها فيها . وأخذ يتصور أنها قد رحلت في رحلة بعيدة منذ زمن طويل ، ولكن عندما فكر انها هنا.... تحت...وان كل شيء قد انتهى ، وانهم سيحملونها الى الارض ، اخذه غيظ عنيف اسود يائس ! وكان يعتقد احياناً انه لم يعد يحس شيئاً ، وكان ينعم بهدوء ألمه ، مع اتهام نفسه بأنه شقي يائس .

وسمع على البلاط ما يشبه الرنين الجاف لعصا في نهايتها قطعة من الحديد ، وقد أخذت تضرب الارض على فترات متساوية ، وكان هذا الرنين يأتي من قاع الكنيسة . ثم سكث فجأة عند الممر الجانبي داخل الكنيسة، حيث ركع في مشقة رجل في حلة سميكة بنية . كان هيبوليت خادم «الأسد الذهبي» . وكان قد لبس ساقه الجديدة .

واخذ احد المنشدين يدور في صحن الكنيسة ليجمع «الوهبة» ، واخذت ترن القطع الكبيرة الواحدة بعد الأخرى في طبق الفضة . وصاح بوفاري وهو يرمي اليه في غضب بقطعة من ذات الخمسة

فرنكات : « اسرع اذن ! انني اتألم ! »
وشكره رجل الكنيسة بانحناءة طويلة .

كانوا يغنون ويركعون وينهضون دون ان ينتهوا او تذكر انهما حضرا الصلاة معاً ذات مرة في الايام الاولى ، وجلسا في الناحية الأخرى الى اليمين ، الى جوار الحائط . وعاد الناقوس يدق ، فحدثت حركة كبيرة في الكراسي ، ودسّ الحمالون عصيهم الثلاث تحت التابوت وخرجوا من الكنيسة !

وظهر جويستان على عتبة الصيدلية ، ثم دخل فجأة شاحبا متداعيا . كان الناس يطلون من النوافذ ليروا الموكب اثناء مروره ، وشارل امامه رافعا قامته . وكان يتصنع مظهراً شجاعا ، ويحيي - بحركة - اولئك الذين يخرجون من الازمة او الابواب ، وينضمون الى الجمهور . وكان الرجال الستة يسرون لاهئين في خطى بطيئة ، ثلاثة من كل ناحية ، والقسس والمنشدون وطفلا الجوقة يرتلون نشيد الموتى . وكانت اصواتهم تنساب فوق الحقول صاعدة وهابطة في موجات وأحيانا كانوا يخفون عند منعطفات الطريق . ولكن الصليب الفضي الكبير كان ينهض دائما بين الأشجار .

كانت النساء يتبعن الموكب ملتفات في معاطف سوداء ذات قلانس مسدلة . وكن يحملن في ايديهن شمعة كبيرة متقدة ، وقد أخذ شارل يحس بالاغماء من تكرار الصلوات ومنظر المشاعر باستمرار ، ومن رائحة الشمع ومسوح القسس التي تثير الغثيان . واخذ نسيم رطب يهب ، وشجيرات الجودار واللفت تخضر ، ونقط من الندى تسقط عند حافة الطريق فوق اسجية الاشواك ، وكافة انواع الضوضاء المرحية تملأ الأفق : فعربة تقف بعيداً وهي تتدحرج فوق مسارب الطرق ، وصوت ديك يردد ، او عدو مهر يهرب تحت اشجار التفاح ، والساء الصافية مبقعة بسحب وردية ، واعقاب الشمع الضاربة الى الزرقة تتساقط فوق الاكواخ المغطاة

بالسوسن . وكان شارل يتعرف على الافنية وهو يمر ، ويتذكر امثال هذا الصباح ، عندما كان يزور مريضاً ثم يخرج من عنده ليعود اليها . كان الغطاء الأسود المبقع بالدموع البيضاء يرتفع من وقت الى آخر فيكشف التابوت ، وأخذ الحمالون المتعبون يتباطأون . واخذت الجثة تتقدم في دفعات مستمرة كزورق يعلو ويهبط عند كل موجة .
ووصلوا !

واستمر الرجال حتى وصلوا الى اسفل ، حيث يوجد مكان في الحشائش حفرت فيه الحفرة .

واصطفوا حول الحفرة . وبينما كان القسيس يتكلم كان التراب الاحمر الذي تكوم على الحافة ينهال من الاركان باستمرار في غير ضجيج .

وعندما اعدت الحبال الاربعة ، دفعوا التابوت فوقها . ونظر اليها وهي تنزل ، . . . واستمرت في النزول !

واخيراً سمعت صدمة ، وصعدت الحبال وهي تصر ! وعندئذ أخذ بورنيسيان المعول الذي ناوله له ليستبيدوا ، وييده اليسرى دفع في قوة كمية من التراب ، بينما اخذ ينثر الماء المقدس بيده اليمنى . واصطك الحصى نخشب النعش فحدث صوتاً مزعجاً يخيل إلينا انه رنين الابدية ! واعطى القسيس مرشة الماء المقدس الى جاره ، وكان السيد هوميه ، فهزها في وقار ، ثم اعطاها لشارل الذي ركع على ركبتيه فوق الارض واخذ يرش بملء يديه وهو يصيح : «الوداع» وكان يرسل اليها القبلات ، ويزحف نحو الحفرة كأنما ليدفن معها !

وقادوه بعيداً . ولم يلبث ان هدأ . وربما يكون قد احس كجميع الآخرين بذلك الرضى الغامض من ان كل شيء قد انتهى !
وفي اثناء العودة اخذ الاب روو يدخن غليونه في هدوء ، وهذا

عمل رأى هوميه - بينه وبين نفسه - انه غير لائق . بل ولاحظ ان السيد بينيه قد امتنع عن الظهور ، وان تيفاش قد نسل بعد الصلاة ، وان تيودور خادم موثق العقود كان يرتدي حلة زرقاء وكأن الانسان لا يستطيع ان يعثر على حلة سوداء مادامت التقاليد تقضي بذلك . ولكي يشبع ملاحظاته ، كان ينتقل من جاعة الى اخرى حيث كان الناس يأسفون لوفاة ايمما ، وخاصة ليريه الذي لم يفته ان يحضر الدفن .

— هذه السيدة الصغيرة المسكينة ! اى الم اصاب زوجها !
وكان هوميه يستأنف قائلاً : « هل تعلمون انه بدوني ربما قد اقدم على امر جلل ! »

ثم يضيف : « سيدة في هذه الطبيعة ! ... ومع ذلك ، لقد رأيتها يوم السبت الماضي في حانوتي ! »

ثم يقول : « اني لم أجد وقتاً اعد فيه بعض كلمات القيهما على قبرها ! »

وعند العودة الى المنزل خاع شارل ملابسه وارتدى الأب روو معطفه الازرق ، وكان معطفاً جديداً ، ولكنه لما كان قد جفف عينيه كثيراً اثناء الطريق ، فقد خلع لونه على وجهه ، ورسمت الدموع خطوطاً في طبقة التراب التي وسخته !

وكانت الام بوفاري معهم . ولزم ثلاثتهم الصمت ، الى ان تنهد الرجل اخيراً وقال : « انك تذكر يا صديقي اني اتيت مرة الى توست عندما فقدت زوجتك الاولى ، وقد عزيتك عندئذ ! وكنت اجد ما اقوله ! . . . اما الآن . . . »

ثم اضاف في أنة انخاع لها صدره كله : « آه ! انها النهاية بالنسبة إلي ! لقد رأيت زوجتي ترحل . . . وبعدها ابني وها هي ابنتي اليوم ! »

وأراد ان يعود فوراً الى برتو قائلاً انه لن يستطيع النوم في هذا

البيت ، بل ورفض ان يرى حفيدته الصغيرة قائلاً : « لا ! لا ! ان هذا سيبالغ في آلام حزني فقط !.. قبلها لي كثيراً !.. الوداع !.. انك غلام طيب ! » وقال وهو يضرب على فخذه : « ثم انني لن انسى قط هذا ، فلا تخف ! سيصلك دائماً الديك الرومي ! »

ولكن عندما وصل الى أعلى المضبة ، التفت كما فعل في الماضي ، عندما التفت في طريق سان فيكتور بعد ان ودعها يوم زفافها ! كانت نوافذ القرية تتوهج كالمشتعلة من الاشعة الجانبية المنبعثة من الشمس الآخذة في الأفول فوق المروج . ووضع يده امام عينيه ، ولمح في الأفق مكاناً مسوراً بجدران تقوم بداخله هنا وهناك كتل سوداء من الاشجار بين الحجارة البيض . ثم استمر في طريقه بخطوات وثيدة ، وذلك لأن مهره كان يعرج .

وظل شارل وأمه يتحدثان في المساء وقتاً طويلاً بالرغم من تعبها ، فتحدثتا عن الايام الماضية وعن المستقبل . فن المحتمل ان تأتي الى ايونفيل ، وان تشرف على منزله وان لا يفترقا بعد ذلك . وكانت لبقة حامية معتبلة - بينها وبين نفسها - بأنها ستسترد محبة كانت قد افلقت منها منذ سنين عدة . ودقت الساعة نصف الليل . وكانت القرية كعادتها صامتة ، وشارل ساهراً يفكر دائماً فيها .

وكان رودولف ، الذي امضى سحابة يومه في الضرب في الغابة للتسلية ، ينام في هدوء بقصره ، كما كان ليون ينام ايضاً هناك ! وكان هناك شخص آخر لا ينام في هذه الساحة .

ف فوق القبر ، وبين اشجار الصنوبر ، كان طفل يبكي راكعاً وصدره يتصدع من النحيب ، ويلهث في الظلام تحت ضغط ندم لا حد له ، ندم أكثر رقة من القمر ، وأكثر عمقاً من الليل ! وفجأة ، قرع السياج فاذا به ليستبيودوا الذي اتى لكي يبحث عن جاروفه الذي كان قد نسيه منذ هنيهة ، فعرف جويستان وهو يتسلق الحائط ، وعندئذ علم حقيقة

ذلك الشرير الذي كان يسرق بطاطسه .

* * *

وفي اليوم التالي استرجع شارل الطفلة، وطلبت امها فاجيبت بأنها غائبة وانها ستحمل اليها لعباً . وتحدثت عنها برت عدة مرات ثم لم تعد تفكر فيها بعد مضي شيء من الزمن . وكان مرح هذه الطفلة يحزن بوفاري ، الذي كان عليه ان يتحمل تعازي الصيدلي التي لا تنتهي .

وبعد قليل ابتدأت من جديد مسائل المال . فالسيد ليريه يستثير صديقه فانسار ؛ وشارل يتعهد بمبالغ مبهظة ، وذلك لانه لم يرد ان يوافق على بيع شيء من الأثاث الذي كانت تملكه ، مما احتق أمه ، ولكنه قابل حنقها بحق أكبر ، وكان قد تغير تغيراً تاماً فغادرت امه المنزل ! وعندئذ اخذ كل انسان يستغل الفرصة ، فدموازيل لامبرير تطالب بأجر دروس ستة اشهر ، بالرغم من ان ايمما لم تأخذ قط درساً واحداً ، بصرف النظر عن تلك المخالفة التي كانت قد اطلعت ايمما شارل عليها ، فلقد كان الأمر انفاقاً بينهما . وطالب مؤجر الكتب باشتراك ثلاث سنوات ، وطالبت الأم روليه بأجرة نقل عشرين خطاباً . وعندما طلب شارل ايضاحات كانت من اللباقة بحيث ردت قائلة : « آه ! لست اعلم ! انها كانت من اجل المعاملات . »

وعند دفع كل دين كان شارل يعتقد انه قد انتهى . ولكنه كان يجد غيره باستمرار .

وطالب بمؤخر زيارته الطبية فأطلعه العملاء على خطابات ارسلتها زوجته . وعندئذ اضطر الى ان يعتذر .

واصبحت فيليسييتيه ترتدي الآن اثواب السيدة ، وان لم ترتدها كلها ، وذلك لأنه قد احتفظ ببعضها ، وكان يذهب لراها في غرفة الزينة حيث يجلس نفسه . وكانت فيليسييتيه في قدّها تقريباً ، وكثيراً ما كان

شارل يتملكه الوهم عندما يراها من الخلف فيصبح قائلاً : « اوه !
ابقي ! ا بقي ! »

ولكنها في عيد العنصرة رحلت عن ابونفيل، وقد انتزعها تيودور بعد
ان سرقت كل ما تبقى من الثياب .

وحوالي نفس التاريخ تشرفت مدام ديوي الارملة بأن تجربه بزواج
السيد ليون ديوي ابنها وموثق العقود في ايفلو ، من مدموازيل ليكادي
لييف من قرية بنديفيل . وبين عبارات التهاني التي وجهها اليها كتب
هذه العبارة : « كم كانت زوجتي المسكينة ستسر ! »

وبينا كان يتسكع يوماً في المنزل دون هدف صعد الى مخزن الحبوب ،
وأحس تحت خفه بكرة صغيرة من الورق الرفيع وفتحها وقرأ : « الشجاعة
يا ايما ! الشجاعة ! انني لا اريد ان اتسبب في شقاء حيائك » . وكان
هذا خطاب رودولف وقد سقط على الارض بين الصناديق وبقي هناك ،
ثم دفعته ريح الكوة نحو الباب . وظل شارل جامداً فاغر الفم في نفس
هذا المكان الذي ارادت ان تموت فيه ايما فيما مضى ، عندما وقفت فيه
وهي اشد شحوباً منه . واكتشف حرفاً - صغيراً في اسفل الصفحة
الثانية ، وتساءل عمن يمكن ان يكون صاحب هذا الامضاء . ثم تذكر
ملاحقات رودولف ، واختفائه فجأة ، ومظهر الحرج الذي لقيه به بعد
ذلك مرتين او ثلاثاً . ولكن نعمة الخطاب الوقورة ضللته .

وقال لنفسه ربما يكونان قد تحابا حباً افلاطونياً !

وفضلاً عن ذلك فان شارل لم يكن من اولئك الذين يتعمقون الاشياء ،
وتفهم امام الأدلة ، وغرقت غيرته غير المؤكدة في فيض حزنه .
وأخذ يفكر قائلاً لنفسه : « لا بد انهم كانوا يعبدونها ، ولا شك
ان كافة الرجال كانوا يطمعون فيها . » ولاحث له عندئذ اكثر جمالاً ،
وأخذ يستشعر نحوها رغبة دائمة عارمة ألهمت يأسه ولم تكن لها حدود ،
لأنها قد اصبحت الآن مستحيلة الاشباع .

ولكي يروقها كما لو كانت لا تزال حية، اعتنق افكارها وكل ما كانت تفضله : فاشترى حذاء مصقولاً ، واعتاد اربطة الرقبة البيضاء ، ووضع دهاناً على شاربه ، وحرر مثلها كمبيالات تحت الطلب ، وأخذت نفسه وهي في القبر .

واضطر الى ان يبيع الفضيات قطعة وراء قطعة ، ثم باع اثاث الصالون ، وقد اخذت كافة الغرف تخلو ، ولكن الحجرة - حجرتها ظلت كما كانت من قبل .

وبعد العشاء كان يصعد اليها ويدفع المائدة المستديرة امام النار ، ويشد كرسيها قريباً منه ويجلس في مواجهته ، وشمعدان يتقد في احد المشاعل المذهبة وبرت الى جواره تلون الصور .

وكان الرجل المسكين يتألم اذ يراها سيئة الملابس ، وحذاؤها بغير رباط ، وهلابسها ممزقة من تحت الإبط حتى مقعدها ، وذلك لان الخادمة لم تكن تعنى بأمرها . ولكنها كانت بالغة الرقة والल्पف ، وكانت تنحني في رشاقة ، تاركة شعرها الاشقر الجميل يتهدل فوق خديها الورديتين ، حتى لكانت تغمره متعة لا حد لها - سرور ممزوج بالمرارة كتلك الانبذة السيئة الصنع التي تفوح منها رائحة القطران ! وكان يصلح ألعابها ويصنع لها قباقيب من الكرتون ، او يعيد خياطة بطن عرائسها الممزقة . وعندما كانت تقع عيناه على صندوق الخياطة او شريط مطروح ، او حتى على دبوس بقي في شق بالمائدة ، كان يضل في الاحلام ، ويبدو عليه من الحزن الشديد ما يجعلها حزينة مثله .

ولم يعد أحد يأتي الآن ليراه ، وذلك لأن جويستان قد هرب الى روان حيث اصبح صبي بقال . وأخذ ابناء الصيدلي يقللون شيئاً فشيئاً من زيارة الطفلة . ولم يكن السيد هومييه يحرص على استمرار هذه الالفة مراعاة للفارق بين مركزيهما الاجتماعيين !

وكان الأعمى ، الذي لم يستطع ان يشفيه بمرهمه ، قد عاد الى هضبة

بواجيوم ، حيث اخذ يقص على المسافرين المحاولة الفاشلة التي قام بها الصيدلي ، الى حد ان هوميه عندما كان يذهب الى المدينة ، كان يخفي نفسه خلف ستائر « العصفورة » لكي يتجنب لقاءه . وكان يمقته . ومراعاة لسمعته، اراد بكل قوته ان يتخلص منه ، فقام ضده بحملة خفية اظهرت عمق ذكائه وإجرام غروره . فخلال ستة اشهر متتابعة، كان الناس يطالعون في صحيفة فنال دي روان فذلكات مثل « ان جميع من يتوجهون نحو مقاطعات بيكاردي الحصبة، قد لاحظوا، بلا ريب ، في هضبة بواجيوم شخصاً تسمى مصاباً بقرحة بشعة في وجهه ، وهو يضايقك ويلحقك ، ويجبي ضريبة فعلية من المسافرين ، فهل نحن لا نزال في ايام القرون الوسطى البشعة ، حيث كان يسمح للمتشردين ان يعرضوا في الميادين العامة البرص والقراع اللذين يجلبونهما معهم من الحرب الصليبية ؟ » أو « بالرغم من القوانين التي صدرت ضد التشرذ فان مداخل مدننا الكبيرة لا تزال موبوءة بعصابات من المتسولين، وانك لترى منهم من يتجول وحيداً ، وهؤلاء قد لا يكونون الاقل خطراً . فقيم يفكر سادتنا الحكام ؟ »

ثم اخترع هوميه قصتين : احدهما هي قوله « بالأمس في هضبة بواجيوم حدث ان حصاناً جامعاً ... » ثم استمر في القصة يسرد حادثة سببها وجود الاعمي .

ونجح عن ذلك ان حبسه ثم اطلقوا سراحه ، فاستأنف نشاطه كما استأنف هوميه ايضاً حملته ، وكان صراع انتصر فيه الصيدلي ، وذلك لأن عدوه حكم عليه بالحجز الابدي في ملجأ !

وشجعه هذا النجاح . ومنذ ذلك الحين، لم يحدث في المقاطعة ان ديس كلب او احترق مخزن او ضربت امرأة الا احاط الجمهور بها علماء ، ورائده دائماً هو حب التقدم وكره القسيس ! وكان يعقد دائماً مقارنات بين المدارس الاولية، والرهبان الغارقين في الجهل ، متحاملين على الاخيرين ، مذكراً بمذبة بارتلمي من اجل منحه مائة فرنك للكنيسة . وكان يفضح

القصاص ويقذف بالتحدي ، وعلى حد تعبيره كان « يقوض » ، حتى
لقد اصبح خطراً !

ومع ذلك ، فانه كان يحس بالاختناق داخل الحدود الضيقة للثقافة ،
ولم يلبث ان شعر بضرورة تأليف الكتب ! وعندئذ ألف « احصاء عام
عن مقاطعة ابونفيل مذيبل بملاحظات عن الطقس » ودفعه الاحصاء الى
الفلسفة ، فشغل نفسه بالمسائل الكبيرة : مشكلة اجتماعية - تهذيب اخلاق
الطبقات الفقيرة - تربية الاسماك - الكاوتشوك - السكك الحديدية .. الخ .
وأصبح ينجل من ان يكون برجوازيًا ، فتصنّع مظهر الفنانين ، وأخذ
يدخن ، واشترى تماثيل صغيرين أنيقين من طراز بمبادور لكي يزين
صالونه .

ولم يهمل قط الصيدلة ، بل على العكس ، كان يتابع الاكتشافات ، ويلاحق
الحركة العامة التي اثيرت عن الشوكولاتة ! وكان اول من ادخل في
مقاطعة السين السفلى « الشوكا » و « الريفالينتيا » . وتحمس لسلاسل الكهرباء
المائية المسماة « بولفار ماخر » وحمل بنفسه واحدة منها . وفي المساء
عندما خلع صدره المصنوع من الفانللا ، ظلت مدام هوميه مبهوتة امام
اللوب الذهبي الذي اختفى تحته ، وازدادت حباً وحماسة لهذا الرجل
المشدود الوثاق اكثر من رجل متوحش ، والاكثر روعة من مجوسي !!
وكانت لديه افكار طيبة حول قبر ائما ، فاقترح اولاً جذع عمود
يغطي بالقماش ، ثم هرمًا ، ثم معبدًا كمعابد فستا ، وشيئًا كالتقو او
كومة من الانقاض ! وفي كافة هذه الخطط ، لم يكن هوميه يغفل
شجر السيسان الباكسي الذي كان يعتبره الرمز الحتمي للحزن !

وقام هو وشارل معاً برحلة الى روان لكي يريا القبور عند متعهد
مقابر ، مصطحبين معها فناناً مصوراً يدعى فوفريلار كان صديقاً لبريدو .
وكان يسرد طوال الوقت النكات . واخيراً بعد ان فحصوا ما يقرب
من المائة رسم ، اوصوا على واحد منها ، وقاموا برحلة اخرى الى روان

حيث صمم شارل على ضريح يحمل على وجهيه الاساسيتين « حورية تمسك مشعلاً منطفأً » .

وأما عن النقش الكتابي ، فان هوميه لم يجد شيئاً اجمل من عبارة لاتينية ابتدأها بكلمتي : « استريجي ايتها المسافرة » ، باللاتينية ، ثم وقف عند هذا، واخذ ينقب في خياله ويردد باستمرار عبارة : « استريجي ايتها المسافرة » . واخيراً اكتشف عبارة : « خفف الوطاء انها زوجة محبة » باللاتينية . فاستقر عليها الرأي .

وحدث شيء عجيب، هو ان بوفاري اخذ ينسى ايمامع تفكيره المستمر فيها ، وأخذ ينتابه اليأس من احساسه بهروب هذه الصورة من ذاكرته وسط ما يبذل من مجهودات لاستبقائها ! ومع ذلك ، فانه كان يحلم بها كل ليلة ، وكان الحلم لا يتغير ، فكان يقرب منها، ولكن عندما يحاول ضمها ، كانت تتساقط تراباً بين ذراعيه !

ولمدة اسبوع كان يذهب الى الكنيسة في المساء . بسل وزاره السيد بورنيسيان مرتين او ثلاثاً ثم تخلى عنه ، وفضلاً عن ذلك، فان هوميه أخذ يقول ان الرجل قد انقلب الى التعنت والتعصب ، وأخذ يلعن روح الاحلاد المتفشية . ولم يكن يفوته عند حضور الموعدة كل خمسة عشر يوماً ان يقص احتضار فولتير الذي مات، كما يعلم الجميع، وهو يلتهم برازه ! وبالرغم من الافتصاد الذي كان يعيش فيه بوفاري، فانه كان بعيداً عن ان يستطيع استهلاك ديونه القديمة . ورفض ليريه ان يجدد اية كميالة، واصبح الحجز وشيكاً ، وعندئذ التجأ الى امه التي وافقت على ان تتركه يرهن ممتلكاتها ، ولكنها ارسلت اليه توبيخاً كثيراً ضد ايمامع . وطلبت في مقابل تضحياتها شالاً افلتت من سرقة فيليسيته ، ولكن شارل رفض ان يعطيها اياه، ففسدت بينها العلاقات !

وقامت هي بالاجراءات الاولى للصلح ، بأن اقترحت عليه ان تأخذ عندها الطفلة التي ستسري عنها في المنزل . ووافقت شارل ، ولكن عند

وقت الفراق، خاتته شجاعته كلها ، وعندئذ أصبحت التقطيعه نهائية كاملة !
وكلما حُرِّم من احبائه ازداد حبه لطفلته ، ومع ذلك ، فانها أخذت
تقلقه لانها أصبحت تسعل احياناً ، وظهرت على خديها بعض بقع حمراء .
وفي مواجهته ، كانت تقوم مزدهرة مرحة أسرة الصيدلي الذي يعمل
جمع من الناس على ارضائه . فتابليون يساعده في العمل ، وأتالي تطرز
له طاقيه إغريقية ، وايرما تقص حلقات من الورق لتغطية المربى ،
وفرنكلين يحفظ عن ظهر قلب جدول فيثاغورس ، وبالجملة كان اسعد
الآباء وخير الرجال حقاً !

ولكن هذا وهم خاطيء ، فان طموحاً ملحاً كان يرضيه ، ذلك
لأن هوميه كان يريد نوط الصليب ، وكانت المبررات لا تنقصه :

- ١ - ففي ازمة الكوليرا تميز باخلاص لاحد له .
 - ٢ - نشر على نفقته الخاصة عدة كتب ذات نفع عام ، وباستطاعته ،
ان يذكر تقريره عن نبيذ التفاح وصناعته ونتائجه ، ثم ملاحظته عن
برغوث الاغنام ، التي ارسلها الى المجمع العالمي وكتابه عن الاحصاء . واخيراً
رسالته في الصيدلة ، فضلاً عن انه عضو في عدة جمعيات علمية فيما
يزعم ، وان يكن في الحقيقة عضواً في جمعية واحدة .
- وكان يصبح مزهواً : « بل أما يكفي بروز مالي من فضل في
حالات الحرائق !؟ »

وعندئذ أخذ هوميه يميل نحو السلطات ، فكان يؤدي سرّاً خدمات
كبيرة لمدير المقاطعة في الانتخابات . ثم باع نفسه ، وأخيراً انحدر الى
مستوى الرقيق ، بل ورفع عريضة الى الملك يضرع اليه فيها ان ينصفه
وسماه « ملكنا الصالح » وقارنه بهزي الرابع !

وفي كل صباح ، كان الصيدلي يهرول الى الجريدة لكي يكتشف فيها
نبأ الانعام عليه ، ولكن النبأ لم يأت ! واخيراً لم يطق صبراً فرسم في
حديثه بواسطة الحشائش ، ما يشبه نجمة الشرف مع دائرتين صغيرتين من

الأعشاب تخرجان من القمة لكي تحكما الشريط ! وأخذ يتتزه حولها مربع الذراعين ، وهو يفكر في تراخي الحكومة ونكران الناس للفضل ! ومن باب الاحترام ، او بسبب نوع من الحساسية كان يدفعه الى التباطؤ في التنقيب عما في المنزل - لم يكن شارل قد فتح بعد جزءاً من ادراج المكتب المصنوع من خشب الورد الذي كانت ايمما تستخدمه عادة . وأخيراً جلس يوماً امامه وأدار المفتاح ، وشدّ درجاً . واذا به يضم جميع خطابات ليون . وكانت هذه المرة اكثر من دستة ، فالتهمها حتى آخر واحد منها ، وفتش في كافة الاركان ، وكافة الادراج، وكافة الاثاث، وخلف الجدران، وهو ينتحب ويصبح وقد فقد صوابه بل جن . واكتشف صندوقاً حطمه بضربة قدم ، فوثبت في وجهه صورة رودولف وسط خطابات غرام محتدمة !

ودهش الناس من انهياره ، فانه لم يعد يخرج ولم يعد يستقبل احداً ، بل اصبح يرفض الذهاب لرؤية مرضاه . وعندئذ زعموا انه قد اخذ يجلس نفسه لكي يشرب الخمر .

ومع ذلك ، فان احد الفضوليين كان احياناً يتسلق سور الحديقة فيرى في دهشة، رجلاً طويل اللحية، مغطى بالاسمال، جموحاً، يبكي بصوت مرتفع وهو يسير في الحديقة .

وفي الصيف كان يأخذ في المساء طفلة الصغيرة معه ، ويقودها الى المقابر . وكانا يعودان عندما يطبق الليل ، ولا يصبح في الميدان غير ذلك المنبعث من كوة بينيه .

ومع ذلك، فان لذة أله لم تكن كاملة ، وذلك لأن احداً لم يكن حوله يشاركه اياها . فكان يقوم بزيارات للأُم ليفرانسوا لكي يستطيع التحدث عنها . ولكن صاحبة الفندق لم تكن تصغي اليه الا بأذن واحدة ، لأن لديها هي الاخرى اشجانها . وذلك لأن السيد ليريه قد افتتح محلاً باسم «روائع التجارة» ، كما ان هيفير، الذي كان يتمتع بشهرة كبيرة في

قضاء المهات ، قد طلب مزيداً من الاجر وهدد بأن يعمل عند المنافسين .
وذات يوم بينما هو ذاهب الى سوق ارجي لكي يبيع آخر ما يملك
- وهو حصانه - لقي رودولف !

وشحب لونها عندما رأى احدهما الآخر . وتمم رودولف بعض
عبارات الاعتذار ، لانه كان قد اكتفى بإرسال بطاقته . ثم تجرأ ، بل
وصلت به الجسارة حد دعوته لشارل لكي يتناول معه زجاجة من البيرة
في الحانة ، وذلك لاننا كنا في شهر اغسطس ، وكان الجو شديد الحرارة !
واتكأ بمرفقه في مواجهته واخذ يمضغ سيجارة وهو يتحدث ، وقد
ضل شارل في الاحلام امام هذا الوجه الذي احبه . وخيل اليه انه يرى
شيئاً منها ، وقد احس بما يشبه السحر ، وود ان لو كان هو هذا الرجل !
واستمر الآخر يتحدث عن الزراعة والحيوانات والسماد ، مغلفاً -
بعبارات مبتذلة - كافة الثغرات التي يمكن ان ينساب منها اي تلميح .
ولم يكن شارل ينصت اليه ، وأدرك رودولف ذلك - وأخذ يتبع
- على حركات وجهه - مرور الذكريات . فهو بحمر شيئاً فشيئاً ،
وخياشيمه تنبض في سرعة ، وشفته تترعدان . بل ومرت لحظة امتلاً
شارل فيها بغضب قاتل ، وحدد بصره الذي اخذه الفرع ، فقطع الحديث .
ولكن نفس الانهيار الحزين لم يلبث ان عاد الى الظهور على وجهه .
وقال : « اني لا اضمر لك سوءاً ! »

وظل رودولف صامتاً ، ووضع شارل رأسه بين يديه ، ثم استأنف
بصوت خامد ، ونغمة مستسلمة لآلام لا حد لها قائلاً : « لا . اني
لم أعد اضمر لك سوءاً ! »
بل وأضاف كلمة كبيرة كانت الوحيدة التي قالها في حياته حتى الآن
وهي : « انه خطأ القدر ! »

ووجدها رودولف - الذي كان قد قاد القدر - كلمة تافهة بالنسبة
لرجل في وضع شارل المضحك ، بل حقيرة بعض الشيء !

وفي اليوم التالي ، ذهب شارل لكي يجلس على المقعد الموجود تحت العريشة ، وممرت اشعة على عريشة العنب، فرسمت اوراق الكرم ظلها على الرمل ، وكان الياسمين يعطر السماء الزرقاء ، والذباب يطن حول السوسن المزهري . وأخذ شارل يخنق كشاب يافع من اشاعات الحب الغامضة التي انتفخ بها قلبه الحزين .

وفي الساعة السابعة اتت الطفلة برث التي لم تكن قد رآته بعد الظهر كله لكي تستدعيه لتناول العشاء .

كان طارحاً رأسه على الجدار، مغلق العينين ، فاغر الفم ، ممسكاً بيديه خصلة طويلة من الشعر الاسود .
وقالت : بابا .. هيا اذن .

وظنت انه كان يريد ان يلعب ، فدفعته في رفق ، فسقط على الارض ميتاً !
وبعد ذلك بست وثلاثين ساعة ، حضر السيد كانيفيه بناء على طلب الصيدلي وشرحه فلم يجد شيئاً !

وبعد ان بيع كل شيء ، بقي اثنا عشر فرنكاً وخمسة وسبعون سنتياً استخدمت في دفع اجرة سفر مدموازيل بوفاري الى جدتها ، التي ماتت هي الاخرى في السنة التالية . ولما كان الأب روي مصاباً بالشلل ، فقد تعهدتها خالة كانت فقيرة ، فأرسلتها الى مصنع غزل قطن لكي تكسب عيشها !

ومنذ موت بوفاري ، تتابع ثلاثة اطباء على ايونفيل دون ان يستطيعوا النجاح ، لأن السيد هوميه كان لا يلبث ان يتغلب عليهم . فربانته جهنميون ، والسلطة العامة تجامله ، والرأي العام يحميه .
ولقد حصل اخيراً على صليب الشرف !

مرافعة الاتهام والدفاع والحكم

في

القضية التي رفعت على المؤلف

امام محكمة جنح باريس

الغرفة السادسة

برئاسة السيد دي بارل

جلسة ٣١ يناير و ٧ فبراير سنة ١٨٥٧

النيابة العامة

ضد

السيد جوستاف فلوبر

مرافعة آهام المحامي العام السيد ارنت بينار

ايها السادة

عند مواجهة هذه القضية تجد النيابة العامة نفسها امام صعوبة لا تستطيع ان تخفيها وهي صعوبة ليست من طبيعة الاتهام ذاته ، فالإساءة الى الاخلاق العامة والى الدين ، كل هذه عبارات لا شك غامضة الى حد ما ومطاطة ، بحيث يتحتم تحديدها . ولكنني عندما اوجه الحديث الى نفوس مستقيمة علمية ، يصبح من السهل التفاهم في هذا الصدد ، وتحديد ما اذا كانت هذه الصفحة من كتاب تحمل اساءة الى الدين او الى الاخلاق . والصعوبة ليست في اتهامنا ، بل انها على الاصح وبلاخرى في طول الكتاب المعروض عليكم للحكم فيه ، فهو قصة كاملة . وعندما يعرض عليكم مقال في صحيفة يرى الانسان فوراً اين بتبديء الجريمة واين تنتهي ، وتقرأ النيابة العامة مادة القانون وتعرضها على تقديركم . واما هنا فاننا لسنا بازاء مقال في صحيفة ، بل بازاء قصة كاملة ، بتبديء في اول اكتوبر ، وتنتهي في ١٥ ديسمبر ، وتستمر على ست دفعات في مجلة ريفي دي باريس Revue de Paris ١٨٥٦ فما العمل في هذا الوضع ؟ وما دور النيابة العامة ؟ هل تقرأ الرواية كلها ؟ هذا مستحيل . ومن ناحية اخرى فان قراءة النص موضوع المأخذة وحده يعرضنا للوم له ما يبرره . فمن الممكن ان يقال لنا : انكم اذا لم تعرضوا القضية بكافة اجزائها ، فاكم تهاون ما يسبق وما يلحق الفقرات المدانة . ومن الواضح انكم تخفون القضية بتضييق مجال المناقشة . ولكي نتجنب هذا الاعتراض المزدوج ليس هناك غير منهج يمكن اتباعه ، وهو ان نقص عليكم اولاً القصة كلها دون ان نقرأ او ان ندين اية فقرة ، ثم نقرأ او ندين مع ذكر النص ، واخيراً ان نجيب على الاعتراضات التي يمكن ان تنهض ضد الخطة العامة للاتهام . ما هو عنوان القصة ؟ مدام بوفاري . انه عنوان لا يبيد شيئاً في لاته ، ولكن هناك عنواننا

آخر بين قوسين (اخلاق الريف) ، وهذا ايضا عنوان لا يفسر فكرة المؤلف ولكنه يشعرنا بها . فالاولف لم يرد ان يساير هذا المذهب الفلسفي او ذاك صحيحا كان او خاطئا ، وانما اراد ان يرسم لوحات خاصة . وسوف ترون اية لوحات هي !!! ولا شك ان الزوج هو الذي يبدا الكتاب وهو الذي يختتمه . ولكن الصورة الاعظم جديا في الكتاب ، والتي تلقي الضوء على اللوحات الاخرى هي بلا ريب صورة مدام بوفاري .

وهنا اقص ولا اورد القص .

لقد اخذ الزوج من المدرسة العامة ، ومن الواجب ان نقول ان الطفل كان ينيء منذ ذلك الحين عما سيكون الزوج ، فهو بالغ الثقل والانكماش — انه منكش بحيث انه عندما يصل الى المدرسة ويسأل عن اسمه يبتدىء بان يجيب قائلا : شارليوفري وهو ثقيل بليد بحيث يعمل دون ان يتقدم ، فهو لم يكن قط الاول في فصله كما لم يكن قط الاخر . وهو « هزاة » ان لم يكن انموجا للفشل في المدرسة . وبعد الدراسة في المدرسة العامة انتقل لدراسة الطب في روان ، في غرفة بالطابق الرابع ، تطل على اللسني ، استاجرتها له امة عند صاحبها مصبغة من معارفها . وهناك تلقي دراساته الطبية ووصل شيئا فشيئا الى ان يحصل — لا على شهادة طبيب — بل على شهادة معاون صحة . وكان يتردد على الحانات ويتخلف عن الدروس ، ولكن لم تكن له غواية اخرى غير لعب الدومينو . وهذا هو السيد بوفاري .

وهم بالزواج فوجدت له امة زوجة هي ارملة محضر في ديبب ، وهي امرأة فاضلة قبيحة الشكل في الخامسة والاربعين من عمرها ولها دخل سنوي مقداره الف ومائتا جنيه ، الا ان موثق العقود الذي كان لديه راس المال الذي يدر هذا الدخل رحل ذات صباح الى اميركا . وتاثر الزوج بهذه الحادثة غير المنتظر ، واهتز كيانها كله حتى انها ماتت من التاثر . وهذا هو الزواج الاول وهذا هو المشهد الاول .

وفكر السيد بوفاري بعد ان اصبح ارملة ان يتزوج ثانية واخذ ينقب في ذكرياته ، ولم يكن في حاجة الى ان يذهب بعيدا فقد تذكر فورا بنت احد الزارعين المجاورين . وكانت هذه الفتاة قد اثارت على نحو غريب شكوك مدام بوفاري . والفتاة هي ايبا روو ولم يكن للزارع روو غير بنت واحدة رباها في دير ارسلين برون ، وكانت قليلة الاهتمام بالزرعة وكان ابوها يريد ان يزوجها وتقدم اليها معاون الصحة ولم يتشدد في الباتنة . وانتم تدركون انه مع مثل هذا الاستعداد من الجانبين لا بد ان تسير الامر بسرعة . وتم الزواج وركع السيد بوفاري على ركبتيه امام زوجته وهو اسعد الناس واعى الأزواج وهمه كله هو ان يسارع الى تحقيق رغبات امراته .

وهنا يمضى دور السيد بوفاري ويصبح دور مدام بوفاري هو المحور الجدي للكتاب .

ايها السادة

هل احبت مدام بوفاري زوجها او حاولت ان تحبه ؟ لا ! ومنذ البدء حدث ما يمكن ان نسويه بمشهد التدريب . فمنذ تلك اللحظة انفتح امامها افق آخر ، ولاحت لها حياة جديدة . فمالك قصر فوييسار يقيم حفلا كبيرا ، ويدعو معاون الصحة كما يدعو زوجته ، وكانت هذه الحفلة بالنسبة اليها بمثابة تدريب على كافة انفعالات اللذة . فرات فيها دوق لافريير الذي كانت له غزوات في البلاط ، ورقصت الفالس مع فيكونت واحست باضطراب مجهول . ومنذ تلك اللحظة اخذت تمشي حياة جديدة ، واصبحت لا تحتمل زوجها ولا جميع ما يحيط بها . وبينما كانت تبحث في يوم داخل احدى قطع الاثاث عثرت على سلك من الحديد جرح اصبعها وكان

سلك باقة زواجها . ولكي يخلصها من السم الذي اخذ يضئها ضحى السيد بوفاري بزياته
 واتى لكي يقم في ايونيل . وهنا ياتي مشهد من مشاهد سقوطها . ونحن بذلك نصل في
 تسلسل القشر الى الجزء الثاني . فمدام بوفاري تصل الى ايونيل ، واول رجل تلقاه
 وتعلق بمنظرانها لم يكن موثق عقود تلك الجهة ، بل كان الكاتب الوحيد الذي يعمل عند
 هذا الموثق . وهذا الكاتب هو ليون دي بون ، وهو شاب صغير يدرس القانون وسيرحل الى
 العاصمة . واي انسان آخر غير السيد بوفاري كان لا بد ان يلقى من زيارات هذا الكاتب
 الشاب ، ولكن السيد بوفاري من السذاجة بحيث يؤمن بطهارة زوجته . كما ان ليون القليل
 الخبرة يشمر نحوها بنفس الاحساس ويرحل . وتضيق الفرصة . ولكن القرص تتجدد في
 سهولة ، ففي احدى الجهات المجاورة لايونيل يوجد المدعو رودلف بولتج ، وهنا الفت نظركم
 الى انني اكفي بالقصص . وهو رجل في الرابعة والثلاثين من عمره حيواني المزاج ، وكانت
 له انتصارات مع النسوة السهلة القيادة ، وكانت له عندئذ عشيقه من الممثلات وراى مدام
 بوفاري وهي امرأة شابة ساحرة ، فصمم ان يتخذ منها عشيقه . وكان الامر سهلا تكفيه ثلاث
 فرص . ففي المرة الاولى اتى ليشاهد المعرض الزراعي ، وفي المرة الثانية اتى ليزورها ،
 وفي المرة الثالثة صباحها في نزهة على ظهر حصان راها الزوج ضرورية لصحة زوجته . وعندئذ
 كان سقوطها من اول زيارة للغابة . وتعددت المقابلات في قصر رودلف وفي حديقة معاون الصحة
 بنوع خاص ، ووصل المشيخان الى اقصى حدود المدة . فمدام بوفاري تريد ان يخطفها
 رودلف ، ورودلف لا يجرؤ ان يقول لها لا . ولكنه يكتب اليها كتابا يحاول ان يخل فيه باسباب
 عدة على انه لا يستطيع ان يختطفها . وصمقتها خيبة الامل التي حملها هذا الخطاب
 فاصيبت بحمى مخيبة ظهرت في اعقابها حمى تيفوية ، وقتلت الحمى الحب ، ولكن المريضة
 بقيت ! وهذا هو المشهد الثاني .

واصل الى الثالث . فسقوطها مع رودلف كان قد تبمه رد فعل ديني ، ولكنه كان قصيرا
 فمدام بوفاري تستسقط من جديد . وكان الزوج قد راى ان المسرح مفيد لتقائه زوجته ،
 فصحبها الى روان . وفي اللوج المواجه للوج الذي يحمله السيد والسيدة بوفاري كان يوجد
 ليون ديبيوي كاتب موثق العقود الشاب ، الذي يدرس القانون في باريس ، والذي كان قد
 عاد من العاصمة واسع الثقافة واسع التجربة . وذهب ليرى مدام بوفاري وليقترح عليها
 موعدا فاشارت عليه مدام بوفاري بالكاتدرائية . وعند الخروج من الكاتدرائية اقترح ليون
 ان تصعد في عربة ، فقاومت اول الامر ولكن ليون اخبرها ان هذا يحدث في باريس ! وعندئذ
 لم يعد لديها اعتراض . وكان السقوط في العربة . وتعددت المقابلات . مع ليون كما كانت مع
 رودلف عند معاون الصحة ، ثم في غرفة استؤجرت في روان ، واخيرا وصلت الى التمتع من
 هذا الحب الثاني نفسه . وهنا يبدأ مشهد اليوس وهو الاخير من الرواية .

كانت مدام بوفاري قد بذرت ، وملت الهدايا على راس رودلف ، ورأس ليون ، وكانت
 تعيش حياة بذخ . ولكي تواجه كل هذه النفقات كانت قد حررت عدة كمبيالات لاذن حاملها ،
 وحصلت من زوجها على توكيل عام لكي تدبر الثروة المشتركة . وكانت قد التقت ببراب كان
 يخصم هذه الكمبيالات التي لم تكن تدفع عند حلول موعدها فكانت تجدد باسم زميل له .
 ثم اتت اول ورقة مدفوعة ، ثم الانذارات والاحكام والحجز ، واخيرا اعلان بيع اثاث السيد
 بوفاري الذي كان يجهل كل شيء . وضاعت مدام بوفاري السبل ، فالحقت تطلب التقود من
 جميع الناس ، ولكنها لم تحصل على شيء من احد . فليون ليس لديه شيء ، وهو يرتد

مذعورا امام جريمة يوحى له بها لكي يحصل على نقود . وانحدرت مدام بوفاري على كافة درجات النذل ، فذهبت الى رودلف ، ولكنها لم تنجح فرودلف ليس لديه ثمانية آلاف فرنك . ولم يبق لها غير مخرج واحد ، فهل تعذر الى زوجها ؟ لا وهل تتفاهم معه ؟ ولكن هذا الزوج سيكون من الكرم بحيث يعفو عنها ، ولكن هذه مثلة لا تستطيع ان تحتلها ، فتتناول السم . وعندئذ تأتي مشاهد مؤلمة فيها هو الزوج الى جوار جسم امراته البارد وما هو يامر بان يحضروا ثوب زفافها وان يلفوها فيه ، وان توضع جثتها في نموش ثلاثة .

وفي احد الايام يفتح درجا فيجد صورة رودلف وخطاباته وخطابات ليون . وقد يعتقدون ان الحب سيسقط عنئذ ؟ ولكن لا . لا . انه على العكس يزداد التهابا فهو يتحسس لتلك المرأة التي تملكها غيره بسبب نكريات اللذة التي خلفتها له ، ومنذ تلك اللحظة يهمل زبائنه واسرته ، ويترك لمهب الريح ما تبقى من ثقات ثروته . وفي احد الايام يجدونه ميتا في عريشة حديقته وهو ممسك بين يديه بخصلة طويلة من الشعر الاسود !

هذه هي الرواية التي قصتها كاملة دون ان احذف منها اي مشهد ، وهي تسمى مدام بوفاري . وفي استطاعتكم ان تعطوها عنوانا آخر وان تسموها بحق : (قصة زنا امرأة بالريف) .

ايها السادة :

لقد ادبت الجزء الاول من مهمتي : لقد قصت ، وسأخذ في ايراد بعض المقطعات ، ثم يأتي بعد ذلك الاتهام الذي ينحصر في جريمتي : اساءة الى الاخلاق العامة واساءة الى الاخلاق الدينية ، في صور شهوانية ممزجة بالاشياء المقدسة ، واصل الى المقطعات وسأكون مختصرا ، وذلك لاكم سنقرأون الرواية كلها ، وستنقصر على ان اورد لكم اربعة مشاهد . او على الاصح اربع لوحات. الاولى تلك الخاصة بحبها لرودلف وسقوطها معه ، والثانية هي مرحلة الانتقال الدينية بين فترتي الزنا ، والثالثة هي سقوطها مع ليون ، وهي لوحة اثرتنا الثاني واخيرا تاتي اللوحة الرابعة التي اريد ان اعرضها وهي الخاصة بموت مدام بوفاري .

وقبل ان اتحدث عن هذه الزوايا الأربع للوحة ، اسبحوا لي بان اتساءل عن لون ولمسة ريشة السيد فلوير ، وذلك لان روايته هي في النهاية لوحة ، ويجب ان اعرف الى اية مدرسة ينتمي . وما هو اللون الذي يستخدمه ، وما هي صورة بطلته .

اسبحوا لي بان اتقول ان اللون العام للمؤلف هو اللون الشهواني ، قبل واثاء وبعد حوادث السقوط . فهي طفلة في العاشرة او الثانية عشرة وهي في دير الارسلين وفي هذه السن التي لم تتكون فيها الفتاة ، والتي لا تستطيع فيها المرأة ان تحس بالانفعالات الاولى التي تكشف لها عن عالم جديد ، نراها تعترف فتقول كما ورد في الجزء الذي نشر اول ، وفي صفحة عشرين من عدد اول اكتوبر : « عندما كانت تذهب الى الاعتراف كانت تفتخر خطايا صغيرة لكي تظل راکمة في الظلال اكبر وقت مضمومة اليدين ، ووجهها فوق الحاجز تحت همس القسيس . وكانت المقارنات التي تتردد في المواعظ بين الخطيب والزوج والماتق السماوي والزواج الخالد تنبهه في اعماق نفسها غلوبة غير متوقمة » .

فهل من الطبيعي ان فتاة صغيرة تفتخر خطايا صغيرة عندما تعلم ان اصغر الخطايا هي التي يجد الطفل اكبر المشقة في ان يقولها ؟ ثم اظهار الفتاة وهي في هذه السن وقيل ان تتكون في مظهر من يفتخر الخطايا الصغيرة في الظلال وتحت همس القسيس ، وهي تذكر المقارنات بين الخطيب والزوج والماتق السماوي والزواج الأبدي — تلك المقارنات التي كانت تجعلها تشعر

بما يشبه رعدة اللذة ، اليس في كل هذا ما نسجيه بالتصوير الشهواني ؟

هل تريدون مدام بوفاري في أهون حركاتها ، وفي حالة الحرية بدون عشيق ولا خلية . وأنا امر على تلك الكلمة كلمة « اليوم التالي » وعلى عبارة « هذه الزوجة التي لم تترك شيئاً ينكشف ولا يمكن ان يحدث بسببه الانسان شيئاً » وان يكن في هذا التعبير ما يفوق اللبس . ولكن هل تريدون ان تعلموا كيف كان الزوج ؟

هذا الرجل الذي سيصبح زوجاً في اليوم التالي « والذي كان الانسان يحسبه عذراء في اليوم السابق » وهذه الزوجة « التي لم تترك شيئاً ينكشف ويمكن ان يحدث بسببه الانسان شيئاً » هذا الزوج (ص ٢٩) الذي يستيقظ ويسافر « مليء القلب بسعادات الليل ، والتفسي هاتكة ، والجسم راض » وهو يسير « مجتراً سماعته كاولئك الذين يستمرون بعد العشاء في مضغ طعام عش الغراب الذي يهضمونه » .

انتي حريص ايها السادة على ان احدد لكم طابع العمل الابهي للسيد فلوير ، ولسمات ريشته . ان له احياناً بعض اللمسات التي تحبل الكثير من المعنى ، وهذه اللمسات لا تكلفه شيئاً .

ثم في قصر فوبيسار هل تعلمون ما الذي يجذب نظر هذه المرأة الشاب وما الذي يؤثر فيها اكبر تأثير ؟ انه دائماً نفس الشيء فهو ذوق لافردير الذي كانوا يزعمون انه عشيق ماري انطوانيت ، وهو بين السبيين كويني ولوزون واليه (كانت تعود عينا ايما من تلقاء نفسها وكاتما تعودان الى شيء خارق جليل ، فقد عاش في البلاط ونام في سرير الملكات » !

قد يقال ان هذه ليست الا اشارة تاريخية ولكنها اشارة محزنة لا فائدة فيها . او لقد يجيز التاريخ بعض الظنون ولكنه لا يجيز ان تقدمها كحقائق اكيدة ، ولقد تحدث التاريخ عن العقد في كافة القصص ، كما تحدث التاريخ عن الآلاف من الاشياء ، ولكنها ليست الا ظنونا . واكرر باتي لا أعلم بان التاريخ يجيز ان نحول هذه الظنون الى حقائق اكيدة . وعندما ماتت ماري انطوانيت في وقار الملكة واطمئنان المسيحية فان هذا الدم المراق يمكن ان يحو الخطايا ، ومن باب اولي الظنون ، ولكن السيد فلوير كان في حاجة الى صورة مثيرة لكي يصور بطلته وقد اختار هذه الصورة لكي يعبر في وقت واحد عن الفرائز الفاسدة لمدام بوفاري وعن طموحها !

ومدام بوفاري يجب ان تحسن رقص الفاليس وها هي ترقص « ابتداءً في بطنه ثم اخذا يسرعان ويدوران ، وكل شيء يدور حولهما ، من مصابيح واثاث وخشب الجدران والارض وكاتهما اسطوانة تدور فوق محور. وعندما مرا الى جوار الابواب النف ثوب ايما من اسفله حول البنطلون ودخل ساقاهما الواحد في الآخر ، وخفض نظراته نحوها ورفعت نظراتها نحوه فاحست بالخطر ، ووقفت ثم استتفا ، وقادها الفيكونت بحركة أسرع ، واخفتي معها حتى نهاية الصلاة ، حيث اوشكت ان تقع لاهنة ، واستنتت رأسها على صدره لمدة لحظة ، ثم اخذ يدور بها ولكن في رفق ، وقادها الى مكانها ، فالتت بنفسها الى جوار الحائط ووضعت يدها امام عينيها » .

وانا اعلم انهم يرقصون الفاليس على نحو قريب من هذا ولكن ذلك لا يمنع من منافاته للاخلاق !

وخذا مدام بوفاري في أبسط حركاتها تجدون دائماً نفس اللمسات ، وهذا واضح في كل الصفحات « فمثلاً جويستان خادم الصيدلي المجاور اذا كانت تاخذه دهشة مفاجئة عندما يلم بأسرار غرفة زينة هذه المرأة ، تراه يتابع اعجابه الشهواني حتى المطبخ « حيث يتكبر برفقه فوق الخشبة الطويلة التي تكوي فوقها الخادمة فيلستينه الملابس ، ويتأمل في نهم كل هذه الملابس النسائية المشورة امامه من جونيئات حريرية وحرامل وياقات صغيرة وبنطلونات ذات منفاخ واسعة عند الارذاف ثم تاخذ في الضيق الى اسفل » .

ويتساءل الغلام وهو يمر بيده فوق الزينات والمشاجب : « فم يستخدم هذا ؟ »
وتجيب فيليسينيه ضاحكة : « او لم تر في حياتك شيئا ؟ »

وكذلك يتساءل الزوج في حضرة هذه الزوجة ذات الرائحة النضرة عما اذا كان العطر يفوح من جلدها ام من قميصها حيث يقول المؤلف : « كان يجد في كل ماء اناثا مرنا وامراة في زينة مرفهة ساحرة ، نضرة الرائحة حتى انه لا يعلم من اين تأتي هذه الرائحة ولا ما اذا كانت المرآة هي التي تمطر القميص » .

ولكن كفى اقتباسا للتفاصيل فاتمم تعرفون الآن ملاح مدام بوفاري في حالتها المعادية ، عندما لا تستثر احدا ولا ترتكب الخطيئة ، وعندما كانت كاملة الطهر ، وعندما لم تكن السي جوار زوج تكرهه عند عودتها من موعد . وانتم تعلمون ان اللون العام للوحة والملاح العامة لدام بوفاري ، وقد استخدم المؤلف كل عنايته وسطوة اسلوبه لكي يصور هذه المرآة . ولكن هل حاول ان يظهرها من ناحية الذكاء ؟ ابدا . ام من ناحية القلب ؟ ولا هذا ايضا ام من ناحية الروح ؟ لا ام من ناحية الجمال الجسمي ؟ بل ولا هذا . آوه ! انني اعلم ان هناك صورة لـ مدام بوفاري بعد الزنا رائحة المبريق ، ولكن اللوحة شهوانية قبل كل شيء ، والاولاع شهوانية وجمال مدام بوفاري جمال استتارة .

واصل الان الى الاقتباسات الاربعة المهمة ، ولن اورد غير اربعة لاتي حريص على ان اضيق من اطاري فقد قلت ان الاقتباس الاول سيكون عن غراميات رودولف ، والثاني عن مرحلة الانتقال الدينية ، والثالث عن غراميات ليون والرابع عن الوفاة .
ولننظر في الاقتباس الاول . مدام بوفاري قريبة من السقوط ومن الترددي .

« التفاهة المتزلية كانت تدفعها الى نزوات بذخ ، والحضان الزوجي الى رغبات زنا ... »
« وهي تلعن نفسها لانها لم تحب ليون وكان بها ظلما لشفتيه »
ما الذي اغرى رودولف وهياه ؟

انه انتفاخ قماش ثوب ايما الذي انفجر من مكان الى آخر تبعا لتثني جسمها « وكان رودولف قد احضر خادمه الى بوفاري ليفصد له واوشك الخادم ان يصاب بالاغماء ومام بوفاري تحمل الحوض .

« ولكي تضعه تحت المائدة انحنت فانتشر الثوب حولها فوق بلاط الصالة ، وبينما هي تنحني ترنحت قليلا ، وهي تفتح ذراعها فانفجر انتفاخ القماش من مكان الى آخر تبعا لتثني جسمها »
« وما هي الخاطرة التي غنت لـ رودولف : « وراى ايما ثانية في الصالة مرتدية نفس الملابس التي كان قد رآها فيها وعراها منها » .

وفي صفحة ١٧ يتحدث المؤلف عن اول يوم تحدثنا فيه فيقول : « كان كل منهما ينظر الى الآخر وشفاهما الحافة ترتعش من رغبة جامحة ، وفي استرخاء وبغير جهد اختلطت اصابعهما » .
هذه هي مقدمات السقوط ، ولكن يجب ان نقرأ السقوط نفسه .
« عندما اعدت الحلة كتب شارل الى السيد بولا نجيه يخبره ان امراته تحت تصرفه وانهم يعتمدون على لطفه » !

« وعند ظهر اليوم التالي وصل رودولف امام باب شارل مع حصانين اصيلين ، وكان احدهما مزينا عند اذنيه بكرات وردية ويحمل سرجا نسانيا مصنوعا من جلد الفزال وكان يلبس هذاء طويلا رخوا ، وهو يحدث نفسه بانها لم تر بلا ريب مثله في حياتها . وبالفعل سحرت ايما بظفره عندما ظهر بسترته الطويلة المصنوعة من الخمل البني وبنطلونه المصنوع من التريكو الابيض .

« وبمجرد ان احس بالارض اخذ حصان ايما يعدو الى جوارها » .

وها هما في الغابة !

« وقادها بعيدا حول بركة صغيرة حيث كان المدس المائي يكون خضرة فوق الامواج .
واخذت تقول : « اني مخطئة .. اني مخطئة ... اني مجنونة اذ اصفي اليك ..
— لماذا ! ؟ ايما ! ايما !

وقالت المرأة للشابة وهي تنحني فوق كتفه :

آه يسا رودولف ! ...

« واشتبك قماش ثوبها بمخمل سترته وطرحت الى الخلف رقبتها البيضاء التي انتفخت
بالتهد ، وانهارت باكية مع رعشة طويلة واخفت وجهها ، ثم استسلمت ! »
وعندما نهضت وبعد ان طرحت متاعب اللذة عادت الى بيت الزوجية ، الى ذلك البيت الذي
ستلقى فيه زوجها بعيدا . وبعد هذه السقطة الاولى ، وبعد هذا الزنا الاول ، وبعد هذه الخطيئة
الاولى هل كان الندم — المشهور بالندم هو ما تحس به ازاء هذا الزوج المخدوع الذي يصيها ؟
لا ! فقد دخلت مرفوعة الجبهة وهي تجرد الزنا :

« وعندما رأت نفسها في المرأة ادهشها وجهها ، فعيناها لم تكونا قط في هذا الاتساع
والسواد ، ولا في هذا العمق ، وقد انساب فوق شخصها شيء خفي بدلها .
« وكانت تردد لنفسها قولها : ان لي عاشقا ! عاشقا ! واخذت تتلذذ بهذه الفكرة وكتما
تتلذذ بيفاعة اخرى طرات عليها ، فهي اذن ستبتلع اخرا بلذات الحب ، بحمي السمادة التي
كانت قد ينست منها ، وقد اخذت تدخل في شيء خارق يتحول فيه كل شيء الى انفعال ونشوة
وهذيان ... »

وهكذا نراها منذ الخطيئة الاولى ، والسقطة الاولى تجرد الزنا ، وتفني نشيد الزنا ،
وشمره ولذاته . وهذا ايها السادة هو ما اعتبره شيئا بالغ الخطر ، واكثر اساءة الى الاخلاق
من السقوط نفسه .

ايها السادة :

ان كل شيء يبدو شاحبا ازاء هذا التمجيد للزنا ، حتى المواعيد الليلية التي حدثت بعد
ذلك ببضعة ايام .

« لكي ينبهها رودولف الى حضوره ، كان يقذف خشب النافذة بحفنة من الرمل ، فتنهض
قافزة . ولكنه كان يضطر احيانا الى الانتظار ، وذلك لان شارل كان مولعا بالثرثرة التي جوار
النار ، وكانت ثرثرته لا تنتهي ، وكانت تتحرق لهفة . ولو ان عينها استطاعتا لقفزتا به من
النافذة . واخيرا كانت تبدأ في زينة الليل ، ثم تأخذ كتابا وتستمر في القراءة في هدوء وكان القراءة
تسليها . ولكن شارل الذي تمدد في السرير كان يناديها لتنام .

« كان يقول : ايما تعالي اذن لقد حان الوقت ! .

« وكانت تجيب : نعم ! ساتي !

ولكن لما كانت الشبوع تعشى بصره ، فانه كان يتقلب نحو الحائط ويأخذ في التوم .
وعندئذ كانت تغلت حايسة انفاسها بمنسمة ، نابضة عارية .

« وكان لروولف معطف كبير يلها فيه كلها ثم يلف ذراعه حول خصرها ، ويقودها في صمت
الى نهاية الحديقة .

« وكان ذلك تحت العريشة وفوق نفس المتمد المصنوع من عصى عطنة حيث كان ليون
فيما مضى ينظر اليها نظرات ولهانة اثناء امسيات الصيف ، ولكنها لم تعد الآن تفكر فيه .

« وكان برد الليل يحملها على ان يشددا الضبات كما يشددان نهديات شفيتها . وعيناها التي لا يكادان يتبيناهما تلوح لهما أكثر اتساعا . ووسط الصمت كانت تقال عبارات في صوت خفي ، فنسقط فوق روعيها في رنين بللوري ، وتتردد في هزات عديدة . »

هل تعرفون في العالم ايها السادة لفة أكثر تعبيرا ؟ وهل رايتكم قط لوحة أكثر شهوانية ! واسمعوا ايضا : « لم تكن مدام بوفاري قط جميلة كما كانت في هذه الفترة . فقد كان لهما ذلك الجمال الذي لا يوصف ، والذي ينبعث عن التمشية والسعادة والتجاح ، والانسجام بين المزاج والظروف . فاطباعها وازهارها ومزاولة اللذة واحلامها الفنية دائما ، كسل هذه كانت كالازهار التي ينمئشها السباد والمطر والرياح والشمس ، فتمسو في تدرج ثم تزدهر في النهاية في طبيعتها الكاملة ، وجفونها يلوح انها قد قدرت خصيصا من اجل تلك انقذرات الطويلة الولهانة ، حيث تضل الحدقة ، بينما يفتح نفس قوي فتحتي انها الرقيقين ويرفع الزاوية اللينة لشفتيها اللتين يظللها في الضوء قليل من الزغب الاسود ، وان الانسان ليحسب ان فنانا ماهرا في الفواية ، قد رتب فوق رقبتها من الخلف — عقصة شعرها ، الذي كان يلتف في كتلة ثقيلة ، في اهمال ووفقا لمصادفات الزنا ، الذي كان يحله كل يوم. وقد اتخذ صوتها الآن انقذرات اكثر رخاوة، وكذلك قدها ، بل وكان ينبعث من قماش ثوبها وانخادة قدها شيء خفي دقيق يخرتك . وكان شارل يجدها كما كانت في اول ايام زواجهما شهية لا تقاوم ! »

حتى الآن كان جمال هذه المرأة يتكون من رشاقته ، ومنظرها وملابسها . وقد عرضت عليكم بغير حجاب . وتستطيعون ان تقولوا ما اذا كان الزنا جبلها .

« وصاحت : قبلتي ! اختطفتني ! اوه ! انني اضرع اليك !

« وتهانفت على فمه ، وكأنا تريد ان تقبض موافقته غير المتوقمة عندما تبعث في قبلة » . وهذه ايها السادة لوحة من النوع الذي يستطيع صنعه السيد فلوير . كيف تنسع عينا هذه المرأة ؟ وكيف ينتشر فوقها شيء ساحر منذ سقوطها ! وهل كان جمالها قط مشرقا مثلما كان في اليوم التالي لسقوطها وفي الايام التي تلت ؟ ان الذي يظهره لنا المؤلف هو شعر الزنا ، واني لاسالك مرة اخرى عما اذا كانت هذه الصفحات الشهوانية ليست عميقة في التحلل من الاخلاق . واصل الى الحالة الثانية والحالة الثانية هي مرحلة الانتقال الدينية ، فايما كانت شديدة المرض ، وقد أصبحت على ابواب القبر ثم عادت الى الحياة ، وظهر ضميرها في مرحلة انتقال دينية صغرة .

« كان القسيس السيد بورنسيان قد اتى ليراها وليطمئن على صحتها ويحمل اليها اخبارا ويحثها على الدين ، من ثرثرة صغرة ناعمة لا تخلو من طرافة ، وكان في منظر يسوجه نفسه ما يريحها » .

فهي تذهب للتناول ، وانا لا أحب كثيرا ان اعثر على الاشياء المقدسة في الروايات ، ولكن عندما يتحدثون عنها فلا اقل من الا يسخرها بهذا الحديث ، فهل في هذه المرأة الزانية التي تذهب للتناول شيء من ايمان ملحن الناعمة ! لا ! انها باستمرار الولهانة التي تبعث عن الاحلام ، والتي تبعث عنها في اكثر الاشياء قداسة وجبالا . « وذات يوم بينما هي في سدة المرض ، حتى لتعتقد انها تعترض ، طلبت تناول وبينما هم آخذون في الاعداد لهذه المشعرة الدينية في الغرفة ، فيضمون المائدة المكسدة بالمشروبات السكرية كملج ، وجليسيتيه تنثر فوق الارض ازهار الداليا ، كانت ايما تشمر بشيء قوي يبر فوقها فيخلصها من الامها ومن كل ادراك وكل احساس ، ولم يعد جسدها الذي تخفف ينقل عليها وابتدات حياة جديدة ، وهيل اليها ان كيانها الاخذ في

الارتفاع نحو الله سينتهي بالفناء في ذلك الحب ، كالخبور المشتعل الذي يتبدد بخارا » .
 في أي لغة يعبد الناس الله بعبارات توجه للمائق في حالات الاستسلام للزنا ! ؟ سيتحدثون
 بلا ريب عن اللون المحلي ، ولتتمسسون ببررا ، يقولهم أن امرأة هوائية خيالية لا تفعل الا شيئا
 حتى الدينية منها كما يفعلها جميع الناس . وليس هناك لون محلي يبرر هذا المخلط : شهوانية
 يوما ومتدينة في اليوم التالي ! ليس هناك امرأة ولا في البلاد الاخرى ، بل ولا تحت سماء
 اسبانيا او ايطاليا ، تتمم لله تنهدات الزنا التي تصدها نحو المشيق . انكم ايها السادة
 ستقدرون هذه اللغة ، ولن تلتبسوا عذرا لعبارات الزنا التي ادخلت على نحو ما في معبد الله ،
 وهذه هي الحالة الثانية . واصل الى الثالثة ، وهي سلسلة الزنا .

تبعده مرحلة الانتقال الدينية لا تزال مدام بوفاري مستعدة لان تسقط . فهي تذهب الى
 المسرح في روان حيث كان المثلون يمثلون « لوس دي لامرور » ، وقامت ايما برجعة الى نفسها .
 « آه ! لو انها في نضرة جمالها ، وقبل دنس الزواج وخيبة الامل في الزنا - (هناك من كان
 يستطيع ان يقول خيبة الامل في الزواج وندس الزنا، ولكن التص يقول قبل دنس الزواج وخيبة امل
 الزنا) - كانت قد استطاعت ان ترسي حياتها فوق قلب كبير متين ، اذن لاخطت الفضيلة
 والعاطفة والملاذات والواجب ، ولما نزلت من هذه السعادة العلية .

وعندما رات لاجارديه فوق المسرح ، شعرت برغبة في ان تجري الى « ذراعيه لكي تلجا الى
 قوته كما حدث في اغنية الحب ذاتها ، وان تقول له وتصيح : اختطني ! خذني ! فترحل !
 اليك ! اليك كل عواظفي الحارة وكل احلامي ! »
 وكان ليون خلفها ...

« كان واقفا خلفها مستندا بكفحه على الحاجز ، ومن وقت الى آخر كانت تحس برعشة
 تحت تأثير النفس الغائر التبعث من خياشيمه ، والمساقط فوق شعرها » .
 لقد حدثنا منذ هنيهة عن دنس الزواج . وسيظهر لنا ايضا الزنا بكل ما فيه من شمر ،
 وبكل ما فيه من غواية تمز على الوصف . ولقد قلت ان كان من الواجب على الاقل ان تفسر
 العبارات ، وان يقال خيبة امل الزواج وندس الزنا . وكثيرا عندمنا يتزوج الناس لا يجدون
 السعادة الخالية من السحب التي انتظروها ، بل يلقسون التضحيات والمرارة . ومن الممكن
 عندئذ تبرير عبارة خيبة الامل ، واما عبارة الدنس فلا يمكن تبريرها .

لقد تواعد ليون وايما في الكاتدرائية ، وزاراها او لم يزوراها ، وخرجا :

« كان طفل يبعث في الساحة

« وقال له ليون : اذهب واحضري عربة ، وانطلق الطفل كالقنيفة ...

آه ! ليون ! ... في الحق ... لست ادري ما اذا كان من الواجب !

واخذت تتنلل ثم قالت في مظهر جاد : هذا غير لائق بالمرأة ، او ما ترى ذلك ؟

« فاجاب الكاتب : ما وجه عدم لياقته ؟ ... ان هذا يحدث في باريس !

« وكانت هذه العبارة كحجة لا تدفع ، فشددت عزمها ! »

ونحن نعلم الآن ايها السادة ان السقوط لم يكن في العربة . فربيس تحرير المجلة قد دفعه
 وخز ضمير يشرفه الى ان يحذف فقرة السقوط في العربة ، ولكنه اذا كانت « مجلة باريس »
 (ريفي دي باريس) قد اسدلت ستائر العربة ، فانها تتركنا ندخل الى الغرفة التي تم فيها
 المقابلات .

ارادت ايما الرجيل لانها كانت قد وعدت ان تعود في نفس المساء . وفضلا عن ذلك ، فقد

كان شارل ينتظرها ، كما انها كانت قد اخلت تشمر من قلبها بذلك الاستسلام الجبان ، الذي يعتبر ، بالنسبة للكثير من النساء ، عقابا وغنية عن الزنا على السواء ...
« واستمر ليون يسير على الرصيف وهي تنبعه حتى الضحك ، ثم صعد وفتح الباب ودخل ... يا لها من ضمة !

« ثم انتهالت العبارات بعد القبلات ! وكنا يتبادلان الحديث عن اشجان الاسبوع ، والمخاوف والقلق على الخطبات . ولكن كل شيء قد نسي الآن ، وهما هما وجهها لوجه مع ضحكات اللذة ونداءات الضان

« كان السير سريرا كبيرا من الكاجو في شكل زورق ، وكانت الستائر المنوعة من الحرير الاحمر تنزل من السقف وتتجمع في اسفل بالقرب من الوسادة حيث تنفجر » ولم يكن في العالم شيء في جمال راسها ذي الشعر الاسود ، وجعلها الابيض يبرز فوق هذا اللون القرمزي ، عندما كان الحياء يدمعها الى ان تضم لراعيتها المارتين وهي تخفي وجهها في يديها .
« وكان جو الصباح الفاتر ، بسجاده الهائلة اللون ، وزينته الخفيفة ، وضوئه الهادي ، يلوح ملابها كل الملاصقة لخلاوات الغرام » .

هذا هو ما يحدث في الفرقة وهما في فرقة اخرى بالفة الالهية - تصوير شهواني .
« كم كنا يحبان هذه الغرفة الطيبة المليئة بالرح - بالرغم من فخامتها التي ذلت قليلا . وكنا يجدان دائما الاثاث في مكانه ، بل وديابيس الشعر التي كانت قد نسيها يوم الخميس الاخر تحت قاعدة الساعة . وكنا يتناولان الغداء الى جوار القار فوق مائدة مستديرة مطعمة بفضب الابنوس . وكانت ايمنا تقطع اللحم ، وتضع القطع في طبقه ، وهي تسرد كافة انواع الدجاجات . وكانت تضحك ضحكات رنانة خفيفة عندما يفيض زيد الشهبانيا من الكاس الخفيفة فوق خواتم اصابعها . وكنا غارقين فرقا كاملا في تلك ذاتهما ، حتى لكتهما يعتقدان انها في بيتها الخاص ، وانهما سيعيشان فيه حتى الموت كزوجين خالدين ! وكنا يقولان : « فرغنا » و « سجادتنا » و « كراسينا » ، بل وكانت تقول « خفي » الذي كان هدية من ثيون استجابة لاحدى نزواتها . وكان خفا من الستان الوردي ، محلاة جافته بالبيع ! وعندما كانت تجلس فوق ركبته ، كانت ساقها القصيرة تتدلى في الهواء ، وكان الخف الجميل الذي لا عقب له يمسك فقط باطراف اصابع قدمها المارية .

« لقد تذوق لأول مرة تلك الرقة المرهفة المبعطة من الاناقة النسائية ، ولم يكن قد صادف قط هذه الرشاقة ، وهذه اللفة ، وهذا التحفظ في الثياب ، وهذه الاوضاع الشبيهة بلوضاع العمامة الفاتية . وكان يعجب بحرارة نفسها ، و « ننتيلا » جونغها . ولم لا ؟ اليس اهدى نساء الطبقة الراقية ، وامرأة متزوجة ؟ ! وبالجملة اليس عشيقة حقيقية ؟ !

هذا ايها السادة وصف ليس بعده من مزيد فيما اعتقد من وجهة نظر الاتهام ؟ وهما هو وصف آخر او على الاصح تكملة لنفس المشهد .

« وكانت لها عبارات تشمله ، مع قبالات تطير بروحه . ولكن اين تعلمت هذا الاغراء الذي يكاد لا يكون ماديا لشدة عمقه وتشكره ؟ »

اوه ! انني اتهم ايها السادة الاستمزاز الذي يوهي به اليها هذا الزوج الذي اراد ان يقبلها بدوره ! واتهم جيدا انه عندما تتم المقابلات التي من هذا النوع ، كانت تصب في الاستمزاز اثناء نوم هذا الرجل التمدد الذي ينام ملاصقا لجسدها !

وليس هذا كل شيء . ففي صفحة ٧٣١ لوحة اخيرة لا استطيع ان اغفلها ، وكانت قد

وصلت الى هد التمتع من اللذة .

« كانت تعد نفسها بسعادة عبيقة في كل رحلة مقبلة . ثم كانت تعترف بانها لم تحس بشيء خارق للمادة . وامتحت هذه الخيبة تحت تأثير أمل جديد . وعادت ايما اليه اكثر اشتعالا ونهما ، فكانت تتعمى في عنف ، وتنتزع شريط صدارها الرقيق ، الذي يدور حول ردفها كما يتسلل الثعيبان . وكانت تذهب على اطراف اصابعها العارية لكي تتأكد مرة اخرى من ان الباب مغلق ، ثم تسقط ملابسها كلها بعزلة واحدة ، وتتهالك على مسدرة شاحبة صالمة جادة ، في رعشة طويلة ! »

واتا اسجل هنا ايها السادة شينين :

تصوير رائع من حيث المهوبة ، ولكنه ملمعون من حيث الاخلاق . نعم ان السيد فلوبيير يعرف كيف يجعل لروحاته بكافة وسائل الفن . ولكن بدون هيل الفن فليس لديه ضباب ولا نقاب ، بل الطبيعة في مريها الكامل ونجاحتها الكاملة !

ثم اقتبس آخر من صفحة ٧٨٢

« لقد طالبت معرفة اهدها بالآخر حتى اصبح لا يحس بنشوة التملك التي كانت تضاف من اللذة . واصبحت تشمئز منه بقدر ما اصبح متعبا منها ، وقد اهدت ايما تعثر في الزنا على كل ما في الحياة الزوجية من رتبة ملة . »
رتاية الزواج الملة ، وشمر الزنا ! فاحيانا ننسى الزواج واحيانا رتايته الملة ، ولكن دائما شمر الزنا ! هذه ايها السادة هي الاوضاع التي يحب السيد فلوبيير ان يصورها وهو لسوء الحظ يجيد تصويرها اكثر مما يجب !

لقد قصصت مشاهد ثلاثة : مشهدا مع رودولف رايمت فيه السقوط في الغابة وتمجيد الزنا ، وهذه المرأة التي يزداد جمالها مع هذا الشمر . ولقد تحدثت عن مرحلة الانتقال الدنيوية ، ولقد رايمت فيها الصلاة تستمر من الزنا لفنه . كما تحدثت عن السقوط الثاني وسرت المشاهد التي تتابع مع ليون ، واطلعتكم على مشهد العربية المحذوف ، كما اطلعتكم على لوحة للغرفة والسرير . والان وقد اعتقدت ان يقينكم قد تكون فلالصل الى المشهد الرابع : مشهد العذاب .
لقد هدخت منه بواسطة « مجلة باريس » فيما يبدو فقرات عديدة واليك المبارات التي يشكو بها السيد فلوبيير من هذا التصرف :

« لقد دفعت بعض الاعتبارات التي ليس لي ان احكم عليها « مجلة باريس » الى ان تقوم بعملية حذف في عدد اول ديسمبر ، ولما كان نفسي المتحرج قد تجدد بمناسبة العدد الحالي ، فانها قد رات من اللام ان تحذف ايضا عدة فقرات ، ولذلك فاني اعلن تنصلي من مسئولية السطور الآتية ، وارجو القارئ الا يرى فيها الا فقرات لا القص الكامل . »

فقمير الزن فوق هذه الفقرات وتصل الى الوفاة . لقد تناولت السم — تناولت السم لماذا ؟ « لقد قالت لنفسها : آه ! ما اهن الموت ! ستام وينتهي كل شيء ! » ثم بدون ندم ولا اعتراف ولا دمة تكفير على هذا الانتحار الذي يتم ، وزنا الامس ستلتقى طقوس المحضرين . ولماذا الطقوس ؟ ما دامت ستذهب الى المعدم كما قالت منذ هنيهة ؟

لماذا ؟ ما دامت ليست هناك دمة ولا زفرة كزفرات مدلين بسبب جريمة عدم ايمانها ، ثم انتحارها وزناها ؟

وبعد هذا المشهد ، يأتي مشهد المسحة الاخيرة ، وتلك عبارات مقدسة بمجلة بالنسبة للنساء لاننا قد امننا بهذه الاقوال اجداننا واباننا واقاربنا ، وبها سينينا يوما ابناؤنا . فعندما يراد

ايرادها يجب ان تورد بدقة ، ويجب على الأقل الا تصطحب بصورة شهوانية للحياة السابقة .
انكم تعلمون ان القسيس يقوم بالمسحات المقدسة فوق الجبهة والاذنين والقم والقميص
وهو يتلو هذه العبارات الشماترية : ان كل ما اقترفت بالقدمين والاذنين والقم ... الخ ...
ثم يتبعها دائها بكلمات الرحمة ... وهكذا خطبته من ناحية ورحمة من ناحية اخرى . ومن الواجب
ايراد هذه العبارات المقدسة المجلبة في دقة ، واذا لم تورد في دقة فلا اقل من الاضع فيها شيئا
شهوانيسا .

« وادارت وجهها في بطء ، ولاح انها قد تملكها التثوية اذ رات فجاة المسوح البنفسجي . ولا
شك انها قد عادت فاحست وسط هذا الهجوه الخارق بتلك اللذة المفقودة التي كانت تستشمرها
في انطلاقاتها الصوفية الاولى مع رؤى من السعادة الخالدة التي اخذت تبتدىء .
« ونهض القسيس لكي ياخذ الصليب . وعندئذ مدت رقيتها كمن به ظما ، والوصقت شفتيها
فوق جسم « الرجل الاله » ، ووضعت فوقه بكل قوتها المولية اكبر قبلة حب اعطتها في حياتها .
ثم ردد « رحمتك يا الله » صلاة الاستغفار ، وغمست اصبعيها الايمن في الزيت ، وابتدات
المسحات الاخيرة ، اولا على عينيها اللتين طالما تطلعتنا الى المتع الارضية ، ثم فوق انفها المولع
بالتسمات الفاترة والروائح الفرامية ، ثم فوق فيها الذي كان مفتوحا للكذب ، والذي كان يئن
من التكبر ، ويصيح في الشهوة ، ثم فوق اليدين اللتين كانتا تتلذذان باللمسات العذبة ، واخرى
فوق مسطح قدميها اللتين كانتا فيما مضى بالفتي السرعة في الجري لاشباع رغباتها ، واللتين لن
تعودا تسيران الآن »

والآن تأتي صاوات المحتضرين التي يرددها القسيس بصوت خفي ، والتي عند كل آية منها
توجد عبارات « ايها الروح المسيحية ! ارحلي الى رحاب اعلى » . وهم يتمنون بها عندما
ينساب آخر نفس من شفتي المحتضر . القسيس يردد الخ ...
« وكلما اشتدت الحشجة اسرع القسيس في مواعظه ، التي كانت تختلط بانتحابات بوفاري
المكبوتة . واحيانا كان يلوح ان كل شيء يخفتي في التمتة الصامتة للمقاطع اللاتينية التي كانت
ترن كدقات ناقوس حزين ! .

لقد راي المؤلف ان من المناسب ان يحور هذه العبارات وان يجعل لها مقابلا فادخل في
الموضوع اعمى على الرصيف يردد اغنية تتابع عباراتها الاباحية ككوع من الرد على صلوات
المحتضرين .

« ونفجاة سمعت على الرصيف ضوضاء هذاه خشبي سبيك مع خفيف عصا وصوت اجشي
يرتفع مغنيا « كثيرا ما تدفع حرارة يوم صحو — الصبية الى ان تحلم بالحب . وهبت الريح قوية
في ذلك اليوم ، وتطابت الجونة القصيرة » .

وهذه هي اللحظة التي ماتت فيها مدام بوفاري .

وهكذا كانت اللوحة . فمن ناحية القسيس يردد صلوات المحتضرين ، ومن الناحية الاخرى
لاعب الارغن الذي يثر عند المحتضرة « ضحكا مولما مجنونا يانسا ، معتقدة انها ترى الوجه
المخيف لذلك الشقي الذي يقف في الظلمات الابدية كشبح مرعب ... وقلت بها شهقة فوق
الحشية ، واقترت الجميع ... وكانت قد فارقت الحياة ! »

ثم انه عندما يبرد الجسم ، يصبح الشيء الواجب الاحترام قبل كل شيء ، هو الجثة التي
فارقتها الروح . وعندما يكون الزوج حاضرا جاثيا يبكي امراته ، وعندما ينشر فوقها الكفن — ،
لا بد ان اي كاتب آخر كان سيقف عند هذا الحد . ولكن هذه هي اللحظة التي يقوم فيها السيد

فلويز بلمسة الريشة الأخيرة .

« وقد تجوفت الملامدة من نديتها الى ركبتيها ، ثم ارتفعت بعد ذلك عند اطراف اصابع قدميها . »

هذا هو مشهد الموت وقد اختصرته ، او جمعته على نحو ما ، ولكم انتم ان تحكموا وتقروا ما اذا كان فيه مزج بين الاشياء المقدسة والحياة الدنيا ، او على الاصح مزيج بين المقدسة والشهوانية .

لقد قصصت الرواية ، وادنتها بعد ذلك واسمحو لي ان اتقول ان الاتجاه الذي يتمهده السيد فلوير ، والذي يحققه دون اتجاه الى هيل الفن ، بل مع استخدام كافة وسائل الفن ، هو الاتجاه الوصفي والتصوير الواقعي . وانظروا الى اي حد يصل . ولقد وقع في يدي اخيرا عدد من مجلة « الفنان » وانا هنا لا اتهم هذه المجلة ، وانا احاول تحديد اتجاه السيد فلوير ، واطلب منكم ان تسمحوا لي بان اقرا بضعة اسطر من كتاب لا يرتبط في شيء بالكتاب الذي نحاكم من اجله السيد فلوير ، ولكنني رايت فيه الى اي حد يبرع السيد فلوير في التصوير ، وهو يجب ان يصور المغريات وبخاصة المغريات التي سقطت فيها مدام بوفاري . واني لا جد نونجا لاتجاهه في الاسطر الاتية من مجلة الفنان الصادرة في يناير بامضاء جوستاف فلوير عن « غواينة القديس انطون » . وهذا — وايم الحق — موضوع يستطيع ان يقول فيه الانسان الكثير . ولكن لا اظن ان من الممكن ان يعطي انسان للصورة حيوية اكثر ، ولا تفادا اقوى في التصوير الاباحي للقديس انطون : « اهو العلم ؟ اهو المجد ؟ هل تريد ان تضع عينيك بالياسمين الربط ؟ هل تريد ان تمس بجسك يفوس في اللحم الرقيق للنساء المتفتحات وكتاه يفوس في موجة ماء ؟ » .

انه نفس اللون ، ونفس القوة في الريشة ، ونفس الحيوية في العبارة !

ويجب ان الخصى فاقول : انني قد حلفت الكتاب ، وقصصت دون ان اتسى صفحة ، ثم ادنت بعد ذلك وكان هذا هو الجزء الثاني من مهمتي ، وقد حددت بعض الصور ، وظهرت مدام بوفاري ساكنة امام زوجها ، وامام اولئك اللذين كان يجب الا تفويههم . وقد جعلتمكم تلمسون الالوان الشهوانية ، لهذه الصورة ، ثم حلفت بعض المشاهد الكبيرة : السقوط مع رودلف ، ومرحلة الانتقال الدينية ، والفراغ مع ليون ، ومشهد الموت . وفي جيمهما وجدت الجريمة المزبوجة في اهانة الاخلاق العامة واهانة الدين .

انني لست في حاجة الى المشهدين : فالاساءة الى الاخلاق هلا ترونها في السقوط مع رودلف ؟ وهلا ترونها في تجسيد الزنا ؟ وهلا ترونها بنوع خاص فيما يحدث مع ليون ؟ ثم الاساءة الى الاخلاق الدينية . وانا اجدها في حديثه عن الاعتراف في صفحة ٣٠ من الجزء الذي نشر اولا في عدد اول اكتوبر . وفي مرحلة الانتقال الدينية صفحة ٨٥٢ و ٥٥٠ من عدد ١٠ نوفمبر . واخيرا في المشهد الاخير الخاص بالموت .

ان امحكم ايها السادة ثلاثة متهمين : السيد فلوير مؤلف الكتاب ، والسيد بيشا الذي قبله ، والسيد بيلين الذي طبعه . وفي هذا الموضوع ليست هناك جريمة بدون عائلية ، وجميع من اشتركوا في هذه العائلية يجب ان ينالهم العقاب . ولكننا نسرع بان نقول بان مدير المجلة والطابع لا يفتيان الا في المرتبة الثانية ، واتهم الاساسي هو المؤلف ، هو السيد فلوير — السيد فلوير الذي نبهته ملاحظة التحرير فاهتج ضد العطف الذي اجري في كتابه ، ثم ياتسي بعده في المرحلة الثانية السيد لوران بيشا الذي ستحاسبونه — لا على العطف الذي اجراه — بل على ذلك الذي كان يجب ان يجريه ، واخيرا ياتي في المرحلة الاخرة الطابع الذي يعتبر المديبان الاساسي ضد التضحية . والسيد بيلين بعد ذلك رجل فاضل ليس لدي ما اتقوله ضد ، ونحن لا

نطلب اليكم الا شيئا واحدا هو ان تطبقوا عليه القانون ، فالطالبون يجب ان يقرأوا . وعندما لا يقرأون أو يكلفون غيرهم بالقراءة ، فانهم يطبقون تحت مسئوليتهم الخاصة . فالطالبون ليسوا آلات ، ولهم امتياز فهم يقسمون اليمين ، وهم في وضع خاص ، وهم مسئولون . انم كما سبق أن قلت الميديان الإمامي اذا سمحتم لي بهذا التعبير ، وهم عندما يتروكون الجريمة تمر يكونون كمن يترك المدو ير ، ولتحفظوا العقوبة كما تشاؤون عن بيلي ، بل وكونوا رحيمين بمدير المجلة ، واما فلوبير المجرم الاساسي فهو الذي يجب ان تحتفظوا له بقسوتكم .

والآن وقد انتهت مهمتي ، يجب ان ننظر الاعتراضات ، او ان نسبقها . ولسوف يقال لنا كاعتراض عام : ان الرواية في النهاية اخلاقية ما دام الزنا قد عوقب ؟ ولهذا الاعتراض جوابان فلما افترضنا افتراضا ان الكتاب اخلاقي ، ولكن الخاتمة لا يمكن ان تغفر للتفاصيل الشهوانية التي يمكن ان توجد فيه . ثم انني اقول ان الكتاب ليس في جوهره اخلاقيا .

انني اقول ان التفاصيل الشهوانية لا يمكن ان تغطي بخاتمة اخلاقية ، والا لامكن ان تقص كافة القادورات التي يمكن تصورها ، وان توصف كافة خلاعات عاهرة مع جعلها تموت فوق حصير قدر بمستشفى . وكان من الجائز دراسة واطهار كافة الاوضاع الشهوانية ! ان في هذا ما يتعارض مع كافة قواعد التفكير السلبية . وان فيه وضعا للسم في تناول الجبج ، وللدواء في تناول عدد قليل اذا كان هناك دواء . ومن الذي يقرأ رواية السيد فلوبير : هل هم الرجال الذين يهتمون بالاقتصاد السياسي او الاجتماعي ؟ لا ! ان الصفحات الخفيفة في مدام بوفاري تقع بين ايد اكثر خفة ! في ايد الفتيات وحيانا في ايدي النساء المتزوجات . وعندما يفوي الخيال ، وعندما ينحدر هذا الاغواء حتى القلب ، وعندما يتحدث القلب الى الحواس – هل تعتقدون ان التفكير البارد ستكون لديه القوة الكافية لكي يقهر غواية الحواس والاحساس ؟ ثم انه لا يجب ان يسرف الانسان في التفاهة داخل قوته وفضيلته ، فالانسان يحمل الفرائز الدنيا والامكار السامية ، والفضيلة عند الجبج ليست الا نتيجة لجهود يكون في الغالب شاقا ، والتصوير الشهواني له في الغالب تاثير اقوى من التفكير البارد . وهذه هي اجابتي الاولى على هذه النظرية . هذه هي اجابتي الاولى ، ولكن لدي اجابة اخرى .

انني اؤكد ان رواية مدام بوفاري ليست اخلاقية اذا واجهناها من الناحية الفلسفية . لا شك ان مدام بوفاري قد ماتت بالتسمم ومن الحق انها قد قاست كثيرا ، ولكنها قد ماتت في اليوم والساعة المقدرين لها ، ولكنها لم تمت لانها زانية ، بل لانها ارادت ان تموت ، وقد ماتت في عنفوان شبابها وجمالها . ماتت بعد ان كان لها عشيقان تاركة زوجا يحبها ويعبدها، وسيعثر على حورة رودولف وخطاباته وخطابات ليون ، ويقرأ خطابات امراة مزوجة الزنا . ومع ذلك يزداد لها حبا من وراء القبر ! ومن الذي يستطيع ان يدين هذه المرأة في الكتاب ؟ لا احد ! هذه هي الخلاصة ! ليس في الكتاب شخصية واحدة تستطيع ان تدينها . واذا استطعتم ان تجدوا شخصية واحدة حكيمة او ان تعرفوا على مبدأ واحد يمكن ان يدان به الزنا احكموا بتي مخطيء . والآن فاذا لم يكن في الكتاب كله شخصية واحدة يمكن ان تحملها على ان تطاير الراس ، واذا لم تكن هناك فكرة او سطر يمكن ان يسفه به الزنا ، فاني اكون على حق ويكون الكتاب ضد الاخلاق !

هل يمكن ان يدان الكتاب باسم شرف الحياة الزوجية ؟ ولكن شرف الحياة الزوجية ممثل في زوج مخفل نراه عندما يلتقي بروولف بعد وفاة زوجته يبعث في وجه المشيق عن ملاح المرأة التي يحبها . (الجزء الثشور في ١٥ ديسمبر ص ٢٨٩) وانا اسلكم : هل باسم شرف الحياة الزوجية تستطيعون ان تدينوا هذه المرأة عندما لا يكون في الكتاب كلمة واحدة لا ينضئ فيها الزوج امام الزنا ؟

هل نستطيع ذلك باسم الرأي العام ؟ ولكن الرأي العام ممثل في شخص مضحك ، ممثل في الصيولي هومين محاطا بأشخاص مضحكين تسيطر عليهم هذه المرأة .
هل تدينون باسم الاحساس الديني ؟ ولكن هذا الاحساس قد تمثل في القسيس بورنسيان وهو قسيس مضحك كالصيني سواء بسواء ، وهو لا يعتقد الا في الآلام الجسدية دون الآلام المعنوية ، ويكاد يكون مايبا .

هل تدينون باسم ضمير المؤلف ؟ انني لا اعلم ما الذي يفكر فيه ضمير المؤلف ؟ ولكنني في الفصل الفلسفي الوحيد في الكتاب وهو الفصل الماثر (الجزء المنشور في ١٥ ديسمبر) اطالع العبارة الآتية :

« ان هناك دائما بعد موت شخص شيئا يشبه الذهول الذي يملأ الجو . وذلك لانه من الصعب فهم هذا المعدم الطارئ ، والاستسلام لتصديقه » .

وإذا لم تكن هذه صيحة عدم ايمان فهي على الاقل صيحة شك . انه بلاريب من الصعب ان نفهمه وان نصدقه ، ولكن لماذا هذا الذهول الذي يظهر عند الموت ؟ لماذا ! لان هذا الطارئ احد الاسرار ولانه من الصعب ان نفهمه وان نحكم عليه ، ولكنه من الواجب ان نستسلم له . وانا اقول انه اذا كان الموت هو عدم طارئ ، واذا كان الزوج المغفل يحس بحبه يزداد عندهما يعلم بزنا امراته ، واذا كان الرأي العام ممثلا في أشخاص مضحكين ، واذا كان الاحساس الديني ممثلا في قسيس مضحك ، فان شخصا واحدا هو الحق ، وهو الذي يحكم وينسيطر ، انها ايما بوفاري ! وهذا قلب للاوضاع .

هذه هي الخلاصة الفلسفية للكتاب ، لم يستخلصها المؤلف ، انما استخلصها رجل مفكر يتمق الاشياء - رجل بحث في الكتاب عن شخصية يمكن ان تسيطر على هذه المرأة فلم يجد . والشخصية الوحيدة المسيطرة هي مدام بوفاري ولذلك يجب ان نبحث في غير هذا الكتاب ، يجب ان نبحث في الاخلاق المسيحية التي هي اساس الحضارات الحديثة . وفي ضوء هذه الاخلاق يتضح كل شيء ويستبين .

فباسمه يسفه الزنا ويدان ، لا لانه حماقة تعرض لخيبة الامل وللندم ، بل لانه جريمة ضد الاسرة . انكم تسفهون وتدينون الانتصار لا لانه جنون ، فالجنون غير مسئول ، ولا لانه جبن فانه يتطلب احيانا شيئا من الشجاعة الجسدية ، بل لانه اهتقار للواجب نحو الحياة التي تنتهي ، وصيحة عدم ايمان بالحياة التي تبتدىء .

وهذه الاخلاق تدين الادب الواقعي لا لانه يصور الشهوات : البفض والانقام والحسب ، فالعالم لا يحيا الا بها ، ومن واجب الفن ان يصورها ، ولكن لانه يصورها بلا ضابط ولا حدود . والفن بغير قاعدة لا يعود فنا ، وهو كالمرأة التي تتخلى عن كافة ثيابها ، واخضاع الفن للوقار العام ليس استعبادا له بل تشريفا . والانسان لا يكبر الا بقاعدة . وهذه ايها السادة هي المبادئ التي ندين بها ، وهذا هو المذهب الذي ستحمونه استجابة لضميركم .

مرافعة الدفاع

السيد سينار

أيها السادة :

ان السيد جوستاف فلوير متهم امامكم بانه قد وضع كتابا ردينا ، وبانه قد اساء في هذا الكتاب الى الاخلاق العامة والى الدين . والسيد فلوير موجود الى جواري ، وهو يؤكد امامكم انه قد وضع كتابا شريفا ، ويؤكد امامكم ان فكرة كتابه منذ السطر الاول حتى الاخير فكرة اخلاقية دينية ، وانها اذا لم تحور (ولقد راينا خلال لحظات ماذا تستطيعه الموهبة الكبيرة لكي تحور فكرة) فانها ستكون ، وستعود فتكون ، بعد لحظات ، بالنسبة اليكم ، كما كانت بالنسبة لقراء الكتاب — فكرة اخلاقية ودينية قبل كل شيء . ومن الممكن التعبير عنها بهذه الكلمات : الدعوة الى الفضيلة ببشاعة الرذائل . انني احمل اليكم هنا ما يؤكد السيد جوستاف فلوير واضعه في جسارة اتهام النياحة العامة ، لان ما يؤكد شيء خطير . وهو صادر عن الشخص الذي الف الكتاب ، كما انه مؤيد بالظروف التي احاطت بتأليف الكتاب ، والتي سألحظكم عنها .

هذا الراي خطير لصدوره عن الشخص الذي الف الكتاب ، واسمحوا لي بان اقول لكم ان السيد جوستاف فلوير لم يكن مجهولا لي ، وانني لم اكن في حاجة الى توصيات او الى معلومات استقيها منه — لا اقول عن اخلاقه — بل وعن كرامته . وقد حضرت الى هذه الساحة لاؤدي واجبا يمليه الضمير ، بعد ان قرأت الكتاب ، وبعد ان احسست بهذه القراءة تثير في نفسي كل ما هو شريف ، وكل ما هو ديني عميق . ولكنني في نفس الوقت الذي اؤدي فيه واجبا يمليه الضمير — اؤدي ايضا واجبا تمليه الصداقة ، فلما انكر — ولا يمكن ان انسى — ان ابيه كان بالنسبة الي صديقا حقيقيا ، وابوه الذي تشرفت بصداقته زمنا طويلا وحتى اللحظة الأخيرة ، بل واسمحوا لي ان اقول : ابوه العظيم كان خلال اكثر من ثلاثين عاما رئيسا للجراحين بمستشفى اوتيل ديو دي روان ، وكان مساعدا لبيبينرين ، في تزويد العلم بحقائق كبيرة واسماء ضخمة ، اكتفي بان اذكر من بينها واحدا هو كلوكين . وهو لم يخلف في العلم اسما كبيرا فحسب ، بل خلف ايضا فكريات كبيرة ، بسبب الخدمات الشاسعة التي اداها للانسانية . وفي نفس الوقت الذي اتذكر فيه علاقتي به — اقول لكم ان ابنة المقدم الى المحكمة كتبهم بالاساءة الى الاخلاق والى الدين —

ابنه هذا صديق لابنائي ، كما كنت صديقا لأبيه . وأنا أعرف فكرته وأعرف مقاصده . والمهامي هنا له الحق في أن يتقدم كضامن شخصي لموكله .

أيها السادة ان اسما كبيرا ولكريات كبيرة لهما مقتضياتهما . وابناء السيد فلوير لسم يخونوه ، وقد كانوا ثلاثة : ولدين ، وبناتا ماتت في الواحدة والعشرين ، وكان الابن الأكبر قاضيا جبيرا بان يخلف ابيه ، وهو الذي يقوم الآن — ومنذ عدة سنوات — بالدور الذي كان ابيه يقوم به خلال ثلاثين سنة . واصفرهما هو هذا المائل امامكم . وعندما ترك لهما ابوهما ثروة كبيرة واسما كبيرا ، ترك لهما الحاجة لان يكونا رجلي ادراك واحساس ... رجلين نافعين . فأخو موكلي قد سار في مهنة يؤدي فيها الخدمات كل يوم . واما هذا فقد خصص حياته للدرس والملاذ . والكتاب المطارد امامكم في هذه اللحظة هو اول عمل له . وهذا العمل الاول الذي يثير — أيها السادة — الشهوات ، كما يزعم السيد محامي الإمبراطورية ، هو نتيجة دراسات طويلة وتفكير طويل . والسيد جوستاف فلوير رجل ذو خلق جاد ، محمول بطبيعته نحو الأشياء الجادة الحزينة . وهو ليس بالرجل الذي تستطيع التيا به خمسة عشر أو عشرين سطرا منتزعة من هنا وهناك ، أن تقمه اليكم كصانع للمواضع شهوانية . لا ! اني أكرر ان في طبيعته كل ما يمكن تصوره من جد ووقار ، ولكن — في نفس الوقت — كل ما يمكن تصوره من هزن . وكتابه — بمجرد ان نقوم عباراله وان نضع الى جوار الفقرات التي ذكرت الاسطر التي تسبقها والتي تليها — لا يلبث ان يتخذ لونه الحقيقي ، كما لا يلبث ان يظهر مقاصد المؤلف . ومن الكلام الجميل الذي سمعتموه ، ان يبقى في ذاكرتكم الا احساس بالاعجاب الجميل بمهوبة تستطيع ان تحور كل شيء !!

لقد قلت لكم ان السيد جوستاف فلوير رجل جاد وقور . وكانت دراساته التي تلازم طبيعته النفسية دراسات جادة واسعة ، فهي لم تشمل فقط كافة فروع الادب ، بل شملت أيضا القانون . فالسيد فلوير ليس بالرجل الذي يقع بالملاحظات التي يستطيع ان يقدمها له الوسط الذي يعيش فيه ، بل اخذ يسأل الاوساط الأخرى — انه من اولئك الذين يصفهم الشاعر اللاتيني بأنهم قد راوا اخلاق الكثير من الناس ومنهم .

فبعد وفاة ابيه وانتهاء دراسته في المدرسة العامة زار ايطاليا ، ومن سنة ١٨٤٨ الى ١٨٥٢ جاب بلاد الشرق : مصر وفلسطين وآسيا الصغرى ، التي اذا ارتادها رجل واسع الذكاء ، يستطيع ان يعود بشيء سام شعري ، وبهذه الألوان ، وبسطوة الأسلوب ، التي اظهرتها القيابة العامة منذ لحظات ، لكي تؤيد الجريمة التي تسببها لنا . وسطوة الأسلوب والمكثات الأدبية سو فنتقبي وتبرز في وضوح من هذه المناقشات ، ولكنها لا يمكن ان تؤيد الاتهام على أي نحو . ومنذ عودته في سنة ١٨٥٢ أخذ السيد جوستاف فلوير يكتب ويحاول ان ينتج في اطار كبير ، نتيجة دراسات دقيقة جيدة — نتيجة ما استخلصه في رحلاته .

ما هو الاطار الذي اختاره ، والموضوع الذي انتقاه ، وكيف عالجه ، ان موكلي من اولئك الذين لا ينتمون الى اية مدرسة أدبية من التي وجدت اسمها منذ هنيهة في مراعاة الاتهام . وفي الحق انه ينتمي الى المدرسة الواقعية من حيث انه يتمسك بواقع الأشياء . وهو ينتمي الى المدرسة النفسية من حيث ان مادية الأشياء ليست هي التي تحركه ، بل الاحساس الإنساني ، ونمو العواطف في الوسط الذي يوجد فيه ، وهو ينتمي الى المدرسة الرومانتيكية اقل من انتمائه الى اية مدرسة أخرى ، وذلك لانه اذا كانت الرومانسية تظهر في كتابه ، كما أنه اذا كانت الواقعية تظهر فيه ، فان هذا لا يكفي ان يكون ببعض تعبيرات مقتضبة منثورة هنا وهناك ، اخذتنا القيابة العامة ماخذ الجد . والذي اراده السيد فلوير بنوع خاص ان يتناول بالدرس

موضوعا من الحياة الواقعية ، انما هو ان يخلق وأن يبني نماذج حقه من الطبقة الوسطى ، وان يصل الى نتيجة مفيدة .

نعم ! ان ما كان يشغل موكلي في الدراسة التي قام بها انما هو هذا الهدف النافع ، بنى يتابع على مسرح الحياة ثلاثة أو أربعة أشخاص من المجتمع الحاضر ، يعيشون في ظروف الحياة الواقعية ، وتمثل امام عيني القارئ لوحة حقيقية لما نلقاه غالبا في العالم .

لقد قالت النياحة العامة عند تلخيص رأيا في « مدام بوفاري » ان العنوان الثاني لهذا الكتاب هو : « تاريخ زنا امرأة بالريف » . وانا اهتم بشدة ضد هذا العنوان . وهو يدلني في ذاته — فضلا عما أحسست به خلال مرافعتك من أولها الى نهايتها — على الفكرة التي كانت تسيطر عليك باستمرار . لا ! ان العنوان الثاني لهذا الكتاب ليس « تاريخ زنا امرأة بالريف » وانما هو — اذا كنت في حاجة ماسة الى عنوان آخر ، تاريخ التربية التي كثيرا ما تقدم في الريف .. تاريخ الاخطار التي يمكن أن تؤدي اليها .. تاريخ الاحتطاط والخلل والانتحار كنتيجة لخطئته اولى .. خطئته تسببت هي نفسها عن اخطاء اولى خطئته كثيرا ما تنساق اليها امرأة شابة .. تاريخ في التربية .. تاريخ لحياة سيئة كثيرا ما تكون التربية مقدمة لها . هذا هو ما اراد السيد فلوير ان يصوره ، لا زنا امرأة بالريف ، وسوف تتبينون هذا عندما نمر خلال الكتاب موضع الاتهام .

لقد تبينت النياحة العامة من كل هذا وقبل كل شيء الاون الشهواني . ولو انني استطعت ان آخذ اسطر الكتاب التي اقطعتها النياحة العامة ، وان اضعها في مقابل الاسطر الاخرى التي تركتها جانبا ، لحصلنا على نسبة عامة ، هي واحد الى خمسمائة ، وسوف ترون ان نسبة واحد الى خمسمائة ليست لونا شهوانيا ، هذا اللون الذي لا يوجد من اي مكان في الكتاب ، ولا يمكن أن يوجد الا بشرط الاقتطاع والتعليقات .

والآن ماذا اراد السيد فلوير ان يصور ؟ أولا تربية اعطيت لامرأة فوق المستوى الذي ولدت فيه ، على نحو ما يجب ان نعترف بانه كثير الحدوث عندنا . ثم ذلك الخليط من العناصر المتنافرة التي تتولد على هذا النحو في راس المرأة ، ثم عندما يأتي الزواج ولا يتناسب مع التربية ، بل مع الظروف التي ولدت فيها المرأة ، فان المؤلف قد اوضح كل الوقائع التي نحدث في الوضع الذي أصبحت فيه .

وما الذي يظهره ايضا ؟ انه يظهر امرأة تسير الى الرذيلة بسبب سوء المصاهرة . ومن الرذيلة الى آخر درجات الاحتطاط والتعاسة ، وبعد هنيهة عندما اصل الى تعريفكم بالكتاب في مجموعته بقراءة فقرات مختلفة ، سأتربح الى الحكمة السماح لي بان تلخص المشكلة في العبارات الآتية : هل اذا وضع هذا الكتاب بين يدي شاب يمكن ان يدفعه نحو اللذات المسهولة ، نحو الزنا ، أو على العكس يظهر له الخطر منذ الخطوات الاولى ، ويجعله يرتعد اشمزازا ؟ واذا وضعت المشكلة على هذا النحو فان ضميره هو الذي سيحلها .

وانا أقول في هذه اللحظة ما يأتي : ان السيد فلوير قد اراد ان يصور المرأة التي بدلا من ان تحاول أن تتلام مع الوضع الذي أصبحت فيه ومع حالتها ومولدها ، وبدلا من ان تحاول الانسجام مع الحياة التي تبث اليها بسبب — نظل مشغولة بالف رغبة غريبة استقتها من تربية مفرطة الملو بالنسبة اليها ، وبدلا من ان تنزل عند واجبات وضعها ، وهي ان تكون زوجة هادئة لطيب بالريف تقضي معه ايامها ، وبدلا من ان تبحث عن السعادة في منزلها وفي زوجها — تبحث عنها في اصغاف احلام لا تنتهي ، ثم انها لا تلبث ان تلقى في الطريق شابا يغازلها ويلعب معها

نفس اللبنة ، وهما معا لا خبرة لهما . وكل منهما يثر نفسه على نحو ما بالتدرج ، وتفزع عندما تعود الى دين سنواتها الاولى فلا تجد فيه القوة الكافية ، وسوف نرى عما قليل لماذا لم تجد فيه هذه القوة . ومع ذلك فان جهل الشاب وجهلها الخاص قد حفظها من اول خطر ، ولكنها عندما تلتقي برجل من ذلك الصنف الشائع الوفر المدد في العالم — يسك بها — وهي المرأة المسكينة التي قد انحرفت فعلا — وبجرما . هذا هو الشيء الاساسي ، وهو ما يجب ان نراه لانه هو الكتاب نفسه .

ان التباينة العامة تثور ، واعتقد انها مخطئة في هذه الثورة من ناحية الضمير والقلب الانساني ، لان مدام بوفاري في المشهد الاول تجد نوعا من اللذة والشهوة ، وانها حطمت سجنها ، وعادت الى بيتها وهي تقول : « ان لي عشيقا ! » وانتم تعتقدون ان هذه ليست اول صيحة للقلب البشري ، والحليل بيني وبينكم ، ولكن كان من الواجب ان ننظر الى ابعد من ذلك ، وعندئذ كنتم سترون انه اذا كانت اللحظة الاولى لهذا المسقوط تنثر عند هذه المرأة نوعا من حماسة الشهوة والمهذبان ، فان خيبة الامل لا تلبث ان تحدث بعد ذلك بعدة اسطر ، وكما يقول المؤلف ، انها لاحت امام نفسها ذليلة .

نعم ! خيبة الامل والالام والتدم تنزل بها في نفس اللحظة . فالرجل الذي منحته نفسها واستسلمت له لم يأخذها الا لكي يستخدمها لحظة كاللعبة ، فالتدم والغيظ يمزقها . وكان الذي اثاركم هو ان تسمعوا كل هذا يسمى بخيبة امل الزنا ، وكنتم تفضلون عبارة دنس الزنا ، عند كاتب يسجل اوضاع هذه المرأة التي لم تفهم الزواج ، واحسبت بالدنس من ملامسة زوج ، وحاولت ان تجد بعيدا عنه مثلها الاعلى ، فوجدت خيبة الامل من الزنا . لقد اثارتم هذه الكلمة ، وبدلا من خيبة الامل كنتم تفضلون عبارة « دنس الزنا » . وسوف تفصل المحكمة ، واما عن نفسي ، فاني لو كنت اسجل اوضاع نفس المرأة لقلت لها : اينها المرأة المسكينة ، اذا كنت تعتقد ان قبلات زوجك شيء ممل مضجر ، واذا كنت لا تجد في الحياة معه غير رتبة الزواج المملة — وهذا هو التعبير الذي اشار اليه الاتهام — واذا كان يلوح لك انك ترين دنسا في هذه الرابطة التي لم يسيطر عليها الحب ، فاحذري ، لان احلامك وهم ، وسوف تخيب تلك الاحلام يوما في قسوة . وان من يصيح — ايها السادة — باعلى صوته ، ويستخدم كلمة دنس للتعبير عن ما سببناه خيبة امل — من يفعل ذلك يقول كلمة حق ، ولكن غامضة ، لا تصيف شيئا الى الفهم . وانا افضل من لا يصيح عاليا ولا يتفوه بكلمة دنس ، ولكنه ينبه المرأة الى خيبة الامل وتبذل الاحلام ، ويقول لها انك حيث تبحثين عن الحب لن تجدي غير الاحلال ، وحيث تعتقدين انك ستجدين السعادة لن تجدي غير المرارة . والزوج الذي يذهب في هدوء الى اعماله ، والذي يقبلك ويخلع طاقته ويتناول الحساء معك ، هو زوج تافه يترك ، وانت تتظلمين الى رجل يحبك ويمسك . اينها الطفلة المسكينة ، ان هذا الرجل سيكون اباحيا ياخذك دقيقة لكي يلهو معك ، وسوف تاتي خيبة الامل من اللقاء الاول وربما من الثاني . وقد تعودين الى منزلك تشوي ترتلين اغنية الزنا : « ان لي عشيقا ! » وفي المرة الثالثة لن تكوني في حاجة الى ان تصلي اليه ، فخيبة الامل ستكون قد حلت . وهذا الرجل الذي حلمت به سيكون قد فقد كل جانبيه ، وستكونين قد وجدت في الحب رتبة الزواج المملة ، وستجدينه عندئذ مع الاحتقار والاشمزاز والتدم القاتل .

هذا ايها السادة هو ما خاله السيد فلوير وما صوره ، وما نجده في كل سطر من كتابه ، وهذا هو ما يميز كتابه عن جميع الكتب الاخرى التي من نفس النوع . وذلك لان عيوب المجتمع

الكبيرة تظهر عنده في كل صفحة . والزنا يسر عنده مليسا بالاشتمزاز والغزى . وقد اخط من العلاقات العاصية في الحياة أقوى درس يمكن ان يعطى لامرأة شابة . بل لجميع لك القفر من النساء الشابات اللاتي لا يجدن في المبادئ الشريفة السامية في دين صارم ما يثبتن في اداء واجباتهن كالمهات ، اللاتي لا يجننه بنوع خاص في ذلك الرضا وتلك المعرفة العميقة بالحياة – المعرفة التي تقول ان من الواجب ان نتعب بما نحن فيه ، ولكن يعملن احلامهن الى الخارج ، اولئك النسوة الشريفات الطائرات اللاتي قد يضيئهن – وهن غارقات في تفاصيل حياتهن الزوجية البلية – ما يدور حولهن . وثقوا ان كتابا كهذا سيدعو اكثر من واحدة بنهن الى التفكير . هذا هو ما فعله السيد فلوير .

ولتحذروا شيئا هاما ، فالسيد فلوير ليس بالرجل الذي يصور زنا ساهرا ، لكي يلجا بعد ذلك الى حيلة مسرحية . لا ! لقد قفزت في سرعة مسرفة من الصفحة التي قرانها الى الصفحة الاخرة . فالزنا عنده ليس الا سلسلة من العذاب والاسف والندم . ثم يصل الى تكفير نهائي مخيف وهو تكفير مسرف . واذا كان السيد فلوير مخطئا فهو مخطيء بالاسراف . وسأوضح لكم عما قليل معنى هذه العبارة . فالتكفير لا يطول انظاره . وهذا هو ما يجعل الكتاب اخلاقيا ونافعا الى اقصى حد ، وذلك لانه لا يعد المرأة الشابة ببعض من تلك السنوات الطيبة التي تستطيع في نهايتها ان تقول انها تستطيع ان تموت بعد ذلك . لا ! فالمرارة تأتي منذ اليوم الثاني ، وكذلك خيبة الأمل . والحل الاخلاقي موجود في كل سطر من الكتاب .

ان هذا الكتاب قد كتب بقدرة على الملاحظة شهد بها السيد محامي الامبراطورية . وهذا هو ما الفت اليه نظرهم . وذلك لانه اذا لم يكن هناك سبب للاتهام ، فان من الواجب ان يسقط . ان بهذا الكتاب قدرة رائعة حقا على ملاحظة ادق التفاصيل . ولقد استند الاتهام ايضا الى مقال منشور في مجلة « الضان » بتوقيع فلوير . ولينفض السيد محامي الامبراطورية بأن يلاحظ أولا ان هذا المقال غريب عن موضوع الاتهام ، ولينفض بأن يلاحظ ثانيا بقنا نعتبره مقالا بريئا واخلاقيا جدا في نظر المجتمع . وذلك بشرط ان ينفض محامي الامبراطورية بان يقرأ كاملا بدلا من ان يمزقه . ان الذي يثر في كتاب السيد فلوير هو ما سمته بعض المقالات القوية التي كتبت عنه بالدقة الفوتوغرافية في تصوير نماذج الاشياء ، وفي استنباط الفكرة والمقالب الانساني ، وهذا التصوير يزداد اثارة بسحر الاسلوب ، ولتلاحظوا جيدا أنه اذا كان لم يستخدم هذه الدقة الا في تصوير مشاهد الانحطاط ، لاستنطم ان تقولوا بحق ان المؤلف قد استطاب وصف الانحطاط بنلك القوة التي اخصى بها . وهو من اول صفحة الى آخر صفحة في كتابه قد تناول – دون اي تحفظ – جميع احداث حياة ايميا في طفولتها بمنزل ابيها ، وفي تربيتها بالدير لا نراه يعفو عن شيء . واولئك اللين قرأوا مثلي من البدء الى النهاية سيقولون – وهذا امر خطير ستمدونه له ومن يؤدي الى براصه فحسب ، بل كان من الواجب ان يجنبه كل اتهام – سيقولون انه عندما يصل الى الاجزاء الصعبة وهي مواضع الانحطاط – انه لم يفعل كبعض الكتاب اللين تعرفهم التيابة العامة جيدا ، ولكنها نسيتهن وهي تكتب اتهامها ، وهم اولئك الكتاب اللين اتيت الى هنا ببعض فقرات منهم – لا لكي اقراها – بل لكي تستعرضوها في غرفة الداولة ، وان كنت ستألو بعد هنية بعض اسطر منها . انه بدلا من ان يفعل ككبار كتابنا الكلاسيكيين وكبار اساتذتنا – اللين عندما يلتقون بشاهد تجتمع فيها حواس الرجل والمرأة لم يسكوا عن ان يقولوا كل شيء – بدلا من ان يفعل مثلهم ، نرى السيد فلوير يكفي بكلمة . وعندئذ تخفسي قدرته على الوصف ، لان تكفيره غفيف ، ولانه عندما يستطيع ان يكتب بطريقته الخاصة ،

وبالتسحر الكامل لاسلوبه ، يحس ان هناك اشياء لا يستطيع ان يقربها وان يصنها . ومع ذلك ترى القيلة المقلبة انه قد اسرف في القول ! وعندما اعرض رجلا ، حلا لهم من مؤلفات فلسفية كثيرة ان يصنوا هذه الاشياء ، وفي مقابل ذلك ادع الرجل الذي يمتلك فن الوصف الى اعلى درجة ، ولقد بمدلا من ان يستخدمه يقف ويحجم — عندما افعل هذا اكون على حق في ان اطلب الانصاف من الاتهام الذي وجه .

ومع ذلك ايها السادة فانه كما يحلو له ان يصف المهذ الضاحك الذي تلهو فيه ابنا وهي طفلة ، باوراقه وازهاره الصغيرة الوردية او المبيضاء عندما تتفتح ، والطرق المعبرة — فانه ايضا عندما يراها تخرج من هذا المهذ ، وتسير في طرق اخرى ، طرق تجد فيها الوهل ، وعندما توسخ فيها اقداما ، بل وتتناثر الاوساخ الى اعلى منا ، هل يجب عليه الا يقول هذا ؟ ! اننا عندئذ نكون كمن يحذف الكتاب كله ، بل والذهب الى ابد من ذلك فقول : انكم عندئذ تحذفون العنصر الاخلاقي بدعوى المحافظة عليه ! وذلك لانه اذا لم يكن اظهار الخطا ممكنا ، واذا لم يكن ممكنا ان يدل المؤلف عليه ، واذا كنا في لوحة مأخوذة من الحياة الواقعية ، هدفنا ان نظهر امام الفكر الخطر والسقوط والتكبر — اذا كنتم تريدون ان تمنعوا وصف كل هذا — فانكم تجردون عندئذ الكتاب من مغزاه .

ان هذا الكتاب لم يكن بالنسبة لوكلي موضوع تسلية لبيع ساعات ، بل هو يمثل دراسة سنين او ثلاث متواصلة . وساقول لكم الان شيئا آخر . فالسيد فلوير الذي — بعد سنوات من العمل والدرس ، وبعد كل هذه الرحلات والمكورات التي جمعها من الكتاب اللين قراهم — هذا السيد سترن من اين يستقي ، لان هذا شيء عجيب سوف ينهض بتبرير عمله . سترن انه هو ذا الالوان الشهوانية — مشبع ببوسويه وماسيون (الواعظين الدينيين الكبارين) ، وسوف نجده بعد هنيئة من دراستنا لهذين المؤلفين . وهو لم يحاول ان يسرق منهما ، بل ان يصدر في اوصافه عن الانتكار والالوان التي استخدمها . وبعد كل هذا الجهد الذي بذله يشفق ، وبعد ان حدد لكتابه هدفه — هل تعتقدون انه قد امتلأ ثقة بنفسه ، واطمان الى ما استخلص من دراساته وتاملاته لكي ينطلق فوراً الى العلبة ؟ ! لقد كان بلا ريب يستطيع ذلك لو انه كان رجلا مجهولا في العالم ، وكان اسمه ملكا خالصا له ، وباستطاعته ان يتصرف فيه وان يفعل به ما يحلو له ، ولكنني اكرر انه من اولئك اللين يلتزمون بمقتضيات القبالة . فاسمه فلوير ، وهو الابن الثاني للسيد فلوير ، وقد اراد ان يخط طريقه في الادب مع احترامه العميق للاخلاق والدين ، لا توجسا من اقبالية العامة ، فمثل هذا التوجس لا يمكن ان يمر بخاطره ، ولكن بدافع من الكرامة الشخصية ، لانه لا يريد ان يضع اسمه على راس كتاب اذا لاح هذا الكتاب لبعض الاشخاص اللين يؤمن بهم غير جدير بان ينشر . فالسيد فلوير قد قرأ — لا فقرات بل الكتاب كله امام بعض الاصحاء المرتضى المقام في الادب ، وذلك قبل ان يقدم شيئا الى المطبعة . وانسي اؤكد ان احدا منهم لم يناد بما ينير في هذه اللحظة كل هذه الاثارة — قسوة السيد محاسي الامبراطورية ، بل ولم يفكر احد منهم في مثل هذا ، وانما فحصوا فقط ، ودرسوا القيمة الادبية للكتاب . واما عن الهدف الاخلاقي ، فانه من الموضوع وعمد اللبس في كل سطر ، حتى انه لم تلح ضرورة لان يوضع موضع المناقشة . وعندما اطمان الى قيمة الكتاب واهس تشجيع ابنه رجال الصحافة نكرا — لم يفكر السيد فلوير الا في ان يدفع الى المطبعة والى النشر يكتابه . وكرر القول بان الجميع قد اجتمعوا على الاشادة بالموهبة الادبية وبالاسلوب ، وفي نفس الوقت بالفكرة الممتازة التي تسيطر على الكتاب منذ اوله الى آخر سطر فيه . وعندما جاءت المحاكمة لم

يكن هو الوحيد الذي دهش وحزن حزنا عميقا ، بل اسبحوا لي بان اقول اننا نحن الذين لا نفهم هذا الاتهام ، وانا اول اولئك الذين قرأوا الكتاب باهتمام بالغ بمجرد نشر اجزائه . ولقد يقال ان هؤلاء اصداق شخصيون ، ولقد يجوز ان نفلت منا بعض الامور الدقيقة مما اعتدناه في الحياة ، ولكنها لا يمكن ان نفلت من نساء نابهات الذكاء كاملات الطهر بالفات العفاف . وليس من الممكن ان انطق باسماء في هذه الجلسة ، ولكن ، لو انني اخبرتكم بما قبل للسيد فلوير ، وما قبل لي انا نفسي من ربات الاسر اللاتي قرأن هذا الكتاب ، ولو انني اخبرتكم بدهشتن بعد ان تركت في نفوسهن هذه القراءة من الاثر الطيب ، ما راين معه ان من واجبهن شكر المؤلف عليه . ولو انني اخبرتكم بدهشتن والمهن عندما علمن ان هذا الكتاب يجب ان يعتبر منافيا للاخلاق العامة، ولايمانهن الديني – ايمان حياتهن كلها – نعم ! نعم ! لو انني فعلت ذلك اذن لتجمع لدي من الاحكام الطبية ما يقويني – اذا كنت في حاجة الى تقوية عندما اكافح اتهامات التباية العامة .

ومع ذلك وسط كل هذه الاحكام الطبية الصادرة من الابداء المعاصرين ، هناك حكم اود ان اتقوله لكم – هناك حكم لا نحترمه فقط بسبب الخلق الجليل العظيم الذي يكافح في شجاعة كل يوم حتى وسط ضراوة الامم – بل ايضا بسبب العظمة التي يستمدها من ذكرى كل تلك الاعمال النافعة التي نشيد بها هنا ، ثم العظمة المستمدة من المؤلفات الابيية التي يجب ان نذكرها ، لانها هي التي تجعله مختصا واثرا وبنوع خاص العظمة المستمدة من الطهارة الموجودة في كل مؤلفاته ، والمعة المنتشرة في كافة كتاباته ، وذلك الرجل هو لامارتين .

لامارتين لم يكن يعرف موكلي ، ولم يكن يعلم انه موجود ، وقد قرأ لامارتين في بيته بالريف في كل عدد من أعداد « مجلة باريس » ، الجزء الذي نشر من مدام بوفاري . وقد تركت القراءة في نفس لامارتين من الآثار ما ظهر في كافة المرات التي ساحتكم عنها الآن .

فمنذ ايام عاد لامارتين الى باريس ، وفي اليوم التالي سأل عن محل اقامة السيد جوستاف فلوير ، فارسل الى المجلة يسأل عن محل اقامة المدعو السيد جوستاف فلوير الذي نشر في المجلة فصولا تحت عنوان مدام بوفاري . وكلف سكرتيره بان يذهب ليلبلغ السيد فلوير اعجابه ، وليعبر له عما احس من رضى عند قراءة كتابه ، كما يبلغه رغبته في ان يرى المؤلف الجديد الذي برز بفضل هذا الكتاب . ولقد ذهب موكلي الى لامارتين ، ولم يجد فيه فقط الرجل الذي تسجعه، بل رجلا قال له « لقد قدمت الي خبر كتاب قرأته منذ عشرين عاما . » وبالجملة كان تناؤه من القوة بحيث ان موكلي كاد تواضعه ان يمنعه عن ان يخبرني به . وقد برهن له لامارتين على انه قد قرأ الاجزاء المنتشرة ، وكان هذا البرهان على الطف نحو ، اذ اخذ يسمعه صفحات كاملة . وكل ما هناك ان لامارتين اضاف « وكما اني قد قرأت بدون تحفظ حتى الصفحة الاخيرة ، فانني قد لنتك في الصفحات الاخيرة ، ولذلك لانك قد آلمتني وهلمتني على ان احس بالالم فعلا ، فالتكبر غير متناسب مع الجريمة ، وقد خلقت موتا بشما مخيفا ، ولا شك ان المرأة التي تندس سرير الزوجية يجب ان تنتظر تكفيرا ، ولكن هذا التكبر بشع ، فهو عذاب لم ير مثله . ولقد سر تبعبدا وانزلت الالم باعصابي ، وهذه القوة في الوصف التي استخدمتها في اللحظات الاخيرة للموت قد تركت في نفسي الما لا يوصف . وعندما سالالمجوستاف فلوير قائلا : « ولكن هل تفهم يا سيد دى لامارتين ان احاكم – لانني الفت كتابا كهذا – امام محكمة البوليس الجزائي ، للاساءة الى الاخلاق العامة والى الدين ؟ » – اجابه لامارتين « انني اعتقد يا ولدي العزيز انني كتبت طوال حياتي الرجل الذي فهم فيها صحيحا في مؤلفاته الابيية ومؤلفاته الاخرى ما هي الاخلاق العامة والاخلاق الدينية ، وليس من الممكن ان توجد في فرنسا محكمة تبينه ، وانه لما

يوجب بالغ الأسف أن يساء على هذا النحو فهم طبيعة مؤلفة ، وأن يؤمر بمحاكمتك ، ولكنه من غير الممكن — مراعاة لشرف وطننا وشرف عصرنا — أن توجد محكمة تدينك .
هذا هو ما حدث بالأمس بين لامرتين وفلوبير ، وأن من حقي أن أقول لكم أن هذا الحكم من الأحكام التي تستحق أن توزن .

هذا أمر لا شك فيه ولننظر كيف يستطيع ضميري أنا أن يقول أن « مدام بوفاري » كتاب طبيب وعمل طبيب ؟ وأرجو أن تسمحوا لي بأن أضيف أنني لست سهلاً فيما يختص بمثل هذه الأمور . وليس التساهل من عاداتي ، وبين يدي مؤلفات أدبية ، إلا أنها — وإن تكن صادرة عن كبار كتابنا — إلا أنها لم تستوقف نظري ، وسوف أعرض عليكم في غرفة المدائلة بعض أسطر لم يحل لي قط أن أقرأها . وسوف اطلب منكم السماح لي بأن أقول أنني عندما وصلت إلى نهاية كتاب السيد فلوبيير تأكدت أن أي فقرة مما حذفته مجلة باريس لم تجمع كل هذا ، وسأطلب اليكم فوق ذلك أن تضموا حكمي إلى الحكم الأكثر سموا واستنارة ، الذي ذكرته منذ هنيهة .
هذه أيها السادة حقيقة مملوءة بأراء رجال الأدب المعاصرين — ومن بينهم أكثرهم امتيازاً — عن الكتاب الذي نتظرون فيه ، وعن الإعجاب الذي أحسوا به عند قراءتهم ، لهذا الكتلـب الجيد الذي هو في نفس الوقت كتاب أخلاقي مفيد .

والآن كيف أمكن أن يصبح مثل هذا الكتاب موضوع محاكمة ؟ هل تسمحون لي بأن أخبركم بذلك ؟ إن لجنة القراءة الخاصة بمجلة باريس كانت قد قرأت الكتاب كله ، وذلك لأن المخطوط كان قد أرسل إلى المجلة قبل النشر بزمن طويل . ولم تجد اللجنة في الكتاب ما يعاب . وعندما وصلوا إلى طبع الجزء الخاص بعدد أول ديسمبر سنة ١٨٥٦ ، نفر أحد مديري المجلة من المشهد الخاص بالعربية وقال « إن هذا غير لائق وسنحذفه . ورأي فلوبيير في هذا الحذف اهانة ، ولم يشأ أن يحدث دون أن يكون ملاحظة بأسفل الصفحة ، وهو الذي تمسك بهذه الملاحظة ، وهو الذي دفعته كرامة المؤلف إلى أن يرفض مسح كتابه ، كما أنه لم يشأ من جهة أخرى أن يتسبب في شيء يعلق المجلة ، فقال : « احذفوا ما تريدون ولكن اعلنوا انكم قد حذفتم » . وعندئذ اتفقوا على نشر الملاحظة الآتية : « لقد رأيت الإدارة نفسها مضطرة إلى أن تحذف هنا فقرة لا يمكن أن تليق بتحرير مجلة باريس ، فنحن نحيط هنا المؤلف علماً بذلك » .

وها هي الفقرة المحذوفة سأقرأها عليكم ، فلدينا منها مسودة بذلنا جهداً كبيراً في الحصول عليها . وها هي الجزء الأول الذي لم يتغير منه حرف ، وأما الجزء الثاني فقد أصلحت فيه كلمة .

« — إلى أين نحن ذاهبون ؟ فقال ليون وهو يدفع أيبا في العربية : إلى حيث تريدان ! ونزلت المستائر ، وتحركت في الطريق الآلة الثقيلة ! »

« وانحدرت في شارع الكوبري الكبير ، وعبرت ميدان الفنون ورصيف نابليون والكوبرى الجديد ، ووقفت فجأة أمام تمثال بيير كورني . « فصوت صوت منبعثه من الداخل : استمر ! » واستأنفت العربية سيرها ، وقد أخذت منذ ناصية لافاييت تسرع بسبب الانحدار حتى دخلت عدوا محطة السكة الحديد .

« فصاح نفس الصوت : لا ! استمر ! إلى الإمام !

« وخرجت العربية من السياج ، ووصلت بعد هنيهة إلى الساحة ، وأخذت تخب في رفق وسط أشجار الدردار الضخمة . وجفف الحوذي جبهته ، ووضع قبعة الجلدية السوداء فوق مخفيه ، ودفع العربية خارج الطرقات إلى حافة النفق بجوار الحشائش .

« وسارت وقتنا طويلا على طول النهار ، فوق طريق ارساء السفن المرصوف بالزلط الجاف ، من ناحية اويسيل خلف الجزر .

« ولكنها اندفعت فجأة عبر طريق كاتمار وسوزفيل وجرانديسوسيه ، وشارع اليف ، ووقفت وقتها الثالثة أمام حديقة النباتات .

« وصاح الصوت في عنف أشد : استمر في السير !

واستأنفت الشوط فورا فمرت بسان سيفر ورصيف كورانيير ، ورصيف الطواحين . وعادت مرة ثانية الى الكوبري عن طريق ميدان شان دي مارس ، ومن خلف حديقة المستشفى حيث كان بعض المعجزة يتزهون في الشمس في ستر سوداء ، على طول شرفة مخضرة بلوراك اللابلاب . وصعدت العربة بولفار بونفري وسلكت بولفار كوشواز ، ثم مونريفوديه كله ، حتى وصلت الى هضبة ديفيل !

« ثم عادت واخذت تتسكع دون قصد ولا اتجاه معين ، فرؤيت عند سابول ، ولنسكير ، وجبل جارجان ، ورجمار ، وبيدان جياربوا ، وشارع مالاديريه ، وشارع ديناندريه وامام سان رومان ، وسان فيغيان ، وسان ماکلو ، وسان نيكييز امام الجبرك عند البرج القيم المنخفض ، وعند الترواييب ، والمقبرة ذات التماثيل . ومن وقت الى آخر كان الحوذني يلقي من فوق مقعده — بنظرات ولهانة — الى البارات ، ولم يفهم هذا الولع بالحركة الذي يدفع هذين الشخصين الى حد لا يريدان معه الوقوف ! ولقد حاول أن يقف احبنا ، ولكنه كان يسمع فورا صيحات الغضب تنطلق من خلفه . وعندئذ كان ينهال بالسوط على حصانيه الهزيلين المتصبين عرقا ، ولكن دون ان يلقي بالا الى اهتزاز العجلة . وهي تحتك هنا وهناك ، وقد اعتل مزاجه ، واوشك ان يبكي من العطش والتعب والحزن !!

« وعند الجناء وسط عربات القفل والبراميل ، وفي الشوارع ، وعند المحطات ، كان البرجوازيون يفتحون اعينا كبيرة مندهشة من هذا المنظر الخارق في الريف : منظر عربة ذات ستائر مسدلة ، وقد لاحت باستمرار اكثر اغلاقا من قبر ، وهي تهتز كالمسغنة !

وذات مرة في وسط النهار ، وفي قلب الحقول ، وفي الوقت الذي كانت ترسل فيه الشمس اقوى اشعتها فوق المصابيح العتيقة الفضية الملون ، مرت يد عارية من تحت الستائر المصفرة الصفراء ، واهتت تصامصات من الورق انتشرت مع الريح ، وتساقتت عن بعد قريب كالفراشات البيضاء فوق حقل من البرسيم الاحمر الزهر !

« ثم وقتت العربة حوالي الساعة السادسة في زقاق يحي بوفوازيه ، ونزلت منها امرأة اخذت تسير بمسدلة الخمار دون ان تلتف راسها !

« عندما وصلت مدام بوفاري الى الفندق ادهشها الا ترى عربة السفر ، وذلك لان هيفر — الذي انتظرها ثلاثا وخمسين دقيقة — كان قد رحل !

ومع ذلك فان شيئا لم يكن يضطرها الى الرحيل ، ولكنها كانت قد وعدت بان تعود في نفس المساء ، وكان شارل ينتظرها ، كما انها كانت قد اخذت تسهر في قلبها بذلك الاستسلام الجبان الذي يعتبر بالنسبة للكثير من النساء بمثابة العقاب ، والقدية عن الزنا على السواء . «

لقد لفت السيد فلوبيير نظري الى ان التباينة العامة تاخذ عليه هذه العبارة الاخيرة .

السيد محامي الامبراطورية : لا ! لقد اشترت اليها .

السيد سينار : ان الشيء المؤكد هو انه اذا كان هناك ماخذ فانه يسقط ازاء عبارات :

« العقاب والقدية عن الزنا على السواء » . فضلا عن ذلك ، فان هذا يمكن ان يكون موضوع

مؤاخذة يستند الى نفس الاساس الذي تستند اليه المؤاخذات الاخرى . وذلك لان كل ما اختمت به موكلي ليس فيه شيء يمكن التذليل عليه تديلا جيدا .

واذن ايها السادة فانه لما كانت هذه التزهة الغربية لم ترق لادارة تحرير المجلة ، فان الحذف قد اجري ، وكان في هذا الحذف افراط في التحفظ من جانب المجلة ، ومن المؤكد ان هذا الاسراف في التحفظ لم يكن من الممكن ان يفسح المجال لمحاكمته . ومع ذلك فانكم سترون كيف انه قد افسح المجال لهذه المحاكمة !! والشيء الذي لا نراه ، والذي قد حذف - يلوح بالسخم الغربية . فقد افترض الناس اشياء كثيرة لم يكن لها وجود ، كما رايتهم من قراءة الفقرة الاصلية . وفي الحق هل تعلمون ماذا افترضوا ؟ لقد رجحوا ان الفقرة المحذوفة كان فيها شيء يشبه ما سوف نتفصلون بقراءته في رواية من اعظم الروايات التي خرجت من قلم عضو مبدل من اعضاء المجمع الفرنسي وهو السيد « ميرييه » .

فالسيد ميرييه في رواية عنوانها « خطأ مزدوج » يقص مشهدا يحدث في عربة برید . وليس المهم هو المكان من حيث انه عربة ، وانما المهم هنا هو تفصيل ما يجري بداخلها . ولست ارید ان اسيء استخدام حق الدفاع ، وانما ساقوم بتقييم هذا الكتاب الى القيادة العامة والسلي الحكمة . ولو اننا كتبنا نصف او ربع ما كتبه السيد ميرييه ، اذن لوجدت بعض العرج في اداء المهمة التي كلفت بها ، او لاضطرت الى تحويرها . فبدلا من ان اتقول ما قلت ، وان اؤكد ان السيد فلوبيير قد كتب كتابا طيبا شريفا ناعما اخلاقيا ، كنت اتقول ان للادب حقوقه ، والسيد ميرييه قد كتب كتابا ادبيا رائعا ، ولا يجوز ان تترمت بسبب بعض التفاصيل عندما يكون الكتاب في مجموعه لا غبار عليه . وكنت اتفق عند هذا الحد فابترنه وتبرئونه ، وفي الحق ان المؤلف لا يمكن ان يؤاخذ في مثل هذه الامور للاغفال ، ولسوف ترون تفصيل ما حدث في العربة ، ولكن لما كان موكلي قد اكتفى بان يتحدث عن نزهة ، ولم يظهر ما في الداخل الا بعبارة « مرت يد عارية من تحت الستائر الصغيرة الصفراء ، واقت بصاصات من الورق انتشرت مع الريح ، وتساقت عن بعد قريب كثرشات بيضاء فوق حقل من البرسيم الاحمر المزهر » . ولما كان موكلي قد اكتفى بهذا ، فان احدا لم يعلم شيئا ، واخذ الجميع يفترضون - بحكم الحذف نفسه - انه قد قال ، على الاقل ، قدر ما قال عضو المجمع الفرنسي وما انتم ترون انه لم يحدث من ذلك شيء .

وفي الحق ان هذا الحذف غير الموافق هو القضية ، وذلك لان المكاتب المكلفة - تصق - بان تراقب كافة المطبوعات التي يمكن ان تسيء الى الاخلاق العامة ، وعندما رأت هذا الحذف تنهت ، وانا مضطر ان اعترف - بعد استئذان السادة مديري تحرير « مجلة باريس » - بان هؤلاء السادة قد اعملوا مقصم بعد المكان الذي كان من الواجب ان يملوه فيه بكلتين ، وذلك لانه كان من الواجب ان يملوه قبل الصعود في العربة ، واما الحذف بعد هذه الكلمات فلم يكن له داع ، وكان الحذف غير موفق . ولكم ايها السادة ، المديرون لتحرير المجلة ، اذا ختمت قد ارتكبتم هذا الخطا الصغير ، فانكم تكفرون عنه اليوم .

لقد قالوا في مكاتب المراقبة : فلتنبه الى ما سيلي ! وعندما ظهر العدد التالي شنوا الحرب على الكلمات . ولم يحل موظفو هذه المكاتب انفسهم على قراءة الكل ، وعندما راوا ان المؤلف قد كتب ان امراة قد خلعت كافة ملابسها ، شعروا بالقفور ، دون ان يستمروا في القراءة . والسيد فلوبيير في الحق يختلف عن كبار كتابنا في انه لم يعن بوصف مرمر ذراعها العاريتين ، وصدرها ... الخ ... ولم يقل كما قال شاعر نخبه :

« رايت في صدرها الجليل المرمر الحار القسي ، والزنيق والببلوط والعقيق ، والورد ،

والمروق الزرقاء زرقة السماء ، كما اربنيته في الماضي . وما تجبل ولا تزين الابهرية ، عندما تطابت لياينا ، ورائها الوسادة الرخوة تنام وتستيقظ تحت القبلات ! »
انه لم يقل شيئا مماثلا لما قاله اندريه شينييه ، ولكنه قال « استسلمت ... وسقطت ملابسها ! »

استسلمت ! ماذا ؟ هل كل وصف محظور اذن ! ولكن عندما نتهم يجب أن نقرأ كل شيء . والسيد محامي اليمبراطورية لم يقرأ كل شيء ، فالفقرة التي بينينا لا تقف عندما وقف ، وفيها المعادل الاتي « ومع ذلك فقد كان فوق جبينها المغطى بقطرات العرق الباردة ، وفوق شفيتها المتمتمين ، وفي حذقتها الضالتهن وفي ضمة نراعياها شيء مسرف غامض مقيض ، يلوح للعيون انه ينساب بينهما في تسلل ، وكأنه يود أن يفصل بينهما ! »

انهم لم يقرأوا هذا في المكاتب ، والسيد محامي اليمبراطورية لم يلتفت اليه منذ لحظة ، ولم ير الا « ثم تسقط ملابسها كلها بحركة واحدة » ، ثم صاح : اساءة للاخلاق العامة ! وفي الحق انه لأمر مسرف السهولة ان نتهم بمثل هذه الطريقة ، والله يحفظ مؤلفي المعاجم من أن يقعوا في قبضة السيد محامي اليمبراطورية ! ومن الذي يستطيع أن يفلت من الاتهام اذا كنا نحذف الكلمات – لا العبارات – نعد قائمة بكافة الكلمات التي يمكن أن نسيء الى الاخلاق أو الدين؟

لقد كانت الفكرة الاولى عند موكلي – وهي الفكرة التي لقيت مقاومة – هي هذه : « ليس هناك غير شيء واحد يجب عمله ، وهو أن يطبع الكتاب كما خرج من بين يديه فوراً ودون حذف ، بل كاملاً ، مع اكمال المشهد الخاص بالعربية » ولقد كنت من رايه ، لان هذا هو أحسن دفاع عن موكلي ، اعني الطبع الكامل للكتاب ، مع ابراز بعض نقاط نرجو الحكمة ان توجه اليها بنوع خاص انتباهها ، ولقد اخترت انا نفسي عنواناً لهذا الكتيب وهو « مذكرة من السيد جوستاف فلوير ضد الاتهام الموجه اليه بالاساءة الى الاخلاق المبنية » كما كتبت بيدي : « محكمة البوليس الجنائي – الفرقة السادسة مع ذكر اسم الرئيس والنيابة العامة ، وكانت هناك مقدمة ورد فيها « لقد انتهت بسبب عبارات اخذت هنا وهناك من كتابي ولا أستطيع أن ادافع عن نفسي الا بكلامي . » ومطالبة القضاة بان يقرأوا رواية بأكملها مطالبة بالكثير ، ولكننا امام قضاة يحبون الحقيقة ، ويريدونها ولا يحجمون عن أي تمب في سبيل معرفتها . اننا امام قضاة يريدون العدل ، ويريدونه بزم ، وسيقرأون دون أي تردد كل ما نرجوهم أن يقرأوه . ولقد قلت للسيد فلوير : أرسل هذا الى المطبعة فوراً ، وضع في أسفله اسمي الى جوار اسمك : سينار الحامي . وكان الطبع قد ابتدا ، وأعلن انه ستظهر من الكتاب مائة نسخة ، وسار الطبع بسرعة كبيرة ، وكان العمل يجري ليلاً ونهاراً ، ولكن جاء الامر بحظر الاستمرار في الطبع – لا طبع كتاب ، بل طبع مذكرة تحتوي على الكتاب المدان مع مذكرات تفسيرية ! ولقد شكونا الى السيد القاتب العام للامبراطورية فلخبرنا بان الحظ مطلق ، وانه لا يمكن رفعه .

فليكن ! فانا لم نكن لننشر الكتاب مع مذكراتنا وملاحظاتنا ، ولكنه اذا كانت قرأتكم الاولى ايها السادة قد تركت لديكم شكاً ، فاني اتقدم اليكم راجياً ان تتفضلوا بقراءة الكتاب مرة أخرى . فقمتم تحبون الحقيقة وتريدونها ، وانتم لا يمكن ان تكونوا اولئك الذين عندما يقدم اليهم سطران من كتابة رجل ، لا بد ان يأمروا بشنقه على أية حال ! وانتم لا تريدون أن يحكم على رجل بفقرات اخترت بهارة كبيرة أو صغيرة . انكم لا تريدون هذا ، ولا تريدون أن نحرّمونا من وسائل الدفاع العادية . وما هو الكتاب امامكم ، وهو – وان لم يكن مريحاً كالذي كنا نريد ان نعمله – الا انكم ستقومون بتفسيكم بعمل التقسيمات والملاحظات والتجميعات ، لانكم تريدون الحقيقة ، ومن

الواجب ان تكون الحقيقة هي اساس حكمكم . والحقيقة ستبرز من فحص جاد للكتاب .
 ومع ذلك فانا لا استطيع ان اکتفي بهذا ، فالتياية العامة تهاجم الكتاب ، ويجب أن اتناول
 الكتاب نفسه لكي اذافع عنه ، وان اكمل الاقتباسات التي اقتبستها ، كما اظهر بطلان الاتهام
 الحصب على كل فقرة ، وسيكون هذا كل دفاعي .
 انني لن احاول قطعا ان اجابه الاحكام السامية الحية المؤثرة - التي احاطت بها التياية
 العامة في كل ما قالته - بالحكام مثلها ! فالدفاع ليس من حقه ان يستخدم نفس اللهجة ، ولكنه
 سيکتفي بايراد التصوص كما هي .

واتا اعلن يادى ذي بدء انه ليس هناك ما هو اكثر بطلانا مما قيل منذ هنيهة عن اللون
 الشهواني . اللون الشهواني ؟ ! اين اذن وجئتم هذا ؟ ما هي المرأة التي وصفها موکلي في
 مدام بوفاري ؟ آه ! انه وايم الحق لامر محزن ان نقول - وان يكن قولنا الحق - انها فتاة ولدت
 شريفة كما تولد جميع الفتيات تقريبا ، او على الاقل اكثرهن عددا ، ولكن صميمات عندما تصيبهن
 المثربة بالرخواوة ، او تدفع بهن في طريق فاسد بدلا من ان تقوين . لقد اختار فتاة ، ولكن هل
 اختارها فاسدة بطبيعتها ؟ ! لا ! ولكنها ذات طبيعة سريعة التائر عرضة لاتقاد العاطفة .

لقد قال السيد مهمامي الامبراطورية ان المؤلف يقدم هذه الفتاة دائما باعتبارها شهوانية ،
 ولكن لا ! ان يقدمها مولودة في الريف - مولودة في المزرعة حيث تمنى بكافة اعمال ابيها . وحيث
 لا يمكن ان يكون أي نوع من الشهوانية قد مر بنفسها او بقلبها ، ثم يقدمها بعد ذلك وقد انصرفت
 عن العصر الذي كان مقدرها لها بحكم الطبيعة ، وهو ان تربي من اجل المزرعة التي ستحيها او في
 وسط مشابه - نعم ! يقدمها وهي مسرة بالمشيئة غير المتصورة لاب يخطر له ان يربي في الدير
 هذه البنت المولودة في المزرعة ، والتي كان من المقدر ان تتزوج مزارعا ورجلا من الريف . فها
 هي تقاد الى دير خارج من محيطها . ولما كان كل ما قالته التياية العامة كلاما خطيرا ، فاته يتحتم
 الانترك شيئا بدون رد . آه ! لقد تحدثت يا سيدي عن خطاياها الصغيرة ، واوردت بضممة
 اسطر مما نشر في الدفعة الاولى ، وقلت « عندما كانت تذهب لتعترف ، كانت تخرع خطايا
 صغيرة كي تظل اطول وقت ممكن جاثية في الظل . . . تحت همس القسيس » . ولقد اخطت خطأ
 جسيما في حكمك على موکلي ، فهو لم يرتكب الخطا الذي اخذته به ، وانما انت الذي اخطت .
 اولا : فيما يختص بسن الفتاة ، فانها لما كانت قد دخلت الدير في الثالثة عشرة ، فانه من الواضح
 انها كانت في الرابعة عشرة عندما اخذت تذهب الى كرسي الاعتراف ، وهي اذن لم تكن طفلة في
 العاشرة كما حلاك ان تقول ، وقد اخطت في هذا خطأ ماديا . ولكنني لا اريد ان اتهم عند ما
 هو غير محقول من ان طفلة في الماشرة تحب ان تبقى عند كرسي الاعتراف تحت همس القسيس .
 واما ما اريده فهو ان تقرأ الاسطر السابقة ، وان كت اعترف بما في هذا من صعوبة . وهنا
 يظهر ما تشكو من نقص ناتج عن عدم اعادنا المذكرة ، وذلك لان هذه المذكرة كانت تغنيا عن
 البحث في ستة مجلدات .

لقد لفت نظركم الى هذه الفقرة لكي اعيد الى مدام بوفاري شخصيتها الحقيقية . وهل
 تصمحوون لي بلن اقول لكم ما يبدو لي بالغ الخطورة ، وهو ما فهمه السيد فلوير وابرزته ؟ ان هناك
 نوعا من الدين هو ذلك الذي يتحدثون عنه غالبا الى الفتيات ، وهو اردا الديانات . ولقد يختلف
 تقدير القاس في هذا الصدد ، ولكنني اعلن عاليا عن نفسي ما ياتي : وهو انني لا اعرف شيئا
 جميلا مفيدا ضروريا كي يحفظ ، لا النساء وحدهن في طريق الهيمنة المستقيمة ، بل والرجال
 انفسهم ، اللذين يتعرضون احيانا لحن مؤلمة لا بد من اجتيازها - اقول انني لا اعرف شيئا

أكثر نفعا وضرورة من الإحساس الديني ، ولكنني أعني الإحساس الديني الجاد ، بل واسمهوا لي بان أقول القاسي .

إنني أريد أن يدرك أطفالنا ألها ، ولكنني لا أريده فكرة مجردة من أفكار الحلول ، بل كأننا ساميا يتصلون به ، ويرتفعون نحوه لكي يتضرعوا ، ولي نفس الوقت يقويهم ويحصنهم . وهذه الفكرة التي هي فكرتي وفكرتكم ، هي القوة التي نستند إليها في أيام الشدة ، وهي القوة فيما نسميه في هذا العالم ، بل ولي السماوات الأخرى بالملجأ ، وهي قوة الضمضاء . وهذه الفكرة هي التي تعطى المرأة لك الجلد الذي يجعلها تتقبل راضية صفات الحياة ، والذي يجعلها ترد الى الله ما تمنأه ، وتسألها العون على أداء واجبها . وهذه الديانة أيها السادة هي المسيحية ، وهي الديانة التي تقيم علاقات بين الله والإنسان . والمسيحية عندما تدخل بيننا وبين الله قوة وسيطة تجعل الله أكثر قربا ، والاتصال به أكثر سهولة . ولتقبل أم لك الذي كان إنسانا لها - صلوات المرأة ، فأنني لا أرى في هذا ما يمس القداء أو القداسة الدينية ، بل ولا الشعور نفسه . ولكن ها هي النقطة التي يبدأ عندها المساس ، فاتهم لكي يلائموا بين الدين وكأنه الطبايع ، نراهم يلجأون الى أنواع مختلفة من الأشياء الصغيرة الهزيلة البائسة الحقيرة . ففخامة الطقوس بدلا من أن تكون تلك الفخامة التي تأسر أرواحنا - هذه الفخامة نراها تكهدر فتصبح تجارة صغيرة في المخلفات الدينية والانواط وتماثيل « الآلهة » الصغيرة ، وتماثيل « العذارى » الطيبات ! فبماذا تتعلق أيها السادة نفوس الأطفال المتطلعة الحارة العاطفية ، ونفوس الفتيات بنوع خاص ؟ أنها تتعلق بهذه الصور ، أنها تتعلق بتلك الصور الضعيفة الهزيلة الحقيرة التي تمثل الروح الدينية . وعندئذ يصنعن لانسهن دينات صغيرة للعبادة ، ومحبات صغيرة لاتباع عواطفهن وحبهن . وبدلا من أن يستقر في أرواهن الشعور بالله والشعور بالواجب ، نراهن يستسلمن الى أضغاث أحلام ، وإلى عبادات صغيرة ، ومحبات صغيرة ، ثم يأتي الشعور ، بل ويجب أن نعترف بالحقيقة فنقول : ثم تأتي عدة أفكار عن محبة الغير ، وعن الحنان ، والحب الصوري ، وآلاف من هذه الصور التي تتخذ بها الفتيات ، والتي تجعل الدين دينا حسيا . وإذا بهؤلاء الأطفال المساكين الضعفاء والميالين بطبيعتهم الى سرعة التصديق يقعون في حبال كل هذا : في حبال الشعور ، وأضغاث الأحلام ، بدلا من أن يتعلموا بشيء معقول جدي . ومن هنا تطرون على كثير من النساء الفاتنات دون أن يكن متدينات على الإطلاق . وعندما تدفعهن الريح خارج الطريق الذي يجب أن يسرن فيه ، لا يجدن القوة ، بل يجدن أنواعا من المشاعر الحسية التي تثرهن . أوه ! لقد دفعتوني الى أن أخلط في لوحة المجتمع الحديث بين العنصر الديني والعنصر الحسي . ولتتهوا انن المجتمع الذي نعيش فيه ، ولكن لا تتهوا رجلا يصبح كما صاح بوسوية : استيقظوا ! واحذروا الخطر ! ولكن من يتقدم ليقول للكباب : احذروا ، فإن هذه ليست عادات طيبة تقدمونها لبناتكم ، وان كل هذا الخليط من الصوفية شيئا يطبع اللين بالحسية - ان من يتقدم ليقول هذا ، انما يقول الحق ، وبسبب هذا تتهون فلوير ، وبسبب هذا أيضا أشيد بمسلكه . نعم ! لقد أحسن بأن يبينه الأسر على هذا النحو الى أخطار اشغال الصواطف عند الفتيات ، اللاتي يتعلمن بمبادات صغيرة ، بدلا من أن يتمسكن بدين قوي صارم يسندهن في أيام الضعف . والآن سنرون من اين يأتي اختراع الخطايا الصغيرة « تحت همس التيسيس » .

ولتقرا ص ٣٠

« كانت قد قرأت بول وفرجينى واخذت تحلم بالنزل الصغير المصنوع من البوص ، وبالعبد دومنجو والكلب فيديل ، كما اخذت تعلم بنوع خاص بالصدقة الرقيقة لآخ صغير طيب يذهب

ليبحث لك عن المأكلة الحمراء في اشجار كبيرة أعلى من أبراج التواقيس ، او الذي يجري عاري القدمين على الرمال لكي يحمل اليك عش طائر .
فهل هذا شهواني أيها السادة ؟ ولتستمر ...

محامي الإمبراطورية : انني لم أقل ان هذه الفترة شهوانية .
السيد سينار : انني اسالك العفو ، فهذه الفترة هي بالذات التي انتزعت منها عبارة شهوانية ولم تستطع ان تجدها شهوانية الا بعد ان عزلتها عما يسبقها ويلحقها :

« بدلا من ان تتابع الصلاة ، اخذت نظرك في كتابها الى الصور الدينية المحاطة باطار في زرقه السماء ، والتي تستخدم لتعيين مواضع القراءة . وكانت تحب التمجيد المريضة ، والمقلب المقدس الذي يخترقه سهم حاد ، او المسيح المسكين الذي يعض في خطواته وهو يسير تحت ثقل الصليب . وحاولت على سبيل قهر الشهوات ان تظل بدون طعام يوما بأكمله ، واخذت تبحث في راسها عن نذر توفيه . »

هذا ما لا يجب ان ننساه ، فهي عندما تفتخر خطايا صغيرة اثناء الاعتراف ، نجد في المسطر السابق انها كانت تبحث في راسها عن نذر توفيه ، ومن الواضح ان الافكار قد شوهدت في مكان آخر . وانا اسالك الآن : هل ناقشت فقرتك ؟ ولكنني استمر . »

« وفي المساء كن يقرآن بعض النصوص الدينية قبل الصلاة ، وكانت هذه النصوص خلال الاسبوع عبارة عن ملخص للتاريخ المقدس ، او محاضرات القس فرايسينو . وفي يوم الاحد فقرات من عقيدة المسيحية كن يقرانها على سبيل الترويح . وبداية لهفة كانت تنصت في المرات الاولى الى التحبيب الرنان للالحزان الرومانتيكية ، وهي تتردد مع كافة اصدااء الارض والابدية .

ولو انها كانت قد قضت طفولتها في المخزن الخلفي المظلم في حاثوت يحي تجاري ، لربما كانت نفسها قد تفتحت الذن للقسوة الشعرية تنبعث عن الطبيعة ، تلك القسوة التي لا تصل اليها عادة الا عن طريق حديث الكتاب عنها . ولكنها كانت شديدة المعرفة بالحقول ، وكانت تعرف نفاذ القطعان وحلب اللبن والمحارث . ولما كانت قد الفت المناظر الهائلة ، فاتها قد اخذت على العكس تنتج نحو المناظر المثيرة . ولم تكن تحب البحر الا بسبب عواصفه ، ولا الخضرة الا اذا كانت بمنفرة بين الانقاض ، وكان لا بد لها ان تستطع انتزاع ما يشبه القنعة الشخصية من الاشياء ، وكانت تطرح جانبا - كشيء غير نافع - كل ما لا يستطيع قلبها ان يستخدمه - من الاستهلاك المباشر ، وذلك بحكم مزاجها الذي كان مزاجا عاطفيا اكثر منه مزاج فنان ، يبحث عن الانفصالات لا عن المناظر . »

ولسوف ترون تلك الاحتياطات الدقيقة التي ادخل بها المؤلف تلك العانس الورعة ، وكيف انساب في تعليم الدين داخل الدير عنصر جديد ، هو عنصر الرواية التي حملتها هذه الاجنبية . ومن الواجب الا ننسى قط هذا عندما نعرض للحكم على الاخلاق الدينية .

« كانت في الدير عانس تأتي كل شهر ثمانية ايام لتمل في « البياضات » . وكانت في حيازة المطرانية باعتبار انها تنتمي الى اسرة قديمة من القبلاء الذين قوضتهم الثورة ، وكانت تاكل في المطعم على مائدة الراهبات . وبعد الطعام كانت تتبادل معهن طرفا من الحديث قبل ان تصعد الى عملها . وكثيرا ما كانت طالبات الداخلية يهرين من صالة الذاكرة لكي يذهبن لرؤيتها . وكانت تحفظ عن ظهر قلب اغاني غرامية من القرن الماضي ، وتغنيها بصوت خافت ، وهي تدفع ابرتها . وكانت تقص حكايات وتروي اخبارا ، وتؤذي المهمات في المدينة ، وتعب الكهيات سرا رواية كانت

تحتفظ بها دائما في جيوب مريقتها ، وكانت هي نفسها تلقم منا فصولا طويلة في فترات الراحة التي تتخلل عملها ! » .
 ان هذا ليس رائعا حقيقة فحسب ، بل ان الانسان لا يستطيع ان يعيش اعجاب به
 عن الرجل الذي يكتب هذه الفقرات الرائعة لكي ينبه الجميع الى اخطار تربية من هذا
 النوع . ولكي يدل الفتاة على عنفات الحياة التي ستدلف اليها .
 ولتستمر :

« ولم يكن فيها الا حب وعشاق وعاشقات ، وسيدات مضطهدات يغمى عليهن في بيوت
 منزلة ، وسواس يقتلون عند كل مرحلة ، وخيول تنفق في كل الصفحات ، وغابات مظلمة ،
 واضطرابات في القلب ، وايمان مغلظة ، وتنهيدات ودموع وقبيلات ، وزوارق في ضوء القمر ،
 وكروانات في الادواح ، وسادة في شجاعة الاسود ووداعة الصبلان ، فضلاء على نحو لا مثيل
 له ، حسنو الهندام دائما ، سيكون كالقرب ! وخلال ستة اشهر في الخامسة عشرة من عمرها
 ظلت ايما ان تلمس يديها في اترية تلك الصالات القديمة للقراءة . ومع والتر سكوت اخذت تحب
 فيما بعد الاشياء التاريخية ، وتحلم بالاثاث القديم ، وصلات الحرس او الثمراء المتجولين .
 وكانت تود لو عاشت في قصر قديم ، كالولك القبيلات لوات الصدار الطويل ، اللاتي كن ينفقن
 ايامهن تحت عقود الاقواس الفوطية ، متكئات برفقهن فوق الاحجار ، وذقهن في ايديهن ، وهن
 ينظرن فارسا مقبلا من اقصى الحقول ، على راسه ريشة بيضاء ، وهو يعدو فوق حصان
 اسود ! وكانت في ذلك الوقت مفرمة بماري ستيوارت ، كما كانت تتحسس في اجلال للنساء
 الشهيرات او السيئات الهظ مثل جان دارك وهلويز واتيس سوريل ، وفرونير الحساء وكلميتاس
 ايسر ، اللاتي كن يبرزن بالنسبة اليها كالكواكب فوق ظلام التاريخ الشاسع ، كما كانت تبرز
 ايضا هنا وهناك ، وان تكن اكثر انغماسا في الظل ، ودون ان يكون بينها اي ارتباط - صور
 القديس بطرس مع شجرة بلوط ، وبيار وهو يحتضر ، وبعض الاعمال الوحشية للويس الهادي
 عشر ، وقليل من سانت بارتلمي ، وعظمة فتى بيارن ، ثم دائما لكري الاطباق المحصورة التي
 كانت تشيد بلويس الرابع عشر .

« وفي درس الموسيقى لم يكن في الاغاني التي تغنيها حديث الا عن الملائكة الصغار لوي
 الاجنحة الذهبية ، والمداري ، وقنوات فينيسيا ، والمجدول . وهي مؤلفات رخوة كانت تشق -
 من خلال نفاحة الاسلوب وتحرر القلم - عن التهاويل المغرية المتباعدة عن العواطف » .

كيف لم تتذكر هذا عندما عادت هذه الفتاة الريفية المسكينة الى الزرعة ، ووجدت طيبب
 قرية يتزوج منها ، ودعيت الى سهرة في قصر ، حاولت ان تلت اليها نظر المهكبة لكي تظهر شيئا
 شهوانيا في فالس رقصته ! لم تتذكر هذه التربية عندما انتزعت هذه المرأة المسكينة ، من بين
 زوجها العمادي ، دعوة قادتها الى ذلك القصر ، حيث رات اولئك الرجال الرائعين والسيدات
 الجبيلات ، وذلك الدوق المعجوز الذي قالوا انه كانت له فزوات في البلاط ! ... لقد كانت
 للسيد مجامي الامبراطورية حركات جميلة بالنسبة للملكة انطواييث !! وليس هناك بكل تأكيد من
 بيننا احد لا تشارك فكرته فكريتك ! فعن ملك قد ارتضنا لذكر اسم تلك التي راحت ضحية
 الثورة ! ولكننا كسنا هنا بصدد ماري انطواييث ، بل بصدد قصر فويبيسار .

لقد كان فيه دوق عجوز يقولون انه كانت له علاقات بالملكة ، واليه اتجهت كافة الاظار .
 وعندما رات تلك المرأة المشابة كافة احلام شبابها المسرفة تتحقق ، ووجدت نفسها تنقل على هذا
 النحو الى وسط هذه الطبقة ، تاخذك الدهشة من التمل الذي احسنت به ، وتتهبها بانها كانت

شهوانية ! ولكنه اتهم الفالس نفسه — تلك الرقصة الشائعة في حفلات رقصنا الكبرى الحديثة ، التي يقول احد المؤلفين عند وصفه لها ان المرأة « تسند راسها على كتف مرافقها الذي يعانقها بساق » وانت ترى في وصف فلوبيير ان مدام بوفاري شهوانية ! ولكنه ليس هناك رجل — وانا لا استنتجك من هذا القول — حضر حفلة رقص ، ورأى هذا النوع من الفالس ، ولم يود في داخل نفسه لو ان امراته او ابنته امتنعت عن هذه المتعة التي فيها شيء من الجرح . واذا كنا نعتد على العفة التي تغلف الفتاة العذراء عندما نتركها احيانا تنعم بهذه المتعة التي جرى بها العرف ، فانه من الواجب ان يكون اعتمادنا قويا على هذا الغلاف من العفة . وبالرغم من اعتمادنا هذا ، فانه ليس من المستحيل ان نعبر عن الاحساسات التي عبر عنها السيد فلوبيير ، باسم الاخلاق والعفة !

ها هي في قصر فوبييسار ، وها هي تنظر الى ذلك الدوق المعجوز . وها هي تتأمل كل شيء في حساسة ، وانت تصيح قاتلا : اية تفاصيل ! فما معنى ذا ؟ ان التفاصيل في كل موضع ، عندما لا تقتبس غير مقرة واحدة .

« لقد لاحظت مدام بوفاري ان عددا من النساء لم يضمن قزازاتهن في اكوابهن . ومع ذلك فعند الطرف القصي للمائدة ، وهيدا بين اولئك النساء ، مخنيا فوق طبقه المليء ، والفتوة محقودة عند ظهره كالطفل — كان ياكل شيخ ، تنساقط من فمه نقط من الصلصة ، زانغ الصينين ، يلبس ذبلا قصيرا ملقوفا في شريط اسود . وكان هذا الشيخ حما الركيكز ، الدوق المعجوز دي لا فرديير ، احد خلفاء الكونت دارتوا ايام نزعات الصيد في فودري عند الماركيز لو كونيان ، كما انه قد كان — فيما يقولون — عشيق الملكة ماري انطوانيت ، بين السيدين دي كولون ودي لوزان » .

فتدافع عن الملكة ، وتدافع عنها بنوع خاص امام المقصلة ، ولتقل انه لها بموجب مركزها الهقي في ان تحترم ! ولكن اخذف اتهاماتك عندما تكفي بان نقول انه كان — فيما يقولون — عشيق الملكة . وهل انت جاد في اتهامك لنا باهانة نكرى هذه المرأة المتصمة العظ ؟ !

« كان قد عاش حياة صاخبة بالاحلال ، ملينة بالبارزة والمراهنة ، والنساء المنفصبات ، وكان قد مزق ثروته وازعج اسرته كلها ، ومن خلف الكرسي وقف خادم ليخبره في اذنه بصوت عال من نوع الاطباق التي كان يشهر اليها باصبعه وهو يتلعثم . وكانت عينا ايبا تعودان آليا الى هذا الرجل المعجوز المرتخي الشفتين ، وكاتبا تعودان الى شيء خارق جليل . لقد عاش في البلاط ونا في سرير الملكات !!

« وسكبوا الشمبانيا الثلجة ، واقشعرت ايبا بجلدها كله عندما اهتمت بهذا البرد في منها . ولم تكن قد رات في حياتها الرمان ولا اكلت الاناناس »

واتهم ترون بدون اي شك ان هذه الاوصاف ساحرة ، ولكنه من غير الممكن ان نلخذ من هنا وهناك سطرا ، لكي نخلق نوعا من اللون يباه ضميري . انه ليس اللون الشهواني ، بل هو لون الكتاب — انه العنصر الادبي ، وفي نفس الوقت العنصر الاخلاقي .

وها هي تلك الفتاة — التي تابعت تربيبتها تصبح امرأة ، ولقد قال السيد محامي الاجرطورية: هل تعاول مجرد محاولة ان تحب زوجها ؟ انك لم تقرا الكتاب ، ولو انك قرانته لما ابويت هذا الاعتراض .

ها هي ايبا السادة هذه المرأة المسكينة . انها ستعلم اول الامر . وفي صفحة ٢٤ سترون احلامها .

وهناك فوق ذلك شيء لم يتحدث عنه السيد محامي الإمبراطورية ، ومن الضروري ان اهدنكم انا عنه . وهذا الشيء هو احساساتها عندما ماتت أمها . وسوف ترون ما اذا كان هذا شهوانيا ! ولتفضلوا بفتح صفحة ٢٨ ومتابعتي :

« عندما ماتت أمها بكت كثيرا في الايام الاولى ، وأوصت بصنع لوحة حداد بشمر الميتة . وفي خطاب أرسلته الى برتو — ملينا بالانكار الحزينة عن الحياة — طلبت ان تدفن فيما بعد في نفس القبر . وظنها الرجل مريضة فأتى الى رؤيتها ، وأخذت ايما تشمر بالرصا في داخلها ، وأنها وصلت منذ الدفعة الاولى الى ذلك الملل الاعلى النادر من الحيوانات الشاحبة ، التي لا تصل اليه قط القلوب النافهة . وهكذا تركت نفسها تنزلق في مسارب لامرتين ، فهي نصمت للقينارة فوق البحيرات ولكافة اغاني البجع المحتضر ، ولسقوط جميع الاوراق ، والعذارى الظاهرات اللاتي يصعدن الى السماء ، وصوت الله الخالد وهو يتردد في الوديان ، وشعرت بالسلم دون ان تريد ان تسام . واستمرت بحكم المادة أولا ، ثم بدافع الفرور ثانيا ، وفي النهاية ، فوجدت بان احسنت بالهدوء دون ان يبقى حزن في قلبها ولا غضون في جبينها ! »

واريد ان ارد على السيد محامي الإمبراطورية في اللوم الذي وجهه بانها لم تبذل أي مجهود لكي تحب زوجها

السيد محامي الإمبراطورية : انني لم ألمها لهذا . ولكنني قلت انها لم تتجح فيه . السيد سينار : اذا كنت قد أسأت الفهم ، واذا كنت لم توجه لوما ، فان هذا يعتبر خير رد يمكن ابدائه . لقد اعتقدت انني قد سمعتك توجهه ، ولكن لتفترض انني اخطأت ، وعلى اية حال فما هو ما ورد من آخر صفحة ٢٦ :

« ومع ذلك فانها طبقا لما رآته صالحا من النظريات ، قد رأت ان تحصل لنفسها على الحب . وفي ضوء القبر بالحديقة ، أخذت تشد كل ما كانت تحفظ عن ظهر قلب من الاشعار العاطفية ، ونفسي له وهي تتهد اغاني حزينة . ولكنها كانت تجد نفسها بعد ذلك هائنة، كما كانت من قبل ، كما ان شارل لم يكن يلوح أكثُر غراما ، ولا أكثُر تاثرا !

« وهكذا عندما كانت تقدح الزناد قليلا فوق كلبها دون ان تنفدح منه شرارة ، ولما كانت فوق ذلك عاجزة عن أن تفهم ما لا تحس به ، وان تؤمن بكل ما لا يظهر في صور مالوفة ، فانها اقمعت نفسها من غير مشقة بان عاطفة شارل لم يعد فيها شيء مرهق ، وقد أصبحت انفعالاته بمنظمة ، فهو يقبلها في بعض الساعات ، فتلك عادة كغيرها من العادات ، وكتابتها الحلوى المتوقعة من قبل بعد العشاء المل ! »

في ص ٢٧ ستجدون ايضا من الاشياء المشابهة ، والآن ها هو الخطر الذي أخذ يبدأ ، وانتم تعلمون كيف تربت ، وهذا أمر أرجوكم الا تنسوه لحظة واحدة .

ليس هناك رجل واحد قرأ الكتاب ولم يقل — وهذا الكتاب في يده — ان السيد فلوير ليس فنانا كبيرا فحسب بل رجلا خيرا ، وذلك لان في الست صفحات الاخيرة قد سكب كل البشاشة والاحترار على الزوجة ، ووجه كل الاهتمام الى الزوج . وهو فنان كبير ايضا كما قيل ، لانه لم يغير الزوج ، بل تركه حتى النهاية ، كما كان : رجلا طيبا مبتذلا تامها ، يؤدي واجبات مهنته ويحب امراته ، ولكنه محروم من التربية ، محروم من سمو التفكير . وهو هو عند فراش موت زوجته . ومع ذلك ليس هناك فرد تحظى ذكراه باهمية كبرى . لماذا ؟ لانه قد اهتمت حتى النهاية بالبساطة واستقامة القلب ، ولانه قد ادى حتى النهاية الواجب الذي كانت امراته قد حلت عنه . لقد كان موته جيلا مؤثرا بقدر ، ما كان موت زوجته قبيحا . وقد اظهر المؤلف فوق جنة

الزوجة البقع التي خلفها قهء السم ، وقد وسخت الكفن الابيض الذي سدفن فيه ، وقد اراد ان يجعل منها موضع السمنزاز . ولكن هناك رجل جليل هو الزوج على حافة تلك الحفرة . هناك رجل عظيم جليل ، موته رافع ، هو الزوج الذي — بعد ان رأى كل ما بقي له من اوامم القلب يتعظم تنابعا بموت زوجته — نراه يحتضن بالخيال زوجته تحت قبرها . واني لارجوكم ان تحفظوا به في ذاكرتكم . ولقد ذهب المؤلف — كما قال له لامرتين — الى ابعد مما ينبغي ، لكي يجعل موت الزوجة اكثر شناعة ، والتكفير أكثر هولاً . فالمؤلف قد عرف كيف يركز الاهتمام في الرجل الذي لم ينحرف عن طريق الواجب ، والذي ظل بشخصيته التافهة . والمؤلف لم يكن يستطيع — بلا ريب — ان يغير شخصيته ، ولكنه احتفظ له بسماحة قلبه كلها ، وكسب القضاة فوق موت الزوجة التي خانته وخربت بيته ، واسلمت نفسها للرابين ، ودفعت الى التداول كميالات مزورة ، وانتهت اخيراً الى الانتحار . وسوف نرى ما اذا كان طبيعياً موت هذه المرأة التي — لو انها لم تجد السم لكي تقضي على حياتها — لتخطت تلك الحياة من هول الكارثة التي نزلت بها . هذا هو ما فعله المؤلف . ولو انه فعل غير هذا لما قرىء كتابه ، وانما حرص على ان يظهر ما يمكن ان تؤدي اليه تربية فاسدة غير ملائمة ، كالتربية التي تلقتها مدام بوفاري ، هو الذي دفعه الى ان يكتب من هذه الصور الساحرة واللوحات القوية التي يؤاخذ عليها .

ان السيد فلوير يظهر دائماً تفوق الزوج على الزوجة . وارجوكم ان توجهوا اهتمامكم الى طبيعة هذا التفوق . انه تفوق اداء الواجب ، بينما تحرف ايما عن هذا الواجب ! ثم ها هي موضوعة فوق منحدر هذه التربية السيئة — هاهي تنساب — بعد مشهد الرقص — مع غلام صغير هو ليون القليل الخبرة مثلاً . وستتغازلان ، ولكنها لن تجرؤ على ان تذهب الى ابعد من هذا ، ولن يحدث بينهما شيء . ثم يأتي بعد ذلك رودولف ، الذي سيأخذ هو هذه المرأة . وبعد ان نظر اليها لحظة قال لنفسه : انها جيدة هذه المرأة ! وستكون لي ، وذلك لانها طائشة وبدون خبرة . واما عن السقوط فستقرأون صفحات ٢٢ ، ٥٢ ، ٥٣ . وليس لدي غير كلمة واحدة أقولها عن هذا المشهد هي انه خلو من التفاصيل ومن الوصف ومن الصور التي تصور اضطراب الحواس . فكلمة واحدة تدلنا على السقوط وهي : « واستسلمت » . واني لارجوكم مرة اخرى ان تتفصلوا فتعيدوا قراءة تفاصيل سقوط كلاريس هارلونا التي لا اظن انها قد وصفت في كتاب سيء . وقد أهل السيد فلوير رودولف محل لوفلاس وايما محل كلاريس ، وستتقارنون بين المؤلفين وبين الكتابين وستحكمون .

ولكنني التقى هنا باشمنزاز السيد محامي الامبراطورية ، الذي يثيره ان التدم لم يتبع السقوط عن قرب ، وانها بدلا من ان تعبر عن المرارة تقول في رضى : « ان لي عشيقاً ! » ولكن المؤلف لم يكن في الحق ليصيب كبد الحقيقة لو انه جعلها تحس ببرارة الشراب المنمل في الوقت الذي لا تزال فيه الكاس بين الشفاه ، ومن يكتب كما يريد السيد محامي الامبراطورية قد يعتبر اخلاقياً ، ولكنه سيقول عندئذ ما ليس في الطبيعة . لا ان الاحساس بالخطيئة لا يستيقظ وقت حدوث الخطيئة الاولى ، والا لما ارتكبت . لا ان اللحظة التي تكون فيها المرأة غارقة في الحلم الذي ينملها ليست هي اللحظة التي ينهبها فيها هذا المنمل نفسه الى الخطيئة الكبرى التي ارتكبتها ، فهذه اللحظة لا تحمل لها غير المنمل ، وهي تعود الى منزلها سميذة مشرقة ، وقلبها يضيئ قائلاً : « واخيراً اصبح لي عشيق ! » ولكن هل يدوم هذا وقنا طويلاً ؟ لقد قرأت الصفحتين ٢٢٤ و ٢٢٥ . وبعد ذلك بصفتين ارجوكم ان تلاحظوا في ص ٢٨ انه

وان لم يظهر بعد احساسها بالاشمزاز من الضيق ، الا انها اصبحت تحس بالخوف والقلق ،
فهي تفحص وتظفر ، ولا تريد ان تخطي ابدا عن رودلف .
« لقد كان يدفعها نحوه شيء اقوى منها حتى انه عندما رآها تاتي فجأة في احد الايام قطب
وجهه كمن يبتعض .

« فقلت : ما بك اذن ؟ هل تشكو من شيء ؟ قل لي !

« واخيرا صرح لها في لهجة جادة انها اصبحت غير حذرة في زيارتها ، وانها قد تتورط !
« ومع ذلك فان مخاوف رودلف اخذت تعديها ، شيئا فشيئا .

« وفي اول الامر كان الحب يملها ولم تكن تفكر في شيء غيره . ولكن لما كان قد اصبح
الان شيئا لا تستطيع الاستغناء عنه في حياتها ، فانها اخذت تخشى ان يضطرب او تفقد شيئا
منه . وعندما كانت تصود من عنده كانت تلقي على ما حولها نظرات قلقه ، وترقب كل
شبح يمر في الافق ، وكل كوة في القرية يمكن ان يلحها احد من خلالها . وكانت تتسمع كل
خطوة وكل صيحة ، وضجة المحارث . وكانت تتوقف وهي اكثر شحوبا ورعشة من اوراق
الصور التي تترنج فوق راسها » .

وانكم لترون جيدا انها لم تكن مخدوعة ! فهي تحس احساسا قويا بان في الامر شيئا غير
ما كانت تعلم به . ولتاخذ صفحتي ٢٢٢ ، ٢٢٤ فانها سيزيدانكم اقتناعا
« قالت : ان شخصا قادم !
« فاطفا الثور .

« وهل ممكن مسدسك ؟

« — لماذا ؟

« فقلت ايما : لماذا ؟ ... لكي تدافع عن نفسك !

« — ضد زوجك ؟ آه ! هذا الغلام المسكين !

« وختم رودلف عبارته بمرحة تعيد انه يستطيع ان يسحقه بنفضة ظفر .

« فاخذت بشجاعته ، وان تكن قد احست فيها بنوع من الغلظة والسماجة الساذجة
اثارت الثغور في نفسها .

« وفكر رودلف كثيرا في مسألة المسدس ، فانها لو كانت جادة في قولها ، لكان
الامر مضحكا للغاية ، بل ولرآه امرا بغيضا ، وذلك لانه لم يكن لديه هو اي سبب لكي
يكره هذا المغفل شارل ! كما انه لم يكن من اولئك الذين يوصفون بان المفيرة تاكل قلوبهم .
وبهذه المناسبة كانت ايما قد اقسمت له قسما مغلظا لم يجد فيه هو ايضا شيئا من سلامة الذوق !
« ثم انها قد اصبحت مسرقة في العاطفية .

فكان من الضروري تبادل الصور الصغيرة ، وخصل الشعر ، كما اخذت تطلب الان
خاتما — خاتم زواج حقيقي كرمز لارتباط ابدى . وكثيرا ما كانت تحدثه عن نواقيس المساء او
اصوات الطبيعة . ثم اخذت تحدثه عن امها وعن امه «
واخيرا اخذت تصيبه بالسأم .

ثم في صفحة ٥٣ :

« ولم تعد تجد عند رودلف كما كانت تجد في الماضي — تلك الكلمات العذبة التي
كانت تجعلها تبكي ، ولا تلك اللمسات الحارة التي كانت تجن بها ، حتى ان حبها الكبير
الذي كانت تعيش غارقة فيه ، لاح لها اخذا في التناقص من تحتها ، كماء القمر الذي يغوص
في مجراه ، واخذت تلحح الطين ! ولم تتأ ان تصدق ذلك ، وضاعت من حناها ، بينما

أخذ رودلف يظهر شيئا فشيئا عدم مبالته .

« ولم تعد تعلم هل تندم لأنها استسلمت له ، أم انها على العكس كاذت تتود ان لو اهينه فوق ذلك . ولكن مذلة احساسها بانها ضعيفة لم تنقلب الى حقد ، لان اللذات كانت تخفف من هذا الحقد . ولم تصعب علاقتها به حبا ، بل غواية مستمرة ، فهو يسيطر عليها وهي تكساذ تستشعر منه الخوف »

وانت نخسى — يا سيدي المحامي الامبراطوري — ان تقرا النساء الشابات هذا ! ولكني انا اقل خشيية ، واطل فرقا منك ! وفي نظري الخاص انني افهم جيدا ان يقول رب الاسرة لابنته : اينها الشابة ، اذا كان قلبك وكان ضميرك وكان احساسك اللبني وكان صوت الواجب — اذا كان كل هذا ان يحملك على السير في الطريق المستقيم ، فانظري يا طفلي ، انظري كم من المتاعب والمحن والالام والكروب تنتظر المرأة التي تبحث عن السعادة في غير منزلها . واذا كانت هذه اللغة لا تجرحكم من فم اب ، فان السيد فلويج لا يقول شيئا غير هذا ! لانه يرسم اصنق صورة واقواها تأثيرا ، لما تجد المرأة فوراً اذا حلمت بالسعادة خارج منزلها . ولكن ، قواصل السير الى كافة مفاهرات خيبة الامل . انك تجابهني بلمسات ليون في صفحة ٦٠ . واحسرتاه ! انها ستدفع عما قريب فدية الزنا ، وهذه الفدية ستجدونها مروعة . وذلك بعد بضع صفحات من الكتاب الذي تدبنون . لقد بحثت هذه النعسة عن السعادة في الزنا ، فوجدت فيه — فضلا عن الاستمزاز والتعب اللذين تسببهما الحياة الزوجية المملة للمرأة التي لا تسير في طريق الواجب — وجدت خيبة الامل ، واحترار الرجل الذي اسلمت نفسها اليه . وهل ينقص هذا الاحترار شيء ؟ لا ! واننت لا تستطيع ان تنكر ذلك ، فالكتاب تحت ناظريك . فرودلف الذي تكشف عن نذل ، يعطيها ليللا اخرا على انانيتها وجبته . انها تقول له : « خلني ! اخلطني ! انني احنق ! انني لم اعد استطيع ان اتففس في بيت زوجي الذي جلبت له العار والنعاسة » وهو يتردد ، وهي تلح . واخيرا يعد . وفي اليوم التالي تتسلم منه خطابا صاعقا تسقط تحته حريمة محطمة ، وتخمر مريضة على حافة القبر . والجزء التالي في النشر يظهرها لك فريسة لكافة تشنجات نفس تصطرع . وربما عادت الى الواجب لفرط ما تعاني من الام ، ولكنها لسوء الحظ لا تلبث ان تلتقي بالطفل الذي كانت تلمب معه عندما كانت غفلا من التجارب . وهذه هي حركة الرواية . ثم ياتي التفكير .

ولكن السيد محامي الامبراطورية يوقضي ويقول لي : وحتى يفرض ان الهدف من الكتاب طيب من اوله الى نهايته ، فهل يمكن ان تسبح لففسك بتفاصيل خارجة على الاخلاق كحك التي سمحت لففسك بها ؟

بكل تأكيد لم اكن لاستطيع ان اسمح لففسي بمثل هذه التفاصيل . ولكن هل سمحت لها ؟ واين هي ؟ ! واصل هنا الى الفقرات الاكثر ادانة .

لن اعود الى الحديث عن مفامرة العربية فالمحكمة قد سمعت ما يكفي في هذا الصدد . واصل الى الفقرات التي رايت فيها مخالفة للاداب العامة ، وهي تشغل عددا من صفحات عدد اول ديسمبر . ولكي احو هيكل اتهامك ، ليس لدي غير سبيل واحد هو ان اعيد الى مكاتها الفقرات التي تسبق والتي تلحق مقتبساتك ، ومن عبارة واحدة : اصع النص الكامل محل مقتطفاتك .

وفي اسفل صفحة ٧٢ بعد ان يتصل ليون بالصيدلي هوميه ، ياتي الى فندق بورجونني ، ثم ياتي الصيدلي لياخذه .

« كانت ايما قد رحلت بهناجة وقد اصبحت الآن تبغضه ، ولاح لها اخلاعه بالاربع اهاتة .
« ثم اخذت تكشف عندها هدات انها بلا ريب قد اغتابته ، ولكن انتقاصنا لمن نحب لا بد
ان يقصينا عنهم قليلا ، فالاصنام المعبودة لا يجب ان تمس ، والا فقدت طلاها الذهبى ، الذي
يلتصق بآييننا .

« واصبعا يتحدثان كثيرا عن اشياء غريبة عن هبهما »

يا لله ! امن اجل هذه الاسطر التي قرانها لكم نحضر امامكم ؟ والان فلتسمعوا :
« واصبعا يتحدثان كثيرا عن اشياء غريبة عن هبهما وفي الخطابات التي كانت ترسلها
اليه ايما ، كان يجري الحديث عن الزهور والاشجار والقمر والنجوم ، وكلها وسائل بدائية
لفرام اصابه الضعف ، واخذ يحاول ان ينتمش بالمساعدات الخارجية ! وكانت تعد نفسها
بمساعدة عميقة في كل رحلة مقبلة ، ثم كانت تترف بقها لم تحس بشيء خارق للمادة .
ولكن هذه الخيبة أخذت تعمي بسرعة تحت تلثم اهل جديد ، وعادت ايما اليه اكثر اشتعالا
ونهما ، فكانت تتعري في عنف ، وتنتزع شريط صدرها الرقيق الذي يدور حول رديها كما
يتسلل الثعبان . وكانت تذهب على اطراف اصابها العارية لكي تتأكد مرة اخرى من ان
الباب مغلق ، ثم تسقط ملابسها كلها بحركة واحدة ، وتتهالك على صدره شاحبة صامتة جادة
في رعشة طويلة . »

« ولقد وقتت هنا ايها السيد محامي الامبراطورية ، ولكن اسمح لي بان استمر :
« ومع ذلك فقد كان فوق جبينها المغطى بقطرات العرق الباردة ، وفوق شفتيها
التمتمتين ، وفي حديقتها الضاليتين ، وفي ضمة ذراعها ، شيء مسرف غامض ، مقبض ، يلوح
لليون انه ينساب بينهما في تسلل ، وكأنه يود ان يفصل بينهما ! »
انك تسمي هذا لوننا شهوانيا ، وتقول انه يفر بالزنا ، وتقول ها هي صفحات يمكن
ان تثير وتحرك الحواس صفحات شهوانية ! ولكن الموت في هذه الصفحات ! وانت
لا تفكر في هذا يا سيدي محامي الامبراطورية ، وانست تنفر من ان تجد فيها عبارات الصادر
والملايس التي تسقط ، وانت تتعلق بهذه الكلمات الثلاث أو الاربع عن الصادر والملايس
التي تسقط ! هل تريد ان اظهر كيف ان كلمة صادر يمكن ان تظهر في كتاب كلاسيكي ،
وكلاسيكي جدا ؟ هذا هو ما يطيب لي ان افعله بعد هنيهة :

« وخلصت ملابسها ! آه » يا سيدي محامي الامبراطورية ! كم اسات فهم هذه
المفكرة ! لقد خلعت ملابسها في عنف — يا لها من بانسة ! وهي تنزع شريط صدرها الرقيق
الذي يصفر حول رديها كالثعبان الذي ينساب ! وتهالكت على صدره في رعشة طويلة شاحبة
صامتة جادة وكان فوق جبينها المغطى بقطرات العرق الباردة ، وفي ضمة
ذراعها شيء غامض مقبض »

وهنا يجب ان نتساءل اين اللون الشهواني ؟ واين اللون الصارم ؟ وهل حواس الفتاة
التي يقع بين يديها هذا الكتاب ، يمكن ان تتفعل وان تثور كما يحدث عند قراءة كتاب كلاسيكي
من بين كاسة الكتب الكلاسيكية التي ساذكرها بعد هنيهة ، والتي اعيد طبعها الف مرة دون ان
يفكر نائب عام امبراطوري او ملكي في محاكمته ؟ وهل فيما قرانه عليكم شيء مشابه ؟ وهلا
يعتبر على العكس شيئا مثيرا للنفور من الرذيلة « ذلك الشيء المقبض الذي ينساب بينهما وكانها
ليفرق بينهما » ؟ وارجوكم ان نستمر .

« لم يجرؤ ان يلقي عليها اسئلة . ولكنه لما كان يدرك انها ذات خبرة ، فقد قال لنفسه

انها لا بد قد مرت بكافة تجارب الالم والملة . وما كان يسحره فيما مضى اصبح الآن يخيفه قليلا ، وفوق ذلك فانه اخذ يثور على امتصاصها لشخصيته امتصاصا يتزايد يوما بعد يوم ، حتى لقد اخذ يحقد على ايها هذا الانتصار الابدي ! بل وحاول الا يهيم بها ، ولكنه بمجرد سماعه وقع اقدامها كان يحس نفسه جيانا كمدمني الخمر عندما يرون شرابا : «

فهل هذا شهواني ؟ ثم تلاخذ الفصل الاخير :

« وفي احد الايام افترقا في وقت مبكر ، وعابت وحدها عن طريق البولفار ، فلبحت جدران ديرها . وعندئذ جلست على مقعد في ظل اشجار الدردار اي هدوء كان في ذلك الزمن ! وكم تمنى تلك المشاعر الفراقية الفاضحة التي كانت تحاول ان تصورها كما توحي بها الكتب !

« والاشهر الاولى لزوجها ، والزهرات على صهوة الجواد في الغابة ، والسيكونت الذي كان يرقص الفالس ، ولاجاريه وهو يضيء - كل هذا مر امام عينيها . «

لا تضس اذن هذا ايها السيد محامي الامبراطورية عندما تريد ان تحكم على فكرة المؤلف . وعندما تريد ان تجد حتما اللون الشهواني حيث لا يستطيع ان اجد الا كتابا ممتازا .

« ولاح لها ليون فجأة على نفس البعد الذي يفصلها عن الاخرين ! «

« وقالت لنفسها : ومع ذلك فانتني احبه ! وعلى اية حال فانها لم تكن سعيدة ، ولا كانت سعيدة قط ! ومن اين ياتي اذن هذا التقص في الحياة ، وهذا التعمق السريع الذي يصيب كل ما تتكئ عليه ؟ «

فهل هذا شهواني ؟

« ولكن اذا كان في مكان ما شخص قوي جميل ذو طبيعة ممتازة ، مليء بالحماسة والرهافة مما ، قلب شاعر في مظهر ملاك ، عود ذو اوتار من نحاس ، ترتفع للسماء نغماته وهو يعزف اناشيد الزفاف العاطفية - فلماذا لا تلقاه مصادفة ؟ ... اوه ! يا له من مستحيل !! ... وفوق ذلك فلا شيء يستحق عناء البحث ، وكل شيء خادع ! كل ابتسامة نخفي تناؤب ملل ، وكل نشوة لعنة ، وكل لذة تقززا ، واحلى القبلات لا تترك فوق الشفة الا رغبة مستحيلة في لذة اقوى !

« انسابت حشرة معدنية في الهواء ، وسمعت اربع دقات من جرس الدير . الساعة الرابعة ؟ ! ... ولاح لها انها كانت هناك فوق المقعد منذ الابد ! «

انه لا يجوز ان نبحث في طرف كتاب عن شيء يفسر به ما في طرف كتاب اخر . ولقد قرأت الفقرة المدانة دون ان اضيف اليها كلمة ، لكي ادافع عن كتاب يدافع هو عن نفسه ، ولنواصل قراءة هذه الفكرة المدانة من وجهة النظر الاخلاقية :

« كانت السيدة في غرفتها ، ولم يكن اهد يصعد اليها . كانت تظل هناك طول النهار ، متصلة شبه عارية . ومن وقت الى آخر كانت تحرق بعض البخور الذي اشترته من روان من دكان رجل جزائري . ولكي لا تحس في الليل - ملاصقا للحمها - بذلك الرجل الذي ينام متهددا الى جوارها ، اخذت تتجهج له ، حتى انتهت بان نفسه الى الطابق الثاني . وكانت تقرا حتى الصباح كتباً منيرة مليئة باللوحات الداعرة والحواث الدامية . «

وهذا يفر بالزنا ، أليس كذلك ؟

« وكثيرا ما كان ياخذها الرعب فتطلق صيحة ، ويهرول شارل فنقول : آه ... اذهب عني ! واحيانا اخرى كانت تحترق في شدة بذلك اللهب الداخلي الذي يضره الزنا ، ونتمصل

وتلث ، وتستيقظ رغبتها ، فتفتح النافذة ، وتستششق الهواء البارد ، وتشر في الرياح شمرها الفصيل وتنظر الى النجوم ، وتتمنى غراميات امير ! وكانت تفكر فيه – في ليون – وكانت مستعدة لان تعطي كل شيء مقابل موعد من تلك المواعيد التي كانت تشبع نهمها .

« كانت تلك المواعيد هي ايام بهجتها . وكانت تود ان تكون اياما فخمة . وعندما كان لا يستطيع دفع كافة الفواتح كانت تكمل المعجز في سفاها . وكان هذا يحدث كل مرة تقريبا . وحاول ان يقمعا باتهما سيجدان نفس المتعة في مكان اخر – في فندق اكثر تواضعا ، ولكن كان يلقي اعتراضات . »

انكم ترون كيف ان كل هذا بسيط عندما نقرا الكل ، ولكن في مقتطفات السيد محامى الامبراطورية تصبح اصغر كلمة جبلا .

السيد محامى الامبراطورية : انني لم اذكر ايا من هذه العبارات ، وما دمت تريد ان تذكر ما لم انه فاته لا ينبغي ان تقفز مربوط القديمين فوق صفحة ٥٦ .

السيد سينار : انني لا اسقط شيئا ، وانما اتاهل عند العبارات المدانة في الفقرة المتقبسة ، ونحن مهتمون بالصفحات ٧٧ ، ٧٨

السيد محامى الامبراطورية : انني اتحدث عن المقتطفات التي ذكرت في الجلسة ، ولقد اعتقدت انك تشب الي قراءة السطور التي قرأتها منذ هنيهة .

السيد سينار : ايها السيد محامى الامبراطورية انني قد قرأت جميع الفقرات التي تريد ان تكون منها الجريمة التي تحطمت الان . ولقد نبيت في الجلسة ما اردت تمنيته ، وكانت مهمتك سهلة ومن حسن الحظ انه كان لدينا الكتاب ، والدفاع كان يعرف هذا الكتاب ، ولو انه لم يعرفه لاصبح وضعه غريبا . فلتسبحوا لي بان اقول ذلك . وقد كنت مطالبا بان ابرر هذه الفقرة او تلك وفي الجلسة احللت محلها فقرات اخرى . ولو انني لم اكن متحمسا من الكتاب حلتي هذا النحو لاصبح الدفاع امرا شاقا . والان اظهر لكم بتحليل امين للرواية انها بعيدة عن ان تقدم للمحاكم كميل شهواني . وانها على العكس يجب ان تعتبر عملا اخلاقيا رائعا .

وبعد ذلك اتناول الفقرات التي استند اليها في التقييم الى المحاكمة . وبعد ان اتبع مختاراتكم بما يسبق وما يتلو يصح الاتهام من الضعف بحيث يثيركم انتم انفسكم عندما اقرا هذه الفقرات . ونفس الفقرات التي اشرتم اليها كفقرات واجبة الادانة منذ لحظة ، لي الحق في ان اذكرها انا ايضا لكي اظهر لكم بطلان اتهامكم .

واستأف اقتباسي من الموضع الذي تركته باسفل ص ٧٨ .

« لقد اصبح (ليون) الان يشعر بالفجر كلما انتحيت اياما فجأة فوق صدره . واصبح قلبه – كاولئك الناس الذين لا يستطيعون ان يحتلوا غير قدر محدود من الموسيقى – اصبح يغفو من عدم المبالاة ، بضجة حب لم يعد يميز لطائفه .

« لقد طالت معرفة احدهما بالآخر ، حتى اصبح لا يحس بنشوة التملك التي كانت تضاعف من اللذة . واصبحت تسميز منه بقدر ما اصبح متعبا منها ، وقد اخذت اياما تجد في الزنا كل ما في الحياة الزوجية من رتبة مملة »

رتابة الزواج المملة ! ان من اقتبس هذه العبارة قد قال : كيف ؟ ها هو رجل يقول ان في الزواج رتابة مملة ! هذا هجوم على الزواج ، واساءة الى الاخلاق ، ولتوافقني ايها السيد محامى الامبراطورية على اننا في اقتباسات ننتزعها على نحو فني نستطيع ان نذهب بعيدا في الاتهام . وما الذي يسميه المؤلف رتابة الزواج المملة ؟ انها تلك الرتابة التي كانت نخشاهما

أيما والتي أرادت أن تهرب منها ، والتي وجدتها باستمرار في الزنا ، وكان هذا على وجه التحقيق هو خبيثة الأمل . وهكذا يظهر لك أننا عندما نقرا ما يسبق وما يتلو بدلا من أن نقتطع كلمات وأجزاء من العبارات - لا يبقى شيء في الاتهام . كما تدرك تمام الإدراك كيف أن موكلتي الذي هذه هي فكرته ، لا بد أن يثور عندما يراها تتحول على هذا النحو ، ولتستمر :

« لقد كانت تشمئز منه بقدر ما أصبح متعبا منها . وقد أخذت أيما تجد في الزنا كل ما في الحياة الزوجية من رنابة مملة .

« ولكن كيف الخلاص ؟ ثم انها بالرغم من احساسها بوضاعة مثل هذه السعادة ، مانها كانت متعلقة بها بحكم المادة ، او بحكم الانحلال . وفي كل يوم كانت تزداد تكالبا ، منضبة كل سعادة برغبتها في أن تكون سعادة اكبر . وكانت تنهم ليون بخيبة امالها وكنهه قد خانها . بل وتمنت ان لو وقعت كارثة تؤدي الى افتراقهما ، ما دامت لا تجد الشجاعة لتقرير ذلك . ومع ذلك استمرت تكتب له الخطابات الفراقية ، نزولا على تلك الفكرة التي تقول بان المرأة يجب أن تكتب دائما الى عشيقها .

« ولكنها في اثناء الكتابة ، كانت تلمح رجلا اخر - شبحا مكونا من ذكرياتها الحارة » وهذا ليس موضع محاكمة :

« ثم كانت تسقط محطبة ، وذلك لان اندفاعات هذا الحب الغامضة كانت تتبعها اكثر من المرعبة العنيفة »

« لقد اصبحت الان تشمر بتكسر دائم في جسمها كله ، وكثيرا ما كانت تتسلم انذارات واوراقا مدموعة لا تكاد تنظر فيها . وكانت تود الا تظل حية ، او ان تنام باستمرار . » وانا اسمي هذا دعوة الى التفضيلة بتصوير شناعة الرذيلة . وهذا هو ما يعطه المؤلف نفسه ، وما لا يستطيع اكثر القراء شرودا الا ان يراه ، ما لم يكن لديه قليل من القصد المسيء .

والآن اقدم شيئا اخر لكي اجعلكم تدركون اي صنف من الرجال هذا الذي تحاكمون . وليس ذلك لكي اطعمكم على اي نوع من التبرير تستطيع ان اعتمد عليه ، بل لتري ما اذا كان السيد فلوير له لون شهواني ومن اين يستمد وحيه . واتسمحو لي بان اضع فوق مكتبكم الكتاب الذي استخدمه والذي استمد من فقراته الوحي في وصفه لهذه الشهوانية ، ولاندفاعات تلك المرأة التي تبحث عن السعادة في اللذات غير المشروعة ، التي لا تجدها فيها ، فتبحث ثانية ، وتستمر تبحث دون ان تعثر عليها قط . فمن اين ايها السادة استمد فلوير وحيه ؟ !

لقد استمده من هذا الكتاب ، فلننصتوا :

« خداع الحواس .

« ان اي انسان يتعلق بالحسيات لا بد ان يضل بالضرورة من شيء الى شيء ، وان يخطئ - اذا صح التعبير - عندما ينتقل من مكان الى مكان ، وهكذا نرى ان الشهوانية ، اي حب اللذات متقلبة دائما ، وذلك لان حرارتها تغبو وتبوت بالاستمرار فيها ، والتفسير هو الذي يعينها . وما هي حياة الحواس ان لم تكن هذا ، اي ذلك الانتقال الدوري من الشهية الى الاشمزاز ، ومن الاشمزاز الى الشهية ، والروح طافية باستمرار ، مترددة بين الحرارة التي لا تهدأ ، والحرارة التي تجدد ، الشهوانية متقلبة ، كما تقول العبارة اللاتينية . وهذه هي حياة الحواس ، ومع ذلك فان الانسان وسط هذا القلب الدائم لا يعدم التسلية ، بفضل هذه الصورة من الحرية الضالة . »

هذه هي حياة الحواس . ومن الذي قال ذلك ؟ من الذي كتب العبارات التي سمعتموها عن هذا الهياج ، وهذه الوقدة المستمرة ؟ وما هو الكتاب الذي يتصفحه السيد فلوبيير ليلا ونهارا ، والذي استوحى منه الفقرات التي يدينها السيد محامي الامبراطورية ؟ ... انه بوسويه !

ان ما قرأته عليكم هو فقرة من خطبة لبوسويه عن اللذات غير المشروعة . وسأظهر لكم ان الفقرات المدانة ليست سرقات ، والرجل الذي يتمثل فكرة ليس سارقا ، وانما هي محاكاة لبوسوية .

وهل تريدون مثلا اخر ؟ ها هو :

« عن الخطيئة .

« ولا تساؤني ايها المسيحيون على اي نحو ستتحول لذاتنا الى عذاب . فالامر موضح في المكتب المقدسة . والله الحق هو الذي يقوله والله القادر على كل شيء هو الذي يفعله . ومع ذلك لو تأملتم طبيعة الشهوات التي تسلمون اليها قلوبكم ، لفهتم في سهولة انها قد تتحول الى عذاب لا يحتمل . فهي كلها في ذاتها الام قاسية ، واثمناز ومراة . وهي كلها سحيقة الغور يفضبها ان يستحيل اشباعها ، مما يخرج بها كافة الانفعالات ، التي تستحيل الى ضرب من المهوس ، لا يقل ما يثيره من ألم عما فيه من خروج على العقل . فالحب اذا جاز ان نذكره من فوق هذا المنبر له شكوكه واضطراباته العنيفة ، ومطالبه التي لا تتال ، وجحيم غيرته » .

وبعد ذلك بقليل

« أه ! هل هناك اذن ما هو اسهل من ان نجعل من شهواتنا لما لا يحتمل لخطايانا ، بان نجردها كما هو حق من العذوبة القليلة ، التي تميزنا بها ، بحيث لا يتبقى فيها غير الملق القاتل والمرارة التي تفيض منها ؟
ان خطايانا ضدنا ، وخطايانا فوقنا ، وخطايانا بيننا . انها سهم ينفذ الى صدورنا ، وعيبه لا يحتمل فوق رؤوسنا ، وسم ناعم في احشائنا » .

اليس في كل ما سمعتموه ما يوضح لكم مرارة الشهوات ؟ انني اترك لكم هذا الكتاب ، الذي يحمل بصمات ابهام هذا الرجل المجد الذي استقى منه افكاره ، كما يحمل امارات كثيرة الذي يحمل بصمات ابهام هذا الرجل المجد الذي استقى من افكاره ، كما يحمل امارات كثيرة استخدامه له . وهذا الرجل الذي استوحى مثل هذا القنظر — هذا الرجل الذي وصف الزنا بالعبارات التي سمعتموها — هذا الرجل يحاكم للاساءة الى الاخلاق العامة والاخلاق المبنية ! والميك بعض اسطر اخرى عن المرأة الخاطئة ، وسوف ترون كيف ان السيد فلوبيير قد عرف كيف يستوحي نموذجها عندما اراد ان يصف هذه الانفعالات :

« ولكننا نجازي عن خطئنا دون ان نطلع عنه ، ونبحث في التغيير عن دواء لخطئنا . وننتقل من شيء الى شيء . واذا كان هناك اخيرا احد يثبتنا ، فليس ذلك لرضائنا عما اخترنا ، وانما يكون ذلك لما يلقاه عدم ثباتنا من مديح »

« كل شيء في المخلوقات يلوح له خاويا خادعا مثيرا للاشمئزاز ، وهو بدلا من ان يجد فيها سحرها الاول الذي كان قلبه يجد مشقة كبيرة في التحصن ضده — لا يمود يرى الا الطيش والخطر والفسور »

«لوناهيكم برباطة الهيام ! فاي خوف عندئذ من ان ينفضح السر ! واي احتياطات يجب اتخاذها مراعاة للياقة والسمة ! وكمن عين ينبغي تجنبتها ! وكمن رقيب يجب ان نضله !

وإذ مزالق يجب أن نخشاهما على أمانة من نخارته نصيرا وكاتب سر لمواطننا ! وكم من أهانات قد نصينا بمن ضحينا في سبيلهم بسامدنا وحرينا ثم لا نجرؤ أن نشكو منهم ! واضيفوا الى كل هذا تلك اللحظات القاسية التي تخف فيها وقدة العاطفة فتترك لنا فرصة العودة السى انفسنا ، والاحساس بكل ما في حالفنا من مهانة — تلك اللحظات التي يمل فيها القلب — المخلوق لمسات أعظم — أصنامها ، ويجد العذاب في استنرازه ، وعدم ثباته . أيها العالم الفاني ، إذا كانت هذه هي تلك السعادة التي نفرينا بها كل هذا الاغراء ، فلتخص بها عبادك ، وعاقبهم وانت تمنحهم مثل هذه السعادة — عن الايمان ، الذي استشعروه في استخفاف ، نحو وعودك . »

دعوني اقول لكم ما يأتي : ان الانسان عندما يفكر خلال صمت الليل في الاسباب التي تدعو الى انزلاق المرأة ، وعندما يجد تلك الاسباب في التربية ، ثم لا يطمئن الى ملاحظاته الشخصية عندما يريد التعبير عنها ، فينضح نفسه في تلك المصادر التي ذكرتها لكم ، وعندما تراه لا يسمح لنفسه بأن يتناول القلم الا بعد ان يستوحي أفكار بوسويه وامسيون — في مثل هذه الحال ، اسبحوا لي ان اتساءل عما إذا كانت هناك كلمة يمكن ان تعبر لكم عن دهشتي والي عندما أرى هذا الرجل يقدم لحكمة الموليس الجزائري من أجل بعض فقرات في كتابه ، وعلى وجه التحديد من أجل الأفكار والمشاعر الأكثر صدقا وسموا من بين كل ما استطاع ان يجمع . وهذا هو ما أرجوكم الا تنسوه فيما يختص بنهمة الاساءة الى الاخلاق الدينية . ، ثم انني — اذا سمحتم — ساضع في مقابل كل هذا تحت ابصاركم ما اسميه انا اساءات الى الاخلاق ، أي اشباع الحواس في غير مراة ، أي بدون تلك العظرات الكبيرة من العرق الثلجي الذي يسقط من جباه من يستسلمون لها . وانا لن استشهد امامكم بكتب اباحية حاول مؤلفوها ان يستثيروا الحواس ، بل ساستشهد بكتاب يقدم كجائزة في المدارس . ولكنني أرجو أن تسبحوا لي بالا اذكر اسم المؤلف الا بعد أن أقرأ لكم مقرة منه . وما هي هذه المقرة ، وسأقدم لكم الكتاب : اقدم النسخة التي قدمت كمكافأة لتلميذ ب مدرسة ، وانا أفضل أن أقدم لكم هذه النسخة على ان أقدم نسخة السيد فلوير .

« في اليوم التالي ذهبت الى مسكها حيث احسست بكل ما يفري باللذة ، فقد نثرنا المطف العطور بالفرقة ، وكانت هي في سرير لا تزينة غير باقات من الزهور ، وقد لاحت نائمة فوقه في استرخاء ، ومدت الي يدها واجلسني الى جوارها . وكان كل شيء حتى الوشاح الذي يغطي وجهها يبدو شيقا . والملاة البسيطة التي تغطيها ، كانت تمكنني من ان ارى او افقد رؤية مفاستها الساحرة طورا بعد طور . » ان الملاة البسيطة التي كانت تغطي جثة قد لاحت لكم صورة شهوانية ، ولكنها هنا تغطي امرأة حية ، « ولاحظت أن عيني كانتا مشغولتين ، وعندما راتهما لتنهان ، لاح ان الملاة قد اخذت تنشق من تلقاء نفسها ، فرأيت جميع كنوز هذا الجمال السماوي ! وفي هذه اللحظة ضغطت على يدي فراغت عينا في كل سبيل . وصحت لنفسي قائلا : ليس هناك في هذا الجمال غير عزيزتي اردازير ، ولكنني اشهد الانه ان اخلاصي وارتمت على رقبتني واحتضنتني في ذراعيها ، وفجأة اظلمت الفرقة ، وانشق وشاحها واعطنتني قبلة . وطار صوابي ، وجرى لهب مفاجيء في عروقي المهب حواسي كلها . وابصدت عني صورة اردازير ، ولم يبق منها غير بقية من الذكري لاحت لي كحللم ، وهيمت بان افضلها على نفسها ، وكنت قد حملت يدي الى صدرها ، ولكن يدي جرتنا بسرعة في كل مكان . والحب لم يكن يظهر الا بسبب عنفه ، وقد اخذ يهرول نحو الانتصار ، وبعد لحظة اخرى لم تعد

من الذي كتب هذا ؟ انه ليس حتى مؤلف « هوليز الجديدة » — انه الرئيس دي مونتسكيو . ونحن لا نجد هنا مرارة ولا استمزازا ، بل كل شيء قد ضحى به في سبيل الجمال الادبي ، وهم يعطون هذا جائزة لتلاميذ البلاغة . وذلك بلا ريب لكي يستخدموه في تنمية الموضوعات او الاوصاف التي يطلب اليهم عملها ! ومونتسكيو يصف في « الخطابات الفارسية » مشهدا لا يمكن ان يقرأ ، وهو مشهد امرأة يضمها المؤلف بين رجلين يبنزانعانا ، وهذه المرأة الموضوعة هذا الوضع بين رجلين ، تحلم احلاما تلوح لها بالفة العذوبة !

هل وصلنا ابها السيد محامي الامبراطورية الى مثل هذا ، ثم هل من الضروري ان اقتبس ايضا من جان جاك روسو في « الاعترافات » وغيرها ؟ لا ! ولكنني اقول فقط للمحاكمة انه لو ان السيد مريمه حوكم بسبب وصفه للمربية في « الخطأ الزوج » لبريء في الحال ، لان الحكمة لم تر في كتابه غير عمل قبيح وجمال ادبي عظيم . وهو ان يدان اكثر مما يدان الصور والماثلون الذين لا يكفون بالتعبير عن جمال الجسم ، بل يعبرون ايضا عن كائنه الرغبات المشتعلة والانفعالات الحادة . وانا لا اکتفي بهذا بل اطلب اليكم ان تعترفوا بان السيد فلوير لم ينقل لوحاته . وانه لم يفعل غير شيء واحد ، هو ان يمس بيده القويصة مشهد السقوط . وفي كل سطر من كتابه نراه يظهر خيبة الامل . وبدلا من ان يختم المشهد بشيء لطيف ، نراه يحرص على ان يظهر لنا هذه المرأة وقد وصلت — بعد الاحتقار والهجر وخراب بيتها — الى اشنع انواع الموت . وبعبارة موجزة لا يستطيع الا ان اكرر ما بدأت به مرافعتي وهو ان السيد فلوير مؤلف لكتاب جيد — كتاب يدعو الى الفضيلة باظهار بشاعة الرذيلة .

فعلي الآن ان انحصر الكتاب من التاهية الدينية ، والاساءة الى الدين التي ارتكبتها السيد فلوير ! وعلى اي نحو كانت هذه الاساءة ؟ لقد اعتقد السيد محامي الامبراطورية انه يجد فيه رجلا متشككا . وباستقامتي ان ارد على السيد محامي الامبراطورية قائلا انه مخطيء . وليس علي هنا ان اعلن ايماني بالدين وانما علي ان اذاع عن الكتاب ، وهذا هو ما يدفعني الى ان اکتفي بهذه الكلمة البسيطة . واما عن الكتاب فاتي اتحدى السيد محامي الامبراطورية ان يجد فيه اي شيء يمكن ان يلوح انه اساءة الى الدين . ولقد رايتم كيف ان الدين قد دخل في تربية ايما ، وكيف ان هذا الدين — الذي اسفد بعدة رسائل — لم يستطع ان يمسك ايما على المحدر الذي انسقت اليه . وهل تريدون ان تعرفوا بلية لغة يتحدث السيد فلوير عن الدين ؟ فلتنصتوا الى بضعة اسطر اخذها من الدفعة الاولى في صفحات ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

« وفي ذات يوم بينما كانت النافذة مفتوحة وهي جالسة الى حافتها ، رأت لسنيبيدوا خادم الكنيسة وهو يشذب شجر اليقوس ، وفجأة سمعت الناقوس يدق للصلاة .

« وكنا في مستهل ابريل عندما تنفتح الازهار المبكرة ، وريح فاترة اللهب تهب على الاحواض المحروسة ، والهدائق كالتساء يلوح انها قد اخلت تتخذ زينتها لاعياد الصيف . ومن خلال قضبان المرشحة ، ومن خلفها ، كان النهر يرى في كل مكان وسط المروج حيث يرسم وسط الحشائش تعرجات غير منتظمة . وبخار المساء يمر بين اشجار الحور العارية من الورق ، وهو يتدرج بعواضيه من لون قرمزي اكثر شحوبا وشفافية من غاز خفيف معلق باغصانها . وعد بعد تسير المواشي دون ان يسمع وقع اقدامها ولا خوارها . والناقوس يدق دائما فيستمر فسي الهواد نحيبه الهادي .

« وعلى وقع هذا الرنين المتكرر ضل فكر ايها في الفكرية القديمة عن حداتها واقامتها في الدير . فنكرت الشيمدانات الكبيرة التي كانت تبرز من المذابح ، والزهريات المليئة بالزهور ، وبيت الرب ذا الاعمدة ، وودت ان لو بقيت - كما كانت في الماضي - مختلطة في ذلك الصف الطويل من الاوشحة البيضاء ، التي كان يتخللها هنا وهناك سواد طراوير الراهبات الصلبة ، وهن بنحنيات فوق المصلى »

هذه هي اللفة التي يعبر بها عن الالهاسس الديني ، ومع ذلك فان من يسمع اقوال السيد المحامي العام يخيل اليه ان التشكك يسيطر على كتاب السيد فلوير من اوله الى اخره . واني لارجوكم ان تدلوني اين يوجد التشكى في هذه الفقرات .

السيد محامي الامبراطورية : اني لم اقل ان التشكك هنا .

السيد سينار : واذا لم يكن التشكك هنا فلين اذن يكون ؟ في مقتطفاتك طبصا ! ولكن ها هو الكتاب كله ، ولتحكم عليه المحكمة ، وسوف ترى ان الشعور الديني يفرها بقوة ، بحيث ان الاتهام بالتشكك ليس الا تشنينا حقيقيا . والان هل يسمح لي السيد محامي الامبراطورية بان اقول له انه لم يكن هناك ما يدعو الى ان ينهم المؤلف بالتشكك هذا الاتهام المصاحب ؟ ! ولتواصل القراءة :

« وفي اثناء الصلاة يوم الاحد عندما رفعت راسها رات وجه العذراء المسبح بين ما يتصاعد من دوامات البخور المضاربة الى الزرقة . وعندئذ تملكها الضان ، واحست بالاسترخاء والمهجران كرفب العصفور الذي يدور مع العاصفة . وهدت هذا دون ان تدرك انها تتجه نحو الكنيسة مستعدة لاية عبادة ، بشرط ان تمتص هذه العبادة روحها وان يخفي الوجود كله » .

هذا ايها السادة هو اول دعوة الى الدين لكسي يمك ايها على منحدر الشهوات . ولكن المرأة المسكينه سقطت ثم ركلها بقدمه الرجل الذي استسلمت له . واوشكت ان تموت ، ثم نهضت وانقضت ، وسوف ترون الان ما كتب في عدد ١٥ نوفمبر سنة ١٨٥٦ من ٥٤٨ :

« وفي يوم اشدت بها المرض حتى ظنت انها تحتضر ، وطلبت ان تتناول القربان . وبينما كانوا يعدون العدة بالفرقة لهذا تناول ، ويضمون المائدة الزهجة بانواع من الشراب السكري لتستخدم كمنج - وفيليبيته تثر الارض بازهار الداليا ، اذ بلما تحس بشيء قوي يمر فوقها فيخلصها من الالمها ومن ادراكها واحساسها . وتخفف جسمها فلم يعد ينقلها ! وابندات حياة اخرى . ولاح لها ان شخصها المساعد نحو الله (انظروا بلية لفة يتحدث السيد فاوير عن السائل الدينية) ولاح لها ان شخصها المساعد نحو الله سيفضي في ذلك الحب ، كالبخور المشتعل الذي يتبدد بخارا . ورشوا الماء المقدس فوق ملادات السرير ، واستل القسيس القربان الابيض من الزود المقدس ، وانهارت من القشوة الالهية وهي تمد شفيتها لكي تتناول اسم المسيح الذي تقدم اليها »

وانا اطلب العفو من السيد محامي الامبراطورية ، واطلب العفو من المحكمة واقطع القراءة ، ولكنني في حاجة الى ان اقول ان المؤلف هو الذي يتحدث وان الت نظركم الى العبيارات التي يستخدمها في التعبير عن اسرار تناول . وانا في حاجة - قبل ان استأنف القراءة - الى ان تدرك المحكمة القيمة الادبية المستمدة من هذه اللوحة . وانا في حاجة الى ان ابرز هذه المبارات التي اوردها المؤلف :

« وانهارت من القشوة الالهية وهي تمد شفيتها لكي تتناول اسم المسيح الذي تقدم اليها ، وانفتحت ستائر مخدعها حولها في ليونة وكتها سحب ، والشيمتان لتقهبان فوق المائدة

فلوحان لها هالتي مجد معشى الابصار . وعندئذ تركت رأسها يسقط ، وقد ذبل اليها أنها تسمع في فضاء السماوات اغنية الملائكة على نفحات العيدان . وانها ترى في زرقة السماء – فوق عرس ذهبي وبين القديسين الذين يسكون أغصانا خضرا – الله الاب ، مشرق العظمة . وبإشارة منه نهبط الملائكة الى الارض باجنحة من لهب لكي تحملها بين اذرعها)
ويستمر :

« وظلت هذه الرؤيا الرائعة في ذاكرتها كاجمل شيء يمكن ان تحلم به ، حتى انها لتجاهد الان لكي تسترد الاحساس بها ، رغم ان هذا الاحساس لا يزال مستهرا ، ولكن على نحو اقل استحوادا ، وان يكن في نفس المذبذبة العميقة . فروحها التي هدتها الكبرياء تستريح اخيرا في خشوع المسيحية ، وتتذوق لذة الاحساس بضعفها . وأخذت ايما تتأمل في ذاتها تحطم ارادتها ، التي أخذت تفتح الباب واسما لفيض من رحمة الله . وهكذا أحست بأنه بدلا من المساعدة توجد مسرات أعظم ، كما يوجد حب فوق كل انواع الحب الاخرى – حب لا ينقطع ولا ينتهي ، بل ويزداد على نحو دائم . ولحمت بين رؤى آمالها حالة من الطهارة تسبح فوق الارض وتختلط بالسماء ، هفت اليها روحها ، فودت أن لو أصبحت قديسة . واشترت مسابح وهبات تماثيل ، وتنت أن تجد في غرفتها – عند مرقدها – صندوقا به بعض مخلفات القديسين وقد رصع بالزمرد ، لكي تقبله كل مساء ! » .

ها هي الشاعر الدينية ! واذا اردتم ان تتوقفوا قليلا عند فكرة المؤلف الاساسية ، فاني اطلب اليكم ان تقرأوا الصفحة ، وان تقرأوا الاسطر الثلاثة التالية من الفقرة الثانية :

« .. فنارت ضد أوامر الدين ، كما أن غطرسة الكتب الجدليلة فنرتها ، لما فيها من تكالب على مطاردة أناس لم تكن تعرفهم . والقصص الدنيوية الطعمية بالدين كانت تلوح لها صادرة عن جهل بالحياة ينحيا – على نحو غير محسوس – عن الحقائق التي كانت تنتظر دليلا يؤيدها » .
هذه هي لغة السيد فلوير . والآن أرجوكم ان نصل الى مشهد آخر هو مشهد المسحة الاخيرة .. أيها السيد محامي الامبراطورية ، كم كنت علسى خطأ عندما وقعت عند الكلمات الاولى وأخذت تنهم موكلي بخلط العنصر المقدس بالعنصر الدنيوي – عندما اكتفى بان يورد الاصطلاحات الجميلة الخاصة بالمسحة الاخيرة ، عندما يأخذ القسيس في مسح كافة أعضاء حواسنا ، وفي اللحظة التي يقول فيها باللاتينية طبقا لاصطلاحات الطقوس ، : « بهذه المسحة الاخيرة وبفضل رحمته الواسعة يفر لك الرب كل خطابك . »

لقد قلت انه لا يجب المساس بالاشياء المقدسة ، ولكن باي حق تحور هذه العبارات المقدسة : « وليفر لك الرب برحمته المقدسة كل ما ارتكبت من خطايا بالبصر أو الذوق أو السمع الخ ... ؟ »

وهانا اقرأ لكم الفقرة المدانة ، وسيكون في قراءتها كل انتقامي ، وانا أجزؤ ان أقول انتقامي ، لان المؤلف في حاجة الى من ينقلم له : نعم ! ان السيد فلوير يجب ان يخرج من هنا – لا مبردا فحسب – بل ومنقما له ! وسوف ترون بآية قراءات تغذى . والفقرة المدانة في ص ٢٧ من عدد ١٥ ديسمبر ، واليكم نصها :

« .. وهي شاحبة كالثمنال ، وعيناها محمرتان كالجمر وشارل واقف امامها دون بكاء عند ساق السرير ، بينما ركع القسيس على ركبته وأخذ ينهم في صوت خفيض .. »
كل هذه اللوحة رائعة . ولذة قراءها لا تقاوم . ولكن اطمئنا فلن اطلب القراءة اكثر مما ينبغي . فما هو الآن موضع الانتهام :

« وأدارت وجهها في بطء ، ولاح أنها قد تملكها القشوة ، إذ رأت فجأة المسوح البنفسجي .
ولا شك أنها قد عادت فخلصت وسط هذا الهدوء الخارق بنك اللذة المفقودة التي كانت تستشمرها
في انطلاقاتها الصوفية الأولى ، مع رؤى من السعادة الفالدة التي أخذت تتبدى . »
« ونهض القسيس لكي يأخذ الصليب . وعندئذ مدت رقبتهما كمن به ظمأ ، والصدقت شفيتها
فوق جسم « الرجل الإله » ، ووضعت فوقه - بكل قوتها المولية - أكبر قبلة حب اعطتها فسي
حياتها . »

لم تبدأ المسحة الأخيرة بعد ، ولكننا نلام بسبب هذه القبلة . ولن اذهب لأبحث في سائر
تريز التي ربما تكونون عارفين بها ، ولكن نكراها أصبحت موهلة في القدم ، بل ولن اذهب لأبحث
عند فليلون عن تصوف مذام جيون ، بل ولن ابحث عن حالات حديثة من التصوف أجد فيها أسبابا
أخرى كثيرة ، ولن اطلب الى المدارس التي تصفونها بالمسيحية الرسمية نفسرا لهذه القبلة ،
ولكنني سأطلب هذا التفسير الى بوسويه - نعم الى بوسويه نفسه :

« أطيعوا ، وهاولوا أن تصلوا الى المشاعر المسيحية وأنتم تتناولون القربان ، وهي
مشاعر اتحاد ومتممة وهب . فالأنجيل كله يدعوك لذلك ، والمسيح يود أن نكون معه ، ويود أن
يستمتع وأن نستمتع معه ، ولحمه المقدس هو سبيل هذا الاتحاد وسبيل هذه المنصة الطاهرة .
انه يقدم نفسه .. الخ . »

واستأنف قراءة الفقرة المدانة :

« ثم ردد « رهبتك يا الله » وصلاة الاستغفار وغمس اصبعه الايمن في الزيت ، وابتدا
المسحات الأخيرة : أولا على عينيها اللتين طالما تطلعتا الى الخع الأرضية ، ثم فوق أنفها المولع
بالنسيمات الفاترة والروائح الفرامية ، ثم فوق فمها الذي كان مفتوحا للكتب ، والذي كان يئن من
التكبر ويصيح من الشهوة ، ثم فوق اليدين اللتين كانتا تتلذدان باللمسات العذبة ، وأخرا فوق
مسطح قدميها اللتين كانتا فيما مضى بالفضي السرعة في الجري لاشباع رغباتها ، واللتين لن تعودا
تسيران الآن . »

« وجفف القسيس اصابعه والتي الى اثار يقطع القطن الجبللة بالزيت ، وعاد ليجلس الى
جوار المحتضرة لكي يخبرها ان من واجبه الآن ان تضم آلامها الى آلام المسيح وان تستسلم
للرحمة الإلهية .

« وعندما انتهى من وصاياه حاول ان يضع في يدها شمعاً باركها ، رمزا لأيجاد السماء التي
ستحيط ستحيط بها بعد قليل . ولكن أيما البالفة الضعف لم تستطع أن تغلق اصابعها ، ولولا
السيد بورنيسيان لسقطت الشمعة على الأرض .

« ومع ذلك فإنها لم تعد شاحبة كما كانت ، وقد انتشر على وجهها مظهر الاطمئنان ، وكان
الطقوس الدينية قد شفتها ..

« ولم يغفل القسيس ابداء هذه الملاحظة ، بل وشرح لبوفاري أن الله يمد أحيانا في حياة
الأشخاص عندما يرى ذلك ملائمة لخلصهم ، وتذكر شارل كيف أنها تلقت يوما وهي قريبة من
الموت طعام التناول وظن انه ربما لم يكن هناك محل للباس . »

والآن عندما تموت امرأة ويعطيها القسيس المسحة الأخيرة ، وعندما نصنع من هذا
مشهدا صوفيا ونورده في أمانة صارمة العبارات المقدسة ، يقال أننا قد ميسنا بالاشياء المقدسة .
لقد مددنا الى الاشياء المقدسة يدا جريئة ، لأننا قد أضفنا الى عبارات الاعين والفم والاذنين
والرجلين المخطئة اسم الخطيئة التي ارتكبتها كل من هذه الاعضاء ، ولسنا نحن اول من سار

في هذا الطريق ، فسأت بيف قد وضع في كتاب تعرفونه مشهدا للمسحة الأخيرة وها هي طريقة عرضة لسه :

« آه ! نعم . فوق العينين اولا باعتبارهما انبل واحط هواسنا — فوق هاتين العينين بسبب ما راتا وتابلتا من مشاهد رقيقة او خبيثة او عيون اخرى فاتية ، وبسبب ما قرانا واجادنا قراعه من صفحات جذابة او هيببة وبسبب ما سكبنا من دموع مهدرة فوق اعراض فاتية واشخاص خائنين ومن اجل ذلك القوم الذي طالما نمسيا في المساء اثناء التفكر في اولئك الاشخاص .
« ثم فوق السمع أيضا بسبب ما سمع او قيل ان يسمع من الفاظ مفرطة الطوبى والملق والثمل ، وبسبب ذلك الصوت الذي تسرقه الالذن في بطنه من الاقوال الخادعة ، وبسبب ما تعب من غسل خفي !

« ثم فوق حاسة الشم بسبب العطور النافذة المثيرة في امسيات الربيع وسط الفبابات ، وبسبب الزهور التي تصل في الصباح وتستنشق طوال النهار في استمتاع !
« وفوق المشغاه بسبب ما تفوتت به من الفاظ غامضة او مضحكة ، وبسبب الردود التي لم تقم بها في بعض اللحظات والتي لم تصنع عنها ليمض الاشخاص ، وبسبب ما تفنتت به في الوحدة من انغام منسجمة ولينة بالدموع ، وبسبب ما تمتتت به من عبارات غير متميزة المقاطع واخرا بسبب صحتها !

« وفوق الصدر بسبب اشتغال الرغبة كما يقول التعبير التقليدي . نعم بسبب الام الحب والخيرة . بسبب اللهفة المفرطة التي تنتج عن المحبات البشرية — بسبب الدموع التي تخفق الحلق وتكتم الصوت — بسبب كل ما يحجل القلب على الخفقان او ينهشه !
« وفوق اليدين أيضا بسبب ضمها ليد لم ترتبط بها رباطا مقصدا — بسبب تلقيها دموعا مفرطة الحرارة ، واخرا ربما كان بسبب البدء في كتابة رد غير مسجوح به دون انجازه !
« وفوق القدمين لانهما لم يهرمان لانهما طقوسى ديني للعبادات مع رد على الاعتراضات المستمدة من العلوم ضد الدين ، مؤلفه الأب امبرواز جالوا راعي نوردام دي باري في مالن — الطبعة السادسة .. الخ.» وهو كتاب اجازه قداسة الكاردينال جومه ومجلس قساوسة ومطارنة مالن ونور ويوردو وكولون .. الخ . المجلد الثامن المطبوع في مالن بواسطة شارل مونوايه سنة ١٨٥١ . وسوف ترون في هذا الكتاب — كما رأيتم منذ هنيهة عند بوسويه — المباديء — بل وعلى نحو ما نص — الفقرات التي يدينها السيد محامي الامبراطورية . وانا الآن لا اورد نصا للسيد سانت بيف الفنان هاوي الايب ، بل ادعوك الى ان نتصتوا للكنيسة نفسها :

« ان المسحة الأخيرة يمكن ان ترد الصحة للجسم اذا كانت نافعة لجد الله ... »
والقسيس يقول ان هذا كثيرا ما يحدث . والان ها هي المسحة الأخيرة .

« بوجه القسيس للمريض موعظة قصيرة اذا كان في حالة تمكنه من سماعها ، وذلك لكي يهيئه لتلقي الطقوس التي ستقدم اليه في وقار .

« ثم يقوم القسيس بالمسحات فوق المريض بالخنجر او بطرف الابهام الايمن الذي يغمسه كل مرة في زيت المعزة . وهذه المسحات يجب ان تعمل بنوع خاص فوق الاجزاء الخمسة من الجسم التي اعطتها الطبيعة للانسان كاعضاء للحواس وهي العينان والاذنان والالف والتم واليدان .

« وكلما قام القسيس بالمسحات (لقد تابنا الطقوس نقطة نقطة ونسخاها) ينطق بالمعبارات المتعلقة بها .

« على الاعين فوق الجفن المفلق يقول :

ببركة هذه المسحة المقدسة وبرحمتها الالهية فليغفر لك الله كافة الخطايا التي ارتكبتها بالبر . وفي هذه اللحظة يجب على المريض أن يكره من جديد كل الخطايا التي ارتكبتها بواسطة البصر سواء اكانت نظرات جريئة أو تطلعا أو قراءة ولدت فيها جملة من الافكار الخافية للايمان وللاخلاق .

وماذا فعل السيد فلوبيز ؟ لقد وضع في قم القسيس ما يجب أن يكون في عقله وفي عقل المريض معا ، وقد جمع الجزئين سويا وقد نسخ المؤلف ما قرأه في دقة وبساطة .

« وفوق الاذن يقول : ببركة هذه المسحة المقدسة وبرحمتها الالهية فليغفر لك الله كافة الخطايا التي ارتكبتها بحاسة السمع . وفي هذه اللحظة يجب على المريض أن يكره من جديد كل الخطايا التي ارتكبتها عندما استمع في لذة الى اقوال السوء والتميمة والالفاظ القابية والاغاسي غير العفيفة ،

« وفوق المم يقول : ببركة هذه المسحة المقدسة وبرحمتها الكبيرة فليغفر لك الله كافة الخطايا التي ارتكبتها بحاسة الشم . وفي هذه اللحظة يجب على المريض أن يكره من جديد كل الخطايا التي ارتكبتها بالشم عند بحنه عن المطور الرهيفة المثرة ، وعن التمع الحسية ، وكل ما استنشقه من روائح باغية .. وفوق المم والشفتين يقول : ببركة هذه المسحة المقدسة وبرحمتها الكبيرة فليغفر لك الله كافة الخطايا التي ارتكبتها بحاسة الذوق وبالكلام . وفي هذه اللحظة يجب على المريض أن يكره من جديد كل الخطايا التي ارتكبتها عندما تفوه باقسام أو لعنات ... وعندما افطر في الاكل والشرب ... وفوق اللسان يقول : ببركة هذه المسحة المقدسة وبرحمتها الكبيرة فليغفر لك الله كافة الخطايا التي ارتكبتها بحاسة اللمس ، وفي هذه اللحظة يجب على المريض أن يكره من جديد كل السرقات وكل عدوان يمكن أن يكون قد ارتكبه وكل الاباحات الاجرامية التي سمح لنفسه بها ... والقسس يتناولون المسحة خارج ايديهم وذلك لانهم قد تلقوها داخلها . عند رسامتهم ، بينما يتناولها المرضى الآخرون داخل ايديهم — وفوق الأرجل يقول : ببركة هذه المسحة المقدسة وبرحمتها الكبيرة فليغفر لك الله كافة الخطايا التي ارتكبتها بسمك ، وفي هذه اللحظة يجب على المريض أن يكره من جديد كافة الخطوات التي قام بها في طرق البني سواء في التزهات الفاضحة أو في المقابلات الآثمة ... ومسحة الأرجل توضع فوق أعلى القدمين أو تحت مسطحهما وفق راحة المريض وتبعا للمرف الجاري في الإبرشية ، والمادة الجارية يلوح أنها على مسطح القدمين .

« وأخيرا فوق الصدر (لقد نسخ السيد سانت بيغ النص حرفيا واما نحن فلم نعمل هذا لاتنا كما بصدد صدر امرأة) بسبب الرغبة المنتهية .. الخ .

« وفوق الصدر : ببركة هذه المسحة المقدسة وبرحمتها الكبيرة فليغفر لك الله كافة الخطايا التي ارتكبتها بالتهاب الرغبات ، ويجب على المريض في هذه اللحظة أن يكره من جديد كافة الافكار السيئة والرغبات الآثمة التي استسلم اليها وجميع احاسيس البغضاء والانتقام التي نماها في قسي قلبه .

ولقد كما نستطيع تبعا للطقوس ان نتحدث عن أشياء أخرى غير الصدر ولكن الله يعلم أي غضب مقدس كما سنشره عندئذ لدى التياية العامة لو اننا تحدثنا عن الحواس .

« وفوق الكليتين : ببركة هذه المسحة المقدسة وبرحمتها الكبيرة فليغفر لك الله كافة الخطايا التي ارتكبتها بحرذات الجسم غير المنتظمة » .

لو اننا قلنا هذا لكمم قلتمونا بلية صاعقة ! ايها السيد محامي اليمراطورية ! ومع ذلك
تضيف الطومس :

« ويجب على المريض في هذه اللحظة ان يكره من جديد كافة اللذات غير المشروعة وكافة المتع
الجسيمة ... »

هذه هي الطومس وقد رايتم فيها مادة الاتهام ، وليس فيها مزح بل كلها جد مؤثر . واكرر ان
الذي اعطى موكلي هذا الكتاب وراى موكلي يستخدمه على نحو ما فعل قد صانع يده وهو بيكي .
وهكذا ترى ايها السيد محامي اليمراطورية الى اي حد كانت الجراة — وانا استخدم هذا اللفظ
لكي لا استخدم لفظه اخرى قد تكون اكثر دقة ولكلها اشد قسوة — في الاتهام ، باتنا قد مسسنا
بالاشياء المقدسة ، وانتم ترون الان اننا لم نخرج بين العنصر الدينوي والعنصر المقدس عندما
اضفنا الى كل حاسة الخبيثة التي تركبها ما دامت هذه هي لغة الكنيسة ذاتها .

هل انهبل الان عند التفاصيل الاخرى المتعلقة بجريمة الاساءة الى الدين ؟ وها هي التيابة
العامة تقول لي : « انكم لم تسيئوا الى الدين ، وانما اساتم الى الاخلاق المساندة في كافة
الازمنة ، وقد وجهتم السباب الى الموت » وكيف وجهنا السباب الى الموت ؟ لاننا وقت اهتضار
هذه المرأة قلنا انه قد مر بالشارع رجل كانت قد قابلته اكثر من مرة ، وسالها اهسانا الى جوار
العربة التي كانت تعود فيها من مواعيدها الفاسقة ، وهو الاعمى الذي اعتادت رؤيته — الاعمى
الذي كان يعني اغنية بينما كانت العربة تصعد الهضبة ، والتي كانت تلقي اليه بقطعة من
التقود ، وكان يظهره يجر فيها القشعريرة . وهذا الرجل يمر في الشارع . وفي اللحظة التي تغفر
فيها رحة الله او تعد بالفخران لهذه المرأة البائسة التي كحرت بموت بشع من خطايا حياتها —
تلبى سفرية البشر الا ان تظهر لها في صورة الاغنية التي تمر تحت نافذتها . ياالله ! انك ترى ان
في هذا اساءة ، ولكن السيد فلوير لا يفعل ما فعله شكسبير وجينه اللذين لا يفوتها عند اللحظة
الحاسمة للموت ان يسمعاتنا اغنية اما للشكوى واما للسخرية ، لكي نذكر من هو في طريقه
الى الابدية بلذة لن يستمتع بها بعد ذلك ، او بخطينة تتطلب التكفر عنها .
ولتقسرا :

« وبالفعل نظرت حولها في بطة كمن يستيقظ من حلم ، ثم طلبت في صوت واضح براتها ،
وظلت منحنية فوقها بعض الوقت حتى انسكبت من عينيها دموع غليظة ، وعندئذ طرحت رأسها الى
الخلف وهي تنتهد وعادت الى السقوط فوق الوسادة .
« أخذ صدرها بعد ذلك بمباشرة يلهث في سرعة »

لا استطيع ان اقرا لاتني كلامارتين ارى « ان التكفر يذهب الى ابعد من الحقيقة : .. » ومع
ذلك فاني يا سيدي محامي اليمراطورية لم اعتقد انني اسير صنما بقراءة هذه الصفحات لبناتي
المتزوجات ، وهن بنات فضليات تلقين امثلة ودروسا صالحة ، ولم يحدث قط ان انصرفن عن الطريق
المستقيم لاي طفل ، ولا تطلعن الى سماع اشياء لا يمكن ولا يجوز ان تسمع . وانه ليستحيل
علي ان استمر في القراءة ، وسلكني في دقة بالفقرات موضع المواخذة :

« ماذا ذراعيه ، وكلما اشتدت الحشجة (كان شارل في الناحية الاخرى — هذا الرجل
الذي لا ترون ابدا ، وهو رجل رائع) وكلما اشتدت الحشجة ، أسرع القسيس في مواضعه
التي كانت تختلط بانتخابات بوفاري المكبوتة . واهيانا كان يلوح ان كل شيء يخفي في التمتمة
الصامتة للمقاطع اللاتينية ، التي كانت ترن ككفات ناقوس حزين .

« وقجاة سمعت على الرصيف ضوضاء هذاه خشبي سبيك مع حفيف عصا ، وصوت اجش

يرتفع مغنيا : كثيرا ما تدفع حرارة يوم صحو الصبية الى ان تحلم بالحب !
« ونهضت ايما كالجثة التي ينفخون فيها الحياة ، محالولة الشمر ، جابدة الحنقة
مفروتهتها » .

« واستمر الصوت يغني : لكي تجمع في خفة السنابل التي يحصدها الحجل ! ها هي حبيبتني
نانت تنخني فوق خط المحراث الذي يعطينا هذه السنابل ! .

« وصاحت ايما : الاعمى ! ثم اخذت تضحك ضحكا مؤلما مجنونا يائسا ، معتقدة انها ترى
الوجه المخيف لهذا الشقي ، الذي ينهض في الظلمات الابدية كتسبح مربع . »
واستمر الغناء : وهبت الريح قوية في ذلك اليوم ، وتطابرت الجوزلة القصيرة !
« واقلت بها شهقة فوق العشية ، واقرب الجميع ... وكانت قد فارقت الحياة ! »

انظروا ايها المسادة ، ففي اللحظة الحاسمة تعود الذكرى والندم ، بكل ما فيه من الم كاو
ونظامه بالفة . انها ليست نزوة فتان يريد فقط ان يجمع الاضداد بدون جدوى ، وليست مجرد
عظة اخلاقية ، بل ان الاعمى الذي تسمعه ، وهو يغني في الشارع هذه الاغنية المفجعة ، التي
كان يغنيها وهي عاتدة غارقة في عرقها ، بشمة من مواعيد الزنا - ان الاعمى الذي كانت تراه
عند كل موعد من مواعيدها ، انه الاعمى الذي كان يلاحقها باغنيته والحاحه ، انه هو الذي
ياتي في لحظة الرحمة الالهية لكي يمثل الصراع البشري الذي يلاحقها في لحظة الموت الحاسمة !

وهذا هو ما يسومونه اساءة للاخلاق العامة ! ولكنني استطيع ان اقول على المكس ان فيه
اجلالا للاخلاق العامة ، وانه ليس هناك ما هو اامن من هذا في الاخلاق . وباستطاعتي ان اقول ان
عيب التربية قد جسم في هذا الكتاب ، وانه قد اخذ من الواقع ، واقع حياتنا الاجتماعية التابضة ،
حتى ليقتي المؤلف عند كل مقطع السؤال الاتي : « هل قمت بما يجب لتربية بناتك ، وهل الدين
الذي قدمته لهن هو ذلك الدين الذي يستطيع ان يسندهن وسط اعاصير الحياة ، ام انه ليس
الا كومة من الخرافات العسيرة تتركهن بغير سند عندما تزجر الماصفة ؟ هل علمتهن ان الحياة
ليست تحقيقا لاحلام وهمية بل هي شيء عادي يجب ان نتلازم معه ؟ هل علمتهن هذا ؟ انت ؟ هل
فعلت ما يجب لضمان سعادتهن ؟ هل قلت لهن : يا طفلاتي المسكينات ، انكن ان تجدن في بحثكن
عن المسرات خارج الطريق الذي اذلكن عليه غير الاشمزاز الذي ينتظركن ، ثم هجران بيوتكن ،
والاضطراب والفوضى ، وتبديد المال ، والصدمات والحجز ... » وباستطاعتكم ان تنظروا
فيما اذا كانت اللوحة ينقصها شيء . فهناك المحضر ، وهناك ايضا اليهودي الذي باع لكي يشبع
نزوات هذه المرأة ، والاثاث قد حجز عليه ، وسيتم البيع ، والزوج يجعل كل شيء حتى الآن ،
ولم يبيل للمسكينة الا ان تموت .

ولكن التيابة العامة تقول ان موتها ارادي ، وهذه المرأة قد ماتت في حينها .

فهل كانت تستطيع ان تعيش ؟ ألم يكن مقضيا عليها بالموت ، وهل لم تستنفذ آخر درجة
في الخزي والحقارة ؟

نعم ! انهم يظهرون على مسارحنا النساء اللاتي انخرفن رشقات باسمات سعيدات ، ولا
يريد ان اقول ما فعلته ... وما صفتن باجسامهن ، ولكنني اكفي بان اقول بلقهم عندما
يظهرونهن سعيدات ساهرات ملفوفات في الحرير ، وهن يمددن يدا رشيقة الى الكونتات والرايكز
والاندواق ، واتهن بهلن - هن انفسهن - لقباب الركييزات والحدقات - اقول ان هذا هو ما
ما يسومونه احترام الاخلاق العامة . واما من يقدم لكم امرأة زائبة وهي تحتضر في خزي ، فله
يقترب اساءة الى الاخلاق العامة !

هذا ، وانني لا أريد أن أقول أن الرأي الذي عبرت عنه ليس رأيك ، ما دمت قد عبرت عنه . ولكنك قد استسلمت لشاغل هام . لا ! انه ليس أنت الزوج ورب الأسرة والرجل المائل بيننا ، ... انه ليس أنت ، فهذا ليس بالممكن ! لست أنت الذي يدفمك شاغل الإنهام ، رأي سلفي ، الى ان تاتي لتقول أن السيد فلوبيير مؤلف لكتاب رديء ! نعم ! فانك لو تركت لوحسي نفسك لكان تقديرك كتقديري تماما ! وأنا لا اعني الناحية الادبية ، فاننا لا يمكن ان نخالف أننا وانت من هذه الناحية ، ولكنني اعني ناحية الاخلاق ، والمشاعر الدينية ، التي نفهمها على نحو ما نفهمها .

لقد قيل لنا ايضا أننا قد عرضنا في الرواية قسيسا ماديا . ولكننا قد أخذنا القسيس كما أخذنا الزوج . فهو ليس من رجال الدين البارزين ، بل هو رجل عادي ، قسيس ريف . وكما أننا لم نسيء الى احد ، ولم نعب عن أي احساس أو رأي يمكن أن يسيء الى الزوج ، فاننا كذلك لم نسيء الى القسيس الذي كان موجودا هناك . وليس لدي ما أقوله في هذا غير كلمة موجزة . هل تريدون كتبا يلعب فيها رجال الدين دورا معيبا ؟ خذوا « جيل بلاس » و « كاهن » بلزاك ، و « ونوتردام دي باري » ليفكتور هيجو ، وإذا أردتم أن تعثروا على قسس يعتبرون مسبة لرجال الدين فابحثوا عنهم في مكان آخر ، لانكم لن تجدوهم في مدام بوفاري . وما الذي أظهرته أنا ؟ انه قسيس ريف ، يعتبر في مزاوله وظيفته — كقسيس ريف — في نفس الموضع الذي وضعنا فيه السيد بوفاري ، اعني وضع الرجل المعادي . هل صورته اباحيا ؟ ... نعم ؟ ... سكبنا ؟ ... انني لم أقل كلمة واحدة من كل هذا . لقد مثلته ناهضا بمهنته ، لا بذكاء رفيع — ولكن على نحو ما اقتضت طبيعته أن ينهض بها . وقد جعلته يحل ويناقش مناقشة مستمرة مع شخصية ستحيا ، كما عاشت شخصية السيد « برودوم » ، وكما ستعيش بعض الشخصيات الأخرى التي خلقها عصرنا ، وهي شخصيات درست بدقة والنقطة من واقع الحياة بحيث لا يمكن أن تنسى ، وهو صيدلي الريف الفولتري المشكك المتكر للابمان ، الرجل الدائم الصراع مع القسيس . ولكنه — في صراعه مع القسيس — من الذي يهزم دائما ويستخف به ويسخر منه ؟ انه هومييه ، فهو الذي أعطى الدور الأكثر إثارة للضحك ، لانه الأكثر صدقا ، وهو الذي يصور اصدق تصوير عصرنا المشكك — رجل مصروع ، ذلك الذي نسميه كاره القسس ! ولتسبحوا لي مرة أخرى أن أقرأ لكم ص ٢٠٦ :

« قالت صاحبة الفندق وهي تتناول من فوق المدفأة أحد تلك المشاعل النحاسية التي كانت مرصوفة هناك بشمعداناتها : بماذا تأمر يا سيدي القسيس ؟ هل تريد أن نتناول شيئا ؟ ... قليلا من الخمر ، أم كاسا من النبيذ ؟

« ورفض القسيس في أدب جم ، لانه انما حضر لكي يأخذ مظلمته التي كان قد نسيها منذ أيام في دير ارنمون . وبعد أن رجا مدام لوفرنسوا أن ترسلها في المساء الى محل سكنه في الكنيسة ، خرج لكي يذهب الى الكنيسة حيث كان ناقوس الصلاة يبق .

« وبعد أن لم يعد الصيدلي يسمع في الميدان صوت حدائه ، وجد ان سلوكه قد كان غير لائق عندما رفض منذ هنيهة أن يتناول مرطبا ، ولاح له هذا الرفض نفاقا من أبغض نوع ، فالقسيس يعربدون جييما دون أن يراهم احد ، ويعملون على أن يعود عمر « الأناوة العشرية » !

« ودافعت صاحبة الفندق عن قسيسها :

« — ومفضلا عن ذلك فانه يستطيع أن يكسر أربعة مثلك فوق ركبته ، وقد عاونه في العام الماضي رجالنا في تخزين القش ، وكان يحمل ست حزمات في وقت واحد لشدة قوته !

وقال الصيدلي : برافو ! ارسلني اذن بناتك للاعتراف عند هؤلاء الصالحات اصحاب مثل هذا المزاج ! اما عن نفسي فلو انني كتبت الحكومة لامرت بأن يقصد هؤلاء القسيس مرة كل شهر ! نعم ! يا مدام لوفرنسوا ! .. كل شهر ! قصدة كبيرة ، لمصلحة الامن والاخلاق !
« اخرس ! يا سيد هومييه .. انك رجل كافر ، ليس لك دين !

« واجاب الصيدلي : انه لي ديننا - ديني - بل ولدي من الدين أكثر منهم » بمساخرهم وبهولواينياتهم ! وأنا على العكس اعبد الله ، وأؤمن بالكائن الاسمي ، بخالقه ايا كان ، فهذا لا اهمية له - بذلك الذي وضعنا فوق هذه الارض لكي نؤدي واجباتنا كمواطنين ، وكاباء أسر ، ولكنني لست في حاجة الى ان اذهب الى كنيسة لكي اقبل أطباقا من الفضة ، ولكي أسمن من جيبتي كومة من المهرجين الذين يتفدون خيرا منا ! وذلك لاننا نستطيع ان نجعله نفس التبجيل في غابة أو حقل ، بل ويتأمل قبة الأثر كما كان يفعل القدماء . انه المهني أنا هو اله سقراط وفرانكلين وفولتير ودي برانجيه ! انني من انصار « الاعتراف بالايمان لتأسيس المسافوا » والمبايديه الخالدة لتورة ٨٩ ! ولذلك فاني لا اسلم بهذا « الرجل الممثل للاله » وهو يتجول في أرضه ، وعصاه في يده ، ويسكن اصدقائه في بطن الحيتان ، ويموت وهو يصيح ، ويبعث بعد ثلاثة ايام ! فهذه في ذاتها أشياء سخيفة كما أنها تتعارض تمام التعارض مع كافة قوانين علم الطبيعة ، مما يظهر لنا عرضا كيف ان القسيس قد عاشوا دائما قابعين في جهل متحجر ، يحاولون ان يفرقوا فيه معهم كافة سكان الارض !

« وسكت ، باهنا بعينيه عن جمهور حوله ، وذلك لان الصيدلي عند فورته قد اعتقد لحظة انه في خضم المجلس البلدي ! ولكن ربه الفندق لم تعد تنصت اليه ! »
اي شيء في هذا ؟ حوار ... معركة كما كان يحدث كل مرة تسنح فيها الفرصة لكي يتحدث عن القسيس .

ولكن هناك ما هو خير من هذا في الفقرة الاخيرة ص ٢٧١ .
« ولكن الانتباه العام تحول بظهور السيد بورنسيان الذي كان يمر تحت السوق ومعه الزيت المقدسة .

« وقارن هومين كعادته القسيس ، بالقربان التي تجذبها رائحة الموتى . وكان يبفض شخصا منظر القسيس لان المسوح كان يحمله على أن يحلم بالكفن ، وكان الى حد ما يكره أحدها خوفا من الآخر » .

لقد سعد كثيرا صديقنا القديم الذي قدم المينا القربان بهذه الفقرة وقال لنا : « ان هذه حقيقة عاتية ، فهي حقا صورة لكاره القسيس الذي « يحمله المسوح على أن يحلم بالكفن ، والذي يكره أحدها خوفا من الآخر ! » انه كافر ، وانه يبفض المسوح ، وربما كان ذلك الى حد ما بسبب كرهه ، ولكنه يكره أكثر من ذلك لان يحمله يحلم بالكفن !

ولتسبحوا لي بأن الخصى كل هذا .

انني اذافع عن رجل لو انه لقي تقدا أدبيا بصورة كتابه ، أو لبعض التعبيرات ، أو لكثرة التفاصيل ، أو لنقطة أو لأخرى - لقبل هذا النقد الابي بأرحب صدر ، ولكنه عندما يرى نفسه منها بالإساءة الى الاخلاق والى الدين ، فان السيد فلوير لا يكاد يصدق هذا . وهو يحتج هنا أمامكم بكل الدهشة وكل القوة التي يستطيعها - ضد مثل هذا الاتهام .

انكم لستم ممن يدينون الكتب لبضعة أسطر . بل أنتم من أولئك الذين يحكمون قبل كل شيء على الفكرة والوسائل المستعملة . والذين سيطرحون على أنفسهم ذلك السؤال الذي ابتدأت

به مرافعتي ، والذي أتهيأ به : هل قراءة مثل هذا الكتاب توحي بحب الرذيلة ام توحي ببشاعة الرذيلة ؟ وهل هذا التكفير البشع عن الخطيئة لا يدفع ولا يستثير نحو الفضيلة ؟ ان قراءة هذا الكتاب لا يمكن أن تولد فيه اثرا غير الذي ولدته ، وهو ان هذا الكتاب ممتاز في مجموعته ، وان تفاصيله لا غبار عليها . وجميع الادب الكلاسيكي يبيع لنا صورا ومشاهد تغاير مسا سمحنا لانفسنا به . ولقد كنا نستطيع ان نأخذها كمآذج من هذه القاحية ، ولكننا لم نفعل ، بل الزمنا انفسنا باعتدال سيكون محل تقديركم . ولو جاز ان السيد فلوبيز ، قد جاوز الحد الذي التزمه ، بكلمة او باخرى ، لما كان لي ان اذكركم بان هذا هو اول مؤلف له فحسب ، بل كنت اقول لكم ايضا انه - بفرض انه قد اخطأ - فان خطاه لا خطر منه على الاخلاق العامة .

وان في تقديمه لمحكمة البوليس الجزائي - وهو الرجل الذي تعرفونه الان بعض المعرفة بفضل كتابه ، والذي أخذتم تحبونه بعض الحب ، والذي اؤكد انكم ستحبونه اكثر من ذلك عندما تزدادون به معرفة - اقول ان تقديمه للمحاكمة فيه ما يكفي ، ولقد عوقب بذلك اقصى العقاب . والآن لكم ان تحكموا . ولقد حكمتم على الكتاب في جمالته وتفصيله ، ولم يعد من الممكن ان تتسردوا .

الحكم

لقد خصصت المحكمة جزءا من جلسات الايام الثمانية الاخيرة ، لتظر الدعوى المقامة ضد السيد ليون لوران بيشا واوجيست الكسيس بيليه : الاول كمدبر ، والثاني كطابع للصحيفة الدورية « مجلة باريس » ، والسيد جوستاف فلوير الاديب ، وثلاثتهم متهمون :

اولا : لوران بيشيه باقته في ١٨٥٦ بنشره في عددي ١ ، ١٥ ديسمبر من مجلة باريس جزءا من رواية عنوانها « مدام بوفاري » ، وبخاصة فقرات مختلفة من صفحات ٧٢ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ قد ارتكب جرائم الاساءة الى الاخلاق العامة والدينية والمواضعات الحميدة .

ثانيا : بيليه وفلوير لانهما : بيليه : بطبعه من اجل النشر ، وفلوير بكتابته وتسليمه الى لوران بيشيه لكي تنشر فقرات من رواية عنوانها مدام بوفاري السالفة الذكر ، وساعد وعاون مع علمه بما يفعل لوران بيشيه في الاعمال التي مهدت وسهلت وانجزت الجرائم السالفة الذكر ، وبذلك أصبح شريكا في هذه الجرائم المعاقب عليها بالمواد ١ ، ٨ من قانون ١٧ مايو سنة ١٨١٩ ، والمواد ٥٩ ، و ٦٠ من قانون العقوبات .

وقد ايد الاتهام السيد بينار وكيل النائب العام .

وبعد ان سمعت المحكمة الدفاع المقدم من السيد بينار عن السيد فلوير ، ومن السيد ديماريه عن السيد بيشيه ، والسيد فاموريه عن الطابع قد اجلت الى هذه الجلسة (؟ فبراير) موعد النطق بالحكم الذي صدر على النحو الآتي :

« بما ان لوران بيشيه ، وجوستاف فلوير ، وبيليه متهمون بارتكاب جرائم الاساءة الى الاخلاق العامة والدينية والمواضعات الحميدة : الاول كمؤلف بنشره في الصحيفة الدورية المسماة « مجلة باريس » التي يعمل كمدبر لها ، وفي اعداد ١ ، ١٥ اكتوبر و ١ ، ١٥ نوفمبر و ١ ، ١٥ ديسمبر سنة ١٨٥٦ رواية بعنوان مدام بوفاري . وجوستاف فلوير وبيليه كمشركين : الاول بتقديم المخطوط ، والثاني بطبعه الرواية المذكورة .

« وبما ان الفقرات المقصودة بنوع خاص من الرواية المذكورة التي تحتوي على ما يقرب من ٣٠٠ صفحة ، هي الفقرات الواردة كما جاء في قرار الاحالة الى المحكمة الجزائية في الصفحات

٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ (من عدد أول ديسمبر) و ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ (من عدد ١٥ ديسمبر سنة ١٨٥٦) :

« وبما ان الفقرات موضع الاتهام ، اذا ما ووجهت مجردة ومنفصلة تعتبر بالفعل ، سواء اكانت عبارات ، أم صورا ، أم لوحات – منافية للذوق السليم ، ومن طبيعتها ان نسيء الى اعتبارات حساسة مشروعة وواجبة الاحترام ،

« وبما ان نفس الملاحظات يمكن ان تطبق بحق على فقرات اخرى لم تحدد في قرار الاتهام ، ويمكن عند النظرة الاولى ان تلوح بمثلة لتطريات لا تعتبر اقل منافاة للمواضعات الحميدة ، والتظم التي تعتبر اساسا للحياة الاجتماعية ، كما تنافي الاحترام الواجب لاكثر الطقوس الدينية جلالا ، « ولما كان الكتاب المحال على الحكمة يستحق – لعدة اعتبارات – لوما قاسيا ، لان مهمة الادب يجب ان تكون تزيين النفس ، والترويج عنها لرفع الذكاء ، وتطهير الاخلاق ، اكثر من اثاره الاستمزاز من الرذيلة في تقديم لوحات للفوضى التي يمكن ان توجد في المجتمع ،

« ولما كان المهومون – وبخاصة جوستاف فلوير – يدفعون في قوة الاتهام الموجه اليهم ، بقوله ان الرواية المروضة للمحاكمة لها هدف اخلاقي بارز ، وان المؤلف قد وضع نصب عينه قبل كل شيء ان يعرض الاخطار التي تنجم عن تربية لا تتلام مع الوسط المقدر للانسان ان يعيش فيه ، وانه مجارة لهذه الفكرة قد اظهر المرأة التي هي الشخصية الاساسية في رواية منطلعة الى عالم ومجتمع لم تخلق لهما ، وشقية بالمركز المتواضع الذي وضعهما فيه القضاء ، مهمة اولا واجباتها كالم ، ثم مهمة واجباتها كزوجة ، مخلة في بيتها تباعا والزنا والغراب ، ومنقبة بالانتحار نهاية تمسة ، بعد ان مرت بكافة درجات الانحطاط الكامل ، منحدره الى حد السرعة .

« وبما ان هذا المهدي الاخلاقي الموجود بلا ريب من حيث المبدأ ، كان من الواجب ان يكمل في التفاصيل بنوع من القسوة في التعبير ، ويحتفظ بمسبر ، فيما يتعلق خاصة بمرض اللوحات والاضاع التي اقتضت خطة المؤلف ان يعرضها امام أعين الجمهور ،

وبما انه من غير الجائز – بدعوى تصوير الشخصيات أو اللون المحلي – ان يسجل الكاتب المحرف من الموانع والاقوال ، وحركات الشخصيات التي جعل من هه تصويرها ، ومثل هذا المذهب اذا طبق على الانتاج الفكري ، كما لو طبق على انتاج الفنون الجميلة ، خليق بان يؤدي الى واقعية تنتكر للجمال والخير – وتنتج مؤلفات نسيء الى النظر ، كما نسيء الى الروح ، وترتكب اساءات مستمرة الى الاخلاق العامة والمواضعات الحميدة ،

« وبما ان هناك حدودا لا ينبغي للادب مهما كان خفيفا ان يتخطاها ، والسيد فلوير وزملائه في الاتهام لا يلوح انهم قد راعوا هذه الحدود الرعاية الكافية ،

« ولكن بما ان الكتاب الذي افه فلوير كتاب يلوح انه قد عمل فيه بجد ، ولزمن طويل من الناحية الادبية ، ومن ناحية دراسة الشخصيات ، حتى ان الفقرات التي انتقاهما قرار الاحالة مهما تكن مبيبة – الا انها قليلة المدد اذا قورنت بطول الكتاب ، وهذه الفقرات – سواء من ناحية الانكار التي تعرضها ، أو الاوضاع التي تصورهما ، تدخل في مجموع الشخصيات التي اراد المؤلف تصويرها ، مع الجبالفة ومع صيفها بواقعية مبتذلة منفرة في كثير من الاحيان .

« ولما كان جوستاف فلوير يعلن احترامه للمواضعات الحميدة وبكل ما يتصل بالاخلاق العامة ، وكان لا يلوح ان كتابه قد كتب كيمض الكتب الاخرى ، لهدف واحد هو اشباع الشهوات الحسية وروح الاباحية والمريدة او تسفيه الاشياء التي يجب ان تحاط باحترام الجميع .

« وكان خطاه هو فقط اغفاله احيانا للقواعد التي لا يجوز ان يتخطاها قط اي كاتب يحترم نفسه ، وانه نسي ان الابد كالفن ، لكي يحقق الخير الذي ينتظر منه ، لا يكفي ان يكون فقط عفيفا طاهرا في صورته وفي عبارته .
« وفي هذه الظروف بما انه لم يثبت الثبوت الكافي ان يبشبه وجوستاف فلوير وبيليه قد ارتكبوا الجرائم المنسوبة اليهم .
« فان المحكمة تبرئهم من الاتهام وتسرحهم بدون مصاريف » . .

مدام بوفاري، من أروع الروايات التي عرفها الأدب العالمي في القرن الماضي، إن لم تكن أروعها على الإطلاق!... وقد كرس بها غوستاف فلوبير، أكبر روائي فرنسي مع بلزاك في القرن التاسع عشر، انتصار المذهب الواقعي على المذهب الرومانتيكي؛ ومن هنا تأثيرها العميق في مجرى الرواية العالمية المعاصرة.

و عند صدور مدام بوفاري، أقامت النيابة العامة الفرنسية الدعوى على فلوبير بتهمة اللاأخلاقية. ولكن محامي الكاتب ألقى مرافعة رائعة دافع فيها عن الرواية دفاعا بليغا لم تجد المحكمة معه إلا أن تبرئ الرواية وتعتبرها عملا فنيا ممتازا.

وهذه هي الترجمة الدقيقة الوافية للرواية، وقد قام بها الأديب الدكتور محمد مندور، ويلها نصّ الدعوى المقامة على المؤلف ودفاع المحامي وقرار المحكمة، وكلها يثير التشويق والمتعة.

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨-٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت